

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١.

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

BTJ System AB

800 18 90 3087 86



BTJ

الأعمال

دار
ابن
رشد

INTERNATIONELLA BIBLIOTEKET

Hsg

DOSTOJEVSKIJ
al-Amal al-adabiyah
al-kamilah
10



الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد العاشر



المكتبة العربية الشرقية

أورينتاليا

Surbrunnsgatan 13
114 21 Stockholm
Tel. 08-612 04 35

دوستوفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر

بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو

ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٢٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

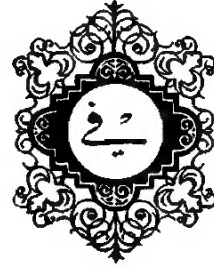
اللَّهُ
أ

جميع الحقوق محفوظة

الأبله (Idiote) ، كتبت هذه
الرواية بين سنتي ١٨٦٧ ، ١٨٦٩ ونشرت
مسلسلة في مجلة « الرسول الروسى »

الجزء الأول

الفصل الأول



صباح من أصبح نهاية شهر تشرين الثاني
(نوفمبر) ، في نحو الساعة التاسعة ، أثناء ذوبان
الجليد ، كان قطار وارسو* يقترب من بطرسبرج
مسرعا . ان الرطوبة والضباب يبلغان من الكثافة
أن أشعة الشمس لا تكاد تنفذ الى الأرض ؛ فيصعب على راكب القطار ،
إذا هو نظر من النافذة يمنة أو يسرة ، أن يميّز أى شئ على مسافة
عشر خطوات .

ان بعض الركاب عائدون من الخارج ؛ غير أن حجرات الدرجة
الثالثة ، وهى أحفل الحجرات بالركاب ، كانت ممتلئة بأناس من متوسطى
الحال ، يسافرون لقضاء أعمال ، وليسوا قادمين من بعيد .

وكان الجميع مكدودين متعبين مرهقين طبعاً ، قد أثقل الناس
أجفانهم ، واصطبغت وجوههم بصفرة كصفرة الضباب .

ان فى احدى حجرات الدرجة الثالثة راكبين قد جلس أحدهما
أمام الآخر قرب النافذة منذ الصباح . كلاهما شاب ؛ وكلاهما يلفت وجهه
الانتباه ؛ وكلاهما لا يكاد يكون معه متاع ؛ وكلاهما يرتدى ثياباً ليس
فيها كبير تأنق . ان من يراهما يحس أنهما يرغبان فى التحادث . ولو
قد أمكنهما أن يعرفا ما فى كل منهما من غرابة وتفرد ، لأدهشتهما هذه

المصادفة التي جمعتهما هذا الجمع العجيب في حجرة من الدرجة الثالثة بقطار « وارسو - بطرسبرج » •

ان أحدهما ، وهو شاب قصير القامة ، أجعد الشعر ، أسودّه تقريباً ، يجب أن يكون في نحو السابعة والعشرين من العمر • عيناه شهابوان ، صغيرتان ، لكنهما تفيضان اشتعالاً واتقاداً ؛ وأنفه عريض أفطس ، ووجنتاه بارزتان ؛ وعلى شفاه الرقيقتين ترتسم دائماً ابتسامة غريبة ، ابتسامة ساخرة ، وقحة ، تشبه أن تكون مبغضة حاقدة • غير أن جيناً عالياً مستوياً يلطّف من الشعور بالنفور الذي يحسه المرء حين يرى أسفل وجهه ، القليل الكريه • والثى الذي يخطف البصر فيه خاصةً إذا هو شحوبه الذي يشبه شحوب جنة ، وهو شحوب يضاف على هذا الرجل هيئة الارهاق والاعياء مع أنه يبدو متين البنية ، ويضفي عليه كذلك معنى المكابدة التي تبلغ حد العذاب ، رغم ابتسامته المتفطّرة الفظة ، ونظراته العدوانية المتكبرة •

كان الرجل متدنّراً بمعطف واسع أسود ، مبطن بجلد خروف ، فهو يشعر بدفء كامل ، وهو لم يحسّ ببرد الليل •

ولا كذلك صاحبه الذي يجلس أمامه ، فلا بد أن هذا قد ارتعش من شدة البرد وشدة الرطوبة في تلك الليلة من ليالى شهر نوفمبر الروسى ، وهما برد ورطوبة كان واضحاً أنه لم يتهيأ لهما • انه متلفف برداء سميك لا أكمام له ، يعلوه غطاء للرأس ، كالذى يلبسه المسافرون شتاءً في بلاد غير روسيا ، في سويسرا أو في شمال إيطاليا مثلاً • ولكن هذا الرداء لا يصلح حتماً لسفرة طويلة طول هذه المسافة بين آيدكونن * وبترسبرج • انه يصلح جداً لإيطاليا ، ولكنه لا يلائم المناخ الروسى • هذا الرجل الثانى الذى يرتدى هذا الرداء هو أيضاً شاب في نحو السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين من العمر • قامته أطول قليلاً

من متوسط قامات الرجال ؛ خداه خاسفتان ؛ شعره كثيف أشقر ؛ له لحية صغيرة مدببة تكاد تكون بيضاء اللون ؛ عيناه واسعتان زرقاوان لهما نظرة ثابتة . ان في هذه النظرة شيئا من رقة وعذوبة ، ولكن فيها ثقلا وتعبرا غريباً ، فاذا رآها خير أدرك أن صاحبها رجل مريض بداء الصرع . ووجه الفتى بعد هذا مجبب الى القلب لطيف رقيق دقيق ، ولكنه شاحب اللون ، بل انه في هذه اللحظة قد ازرق من شدة البرد .

انه يحمل بيده اليمنى صرة هزيلة للملابس ، ملفوفة بمنديل عتيق حائل اللون ، وكان هذا كل متاعه فيما يبدو . وكان لخدائه نعلان سميكان ، وكانت تغطي أعلى ظاهر الخدابين لبادتان ؛ وذلك كله ليس مما يستعمل في روسيا كثيراً .

وقد لاحظ جاره ، الشاب الأسمر ذو المعطف ، جميع هذه التفاصيل ، سرية عن نفسه . ثم اقتحم الصمت أخيراً فبدأ يحدثه مبتسماً تلك الابتسامة الوقحة نفسها التي تعبر في أكثر الأحيان عما يشعر به امرؤ غليظ القلب من تكبر فظ أمام مصائب الآخرين . قال له وهو يهز منكبيه :

- برد ، هه ؟

فأجاب الجار بطوية سليمة ونية صادقة (ليلاحظ القارئ أن الجليد كان ينوب) :

- برد جداً ، فكيف يكون البرد أثناء الجليد ؟ لم أكن أتخيل أن البرد يبلغ هذا المبلغ من الشدة في بلادنا . لقد فقدت عادة احتمال مثل هذا البرد !

- لا شك أنك آت من الخارج ، أليس كذلك ؟

- نعم ، من سويسرا !

صاح القتي الأسمر وهى يطلق صفرة ويضحك ضحكة كبيرة :

- ها .. مسافة !

ودار الحديث . فكان الشاب الأشقر الذى يرتدى الرداء السويسرى يعجب بنية طيبة وطوية سليمة عن جميع الأسئلة التى يلقها عليه محدثه ، دون أن يلاحظ ما فى بعضها من تزييد وتندر بل ومن وقاحة . فروى فيما رواه أنه قضى فى الخارج أكثر من أربع سنين ، فقد أُرسل الى هناك ليعالج من مرض عصبى غريب ، هو نوع من الصرع ، أو من داء « رقص سان جى » ، مع ارتعاشات وتشنجات . وقد أثارت قصته تبسّم جاره مراراً ، حتى لقد أخذ جاره يضحك مقهقهة حين سأله : « وهل شفوك ؟ » فأجاب : « لا ، لم يشفونى ! » .

وأضاف الأسمر يقول مستهزئاً منهكماً :

- ايه ما أكثر المال الذى لا بد أنك أنفقته هنالك سدى فى غير طائل ! وما أجهلنا هنا اذ نوليهم تلك الثقة كلها !

فهتف رجل كان جالساً قريبهما :

- هذه هى الحقيقة عينها !

ان الرجل يبدو فى نحو الأربعين من عمره ، ويرتدى ملابس رديئة ، ويدل مظهره على أنه موظف . انه قوى الجسم متين البنية ، له أنف أحمر يتوسط وجهاً ذا بثور .

كرر الرجل يقول :

- هذه هى الحقيقة بعينها . وهم يجتذبون الى بلادهم جميع أموالنا الروسية !

قاطعه القتي المريض بصوت رقيق عذب فيه روح الملاينة والمصالحة :

— لا ، أنت مخطيء ، فيما يتعلق بى أنا على الأقل • لست أستطيع
أن أنافس ، لأننى لا أعرف كل ما يجرى • ولكننى أقول ، فيما يتصل
بى ، ان طييبى قد دفع نفقات سفرى من آخر ما يملك من قروش ، بعد
أن ظل يمالجنى بالمجان ستين •

قال الأسمر :

— عجيب ! ألم يكن هناك اذن من يستطيع أن يدفع عنك نفقات
علاجك ؟

— لم يكن هناك أحد ! ان السيد بافتشيف الذى كان يهتم بامرى
قد مات منذ ستين • فكتب ' عندئذ الى الجنرالة ايباتشين ، وهى سيدة تمت
الى بقرى بعيدة ، ولكنى لم أتلق أى جواب • فهأنذا أرجع أخيراً !

— والى أين تنوى أن تذهب ؟

— تعنى أين أريد أن أنزل ؟ • والله • لا أدرى بعد ! •••

— لم تقرر بعد ؟

وانفجر المستمعان كلاهما يقهقهان • وسأل الأسمر :

— وهذه الصرة الصغيرة تضم كل ما تملكه حتماً ، أليس كذلك ؟

فقال الموظف الأحمر الأنف مزاولاً ، راضياً عن نفسه كل الرضى ،
مزهواً بها كل الزهو :

— أراهن على أن الأمر كذلك ! وعلى أنك ليس لك شيء آخر بين
الأمته والحقائب • على كل حال : ليس الفقر عيباً !

وصدق هذا القول أيضاً ، فان الشاب الأشقر بادر يؤيده بسرعة
شديدة ولهفة كبيرة !

وتابع الموظف كلامه بعد أن ضحك الاثنان ما شاء لهما السكر أن
يضحكا (الغريب فى الأمر أن صاحب الصرّة قد ضحك أيضاً وهو ينظر
اليهما ، فزاد ذلك ضحكهما قوة) :

- ان لصرتك مع ذلك دلالة • صحيح أن المرء يستطيع أن يراهن
على أنها لا تضم لفئات دنائير ذهبية ، دنائير نابوليون أو فردريك أو حتى
دنائير هولندية ، رغم أن المرء يكفيه أن يرى لبادتى حذاءيك المصنوعتين
فى الخارج حتى يدور فى خلدك ذلك ••• ولكن اذا أضفنا الى متاعك
القليل هذا احتمال أن يكون لك قريبة مثل الجنرالة ايباتشين ، فان
صرتك يصبح لها عندئذ شأن كبير وقيمة عظيمة ، هذا اذا صحّ أن
الجنراله ايباتشين قريبك حقاً ، وأنت لا تخطئ فى هذا الأمر ، ولو من
قيل السهو والذهول ••• وذلك يحدث فى كثير من الأحيان ••• بسبب
سعة الخيال مثلاً! •••

هف الفتى الأشقر يقول :

- هنا أيضاً أنت على صواب ! اتنى مخطئ • تقريباً • فالجنراله
لا تكاد تمت الى بقربى ، حتى اتنى لم أدهش البتة حين لم تمت الى
بجواب • لقد كنت أتوقع ذلك •

- بددت مالا لارسال رسالتك ، هم ! ••• على الأقل لا يستطيع
المرء أن يأخذ عليك أنك قليل السذاجة والبراعة والصدق • هذه صفات
محمودة ! هم ! ••• أما الجنرال ايباتشين فنحن نعرفه ، لأنه فى الواقع
رجل يعرفه الناس كافة • أما المرحوم السيد بافلستيف ، الذى كان يعولك
فى سويسرا ، فقد عرفناه أيضاً ، هذا اذا كان هو نيقولا آندريقتش
بافلستيف حقاً ، لأن الرجلين قريبان يحملان اسماً واحداً • فأما أحدهما
فما يزال يعيش فى القرم ، وأما المرحوم نيقولا آندريقتش ، المتوفى ، فقد

كان رجلاً محترماً له علاقات رفيعة وصلات عالية ، وكان يملك في زمانه أربعة آلاف نفس ... نعم ...

أجاب الشاب وهو يتفرس في السيد الذي يبدو عليه أنه يعرف كل شيء ، أجاب وهو يتفرس فيه بنظرة طويلة متفحصة :
- هو ذاك ! كان اسمه نيقولا أندريفتش حقاً .

ان هؤلاء السادة « العالمين بكل شيء » يصادفون في بعض الأحيان بل قل في كثير من الأحيان بين صفوف طبقة اجتماعية معينة . انهم يعرفون كل شيء ، لأن فضولهم اليقظ وملكاتهم العقلية تلتقي جميعاً في اتجاه واحد ، لخلق بهم طبعاً من اهتمامات حيوية ومشاغل جدية أخطر شأنًا ، كما قد يقول مفكر معاصر . على أننا حين نقول « انهم يعرفون كل شيء » يجب أن نفهم من ذلك أن ميدان علمهم محدود ، وان ساحة معرفتهم ضيقة . فان علمهم يكاد يقتصر على أمور كالتالية : أين يعمل الموظف الكبير فلان ، وما هي علاقاته ، وما مقدار ثروته ، وما هي المقاطعة التي كان حاكماً فيها ، ومن هي المرأة التي تزوجها ، وكم كان المهر الذي ناله من زوجته ، ومن هو ابن عمه ، ومن هو قريبه من الدرجة الثالثة ، النخ الخ ، وهم يعرفون ذلك كله معرفة مناسبة . وهؤلاء السادة « العالمون بكل شيء » هم في أكثر الأحيان أناس صمالك يسبرون بأكمام مثقوبة أكواعها ، ولا تتجاوز رواتبهم سبعة عشر روبلاً في الشهر ، والناس الذين يعرف هؤلاء كل شيء عنهم لا يستطيعون حتى أن يتخللوا الدوافع التي تحضهم على التماس هذه المعارف وجمع هذه المعلومات . ولكن كثيراً من هؤلاء « العالمين بكل شيء » تفريهم معارفهم هذه اغراءً كبيراً ، وهم يستمدون من هذه المعارف التي تساوى في نظرهم علماً حقيقياً ، يستمدون منها احتراماً لأنفسهم ، ويستمدون منها متناً روحية عظيمة ، وارتياحاً فكرياً كبيراً . ثم ان لهذه المعرفة جوانبها المفزية الجذابة . لقد عرفت

علماء وأدباء وشعراء وسياسيين وصلوا بفضل هذه المعرفة الى أهداف عالية وبلغوا غايات رفيعة ، ووجدوا بواسطتها سكينه الروح وطمانينه النفس ، حتى انهم مدينون لها بما نالوا من مراكز فى مجال عملهم .

لم ينقطع الأسمر عن التآؤب طوال مدة هذا الحوار . وكانت نظرتة لا تبرح تطوف بالأفق من خلال النافذة ، وكان واضحاً أنه يستمجل الوصول . كان يبدو ذاهلاً ، ذاهلاً ذهولاً غريباً ، يكاد يكون قلقاً مهموماً مغموماً ، حتى أصبح سلوكه من ذلك غريباً شاذاً ، فهو تارة يصغى ولا يسمع ، وتارة ينظر ولا يرى ، ثم ينفجر ضاحكاً حتى دون أن يعرف لماذا هو يضحك .

وفجأة قال السيد ذو البثور يسأل الشاب الأشقر حامل الصرة :
- بالنسبة . . هل يمكننى أن أعرف من هو السيد الذى أتشرف بمخاطبته الآن ؟ . . .

فأجاب الشاب الأشقر فوراً ، بسلامة نية :

- أنا الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين .

قال الموظف مفكراً حالماً :

- الأمير ميشكين ، ليون نيقولايفتش ميشكين ؟ لا أعرفه . . لم اسمع به يوماً . لا أقصد اننى لم اسمع بهذا الاسم ، فهو اسم تاريخى* ، وفى وسع المرء بل لا بد له أن يجده فى كتاب التاريخ الذى ألفه كارامازين* . لا ، وانما أنا أقصد شخصك . وانى لأعتقد من جهة أخرى أن المرء لا يصادف اليوم فى أى مكان أحداً من أسرة الأمراء ميشكين ، حتى ان ذكراهم قد انطفأت .

فغضب الأمير يقول بسرعة :



الامر مسكين

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كودسكوفا

- طبعاً ، طبعاً ! لا يوجد الآن أى أمير بهذا الأسم ، الا أنا . لا بد
أنتى آخر رجل فى السلالة . أما اسلافنا فكانوا من صغار مالكي الأطنان
الذين يزورون أرضهم بأنفسهم . والحق ان ابى قد خدم فى الجيش برتبة
ملازم ثان بعد أن تخرج من المدرسة الحربية . ومن المصادفات ان الجنرالة
ايبانتشين منحدره هى أيضاً من سلالة الأمراء ميشكين ، لا أدرى كيف !
فهى الأخيرة من نوعها أيضاً .

صاح الموظف يقول مقهقها :

- هىء هىء هىء ! الأخيرة من نوعها ! هىء هىء هىء ! ان لك
طريقة بارعة فى اللعب بالألفاظ .

وابتسم الأسمر هو أيضاً . أما الأشقر فقد بدا عليه شيء من الدهشة
لأنه أفلح فى أن يلعب بالألفاظ هذا اللعب ، على رداوته .

وقال شارحاً :

- تصور أنتى قلت ما قلت حتى دون تفكير فيه !

فأجابه الموظف مرححاً :

- طبعاً طبعاً ، لا حظنا ذلك !

وسأله الأسمر فجأة :

- قل لى يا أمير : لا شك أنك طلبت العلم هناك عند استاذك ، أليس
كذلك ؟

- نعم

- أما أنا فلم أطلب العلم يوماً

فأضاف الأمير قائلاً كأنما يعتذر :



روجوين

مريضة الفتاة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

- على كل حال ، أنا لم أحصل من العلم الا شذرات أو فتاتاً ! فقد كانوا يعدوني غير مؤهل لمابعة دراسة منتظمة ، بسبب حالتي الصحية !
سأله الأسمر بقتة :

- هل تعرف آل روجوين ؟

- لا ، لا أعرفهم • على كل حال ، أنا لا أعرف الا قلة من الناس في روسيا • هل أنت روجوين ؟

- نعم ، أنا روجوين ، بارفيون روجوين •

تدخل الموظف يسأل مهتماً اهتماماً كبيراً :

- بارفيون ؟ انتظر ... أأست واحداً من آل روجوين الذين ...
فقاطعه الأسمر مفاجئاً :

- نعم ، أنا واحد منهم ، واحد منهم هم أنفسهم •

انه لم يكلمه حتى ذلك الحين ، وانسا كان يقتصر على مخاطبة

الأمير •

أجاب الموظف مذهولاً محملاً :

- ولكن ... هل هذا ممكن ؟

وسرعان ما اكتسى وجهه تعبيراً يفيض بالاحترام بل وبالقلق والخوف ، وتابع كلامه يقول :

- أأست قريب سيمون بارفيونوفتش روجوين ذلك البورجوازي الفخري الوراثي * الذي توفي مخلفاً ثروة قدرها مليونان ونصف مليون ؟

أجابه روجوين مستخفاً ، حتى دون أن يتسائل فيشرقه بالقضاء نظرة عليه :

- من أين تعرف أنه خلف ثروة قدرها مليونان ونصف مليون ؟
ثم تابع كلامه وهو يغمز الأمير :

- عجب أمر هؤلاء الناس ! انى لأسائل ما هذا الذى يصيبهم فاذا هم يسرعون يحومون حولك ؟ لقد مات أبى منذ مدة قصيرة حقاً . وأنا واصل من بسكوف متأخراً شهراً . انظر كيف أعود الى المنزل فقيراً معدماً أكاد أكون حافى القدمين . ان أخى ، ذلك الوغد الفاجر ، وكذلك أمى ، لم يرسلانى مالا ، ولا أبلغانى النبأ ! لكأننى فى اعتبارها كلب من الكلاب ! لقد بقيت طريح الفراش فى بسكوف شهراً أعانى من الحمى الحارة !

صاح الموظف رافعاً يديه الى السماء :

- والآن ستقبض مليوناً أو أكثر ، دفعة واحدة ! يا رب السماء !
قال روجوين وهو يحرك يده بحركة تتم على المصيبة والغضب :
- ولكن ما شأنه هو وهذا ؟ هلاً قلت لى ، أرجوك ! أنت تعلم أتنى لن أعطيك قرشاً واحداً ولو مشيت أمامى على يديك !
- سأفعل ذلك ، سأمنى على يدى ، ما رأيك ؟
- انظر الى هذا الرجل ! قلت لك اتنى لن أعطيك شيئاً ، لن أعطيك شيئاً البتة ، ولو لبثت ترقص أمامى أسبوعاً بكامله !

- لك ما تشاء ! لا تعطينى شيئاً ، فأنا لا أستحق أن تعطينى شيئاً .
لكن هذا لا يمنعنى من أن أرقص لك . سأترك زوجتى ، وأولادى الصغار ، لأجىء أرقص أمامك ، فى سبيل ملاطفة ، فى سبيل ملاطفة ...

قال الأسمر وهو يصبق اشمتراراً :

- شيطان يأخذك !

ثم أضاف يقول مخاطباً الأمير :

- منذ خمسة أسابيع ، كنت مثلك . تركت أبى وأنا لا أكاد أحمل

الا صرّة صغيرة • وهربت عند عمة لى بمدينة بسكوف • وهناك مرضت ،
ومات هو أثناء ذلك ! غلبته المنية ! رحمة الله على تراهه ! ولكن يجب أن
أقول لك انه أوشك أن يقتلنى ! صدقنى يا أمير ، أحلف لك • فلولا اتنى
هربت لقتلنى حتماً !

قال الأمير فى لطف وهو يتفحص بكثير من الفضول هذا المليونير
الذى يرتدى ذلك المعطف الفقير :
... لا بد أنك أغضبت ، أليس كذلك ؟

رغم أن هذا الميراث وهذا المليون جديران بالاهتمام ، فان شيئاً آخر
هو الذى أثار دهشة الأمير واهتمامه • وكان روجوين ، من جهته ، يبدو
متلذذاً أكبر التلذذ بمحادثة الأمير • ومع ذلك يشعر المرء أنه كان يتكلم
ارضاء لحاجة آلية أكثر مما كان يتكلم تلبيةً لضرورة داخلية • كان يتكلم
تسرية عن نفسه لا تعاطفاً مع غيره ؛ كان يدفعه الى الكلام نوع من القلق ،
نوع من الغم ؛ كان يتكلم لينظر الى شخص ، وليحرك لسانه • لكنّه
ما يزال تحت سيطرة الحمى ، بل والهذيان • أما الموظف فكان معلقاً
بشفتى روجوين ، أسيراً لهما ، لا يجرؤ أن يحوّل عنهما انتباهه لحظة
واحدة • كان يتلقف ويزن كل كلمة من كلماته كأنها من الماس •

أجاب روجوين عن سؤال الأمير فقال :

... أما أنه غضب فقد غضب • والحق أنه لم يكن على خطأ • ولكن
المذنب الأكبر فى الأمر كله انما هو أخى • ولست أقول شيئاً عن أمى ،
فهى امرأة عجوز ، عاكفة على قراءة حياة القديسين ، غارقة فيها • وهى
تقضى النهار كله فى صحبة نساء عجائز ، وأخى سيمون هو المسيطر على
المنزل ، المتحكم فيه ، المستبد به • لماذا لم يبلغونى النبأ ، هه ؟ الأمر
مفهوم ! صحيح أتنى كنت عندئذ فاقداً وعيى • وهم يزعمون أيضاً أنهم

أرسلوا الى برقبة • ولكن البرقية وصلت الى عمتى • وعمتى التى ترملت منذ ثلاثين عاماً تقضى وقتها كله ، من الصباح الى المساء ، فى صحبة نساء معتوهات • ليست عمتى امرأة مترهبة ، ليست امرأة ممن يسمين مترهبات ، بل هى شر من ذلك • فحين رأت البرقية أصابها زعر ، فحملتها الى الشرطة دون أن تفضها ، فلبثت البرقية عند الشرطة الى هذا الحين • كوني فاسيلي فاسيلفتش وحده ساعدنى ، فكتب الى كل شىء • أما أخى فانه لم يجد ما هو خير من قضاء الليل فى أن يقص شراريب الذهب من غطاء البروكار الذى يغطى تابوت أبى ، بحجة أن لهذه الشراريب « قيمة كبيرة » • هل تعلم أن فى وسمى أن أرسله الى سيرييا اذا شئت ، لأن هذا العمل خرق للمقدسات !

قال الشاب الأسمر ذلك ثم التفت نحو الموظف ، فأضاف :

- نعم ، هذا فى عرف القانون خرق للمقدسات حقاً ، يا فزاعة المصافير فى الحقول !

فأسرع الموظف يصيح قائلاً :

- هو خرق للمقدسات طبعاً ، خرق للمقدسات طبعاً !

- وهو يستحق النفى الى سيرييا ، هه ؟ *

- الى سيرييا ، الى سيرييا ، الى سيرييا رأساً !

قال روجوين يخاطب الأمير :

- هم جميعاً يظنون أنتى ما زلت مريضاً ، ولكنى ، دون أن أقول كلمة لأحد ، ودون أطلع على شىء أحداً ، ركبت القطار رغم أنتى ما زلت عليلًا ، وجئت افاجئهم ! سيكون عليك أن تفتح الأبواب يا أخى العزيز سيمون سيمونوفتش ! أنا أعلم جيداً أنه كان ينير أبى المرحوم على ، ويحقنه ضدنى ! يجب أن أعترف الآن بأننى قد أغضبت أبى فعلاً بحكاية

ناستاسيا فيليوفنا تلك ، هذا صحيح • فى ذلك أنا وحدى مخطيء • لقد
أغوانى الشيطان الرجيم !

ردّد الموظف قول صاحبه محاولاً أن يستجمع ذكرياته :

- حكاية ناستاسيا فيليوفنا ؟

فصرخ روجوين فى وجهه غاضباً :

- لا تعرفها حتماً !

فأجاب الموظف وقد لاح فى وجهه معنى الانتصار :

- بل ربما كنت أعرفها !

- دعك من هذا الكلام ! فى العالم نساء كثيرات باسم ناستاسيا

فيليوفا ! أما أنت فانك وغد وفح وقاحة فظيعة ، هذه هى الحقيقة
أقولها لك •

ثم أضاف يخاطب الأمير :

- آ ••• كنت أعرف ذلك سلفاً ، كنت أعرف سلفاً أننى لن

أستطيع التملص من أفراد من هذا النوع !

أسرع الموظف يكرر قوله :

- جاتز جداً أننى أعرفها • ان ليديف يعرف أشياء كثيرة • أنت

يا صاحب السمو تتنازل فتوجه الى اللوم ، فما عساك فاعلاً اذا أنا استطعت

أن أبرهن لك على أن ما أقوله هو الحقيقة ؟ اسمع اذن : ان ناستاسيا

فيليوفا هذه التى أراد أبوك ، فى شأنها ، أن يتمّ له اقناعك بالعصا ،

انما تسمى باراشكوف • ويمكن أن يقال عنها انها سيده ذات مزايىا ،

وانها فى نوعها ، هى أيضاً ، أميرة • ذلك أولاً • أما ثانياً فان لها

علاقة برجل اسمه توتسكى ، آتانا زى ايفانوفتش توتسكى ، وليس لها



ليديف
برشة الفنانة السوفياتية الكستورا كورسكوفا

علاقة بأحد غيره . وهو رجل من كبار الملاكين ، وهو رأسمالي ضخم يدير عدة شركات ؛ وتربطه بالجنرال ايباتشين صداقة قوية ...

ذهل روجويين فصاح يقول مبهوتاً :

- عجيب ! يبدو عليك أنك عالم بكل شيء حقاً ! شيطان يأخذك !
انه يعرفها ، انه يعرف كل شيء !

- كل شيء ! لبيديف يعرف كل شيء ! يجب أن أقول لك يا صاحب السمو اننى فى الآونة الأخيرة قد ظلت شهرين كاملين أطوف فى كل مكان مع ليخاتشوف ، الفتي ألكسي ليخاتشوف . هو أيضاً كان قد فقد أباه . واذ اننى أعرف جميع الأركان والزوايا ، فقد أصبح لا يستطيع أن يخطو خطوة دون أن يصحبه لبيديف . انه الآن فى السجن بسبب ديون تراكتت عليه . ولكنه أثناء طوافنا ذاك قد أتبع له أن يعرف آرمانس ، وأن يعرف كورالى * ، وأن يعرف الأميرة باتزكى ، وناستاسيا فيليوفا ، وكثيرا غيرهن .

سأله روجويين وهو ينظر اليه نظرة شريرة ، وقد اصفرت شفتاه وأخذتا ترتجفان :

- ناستاسيا فيليوفا ؟ ما شأنها وليخاتشوف ؟

أسرع لبيديف يجيب :

- لا شيء ! لا شيء البتة ! لا شيء إطلاقاً ! لم يستطع ليخاتشوف أن يحظى منها بشيء فى يوم من الأيام ، رغم أمواله كلها . لا ، انها ليست مثل آرمانس . هى لا علاقة لها الا بصاحبها توتسكى . وقد تترى مساءً فى شرفتها بالمرح ، « المسرح الكبير » أو « المسرح الفرنسى » . ومهما يثرثر الضباط عنها ، فانهم عاجزون عن أن يبرهنوا على أى شيء . هم يقولون : « ها هى ذى ! انظر اليها ، ناستاسيا فيليوفا الشهيرة تلك ! » ،



ناستاسيا فيليوفا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ولكن ذلك هو كل ما يستطيعون أن يقولوه ، ولا كلمة عداه ، اذ ليس نعمة شيء !

قال روجوين مؤيداً ، وقد اربد وجهه وانقبضت أساريره :

- هذه هي الحقيقة . وقد روى لي زالويجيف هذا الشيء نفسه في ذلك الأوان . في ذات يوم من تلك الأيام ، كنت أقطع شارع نفسكي راكضاً ؛ وكنت أرتدى معطفاً قديماً لأبى ، أرتديه منذ ثلاث سنين ، فاذا أنا أراها تخرج من أحد المخازن فتركب عربتها . شمعت بنار تشب في جسمي فتحرق أحشائي حرقاً . وصادفت عندئذ زالويجيف . ان زالويجيف ليس مثلي . كان يتنزه في الشارع متأثراً تأثق صبي حلاق ، واضعاً على إحدى عينيه نظارة . أما نحن في منزل أينا فانتا نتعلم أخذية مرقمة ، ونأكل حساء كرنب . قال لي زالويجيف : « ليست هذه المرأة لأمثالك . انها أميرة * . اسمها فيليوفا باراخشوفا . تعيش مع توتسكى . لا يعرف هذا المسكين توتسكى كيف يتخلص منها . لقد تقدم في السن . بلغ الخامسة والخمسين . يريد أن يتزوج أجمل امرأة بيطرسبرج ! » . ثم أخذ زالويجيف يغرس في ذهني أنني أستطيع أن أرى ناستاسيا فيليوفا مرة أخرى ، ذلك المساء نفسه ، في شرفتها من « المسرح الكبير » الذي يعرض الليلة مسرحية باليه . هه ! حاول في بيت أينا أن تذهب الى الباليه : لو خطر ببالك شيء من هذا لكانت عقوبتك عقوبة واحدة هي القتل ! مع ذلك استطعت أن أهرب ساعة . فرأيت ناستاسيا فيليوفا مرة أخرى ، ثم بت لي ليلتي مسهداً لا يعرف النوم الى جفني سيلاً . وفي صباح الغد أعطاني المرحوم أبى سندين مائتين قيمة كل منهما خمسة آلاف روبل قائلاً لي : « امض بعهما » ثم اذهب بعد ذلك الى مكتب آندرييف لسداد حساب مقداره سبعة آلاف وخمسمائة روبل . أما الباقي فأعده الى دون أن تسكع في الطريق . سألني في الدار أنتظرك » . بعث السندين ،

وقبضت المال ، ولكنني لم أذهب الى آندرييف ، وانما أسرعت أمضي
قدُما الى « المخزن الانجليزى » ، فاخترت قرطين للأذنين تزينهما ماستان
يبلغ حجم كل منهما حجم بندقة • انفقت فى ثمنهما عشرة آلاف روبل ،
حتى لقد احتجت الى اربعمائة روبل أخرى ، ولكن حين ذكرت اسمي
أولانى التاجر ثقتي • وحملت القرطين ، وذهبت الى زالويجيف فقلت
له : « والآن فلنذهب الى ناستاسيا فيلبوفنا يا صاحبي ! » • وصرنا فى
الطريق • أصبحت لا أشعر بالأرض تحت قدميَّ ، وكنت لا أرى شيئا
مما يعبرى أمامي ولا حولي ! ودخلنا الى الصالون رأساً ! هاهي ذى تصل!
لكنني لم أجرؤ فى تلك اللحظة أن أفدّم نفسي • ان زالويجيف هو الذى
أعلن لها قائلاً : « هذه هدية من بارفيون روجوين ، ذكرى للقاء الأسس ،
أرجو أن تتلطفنى فقبلها » • فتحت ناستاسيا العلبة ، وأنعمت النظر فى
القرطين ، ثم قالت مبتسمة : « أشكر عنى لصديقك السيد روجوين لفته
اللطيفة ! » • ثم حيننا وخرجت • ليتنى مت فى مكانى ذلك اليوم ! والحق
أننى ذهبت الى هناك مقدراً أننى لن أرجع حياً • وانما أغاظنى خاصة
أن ذلك الحيوان زالويجيف قد نسب الفضل لنفسه فى الأمر كله • كنت
أنا بقامتى الضئيلة وملابسى التى تشبه ملابس الخدم واقفاً هناك محملاً
العينين مدمر النفس خجلاً • أما هو فكان يرتدى ملابس على أحدث
زى ، وكان متطيباً بالطر ، مجمداً شعره ، وكان زاهى اللون مشرق
الوجه ، وقد عقد على عنقه ربطة ذات مربعات ، وكان لا ينفك يهز عطفه
رقة ، ويحنى ظهره احتراماً • لا شك أنها اعتقدت أنه هو صاحب الهدية
وقد قلت له غاضباً حين خرجنا : « أنصحك بأن لا تفكر فيها ، مفهوم ؟ »
فقال : « وددت لو أعرف كيف ستسد حساب سيمون بارفيوتش ! » •
والحق أننى كنت فى تلك اللحظة احترق رغبةً فى اللقاء نفسى بالماء بدلاً
من العودة الى الدار • ثم قلت لنفسى : « لا ، ليس للأمر أية خطورة فى
الواقع ! » • ورجعت الى الدار كالدخل الى النار •

دمدم ليبيديف يقول وهو يلوى يديه خوفاً ويرتعش من مجرد تصور الأمر :

- الله الله ... كان ينبغي للمرحوم ان يرسل رجلاً من الرجال الى العالم الآخر بسبب عشرة روبلات ... فما بالك بعشرة آلاف روبل ؟
قال ليبيديف جملته الأخيرة هذه متجهاً بالكلام الى الأمير .
وكان الأمير يتفرس مستطلعاً في روجويين الذى بدا في تلك اللحظة شاحباً شحوباً أشد .
قال روجويين :

- العالم الآخر ؟ ماذا تعلم أنت عن هذا ؟

والفت نحو الأمير يستأنف سرد قصته عليه فقال :

- لم يلبث أبى أن عرف كل شيء طبعاً . لقد أخذ زاليوجيف يروى القصة لكل من يريد أن يسمعها . أصعدنى أبى الى غرفة ، وحبس نفسه معى فيها ، وأخذ يؤدبنى خلال ساعة كاملة . وكان يقول : « ما هذا الا لقمة أولى لتذوق الطعم ، ولكنى سأعود فى هذا المساء ، لأهيم لك ليلة سعيدة ونوماً مناسباً ! » . هل تعلم ماذا فعل بعد ذلك ؟ ذهب الى ناستاسيا فيلبوفنا بنفسه ، هو الشيخ الشائب ، فانحنى لها محياً حتى بلغ باحضائه الأرض ، وأخذ يضرع اليها ويبكى . فاذا هى ترمى العلبه فى وجهه آخر الأمر قائلة له : « اليك القرطين فخذهما يا لحيه عتيقة ! لقد أصبحا آمنين فى نظرى عشر مرات بعد أن عرفت أن بارفيون حصل عليهما بمجازفة خطيرة كهذه المجازفة ! أبلغ بارفيون تحيتى وشكرى ! » .

« واقرضت بعد ذلك عشرين روبلاً من سرجى بروتوشين ، وركبت القطار متجهاً الى بسكوف بموافقة أمى ومباركتها . فما وصلت الى بسكوف حتى كنت ارتعد من الحمى . وأسرعت العجائز تعالجنى

وتداوينى بتلاوة صفحات من حياة القديسين • فكنت مصموقاً مبهوتاً • ثم خرجت أطوف بالكاباريهات ، وأنفق فيها آخر ما بقى لى من قروش • وقضيت الليلة كلها فى الشارع ، منهاراً أكاد أموت من فرط السكر • حتى اذا طلع الصباح كنت أهدى • ومما زاد الطين بلة أن الكلاب قد جاءتني أثناء الليل تغضني وتنهشني فى كل موضع من جسمي • ولم استرد صحوى الا فى كثير من العناء •

قال ليديف وهو يضحك ساخراً ، ويفرك يديه احداهما بالأخرى :

- هى، هىء ! بعد اليوم سنسمعها تقنى ، ناستاسيا فيليوفا هذه • ليست المسألة الآن مسألة قرطين يهديان اليها ، فلسوف تُغمر بعد هذه الساعة بهدايا تبلغ من الكثرة أنها •••

فزار روجوين يقول وهو يمسك ليديف من ذراعه بوحشية :

- يميناً ••• لو قلت كلمة واحدة عن ناستاسيا فيليوفا ، فلارسلن اليك لكلمات كذلك اللكمات المتلاحقة التى ••• مهما تكن قد تجولت مع ليخاشوف ، فان ذلك لا يمنعنى من أن أسلخ جلدك ضرباً بالسياط •
- اذا جلدتنى بالسوط كان ذلك دليلاً على أن فى نيتك أن تحتفظ بى قريباً منك • فاجلدنى اذن ! انك اذ تجلدنى تدع على طابعك • هه !
ها نحن اولاً وصلنا !

كان القطار يدخل المحطة فعلاً • ورغم أن روجوين قد زعم أنه غادر بسكوف خفية دون أن يذكر ذلك لأحد ، فقد كان ينتظره فى المحطة عدد من الأشخاص أخذوا يصيحون وهم يلوحون له بطاقتهم •
دمدم روجوين يقول وهو ينظر اليهم متصراً ضاحكاً ضحكة خبيثة :

- هه ! هذا زالوجيف أيضاً !

والنفث نحو الأمير فجأة فقال له :

- اسمع يا أمير ، لقد شعرت نحوك بعاطفة ومودة ، لا أدري لماذا !
ربما كان مردك ذلك الى اننى التقيت بك فى لحظة كهذه اللحظة . ولكننى
فى هذه اللحظة أيضاً انسا التقيت بذلك الوغد (قال ذلك مشيراً الى
ليديف) فلم أحبيه . زرني يا أمير . سوف نخلصك من لبداتى حذاءيك
البشمتين هاتين . وسأعطيك معطفاً جميلاً جداً من فراء السمور .
وسأوصى لك برداء « فراك » أيضاً ، رداء « فراك » من الطراز الأول ،
وبصديرة لونها أبيض أو لونها هو اللون الذى تختاره ! سأملأ جيوبك
مالاً وسنمضى نرى ناستاسيا فيليوفنا أتزورني أم لا ؟

قال ليديف ملحاً بلهجة فخمة تحاول الإقناع :

- فكر جيداً يا أمير . لا تفوت هذه الفرصة ! لا تفوتها !

نهض الأمير ، ومدّ يده الى روجويين فى أدب ، وأجابه بلهجة
رفيقة لطيفة :

- سيسرني جداً أن أزورك . وانى لأشكر لك عاطفتك شكراً
لا نهاية له . قد أجيئك فى هذا اليوم نفسه اذا اتسع وقتى . يجب أن
اعترف لك صادقاً مخلصاً بأننى أعجبت بك أنا أيضاً أكبر الاعجاب ،
ولا سيما حين قصصت على حكاية دينك القرطين المزدانين بالماس . وحتى
قبل أن تحكى لى قصة القرطين شعرت نحوك باعجاب ، رغم تعجبهم
وجهك . أشكرك أيضاً على المعطف والثياب التى تنوى أن تهديها الى .
ذلك اننى سأكون فى حاجة كبيرة اليها قريباً ، ولست أملك لشراء مثلها
الآن قرشاً واحداً .

- سيكون معى مال ، سيكون معى مال منذ هذا المساء .

تعال زرنى !

ردّد الموظف يقول :

- سيكون معه مال ، سيكون معه مال ، سيكون معه مال منذ هذا

المساء ♦

- قل لى أولاً يا أمير • أأنت تحب الجنس اللطيف كثيراً ؟

- انا ؟ لا ! يجب أن أقول لك ••••• لعلك لا تعلم ••• ولكنى بسبب

مرضى الولادى لم أعرف النساء قط !

فهتف روجوين يقول :

- فاذا كان الأمر كذلك يا أمير ، فانت رجل كامل البراءة حقاً !

والله يحب أمثالك !

قال ليديف مؤيداً :

- نعم نعم ، الله يحبهم •

وقال روجوين آمراً :

- واتبعنى أنت يا حضرة الموظف !

خرج الثلاثة من حافلة القطار • لقد بلغ ليديف مأربه أخيراً •

ولم تلبث عصبة روجوين الصاخبة أن ابتعدت فى اتجاه شارع فوزنسكى

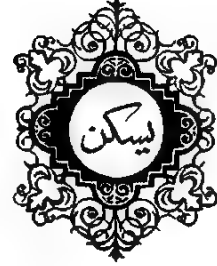
وكان على الأمير أن يدور الى جهة ليتاينا •

الجو يسوده الضباب وتملؤه الرطوبة • سأل الأمير المارة • فعرف

أن عليه أن يقطع ثلاثة فراسخ حتى يصل الى حيث يريد أن يصل •

فقرر أن يركب عربة •

الفصل الثاني



الجنرال ايبانتشين في منزل يبعد قليلاً عن ليتانيايا،
من جهة كنيسة « التجلى » . وهو يملك عدا هذا
المبنى الجميل المظهر الذى يؤجر خمسة أسداسه،
يملك منزلاً ضخماً للاستثمار فى شارع سادوفايا ؛
ويملك ، قرب بطرسبرج ، أرضاً شاسعة ذات غلال كثيرة ، كما يملك
مصنعاً يقع فى ضواحي بطرسبرج . انه رجل ذائع الصيت ، كان فى الماضى
يزاول أعمال تأجير الأراضى للمزارعين ، أما الآن فهو مساهم خطير
الشأن فى عدة شركات كبرى . فهو يُعدُّ رجلاً واسع الثراء ، يقوم
بمشروعات ضخمة وله علاقات رفيعة عالية . وقد استطاع فى بعض
الأوساط أن يكون انساناً لا غنى عنه على الاطلاق ، ومن بين هذه الاوساط
الوسط الحكومى الذى يعمل فيه . ومع ذلك كان من الأمور المعروفة
الثابتة ان ايفان فيدروفتش ايبانتشين لم يحصل أى تعليم ولم يجن أية
ثقافة ، وأن حياته العسكرية قد بدأت فى مدرسة من مدارس العرفاء .
ومما لا شك فيه أن هذا أمر يشرِّفه ، ولكن الجنرال ، رغم ذكائه ، كان
لا يخلو من بعض نقاط الضعف التى يمكن أن تغفر له على كل حال ؛
من ذلك أنه كان لا يطيق أن يُشار الى ماضيه . أما أنه ذكى وحاذق ،
فهذا أمر لا يسمعك الا تسلّم له به . فمن آيات ذلك مثلاً أنه قد اتخذ
لنفسه مبدأً يلتزمه ولا يحيد عنه ، وهو أن لا يضع نفسه فى المقدمة

يوماً ، وأن يَمَحَى متى وجب ذلك وكان كثير من الناس انما يقدرونه لهذه البساطة نفسها ، ولهذه اللباقة التي تجعله يعرف دائماً أين مكانه الصحيح فيقف فيه ، وأين حدوده فلا يتعداها . ومع ذلك ليت الناس الذين يرون فيه هذا الرأي الحسن ، ويحكمون عليه هذا الحكم الطيب ، ليتهم يعرفون ما كان يجرى أحياناً في نفس ايفان فيدوروفتش هذا الذي كان واضحاً أنه يحسن المحافظة على مكانه !... .

ان الجنرال ايبانتشين ، رغم خبرته الواسعة في الأعمال ، ورغم مواهبه الممتازة ، كان يؤثر أن يظهر خادماً متحمساً لآراء غيره على أن يفرض آراءه هو . « خادم أمين ، نعم ، ولكن لا متملق دنيء » * . وكان الى ذلك - وهذه علامة من علامات العصر - يرى أن من شرف الانسان أن يكون رجلاً ثابت الجنان ، أن يكون روسياً حقيقياً . فمن هذه الناحية ، اتفق أن حدثت له مغامرات أليمة مؤسفة ، ولكن الجنرال ليس من الرجال الذين تخور عزائمهم ويدب اليهم اليأس حتى ازاء أصعب الظروف الشائكة . وبالإضافة الى هذا ، كان موفقاً في المقامرة بمبالغ ضخمة . على أنه كان لا يحاول أن يتستر على هذا العيب الطفيف أو هذه الخطيئة اليسيرة التي يدين لها في كثير من الأحيان بأرباح طائلة . بالعكس : كان يعلنها ويذيعها .

انه ينتمي الى بيئة خليطة طبعاً ، ولكنها بيئة غنية وذات نفوذ على كل حال . وكان هو ينتظر من المستقبل كل شيء : ان في عمره لتسعاً ، ولا بد أن يجيء كل شيء في يوم من الأيام . ان الجنرال ايبانتشين ما يزال - كما يقال - في سنٍ هي سن القوة . ان عمره ستة وخمسون عاماً ، وهو العمر الذي يتفتح فيه الرجل تفتحاً كاملاً ، العمر الذي يبدأ فيه الرجل « حياته الحقة » فعلاً ! صحته الحسنة ، لونه النضر ، أسنانه القوية رغم سوادها ، جسمه المتين الشديد ، وجهه الذي يعبر في الصباح عن الاهتمام

بالعمل ، ويعبّر في المساء عن المرح أثناء اللعب بالورق أو في منزل صاحب السمو * ، ذلك كله كان يساهم في تحقيق نجاحه حاضراً ومستقبلاً ، ويشير على طريق صاحب السعادة الوردود .

وكانت أسرته زهراً متفتحةً . صحيح أنها لا تضم الا وروداً ، ولكن من حق الجنرال أن تكون له آمال غراض . هل هناك ، في حقيقة الأمر ، من هدف أخطر شأنًا وأقدس قداسةً من مستقبل الأسرة ؟ بم يمكن أن يتعلق المرء ان لم يتعلق بالأسرة ؟ . كانت أسرة الجنرال تتألف من زوجته وبنات ثلاث كبيرات . لقد تزوج الجنرال وهو في شرح الشباب ، حين لم يكن الا ملازماً أول ، تزوج فتاة تكاد تكون في مثل سنه . لم تكن الفتاة متألفة لا بجمالها ولا بثقافتها . وهى عدا ذلك لم يتجاوز مهرها الذى حملته اليه خمسين نفساً ؛ ولكن هذا كان بداية ثرائه والحق يقال . ان الجنرال لم يستكر في يوم من الأيام أنه تزوج قبل الأوان ، لا ولا نسب هذا الزواج يوماً الى حماسة الصبا واندفاع الشباب . وكان يحترم زوجته ويهابها ، حتى لقد وصل من ذلك الى حبها .

كانت الجنرالة ، زوجة الجنرال ، من سلاله الأمراء آل ميشكين ، وهم أسرة عريقة جداً ، وان لم تكن متألفة كثيراً . وكانت الجنرالة تزهو بهذا المحدث النيل زهواً كبيراً ، وتستمد منه احتراماً لنفسها عظيمًا . ان شخصية من شخصيات ذلك الأوان التى كان لها نفوذ ، شخصية من تلك الشخصيات التى تحب أن تكون لها صفة الحماية (وهى حماية لا تكلف صاحبها أية نفقة على كل حال) ، قد أراد أن يهتم بزواج الأميرة الشابة ، ففتح أمام الملازم الأول الشاب أبواب الارتقاء ودفعه اليها . ولم يكن ايباتشين فى حاجة الى أن يُدفع دفعاً ، بل كانت تكفيه نظرة تسجيع ، ولا تريب عنه أو تفلت منه . وعاش الزوجان سنى زواجهما الطويل فى وفاق تام ، باستثناء مصادفات طارئة قليلة . لقد استطاعت الجنرالة ، بفضل

منبتها الذى يصلها بسلالة أمراء ، ولأنها آخر من يحمل اسم هذه السلالة ، وربما بسبب مزاياها الشخصية أيضاً ، استطاعت منذ طفولتها أن تجد لنفسها حاميات لهن مراكز عليا ومنازل سامية . وبعد ذلك ، وبفضل رتبته الرفيعة ، أصبحت لا تشعر فى المجتمع الراقى بأى حرج ، وأخذت تحس فيه بارتياح كامل وانطلاق تام .

وفى هذه السنين الأخيرة تفتحت وازدهرت بناتهما الثلاث : الكسندرا ، وآديلايد ، وأجلايا ، ورغم أنهن يحملن اسم ايباتشين فحسب ، فقد دخلن الحياة بأرصدة عظيمة ، هى : محند أمهن التى تنتمى الى سلالة أمراء ، مهرٌ ضخّم محترم ، نجاح أبيهما فى المجتمع نجاحاً يبيح له أن يطمح فى المستقبل الى أعلى المناصب . ومن الأمور التى لا تفسد عليهن شيئاً ، أنهن كن على جانب من الجمال ، حتى كبراهن التى بلغت من عمرها خمسة وعشرين عاماً . وكان عمر الوسطى ثلاثة وعشرين ؛ أما الصغرى فقد أتمت العشرين منذ قليل . والصغرى هذه يمكن أن يقال عنها انها بارعة الحسن فتاة الجمال حقاً ، حتى لقد أخذ المجتمع يتحدث عنها كثيراً ، فيمتدح جمالها ويشيد بحسنها . بيد أن هذا لم يكن كل شيء . فان بنات الجنرال الثلاث كنَّ يتألقن كذلك بثقافتهن ، وذكاتهن ، ومواهبهن . وكان من المعروف عنهن أيضاً أنهن متحابات كثيراً ، وأنهن يشاندن تشانداً كثيراً . حتى لقد تحدث الناس فى هذا الصدد عن تضحيات ارتضت الكبريان أن تقدماهما لأختهما الصغرى ، معبودة الأسرة كلها . ولقد كن فى المجتمع يتحاشين أن يضعن أنفسهن فى المقدمة ، حتى لقد كن مسرفات قليلاً فى التواضع . فما من أحد يستطيع أن يأخذ عليهن شيئاً من عجب أو عجرفة ؛ ولكن كان معروفاً مع ذلك أن لهن كبرياءهن وأنهن يعرفن قدرهن ويشعرن بقيمتهن . كانت الكبرى موسيقية ، وكانت آديلايد تملك موهبة عظيمة فى فن

الرسم ، وهى موهبة ظلت مجهولةً سنين طويلة ، الى أن اكتشفت فى الآونة الأخيرة بمصادفة بحثة . الخلاصة أن الناس كانت تكيل لهن المديح وتغمرهن بالثناء . على أن هناك ألسنة سوء طبعاً ، فمن ذلك خاصة أن بعض الناس كانوا يتحدثون مرتاعين عن قائمة الكتب التى قرأها .

لم تكن الفتيات تستعجل أمر زواجهن . كن حريصات على بيتهن الاجتماعية حرصاً كافياً ، ولكن بغير غلو أو مبالغة ، فكان فى هذا تعارض واضح مع ما يتصف به أبوهن من طبع خاص ومطامح كبيرة وآمال عريضة .

كانت الساعة قريبة من الحادية عشرة حين رنَّ الأمير ميشكين جرس باب الجنرال . ان شقة الجنرال تقع فى الطابق الأول ، وهى على توضعها تلبي مطالب منزلته ورتبته .

فتح له الباب خادمٌ يرتدى ثياباً مزركشة من ثياب الخدم ، واضطر الأمير الى أن يقدم شروحات طويلة لهذا الرجل الذى تفحصه فى أول الأمر مرتاباً ، ونظر اليه والى صرته شزراً . وأخيراً ، بعد أن أكدَّ له الأمير تأكيداً قاطعاً أنه هو الأمير ميشكين فعلاً ، وانه فى حاجة مطلقة الى أن يرى الجنرال لشأن مستعجل ، أدخله الخادم مبهوراً الى حجرة مدخل صغيرة تلاصق قاعة الانتظار ، وتتصل بمكتب الجنرال . وهناك عهد به الى خادم آخر يتولى الخدمة فى حجرة المدخل هذه كل صباح ، ويبلغ الجنرال وصول الزوار . ان هذا الرجل الذى تجاوز الأربعين من عمره ، والذى يرتدى رداءً رسمياً ، يعبر وجهه دائماً عن كثرة الهمَّ وشدة الانشغال . ولقد كان مكلفاً بخدمة مكتب صاحب السعادة خاصةً ، فهو لذلك قوى الشعور بخطورة شأنه وعلو منزلته .

قال يخاطب الأمير بوقار ورصانة :

- انتظر فى الصالون . أما صرَّتْكِ هذه فاتركها هنا .

ثم جلس على مقعد من المقاعد بكثير من التعالي ، وهو يلتقي على الأمير نظرة قاسية مدهوشة •

جلس الأمير على كرسى ، وبيده صرته ، وقال :
- اذا سمحت ، فأنا أفضل أن انتظر هنا فى صحبتك على أن أبقي وحدى هناك !

- ليس لائقاً أن تبقى فى حجرة المدخل لأنك زائر • أأنت ترغب فى التحدث الى الجنرال نفسه ؟
كان واضحاً أن الخادم لا يكاد يستطيع أن يسلم بأن عليه أن يبلغ الجنرال عن وصول زائر كهذا الزائر ، فقرر أن يعاود سؤاله •
بدأ الأمير يتكلم فقال :

- نعم ، أرغب فى التحدث الى الجنرال نفسه لشأن من الشؤون ••
فقال الخادم يقاطعه :

- لا أسألك أن تذكر لى الشأن الذى تريد أن تحدث الجنرال فيه •
فان وظيفتى تقتصر على ادخالك اليه • ولكنى أعود فأقول لك اتنى فى غيبة السكرتير لا أستطيع أن أبلغ الجنرال عنك •

كان ارتياح هذا الرجل يزداد دقيقة بعد دقيقة فيما يبدو • ان مظهر الأمير يختلف اختلافاً كبيراً عن مظهر الزوار المألوفين • صحيح أن الجنرال كان يستقبل فى كثير من الأحيان ، ان لم يكن فى كل يوم ، فى ساعة معينة ، ولا سيما من أجل « أعمال » ، أفراداً من كل نوع • ومع ذلك ظل الخادم حائراً • كان يبدو له أن وساطة السكرتير لا بد منها لادخال الأمير على الجنرال •

وسأله أخيراً على نحو آلى تقريباً :

- اذن ... أنت قادم حقاً ... من الخارج ؟

ثم أخذ يغمغم ، فلعلة كان يريد أن يقول : « أنت أمير من أسرة
ميشكين فعلاً ؟ » •

أجاب الأمير :

- نعم ، تركت القطار منذ قليل • ولكن يخيّل اليّ أنك أردت أن
تسألني هل أنا حقاً أمير من أسرة ميشكين ، ثم لم تلق علىّ هذا السؤال
أدباً ولطفاً •

همهم الخادم مدهوشاً :

- همّ ...

قال الأمير :

- أؤكد لك أنني لم أكذب عليك • لن تتعرض لأي تأنيب • أما
ملايسى وصرّتي فليس في أمرها ما يبعث على الدهشة : ليست أمتعتي
الآن بالأمتعة الراقية !

- همّ ... ليس هذا ما أخشاه • أنا مضطر أن أبلغ عنك الأمير •
سيجيء السكرتير حتماً ليراك ... اللهم الا أن ... ان المزعج في الأمر
انما هو ... اللهم الا أن ... أأست تريد مقابلة الجنرال لطلب معونة
والتماس مساعدة ؟ هل تسمح لي بأن ألقى عليك هذا السؤال ؟

- لا ، لا ، اطمئن كل الاطمئنان ... ثق كل الثقة ... فانما أنا
أت الأمر آخر تماماً •

- معذرة ، لقد سألت هذا السؤال بعد أن رأيت نيابك • انتظر
السكرتير • ان الجنرال مشغول الآن مع الكولونيل • وبعد ذلك سيجي •
سكرتير احدي الشركات •

- ما دمت سأنتظر مدة طويلة ، فانتى أتمنى أن أرجوك أن تسمح
لى بالتدخين فى مكان ما • معى غليونى ومعى تبغ •

ألقى عليه الخادم نظرة دهشة واحتقار ، كأنه لا يصدق أذنيه :
- تدخن ؟ تدخن ؟ لا ، لا تستطيع أن تدخن هنا ؛ بل ان عليك
أن تخجل من خطور هذا ببالك • هم ••• يا له من كلام !

- عفوك ! أنا لم يخطر ببالى أن ادخن فى هذه الحجرة • انتى أعرف
آداب السلوك وعادات المجتمع • وانما أردت أن أذهب الى مكان تدلنى
عليه فأستطيع أن أدخن فيه • انتى متعود على التدخين ، ولم أدخن منذ
ثلاث ساعات • على كل حال ، لك ما تشاء • ولا شك أنك تعرف المثل
القاتل : • فى دير أجنبي * ••• » •

جمجم الخادم رغم اراداته قائلاً :

- ولكن كيف تريدنى على أن أبلغ الجنرال وصول زائر مثلك ؟
أولاً ليس مكانك هنا ، وانما ينبغى أن تكون فى الصالون • أنت هنا
بمثابة زائر ، أى بمثابة ضيف • لسوف ينالنى تأييب • ولكن أتراك تريد
أن تنزل وتسكن معنا ؟

أضاف الخادم تلك الجملة الأخيرة وهو يلقى ، من جديد ، نظرة
مؤاربة على الصرّة التى كان واضحاً أنها تقلقه •

قال الأمير :

- لا أظن ذلك • حتى لو دُعيت ، فلن أبقى هنا • أنا انما جئت
للتعارف ، ولا شىء غير ذلك •

صاح الخادم يقول مذهولاً وقد ازدادت علائم الارتياب فى وجهه :

- كيف ؟ للتعارف ؟ فلماذا قلت لى اذن انك جئت لشأن من الشئون،
لعمل من الأعمال ؟

- ليس مجيئى لعمل تماماً • أقصد •• ان مجيئى لعمل ان شئت ؛
أو قل اننى جئت أسأل نصيحة • لقد جئت لأقدم نفسى خاصة ، لأننى
واحد من الأمراء ميشكين ، والجنرالة ايبانتشين هى أيضاً آخر أميرات
ميشكين ، ولم يبق أحد غيرنا من سلالة الأمراء هذه •

صاح الخادم يقول مرتاعاً أشد الارتياح :

- معنى هذا أنك قريب من الأفرقاء فوق ذلك ؟

- قريب ؟ قرابة بعيدة جداً • أقصد : يمكن أن نعد قريبين اذا نحن
أردنا ذلك ، ولكن قرابتنا تبلغ من البعد أن من الصعب أن نعدّ قريبين •
لقد كتبت الى الجنرالة فى ذات يوم ، من الخارج ، لكنها لم تبعت الى
بجواب • ومع ذلك رأيت أن من الضرورى أن اتصل بها عند عودتى
الى البلاد • اذا كنت أشرح لك هذا كله ، فلكى انتزع من نفسك
شكوكها ، لأننى ألاحظ أنك ما تزال قلقاً • ليس عليك الا أن تعلم
الجنرال أن الأمير ميشكين يستأذن فى الدخول ، حتى تصبح غاية مجيئى
واضحة على الفور • فان استقبلت كان هذا خيراً وبركة ، وان لم أستقبل
فقد يكون هذا خيراً وبركة أيضاً • لكننى أحس أنهم لا بد أن
يستقبلونى • فان الجنرالة ستريد حتماً أن ترى الرجل الوحيد الذى بقى
من أسرة الأمراء التى تنتمى هى اليها • فهى تحرص كثيراً على نسبها ،
كما سمعت ذلك عنها •

كان حديث الأمير يصطبغ ببساطة مطلقة ومع ذلك كان الخادم يزداد
حيرة واضطراباً على قدر ازدياد البساطة فى حديث الأمير ، فهو بحكم
تجربته لا يستطيع الا أن يدرك أن هذه اللهجة التى تصلح لحديث يدور

بين انسان وانسان ، لا تناسب حديثاً بدور بين زائر وخادم • ولما كان « الناس » أذكى كثيراً مما يتصور سادتهم ، فقد انتهى صاحبنا الخادم الى تصور حلين ممكنين : فاما أن هذا الأمير ليس الا متشرداً أفافاً يلتمس مساعدة ، واما أنه رجل ضعيف العقل بسيط الفكر خال من العجب بنفسه • ذلك أن أميراً له عقل راجح وكبرياء شديدة لا يمكن أن يمكت منتظراً في غرفة المدخل ، متحدثاً عن شؤنه مع خادم • وخلص الخادم الى هذه النتيجة ، وهي أنه سيكون مسئولاً في الحالتين كليهما •

قال للأمير ملحاً بأكبر شدة ممكنة :

– يليق بك مع ذلك أن تنتقل الى الصالون •

فأجاب الأمير ضاحكاً :

– ها قد رأيت بنفسك أنني لو انتظرت هنالك لما استطعت أن أشرح لك تلك الأمور كلها ، ولظلمت قلماً من ردائي وصرّتي • أما الآن فقد لا يكون من الضروري أن تنتظر السكرتير • أظن أنك تستطيع بنفسك الآن أن تبلغ عني •

– لا أستطيع أن أبلغ عن زائر مثلك • يجب أن يتم ذلك بواسطة السكرتير ؛ لا سيما وأن الجنرال قد أوصاني منذ قليل بألا أزعجه لأي سبب من الأسباب وبأنى عذر من الأعذار ما ظل الكولونيل هنا • ان جبريل آرداليوتش * وحده يحق له أن يدخل دون أن يستأذن له •

– أهو موظف ؟

– من ؟ جبريل آرداليوتش ؟ لا ، هو مستخدم في الشركة •

اسمع : ضع صرّتك هنا على الأقل •

– خطر ببالي هذا • يسرني أن أضع الصرّة هنا ، ما دمت تأذن لي بذلك • على كل حال ، أحب كثيراً أن أنضو عني هذا الرداء أيضاً •

ما رأيك ؟

- طبعاً • لا تستطيع أن تدخل على الجنرال بهذا الرداء على كل حال !

نهض الأمير ، فخلع رداءه بسرعة ، فبدأ لابساً سترة لائقة المظهر حسنة التفصيل ، وان تكن مهترئة بعض الاهتراء ؛ ولاحت تحت السترة ، على الصديرة ، سلسلة من معدن قد علقت بها ساعة فضية من جيف •
شعر الخادم ، رغم أنه صنف الأمير رجلاً ضعيف العقل ، شعر بأنه ليس من اللائق أن يمضي في الحديث مع الأمير الى أبعد مما مضى اليه حتى الآن • ومع ذلك نال الأمير شيئاً من رضاه ، لا يدري هو نفسه لماذا ! ولكن الأمير قد أثار فيه مع ذلك شعوراً واضحاً بالاستياء •
سأله الأمير وهو يعود يجلس في مكانه :

- والجنرالة متى تستقبل ؟

- ذلك ليس من شأنى أنا • والأمر مرهون بنوع الزائر • فهى مثلاً تستقبل صانعة قبعاتها فى الحادية عشرة • كما أن جبريل آرداليوتش يحق له ، هو أيضاً ، أن يدخل عليها قبل غيره ، ولو فى ساعة الافطار •
قال الأمير :

- البيوت أدفاً فى الشتاء هنا من البيوت فى البلاد الأخرى • والخلاء فى البلاد الأجنبية أقل برداً من الخلاء هنا • ولكن ما من روسى يستطيع أن يعيش فى بيوتهم ، من شدة البرد فيها •
- أهم لا يدفعون اذن ؟

- بلى ! يدفعون ! ولكن المنازل هناك مبنية بطريقة أخرى ، أقصد التوافذ والمدافئ •

- هِمّ ... وهل غبت هناك مدة طويلة ؟

- أربع سنين • أقصد : مكثت طول الوقت تقريباً في مكان واحد،
في الريف •

- لا شك أنك فقدت عادة الحياة في بلادنا ، هه ؟

- صحيح • هل تصدّق ؟ انى لأشعر بدهشة أحياناً من أننى لم أنس
اللغة الروسية نسياناً تاماً • اننى أكلّمك الآن فأقول لنفسى : « ان لغتى
لم تسوّ كثيراً » • ولعل هذا هو السبب فى اننى ثرثار الى هذا الحد •
هذه هى الحقيقة : اننى منذ الأمس اشتغى طول الوقت أن أتكلّم
الروسية !

- هِمّ ... قل لى : هل كنت تسكن فى بطرسبرج من قبل ؟

كان الحادّم رغم شدة حرصه على أن يسيطر على نفسه وأن يمسك
عن الكلام ، لا يستطيع أن يقطع حديثاً يبلغ هذا المبلغ من اللطف والكياسة
والنوق •

أجاب الأمير :

- بطرسبرج ؟ لا ... لم أكد أقيم بها ... وانما كنت أمر بها
مروراً • ثم اننى حتى فى ذلك الأوان لم أكن أعرف شيئاً هنا • فما بالك
الآن وقد ازدادت الأمور الجديدة ازدياداً يجعل حتى العارفين مضطرين
أن يتعلموا كل شيء من جديد • من ذلك مثلاً المحاكم الجديدة التى يكثر
الحديث عنها فى هذه الأيام • *

- هِمّ ... محاكم ... نعم ، هناك محاكم ، لا شك فى هذا •
ولكن قل لى : هل المحاكم هناك ، فى البلاد الأجنبية ، أعدل من المحاكم هنا ؟
- لا أدري • سمعت كثيراً من الثناء على القضاء عندنا • من ذلك
أن عقوبة الاعدام قد ألغيت • *

— وهناك ، هل يُعدمون ؟

— نعم ، رأيت اعداماً في فرنسا ، بمدينة ليون * . شنيدر هو الذى قاذبني الى هناك .

— يشنقون ؟

— لا ... في فرنسا يقطعون الرأس .

— وهل يصرخ المدموم عندئذ ؟

— يصرخون ؟ هه ... ان قطع رموسهم يتم فى لحظة . يُضجع المحكوم عليه ، فيهوى على رأسه نصل آلة يسمونها مقصلة ، نصل ثقيل قوى ، يفصل الرأس عن الجسم فوراً . ولكن الشيء الأليم الفظيع انما هو الاعدادات : قراءة قرار الحكم بالاعدام ، لباس المحكوم عليه ، ايقافه بالجبال ، اصعاده على الصقالة . تلك هى البرهة الرهيبة ! والجمهور يحتشد ، وحتى النساء تتوافد ، رغم أنهم لا يريدون للنساء هناك أن ترى هذا المشهد .

— فعلاً ، ليس هذا مكانهن .

— طبعاً ، طبعاً ! كيف يشهدن تعذيباً كهذا التعذيب ؟ ... لقد كان المحكوم عليه ، فى ذلك اليوم ، رجلاً يبدو عليه أنه لا يهاب ولا يخاف ، رجلاً ذكياً ، قوى الجسم ، ليس شاباً صغيراً بل هو ناضج السن ، اسمه نيجروس . ومع ذلك ، أؤكد لك ، صدقتى ان شئت ، أؤكد لك أنه حين اعتلى الصقالة كان يبكى ، وكان أبيض اللون كورقة . أهذا ممكن ؟ أليس هذا فظيماً ؟ هل يمكن حقاً أن يبكى المرء من شدة الخوف ؟ لا ، لم أكن أصدق أن أحداً يمكن أن يبكى هذا البكاء خوفاً ... لست أتكلم هنا عن طفل ، بل عن رجل لم يسبق له أن بكى يوماً ، عن رجل فى الخامسة والأربعين من عمره ! ما الذى يحدث للنفس فى تلك الدقيقة ؟ ما هذه

التشنجات التي تصير اليها ؟ هذه اهانة للنفس واساءة الى الروح .
ولقد قيل مع ذلك : « لا تقتل » ، فما بالهم يقتلون رجلاً لأنه قتل ؟ لا ،
هذا شيء لا يمكن أن يقبله الانسان ! لقد شهدت ذلك المنظر منذ أكثر
من شهر ، وما زال يتراعى لي حتى الآن ، كأنه أمام عيني ، حتى لقد
وافاني في أحلامي خمس مرات على الأقل .

تحسّس الأمير وهو يتكلم ، وتلون وجهه الشاحب بعض التلون .
الا أن لهجة صوته ظلت هادئة . وكان الخادم يصغى اليه باهتمام ومجبة
ومودة ، حتى لكأنه لا يستطيع أن يحول انتباهه عن القصة . لعله كان
هو أيضاً انساناً من اصحاب الخيال .

قال الخادم :

— من حسن الحظ ، على الأقل ، أن الانسان لا يتألم مدة طويلة
حين يُقطع رأسه .

فاستأنف الأمير كلامه يقول بحرارة :

— هذه الملاحظة التي ذكرتها أنت الآن تخطر ببال كل انسان .
ولتحقيق هذه الغاية انما اخترعوا تلك الآلة ، أعنى المصلحة . أما أنا فقد
خطرت ببال في ذلك اليوم فكرة أخرى اذ تساءلت : « ترى ألا يمكن
أن يكون هذا أسوأ ؟ » . قد تبدو لك فكرتي هذه باعثة على الضحك ، بل
قد تبدو لك غريبة عجيبة ، ومع ذلك فان فكرة كهذه يمكن أن تخطر
ببال أى انسان اذا هو أعمل خياله قليلاً . فكّر في الأمر : لتنظر في
التعذيب مثلاً . ان الآلام والجروح والوجع الجسمي ، ان هذا كله يذهل
النفس عن عذابها وينسيها ما قد تكابده من هول ، فلا يتألم المرء عندئذ
الا من الجروح الى أن يموت منها . والألم الرئيسي ، والألم الذي هو
أشد الآلام قوة قد لا يكون ألم الجروح ، بل الألم الذي ينشأ عن يقين

المرء من أنه بعد ساعة ثم بعد عشر دقائق ثم بعد نصف دقيقة ، ثم الآن فوراً ، ستترك روحه جسدها ، وأنه لن يكون بعد تلك اللحظة انساناً ، وأن هذا أكيد ، أنه « أكيد » خاصة • فحين يضع المرء رأسه تحت المقصلة البتارة ، وحين يسمع انزلاقها فوقه ، فى ربع الثانية ذاك ، انما يشعر المرء بالخوف الاكبر • هل تعلم أن هذا الذى اقله ليس مستمداً من الخيال فحسب ؟ لقد ذكره كثيرون • وانى لأبلغ من قوة الاقتناع به أننى سأقول لك رأى فى هذا الأمر صريحاً كل الصراحة • أنا أرى أن قتل انسان بسبب ارتكابه جريمة قتل هو قصاص لا تناسب بينه وبين الجريمة نفسها • ان قتل قاتل افطع كثيراً من جريمة القتل التى ارتكبتها ذلك القاتل • ان الانسان الذى يقتله القتلة ، اذ يذبحونه ليلاً فى غابة أو غيرها ، يظل الى آخر لحظة يأمل أن ينجو • يروى الناس عن مقتولين أنهم ظلوا ، بعد حزنٍ رقابهم ، يأملون ويحاولون الفرار ويتضرعون سائلين الشفقة عليهم والرافة بهم • أما فى الاعدام فان الأمل الأخير ، الأمل الذى يجعل احتمال الموت أسهل عشر مرات يستترع منك « حتماً » • ان صدور الحكم واستحالة الافلات منه هما اللذان يجعلان العذاب رهيباً فظيماً • صدقنى : ليس فى الدنيا عذاب أشد هولاً من هذا العذاب • لو أخذت جندياً فوضعتة فى قلب المعركة أمام فوهة المدفع ، ثم أطلقت عليه النار ، لظل يحتفظ بالأمل الى آخر لحظة • أما اذا قرأت لهذا الجندى نفسه قراراً يحكم عليه بموت « مؤكد » ، فان هذا الجندى سيفقد عندئذ عقله ، أو سيجهش باكياً • من ذا الذى قرر أن الطبيعة الانسانية تستطيع أن تحتل تعذيباً كهذا التعذيب دون أن تهوى الى الجنون ؟ فيم ايقاع أذى يبلغ هذا المبلغ من السوء والعقم ؟ ربما كان يوجد فى هذا العالم انسان حكم عليه بالموت ، وشُرع فى تعذيبه ذلك التعذيب ، ثم قيل له أخيراً : « امض فقد صدر عفو عنك ! » • ان فى وسع هذا الانسان أن

يحكى لكم وأن يقص عليكم • المسيح نفسه قد تكلم أيضاً عن هذا العذاب ،
عن هذا الخوف ! لا ، لا يجوز أن يعامل كائنٌ إنسانى معاملةً كهذه
المعاملة !

فهم الخادم الشئ الأساسى الذى يعبر عنه كلام الأمير ، رغم أنه
ما كان له أن يستطيع التعبير عنه كما عبر عنه الأمير • نعم ، لقد فهم ،
وكان ذلك واضحاً فيما ظهر على وجهه من علائم التأثر والشفقة والحنان •
وقال للأمير :

— اذا كنت ترغب فى التدخين رغبة قوية هذه القوة ، ففى وسعك
أن تدخن ، ولكن افعل بسرعة ، اذ ما عساي أصنع اذا طُلبتَ فكنْتَ
غائباً ! اسمع : هناك ، تحت السلم ، هل ترى الباب ؟ افتح الباب وادخل ،
فترى على اليمين حجرة صغيرة ، ففى إمكانك أن تدخن فى تلك الحجرة
الصغيرة • ولكن لا تنس أن تفتح الطاقة ، فالتدخين هنا مخالفة ...

ولكن الوقت لم يُتَح للأمير أن يمضى الى تلك الحجرة الصغيرة ،
فقد دخل الى الغرفة شاب يحمل بيده أوراقاً ، فهبَّ الخادم يأخذ عنه
فراءه • وألقى الشاب على الأمير نظرة مواربة •

تكلم الخادم فقال بلهجة من يفضى بسر ، دون كلفة :

— هذا يا جبريل آرداليوتتش سيدٌ يقول انه الأمير ميشكين ، قريب
الجنرالة • لقد وصل من الخارج ونزل من القطار مع هذه الصرّة •
ولكن ...

لم يستطع الأمير أن يسمع تمة الكلام ، لأن الخادم أخذ يتكلم
بصوت خافت جداً • وكان جبريل آرداليوتتش يصفى باتباه ، ويلقى
على ميشكين نظرات تفيض استطلاعاً وفضولاً • وكفَّ عن الاصغاء
أخيراً ، واقترب من الأمير بسرعة ، فسأله بتعجب كبير وكياسة عظيمة :

– أنت الأمير ميشكين ؟

انه شاب وسيم الطلعة جداً ، فى نحو الثامنة والعشرين من العمر هو أيضاً ، أشقر اللون ، رشيقي القوام ، أميل الى الطول ، له لحية صغيرة جداً على طريقة نابوليون الثالث ، وجهه يدل على ذكاء ، ويمتاز بجمال . ولكن ابتسامته مفرطة فى الرقة على كونها محببة لطيفة ، وهى تكشف عن أسنان منضودة كاللؤلؤ مفرطة فى الكمال والاتساق . أما نظراته فانها رغم كل ما فيها من بشاشة وبراعة ظاهرة ، كانت تتميز بكثير من الالاح ، وكان فيها كثير من التدقيق والبحث والتقصى .

« أغلب الظن أن هذا الشاب لا تكون له هذه النظرة نفسها حين يخلو الى نفسه ، ولعله لا يضحك قط » . ذلك كان شعور الأمير .

كرر ميشكين ، بسرعة ، كل ما سبق أن قاله للخادم ، وما سبق أن قصه على روجوين قبل ذلك . فكان جبريل آرداليوتش فى أثناء ذلك يبدو كمن ينشئ ذكرياته . ثم سأله :

– أأنت الذى كتبت الى اليزابت بروكوفيتا فى العام الماضى ، أو فى وقت أحدث ، من سويسرا ، فيما أظن ؟
– نعم أنا .

– اذن أنت هنا معروف ، ولا شك أنهم يتذكرونك . هل تريد أن تقابل صاحب السعادة ؟ سأبلغه وصولك . بعد قليل يخلو . ولكن كان ينبغى لك ... كان يلىق أن تكون فى الصالون ...

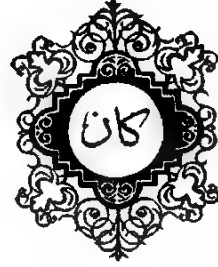
– لماذا بقى السيد هنا ؟

– قلت لك . هو نفسه أراد ذلك وأصرَّ عليه !

وفى تلك اللحظة فُتِحَ باب المكتب فجأة ، فخرج منه ضابط يتأبط
حقيبة أوراق • كان الضابط يتكلم بصوت عالٍ ، ويكثر من التحيات •
وصاح صوت من آخر المكتب ينادى :
- أأنت هنا يا جانبا ؟ * تعال اذن •••

أوما جبريل آرداليوتش للأمر بحركة خفيفة من رأسه ، وأسرع
يدخل المكتب • وبعد دقيقتين فُتِحَ الباب من جديد ، وسمع صوت جبريل
آرداليوتش ، الرنان المتودد ، يقول :
- تفضل فادخل يا أمير !

الفصل الثالث



الجنرال ايفان فيدوروفتش ايباتشين واقفاً في وسط
مكتبه ينظر الى دخول الأمير باستطلاع شديد
وفضول قوى ؛ حتى لقد خطا للقائه خطوتين ؛
واقرب الأمير وقدّم نفسه •

قال الجنرال :

- حسن جداً • فى أى شىء أستطيع أن أخدمك !

قال الأمير :

- ليس لى الآن أى أمر مستعجل • وليست غايى من هذه الزيارة
الا التعارف • لا أحب أن أزعجك • اتنى لا أعرف اليوم الذى تستقبل
فيه ، ولا أعرف العادات التى تأخذ نفسك بها ••• وقد جئت من محطة
القطار الى هنا رأساً ••• وأنا قادم من سويسرا •••

ابتسم الجنرال ابتسامة خفيفة ، لكنه فكّر فأسرع يكظمها • ثم
فكّر مزيداً من التفكير ، ففضّ عينيه وعاد يتفحص الزائر من القدمين
الى الرأس ، ثم أشار له الى كرسي يجلس عليه • وجلس هو نفسه
متحياً بعض التحى ، والتفت نحو الأمير مستظلاً نافذ الصبر • وكان
جانبا واقفاً فى ركن من المكاتب يستل أوراقاً •

أجاب ايباتشين قائلاً :

- لا يتسع وقتى عامةً للتعارف مع أناس جدد ، ولكن لما كان لك هدف حتماً فأتى ...

قاطعه الأمير يقول :

- كنت أحس سلفاً أنك سوف تنسب الى زيارتى منفعة أبتغيها ، أو فائدة ألتبسها . لكننى أحلف لك أتى لا هدف لى الا مسرتى بمعرفتك .

- المسرة متبادلة طبعاً ، ولكن المسرة ليست كل شىء دائماً ، فقد يكون هنالك أعمال ... ثم اتى لم أتوصل الى ادراك الصلة التى يمكن أن تربطنا والعلاقة التى يمكن أن تجمع بيننا ... أقصد : لست أدرك السبب الذى حملك على أن ...

- ما من صلة أو علاقة ... ذلك أمر لا جدال فيه ... ولبس هناك أشياء كثيرة تجمعنا . فلأن أكون من أسرة الأمراء مبشكين ولأن تنتمى زوجتك الكريمة الى هذه الأسرة نفسها ، فليس هذا سبباً كافياً بطبيعة الحال ... اتنى أدرك ذلك حق الادراك . ومع هذا فذلك هو السبب الوحيد الذى دفعنى الى المعجى . لقد تركت روسيا منذ أربع سنين ، وحين رحلت لم أكن مالكاً جميع قواى العقلية . كنت لا أعرف عن الحياة شيئاً . وحتى الآن لا أعرف عنها شيئاً كثيراً . أنا فى حاجة الى معرفة أناس ذوى قلوب كريمة . على سبيل المثال : هناك الآن قضية يجب أن أحلها ، ولا أدرى من أى طرف أبدأ . قلت لنفسى منذ أن بلغت برلين : « هؤلاء أقرباء لى تقريباً ، فسأبدأ اذن بهم ، فلعلنا نستطيع أن ينفع بعضنا بعضاً ؛ وهؤلاء أناس ذوو قلوب كريمة » . وقد ذكر لى ان لك قلباً كريماً عطوفاً .

قال الجنرال مبهوتاً :

- كلام لطيف • هل أستطيع أن أعرف أين نزلت ؟

- حتى الآن لم أنزل فى مكان !

- اذن ، حين تركت القطار ، جئت الى عندى رأساً ، هه ؟ و ...
جئت مع أمتعتك ؟

- ليس لى الا صرّة صغيرة بها بعض الملابس ، ولا شىء غير ذلك •
وأنا أحملها بيدى عادةً • يتسع الوقت ، من الآن الى المساء ، لاستئجار
غرفة فى فندق •

- فى نيتك اذن أن تستأجر غرفة ؟

- نعم ، طبعاً •

- ظننت من أقوالك أنك كنت تنوى الإقامة عندى •

- كان يمكن أن أفعل ذلك لو دعوتنى • ومع هذا أعترف لك بأننى
ما كنت لأبقى ولو دُعيت ، ما كنت لأبقى بدون سبب • ذلك طبع فى •

- اذن فقد أحسنت لأننى ما دعوتك ، ولا أدعوك • كلمة أخرى
يا أمير ، من أجل أن نضع الأمور فى نصابها • ما دمتنا قد اتفقنا على أنه
لا مجال للكلام عن قرابة بيتنا ، رغم أن هذه القرابة كان يمكن أن
تسرفنى طبعاً ، فانه يترتب على هذا ...

- يترتب على هذا أنه لم يبق لى الا أن أنهض وانصرف •

فان الأمير وهو ينهض ويضحك من قلبه ، رغم كل ما فى هذا
الوضع من حرج وارتباك • وتابع كلامه يقول :

- وأؤكد لك ، يا جنرال ، أنني رغم قلة خبرتي ورغم جهلي
بالمعادن هنا ، كنت أعلم حق العلم أن الأمور ستجبري على هذا التحول
تماماً . على كل حال ، ربما كان هذا أفضل ... ثم ان رسالتى لم يردَّ
عليها ... طيب ... استودعك الله ، واغفر لى ازعاجك .

كانت نظرة الأمير فى تلك اللحظة تفيض لطفاً وبشاشة ، وكانت
ابتسامته خالية كل الحلو من أية عداوة ، وحتى من أية عداوة خفية
مستسرة ، فما كان من الجنرال الا أن توقف ، وأخذ ينظر الى الأمير
بعين جديدة وأصبح وجهه يعبر تعبيراً يختلف كل الاختلاف عن تعبيره
قبل ذلك . وقد تحقق له هذا التحول فى طرفة عين .

قال الجنرال للأمير بصوت يوشك أن يكون قد تغير تعبيراً كاملاً :

- اسمع يا أمير : أنا فى الواقع لا أعرفك ؛ وربما كانت زوجتى
من جهة أخرى تحب أن ترى الرجل الذى يحمل اسم الأسرة الذى
تحمله هى ... فانتظر اذا شئت واذا كان يتسع وقتك .

أجاب الأمير وهو يسرع فيضع قبعة المبتلة المدوّرة على المائدة :

- هوه ! وقتى يتسع كل الانساع ! وقتى خال كله ! أعترف لك
بأننى كنت أقدر فعلاً أن الزابت بروكوفينا قد تتذكر أنني كتبت اليها .
منذ قليل ، أثناء انتظاري فى حجرة المدخل ، خيّل الى خادمك أنني جئت
ألمس بعض المساعدات . لاحظت ذلك واضحاً . ولا بد أن أوامرك
شديدة فى هذا الصدد . أؤكد لك أنني ما جئت لهذا ، واننى لم آت
الا للتعارف حقاً . لكننى أخشى أن أكون قد ضايقتك ، وهذا يقلقنى .

قال الجنرال وهو يتسم ابتسامة فرحة :

- طيب يا أمير ، اذا كان باطنك كظاهرك ، اذا كنت كما تبدو فعلاً ،
فربما كانت معرفتك سر وتبهج . ولكنك ترى طبعاً أنني أمرؤ مشغول .

سأضطر حالاً الى المكوف على بعض الأوراق أدرسها وأوقعها ، وعلى
بعد ذلك أن أذهب الى صاحب السمو ، ثم أمضى الى مكتبي . معنى ذلك
أننى رغم ابتهاجى الشديد برؤية أناس لطف محبين ... أى ... ولكن
... أقصد أننى على ثقة بأن تربيتك الممتازة لا بد أن ... ما سنك
يا أمير ؟

— ستة وعشرون عاماً .

— حقاً ؟ كنت أحسبك أصغر سنّاً من ذلك بكثير .

— نعم ، يقال اننى أبداً شاباً صغير السن . فيما يتعلق بعدم ازعاجك،
سأحاول ألا أزعجك . لأننى أكره أن أزعج ... ويخيّل الى أخيراً
أنا مختلفان فى الظاهر اختلافاً شديداً ... لأسباب كثيرة ، وأنا ليس
بيننا أمور مشتركة كثيرة ؛ رغم اننى فى الواقع لا أصدّق هذا من جهتى :
فكثيراً ما يكون الاختلاف ظاهرياً ، وكثيراً ما يكون نمة فى حقيقة الأمر
نقاط مشتركة ... ان الكسل هو الذى يدعونا الى التسرع فى تصنيف
الناس والتفريق بينهم قبل أن نجد ما يحمل على ذلك أو يفرضه . أظن
أننى أصبحت مضجراً مملاً ، أليس كذلك ؟ انك تبدو ...

— كلمة أخرى : هل تملك بعض ثروة على الأقل ؟ لعلك تأمل أن
تجد عملاً ؟ اغفر لى أننى أكلّمك بهذه الفجاجة ...

— أرجوك ، بالعكس ... اننى أفهم اهتمامك هذا وأقدره حق
قدره وأشكره لك . لا أملك الآن أية ثروة ، وليس لى أى مركز ،
لكننى سأحتاج الى هذا طبعاً . ان المال الذى كان معى الى الآن ليس مالى .
ان شنايدر ، الأستاذ الذى كان يعالجنى ويعلمنى بسويسرا ، هو الذى
أعطانى ذلك المال . وقد أخذت منه ما يكفينى للرحلة بلا زيادة ولا نقصان،

فلم يبق معي الآن الا بضعة كويكبات • في ذهني أمر من الأمور ، وأنا
في حاجة الى نصائح ، ولكن ...
قاطعه الجنرال سائلاً :

- قل لي : ممّ تنوى أن تعيش بانتظار ذلك ، وما هي مشروعاتك ؟
- أريد أن أعمل ، بطريقة أو بأخرى ...

- ها ... حقاً انك لفيلسوف • قل لي : هل تعرف لنفسك موهبة
من المواهب ؟ هل تعرف لنفسك كفاءات يمكن أن نهيب لك خبز يومك ؟
مرة أخرى أعتذر عن ...

- لا تعتذر ! ما أحسب أن لي موهبة أو كفاءات خاصة • بالعكس :
أنا رجل مريض ، ولم أتابع تحصيلي • أما عن خبز يومي ، فيخيّل لي ...

قاطعه الجنرال مرة أخرى ليزحمة الأسئلة • فقصّ الأمير قصته
مرة أخرى • واتفق أن كان الجنرال قد سمع عن المرحوم بافلشيف ،
حتى لقد عرفه شخصياً • لم يستطع الأمير أن يشرح لماذا اهتم بافلشيف
بتربيته وتعليمه ، ولم يزد على أن قال : لعل ذلك لم يكن الا تكريماً
لذكرى صداقته القديمة بالمرحوم أبيه • لقد تيم الأمير منذ طفولته
الفضة ، وقضى سنى حياته الأولى بالريف ، لأن حالته الصحية كانت تحتاج
الى فضاء واسع وهواء نقي • وعهد به بافلشيف الى قريبات له عجائز كن
يعشن في أراضيه •

وكانت له في أول الأمر خادم تشرف على تربيته ، ثم أصبح له بعد
ذلك مرب يتولى تعليمه • ورغم أنه يتذكر كل شيء تذكراً واضحاً قوياً ،
فانه لم يستطع أن يقدم تعليقات كافية وتفسيرات مقنعة ، لأنه - على حد
تعبيره - لم يكن في ذلك الأوان يدرك الأشياء ادراكاً جيداً • وقد جعلته

نوبات مرضه المتكررة يصير الى البلاء ، فهو الآن أبله (قال الأمير كلمة أبله ») •

وروى الأمير أخيراً أن بافلتشف كان قد التقى في برلين بالأستاذ السويسرى شنايدر ، الاختصاصى فى هذا النوع من الأمراض • وكان للأستاذ شنايدر فى مقاطعة فاله بسويسرا مستوصف يداوى فيه المرضى بطريقة خاصة به ، أساسها الرياضة البدنية وحمامات الدوش الباردة ؛ وكان أيضاً يداوى البله والمجانين ، ويعنى بتعليمهم ، ويهتم بتشخيصهم الروحية خاصة • وقد أرسل بافلتشف الأمير الى شنايدر منذ خمس سنين • ومات هو بعد ذلك بثلاثة أعوام ، دون أن يتخذ أى تدبير • ولكن شنايدر احتفظ بالأمير وظل يعالجه طوال هذين العامين الأخيرين • ولم يتوصل الى شفائه من مرضه ، لكن العلاج كانت له نتائج حسنة • ثم قرر شنايدر ، تلبيةً لرغبة الأمير نفسه ، وعلى أثر حادث جديد ، أن يعيده الى روسيا •

ظهرت على الجنرال دهشة جديدة ، وسأله :

– اذن ليس لك فى روسيا أحد ؟ ليس لك فيها أى قريب ؟

– حتى الآن ليس لى أحد ، ولكننى آمل ••• ثم انى قد تلقيت رسالة •

قاطعه الجنرال قائلاً دون أن يكون قد سمع الجملة الأخيرة التى تشتمل على اشارة الى الرسالة :

– ولكن لا بد أنك تعلمت شيئاً ما ، على الأقل ••• لا بد أنك تعلمت مهنة من المهن ••• ان مرضك لن يمنعك من أن يكون لك وظيفة ما ••• لا أقول وظيفة صعبة ••• بل وظيفة ما فى ادارة ما •
– طبعاً لا يمتنعنى مرضى من ذلك • أما عن الوظيفة فانتى أود كثيراً

أن يكون لى وظيفة • انتى أحب كثيراً أن أعرف ما أصلح له وما أقدر عليه • لقد ظلمت أدرس وأتعلم طوال السنين الأربع الماضية • صحيح أن دراستى لم تكن منتظمة مطردة ، لأن استاذى كان مضطراً أن يستعمل فى تعليمى منهجاً خاصاً ، لكننى استطعت فى الوقت نفسه أن أقرأ كتباً روسية كثيرة •

– كتباً روسية ؟ فأنت اذن تعرف قواعد الاملاء وتستطيع أن تكتب بدون أخطاء •

– آ • • • طبعاً • • • مؤكد • • •

– عظيم • وخطك ؟

– خطى ممتاز ؟ بل أستطيع أن أقول من هذه الناحية ان لى موهبة • أنا خطاط فعلاً •

وأضاف الأمير يقول بحماسة :

– انتظر • • • سأكتب لك شيئاً على الفور من قبيل التجربة •

– افعل ! افعل ! بل ان هذا سيكون مفيداً جداً • لقد أحبت فيك حسن ارادتك وهمتك يا عزيزى الأمير • حقاً انك اللطيف كل اللطف •

– ما أجمل أدوات مكتبك ! ما أحسن هذه الأقلام ، وهذه الريش • • • ما أروع هذا الورق ! ما أحسن سسمكه ! • • • ويا لها من حجرة مكتب فخمة ! اسمع : انتى أعرف هذا المنظر • هو مشهد من سويسرا • أنا على يقين من أن الرسام الذى صوّر هذا المنظر قد نقله عن الطبيعة • أنا واثق بأننى أعرف هذا المكان : هو فى مقاطعة أوريب • • •

– جائز جداً ، رغم انتى اشتريت اللوحة من هنا • يا جانيا ، اعط الأمير ورقاً • اليك ريشاً وورقاً • تفضل اجلس الى المائدة الصغيرة •

والثفت الجنرال نحو جانبا فرآه يخرج من حقيبة أوراقه صورة فوتوغرافية كبيرة ويمدها الى ابياتشين • فسأله الجنرال :
- ما هذا ؟ آآآ هذه ناستاسيا فيليوفنا ! أهى التى أرسلت اليك الصورة ؟

كذلك سأله متدفقا فى الكلام ، وقد بدا عليه استطلاع قوى وفصول شديد •

أجابه جانبا :

- أعطيتها منذ قليل ، حين ذهبت ' أقدم اليك تمنياتك • لقد طلبتها منها منذ مدة طويلة • تُرى أليس فى هذا الماع منها الى أنتى جثها خالى اليدين لا أحمل لها أية هدية فى مثل هذا اليوم ؟
أضاف جانبا جملته الأخيرة هذه وهو يتسم ابتسامة كريمة • فقاطعه الأمير بلهجة جازمة :

- لا ، لا ، حقا ان لك تفكيراً غريباً ! أهى امرأة من تلك النساء التى تلمح تلمح ، وتغمز وتلمز ؟ أنت تعرف حق المعرفة أنها ليست امرأة تشد منفعه وتلمس ربحاً • ثم ما عسى تكون الهدايا التى يمكن أن تهديها اليها ؟ لامرأة مثلها لا يقدم المرء الا آلاف الروبلات ! كان فى وسعك طبعاً أن تقدم اليها صورتك أنت أيضاً • بالناسبة : ألم تطلب منك صورتك حتى الآن ؟

- لا ، لم تطلبها حتى الآن ، وقد لا تطلبها فى يوم من الأيام • أنت غير ناسٍ سهرة اليوم طبعاً يا ايفان فيدوروفتش ، أليس كذلك ؟ ذلك أنك واحد من ضيوف الشرف •

- طبعاً طبعاً ، غير ناسٍ ••• غير ناسٍ ••• سأحضر حتماً ••• هو عيد ميلادها ••• عيد ميلادها الخامس والعشرين ••• هم ••• لا بأس يا جانبا ، سأفنى اليك بسر ، فأصغ الى : لقد بذلت لى ولآنانازى

ايفانوفتش وعداً بأن تعلن قرارها هذا المساء • أكون أو لا أكون • ضع هذا في الحساب ، ولا تنسه !

اضطرب جانبا فجأة ، حتى لقد امتقع لونه قليلاً • وسأل بشيء من اختلاج في صوته :

- هل قالت هذا حقاً ؟

- قطعت على نفسها عهداً منذ ثلاثة أيام • لقد بلفنا كلانا من الالحاح واللجاجة أنها أذعنت آخر الأمر • لكنها رجتنا ألا نذكر لك شيئاً من ذلك قبل أن تحين الساعة •

كان الجنرال يتفرس في جانبا بنظرة فاحصة ، وكان واضحاً أن اضطراب جانبا يسوءه •

قال جانبا مضطرباً متردداً :

- لاحظ يا ايفان فيدوروفتش أنها تركت لي حرية اتخاذ القرار كاملة الى أن تتخذ قراراً بنفسها • ومن المتفق عليه أن تبقى الكلمة الأخيرة وأن يبقى القول الفصل لي أنا حتى في تلك الحالة •

صاح الجنرال يقول مروّعاً مذعوراً :

- ولكن هل تُراك ... هل تُراك ذكرت أن ...

- لم أقل شيئاً •

- أرجوك ، ما الذي تريد أن تخلص اليه ؟

- أنا لا أرفض • لعلني أخطأت التعبير ...

قال الجنرال غاضباً دون أن يحاول كظم استيائه وكتمان امتعاضه :

- لن ينقصنا الا أن نرفض ! يا صديقي ، لم تعد المسألة عندنا أن

« لا » ترفض • وانما يجب عليك أن تظهر الغبطة والامتنان والسعادة الكاملة في اللحظة التي تعلن فيها رأيها • وما الذي يجرى في بيتك ؟
- في بيتي ؟ في بيتي يجرى كل شيء وفق مشيئتي وارادتي • أبى وحده يُجَنُّ جنونه ، على عادته • لقد أصبح في منتهى الدناءة • وأصبحت لا أأكله • لكنى ما زلت أقسو عليه وأغلظ له • ولولا أمى لطرده من المنزل • أمى ما تنفك تبكى طبعاً • وأختى غاضبة غضباً شديداً ، لكننى أعلنت لهما اعلاناً قاطعاً واضحاً أنتى سيد مصرى ، وأنتى لا أطلب شيئاً فى البيت الا أن أطاع • على كل حال ، هذا ما أبلغته أختى بحضور أمى •
قال الجنرال شارد الذهن وهو يهز منكبيه ويباعد قليلاً بين ذراعيه :

- أما أنا يا عزيزى فما زلت لا أفهم ! • لا شك أنك تتذكر أن نينا ألكسندروفنا ، حين زارتنى فى الأيام الأخيرة ، قد أخذت تتحجب وتسن ، فلما سألتها : « ماذا بك » ، فهمت أن الأمر الذى يؤلمها هو ما يهددهن من « تطلخ الشرف » بالعار فيما يبدو • فأين تطلخ الشرف فى هذا كله ؟ • وددت لو أعرف أين تطلخ الشرف فى هذا ؟ من ذا الذى يستطيع أن يأخذ على ناستاسيا فيليوفنا أى شيء ، أو أن يروى عنها أى سوء ؟ هل يمكن أن تؤاخذ على العلاقة التى بينها وبين توتسكى ؟ ألا ان هذا يكون سخفاً كاملاً ، لا سيما اذا نظرنا الى الظروف الخاصة التى تحيط بالأمر • قالت لى عندئذ : « هل تدع لها أن تقترب من بناتك ؟ » • هه ! سمعت ؟ غريب أمر نينا ألكسندروفنا ! ان الأمر مع ذلك واضح ، كيف لا تدرك •••

- كيف لا تدرك وضعها ؟

بهذا أكمل جانيا جملة الجنرال ليخلصه من ارتباكها •
ثم تابع كلامه فقال :

- انها تدرك وضعها حق الادراك • لا تؤاخذها ! ثم اننى قد
أسرعت ألقها درساً حتى تتعلم ألا تتدخل فى شئون الآخرين • على كل
حال ، ما يزال يسود بيتنا شيء من الهدوء ، لأن الكلمة الأخيرة ما قيلت
بعد • غير أن الصاعقة ستنفجر • فاذا قيلت الكلمة الأخيرة اليوم ، انطلق
كل شيء من عقاله •

سمع الأمير ذلك الحديث كله ، رغم اكبابه فى ركنه على عمله فى
الكتابة بالخط الجميل •

فلما أنجز عمله اقترب من المائدة ، ومدّ الورقة • ودمدم يقول بعد
أن أنعم النظر فى الصورة بانتباه وتشوق :

- أهذه اذن ناستاسيا فيليوفا ؟

ثم أضاف يقول بحرارة :

- انها رائعة الجمال حقاً !

كانت الصورة الفوتوغرافية تظهر قسمات امرأة ذات جمال نادر فذ
فى الواقع • والمرأة ترتدى ثوباً من حرير أسود ، ثوباً أنيقاً رشيماً خالياً
من البهرج والزخرف ؛ شعرها كستائى واضح ، قد صفّ تصفيفاً
بسيطاً فى تسريحة من الداخل ؛ عيناها دكناوان عميقتان ؛ فى جبينها
امارات تفكير ؛ وجهها يعبر عن اندفاع عاطفى ، ويعبر عن شيء من تعالٍ
وكبرياء ، وهو نحيل ، ولا بد أن يكون شاحباً •

دُهِش جانبا والجنرال من كلام الأمير ، فالتفتا نحوه •

وسأله الأمير :

- كيف ؟ ناستاسيا فيليوفا ! أأنت تعرف ناستاسيا فيليوفا ؟

فأجاب الأمير :

- نعم ، أنا في روسيا منذ أربع وعشرين ساعة بل أقل . ومع ذلك أعرف هذه المرأة التي لا يضارع جمالها جمال .
وأسرع يروي لقاءه مع روجوين ، وحكى القصة التي سمعها منه .
قال الجنرال قلقاً ، بعد أن أصغى الى الأمير بانتباه شديد ، قال وهو يتجه الى جانبا بنظرة مستفهمة سائلة :

- يا للغباء !

وجسجم جانبا يقول مضطرباً بمض الاضطراب هو أيضاً :
- هي حكاية طيش لا أكثر ! ابن تاجر يلهو ويقصف ! سبق أن سمعت عنه .

عاد الجنرال يتكلم فقال :

- وأنا سمعت عنه أيضاً يا عزيزى ! ان ناستاسيا فيليوفا قد روت القصة كلها بعد حكاية القرطين تلك . ولكن الأمر الآن مختلف . ربما كان الأمر الآن أمر مليون وهناك أيضاً ذلك الولد هو ولد خسيس طبعاً ، لكنه وله مع ذلك . ونحن نعرف ما قد يفعله أمثال هؤلاء السادة بغير حرج حين يسكرون .

وختم الجنرال كلامه مفكراً حالماً يقول :

- هم . . . أرجو أن لا يؤدي هذا الى حادث ما ! . . .

قال جانبا وهو يضحك ضحكة ساخرة :

- هل المليون هو ما تخبئه ؟

- أما أنت فلا ، طبعاً .

قال جانبا فجأة يسأل الأمير :

- قل لى يا أمير : ماذا كان شعورك تجاهه ، أأحسست أنه رجل جاد أم أأحسست أنه وغد حقير لا أكثر ؟ ما رأيك الشخصى ؟
أحس جانبا باحساس غريب وهو يلقى هذا السؤال ، كأن فكرة جديدة فريدة قد أثارته ذهنه ، فأخذت عيناه تسطمان بومضاتٍ من نفاد الصبر •

وكان قلق الجنرال صادقا ساذجا ، فالتفت هو أيضاً نحو الأمير ، ولكن دون أن يبدو عليه أنه يتوقع من جواب الأمير أشياء كثيرة •
أجاب الأمير :

- لا أدرى ماذا أقول لك • لقد بدا لى على كل حال أنه شاب مشبوب الهوى جامع العاطفة الى حد المرض • ثم انه هو نفسه يشعر من يراه بأنه مريض • ومن الجائز جداً أن تتكس صحتة منذ أيامه الأولى ببطرسبرج ، ولا سيما اذا أخذ يشرب •
هتف الجنرال يقول متشبهاً بهذه الفكرة :

- ها ... هذا رأيك اذن ؟

- نعم ، هذا ما خيل الى •

قال جانبا وهو يضحك ساخراً :

- على كل حال ، لا تحتاج مفاخرة كهذه الى بضعة أيام لكى تنفجر ، حتى لقد نسمع جديداً قبل هذا المساء •

قال الجنرال :

- هم ... طبعاً ... هذا جائز ... لكن كل شئ رهن اذن بما يخطر ببالها هي !

- انك لتعرف حق المعرفة كيف تكون هي فى بعض الأحيان !

صاح الجنرال من جديد وقد استولت عليه حيرة شديدة ، وبليلة كبيرة :

- ماذا تريد أن تقول ؟ اسمع يا جانيا ، أرجوك ملحاً ألا تعاكسها وألا تعارضها اليوم كثيراً . بالعكس : حاول أن تكون ... أقصد ... كن لبقاً لطيفاً كيئساً ... هم ... لماذا تلوى فمك هكذا ؟ اسمع يا جبريل أرداليوتتش : أن لنا أن نضع الأمور في نصابها ، أن لنا ذلك ! لماذا نحتمل هذا العناء كله ؟ انك لتدرك حق الادراك أنني ، فيما يتعلق بمصلحتي الشخصية في هذه القضية كلها ، مغطى منذ زمن طويل . ولسوف أخرج منها بما يناسبني ويلائمني ، بطريقة أو بأخرى . لقد اتخذتوتسكى قراراً لا رجعة عنه ولا راداً له . فأنا أيضاً هادئ اذن كل الهدوء ، مرتاح كل الارتفاع ، مطمئن كل الاطمئنان . واذا كنت ما أزال أرغب في شيء ، فهو خيرك أنت . فكّر ملياً : أليست تثق بي ؟ لا سيما وأنتك رجل ... رجل ... رجل ذكي . ثم انني قد وضعت أملى فيك . وفي الوضع الراهن ، في الوضع الراهن ...

- هذا هو الشيء الرئيسي !

كذلك قال جانيا يساعد الجنرال في اتمام جملته مرة أخرى . والتوت شفتا الفتى على ابتسامة ساخرة مسمومة أصبح لا يحاول حتى اخفائها . وكانت نظراته المحمومة تحدق الى عيني الجنرال ، كأنه يريد أن يقرأ الجنرال فيها كل تفكيره . فاصطبغ وجه الجنرال بحمرة شديدة ، وغضب فاستأنف كلامه وهو ينظر الى جانيا بقسوة :

- نعم ، الذكاء هو الشيء الرئيسي . ألا انك لفسريب الأطوار يا جبريل أرداليوتتش ! لكأنك مبتهج بوصول هذا الشاب التاجر ابتهاجك بحلٍ يهبط من السماء ! كان يجب في هذه القضية أن تبرهن على ذكاء

منذ البداية • كان يجب عليك أن تفهم الموقف فهماً سليماً ، وأن تقدر
الوضع تقديراً صحيحاً ••• و ••• و ••• وكان يجب عليك أن تعمل
من الطرفين ، من الجهتين ••• مع التزام الاستقامة والصراحة ••• والا
فلا أقل من التنبيه والتحذير ، حتى لا يتورط الآخرون ، ولا يتعرضوا
لشيء • ولقد كان في وقتك متسع لهذا • وما يزال في وقتك متسع على
كل حال (هنا رفع الجنرال حاجبيه على نحو مفهوم) ، رغم أنه لم يبق
إلا بضعة ساعات • هل فهمت عني ؟ هه ؟ أتريد أم لا ؟ إذا كنت لا تريد
فعليك أن تقول ذلك ، وأن تقوله في الوقت المناسب ! ما من أحد يريدك
على غير ما تحب يا جبريل آرداليوتش ، ما من أحد يدفعك إلى فخ ، إذا
كان حقاً أنك لا ترى في هذا إلا فخاً •

قال جانيا بصوت خافت ، ولكن بلمهجة ثابتة :

- بل أريد !

وخفض عينيه ، وصمت مظلم الوجه مريد الأساير •

رضي الجنرال وارتاح • لقد غضب منذ قليل واندفع ، أما الآن فكان
واضحاً أنه نادم على غلوه في المضي إلى ذلك الحد • والتفت نحو الأمير
فجأة ، وقد بدا في وجهه قلق : لقد شهد الأمير الحديث ، وسمع كل شيء ••

لكن الجنرال لم يلبث أن استرد هدوءه • ان نظرة واحدة إلى الأمير
كانت كافية لإعادة الثقة والطمأنينة إلى نفسه •

هنف الجنرال يقول وهو ينعم النظر في نموذج الخط الذي مدّه
إليه الأمير :

- عظيم ، عظيم ! خط رائع ! آية من آيات الفن ! آية نادرة ! انظر
يا جانيا ، انظر ! يا لها من موهبة !

كان الأمير قد كتب على الورقة السميسة الفاخرة ، بأحرف روسية من القرون الوسطى ، العبارة التالية :

« ان المطران الذليل بافنوس قد وقع هذا بخط يده » *

وقال الأمير شارحاً بحماسة كبيرة ، ولذة عظيمة :

- هذا توقيع المطران بافنوس نفسه ، نقلاً عن مخطوطة يرجع عهدها الى القرن الرابع عشر . كانت لهم فى الماضى توافيع جميلة ، مطارنتنا وبطارقتنا جسيماً ! ما أعظم ما فيها من ذوق ، ومن عناية ، ومن صبر ! أليست عندك نسخة من طبعة بوجودين يا جنرال ؟ انظر : هنا قلدت نموذجاً آخر من نماذج الخط : انه نموذج الخط المدور القوائم الكبير ، الذى عُرف بفرنسا فى القرن الماضى ؛ حتى ان بعض الأحرف تكتب بأشكال مختلفة . هذه هى الكتابة العادية ، كتابة عامة الكتّاب ، وهى مستمدة من كتابة الخطاطين الأصليين (اقتنيت نموذجاً منها) . اعترف أن لها محاسنها . أتمم النظر فى هذه « الهاء » وهذه « الطاء » المدورتين القائمتين . لقد قمت أنا بنقل هذا الطراز الفرنسى من الخط الى الكتابة الروسية . كان ذلك عملاً صعباً جداً ، لكننى نجحت فيه . اليك نموذجاً آخر من الكتابة ، نموذجاً أصيلاً جداً ، فيه طرافة عظيمة ورشاقة مدهشة انظر فى هذه الجملة : « الاجتهاد يذلل جميع الصعاب » . هذه كتابة روسية ، كتابة حكومية ، أو قل ان شئت انها كتابة حكومية عسكرية . بهذا الخط انما تكتب رسالة رسمية لشخصية خطيرة الشأن . وهو خط مدور قائم أيضاً ، على جانب عظيم من الأناقة والرشاقة ، يُطلق عليه اسم الكتابة « السوداء » . وهو خط يبدو حالك السواد فعلاً ، لكنه فى غاية الجمال . ان خطاطاً محترفاً لا يمكن أن يسمح لنفسه يوماً بهذه الزيادات الطفيفة ، هذه الذبول الصغيرة ، هل تراها ؟ ومع ذلك تستطيع أن تلاحظ أنها تضيف على الخط طابعاً خاصاً . ان المرء يقرأ فيها كل روح الكاتب

العسكري . يحسن المرء أن هذا الكاتب العسكري يودُّ أن يرخي العنان
لحياله ، وأن موهبة تناديه الى ذلك ، لكن الياقة العسكرية صلبة ، فهي
تقيده تقييداً شديداً . ان النظام العسكري يعبّر عن نفسه تعبيراً حلولاً في
الخط . لقد خطف بصرى منذ مدة قصيرة نموذج من هذا النوع . تصوّر
أننى وقعت على ذلك النموذج فى سويسرا . واليك الآن مثلاً عادياً
مألوفاً للخط الانجليزى ، مثلاً صافياً نقياً للخط الانجليزى . لا أرشق
منه ولا أحلى ! هو سحر كله : لؤلؤة ، جوهرة ! هو الكمال بمينه .
واليك خطأ هو تعديل لذلك الخط الانجليزى بالطريقة الفرنسية . لقد
أخذته من مندوب متجول لبيت من بيوت التجارة . هو الطراز الانجليزى
نفسه ، غير أن الأحرف المملأى فيه أشد بروزاً وأكثر سواداً . وهذا يدل
توازن النسب فوراً . لاحظ هذه الصفة أيضاً : ان الأحرف البيضاء
قد تبدلت هنا فصارت أكثر تدوراً ، كما أن الذبول فى هذا الخط مقبولة
غير مرفوضة . والذبول أشد المزلق خطراً بطبيعة الحال ، لذلك كان
لا بد للخطاط ههنا من ذوق خارق يجنبه هذه المزلق ، ولكن اذا نجح
الخطاط فى هذه المحاولة فوجد الأبعاد السليمة والنسب الصحيحة ، حصل
عندئذ على خط لا يضارع ، خط يعشقه المرء عشقاً .

قال الجنرال ضاحكاً :

- عظيم ، عظيم ، انك مطلع على أدق الدقائق وألطف اللطائف !
لست يا صديقى خطاطاً فحسب ، بل أنت أيضاً فنان ، هه ؟ ما رأيك
يا جانيا ؟

أجاب جانيا موافقاً :

- شئ مدهش !

ثم أضاف وهو يضحك ضحكة ساخرة :

- حتى ان هذا يدل على موهبة عظيمة ويهشّر بأن سيكون له مهنة
محترمة !

قال الجنرال :

- اضحك ، اضحك ما شئت أن تضحك • انه يملك حقاً ما يؤهله
لمزاولة مهنة ممتازة • هل تعرف ، يا أمير ، الى أية شخصية سنكلفك
بالكتابة ؟ ان فى الامكان أن تعطى راتباً قدره خمسة وعشرون روبلاً فى
الشهر ، بلا تردد •

ثم أضاف الجنرال قائلاً وهو ينظر فى ساعته :

- ولكن الساعة أصبحت الثانية عشرة والنصف • اسمع يا أمير ،
لننتقل الى جوهر الموضوع ، فأنا فى عجلة من أمرى ، وقد لا تتاح لنا
فرصة اللقاء مرةً أخرى اليوم • اجلس لحظة : سبق أن قلت لك اننى
لن أستطيع أن أستقبلك فى أحيان كثيرة • ولكننى أرغب صادقاً فى أن
أبذل لك بعض العون ، أن أبذل لك عوناً ضئيلاً هو القدر اللازم الذى
لا بد منه ولا غنى عنه • أما فيما عدا ذلك فدبّر أمرك على النحو الذى
يحلو لك ، وبالطريقة التى تراها مناسبة • سأجد لك وظيفة صغيرة فى
المكتب ، عملاً ليس شاقاً مسرفاً فى المشقة ، ولكن سيكون عليك أن تجد
وأن تجتهد • واسمع الآن ما سأقوله لك : ان صديقى الشاب جبريل
آرداليونوفتش ايفولجين ، الذى تراه ، والذى أعرفك به الآن ، يعيش
مع أسرته ؟ وقد أعدت أمه وأخته فى شقتهم غرفتين مؤثنتين أو ثلاثاً ،
فهما تؤجّران هذه الغرف مع الطعام والخدمة لأناس موصى بهم مشهود
لهم بحسن الخلق • وأنا على يقين من أن نينا ألكسندروفنا ستقدّر توصيتى
بك وشهادتى لك • هذا كنز بالنسبة اليك يا أمير ؟ فلا تعيش وحيداً ،
بل تعيش فى حضن أسرة ان صح التعبير • وفى رأى أنا أنه ليس من
الخير لك أن تبقى وحيداً من اليوم الأول فى عاصمة مثل بطرسبرج • ان

نينا ألكسندروفنا ، أم جبريل آرداليونوفتش ، وباربارا آرداليونوفا ،
أخته ، هما سيدتان احتراماً عظيماً ، وأجلهما اجلالاً كبيراً .
ان نينا ألكسندروفنا هي زوجة آرداليون الكسندروفتش ، الجنرال المحال
على التقاعد ، الذى كان رفيقى فى الجيش ، لكننى قطعت جميع صلاتى به
لبعض الأسباب ، دون أن ينعنى ذلك من أن أكنّ له بعض الاعتبار
والاحترام ، انتى أشرح لك هذا كله يا أمير ، من أجل أن تفهم أنتى
أوصى بك وأشهد لك بنفسى ، وأنتى اذن أتحمّل التبعة . ان أجرة
المسكن ، مع الطعام والخدمة ، معتدل جداً ، وأنا آمل أن يكون راتبك
فى القريب كافياً للوفاء به كفاية تامة . صحيح أن المرء يحتاج أيضاً الى
بعض المال يضعه فى جيبه وينفق منه عند الحاجة ، لكننى ألفت نظرك
يا أمير ، دون أن أريد لك أن تفضّب ، ألفت نظرك الى أن من الأفضل
لك ألا يكون فى جييك مال تنفق منه ، لا ولا أن تملك أى مال تضعه
فى جييك . ومع ذلك ، لما كانت حافظة نفودك خالية كل الحلو الآن ،
فاسمح لى أن أقدم اليك خمسة وعشرين روبلاً لنفقاتك الأولى .
وستحاسب فى المستقبل طبعاً ؛ وأعتقد أن لن تكون بيننا أية صعوبة ، اذا
كنت حقاً ذلك الرجل الصادق المخلص الودود الذى كشف عنه حديثك .
ولئن كنت أهتم بك هذا الاهتمام كله ، فلأن هناك أموراً سأعهد اليك بها
وسأعوّل عليك فيها ، أموراً ستعرفها فى المستقبل . هكذا ترى أنتى
أكلمك ببساطة تامة وصراحة كبيرة . آمل يا جانيا ألا ترى بأساً فى أن
يسكن الأمير عندكم ، هه ؟

أجاب جانيا مؤكداً بلهجة فيها ظرف وترحيب وبشاشة :

- بالمكس . ولسوف تكون أُمى سعيدة ...

- أظن أنكم أجرتم الى الآن غرفة واحدة يسكنها ذلك الرجل

الذى يسمى فرديب ... فرديب ...

- فرديشتينكو * .

- نعم ، فرديشتينكو . انه يعجبني صاحبكم فرديشتينكو هذا .
مهرج عفن . لا أفهم لماذا تدعنه ناستاسيا فيليوفنا دائماً . هل صحيح أنه
يمت إليها بقرابة ؟

- لا ، لا ! ما هذه المزاحه ! ما من قرابة ...

- طيب ... شيطان يأخذه ... فما رأيك اذن يا أمير ؟ أنت
مسرور أم لا ؟

- شكراً يا جنرال . لقد غمرتني باريحيتك ، مع أنني لم أطلب منك
شيئاً . لا أقول هذا من باب الكبرياء . حقاً كنت لا أعرف الى أين أذهب .
صحيح أن روجويين قد دعاني الى داره منذ قليل ، ولكن ...

- روجويين ؟ ... لا ... كل شيء الا هذا ! انس هذا السيد
روجويين ! تلك نصيحة أب لابنه ، أو قل نصيحة صديق لصديقه اذا
كنت تؤثر ذلك . ومهما يكن من أمر ، فأننى أوصيك عامةً بالاعتصار
على الأسرة التى ستعيش معها .

قال الأمير :

- ما دمت طيباً نيلاً الى هذا الحد ، فأننى أريد أن أستشيرك فى أمر
التمس فيه نصحك . لقد تلقيت ابلاغاً .

قاطعه الأمير قائلاً :

- لا ، اعذرني ، لا أملك الآن دقيقة واحدة . سأكلم عنك الزيات
بروكوفيتنا حالاً . فاذا أعربت عن رغبتها فى استقبالك منذ الآن (وهذا
ما سأوصيها به) ، فأننى أنصحك بأن تستغل الفرصة لتحظى برضاها .
ان من الممكن أن تقدم لك خدمات عظيمة ، لأنك تحمل اسم اسرتها .

أما إذا لم ترغب في أن تستقبلك ، فلا يسوءك هذا ، وارتقب فرصة أخرى • وأنت يا جانبا ، ألق نظرة على هذه الحسابات أثناء ذلك • لقد كسرتنا رأسها بها أنا وقيدوسييف • ينبغي أن نفكر في ادراجها ••

وخرج الجنرال ، قبل أن يستطيع الأمير أن يعرض عليه الأمر رغم محاولات عدة • وأشعل جانبا سيجارة ، وقدم للأمير سيجارة ، فقبلها الأمير ولكنه لم يحاول أن يستمر في الحديث مخافة أن يزعمه أو أن يضايقه • وأخذ يتفحص المكتب • غير أن جانبا لم يكده يلقى نظرة على الورقة الملأى بالأرقام التي أشار إليها الجنرال • كان جانبا ذاهلاً شارد اللب • حتى ان ابتسامته ونظرته وهيئته المهمة أصبحت أثقل وطأة على صدر الأمير وأشد إيلاماً له حين اختلها •

واقرب جانبا من الأمير فجأة بينما كان الأمير قد عاد يتأمل صورة ناستاسيا فيليوفنا ، فقال له جانبا وهو يتفرس فيه تفرس من يخفى نيةً ويبيّت أمراً •

— اذن تعجيك هذه المرأة يا أمير ؟

أجاب الأمير :

— وجه مدهش ، وأنا واثق بأن القدر الذي كتب عليها قدر نادر • الوجه باش ، ولكنها قاست آلاماً رهيبية ، أليس كذلك ؟ ان المرء يقرأ هذا في نظرتها ، في هذين التواءين ، في هاتين النقطتين تحت العينين عند منبت الحدين • وجه فيه كبرياء ، كبرياء شديدة ! لكنني أَسْأَلُ هل هي خَيْرُ النفس طيبة القلب ؟ ••• آمل أن تكون كذلك ! فهذا يمكن أن يُنْقَذَ كل شيء !

تابع جانبا كلامه دون أن يحوّل عن الأمير نظرتة المحمومة :

— قل لي : هل يمكن أن تتزوج « أنت » امرأة كهذه المرأة ؟

قال الأمير :

- أنا لا أستطيع أن أتزوج أية امرأة • أنا مريض •

- وهل يمكن أن يتزوجها روجوين ؟ ما رأيك ؟

- هو ؟ أظن أنه يمكن أن يتزوجها ، حتى منذ الغد ! يتزوجها

ثمانية أيام ، ثم قد يذبحها !

حين سمع جانبا هذه الكلمات الأخيرة التي قالها الأمير ارتجف

ارتجافاً بلغ من القوة أن الأمير أوشك أن يصرخ • وأمسكه من ذراعه وقال له :

- ماذا بك ؟

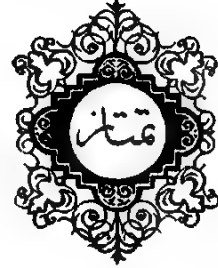
هنا ظهر خادم فى عتبة الباب يقول :

- صاحبَ السمو ، ان صاحب السعادة يرجوك أن تذهب الى صاحبة

السعادة ، الجنرالة •

وخرج الأمير يتبع الخادم •

الفصل الرابع



كل من الآسات الثلاث ايبانتشين بأنها قوية الجسم
نضرة زاهرة ، وبأنها مهية الطلعة ، على منكين
عريضين وصدر جميل ، وذراعين لا تكادان
تقلان قوة عن ذراعى رجل • وبحكم هذه الصحة
وهذه القوة طبعاً ، كنَّ يقدرن قيمة وجبةٍ من وجبات الطعام حق قدرها ،
ولا يحاولن أن يخفين ذلك البتة •

وكانت أمهن ، الجنرالة اليزابت بروكوفينا ، يسوؤها فى بعض
الأحيان أن ترى هذه الصراحة فى شهوتهن للطعام وأقبالهن عليه • غير أن
جزءاً كبيراً من نصائحها وتوصياتها قد فقد فى الواقع ما كان لهذه النصائح
وهذه التوصيات من سلطان عليهن وتأثير فيهن ، رغم أنهن ما زلن يصطنعن
فى قبولها مظهر الامتثال والاذعان ؛ وقد أخذ التحالف بين الأخوات الثلاث
يثير الجنرالة فى كثير من الأحيان ، وهى امرأة تحرص على رزانتها ووقارها
أشد الحرص ، وترى أن الأفضل ألا تناقش وتجادل ، بل أن تقبل وتسلم •
صحيح أن المزاج كثيراً ما ينتصر ويتمرد على قرارات العقل ؛ حتى لقد
أخذت اليزابت بروكوفينا تغدو ، سنةً بعد سنة ، أشد نزوة وأقل صبراً ،
بل وأجمع خيلاً • ولكن لما كانت ماتزال تملك زوجاً أحسنت ترويضه حتى
صار طوع بناتها ، فإن زوجها هذا هو الذى كانت تصب عليه ما يطفئ به

قلبها • فكان الانسجام يعود عندئذ الى المنزل ، وكان كل شيء يجرى بعد ذلك على ما يرام •

على أن الجنرالة كانت لا تفقد شهوة الطعام • هي في العادة تشارك بناتها وجبة الافطار الوفيرة التي تكاد تكون من وفرتها غداء ، والتي تقدم بعد الظهر بنصف ساعة • وتكون البنات قبل هذه الوجبة قد تناولن في أسرتهن عند استيقاظهن من النوم فنجانا من القهوة في الساعة العاشرة تماماً • فهذه عادة من العادات ألقتها وترسخت فيهن منذ زمن طويل • حتى اذا أزفت الساعة الثانية عشرة والنصف فُرشت المائدة في غرفة الطعام الصغيرة المتاخمة للجناح الخاص الذي تحتله الزبانت بروكوفينا ؛ فاذا كان وقت الجنرال لا يضيق بحكم العمل عن المشاركة في هذه الوجبة العائلية الحميمية شارك فيها • اما ما تضمه الوجبة فهو ، عدا الشاي والقهوة والخبز والسل والزبدة ، لحوم مشوية (أضلاع) ونوع خاص من الفطائر تحبه الجنرالة جداً خاصاً ، وربما ضمت المائدة كذلك مرقاً ساخناً مكثفاً •

في الصباح الذي تبدأ فيه قصتنا هذه كانت الأسرة كلها مجتمعمة في قاعة الطعام تنتظر الجنرال الذي كان قد وعد بالمجيء في الساعة الثانية عشرة والنصف • فلو أنه تأخر عن المجيء ولو دقيقة واحدة اذن لأسرعن يرسلن اليه من يبحث عنه • لكن الجنرال قد تقيد بالموعد تقيداً تاماً ، فها هو ذا يدنو من زوجته ليحييها وليقبل يدها ، فيلاحظ على وجهها تعبيراً خاصاً جداً • ورغم أنه كان في عشية ذلك النهار قد أوجس بأن شيئاً من هذا سيحدث بسبب « قصة ما » (على حد تعبيره) ، ورغم أنه حين نام في المساء قد فكر في هذا بكثير من القلق ، فقد استولى عليه خوف واعتراه رعب • وجاءت بناته فقبلنه • كان لا يبدو عليهن أنهن غاضبات، ومع ذلك كان ظاهراً هنا أيضاً أن نمة شيئاً غير طيبي • صحيح أن

ظروفا معينة كانت قد جعلت الجنرال كثير الظنون شديد الارتياب ، لكنه ، وهو رب أسرة خبير حاذق ، قد أسرع يتخذ الاجراءات اللازمة .

لعلنا نستطيع ، دون أن نُفقد قصتنا هذه بروز معالمها ، أن نتوقف هنا قليلاً ، فنقدم ببعض الشروح فكرةً أقرب الى أن تكون مباشرة ودقيقة وواضحة ، عن الأوضاع والظروف التي كانت عليها أسرة الجنرال ايباتشين في الوقت الذي تبدأ فيه هذه القصة .

سبق أن أشرنا الى أن الجنرال كان - رغم ضآلة حظه من الثقافة - (ولقد كان على كل حال يفتخر بأنه عصامي علم نفسه بنفسه) - كان زوجاً خبيراً وأباً بارعاً . ولقد قرر خاصةً ألا يحث بناته كثيراً على الزواج . وكان لا يحرص على أن « يعلق نفسه فوق رموسهن بغير انقطاع » ، وأن يعذبهن دائماً بحب أبوى يسعى الى سعادتهن ، كما يحدث هذا في كثير من الأحيان حدوثاً طبيعياً ، بغير قصد أو ارادة ، حتى في أعقل الأسر التي عندها بنات للزواج .

حتى لقد استطاع أن يقنع زوجته بهذا المذهب ، وتلك مهمة بالغة الصعوبة ، لأنها تعارض غريزة المرأة . غير أن حجج الجنرال وأدلتها قد أثمرت ، لأنها كانت تتناول وقائع محسوسة ملموسة . وكان أسلوبه هو التالي : ان البنات اذا تركت لهن حرية التصرف ، فلا بد أن يصلن من تلقاء أنفسهن الى حل معقول ، فيجربى الأمر عندئذ سريعاً ، لأنهن يقبلن عليه بقلوبهن ، متخليات عن النزوات الطارئة ، وعن الغلو والمبالغة في النقد ؛ ولا يكون على الأبوين بعد ذلك الا أن يراقباهنّ بمزيد من اليقظة والتخفى ، ليحبّباهنّ اختياراً رديئاً أو انحرافاً سخيفاً ، حتى اذا آن الأوان ساعداهن بكل ما لهما من قدرة ، ووضعاً تقلهما كله في الميزان ، ليقوداهنّ في الاتجاه السليم . هذا عدا أن نروة الأسرة تربو سنةً بعد سنة بتزايد هندسى ، وأن مركزها الاجتماعى يعلو ويسمق ، فكلما انقضى الزمن

جنت البنات من ذلك نفعاً ، حتى من جهة الخطبة • ولكن ذلك كله قد أضيفت اليه واقعة جديدة : هي أن البنت الكبرى قد بلغت الخامسة والعشرين في مثل الفجاءة ، كأنما على غير توقع (كما يحدث ذلك دائماً) •

وفي تلك الآونة نفسها تقريباً أعرب آتاناى ايفانوفتش توتسكى ، وهو رجل من علية القوم له علاقات رفيعة وثروة خارقة ، أعرب مرة أخرى عن رغبته القديمة فى الزواج • انه فى الخامسة والخمسين من عمره تقريباً ، ذو طبع لطيف محبب ودود ، وذو ذوق رفيع مرهف رقيق • كان يريد لنفسه زواجاً جميلاً • انه يقدر الجمال كما لا يقدره مثله أحد • واذ ربطته منذ مدة بالجنرال ايباتشين صداقة كبيرة كانت تعرّزها وتقوّيها مصالح مشتركة فى بعض المشروعات المالية ، فقد سأله أن ينصحه كما ينصح الصديق صديقه هل يستطيع أن يخطب إحدى بناته • وهكذا فإن الحياة الهادئة الوادعة المنظمة المرتبة التى كانت تعيشها اسرة الجنرال ايباتشين أصبحت موشكة على اضطراب يقلبها رأساً على عقب •

ان أجمل البنات الثلاث ، كما سبق أن ذكرنا ذلك ، انما هي الصغرى ، آجلايا ، بلا مرء ولا جدال • ولكن توتسكى نفسه ، رغم أثرته المفرطة ، قد أدرك أنه ليس له أن يعقد آمالاً من هذه الناحية ، وأن آجلايا ليست له •

ومهما يكن من أمر ، سواء أكانت أختا آجلايا تحبانها حباً أعمى أم كانتا تحملان لها عاطفة مسرقة فى الحماسة ، فالهم أن أسرة ايباتشين كانت تتوقع للأخت الصغرى آجلايا ، بصدق وإخلاص ، لا مصيراً عادياً بل حياةً تقترب أكبر اقتراب ممكن من المثل الأعلى للفردوس الأرضى • فيجب أن يكون زوجها المقبل رجلاً يتمتع بجميع صفات الكمال ، وأن يحقق جميع أنواع النجاح ، فضلاً عما يجب أن ينعم به من ثراء • حتى

ان الأختين كانتا قد قررتا فيما بينهما ، دون كلام كثير لا طائل تحته ، أن تضجيا بنفسيهما في سبيل آجلایا اذا اقضى الأمر ذلك . وقد أعدت الأسرة للفتاة آجلایا مهرا ضخما فذا . وكان الأبوان على علم بالاتفاق الذى تم بين الأختين الكبيرين . ولذلك حين سال توتسكى صاحبه الجنرال ايبانتشين أن يسدى اليه النصيح ، فان الأبوين لم يشكا كثيرا فى أن احدى البنتين لن ترفض تلبية رغبتهما ، لا سيما وأن توتسكى ليس من الرجال الذين تستوقفهم مسألة المهر . والجنرال رجل صاحب خبرة وتجربة ، لذلك قدر الخطوة حق قدرها ؛ واذ أن توتسكى نفسه قد فرض على نفسه ، بسبب بعض الظروف ، تكتما كبيرا فى المباحثات حول هذا الأمر ، فاقصر على جس النبض أو سبر الأرض ان صح التعبير ، فان الأبوين من جهتهما لم يذكرنا للبنات الا افتراضات غامضة وتخمينات مبهمة ؛ فحصلنا فى مقابل ذلك من البنات على تأكيد غامض مبهم هو أيضاً ، لكنه مواسر معزٍ ، بأن الكبرى ألكسندرا قد لا ترفض .

ان ألكسندرا ، على كونها ذات طبع صلب وخلق ثابت ، فتاة عاقلة دمتة لينة سهلة المعاشرة ؛ ولقد ترضى أن تتزوج توتسكى ، فاذا تعهدت بأن تتزوجه برت بمهدا ولم تخلف الوعد . انها لا تشد حياة براقه ساطعة ، ولا خوف معها من مصاعب ومتاعب ، ولا خوف معها من انقلاب مباغت . بالعكس : انها تستطيع أن تجعل الحياة ناعمة وادعة يرفرف عليها الهدوء والسلام . وهى فتاة جميلة ، وان لم تكن ساطعة التألق . هل كان يمكن توتسكى أن يمتنى نفسه بأكثر من هذا ؟

ومع ذلك ظلت القضية تتقدم بخطى بطيئة وتلمس متوجس . فكان توتسكى والجنرال ، بفضل اتفاق ودى ، يتجنبان أن يقوموا الآن بأية خطوة رسمية حاسمة . وكان الأبوان نفساهما ما يزالان لا يكشفان البنات بالأمر صراحة . حتى لقد كان يمكن أن يلاحظ المرء أن بينهما شيئا من

الخلافاً في الرأي • فان الجنرالة ، بصفتها أمّا ، قد أخذت تظهر شيئاً من عدم الرضى ، وكان ذلك أمراً على جانب كبير من خطورة الشأن • وهناك عدا ذلك ظرف معقد شائك كان يعرّض المشروع كله للاخفاق اخفاقاً حاسماً •

ان أصل هذا الظرف « المعقد الشائك » (على حد تعبير توتسكى) يرجع عهده الى زمن بعيد ، الى ثمانية عشر عاماً خلت • فعلى مقربة من احدى الأراضي التي يملكها آتاناى ايفانوفتش ، وهى أراض تقع فى أحد أقاليم وسط روسيا ، كان يعيش ملاكٌ صغير فقير الحال تقريباً • وكانت حياة هذا الرجل سلسلة من المصائب والنوازل ، سلسلةً تبلغ من التابع والاتصال أنها تشبه أن تكون حكاية من الحكايات أو قصة من القصص • هو ضابط محال على التقاعد ، سليل أسرة عريقة النبالة ، لعلها تفوق فى رفعة المحتد أسرة توتسكى • كان اسمه فيليب ألكسندروفتش باراشكوف • وقد استطاع أخيراً ، وهو غارق فى الديون مرهق برهن عقاراته ، استطاع بالعمل الشاق والجهد المضنى ، وبشغل يشبه أن يكون فى قسوته ومنسفته شغل فلاح ، أن يعود الى استثمار أرضه الصغيرة استثماراً مناسباً • وكان أيسر نجاح يحققه ، يبت فيه شجاعة خارقة ، ويعيد اليه أملاً كبيراً ، حتى امتلأ ثقة وطمأنينة وتفاؤلاً ؟ وذهب ذات يوم الى مركز الاقليم ليقابل أحد دائنيه الكبار ، وليبرم معه اتفاقاً أو ينتهى معه الى تسوية فى حدود الامكان • فلما كان اليوم الثالث من اقامته بمركز الاقليم رأى عميد قريته يصل الى المركز على حصان ، محترق الحدين واللحية ، ويبلغه أن أملاكه قد شب فيها الحريق بالأمس فى وضع النهار ، فهلك امرأته ، لكن أولاده نجوا وسلموا •

لم يستطع باراشكوف أن يصمد لهذا المصاب الجديد ، رغم أنه ألف

ضربات القدر ، فقد عقله وجُنَّ ، ثم مات بحمى دماغية بعد شهر واحد .

وقد بيعت أراضي المحترقة وبيع فلاحوه المبعثرون لسداد ديونه .
أما ابتاه الصغيرتان ، وعمرهما ست سنين ، فقد تكرم آتاناى ايفانوفتش
توتسكى فكفلهما .

تربّت البنتان أولاً مع أولاد وكيل توتسكى ، وهو موظف محال
على التقاعد ، رب أسرة كبيرة العدد ، ألمانية فوق ذلك . ولم تلبث ناستاسيا
أن أصبحت وحيدة ، لأن أختها الصغرى ماتت بمرض السعال الديكى .
أما توتسكى الذى كان يعيش فى الخارج ، فلم يلبث أن نسيهما كليهما .
وبعد خمس سنين ، مرَّ آتاناى ايفانوفتش بالمنطقة ، فخطر بباله أن يزور
أراضي هنالك ، فإذا هو يلاحظ فى منزله الريفى ، مع أسرة وكيله
الألماني ، فتاة حلوة عذبة لذيذة فى الثانية عشرة من عمرها ، فتاة فارهة
ماهرة ، ذكية لطيفة ، تبشر بأنها ستكون فى المستقبل بارعة الجمال
فاتنة الحسن . لقد كان توتسكى فى هذا المجال رجلاً ذا خبرة وتجربة ،
لا يخطئ ظنه ولا يخيب فآله . ولم يقض فى أراضي هذه المرة الا بضعة
أيام ، لكنه قد اتسع وقته مع ذلك لأن يتخذ اجراءاته . فحدث تغير كبير
فى تنشئة الفتاة وتعليمها : جىء لها بمربية سويسرية هى امرأة محترمة
متقدمة فى السن ، لها خبرة فى التربية والتعليم ، مثقفة ، قادرة على أن
تعلم ، عدا اللغة الفرنسية ، علوماً شتى .

سكنت المربية السويسرية فى المنزل الريفى ، وسار تعليم الصغيرة
ناستيا بخطى سريعة . فما انقضت أربع سنوات حتى انتهت دراسة ناستيا ،
وسافرت المربية ، فجاءت عندئذ سيدة هى ملائكة لها أطيان تجاور أرضاً
يملكها توتسكى فى إقليم ناء . جاءت هذه السيدة فأخذت ناستيا تنفيذاً
لأوامر آتاناى ايفانوفتش ، وعملاً بسلطات خوّلها إياها . ان فى تلك

الأرض الصغيرة التي يملكها توتسكى جناحاً ان يكن صغيراً فانه حديث البناء مؤثت تأثيثاً جميلاً فيه ذوق ، وفيه أناقة • وكان من المصادفات التي تشبه العمد أن تلك القرية نفسها كان اسمها هذا الاسم الموحى : «أوترادنويي» *

أخذت السيدة الفتاة الى ذلك المسكن الهادئ رأساً ، ولما كانت دارها هي قرية من ذلك المسكن ، وكانت أرملة لا ولد لها ، فقد أقامت مع الفتاة • وكان في خدمة ناستيا هنالك امرأة تتولى أعمال الانفاق الانفاق والحساب ، وخادم شابة لكنها ذات تجربة وخبرة •

وكان المسكن (الشاليه) يضم أدوات موسيقى ، ومكتبة مختارة تناسب الفتيات ، ولوحات ، وصوراً محفورة على الخشب ، وأقلاماً ، ومناقش ، وألواناً ؛ وكان يضم كذلك كلبه سلووية جميلة •

وبعد أسبوعين وصل آتانازى ايفانوفتش بنفسه •••

ومنذ ذلك اليوم أصبح يؤثر تلك القرية الصغيرة المعزولة النائية في السهوب ايثاراً عظيماً • فكان يأتيها كل صيف ، يقضى فيها شهرين ، أو ثلاثة أشهر في بعض الأحيان • وانقضى على هذا النحو زمن طويل هو أربع سنين هادئة وادعة سعيدة ، في جو من ترف البذخ وحسن الذوق •

وفي ذات يوم من مطالع الشتاء ، بعد نحو أربعة أشهر من احدى اقامات آتانازى الصيفية في أوترادنويي ، وهي اقامة لم تطل في تلك المرة أكثر من خمسة عشر يوماً ، جرت شائعة أو قل سمعت ناستاسيا فيليوفنا شائعة تقول ان توتسكى على وشك أن يتزوج ببطرسبرج فتاة جميلة غنية نبيلة المحتد ، أى أن يتزوج زواجاً يناسبه • وقد اتضح فيما بعد أن الشائعة غير صحيحة من بعض النواحي : فالزواج لم يكن الا فكرة أو مشروعاً ، وما يزال كل شيء غامضاً مبهماً • ومع ذلك ولّد هذا الحادث

اضطراباً كاملاً وبليلاً تامة في حياة ناستاسيا فيليوفنا • وسرعان ما برهنت على أنها تملك ارادة حازمة ، وعزيمة قوية ، وصلابة لم تكن في الحسبان ؛ فاذا هي ترك مسكنها الريفى الصغير بلا تردد ، وتسافر الى بطرسبرج ، وتنمضى على الفور وحيدة الى توتسكى •

ذُهل توتسكى ، وأراد أن يوضح لها الأمور وأن يتحل لنفسه الأعذار • لكنه أدرك منذ الكلمات الأولى تقريباً أن عليه أن يغيّر تغييراً تاماً ، طريقة كلامه ونبرة صوته ، وموضوعات حديثه الممتعة الأخاذة التى أصابت حتى ذلك الحين نجاحاً كبيراً ، وأن يغيّر منطقته نفسه ، أن يغير كل شيء ، كل شيء ! ان امامه الآن امرأة أخرى لا تشبه المرأة التى كان قد عرفها حتى ذلك الحين والتى تركها فى شهر تموز (يولييه) بقرية أوترادنوبى •

لقد اتضح قبل كل شيء أن هذه المرأة الجديدة تعرف وتفهم أشياء كثيرة ، أشياء تبلغ من الكثرة أن المرء يتساءل أين عساها حصلت مثل هذه المعارف وكيف استطاعت أن تكون آراء واضحة هذا الوضوح كله • هل يمكن أن يكون ذلك قد تمّ لها فى مكتبتها التى هى مكتبة فتيات ؟ وكأن هذا كله لم يكن كافياً أيضاً ، فهى تفهم الشؤون القضائية كذلك أكمنّ الفهم ، وفى ذهنها تصورات واضحة وضوحاً كبيراً ان لم يكن عن المجتمع كله ، فمن الطريقة التى تجرى بها بعض الأمور فيه • ثم ان طبعها الآن ليس طبعها فى الماضى • لقد زابلها ذلك النوع من الحشية ، لقد تحررت من ذلك الوجع المبهم الغامض الذى تتصف بمثله بنات المدارس الداخلية ، وتحررت من تلك الاندفاعات الساذجة الحلوة التى يلفظها فى بعض الأحيان حزن وقلق وخوف يمضى الى حد ذرف الدموع •

لا ، ان أمام توتسكى الآن امرأة لم يسبق أن تصورها فى هذه الصورة ، امرأة غريبة عجيبة ، تضحك مقهقهة بأعلى صوتها ، وتسطره

بوابل من سخريات مسمومة ، امرأة تعلن له صراحة بأنها لم تشعر نحوه
فى يوم من الأيام بماطفة غير عاطفة الاحتقار العميق الذى يبلغ مبلغ
التقرز الباعث على الغثيان ، وهو تقرز ملأ نفسها بعد انقضاء شعور الدهشة
الأولى فوراً •

ان هذه المرأة الجديدة تعلن له أنها لا يهملها فى شىء أن يتزوج
حالا أية امرأة ، ولكنها مع ذلك قد جاءت بدافع الشر وحده تحول بينه
وبين هذا الزواج ، لا لشيء الا لأنها تجد فى ذلك مسرة ، فلا يمكنها الا
أن تستجيب لنداء هذه المسرة • قالت له : « هب ذلك تسلياً على
حسابك • لقد آن لى أخيراً أن أضحك أنا أيضاً ! » •

بهذه الألفاظ انما عبرت عن نفسها على الأقل • قد لا تترجم هذه
المبارات كل ما فى قرارة فكرها • ولكن بينما كانت ناستاسيا فيليوفا
الجديدة هذه تضحك ضحكاً مجلجلاً وهى تبسط حججها وتبدي
أسبابها ، كان آتانازى ايفانوفتش يدرس الموقف بينه وبين نفسه ، ويحاول
أن يضع شيئاً من النظام والترتيب فى خواطره وأفكاره • ودامت هذه
الدراسة مدة طويلة ، فقد أنفق فيها آتانازى ايفانوفتش قرابة أسبوعين ،
ولكنه فى ختام هذين الأسبوعين كان قد عزم أمره واتخذ قراره •

يجب ألا تنسى أن آتانازى ايفانوفتش كان عمره فى ذلك الأوان
نحو خمسين عاماً ، وكان رجلاً مهيباً رصيناً ، وكان ذا وضع اجتماعى
قوى راسخ ، وكان مركزه فى المجتمع الراقى يقوم على أسس متينة
مضمونة •

كان آتانازى ايفانوفتش يحب ويقدر ، أكثر من أى شىء فى العالم ،
شخصه وراحته ورخاءه ودعته ، كما يليق ذلك برجل له مثل تلك
الزايا العالية !... فأى اضطراب يعكّر الصفو ، بل أى قلق يسير

يعتري مجرى الأمور ، كان شيئاً لا يمكن أن يقبله أو أن يحتمله تنظيمٌ للحياة ساهم عمرٌ كاملٌ في إقامته وترسيخه .

وسرعان ما أوجت الى توتسكى تجربته الواسعة وحصافته رأيه وصدق حكمه أنه أمام امرأة فريدة قادرة على أن تحقق وعيدها وتنفذ تهديداتها ، لا سيما وأنها لا تحرص على شيء في هذا العالم ، وأنها لا سبيل إذن الى اغرائها . لا ، لا ! واضح أن الأمر هنا أمر آخر تماماً ! ان ههنا نوعاً من اختلاط عاطفى واستياء خيالى روائى ليس له سبب واضح ولا موضوع معين ، ان ههنا رغبة فى الاحتقار لا يرتوى لها ظمأ ولا تقف عند حد ، أى ... ان ههنا شيئاً ... سخيلاً كل السخف ، شيئاً فظاً غليظاً جافياً لا يمكن قبوله فى المجتمع الراقى المهذب ، شيئاً هو بالنسبة الى رجل شريف كريم بلية من عند الله .

كان يمكن طبعاً أن تعين توتسكى ثروته وعلاقاته ، فتتيح له بسهولة أن يقوم بعمل من تلك الأعمال الحثيثة الصغيرة ، البريئة كل البراءة ، التى يمكن أن تخرجه من المأزق وتخلصه من الورطة . وكان واضحاً من جهة أخرى أن ناستاسيا فيليوفا لا تقدر أن تفعل أى شيء ضده ولو من الناحية القانونية القضائية مثلاً ؛ لا ولا تستطيع أن تثير فضيحة ذات بال ، لأن من السهل على آتاناى ايفانوفتش أن يجعلها تخفق لا محالة . ولكن ذلك كله انما يصدق اذا تصرف ناستاسيا فيليوفا تصرف جميع الناس فى أمور كهذه الأمور ، ولم تبتعد كثيراً عن القاعدة . ولكن نفاذ البصيرة وسداد الرأى وحصافة الحكم انما خدمت آتاناى ايفانوفتش فى هذا المجال : فلقد استطاع أن يحزر أن ناستاسيا فيليوفا تدرك هى نفسها ادراكاً كاملاً أنها عاجزة من الناحية القانونية القضائية ، واستطاع أن يحزر أن فى ذهنها شيئاً آخر غير هذا ، وذلك ما كان يفضحه سطوع عينيها وبريق نظراتها . انها لدم حرصها على شيء البتة ،

ولعدم حرصها حتى على شخصها (لا بد أن يكون توتسكى على جانب كبير من الذكاء ونفاذ البصيرة ليدرك في تلك اللحظة أن ناستاسيا أصبحت منذ مدة طويلة لا تحفل بشخصها البتة ولا تقيم لمصيرها أى وزن ؛ لا بد لتوتسكى الربيبى المستهتر المستخف الذى لا يصدق شيئاً ولا يؤمن بشئ غير مباحج الحياة الاجتماعية ، لا بد له خاصة من كثير من الذكاء ونفاذ البصيرة ليؤمن بأن عاطفة ناستاسيا تلك جدٌ لا هزل) ، أقول أن ناستاسيا فيليوفنا ، لعدم حرصها على شئ البتة ، ولعدم حرصها حتى على شخصها كانت قادرة على ألا تحجم عن تحطيم حياتها تحطيماً لا رجعة عنه ، وعن تدمير وجودها بأسوأ الأساليب ، ولو اقتضى الأمر أن تذهب الى سيبيريا ، سجينه ، لا لشيء الا للتلذذ باهانة وايداء الرجل الذى تكرهه كرهاً يفوق طاقة الانسان على الكره .

ان آتانازى ايفانوفتش لم يُخف فى يوم من الأيام أنه جبان بعض الجبن ، وكان يسمى هذا الجبن محافظة . لذلك كان لا بد أن يروّعه أن يتصور أن يُقتل أمام الهيكل ، أو أن يقع له حادث آخر من هذا النوع على مرأى من الناس ، حادث غير مستحب وغير لائق ... على أن اغتياله أو اصابته بجرح أو تلقيه بصفة فى وجهه أمام الملاء أو وقوع أى حادث له آخر من هذا النوع لم يكن يهمه وقوعه بقدر ما كانت تهمه طريقة وقوعه وصورة حدوثه على هذا النحو الذى لا يمكن أن يعد طبيعياً ولا يمكن أن يعد لائقاً مهذباً ...

وبهذا نفسه انما كانت تهدده ناستاسيا فيليوفنا ، ولو تهديداً مضمرأ حتى الآن . كان يعلم أنها تعرفه معرفة عميقة ، وأنها ستعرف أين تهوى عليه بضربتها . واذا أن ذلك الزواج كان ما يزال فكرة أو مشروعاً ، فان آتانازى ايفانوفتش خضع وتراجع وأذعن واستسلم أمام ناستاسيا فيليوفنا .

وهناك أمر آخر سهل عليه اتخاذ هذا القرار • ان من الصعب على المرء أن يتصور مدى الاختلاف بين ناستاسيا فيليوفا الجديدة وبين ناستاسيا فيليوفا القديمة ، حتى من ناحية الجسد • ان ناستاسيا لم تكن في الماضي الابنية حلوة جداً ، أما الآن ••• آه ! ان توتسكى قد ظل مدة طويلة لا يغفر لنفسه انه نظر اليها أربع سنين دون أن يراها حق رؤيتها ! صحيح أن انقلاباً في صلاتهما يبلغ ذلك المبلغ من المباغنة والمفاجأة لا بد أن يكون له شأن في هذا • ولكن توتسكى قد تذكر لحظات خطرت بباله فيها أفكار غريبة حين كان ينظر الى عينيها فكأنه يوجس في أعماقها سرّاً خفياً مظلماً لا يدري ما هو ! كانت تلك النظرة تحدّق الىه ، وتثبت عليه ، وكأنها تعرض له لفرأ أو أحجية أو طلسمًا • وكثيراً ما خطف بصره ، في أثناء السنتين الأخيرتين ، انكفاء لون ناستاسيا فيليوفا : كانت في بعض الأحيان تشحب شحوباً رهيباً ؛ والشئ الغريب أن هذا كان يزيدا جمالاً •

كان توتسكى ، وهو في هذا يشبه أمثاله من السادة العجائز العائنين اللاهين القاصفين ، كان في الماضي ينظر نظرة ازدراء الى استيلائه السهل هذا على فتاة بسيطة غير ذات خبرة ؛ ولكنه كان قد غيّر رأيه قليلاً في الآونة الأخيرة • ومهما يكن من أمر ، فانه قد قرر منذ الربيع الماضي أن يقف على ناستاسيا فيليوفا مهراً سخياً ، وأن يسرع في تزويجها برجل محترم واسع الصدر رحب الفكر ، له مركز في اقليم آخر (آه ••• ما أقطع استهزاء ناستاسيا فيليوفا الآن بتلك الفكرة ، وسخرها منها !) • أما الآن فان آتانازى ايفانوفتش ، وقد فتنه جدة الموقف وأغوته ، قال لنفسه ان في امكانه أن يستثمر هذه المرأة الشابة من جديد ، فقرر أن يجعل اقامتها ببطرسبرج ، وأن يحيطها بالترف والرخاء والبذخ • ذلك عدا أن في وسعه أن يفخر في بعض الأوساط باستيلائه على امرأة

كهذه المرأة ، وأن يستمد من ذلك اعتزازاً ومباهاة وظهوراً . لقد كان آتاناى ايفانوفتش يحرص كثيراً على هذا النوع من المجد .

انقضت خمس سنين على إقامة ناستاسيا فيليوفا ببطرسبرج ، وتوضحت فى أثناء ذلك الوقت أمور كثيرة . ان وضع آتاناى ايفانوفتش ليس فيه ما يطمئن . وأسوأ ما فى الأمر أنه وقد خاف مرة ، استبد به الخوف حتى أصبح لا يستطيع التخلص منه . كان خائفاً ، حتى دون أن يعرف كثيراً ممّ هو خائف : كل ما هنالك أنه كان يخشى ناستاسيا فيليوفا . وفى خلال بعض الوقت ، أثناء الستين الأولين ، أخذ يظن أن ناستاسيا فيليوفا تحاول أن تتزوجه . كان يفسّر صمتها عن رغبتها هذه بأنه كبرياء شديدة منها ، وكان مقتنعاً بأنها تنتظر أن يفتحها فى الأمر ، نافذة الصبر . ذلك تصور غريب فى الواقع . غير أن آتاناى ايفانوفتش قد أصبح كبير الظنون والهواجس . فكان اذا ساورته هذه الفكرة يتجهّم وجهه ، وتأخذ تدور فى رأسه خواطر ثقيلة . حتى اذا اقتنع فجأة ، فى ذات يوم من الأيام ، بمناسبة حادث من الحوادث ، أنه لو عرض عليها أن يتزوجها لرفضت أن تتزوجه ، دُهِش دهشة شديدة ، بل شعر بشيء من الأسف والحسرة (ذلك هو قلب الانسان !) ، ولم يسلم بهذه الحقيقة الا بعد مدة طويلة .

تفسير واحد بدا له معقولاً : هو أن كبرياء « هذه المرأة الخيالية الشاذة » قد بلغ من الحدة والغلو أنها تفضّل أن تعبّر عن احتقارها دفعة واحدة برفض ، على أن تضمن لنفسها وضعاً مستقراً ببلوغ مرتبة لا تأملها . وأسوأ ما فى الأمر أن ناستاسيا فيليوفا أصبحت تسيطر على الموقف مزيداً من السيطرة شيئاً بعد شيء . لقد قاومت كل اغراء من نوع مادی ، مهما تكن ضخامته ، وهى رغم قبولها ما أحيطت به من ترف وبذخ ،

تعيش حياة متواضعة ، ولم تكد تدّخر شيئاً من مال خلال هذه السنوات الخمس .

وقد تجرأ آتاناى ايفانوفتش فعمد الى حيلة بارعة كل البراعة لطيفة كل اللطف لتحطيم سلاسلها وفك أغلالها ، فحاول بمعاونات ذكية حاذقة ، على نحو خفى محكم لبق ، أن يفتتها بمغريات مثالية . ولكن لا الأمراء ، ولا الفرسان ، ولا سكرتيرى السفارات ، ولا الشعراء ، ولا الروائيون ، حتى ولا الاشتراكيون ، أمكن أن يؤثروا فيها أى تأثير . لكأن قلبها من حجر ، ولكأن عواطفها قد جفّت وماتت الى الأبد .

كانت تعيش حياة أميل الى الانزواء ، تقرأ وتطالع وتدرس وتهوى الموسيقى . كانت علاقاتها قليلة ، وكانت تنصرف باثارها الى نساء طاعنات فى السن سخيقات من زوجات الموظفين . وكانت تعرف ممثلتين ، وتعرف عدداً من عجائز طبيات أخريات . وكانت تتردد على أسرة كثيرة الأولاد هى أسرة معلم طيب من معلمى المدارس الابتدائية ، وكان أفراد هذه الأسرة يبادلونها الحب ويبتهجون بزياراتها . وكثيراً ما كان يجتمع عندها فى المساء ، خمسة أشخاص من معارفها أو ستة ، وقلماً يزيد العدد عن ذلك . وكان توتسكى نفسه يحضر سهراتها حضوراً مطّرداً . وكان الجنرال ايبانتشين قد استطاع فى الآونة الأخيرة ، بعد شىء من المشقة ، أن يظفر بزيارة بيت ناستاسيا فيليبوفنا . وفى الوقت نفسه ، تمكن موظف صغير اسمه فردشتينكو أن يتعرف عليها بدون أى عناء . انه نوع من مهرّج سىء التربية قليل الذوق يدعى خفة الظل وروح الدعابة ويميل الى الشراب والسكر .

وكانت ناستاسيا تستقبل كذلك شاباً غريباً اسمه بتسين ، هو فتى متواضع مرتب يعتنى بهندامه ، كان فقيراً بائساً فلما تخلص من الفقر

والبؤس أصبح مرأياً • وفي آخر آونة تعرفت ناستاسيا على جبريل
آرداليوتشش •••

يجب أن نذكر أخيراً أن سسمة عجيبة كانت تحيط بناستاسيا
فيليوفا • ان جميع الناس يعرفون جمالها ، ولكن لا شئ غير ذلك ،
وما من أحد كان يمكنه أن يتباهى بأنه حظى منها بشئ ، ولا كان هناك
أحد يمكن أن يروى عنها أية قصة • فهذه السسمة وما تمتاز به ناستاسيا
من ثقافة ، ومن رشاقة ، ومن فكر ، ذلك كله قد أوحى الى آتاناى
ايفانوفش خطه ما • وفي تلك الفترة من الزمن انما يقع التدخل النشيط
الفعل الذى قام به الجنرال ايباتشين فى القصة كلها •

حين سأل توتسكى صاحبه الجنرال بكثير من اللطف والمودة أن
يسدى اليه النصيحة التى يسديها صديق الى صديقه ، فى أمر زواجه
باحدى بناته ، فانه قد فتح له قلبه بصدق كامل وصراحة تامة ، فقال انه
عزم أمره على ألا يحجم عن استعمال « أية وسيلة من الوسائل » فى سبيل
الحصول على حريته ، وانه لن يعد نفسه فى أمان ولو وعدته ناستاسيا
فيليوفا نفسها بأنها ستدعه هادئاً فى المستقبل ، وان الأقوال أصبحت
لا تكفيه فلا بد له من ضمانات أكيدة وكفالات تامة • وناقش الرجلان
الأمر ، فقررا أن يعملتا متكاتفين •

اتفقا أولاً على أن يستعملا ألطف الأساليب ، وأن « يضربا على أنبل
أوتار النفس الانسانية » ان صح التعبير • فذهبا الى ناستاسيا فيليوفا ،
وأسرعا توتسكى يتكلم عما فى موقفه من سوء لا يطاق • أقر بأنه آثم
مذنب فى كل أمر من الأمور ، ولكنه اعترف صراحة بأنه من حيث هو
رجل شديد الشبق عاجز عن السيطرة على نفسه ، لا يستطيع أن يشعر
بندامة فيما يتعلق بالخطيئة الأولى التى ارتكبها • وقال ان فى نيته أن
يتزوج ، وانها تملك بين يديها مصير هذا الزواج المناسب الى أقصى

حد ، وانه يستجد بشهامتها ونبل قلبها . وتكلم الجنرال هو أيضا ، بصفته أباً ، فقال كلاماً معقولاً مترناً ، تحاشى فيه أن يستدر العطف والحنان ولكنه ذكر أنه يعترف لها كل الاعتراف بحقها فى تقرير مصير آتاناى ايفانوفتش ، ولم يفته مع ذلك أن يبرز مدلته فى كثير من الكياسة ذاكرأ أن مصير ابنته ، وربما مصير ابنتيه الآخرين ، رهن بما تتخذه هى من قرار . فلما سألت ناستاسيا فيليوفا مستفهمة " عما يراد منها على وجه الدقة " ، اعترف توتسكى ، صادقاً ذلك الصدق نفسه ، بأنها قد بلغت من تخويفه وترويعه منذ خمس سنين أنه أصبح لا يستطيع أن يشعر بطمأنينة كاملة وأمان تام الا اذا وافقت ناستاسيا فيليوفا هى نفسها على زواجه . وأسرع يضيف الى ذلك أن هذا الذى يوحى به الآن يكون سخيلاً لولا أنه مستند الى اسباب قوية ومدعم ببواعث متينة . فلقد لاحظ بوضوح كامل وعرف معرفة محققة أن شاباً من أسرة طيبة جداً ومحترمة جداً ، شاباً تعرفه وتستقبله فى دارها ، هو جبريل آرداليوتتش ايفولجين نفسه ، مولته بحبها منذ مدة طويلة ، ويتمنى أن يحظى بعطفها ولو دفع نصف حياته ثمناً لذلك ؛ وهذه الاعترافات انما أسر بها جبريل آرداليوتتش منذ زمن طويل اليه هو ، آتاناى ايفانوفتش ، صادقاً مخلصاً ، بكل ما يحمله له من صداقة ، وبكل ما يزخر به قلبه الشاب من اندفاع وحرارة ؛ كما ان ايفان فيدوروفتش ، حامى الفتى ، يعرف الأمر منذ مدة هو أيضاً ؛ ومن حق آتاناى ايفانوفتش أن يظن ، الا اذا أخطأ ظنه ، أن عواطف الفتى لا تجهلها ناستاسيا فيليوفا أيضاً ، حتى لقد خيل اليه أنها تظهر بعض الرضى عنها وبعض الترحيب بها . وطبعاً انه يصعب عليه أن يتحدث فى هذا الأمر أكثر مما يصعب ذلك على أى انسان آخر . ولكن اذا شئت ناستاسيا فيليوفا أن تصدق أنه ، عدا مصلحته الأتانية ورغبته فى تنظيم حياته ، قد يريد لها الخير ، فلا بد أن تدرك أن عزلتها

تبدو له منذ مدة طويلة غريبة وأليمة • وهو واثق بأن هذه العزلة ليست
الا ظلمات كثيفة ، وأنها ناشئة عن الكفر بإمكان أن يجدد المرء حياته •
ولكنه مؤمن بأن حياته يمكن أن تتبع انبعاثاً رائعاً بالحُب والأسرة اللذين
سيضيفان عليها معنى جديداً •

وأضاف آتانا زى ايفانوفتش يقول ان مواهب قد تكون لامعة تضع
عندها ، وان رضاها هذا عن حزنها ويأسها ، أى هذا النوع من الرومانسية ،
لا يتفق والحس السليم ولا يناسب ما تتحلى به نفس ناستاسيا فيليوفنا
من نبل •

وبعد أن كرر مرة أخرى أن الكلام فى هذا الأمر يشق على نفسه
أكثر من أى انسان آخر ، ختم حديثه قائلاً انه لا يملك الا أن يأمل
ألا تستقبل ناستاسيا فيليوفنا بالاحتقار والازدراء رغبته الصادقة فى أن
يكفل لها مستقبلها بأن يقدم اليها رأس مال مقداره خمسة وسبعون ألف
روبل • وأضاف معلقاً ان هذا المبلغ مكتوب لها فى وصية ، فلا داعى الى
أن تعدد تمويضاً ••• أو شيئاً من هذا القليل ••• ولا داعى على كل حال
الى ألا يصدق المرء وألا يفتر هذه الرغبة الانسانية فى تخفيف عذاب
الضمير ، الخ ، الخ ، الخ •

الخلاصة أن آتانا زى ايفانوفتش قال كل ما يحسن أن يقال فى مثل
هذه الأحوال •

ولقد تكلم آتانا زى ايفانوفتش مدة طويلة ببلاغة وفصاحة ، وأشار
عرضاً - وهذا أمر هام جداً - الى أن هذه هى المرة الأولى التى يجىء
فيها على ذكر مبلغ الخمسة وسبعين ألف روبل ، فما من أحد على
الاطلاق ، سمع عن هذا قبل الآن ، حتى ولا ايفان فيدوروفتش •

وتكلمت ناستاسيا فيليوفنا فأذهل جوابها الرجلين •

فلا شيء فيها الآن مما كان يسود كلامها من سخرية وعداوة وكره ،
ولا شيء من تلك الضحكة التي كانت ذكرها وحدها تجسد توتسكي
رعباً ، بالعكس : ان المرء ليحس بأنها تكاد تكون سعيدة من قدرتها أخيراً
على أن تجرى مع أحد الناس حديثاً فيه اخلاص وصراحة ، وفيه مودة
وصداقة . واعترفت بأنها كانت تتمنى منذ مدة طويلة أن تحصل على
نصيحة من صديق ، وأن الكبرياء وحدها هي التي منعتها من طلب النصيح
حتى الآن . أما وقد تكسر الجليد ، فلا شيء يمكن أن يبهجها وأن
يسعدها أكثر من ذلك .

لقد بدأت ناستاسيا فيليوفنا كلامها وهي تبسم ابتسامة حزينة ، ثم
ضحكت من كل قلبها حين قالت انها لن تثير زوبعة كالزوبعة التي أثارته
في الماضي ؟ وانها على كل حال قد غيّرت رأيها في أمور كثيرة منذ مدة
طويلة ، وانها رغم أن قلبها لم يتغير ، لا تملك الا أن تعترف بالأمر
الواقع ، فما حدث قد حدث ، وما مضى قد مضى ، حتى انها ليدّهشها بقاء
هذا الرعب في نفس آتاناازى ايفانوفتش الى الآن .

ثم اتجهت بالكلام الى ايفان فيدوروفتش فقالت له ، باحترام عميق ،
انها قد سبق أن سمعت عن بناته ، وانها تمحضهن منذ مدة طويلة أصدق
الاعتبار وأعرق الاحترام ، وانها لتشعر بسعادة واعتزاز متى تصورت أن
في وسعها أن تنفعهن في شيء .

ولقد كان صحيحاً كذلك أن حياتها ، في تلك الآونة ، كانت شاقة
كالحلة ، كالحلة الى أبعد الحدود . لقد حزر آتاناازى ايفانوفتش أحلامها .
نعم ، انها تودّ لو تبعت ، ان لم يكن بالحب فبالحياة في أسرة مع الشعور
بغاية جديدة . لكنها لا تكاد تستطيع مع ذلك أن تقول شيئاً عن موضوع
جبريل آرداليوتتش . صحيح أنها يبدو لها أنه يحبها ، وصحيح أنها
تشعر من جهتها بأنه كان يمكنها أن تحبه لو آمنت بمسألة تعلقه وقوة

ارتباطه ، ولكن به صادقاً ، فانه ما يزال شاباً صغيراً ، فمن الصعب اتخاذ قرار . وعلى كل حال ، فان ما يعجبها فيه أكثر من أى شيء آخر هو أنه يعمل وأنه يعمل أسرةً بكاملها .

وقد سمعت عنه أنه شاب نشيط ، فعّال ، عزيز النفس ، ذو أنفة ، طموح ، تواق الى الارتقاء . كما سمعت أن نينا ألكسندروفنا ايفولجينا ، أم جبريل آرداليوتش ، امرأة جديرة بالاعجاب ، خليقة بالاحترام من جميع النواحي ، وأن أخته باربارا آرداليونوفا فتاة نشيطة فعّالة ممتازة هي أيضاً . لقد كلمها بتسعين كثيراً عنهم ؛ وهى تعرف أن الأسرة كلها تتحمل أنواع الشقاء مرحة متفائلة ؛ وهى تود أن تتعرف الى هذه الأسرة ، ولكن بقى عليها أن تعرف هل تحسن هذه الأسرة استقبالها ، وهل ترحب بها .

الخلاصة أنها على وجه الاجمال لا تعارض فكرة هذا الزواج ، لكنها ترى أن الأمر يستحق مع ذلك تفكيراً جدياً ، فهى تمنى لهذا ألا تستحث على الاسراع كثيراً . أما فيما يتعلق بالحسنة وسبعين الف روبل ، فان آتاناى ايفانوفتش قد أخطأ حين تخرج من الكلام عليها . فهى تعرف قيمة المال حق معرفتها ، وهى لذلك تقبل هذه الهدية مقبلة . وشكرت لآتاناى ايفانوفتش أيضاً أنه كان رقيق الشعور فلم يقل عن هذا الأمر كلمة واحدة لا للجنرال ولا لجبريل آرداليوتش . ولكنها تساءلت لماذا لا يُطلع جبريل على ذلك سلفاً هو أيضاً ؟ فانها لن تشعر بأى خجل من هذا المال حين تصبح عضواً فى الأسرة . ثم انها لا تتوى أن تعتذر لأى انسان عن أى شيء ، وتحرص على أن يُعرف هذا . وهى لن تقبل أن تزوج جبريل آرداليوتش الا حين تقتنع بأنه لا يضمّر أية فكرة سيئة عنها ، لا هو ولا أسرته . ومهما يكن من أمر ، فهى لا تشعر بأنها آئمة فى شيء ، وهى تود أن يطلع جبريل آرداليوتش على ظروف حياتها أثناء

هذه السنين الخمس بمدينة بطرسبرج ، وعلى صلاتها بآنانازى ايفانوفتشى ،
وعلى الثروة التى استطاعت أن تجنيها ؛ وهى أخيراً ان قبلت هذا المال ،
فلا تقبله ثمناً لعارها الذى لا تحس أنها مسئولة عنه ، وانما تقبله تعويضاً
عن تحطيم حياتها •

وقد بلغت من الحماسة والحرارة والحمية أثناء تدفق لسانها بهذا
الكلام كله (وذلك طبعى جداً على كل حال) أن الجنرال ايبانتشين شعر
بارتياع كبير ، واعتبر القضية منتهية • أما تومسكى ، المروّع المذعور الى
الآن ، فانه لم يصدّق هذا الكلام تصديقاً تاماً ، وظل يخشى أن يكون
تحت الأزهار أفعى •

ومع ذلك بدأت المباحثات بين الصديقين • فكانت النقطة التى تعتمد
عليها حيلتهما ، أعنى امكان أن تتوله ناستاسيا فيليوفنا بحب جانبا ، كانت
هذه النقطة تتوضح وتتأكد شيئاً بعد شئ • ، حتى ان تومسكى نفسه كان
يصل فى بعض الأحيان الى الاعتقاد بحظ من النجاح • وفى أثناء ذلك
جرى حديث بين ناستاسيا فيليوفنا وبين جانبا ، حديث لم يتبادلا فيه الا
كلاماً قليلاً ، فكان حياء ناستاسيا وخفرها كانا يصدانها عن الكلام ؛ ومع
ذلك قبلت حبه وارترضته ، لكنها أصرّت على أن تعلن له أنها لا تريد أن
ترتبط بأى عهد ، وأنها الى أن يتم الزواج (اذا هو تم) تحتفظ لنفسها
بحرية أن تقول : « لا » ، حتى آخر لحظة ؛ ومنحت جانبا هذه الحرية
نفسها على كل حال •

وسرعان ما علم جانبا علم اليقين ، بفضل مصادفة مواتية ، أن اعتراض
أسرته كلها على هذا الزواج ، واعتراضها على شخص ناستاسيا فيليوفنا
نفسها ، وهو اعتراض كانت تفضحه مشاجرات متكررة ، كانت ناستاسيا
فيليوفنا تعرفه بجميع تفاصيله • ومع ذلك لم تكلمه عنه فى يوم من
الأيام ، مع أنه كان يتوقع أن تفتحه فيه كل يوم •

على أن هناك أشياء كثيرة أخرى ينبغي أن نقولها عن الظروف والأحداث التي أثارها مشروع الزواج هذا ، والتي أثارته المباحثات بين الصديقين ، ولكننا قد استبقنا منذ الآن أموراً كثيرة ، لا سيما وأن بعض الظروف نم تكن تبدو في ذلك الأوان الا شائعات غامضة جداً .

من ذلك ما قيل من أن توتسكى قد علم ، لا أدري من أين ، أن ناستاسيا فيليوفا أصبحت لها علاقات سرية غير محدّدة المعالم ولا واضحة الغايات بالآسات ايباتشين ؛ وهي شائعة لا يمكن أن يصدقها العقل . وفي مقابل هذا صدّق توتسكى رغم ارادته شائعة أخرى أخذت تسبب له في الليل احلاماً ثقيلة وكوابيس مرهقة : لقد أكد له بعضهم أن ناستاسيا فيليوفا كانت على علم كامل بأن جانيا لن يتزوجها الا في سبيل المال وحده ، وانه امرؤ حقير النفس ، أسود القلب ، شديد الطمع ، قليل الصبر ، حسود ، لا يحب الا نفسه ، ولا يسعى الا وراء مصلحته ؛ وقيل ان ناستاسيا قد علمت كذلك أن جانيا ان كان قد سعى الى الظفر بها في الماضي عاشقاً مولّها ، فانه منذ اليوم الذي قرر فيه الصديقان أن يستغلا غرامه لمصلحتها يبيعه ناستاسيا فيليوفا زوجة شرعية له ، قد أخذ يكرهها كرهاً شديداً وينفضها بغضاً قوياً فكأنها جائوم أو كابوس ؛ ثم اختلطت الشهوة والكراهية في نفسه اختلاطاً عجيباً ، حتى اذا قرر أخيراً ، بعد تردد طويل أليم ، أن يتزوج هذه « المرأة الفاسدة » ، كان في قرارة نفسه قد حلف ليتقن منها شرّاً انتقام ، وليجعلها تدفع ثمن ذلك كله غالياً باهظاً .

وقيل ان ناستاسيا فيليوفا كانت على علم بكل شيء ، وانها كانت تدبّر في الخفاء أمراً .

وقد بلغ توتسكى من الخوف أنه أصبح لا يطلع ايباتشين على هواجسه وعلى ما يحس به من نذر الشؤم . ومع ذلك كان في بعض اللحظات يسترد رباطة جأشه ويستعيد تفاؤله ونشاطه واتعاشه ، كما يقع

هذا لكل انسان . ذلك ما حدث له ، مثلاً ، حين وعدت ناستاسيا فيليوفنا
اصدقائها أخيراً بأن تعلن لهم كلمتها الأخيرة في مساء الاحتفال بعيد
ميلادها .

غير أن هناك شائمة أخرى هي أغرب الشائعات وأبعدها عن أن
يصدقها العقل ، شائمة تتعلق بالمحترم ايفان فيدوروفتش نفسه ، كانت
تؤكد شيئاً بعد شيء ، واأسفاه !

كان ذلك كله يبدو من النظرة الأولى جنوناً محضاً . لقد كان من
الصعب على المرء أن يصدق أن رجلاً مثل ايفان فيدوروفتش ، يمكنه
في ختام حياته المشرقة الكريمة ، مع ما يملكه من سلامة الحس ورجاحة
العقل وسعة التجربة وغنى الخبرة وما الى ذلك ، أن يقع هو نفسه في
غرام ناستاسيا فيليوفنا ، وأن تبلغ نزوته هذه حدّاً يشبه أن يكون حد
الوله العنيف والهوى الجارف . ماذا كان يأمل ؟ ان من الصعب على المرء
أن يجيب عن هذا السؤال . ولعل ايفان فيدوروفتش كان يعوّل على
على التواطؤ مع جانبا . ولقد كان توتسكى ، على كل حال ، يشتهيه في
وجود نوع من الاتفاق المضمّر بين الجنرال وجانبا ، وهو اتفاق قائم على
فهم متبادل . ومن المعروف أن الرجل الذى يستسلم لهوى جارف ،
ولا سيما اذا كان متقدماً في السن ، قد يعنى عماوة كاملة ، فاذا هو يرى
أملاً حيث لا أمل ، واذا هو يفقد سداد الرأى وصدق الحكم فقدأ تماماً ،
واذا هو يتصرف تصرف صبي غرٍ مهما يكن عظيم الذكاء !

كان معروفاً أن الجنرال قد هباً لعيد ميلاد ناستاسيا فيليوفنا عقداً من
اللؤلؤ كلفه مبلغاً ضخماً ، وانه كان يعوّل على هذه الهدية كثيراً ، رغم
علمه بأن ناستاسيا فيليوفنا امرأة زاهدة في المنفعة . وكان في عشية عيد
الميلاد محموراً من شدة الاضطراب ، ولكنه استطاع أن يحسن اخفاء
عواطفه بحذق وبراعة .

وعن ذلك العقد من اللؤلؤ انما كانت الجنرالة ايباتشين قد سمعت
الناس يتحدثون !

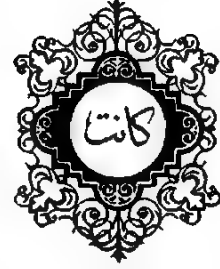
صحيح أن الزابت بروكوفينا قد استطاعت منذ مدة طويلة أن
تدرك خفة زوجها وطيشه ، حتى لقد ألفت فيه هذه الخفة وهذا الطيش
واعتادت عليهما بعض الاعتياد • ولكن لم يكن في وسعها طبعاً أن تدع
لحادث خطير كهذا الحادث أن يتم • ان حكاية اللؤلؤ هذه تهمها الى أبعد
حد • وقد أدرك الجنرال الأمر في الوقت المناسب • انه منذ الليلة البارحة
قد سمع بضغ كلمات ذات دلالة ، وهو يوجس أن مناقشة حاسمة ستقوم
اليوم •

لهذا السبب كان الجنرال ، في هذا الصباح الذي تبدأ فيه قصتنا ،
لا يشعر بأى رغبة في أن يتناول طعام الافطار مع الأسرة • ولذلك كان
قد قرر ، حتى قبل وصول الأمير ، أن ينصرف من البيت بحجة العمل •
وكانت كلمة « الانصراف » تعنى عند الجنرال في بعض الأحيان « الفرار » !
كان لا يطمع في أكثر من أن يقضى النهار ، ولا سيما السهرة ،
بدون حادث يتفص عليه صفوه •

وفجأة وصل الأمير في هذا الوقت المناسب •

قال الجنرال لنفسه وهو يدخل على زوجته : « الله أرسله » !•••

الفصل الخامس



الجنرالة شديدة الاعتزاز بببل محتدها • ففى
وسمك أن تتخيل انفعالها حين علمت • دون أى
تمهيد • ان ذلك الأمير ميشكين نفسه • الرجل
الأخير من سلالة أسرتها • الذى سبق أن سمعت
عنه أشياء غامضة • ليس الا شاباً مسكيناً أبله • يكاد يكون معوزاً •
ويضطره فقره الى قبول مساعدة أو معونة • وقد حرص الجنرال على أن
يوقف فى نفس زوجته انفعالاً قوياً وأن يبعث فيها اهتماماً شديداً • ليصرفها
عن الموضوع الذى كان يشغل بالها • ويتحاشى بذلك أن تخوض فى موضوع
عقد اللؤلؤ •

حين تكون الجنرالة فى حالات قصوى • فانها تحملىق بعينها • وترد
جسمها الى وراء • وتأخذ تنظر الى أمام زائفة الهيئة لا تقول كلمة
واحدة •

هى امرأة فارعة القوام • فى سنّ زوجها • شعرها أسمر قد ملأه
الشيب لكنه ما يزال كثيفاً • أنفها محدودب قليلاً • وجهها ضامر نحيل
أصفر • خذاها خاسفتان • شفتاها رقيقتان منضمتان • جبينها عال لكنه
ضيق • عيناها شهاوان واسعتان لهما فى بعض الأحيان تعبير لا يتوقعه المرء
البته • وقد ألفت منذ القديم أن تعتقد أن نظرتها تأثيراً كبيراً • ثم بقيت
لها هذه القناعة الى الأبد •

- أن أستقبله ؟ تريد منى أن أستقبله الآن ؟ فوراً ؟

كذلك قالت الجنرالة محمقةً بكل ما أوتيت من قوة ، محدقةً الى ايفان فيدوروفتش النشيط الذى كان يتحرك حولها •

أسرع الزوج يحييها موضعاً :

- لا حاجة بك الى كثير من الاحتفال ومن التقيد بالمراسم معه ، اذا كنت تريد أن تريه يا عزيزتى • انه لطفل حقاً ، بل انه ليشير بمض الشفقة • انه مصاب بنوبات مرض لا أدري ما هو ! لقد وصل الآن من سويسرا مرتدياً ثياباً غريبة كأنها على الزى الألمانى ، وليس معه قرش واحد ، حتى ليكاد يذرف دموعاً • أعطيته خمسة وعشرين روبلاً ، وآمل أن أجد له عملاً كتابياً صغيراً •! وأرجوكن ، يا سيداتى ، أن تطعمنه، فانه ليخيّل الى أنه فوق ذلك جائع جداً •••

تابعت الجنرالة كلامها تقول بتلك اللهجة نفسها :

- انك لتدهشنى ! جائع وذو نوبات ؟ نوبات ماذا ؟

- أوه ! النوبات لا يصاب بها فى أحيان كثيرة ؟ ثم انه يكاد يكون طفلاً ، رغم أنه مثقف •

قال الجنرال ذلك ثم التفت نحو بناته مرة أخرى وأضاف :

- نويت يا سيداتى أن أجرى له امتحاناً صغيراً • ليس ضاراً أن نعرف ما هو عليه قادر •

قالت الجنرالة متحيرة أعمق التحير ، وهى لا تفك تجيل عينيها متفلةً بهما من زوجها الى بناتها ومن بناتها الى زوجها :

- ام ••• ت ••• ح ••• ن ؟

- آه ••• عزيزتى ••• لا تولى هذا الأمر شأنًا كبيراً ، ولا تقيمي

له أى وزن ! الخلاصة : افعل ما يحلو لك • لقد قام فى ذهنى أن أستقبله
استقبالاً لطيفاً ، وأن أدخله الى الأسرة ، لأن ذلك بدا لى عملاً حسناً
وفعلاً طيباً •

— أن تدخله البنت ؟ أت من سويسرا ؟ •••

— ما قيمة أن يكون آتياً من سويسرا ؟ على كل حال ، لن يكون الا
ما تريدین • ولئن تكلمت فى هذا الأمر ، فلأن الشئاب يحمل اسم
أسرتك ، وقد يكون قريباً لك ؟ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانه
لا يعرف حقاً أين يمكنه أن يوسد رأسه • حتى لقد اعتقدت أن أمره
سيعنيك بعض الشيء ، لأنه واحد من السلالة على كل حال •

قالت البنت الكبرى ، الكسندرا :

— طبعاً يا ماما ، اذا كان فى وسعنا أن نستقبله بلا احتفال أو كلفة
أو تقيد بالمراسم ، وما دام جائعاً بعد رحلة طويلة ذلك الطول ، فلماذا
لا ندعوه الى أن يطعم معنا ؟ لا سيما اذا كان لا يعرف الى أين يذهب ••
— وهو فوق ذلك طفل حقيقى فيما يبدو ، حتى ليتمكن أن يلعب
المرء لعبة « كولان مايار » ! •••

— لعبة « كولان مايار » ؟ ما هذا الكلام ؟

قاطعتها آجلايا تقول بشيء من الحزن :

— أو ! ماما ! كفاك تظاهراً ، أرجوك •••

فلم تستطع البنت الثانية ، ذات الطبع الضاحك ، أن تكظم مرحها ،
فاذا هى تنفجر مقهقهة •

وقالت آجلايا جازمة :

— أرسل اليه أن يجىء يا بابا •

فرنّ الجنرال الجرس وأصدر أمره بادخال الأمير •

قالت الجنرالة بحزم :

- ولكن على شرط أن نعقد حول عنقه منشفة حين يجلس الى المائدة • نادوا فيدور أو نادوا مافرا ليكون أحد وراءه يراقبه اثناء تناوله الطعام • أهو هادىء على الأقل حين توافيه تلك النوبات ؟ ألا يحرك يديه بانشارات ؟

- بالعكس ••• انه مهذب لطيف يتقن آداب المجتمع ويتقيد بهاء كل ما هنالك أنه قد يكون بسيطاً ساذجاً فى بعض الأحيان • ها هو ذا بنفسه على كل حال ! أقدم اليك الأمير ميشكين ، آخر من يحمل اسم هذه السلالة ، ولعله قريب لنا ، فاستقبله بما يجب له من عاطفة • سبهياً الافطار يا أمير ، فشرّفنا بأن ••• أما أنا فأرجوك أن تعذرني ••• لأننى مستعجل جداً ، حتى لقد تأخرت •••

قالت الجنرالة بهيئة وقور :

- لا نجهل المكان الذى تستعجل الذهاب اليه !

- مستعجل جداً ، مستعجل جداً يا عزيزتى ، حتى لقد تأخرت ! ناولته دفاتر كنى ، يا سيداتى ، ليكتب لكن شيئاً ••• انه خطاط ذو موهبة نادرة ! موهبة ! لقد خطّ لى منذ برهة فى مكتبى عبارة : « ان المطران بافنوس قد مهر هذا بتوقيعه ، ••• الى اللقاء ، الى اللقاء !

قالت الجنرالة :

- بافنوس ؟ مطران ؟

وبينما كان زوجها يتقهقر الى وراء ، صرخت تقول ملحة محتدة
احتداداً متزايداً يشوبه قلق :

- انتظر ! انتظر ! الى أين أنت ذاهب ؟ من هو بافنوس هذا ؟

- نعم نعم يا عزيزتى ، كان فى الزمان القديم مطران بهذا الاسم ..
ولكن الكونت ينتظرنى منذ مدة طويلة ، وهو الذى حدد لى الساعة ..
يا أمير ، الى لقاء قريب

وانسحب الجنرال مسرعاً أشد الاسراع .
قالت اليزابت بروكوفينا متناظرة وهى تنقل نظرتها الحائرة نحو
الأمير :

- أنا أعرف أى كونت يعنى !
نم أضافت تقول محاولة أن تتذكر وقد لاح فى وجهها تبرم
واحترار :

- هيه ! ما هى المسألة ؟ آ نعم من هو ذلك المطران ؟
حاولت ألكسندرا أن تتدخل (بينما كانت أجاليا تخطب بقدمها
الأرض نافذة الصبر) فقالت :
- ماما !

فقالت الجنرالة جازمة :

- لا تقاطعنى يا ألكسندرا ! أنا أيضاً أريد أن أعرف ! اجلس هنا
يا أمير ، على الكرسي الذى يقع قبالتى .. لا بل اجلس هنا ، فى الشمس ؛
اقترب من الضوء لأراك رؤية أوضح . طيب والآن حدثنى عن ذلك
المطران !

بدأ الأمير يتكلم وقد ظهر فى وجهه الانتباه والجد :

- هو المطران بافنوس

- بافئوس ؟ عجب ... هيه ... نم ماذا ؟

كانت الجنرالة تلقى هذه الأسئلة نافذة الصبر دون أن تحوّل عنه
بصرها ، وكانت تصاحب كل كلمة من كلمات جواب الأمير بهزّة من
رأسها •

قال الأمير :

- عاش المطران بافئوس فى القرن الرابع عشر ، وكان يرأس
صومعة للنسك على نهر الفولجا فى الأقليم الذى يسمى الآن أقليم
كوسروما • وقد اشتهر بحياته التقية الورعة ، وذهب مراراً الى بلاد
التار لحل أمور مختلفة • فى مناسبة من تلك المناسبات ذيلّ احدى
الوثائق بتوقيعه ، وقد رأيت أنا نسخة منها ، فأعجبني الخط ، فتعلمت
محاكاته • ومنذ قليل حين أراد الجنرال أن يرى خطى ليجد لى عملاً ،
كتبت عدة عبارات بأحرف مختلفة ، فكانت احدى هذه العبارات : « ان
المطران بافئوس قد وقّع هذا بخط يده » ، وقد كتبتها على طريقة بافئوس
فى الخط ، فأعجب الجنرال بها كثيراً ، والى هذا انما أشار منذ هنيهة •
قالت الجنرالة :

- يا أجلايا ، تذكرى : بافئوس ؛ بل سجلى ، فأنا أنسى كل شىء •
لكننى أعترف بأننى كنت أتوقع شيئاً أهمّ من هذا • أين ذلك التوقيع ؟

- أظن أنه بقى على المضدّة فى مكتب الأمير •

- هاتونى به حالاً •

- لكننى أستطيع أن أخطه لك مرةً أخرى اذا شئت •

قالت ألكسندرا :

- طبعاً يا ماما ؛ والأفضل أن نأكل الآن ، فاتنا جميعاً جياع •

قالت الجنرالة :

- طيب • تعال يا أمير : أأنت جائع جداً ؟

- نعم ، بدأت أشعر الآن بجوع ؛ واني لأشكرك أجزل الشكر •

- حسن جداً أنك مؤدب مهذب ؛ واني لألاحظ أنك لست غريباً

الى الحد الذي أرادوا أن يصلوا اليه فى تصوير غرابتك • تعال ، اجلس

هنا ، قبالتى ، لأستطيع أن أنظر اليك (كذلك قالت له متحركة مشغلة

مهمة ، حين صاروا جميعاً فى قاعة الطعام) • ألكسندرا ، آديلايد ،

اهتما بالأمير ؟ ألا تريان أنه ليس مريضاً الى الحد الذى ٠٠٠ ؟ ربما كنا

فى غير حاجة الى المشقة • قل لى يا أمير : هل كانوا يعقدون مشقة حول

رقيبك ؟

- نعم ، أظن ، فى الماضى ، حين كان عمرى سبع سنين • أما الآن

فقد تعودت أن أضع المشقة على ركبتي •

- هذا ما يجب • ونوباتك ؟

قال الأمير مدهوشاً بمض الدهشة :

- نوباتى ؟ أصبحت الآن نادرة • مع ذلك ••• لا أدري ! يقال

ان المناخ هنا لن يكون مناسباً لحالى الصحية •

قالت الجنرالة مخاطبةً بناتها وهى ما تزال تصاحب كل كلمة من

كلمات الأمير بهزة من رأسها :

- انه يجيد الكلام • لم أكن أتوقع ذلك • اذن لم يكن كل ما قيل

الا أكاذيب وترهات باطلة ، كالعادة !

ثم عادت تخاطب الأمير فقالت له :

- 'كل' يا أمير ، وقصّ علينا أين وُلدت وأين نشأت وترعرعت

وتربيت • أريد أن أعرف كل شيء • ان أمرك يهمنى كثيراً •

شكرها الأمير ، وأخذ يكرر ما سبق أن رواه مراراً في تلك
الصبيحة من النهار ... أخذ يكرره وهو يأكل بشهية كبيرة ..

ازداد ارتياح الجنرالة ورضاها شيئاً بعد شيء . وكانت البنات أيضاً
تصنن الى حديث الأمير بانتباه . واستعرضت القرابة ، فاتضح أن الأمير
يعرف شجرة النسب معرفة جيدة ، ولكنهم رغم جميع الجهود لم يتمكنوا
من العثور على أى قرابة تربط الأمير بالجنرالة . كل ما هنالك أنهم
يستطيعون أن يتصوروا أن قد كان بين الأسلاف الأبعدين قرابة غامضة
كالقرابة التي تكون بين أبناء الأعمام . وقد سُرَّت الجنرالة كثيراً بالخوض
في هذا الموضوع الصعب ، لأنها رغم كل رغبتها ، قلماً أتبع لها قبل اليوم
أن تتحدث عن أجدادها ، لذلك نهضت عن المائدة منتعشة انتعاشاً كبيراً .
قالت :

- الأفضل أن نمضي الى قاعة الاجتماع ، فستحمل القهوة الينا هناك .
وأضافت تشرح للأمير وهي تجرُّه :

- هي غرفة مشتركة لنا جميعاً ، بل قل هي صالوني الصغير الذي
نجتمع فيه حين نكون وحيدات ، وتكون كل واحدة منا منصرفة الى
شئونها : فابتي الكبرى ، الكسندرا ، تمزف على البيانو أو تقرأ أو تخطط ؛
وابتي آديلايد ترسم مناظر طبيعية أو وجوهاً إنسانية (دون أن تنهى أى
شيء في يوم من الأيام) ؛ أما آجلاليا فأنها لا تعمل شيئاً البتة . وأنا
أيضاً يسقط الشغل من بين يدي ، ولا أفلح في إنجاز شيء . ها نحن
أولاء وصلنا . اجلس يا أمير ، قرب المدفأة ، وافصص علينا . أريد أن
أعرف كيف تحكي . أريد أن أتأكد من ذلك ، فإذا رأيت الأميرة
المعجوز بيلوكونسكايا حدثتها عنك . أريد أن تثير اهتمام الجميع . فهيّا
تكلم !

قالت آديلايد التي كانت فى أثناء ذلك قد ركزت حاملة لوحاتها وتناولت فراشيها وصحن ألوانها وأخذت تنقل عن صورة مطبوعة منظراً طبيعياً كانت قد بدأت تصويره منذ مدة طويلة ، قالت :

- ماما ، يصعب على الانسان كثيراً أن يحكى ويقص فى ظروف كهذه الظروف التى تحيطين بها الأمير .

وجلست الكسندرا وآجلايا احدهما الى جانب الأخرى على أريكة صغيرة ، وقد عقدت كل منهما يديها على صدرها ، واستعدت للاصغاء الى الحديث . ولاحظ الأمير أن انتباه الجميع منصرف اليه منصب عليه .
قالت آجلايا :

- ما كنت لأحكى شيئاً أو لأقص شيئاً لو أٌمرت بهذا أمراً على هذا النحو .

- فقالت الجئراالة :

- لماذا ؟ أى شىء خارق فى هذا ؟ ما عسى يمنعه من الكلام ؟ ان له لساناً . أريد أن أعرف كيف يجيد الحديث . افصص ما تشاء . قل لنا هل أعجبتك سويسرا ، صف لنا انطباعتك الأولى هناك . سوف ترين : انه سيبدأ ، وسيجيد الحديث أيما اجادة .

بدأ الأمير الكلام فقال :

- كان انطباعى الأول قوياً جداً ...

فقاطعت الجئراالة النافذة الصبر ، متلفته الى بناتها قائلة لهن :

- هل رأيتم ؟ هل رأيتم ؟ لقد بدأ ...

فأوقفته ألكسندرا قائلة :

- دعيه يتكلم على الأقل يا ماما !

وهمست تقول لأختها آجلايا :

– قد يكون هذا الأمير مكاراً كبيراً ، لا أبله البتة !

فأجابتها آجلايا تقول :

– هذه حقيقة أكيدة لاحظتها منذ مدة • وانها لدناءة منه أن يمثل دور الأبله • هل يظن أنه يجنى من ذلك نفعاً ما ؟

استأنف الأمير كلامه فقال :

– كان انطباعى الأول قوياً جداً • حين أخذونى من روسيا واجتزنا مدناً ألمانية ، كنت لا أزيد على أن أنظر صامتاً ، وكنت لا ألقى أى سؤال (ما زلت أذكر هذا) وقد حدث ذلك فى أعقاب نوبات من مرضى عنيفة جداً أليمة جداً • وقد ألفت ، فى أوان النوبات ، حين يكثر تعاقبها ، أن أصبح فى حالة انصعاق ، فأفقد ذاكرتى فقداناً تاماً ، وينقطع مجرى المنطق فى أفكارى ، (رغم أن فكرى يظل يعمل) فلا يتسلسل فى ذهنى أكثر من فكرتين أو ثلاث • أو ذلك هو على كل حال الانطباع الذى بقى فى نفسى • حتى اذا هدأت النوبة رجعت سليماً معافى ، قوياً كقوتى الآن •

« أذكر أنني أحسست حينذاك بحزن لا يطاق ، حتى لقد استبدت بى رغبة فى البكاء • كنت لا أزيد على أن أشعر بدهشة وقلق • لقد فجأنى كثيراً أن كل شيء حولى كان أجنبيّاً • نعم ، لقد أصبحت فى « الخارج » • فهمت ذلك • ان هذا « الخارج » كله يهوى بى الى قاع الحزن واليأس • ثم لم أخرج من تلك الظلمات خروجاً كاملاً – ما زلت أذكر هذا – الا فى المساء ، بمدينة بال ، عند وصولنا الى سويسرا • وان نهقة حمار فى ميدان السوق هى التى أيقظتنى من انصعاقى • لقد أثرت نهقة الحمار فى نفسى تأثيراً قوياً ، وأعجبتنى اعجاباً شديداً ، لا أدري لماذا ؟ وفى الوقت نفسه كان كل شيء فى رأسى يضىء • • • • »

قالت الجنرالة :

- حمار ؟ غريب ؟؟؟ ولكن لا ؟؟؟ لا غرابة • ان بيننا نحن معشر النساء من يقعن فى غرام حمار •

أضافت الجنرالة هذه الجملة الأخيرة ، وهى تنظر شبه غاضبة الى القتيات ، اللواتى كن يضحكن • وأردفت تقول :

- وذلك شئء تكلمت عنه أساطير اليونان الأقدمين • أكمل كلامك يا أمير •

تابع الأمير حديثه فقال :

- ومنذ ذلك الوقت أصبحت أحب الحمير حباً عظيماً • أصبح هذا عندى عاطفة حقيقية صادقة • وأخذت أجمع معلومات عن الحمير • لم أكن قد رأيت حماراً قبل ذلك اليوم ؛ وسرعان ما عرفت أن الحمار حيوان مفيد جداً ، وأنه قوى نشيط صبور فتوع ذو مقاومة وجلد • وبواسطة هذا الحمار أخذت سويسرا كلها تعجبنى ، فأنهى ذلك حزنى •

- هذا كله غريب حقاً ، ولكن دعنا ؟؟؟ ولنتقل الى موضوع آخر • ما الذى يضحكك يا آجلایا ، وأنت يا أدیلائیڈ ؟ لقد تحدث الأمير عن الحمار فأجاد الحديث • هو رآه بنفسه ، فماذا رأيت أنت ؟ أنت لم تسافرى يوماً الى الخارج •

قالت أدیلائیڈ :

- سبق أن رأيت حماراً يا ماما !

وأضافت آجلایا :

- وأنا قد سمعت حماراً •

وأخذت البنات الثلاث تضحك • وضحك الأمير أيضاً •
قالت الجنرالة :

- هذا منكن شر وسوء ! اعذرهن يا أمير ، فانهن بنات طيبات
القلب ، واني لأشاجرهن دائماً ، لكنني أحبهن • هن طائشات العقل
مجنونات !...

قال الأمير ضاحكاً :

- لماذا ؟ لو كنت في مكانهن لما فوتُ الفرصة أيضاً • على كل حال،
أنا أعشق الحمار : الحمار شخص طيب مفيد •

قالت الجنرالة :

- وأنت يا أمير ، هل أنت طيب ؟ أسألك عن هذا من باب حب
الاطلاع •

وأخذ الجميع يضحكون من جديد •
وهفت الجنرالة تقول :

- أنا أقصد ذلك الحمار اللعين ، ولم يخطر الأمير ببالى • تقى يا أمير
اننى لم أعقد أى ...
- مقارنة ؟

هكذا ساعدها الأمير فى اتمام جملتها ، وأضاف يقول وهو ما يزال
يضحك :

- لم يساورنى أى شك فى هذا !

قالت الجنرالة :

- حسن جداً أنك تضحك • اننى أدرك من هذا أنك شاب
طيب جداً •

أجاب الأمير :

- يتفق لى ألا أكون كذلك !

قالت الجنرالة على نحو غير متوقع :

- وأنا أيضاً طيبة ؛ بل قل ان شئت اننى طيبة دائماً ، وذلك عيى الوحيد ، لأن على الانسان ألا يكون طيباً على الدوام . اننى كثيراً ماأغضب منهم ، ومن ايفان فيدوروفتش خاصة ، ولكن المؤسف المحزن هو أننى لا أكون فى لحظة من اللحظات طيبة كطيبتى أثناء الغضب ! منذ برهة ، قبل وصولك ، كنت قد غضبت فتظاهرت بأننى لا أفهم شيئاً . ذلك يحدث لى أحياناً كما يحدث للأطفال . لقد لقيتني آجلايا درساً . شكراً لك على هذا الدرس يا آجلايا . على كل حال ، ما أسخف هذا كله ! ترهات فى ترهات !... ما أنا بالغبية الى الحد الذى يبدو على ، أو الى الحد الذى تريد أن توهم به بناتى . ان لى ارادة قوية وعزيمة صلبة ، ولست أخرج كثيراً . تعالى الى هنا يا آجلايا وقبّلينى ...

ثم قالت الجنرالة حين قبّلتها آجلايا على شفتيها ويدها بكثير من العاطفة :

- وكفاك عواطف سخيفة !

ثم التفتت الى الأمير تقول له :

- واصل حديثك يا أمير . قد تتذكر شيئاً يشوق الحديث عنه أكثر

مما يشوق الحديث عن ذلك الحمار !

قالت آجلايا :

- ما زلت لا أفهم كيف يستطيع المرء أن يحكى شيئاً على هذا النحو .

لو طلب الى ما يطلب اليه لما وجدت شيئاً أقوله .

- ولكن الأمير سيجد ما يقوله ، لأن الأمير ذكى الى أبعد حدود

الذكاء ؟ هو أذكى منك عشر مرات على الأقل ، أو اثنتى عشرة مرة •
أرجو أن تدركى هذا من الآن • برهن لهن على صحة قولى يا أمير ،
وأكمل • أما الحمار فنستطيع فعلاً أن ندعه الآن وشأنه • هيه ، ماذا رأيت
فى الخارج ، عدا ذلك الحمار ؟

قالت ألكسندرا :

- كان الحديث عن الحمار ذكياً جداً كذلك • لقد وصف لنا الأمير
حالته المرضية وصفاً شائعاً ، وذكر لنا كيف استرد جبه للأشياء على أثر
صدمة خارجية • لقد طالما اشتقت أن أعرف كيف يفقد الانسان عقله وكيف
يمكن أن يسترده ، ولا سيما حين يتم ذلك على نحو مباغت !

صاحت الجنرالة تقول :

- أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ أرى الآن أنه يتفق لك أيضاً أن
تكونى ذكية فى بعض الأحيان • والآن كفى ضحكاً ! أظن يا أمير أنك
توقفت عن الكلام حين وصلت الى وصف الطبيعة السويسرية ، فماذا عن
الطبيعة بسويسرا ؟

قال الأمير :

- وصلنا الى لوسيرن ، وقادونى فى نزهة على البحيرة • كنت أحس
أن هذا جميل ، ومع ذلك كنت منقبض الصدر •

سألت ألكسندرا :

- لماذا ؟

فأجاب الأمير :

- أنا نفسى لا أفهم علة ذلك • انى أشعر دائماً باقْباض فى صدرى،

وتمتلىء نفسى قلقاً حين أرى منظرأ من هذا النوع أول مرة • على كل حال ، كان هذا يحدث أيام كنت ما أزال مريضاً ...

— أما أنا فكان يسعدنى أن أرى ذلك كله • انى لأتساءل هل سنعزم أمرنا على السفر الى الخارج فى يوم من الأيام • لقد أصبحت منذ عامين لا أجد موضوعاً للوحة أرسمها :

« وُصف الجنوب والمشرق منذ زمن طويل ... » * •

يا أمير ، هلاًّ وجدت لى موضوع لوحة ارسمها !

قال الأمير :

— لست فى هذا المجال على شىء من خبرة • يخيل الىّ أنه ليس على الرسام الا أن ينظر ويرسم •

— أنا لا أحسن النظر •

قاطعتهما الجنرالة قائلة :

— ما بالكما تتكلمان فى ألفاظ ؟ لست أفهم مما تقولان شيئاً ! ما هذا الذى تزعمينه ؟ « لست أحسن النظر » ! ان لك عينيّن فما عليك اذن الا أن تنظري ! واذا لم تستطعي أن تنظري هنا ، فلن تتعلمي فى الخارج أن تنظري • الأفضل أن تقول لنا يا أمير كيف كنت تنظر أنت ؟

قالت آديلايد :

— هذا أفضل • ان الأمير قد تعلم فى الخارج كيف يحسن النظر !

— لا أدرى كثيراً ! أنا لم أزد هنالك على أن أسترد صحتي • لا أدرى هل تعلمت أن أنظر • على كل حال ، كنت سعيداً طوال الوقت !

هتفت آجلالاً :

— كنت سعيداً ؟ أنت تعرف كيف تكون سعيداً ؟ فكيف تستطيع أن

تقول اذن انك لم تتعلم أن تنظر ؟ لا بد أن تكون قادراً على أن تعلمنا ما تعلمت !

قالت آديلايد وهي ما تزال تضحك :

- نعم ، علمنا ما تعلمت !

قال الأمير وهو يشاركهن الضحك :

- لا أستطيع أن أعلم أحداً شيئاً . انسى طوال الوقت الذى قضيته فى الخارج تقريباً ، قد عشت فى تلك القرية السويسرية الصغيرة ، ولم أكن أتركها الا فى القليل النادر لأقوم برحلة قصيرة . فماذا أستطيع أن أعلمكن ؟ كل ما ظفرت به فى البداية هو أننى استطعت ألا أشعر بملل وسأم . وتحسنت صحتى تحسناً سريعاً . وبعد ذلك أصبح كل يوم من الأيام نيمناً فى نظرى ، أئمن فأئمن ، وكنت أدرك ذلك ادراكاً تاماً . كنت أرقد فى المساء سعيداً جداً ، وأستيقظ فى الصباح أشد سعادة أيضاً . أما سبب ذلك فأمر لا أدري كيف أعبر عنه !
سأله ألكسندرا :

- هل بلغت من السعادة أنك أصبحت لا تتوق الى شيء فى غير ذلك المكان ؟

- بلى ! فى البداية شعرت بذلك النوع من النداء ، فكنت أحس من ذلك بقلق وغم . كنت أفكر فى المستقبل ، وأتمنى أن أستشرف مصرى . وكنت فى بعض اللحظات اضطرب اضطراباً كبيراً . ان هناك لحظات من هذا النوع كما تعلمين ، ولا سيما فى العزلة . كان فى تلك القرية الصغيرة شلال صغير نحيل يشبه أن يكون خيطاً من ماء ، يسقط من علو شاهق ، ويكاد يكون عمودياً ، وهو أبيض مزبد مرغ صاخب . انه يسقط من علو شاهق جداً ، ولكن المرء لا يشعر بالارتفاع الذى يسقط منه . ان

المسافة تبلغ نصف فرسخ علواً ، ولكن المرء يحسها خمسين خطوة • كنت أحب أن اسمع صوت سقوط الماء ليلاً • وفي تلك اللحظات انسا كان يزداد اضطرابي •

« وفي بعض الأحيان أيضاً ، أثناء النهار ، على مكان ما من الجبل ، كنت أتوقف وحيداً بعد صعود طويل • من حولي أشجار صنوبر ضخمة قديمة تفوح منها رائحة الراينج • وفي بعيد ، على مستوى أدنى ، تلوح قرينتا الصغيرة التي لا تكاد تُرى • والشمس تسطع • والسماء زرقاء • والصمت مطلق • فهناك انما كنت أحس أحياناً ذلك النداء نحو المجهول ، وأقدّر أنتى لو مضيت الى أمام قُدُماً ، وأوغلت الى بعيد ، الى بعيد ، وتجاوزت ذلك الخط الذى تلتقى عنده الأرض بالسماء ، فسأجد جواباً عن كل شيء ، وسرعان ما تنكشف لى حياة جديدة ، أكثف كثافة وأعنف عنفاً وأحرّ حرارة من الحياة عندنا ألف مرة • وكنت أحلم بمدينة كبرى مثل نابولي ، ملأى بالقصور ، وبالصخب ، وبالحركة ، وبالحياة ••• ما أكثر الأشياء التى حلمت بها ! • ليس هناك شيء لم أحلم به ! وبعد ذلك خيل الى أن المرء يستطيع حتى فى السجن أن يجد حياة عريضة واسعة • »

قالت آجلانيا :

— هذه الفكرة الأخيرة المحمودة سبق أن قرأتها فى كتاب مختارات حين كنت فى الثانية عشرة من عمري •

وقالت آديلايد :

— هذا كله فلسفة • أنت فيلسوف جئت تعلمنا الحكمة !

قال الأمير مبتسماً :

— قد تكونين على حق • ربما كنت فيلسوفاً بالفعل ؛ ومن يدرى ؟

لملنى أنوى أن أعلمكن الحكمة أيضاً ••• هذا جازر ، جازر جداً •

استأنفت آجلايا كلامها فقالت :

— فلسفتك لا تختلف ، على كل حال ، عن فلسفة أولامبي نيقولايفنا ،
أرملة الموظف التى تجيء إلينا من حين إلى حين متطفلة* . ان المشكلة
الكبرى عندها هى السمر الرخيص والقدرة على العيش بأقل نفقة ، فهمى
لا تحسن الكلام الا عن كوبيكات* . لاحظ أنها تملك مالا* : انها ماهرة
جداً* . ذلك بعينه هو شأن حياتك العريضة الواسعة فى السجن ، ولعله
أيضاً شأن سنى سعادتك الأربع التى قضيتها فى تلك القرية بائعاً مدينة
نابولى ، ربما مع تحقيق شئ من ربح ، وان لم يتجاوز الربح كوبيكات* .
قال الأمير :

— أما عن الحياة فى السجن ، فمن الجائز ألا يكون كلامى صحيحاً
كل الصحة* . فأنما أنا سمعت هذا الكلام من رجل قضى فى السجن قرابة
اثنى عشرة سنة* . انه أحد المرضى الذين كان يعالجهم طبيبى* . كان هذا
الرجل يُصاب أحياناً بنوبات ، وكان كثير الحركة والاضطراب والتخبط ،
حتى لقد حاول أن ينتحر* . كانت حياته فى السجن حزينة ، أوكد لكن
ذلك* . . . ولكن لا شك أنها كانت تساوى أكثر من كوبيكات ، مع أنه
لم يكن له الا علاقات الا بعنكبوتة وبشجرة صغيرة نبتت تحت نافذته* . . .
على اثنى أفضل أن أقص عليك قصة لقاء آخر تم لى فى العام الماضى* . ان
فى الأمر الذى سأحكيه لكن الآن شيئاً غريباً جداً ، غريباً بندرة حدوثه* .
هو رجل اقتيد مع رجال آخرين محكوم عليهم بالاعدام ، اقتيد معهم الى
المكان الذى سيتم فيه تنفيذ الحكم* ، وقرئ عليهم قرار المحكمة باعدامهم
رمياً بالرصاص لجريمة سياسية* . وبعد نحو عشرين دقيقة تلى عليهم قرار
آخر يعفو عنهم ، فبلغى حكم الاعدام ويبدله بحكم بالسجن مع الأشغال
الشاقة* . ولكن فى الفترة التى انقضت بين تلاوة الحكم الأول وتلاوة الحكم
الثانى ، أى خلال العشرين دقيقة أو الربع ساعة على الأقل ، عاش الرجل

فى يقين مطلق بأنه ميت لا محالة بعد بضع لحظات • ما كان أشد رغبتي
الرهية فى أن اسمعه يصف المشاعر التى أحس بها أثناء ذلك ! حتى
لقد أخذت ألقى عليه الأسئلة تلو الأسئلة مراراً ! كان يتذكر كل شئ
بوضوح خارق ، ويؤكد أنه لن يستطيع نسيان تلك الدقائق فى يوم
من الأيام • على مسافة عشرين خطوة من صقالة الاعداد التى وقف
قربها الناس والجنود ، كانت قد دُقَّت فى الأرض أعمدة ثلاثة ، اذ كان
هنالك عدة رجال محكوم عليهم بالاعداد • اقتيد الثلاثة الأول نحو تلك
الأعمدة ، وسدُّوا إليها ، وألبسوا لباس المحكوم عليهم بالاعداد (وهو
نوع من جلباب طويل أبيض) ؛ وعُصبت أعينهم حتى لا يروا البنادق •
وبعد ذلك جاءت تقف ، قبالة كل عمود ، زمرة الجنود التى ستطلق رصاص
الاعداد • ان الرجل الذى أحدثكنَّ عنه هو الثامن فى الترتيب • فكان
عليه اذن ان يذهب الى العمود فى الفوج الثالث • وجاء كاهن يبارك
الرجال المحكوم عليهم بالاعداد • ولم يبق لهم من الحياة الا خمس
دقائق يعيشونها • قال لى الرجل ان هذه الدقائق الخمس قد بدت له طويلة
طولاً لا نهاية له ، غنية غنى لا ينضب • بدا له أنه خلال هذه الدقائق
الخمس سيعيش حيوات تبلغ من الكثرة أنه ليس فى حاجة ، بعد ، الى
التفكير فى اللحظة الأخيرة • حتى لقد رتَّب أموره واتخذ اجراءاته على هذا
الأساس ، فحدَّد الزمان الذى سيودَّع فيه رفاقه ووقف عليه دقيقتين ،
وعَيَّن دقيقتين أخريين للتجمع على نفسه مرة أخيرة ، وترك الوقت الباقي
للقاء نظرة على ما حوله • وانه ليتذكر تذكرأ واضحاً أنه تقيّد بهذا
التوزيع للوقت تقيداً تاماً • كان سيموت وهو فى السابعة والعشرين من
عمره * ، مليئاً بالصحة والعافية ، زاخراً بالنشاط والقوة • وانه ليتذكر
انه حين ودَّع رفاقه ألقى على كل منهم سؤالاً لا علاقة له بالحالة الراحنة،
حتى انه اهتم اهتماماً كبيراً بسماع أجوبتهم • حتى اذا فرغ من التوديع،

جاء دور الدقيقتين اللتين نذرهما « للتجمع على نفسه » من أجل التأمل .
كان يعلم سلفاً ما الذى سيفكر فيه • كان يريد أن يتصور بأقصى سرعة
ممكنة وبأكبر وضوح ممكن ما سيحدث : هو الآن هنا ، هو الآن حى ؛
وبعد ثلاث دقائق سيصبح « شيئاً آخر » ، سيصبح شخصاً آخر أو شيئاً
آخر ، ولكن ماذا يصبح ؟ وأين يصبح ؟ كان يقدّر أنه سيعرف ذلك كله
خلال هاتين الدقيقتين ! وفى مكان غير بعيد ، كانت تقوم كنيسة تلتهم قبتها
المذهبة تحت أشعة الشمس • انه يتذكر الآن شدة تحديقه الى تلك القبة
والى الأشعة التى كانت تنعكس عليها حينذاك • كان لا يستطيع أن يتزع
نفسه من تأمل تلك الأشعة : كان يترامى له أن تلك الأشعة هى طبيعته
الجديدة ، وأنه بعد ثلاث دقائق سيندمج فيها وينصهر معها ••• ان تلك
الحالة من عدم اليقين ومن النفرة تجاه المجهول الذى سيحين حينه كانت
رهية فظيعة • ولكنه قال انه لا شىء كان أشقّ على نفسه عندئذ من هذه
الفكرة التى كانت تدور فى خاطره : « ليتنى أستطيع ألا أموت ! ليت
الحياة تُردّ الىّ ! ما أعظم الأبدية التى سأنعم بها اذا أمكن ذلك ! لأحيلنّ
كل دقيقة دهرآ ، ولأحصينّ جميع الدقائق لا أضيع منها واحدة ، ولا أبدد
منها واحدة ! » • وقال ان هذه الفكرة قد صارت آخر الأمر الى نوع من
جنون حتى أصبح لا يتمنى الا أن يُطلق عليه الرصاص •
صمت الأمير فجأة • وكان الجميع يتوقعون أن يستمر وأن يستخرج
من كلامه نتيجةً يختمه بها •

سألته آجلايا :

— هل انتهيت ؟

فقال الأمير وكأنه يخرج من حلم :

— نعم ••• انتهيت !

— ولكن لماذا رويت هذا كله ؟

- هكذا ... تذكرته ... فى سياق الحديث !

قالت ألكسندرا :

- ولكنك أنهيت الكلام انهاءً مبالغتاً جداً • لعلك كنت تنوى يا أمير أن تستخرج منه نتيجةً هى أنه ليس فى الحياة لحظة تقاس قيمتها بكوبكات، وإن خمس دقائق من الحياة تساوى كنوز الأرض كلها فى بعض الأحيان؟ هذا كله كلام محمود ... ولكن اسمح لى : ان ذلك الصديق الذى روى لك تلك الأحوال قد خُفِّفَ الحكم عليه من حكم بالاعدام الى حكم بالسجن مع الأشغال الشاقة ، أليس كذلك ؟ معنى هذا أنه قد وُجِبت له تلك « الحياة التى لا نهاية لها » ، فكيف استعمل ذلك الغنى كله من بعد ؟ هل عاش يحسب الدقائق فلا يضيع منها دقيقة واحدة ؟

- لا ... لقد ذكر لى الحقيقة هو نفسه ... لأننى سألته فى هذا الموضوع • انه لم يعيش بهذه الطريقة أبداً ، بل بدّد دقائق كثيرة •

- هذه اذن تجربة قاطعة : ليس فى وسع الانسان حقاً أن يعيش حياته « حاسباً » • ولا بد أن لهذا علةً وسيباً •

قال الأمير :

- طبعاً ، لا بد أن يكون لهذا علة وسبب • ويخيّل الى أيضاً ... لكننى لا أستطيع مع ذلك أن أصدّق ...
سألته آجلايا :

- هل معنى هذا أنك تتصور أن تحيا حياة فيها من الذكاء والحكمة ما ليس فى حياة الآخرين ؟

- نعم ... خطر ببالى هذا فى بعض الأحيان •

- ولا يزال يخطر ببالك ؟

- نعم ... أقدر أنني أستطيعه •
بهذا أجاب الأمير وهو يتسم تلك الابتسامة الحجيلي العذبة نفسها ،
ناظراً الى آجلايا • ولكنه لم يلبث أن أخذ يضحك وهو ينظر اليها من
جديد مرحاً •

قالت آجلايا متزعجة بعض الانزعاج :
- يا له من تواضع !
قال الأمير :

- ما أعظم شجاعته ! أنتن تضحكن بينما أنا قد أفلقتى هذه القصة
أقلاقاً بلغ من القسوة اننى حملت بها فى نومى ، ولا سيما تلك الدقائق
الخمسة ...

ونظر الأمير الى البنات مرة أخرى باتباه وجد •
وسألهنّ مضطرباً على حين فجأة ، مع استمراره فى التحديق الى
أعينهن :

- أنتن غاضبات منى ؟
فصاحت الفتيات الثلاث يسألنه مدهوشات :
- ولماذا تغضب ؟

- لأن طريقتى فى الكلام تشبه طريقة القاء درس ...
فأخذن يضحكن •
قال الأمير :

- اذا كنتم قد غضبتن ، فلا تفضين بعد الآن ! أنا أعرف أننى
عشت أقل مما عاش الآخرون ، واننى أفهم الحياة أقل مما يفهمها الآخرون •
ولا بد أن طريقتى فى الكلام غريبة ! •

واضطرب الأمير اضطراباً تاماً •
قالت آجلايا بقسوة والحاح :

— ما دمت تقول انك كنت سعيداً ، فلقد عشت أكثر من الآخرين
لا أقل منهم • فعلام الاعتذار والمواربة ؟ ولا يقلقك خاصة أنك تبدو
كمن يلقي درساً ؟ فان هذا لم يكن فيه أى انتصار • ان المرء يستطيع
بمثل تصوفك أن يملأ بالسعادة حياةً طولها مائة سنة • وسواء أأروك تنفيذ
حكم بالاعدام أم مدّوا اليك اصبعاً صغيرة ، فانك تستخرج من الأمرين
كليهما فكرة فلسفية وتظل راضياً سعيداً • فما أسهل الحياة هكذا !
تدخلت الجرالة التي ظلت تدرس وجوه المتحاذين مدة طويلة

فقالت :

— ما لى أراك غاضبة حائرة دائماً ؟ ثم اننى لا أفهم أيضاً عمّ
تتكلمين ! أية اصبع صغيرة تقصدين ؟ ما هذا الهذر كله ؟ ان الأمير يقول
كلاماً حسناً ، وان يكن حزيناً بعض الشيء • فلماذا تحاولين أن تبطى
همته وتدخلى اليأس الى قلبه ؟ لقد كان يضحك حين بدأ يتكلم ، ثم هاهو
ذا الآن مبهور مصعوق •

— لا بأس يا ماما ! وانها لحسارة يا أمير أنك لم تشهد تنفيذ حكم
بالاعدام فى يوم من الأيام ، والا لسألتك عن بعض الأمور •
أجاب الأمير :

— شهدت تنفيذ حكم بالاعدام •

صاحت آجلايا :

— رأيت اعداماً ؟ كان على أن أقدر ذلك ! هذا يزيد الطين بلة !
فما دمت قد شهدت اعداماً فكيف تستطيع أن تدعى أنك كنت سعيداً طوال
ذلك الوقت ؟ ألم أكن على حق ؟

وسألت آديلائيڊ :

- أكانت تُنفذ فى قرينكم أحكام بالاعدام اذن ؟

- شهدت اعداماً بمدينة ليون • كنت قد سافرت الى ليون مع
شنايدر • وتم الاعدام يوم وصولنا •

عادت آجلايا تقول مصرّة ملحة :

- فماذا ؟ هل أعجبك المشهد كثيراً ؟ هل استخرجت منه تعاليم
نافعة ؟

قال الأمير :

- بل لم يعجبني البتة ، حتى اننى مرضت بعده قليلاً • لكننى
أعترف بأننى كنت أنظر الى المشهد مشدوداً اليه شداً قوياً فكأننى
لا أستطيع أن أحوّل بصرى عنه •

قالت آجلايا معترفة :

- أنا أيضاً ما كان لى أن أستطيع أن أحوّل عنه بصرى لو أتيح لى
أن أشهده !

- الناس هنالك لا يحبون للنساء أن تجيئ ل ترى هذه المشاهد ،
حتى انهم يتحدثون عن أمثال هاته النساء فى الجرائد •

- ذلك لأنهم يرون أن هذا ليس من شأن النساء ، فكأنهم يريدون
أن يقولوا ان هذا من شأن الرجال وحدهم وأن يبرروه • يا للمنطق
العجيب ! لا شك أنك تشاطرهم رأيهم •

قالت آديلائيڊ مقاطعة :

- افصص علينا حادثة تنفيذ الحكم بالاعدام !

قال الأمير مضطرباً :

- ما كنت لأتمنى أن أقفل هذا ، اليوم •

واكفهر وجهه •

فدخلت آجلايا اللاذعة مرة أخرى تقول :

- لكأن حديثك إلينا فى هذا الأمر يشق على نفسك ويحدث لك

ألمًا •

- لا بل لأننى عن ذلك الاعدام نفسه انما تحدثت منذ هنيهة •

- الى من تحدثت عنه ؟

- الى خادمكم ، بينما كنت أنتظر أن أُستقبل ...

قالت النساء الأربع تسأله :

- أى خادم ؟

- ذلك الذى يمكث فى حجرة المدخل ... رجل شائب أحمر

الوجه ، كنت فى حجرة المدخل أنتظر أن يستقبلنى ايفان فيدوروفتش •

قالت الجنرالة :

- غريب !

وقالت آجلايا :

- الأمير رجل ديموقراطى • ولكن ما دمت قد قصصت الأمر على

ألكسى ، فانك لا تستطيع أن تضنّ به علينا •

وعادت آديلايد تقول :

- انتى أحرص على سماع هذه القصة حرصاً مطلقاً !

قال الأمير وهو يلتفت إليها ويتنفس قليلاً (الحق أن الأمير كان

يتحمس بسرعة واضحة وثقة تامة) :

- منذ قليل ، خطر ببالي فعلاً ، حين سألتنى عن موضوع اللوحة

ترسمينها ، خطر ببالي فعلاً أن تصوّرى وجه رجل محكوم عليه بالاعدام،

وذلك فى الدقفة التى تسبق سقوط النصل القاطع على عنقه ، أى فىما هو ما يزال واقفاً على المفصلة قبل أن يضطجع على اللوح •

سألت آديلايد :

- كيف ؟ الوجه ؟ الوجه وحده ؟ ان هذا لىكون موضوعاً غريباً شاذاً !... أين اللوحة فى هذا ؟

قال الأمير مصرأ بحرارة :

- لا أدرى ، ولكن لم لا ؟ لقد رأيت فى مدينة بال ، منذ مدة غير طويلة ، لوحة مائلة * • وددن كثيراً لو أحدثك عنها • وسأفعل ذلك فى يوم من الأيام • لقد أثرت فى نفسى تأثيراً كبيراً •

قالت آديلايد :

- مستحدثنا حتماً عن اللوحة التى رأيتها بمدينة بال ، ولكن فىما بعد • أما الآن فانسرح لى لوحة الاعدام تلك • هل تستطيع أن تصفها كما تخيلها ؟ كيف يرسم ذلك الوجه ؟ أيرسم الوجه وحده ، هكذا ؟ وكيف هو ، ذلك الوجه ؟

بدأ الأمير يتكلم فقال بكل ما يملك من سلامة الطوية وحسن الارادة ، تفوده ذكرياته وكأنه نسى كل ما عدا ذلك فوراً :

- حدث ذلك قبل الموت بدقيقة • فى اللحظة التى وضع فيها قدمه على المفصلة بعد أن اجتاز السلم ، فى تلك اللحظة التفت نحوى ، فرأيت وجهه وفهمت كل شىء... ولكن كيف السيل الى وصف هذا بكلمات؟ اننى لأتمنى كثيراً أن يتاح لك أنت أو أن يتاح لرسام آخر تصوير ذلك الوجه ! الأفضل أن تكونى قد رأيت بعينيك ! ولقد قدّرت أنا منذ تلك اللحظة أن هذه اللوحة يمكن أن تكون مفيدة • ويجب على المرء أن يطلع على كل ما سبق ذلك ، كل ما سبقه ، كله ! كان الرجل يعيش فى

السجن ، وكان يقدّر أنه سيعيش أسبوعاً على الأقل ، قبل أن ينفذ فيه الحكم : كان يموّل على أن الاجراءات الشكلية طويلة ، وعلى أن الأوراق تُرسل الى جهة أخرى فلا تعود منها قبل انقضاء أسبوع ، ولكن اتفق أن اختصرت الاجراءات لسبب من الأسباب • كان نائماً في الساعة الخامسة من الصباح • الوقت نهاية تشرين الأول (اكتوبر) • وفي الساعة الخامسة من الصباح يكون ظلام ويكون برد • دخل رئيس السجنين مع الحرس بغير ضجة ولا ضوضاء ، ولمس كتفه لمساً خفيفاً • نهض الرجل على كوعه ورأى النور ، فقال يسأل : « ماذا جرى ؟ » ف قيل له : « الاعدام في الساعة العاشرة » • كان لا يزال النوم في عينيه ، ولم يشأ أن يصدق أذنيه ، وحاول أن يناقش ، فقال ان الأوراق لا يمكن أن تصل قبل أسبوع آخر • ولكنه حين استيقظ تماماً كفّ عن النقاش وصمت • ذلك ما روى هناك • وقال الرجل : « ولكن هذه قسوة ، هكذا ، على حين فجأة ، دفعة واحدة ! » • ثم صمت من جديد ، وأصبح لا يريد أن يقول شيئاً • انقضت ثلاث ساعات أو أربع في الاستعدادات : الكاهن ، الافطار الذي يشتمل على خمرة ولحم وقهوة (أليس هذا استهزاء ؟ لو فكرنا في الأمر ملياً لرأينا أنه قسوة ! ومع ذلك يفعله هؤلاء لبساطة قلوبهم موقنين يقيناً تاماً من أنه رافة انسانية !) • ثم بدأ تنظيف الرجل (هل تعلمين ما هو التنظيف الذي يؤخذ به رجل محكوم عليه بالاعدام ؟) ثم اقتيد خلال المدينة الى المقصلة ... أظن أن المرء ، هناك أيضاً ، حين يُقتاد الى المقصلة ، لا بد أن يعتقد أن حياة لا نهاية لطولها ما تزال أمامه • يخيل الى أنه لا بد أن يقول لنفسه أثناء الطريق حتماً : « ما زالت حياة طويلة أمامي • بقيت ثلاثة شوارع • ثم ذلك الشارع الآخر الذي فيه دكان خبّاز على اليمين ... ما يزال هناك وقت قبل أن نصل الى دكان الخبّاز ! » • وفي كل جهة من حوله جمهور وصرخات وضوضاء وآلاف

الوجوه وآلاف النظرات • ان عليه أن يحتمل ذلك كله ، وأن يحتمل خاصة هذه الفكرة : « هؤلاء ألوف من الناس لن يُعَدَم منهم واحد ، أما أنا فأُعَدَم ! » • على كل حال ، هذا كله يسبق الدققة الفاصلة • ولكن ها هو ذا السِّلَم الذى يؤدى الى المقصلة ، وها هو ذا الرجل يقف أمام هذا السِّلَم فيأخذ يبكى فجأة • انه مع ذلك رجل يزخر فحولة وقوة • هو واحد من قطاع الطرق فيما يظهر • كان الكاهن يجلس قربه طوال الطريق على العربة ، ولا ينفك يكلمه • أغلب الظن أن الرجل لا يسمع من كلام الكاهن شيئاً • لقد بدأ يصغى اليه فى البداية ، ولكنه منذ سمع الكلمات الأولى أصبح لا يفهم • نعم ، لا بد أن الأمور جرت على هذا النحو • وها هو ذا يصعد السِّلَم أخيراً (ان أرجلهم موقفة فهم لا يستطيعون أن يتقدموا الا بخطى صغيرة) • كان الكاهن ، ولعله رجل ذكى ، قد كفَّ عن تكليمه ، فهو لا يريد الآن أن يمدَّ اليه الصليب ليقبَّله • كان الرجل منذ وصل الى السلم قد اصفرَّ اصفراراً شديداً ، أما الآن ، على المقصلة ، فقد أصبح اصفراره كالبياض •

« لعل ساقيه كاتا لا تستطيعان حمله ؛ انهما متصلبتان كالخشب ؛ ولا بد أنه كان يشعر بفنيان ، كأن شيئاً كان يبعث بحلقه • هل أحسست بشئ من هذا يوماً حين كنت تخافين ، أو فى لحظات مرعبة يحتفظ فيها المرء بوعيه كاملاً ، ولكنه يصبح بغير قدرة البتة ؟ يخيل الى أن الانسان ، حين يداهيه هلاكٌ لا سبيل الى تحاشيه ، كانهيار منزل فوقه مثلاً ، انما يشعر عندئذ برغبة لا تقاوم فى أن يقعد مغمضاً عينيه ، وليحدث ما يحدث !... »

« فى مثل هذه اللحظات من الضعف والوهن انسا كان الكاهن يبادر ، بحركة سرية ودون كلام ، فيقرَّب الصليب من شفتي الرجل لتقبيله ، وهو صليب صغير من فضة ، ذو أربعة أفرع ، يقرَّبه مراراً

كثيرة ، فى كل لحظة ... فمتى لامس الصليب الشفتين فتح الرجل عينيه وارتد الى الحياة لحظات قليلة واستأنفت ساقاه السير . كان يقبّل الصليب فى نهم وشراهة ، بسرعة شديدة ، كأنه يستعجل التزود بشىء ما ، كيفما اتفق ، ولكننى لا أصدّق أن يكون قادراً فى تلك الدقيقة على أن يشعر بعاطفة دينية .

« وظل الحال على هذا المتوال الى أن رقد الرجل على لوح الخشب الذى تسقط عليه سكّين المقصلة ... هناك أمر غريب : ان من النادر أن يغمى على المرء أثناء هذه الثوانى الأخيرة ! بالعكس : الدماغ يحيا عندئذ حياة أشدّ ، وأنشط ، بل وأقوى ، كآلة مندفعة فى عملها . اننى أتخيّل قرعات الحواطر التى تقرع الرأس وتظل ناقصة ، وربما كانت غريبة بل ومضحكة : « هذا الرجل الذى ينظر الى ... ان له ثولولاً فى جبينه . والجلاد : ان أحد أزرار سترته صدى ... » وفى مثل هذه اللحظات يعرف المرء كل شىء ، ويتذكر كل شىء . هناك نقطة وحيدة لا يمكن نسيانها ولا يمكن تجنبها بأغما ، وحول هذه النقطة انما يدور كل شىء . تصورى أن الأمر يظل على هذا النحو الى آخر ربع ثانية ، حين يكون الرأس قد أصبح تحت السكّين ، فالرجل ينتظر ... و « يعلم » انه يسمع انزلاق الحديد فجأة فوقه . ذلك أنه يسمعه حتماً ، ولا يستطيع الا أن يسمعه . لو كنت أنا الشخص الذى ينفذ فيه الاعداء لتمدّت أن أنصت ، ولسمعت صوت انزلاق الحديد! قد لا يدوم هذا الا معشار ثانية ، ولكن المرء يسمع الصوت حتماً ! تصورى أن هناك من يدعّون أن الرأس ، بعد انقطاعه وسقوطه ، ربما ظل يعلم خلال ثانية أنه انقطع وسقط ! .. يا له من احساس ! ... وماذا لو دام هذا الاحساس خمس ثوان ؟ ... ارسى المقصلة بحيث لا يرى الناظر على المستوى الأول ، الا تلك الدرجة الأخيرة

التي يضع عليها الجاني قدمه • انه يضع قدمه على هذه الدرجة ، فترى في اللوحة رأسه ، ووجهه الأصفر ، والصليب الذي يمد به الكاهن • وهو ينظر ، وهو « يعرف كل شيء » • ان اللوحة هي ذلك الصليب وذلك الرأس • نعم تلك هي اللوحة • أما رأس الكاهن ، ورأس الجلاد ، ورأس مساعديه ، ورموس بعض المشاهدين ، تحت ، وكذلك أعينهم ••• أما كل ذلك فيمكن أن يُضاف الى اللوحة خلفية أو ملحقات أو نوعاً من ضباب ••• هكذا أتخيل أنا تلك اللوحة •

صمت الأمير ، ونظر الى المستمعات •

قالت الكسندرا وكأنها تخاطب نفسها :

- ليس في هذا شيء من تصوف طبعاً !

واقترحت آديلايد :

- والآن اقصص علينا كيف وقعت في الغرام !

فنظر اليها الأمير مدهوشاً ؟ فقالت آديلايد بنوع من التسرع :

- اسمع • يجب عليك أيضاً أن تحدثنا عن لوحة مدينة بال تلك ؟

أما الآن فأريد أن أسمعك تقص علينا حكاية وقوعك في الغرام • لا تدافع عن نفسك ، فلقد وقعت في الغرام • ثم انك متى قصصت شيئاً ، كفتت عن أن تكون فيلسوفاً •

وسأله آجلانيا فجأة :

- انك متى فرغت من حكاية شيء تشعر فوراً بالحزى والعار مما

قلته • فلماذا ؟

قالت الجنرال مقاطعةً بلمهجة حازمة وهي تلقي على آجلانيا نظرة

استياء :

- هذا غباء منك أخيراً !

فقال ألكسندرا مؤيدة :

- نعم ، هذا خروج على العقل !

فقال الجنرال ملتفتاً نحو الأمير :

- لا تصدّقها يا أمير • انها تفعل ذلك عامدةً بدافع الحب والمكر •
ليست قليلة الأدب الى هذا الحد ! لا تذهبن بك الظنون كل مذهب اذا
رأيتن ينادكن هذه المناكدة ! لا شك أن في رموسهن أفكاراً مية ،
ولكنهن يحينك منذ الآن ! أنا أعرف وجوههن !

قال الأمير ملحاً على هذه الأقوال :

- أنا أيضاً أعرف وجوههن •

قالت آديلايد باستطلاع وفضول :

- كيف ؟

وقالت البنات الأخريان مشوقتين أيضاً :

- ماذا تعرف من وجوهنا ؟

لكن الأمير ظل صامتاً جاداً • وانتظرت البنات جميعاً جوابه • ثم

قال في رفق وجد :

- سأحكى لكن هذا فيما بعد !

صاحت آجلانيا :

- أنت تريد حتماً أن تستشير فضولنا وأن تدعنا في بلبلة ! يا للتعاطف
والتفاخر !

وأسرعت آديلايد تقول :

- طيب • ولكن ما دمت من علماء الفراسة ، فلا بد أنك كنت في

يوم من الأيام عاشقاً مغرماً • لم يخطئ • اذن ظني • فاقصص علينا قصة
عشقك !

قال الأمير بذلك الصوت العذب الرصين نفسه :

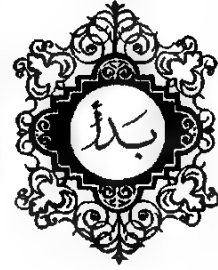
- أنا لم أكن عاشقاً • وانما •••• وانما كنت سعيداً بطريقة
أخرى •

- كيف ؟ بماذا ؟

- طيب • سأحكى لكن •

بذلك تتم الأمير وقد بدا عليه شرود الفكر •

الفصل السادس



الأمير يتكلم فقال :

- في نظراتكن الى من شدة الاستطلاع ما يدل
على أنكن قد تفضبن اذا أنا لم ألب رغبتكن في
ارواء هذا الاستطلاع •

ثم أسرع يقول مبتسماً :

- لا ، لا ، كنت أمزح ! كان هناك ... كان هناك أطفال ، وكنت
أقضي وقتي كله مع الأطفال ، معهم وحدهم • هم أطفال القرية ، هم كل
المصبة التي تذهب الى المدرسة • ليس معنى هذا أنني عُنيت بتعليمهم ،
فلقد كان يعلمهم معلم هو جول تيو • جازر أنني كنت أعلمهم قليلاً ،
ولكن المهم أنني كنت أقضي وقتي كله معهم ، وفي ذلك انما أنفقت السنين
الأربع التي أمضيتها هناك • لم أكن في حاجة الى أي شيء آخر • وكنت
أقول لهم كل شيء ، ولا أخفي عنهم شيئاً • وقد أصبح آباؤهم وأمهاتهم
وأسرهم يحقدون على آخر الأمر ، لأن الأولاد أصبحوا لا يستقنون
عني ، فهم دائماً حولي • أما المعلم فقد أصبح عدوئ الأكبر • كان لي
أعداء كثيرون ، بسبب الأطفال • حتى ان شنايدر نفسه أخذ يلومني •
فما الذي كانوا يخشونه هذه الخشية كلها ؟ ان في وسع المرء أن يقول
للطفل كل شيء ، كل شيء • لشدة ما أدهشني دائماً مدى جهل الكبار
بالصغار ، بل ومدى جهل الآباء بأبنائهم أنفسهم • ما ينبغي أن نخفي عن

الأطفال شيئاً بحجة أنهم صغار ، وأنهم لم يأزف الحين الذى يجب فيه أن يعلموا . يا لها من فكرة مؤسفة ضارة ! ان الأطفال يدركون بسهولة عظيمة أن آباءهم يرونهم أصغر سنّاً من أن يستطيعوا الفهم ، مع أنهم فى الواقع يفهمون كل شئ . ! (ان الكبار يجهلون أن الطفل يستطيع حتى فى أخطر ظروف أن يسدى بنصيحة رائعة) . وحين ينظر اليك هذا الطائر الصغير الجميل ، حين ينظر اليك سعيداً واثقاً ، فهل تستطيع أن تقشه دون أن تشعر بالحزى ؟ اننى اسميهم طيوراً صغيرة ، لأن الطيور خير ما فى العالم !

« أريد أن أقول ان الناس حقدوا علىّ فى القرية ، بسبب شئ . معيّن على وجه التخصيص . . . أما المعلم تيو ، فقد كان حقه غيرة وحسداً . كان فى أول الأمر لا يزيد على أن يهز رأسه ويدهش حين يرى أن الأطفال يفهمون عنى فهماً واضحاً ذلك الوضوح كله ، مع أنهم لا يكادون يفهمون شيئاً مما كان يعلمهم . ثم أخذ يسخر منى ويتهم علىّ ، حين قلت له اتنا لا نملك ، لا أنا ولا هو ، أى شئ نعلمهم اياه ، وأنهم هم الذين يستطيعون بالأحرى أن يعلمونا شيئاً ما . كيف أمكنه أن يغار منى وأن يشهرّ بى مع أنه كان يعيش هو نفسه مع الأطفال ؟ ان المرأ لتبرأ نفسه وتشفى حين يعيش مع الأطفال ! . . . كان يوجد فى مصحّ شنايدر مريض من المرضى كان انساناً شقيّاً كل الشقاء بائساً كل البؤس . ان شقاءه يبلغ من الهول والفضاعة أنه قد لا يكون له شبيه أو نظير . كان يعالج هناك معالجة مجنون . ولكننى أعتقد أنه لم يكن مجنوناً ، وانما كان انساناً يتألم ألماً رهيباً لا أكثر . . . فذلك هو مرضه كله . ليتكنّ تعلمن ماذا أصبح الأطفال عنده آخر الأمر ! ولكن الأفضل أن أحدثكن عن هذا المريض فيما بعد . أما الآن فسأحكى لكنّ كيف بدأ هذا كله . كان الأطفال فى البداية لا يحبوننى . ذلك أننى كنت كبيراً

جداً ، وكنت أخرق جداً . وأنا أعلم أنني لست وسيم الطلعة . وهنالك عامل آخر هو أنني أجنبي . كان الأطفال في البداية يستهزئون بي ، بل انهم رموني بالحجارة حين رأوني أقبل مارياً . ولم أكن قد قبلتها من قبل الا مرة واحدة على كل حال .

وهنا لاحظ الأمير ابتسامات تلم بأفواه الفتيات اللواتي كن يصغين الى حديثه ، فأسرع يوقف التسم قائلاً :

- لا ، لا تضحكن . لم يكن ذلك جيباً . ليتكن تعرفن مدى تعاسة تلك المخلوقة ، اذن لرئتين لحالها مثلي . كانت من قريتنا . وكانت أمها امرأة عجوزاً دبّت فيها الشيخوخة وأضناها الهرم . وقد أذن لها عمدة القرية بأن تحوّل احدى نوافذ كوخها الحفير الى بسطة تعرض عليها ما تبيعه من برسيم وخيط وتبغ وصابون بقروش قليلة تكاد تقم بها أودها وتمسك عليها رmqها . كانت الأم مريضة متورمة الساقين دائماً ، فهي تظل قابعة وراء النافذة طول الوقت . وكانت ابنتها مارياً ، وهي في نحو العشرين من عمرها ، ضعيفة هزيلة نحيلة . لقد أضواها مرض السل منذ مدة طويلة ، ولكن ذلك لم يكن يمنعها من القيام بأعمال الخدمة المضنية القاسية طوال اليوم في دور مختلفة . كانت تغسل الأرض وتنظف أواني المطبخ ، وتكنس الأحواش ، وتعتني بالبهاائم في الحظائر . وقد أغواها فرنسي هو مندوب محل تجارى كان ماراً بالقرية فأخذها معه ثم لم يلبث أن تركها في عرض الطريق بعد أسبوع واحد ، ومضى في سبيله . فعادت الى البيت ، بعد أن تسوّكت واستجدت طوال الطريق ، عادت رثة الأسمال ، قدرة الهيئة ، مثقبة الحذايين . لقد ظلت تسير على قدميها أسبوعاً كاملاً ، وتنام حيث يتاح لها أن تنام ، فأصابها أنشاء ذلك برد ، وكانت قدميها مجرحتين مقرّحتين ، وكانت يداها متورمتين متشققتين . ثم انها لم تكن جميلة في يوم من الأيام ، باستثناء عينيها الطيبتين العذبتين البريثتين . وكانت تصمت

صمتاً رهيباً . ذات مرة ، فى الماضى ، أخذت تقنى فجأة أثناء عملها . انى
لأنذكر الآن أن جميع الناس قد دهشوا عندئذ وسخروا منها : « هه !
ماريا تقنى ؟ » . فخرجت ماريا خجلاً شديداً واضطربت اضطراباً كبيراً ،
ومنذ ذلك اليوم صمتت الى الأبد . فى ذلك الأوان كان الناس ما يزالون
يعاملونها معاملة لطيفة ، ولكنها حين عادت مريضة ممزقة لم يشعر أحد
نحوها بأى عطف أو شفقة . ما أقسامهم فى مثل هذه الظروف ! ما أقطع
ما تنصف به آراؤهم الراسخة وأفكارهم السابقة من عنف لا رحمة فيه
ولا رأفة ! أمها نفسها كانت أول من استقبلها بغضب واحتقار . قالت لها :
« لقد لطخت شرفى بالعار ! » . كانت الأم أول من أسلمها للناس يعيرونها
ويخزونها . فحين عرف سكان القرية أن ماريا رجعت ، تواعدوا جميعهم
تقريباً على أن يلتقوا فى البيت الحقيق الذى تسكنه المعجوز : شيوخ وأطفال
ونساء وفتيات : جمهور كبير شره متعجل ! كانت ماريا مستلقية على
الأرض ، عند قدمى المعجوز ، جائمةً ، رثة الثياب . وكانت تبكى . فلما
رأت جميع هؤلاء الناس أخفت وجهها فى شعرها المنفوش وتسطحت
مزيداً من التسطح . كان الجميع ينظرون اليها نظرتهم الى بهيمة نجسة
دنسة . المعجوز يقرعونها ويشتمونها ، والشباب يسخرون منها ، والنساء
يحقرننها ويؤنبنها وينظرون اليها باشمئزاز وتقزز نظرتهم الى دودة
عنكبوت . لقد سمعت الأم بهذا كله ، وكانت تهز رأسها مؤيدة
محبذة . كانت منذ ذلك الحين قد تفاهت مرضها تفاهتاً شديداً حتى لكأنها
تحتضر . وقد ماتت فعلاً بعد شهرين . كانت تعلم أنها ستموت قريباً ،
ولكنها الى أن ماتت لم تفكر فى أن تصالح ابنتها . حتى انها أصبحت
لا تكلمها ، وصارت تجبرها على أن تبيت عند المدخل ، ولا تكاد تطعمها .
وكانت الأم فى حاجة دائمة الى وضع قدميها المريضتين فى ماء ساخن ،
فكانت ماريا تهيم لها ذلك كل يوم ، وتعنى بها ، والمعجوز تقبل هذه
العناية صامتةً ، فلم تقل لماريا كلمة لطيفة فى لحظة من اللحظات .

« لكن ماريا كانت تتحمل كل شيء . وبعد ذلك ، حين تعرفت الى ماريا ، لاحظت أنها هي نفسها كانت تؤيد وتحبذ المعاملة التي عوملت بها ، وتعد نفسها أحقر الناس طراً . وحين أصبحت الأم لا تستطيع أن تنهض ، أصبحت عجائز القرية تأتي اليها لتعتني بها واحدة بعد واحدة ، كما جرت العادة بذلك . ومنذ ذلك الوقت أصبح لا يعلم أحد ماريا قط ، وأصبح الناس في القرية يطردونها ، وأصبح الجميع يرفضون أن يمهّدوا اليها بعمل ، حتى لكأنهم يصبقون عليها ، وصار الرجال كأنهم لا يعدّونها امرأة فهم ينطقون في حضورها كلمات بذينة فاحشة . ولكنهم في بعض الأحيان ، في القليل النادر ، حين يكونون سكارى يوم الأحد ، يرمون لها على الأرض دريهمات قليلة ليضحكوا ، فتجمعها ماريا صامته . وكانت منذ ذلك الحين قد أخذت تبصق دماً . وصارت أسماها آخر الأمر قطعاً ممزقة ، حتى أصبحت تستحي أن تظهر للناس في القرية . وكانت منذ عودتها قد أخذت تمشي حافية القدمين . وفي ذلك الأوان خاصة إنما اندفع الأطفال - وهم عصبة - يبلغ عددهم قرابة أربعين طفلاً - اندفعوا يهاجمونها بضرارة ، حتى ليرمونها بالوحل . طلبت ماريا من الراعي أن يسمح لها بحراسة الأبقار ، ولكن الراعي طردها . ومع ذلك أخذت تتبع القطيع الى المرعى كل صباح ، من تلقاء نفسها دون أن يأذن لها الراعي بذلك . واذ لاحظ الراعي أنها تنفعه في عمله كثيراً ، أصبح لا يطردها . حتى انه أصبح يعطيها بقايا غدائه من الجبن والحبز أحياناً . وكان يعد ذلك احساناً منه ونعمة كبرى يمنُّ بها عليها .

« وحين ماتت أمها لم يخجل الكاهن من أن يذلّ ماريا وأن يهينها على مسمع ومرأى من جميع الناس . كانت ماريا واقفة وراء التابوت باطمئناها بالبالية تبكي . وكان الناس قد توافدوا ذرافات لينظروا اليها سائرين وراء الشمس . ففي تلك اللحظة قال الكاهن ، وهو رجل ما يزال

شاباً ولا يطمح الى شيء الا أن يكون واعظاً كبيراً ، قال وهو يوميء الى ماريّا : « هذه هي التي كانت سبب وفاة تلك المرأة المحترمة (وهذا خطأ ، فالعجوز مريضة منذ سنتين) • ها هي ذى أمامكم لا تجرؤ أن ترفع عينها لأن الله قد دمجها الى الأبد ، ها هي ذى حافية القدمين ممزقة الأسمال ، عبرةً لجميع أولئك الذين يفقدون الفضيلة ! ومن هي ؟ هي ابتتها نفسها ! » ، وهلمّ جرّاً وهلمّ جرّاً !...»

« تصوّرْ أنّ هذا الصغار من جهة الكاهن قد أرضى جميع الناس تقريباً • الا أن شيئاً قد حدث فى تلك اللحظة ، هو أن الأطفال قد تحزبوا لماريا ، لأنهم فى ذلك الأوان كانوا قد انحازوا جميعاً الى صفى وأخذوا يحبون ماريّا • اليكن تفصيل ما حدث :

« كنت قد أردت ان أصنع شيئاً لماريا • كانت ماريّا فى حاجة ماسة الى شيء من مال ، ولكننى لم أكن أملك هنالك قرشاً واحداً • لم أكن أملك الا دبوساً له فص من ماس • فلما مرّ بالقرية بائع مقايض يتنقل من قرية الى قرية ، بعته الدبوس بثمانية فرنكات • لا شك أن الدبوس تساوى قيمته أربعين فرنكاً • وأخذت أبحث عن ماريّا ، وحدى ، مدة طويلة • فالتقيت بها أخيراً وراء سور القرية فى ممر بين الجبال قرب شجرة • فأعطيتها الثمانية فرنكات ، وأوصيتها بأن تحرص عليها لأننى لن أملك غيرها • ثم قبّلتها وطلبت منها ألا يذهب بها الظن الى أننى أطمع منها فى سوء ، ولم أقبلها لأننى مفرم بها ، بل لأننى أرنى لحالها وأرأف بها كبيراً ، وقلت لها اننى لم أعدها فى يوم من الأيام آمنة بل تيسة • كنت أرغب رغبةً قوية فى مواساتها وتعزيتها ، وفى اقناعها بأنها يجب عليها ألا تشعر بالمدلة تجاه الآخرين ، ولكنها لم تفهم عنى حقاً ؟ وقد أحسست أنا بذلك على الفور ، رغم انها ظلت صامتةً طول الوقت تقريباً ، مطرقة الى

الأرض ، خافضةً عينيها ، خجلى الى أبعد حدود الحجل . فلما فرغت من كلامي قبّلت يدي ، فأردت أن أقبل يدها تواءً ، لكنها انتزعت يدها بقوة .

« وفي تلك اللحظة انما فاجأتنا عصبية الأطفال . وقد علمت فيما بعد أنهم كانوا يراقبوننى منذ مدة طويلة . أخذ الأطفال يصفرون صفيراً عالياً ويصفقون بأيديهم تصفيقاً قوياً ، ويضحكون ضحكاً مجلجلاً ، بينما كانت ماريا تهرب راکضة . حاولت أن أكلمهم ، لكنهم رموني بالحجارة . وفى ذلك اليوم نفسه علم جميع الناس بالنبا ، علمت به القرية كلها . وسقط هذا كله مرةً أخرى على رأس ماريا . فأخذوا يحرقونها مزيداً من الاحتقار ؛ حتى لقد سمعت أنهم يريدون معاقبتها ، ولكن الأمر لم يتجاوز حدود الكلام والله الحمد ! غير أن الأولاد لم يتركوا لها بعد ذلك اليوم راحة . أصبحوا يطاردونها أكثر مما كانوا يطاردونها فى أى يوم من الأيام قبل ذلك ، وأخذوا يرمونها بالوحل . وصارت حين يلاحقونها تحاول أن تهرب منهم ، ولكن سرعان ما كانت أنفاسها تنقطع بسبب مرض السّل الذى يبعث فى صدرها . صاروا لا يتركونها ، وأخذوا يقذفونها بأنواع السباب والشتائم . حتى لقد اضطرت مرةً أن أقتل معهم . وحاولت بعد ذلك أن أكلمهم . وصرت أحدهم كل يوم ، فى كل مناسبة . فكانوا يقفون ليصفوا الى كلامي مع استمرارهم فى اطلاق الشتائم صراخاً عالياً . حدثهم عن مدى الشقاء الذى تعانيه ماريا . فما هى الا فترة قصيرة حتى أخذوا يكفون عن اهاتى ، وتعودوا أن ينصرفوا صامتين . وتوصلنا أخيراً الى أن تبادل الحديث . لم أخف عنهم شيئاً ، بل حكيت لهم كل شئ . فكانوا ينصتون الىّ بكثير من الاهتمام ، وسرعان ما أخذوا يرون لحال ماريا ، ويشفقون عليها . حتى لقد صار بعضهم يحيونها تحية لطيفة اذا التقوا بها عابرين . ولكنّ عادة هناك : يحيى الناس بعضهم بعضاً اذا تلاقوا ، سواء أكانوا متعارفين أم غير متعارفين . تخيلن دهشة ماريا . فى

ذات يوم حملت اليها طفلتان طعاماً ، ثم جاءتا ترويان لى ذلك • قالتا ان ماريأ أخذت تبكى ، وانهما الآن تجبانها كثيراً • ولم تنقضى مدة قصيرة حتى أخذ جميع الأطفال يحبونها ، وحتى أخذوا يحبوتنى أنا أيضاً فى الوقت نفسه • اصبحوا يجيئون الى أحياناً كثيرة ، ويطلبون منى دائماً أن أحكى لهم شيئاً ما • أظن اننى كنت أجيد الحكى ، فانهم كانوا يحبون كثيراً أن يستمعوا لى • ثم أصبحت لا أدرس ولا أقرأ الا لأستطيع أن أحكى لهم بعد ذلك ما درست وما قرأت • وعلى هذا النحو انما انقضت السنين الثلاث الأخيرة من حياتى هناك • وفيما بعد ، حين أخذ على الناس - ومنهم شنابير - أتتى أكلم الأطفال الصغار كما لو كانوا أشخاصاً كباراً ، دون أن أخفى عنهم شيئاً ، كنت أجيهم جميعاً بأن من العار أن تكذب على الأطفال ، وبأن الأطفال يعرفون كل شىء حتى دون أن نحدثهم عنه ، مهما نحاول اخفاءه عنهم ، وبأن ما نخفيه عنهم قد يتعلمونه تعلماً فاسداً ، أما أنا فأطلمهم عليه بطريقة مناسبة • وحسب الانسان أن يتذكر طفولته هو حتى يدرك صحة ما أقول • لكننى لم أفلح فى اقناعهم •••

• كنت قد قبّلت ماريأ قبل موت أمها بنحو خمسة عشر يوماً • ولكن حين ألقى الكاهن خطبته ، كان جميع الأطفال قد انحازوا الى صفى • وأسرت أقصُّ عليهم وأشرح لهم ما فعله الكاهن • ففضبوا جميعاً عليه ، حتى ان بعضهم بلغوا من غضبهم عليه أنهم كسروا له زجاج بيته بالحجارة وقد أوقفهم عن ذلك ، مبرهنأ لهم على أن عملهم هذا شر • ولكن أهل القرية كانوا قد علموا بكل شىء ، وعندئذ انما أخذوا يهتموتنى بأننى أُّضلُّ الأولاد عن الطريق القويم ؟ وعلموا بعد ذلك أن الأولاد أصبحوا يحبون ماريأ ، فقلقوا قلقاً شديداً • ولكن ماريأ كانت قد سعدت كثيراً ••

• وبلغ أهل القرية من القلق أنهم حظروا على أولادهم أن يقابلوا

ماريا ، ولكن الأولاد كانوا يلحقون بها خفيةً الى حيث توجد مع القطيع فى مكان بعيد يقع على مسافة نصف فرسخ من القرية تقريباً ، فبعضهم يحمل اليها حلوى ، وبعضهم يجيىء لا لشيء الا أن يعانقها ويقول لها : « أحبك يا ماريا » ، ثم يعودون الى القرية راكضين ركضاً سريعاً . غير أن ماريا أوشكت أن تصبح مجنونة من هذه السعادة المبالغية . فانها ماكانت لتجرؤ أن تحلم بمثل هذا الانقلاب فى يوم من الأيام . والحق أنها أصبحت مضطربة فرحة فى آن واحد . أما الأطفال ، ولا سيما البنات ، فقد كانوا يحبون خاصةً أن يذهبوا اليها ليقولوا لها انتى أحبها ، واتى أحدهم عنها كثيراً . وحكوا لها أنهم منى انما علموا كل شيء عنها ، وانهم الآن يحبونها ويرنون لحالها ويشفقون عليها ، وانهم سيظلون كذلك دائماً ؛ وكانوا بعد ذلك يجيئون الى بوجوه فرحة وهيئات منهمكة ليقولوا لى انهم رأوا ماريا وان ماريا تسلّم على .

« وكنت أذهب فى المساء الى الشلال . ان هناك ركنًا تخفيه أشجار الحور عن القرية اخفاءً تاماً . فالى هناك كان يجيىء الأطفال فى المساء ليلتقوا بى ، حتى ان بعضهم كان يجيىء خفيةً وسراً . أعقد أن حبي لماريا كان يسعدهم أكبر السعادة ؛ وكان هذا فى الواقع هو الأمر الوحيد الذى كذبت عليهم فيه طول مدة اقامتى هناك . فانتى لم أحاول أن أبدد أوهامهم شارحاً لهم انتى لا أحب ماريا ، أى انتى لست عاشقاً لها مفرماً بها ، وانما أنا أرتى لحالها ، وأرأف بها . كنت ألاحظ أنهم يفضلون أن يكون الأمر على نحو ما تصوروا وقرروا . كذلك سكت وتركت لهم أن يظنوا أنهم حزرروا الحقيقة !

« وكانت قلوب هؤلاء الصغار تبلغ من رقة الماطفة والحنان أنهم بدا لهم ، فيما بدا لهم من أمور ، أنه اذا كان صديقهم ليون يحب ماريا هذا

الحب كله ، فلا يجوز أن تظل ماريا رنة الثياب الى هذا الحد ، ولا أن
تمشى حافية القدمين .

» تصورنَ أنهم جاءوها بحذاءين وجوربين ، بل جاءوها ايضاً
بثوب . أما كيف استطاعوا ذلك ، فهذا ما لا أفهمه . لقد تكاثمت العصبية
كلها على انفاذ الأمر . فاذا سألتهم لم يريدوا على أن يضحكوا ، وكانت
البنات تصفق بأيديها وتقبلنني . وكان يتفق لى فى بعض الأحيان ايضاً
أن أرى ماريا خفية . لقد تفاقم مرضها تفاقماً شديداً ، فلا تكاد تستطيع
أن تمشي . ثم أصبحت أخيراً لا تنفع الراعى فى شيء ، لكنها ظلت تتبع
القطيع كل صباح ، وتجلس متحبة منزوية . كان هنالك صخرة تهبط
هبوطاً عمودياً وفيها ما يشبه أن يكون مصطبة نائمة ، فكانت ماريا تجلس
فى القاع على الصخرة مخفية من جميع الجهات ، وتلبث على هذه الحال
لا تكاد تتحرك ، من الصباح حتى ساعة عودة القطيع الى القرية . لقد
أوهنها السلُّ حتى صارت فى أغلب الأحيان تغمض عينيها وتستند الى
الصخرة وتنفو غفواً ضعيفاً وهى تتنفس بكثير من العناء . وقد بلغ وجهها
من الهزال أنه أصبح أشبه بهيكل عظم ؛ وكان العرق يتصب على جبينها
وصدغها .

» على هذه الحال كنت أجدها دائماً . وكنت لا أجيئها الا للحظة
قصيرة ، فقد كنت أنا ايضاً أحرص على أن لا يرانى أحد . فما ان أظهر
لها حتى تستفض وتفتح عينيها وتهرع تقبل يدي . أصبحت لا أسحب
يديّ حين قبلهما ، فقد لاحظت أن ثقيل يديّ يسسدها . وكانت
ترتجف وترتمش وتبكي ما ظللت قريباً منها هناك . صحيح أنها حاولت
أحياناً أن تتكلم ، ولكن كان يصعب على المرء أن يفهم عنها . كانت فى
بعض الأوقات كالمجنونة ، من فرط انفعالها الرهيب واشدها المذهل .
» وكان الأطفال يصحبوننى أحياناً . وقد ألفوا فى مثل تلك الأحوال

أن يقفوا غير بعيد ، ليقوموا بمهمة الحراسة ويحمونها مما لا أدرى ! كان ذلك يبهجهم كثيراً ! حتى اذا انصرفنا بقيت ماريا وحيدة من جديد ، لا تتحرك ، مغمضة العينين ، مسندة رأسها الى الصخرة . لعلها كانت تحلم ...

« وفي ذات صباح لم تقو على أن تتبع القطيع ، ولبثت في بيتها الصغير الحالى . وسرعان ما علم الأطفال بذلك ، فجاءوا يزورونها في النهار ، كلهم تقريباً . كانت مستلقية على سريرها وحيدة تماماً . وانقضى يومان لا يقتنى بها أتاها الا الأطفال مناوبة . حتى اذا عرف أهل القرية بعد ذلك أن ماريا تحتضر ، جاءت عجائز تسهر عليها . يبدو أن الناس في القرية قد أخذوا يشفقون على ماريا آخر الأمر . أو هم أصبحوا ، على الأقل ، لا يحرمون على أولادهم أن يروها ، ولا يؤنبونهم اذا هم رأوها . وكانت ماريا طوال الوقت في حالة غصو ، الا أن نومها كان مضطرباً ، وكان يمزق صدرها سعال رهيب . وكانت العجائز تطرد الأولاد ، الا أن الأولاد يهرعون الى النافذة ولو لحظة قصيرة ليقولوا : « حجة يا صديقتنا الطيبة ماريا ! » فكانت ماريا ما ان تراهم أو تسمعهم حتى تنتعش ، فاذا هى تحاول أن تنهض على كوعها دون أن تستجيب لنهى العجائز ، واذا هى تحيهم بهز رأسها وتشكرهم . واستمر الأولاد على أن يأتوها بحلولى ، لكنها أصبحت لا تكاد تأكل من حلواهم شيئاً .

« أؤكد لكن أنها بفضل الأولاد انما ماتت سعيدة . وبفضل الأولاد انما نسيت شقاءها الأسود ، كأنها حصلت على غفران خطاياها ، ذلك أنها ظلت الى النهاية تعتقد أنها آمنة كبيرة . كان الأولاد يتدافعون على نافذتها تدافع المصافير تلطم الزجاج بأجنحتها ، ويصيحون قائلين لها كل صباح : « نحن نحبك يا ماريا ! » . وماتت ماريا بسرعة . وكنت أظن أنها ستعيش زمناً أطول من ذلك كثيراً .

« عشية موتها ، عند غروب الشمس ، ذهبت أعودها . لا بد أنها
تعرفتني . صافحتها مرةً أخيرة . ما كان أشد يبوسة يدها ! وفي الغداة
جاء من يقول لي ان ماريا ماتت !

« أصبح يستحيل عندئذ ضبط الأطفال . غمروا تابوتها بالأزهار ،
ووضعوا على رأسها أكليلاً . وفي الكنيسة ، امتنع الكاهن في هذه المرة
عن ذكر سوءاتها . ومهما يكن أمر ، فان الذين حضروا الدفن كانوا
قلة قليلة هم عدد من الفضولين . ولكن الأطفال هرعوا جميعاً حين وجب
حمل النعش . واذ كانوا لا يقوون على حمله فقد حاولوا أن يساعدوا وأن
يعاونوا . وركضوا وراء النعش ، وكانوا جميعاً يكون . ومنذ ذلك الحين
أصبح قبر ماريا ضريحاً يحج إليه الأطفال . فهم في كل سنة يغمرونه
بالأزهار ، وقد زرعوا حوله أشجار ورد .

« ولكن منذ دُفنت ماريا أخذ أهل القرية يضطهدونني في أمر
الأولاد . وكان الكاهن والمعلم أكبر المحرّضين على اضطهادي . حرّموا
على الأولاد أن يروني ، وحتى شنيدر وعد بأن يسهر على تنفيذ ذلك .
لكننا كنا نستطيع أن يرى بعضنا بعضاً ، فتخاطب بالاشارات من بعيد . ثم
سوَّيت الأمور من بعد ، غير أن ما حدث كان حسناً جداً : فبفضل تلك
الاضطهادات ، اقتربت من الأطفال مزيداً من الاقتراب . حتى اتى في
السنة الأخيرة تصالحت تقريباً مع المعلم والكاهن . أما شنيدر ، فكان
يكلمني كثيراً ، ويناقش «مذهبي» المشنوم في معاملة الأولاد . أى مذهب؟
لقد أطلعتني شنيدر أخيراً على فكرة غريبة جداً كانت قد خطرت بباله -
حدث هذا قيل سفرى مباشرة - فقال لي انه مقتنع اقتناعاً تاماً بأننى أنا
نفسى طفل حقاً ، طفل من جميع النواحي ، واتى ليس لي من صفات
الرجل البالغ الراشد الا القامة والوجه ، أما من ناحية النفس والطبع
والتكوين وربما الذكاء ، فما أنا بالرجل البالغ الراشد ، واتى قد أظل

على هذه الحال ولو عشت ستين عاماً • ضحكتُ من كلامه ذاك • فلا شك أنه لم يكن على حق • والا ففى أى شىء يمكن أن أَعَدَّ طفلاً ؟ هناك شىء واحد صحيح ، هو اننى لا أحب صحبة الكبار فعلاً ؛ لقد لاحظت هذا فى نفسى منذ مدة طويلة • وما زلت لا أحب صحبة الكبار ، ولا أحسن أن أكون معهم • ومهما يظهروا لى من طيب ونبل ، فاننى أظل أشعر بضيق ما بقيت معهم ، حتى اذا استنطعت أن أتركهم وأن أمضى الى رفاقى أحسست بارتياح وغبطة ؛ ورفاقى هم دائماً أطفال ، لا لأننى أنا نفسى طفل ، بل لأنهم يجذبوننى لا أكثر !

« اننى منذ بداية اقامتى فى تلك القرية ، أثناء نزهاتى التى أقوم بها فى الجبل وحيداً حزيناً ، كنت اذا التقيت أحياناً ، ولا سيما عند الظهر ، ساعة الخروج من المدرسة ، بتلك المصيبة الصاخبة من الأطفال الذين يركضون حاملين حقائبهم وألواحهم ، صارخين ، ضاحكين ، لاعبين ، كنت أشعر بنفسى كلها تتجه اليهم وتندفع نحوهم على حين فجأة • لا أدرى كيف أفسّر هذا وكيف أعلّله ، ولكننى ما التقيت بهم مرةً الا شعرت بسعادة قوية تملأ قلبى وتفرّج نفسى • كنت أتوقف وأضحك سعادةً حين أرى الى سيقانهم الصغيرة المتحركة الشبيطة المتواتبة دائماً ، وحين أرى هؤلاء الصبية والبنات يركضون ، وحين أراهم يضحكون أو يكون (ذلك أن بعضهم يكونون قد اتسع وقتهم أثناء الطريق من المدرسة الى المنزل ، لأن يتضاربوا ويبكوا ، ثم يتصالحوا ويستأنفوا لعبهم) • كنت عندئذ أنسى حزنى • وبعد ذلك ، طوال تلك السنين الثلاث ، أصبحت لا أستطيع حتى أن أفهم كيف ولماذا يمكن أن يشعر البشر بالضجر والسأم ، أو بالحزن والأسى ! لقد كان مصيرى كله مع الأطفال •

« لم أفكر يوماً فى أن أترك تلك القرية ، ولا خطر ببالى ساعةً أننى أستطيع أن أعود الى روسيا فى يوم من الأيام • كان يخيّل الىّ أننى

مقيم هناك الى الأبد ، لكنني فهمت أخيراً أنني لا أستطيع أن أكون عالةً على شنايدر ؛ وفي ذلك الأوان انما حدث أمر يبلغ من خطورة الشأن ، فيما يظهر ، أن شنايدر نفسه استحتى على الرحيل ، وكتب الى هنا باسمي . سوف أرى ما هو الأمر ، وسوف أطلب النصح . ولعل مصري يتغير بذلك تغيراً تاماً ، ولكن المسألة ليست هنا ، وليس هذا أهم شيء . فانما الشيء الهام أن حياتي قد تغيرت تغيراً كاملاً منذ الآن . لقد تركت هناك أشياء كثيرة ، أشياء كثيرة جداً . لقد زال كل شيء . قلت لنفسى وأنا في القطار : « أنا الآن ذاهب الى الناس . وربما كنت لا أعرف شيئاً . غير أن حياةً جديدة قد بدأت » . قررت أن أنفذ مهمتي بشرف واستقامة ، وثبات وصلابة . اننى أقدر أن حياتي مع الناس ستكون شاقة ومملة . فقررت أن أكون مهذباً مع الجميع ، وأن أكون صريحاً . لا شك في أنهم لن يطالبوني بأكثر من ذلك ! وربما عدوني طفلاً هنا أيضاً . لا بأس ! ثم ان جميع الملأ يعدوننى أبله ! انى لأتساءل لماذا يعدوننى كذلك ؟ صحيح اننى مرضت في الماضي حتى صرت أشبه بأبله . ولكن في أى شيء أنا الآن أبله ، ما دمت أدرك أنهم يعدوننى ابله ؟ حين أدخل الى مكان ما ، أحدث نفسي قائلاً : « انهم يعدوننى ابله ، وأنا مع ذلك ذكى ، ثم هم لا يخطر لهم هذا على بال ! » . كثيراً ما تدور هذه الفكرة في رأسي .

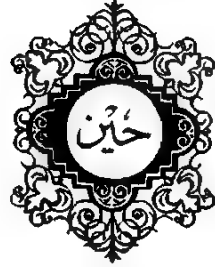
« حين تلقيت بمدينة برلين الرسائل الصغيرة التي استطاعوا أن يرسلوها الى من هناك ، أدركت أخيراً مدى ما يحملونه لى من حب . ان الرسالة الأولى تثير كثيراً من الألم دائماً ! ما كان أشد حزنهم حين صحبوني الى محطة القطار . كانوا قد بدأوا يستعدون لرحيلي منذ شهر قائلين : « ليون مسافر ، ليون مسافر الى الأبد » . أصبحنا نلتقى قرب الشلال

في كل مساء ، وأناخذ نتحدث عن فراقنا المرتقب ، ونكون أحياناً مرحين
كمرحنا في السابق ، لكنهم تعودوا حين يتركونني ليذهبوا الى النوم ، أن
يضموني بأذرعهم ضمّاً قوياً فيه كثير من المحبة والحنان ، وذلك أمر لم
يكونوا يفعلونه من قبل . وكان بعضهم يجيئون فرادى ، خفيةً عن
الآخرين ، ليَقْبَلُونِي على مهلهم دون رقيب . وفي يوم رحيلي ، جاءوا
جمهرةً واحدة ليصحبوني الى المحطة . ان المحطة تبعد عن القرية مسافة
فرسخ . كانوا يكبحون شعورهم ويكظمون عاطفتهم فيسكون عن البكاء ،
غير أن بينهم من كانوا لا يفلحون في ذلك فاذا هم ينشجون بأصوات
عالية ، ولا سيما البنات . سرنا بخطى سريعة حتى لا نصل متأخرين ،
لكن واحداً منهم انفصل عن الآخرين فجأة ، وارتدى على في منتصف
الطريق ، وطوقني بذراعيه الصغيرتين ، وأخذ يقبلني ، فاستوقف بذلك
موكبنا كله . وحين ركبت وتحرك القطار صاحوا يودعوني بصوت واحد ،
ولبثوا في أماكنهم الى أن اختفى القطار عن أبصارهم اختفاءً تاماً . وكنت
أنا أيضاً أنظر اليهم ...

« اسمعتي ... حين دخلت الى هنا منذ قليل ، فرأيت وجوهكن
اللطيفة - أنا الآن انعم النظر في الوجوه كثيراً - شعرت بفرح في قلبي
لأول مرة منذ الكلمات الأولى . ولا أتمكن انني قلت لنفسى منذ برهة :
لعنني خلقت انساناً محظوظاً بالفعل . انني أعرف أن المرء لا يلتقي كثيراً
بأناس يمكن أن يجيهم من أول وهلة . ومع ذلك ما كدت أترك القطار
حتى التقيت بكن . أنا أعلم أن على الانسان أن يخجل من التحدث عن
عواطفه الى جميع الناس ؛ ومع ذلك أراني أحدثكن عن عواطفى ؛ اننى
لا أحس تجاهكن أى شعور بالحجل أو العار . اننى غير اجتماعى ، وقد
لا أزوركن مرةً أخرى الا بعد مدة طويلة . فلا تسن تفسير ذلك ،
ولا يذهبن بكن الظن خاصةً الى اننى لا أحرص عليكن ، أو أن شيئاً قد

صدر عنك فأذاني . لقد طلبت مني أن أصف لكن ما رأيته في وجوهكن .
يسرنى أن أفعل هذا . فأما أنت يا أدولايدي ايفانوفنا ، فإن لك وجهاً
سعيداً هو أقرب وجوهكن أنتن اثنتان الى القلب . وعدا أنك جميلة
جداً ، فإن المرء يقول لنفسه حين ينظر اليك : « ان لها وجه أخت طيبة » .
انك تواجهين الناس ببساطة ومرح ، لكنك تحسنين أيضاً سبر القلوب .
ذلك ما يوجهه الى وجهك . وأما وجهك أنت يا ألكسندرا ايفانوفنا ، فإنه
هو أيضاً جميل محبب الى القلب ، ولكن ربما كنت تخفين حزناً مستسراً .
ليس هناك أى شك في أنك طيبة القلب ، لكنك لست فرحة . ان في
وجهك شيئاً يذكّر بوجه « مادونا » هولباين بمدينة درسدن * هذا عنك
أنت . ترى هل حزرت ؟ أنت التي تعتقدين اننى أحزر . وأما أنت
يا أليزابيت بروكوفينا (قال ذلك وهو يلتفت فجأة نحو الجنرالة) ، فانتى
لا أحس احساساً بل أوقن يقيناً أنك طفلة حقيقية ، طفلة في كل شيء ،
طفلة في الخير وفي الشر على السواء ، وذلك رغم كل سنك . هل غضبت
لأننى أقول لك هذا ؟ انك لتعرفين رأيى في الأطفال وشعورى نحوهم .
ولا يذهبن بكن الظن الى اننى حدثتكن عن وجوهكن بمثل هذه الصراحة
لأننى بسيط ساذج فحسب ، وربما كانت لى فكرة أبيتها . » .

الفصل السابع



صت الأمير ، كان الجميع ينظرون اليه فرحين ،
حتى آجلایا ، ولكن الفرح كان واضحاً في وجه
اليزابت بروكوفيتنا خاصة .

هتفت تقول :

- هذا هو الامتحان ! فيا أيتها الآسات ، أتن اللواتي كنت تقدّر
أن تحمينه حمايتكن لفتي صغير مسكين ، ها هو ذا قد تكررّ عليكن
فأبهجن ، ثم تحفظ فلم يعد بالمجىء اليكن الا نادراً . ها نحن أولاء
جميعاً غيات . وانه ليسعدني ذلك . لكن أغباناً وأدعانا الى الضحك منه
والسخرية به انما هو ايفان فيدوروفتش . مرحى يا أمير ! منذ حين ، كان
قد صدر أمرٌ بامتحانك !... أما ما قلته عني من النظر في وجهي ، فهو
الحقيقة بعينها . أنا طفلة . وأنا أعرف ذلك . وكنت أعرف ذلك قبل أن
تعرفه أنت . لقد أحسنت الافصاح عن رأيي بكلمة واحدة . انني أجد
طبعك شبيهاً بطبعي من جميع النواحي ، واني لسعيدة بهذا . نحن
كقطرتي ماء تشابهاً ، مع فرق واحد هو أنك رجل وأنتى امرأة ، وأنتى
لم أكن بسويسرا يوماً . ذلك هو الفرق كله .

هتفت آجلایا تقول :

- لا تمعجلى كثيراً يا ماما • لقد قال الأمير منذ هنيهة انه فى جميع ما أسراً به الينا كان بيئت فكرة ، وانه لم يتكلم عبثاً ولهواً !
وقالت الأختان ضاحكتين .

- نعم ، نعم •

- لا تسخرن يا عزيزاتى • قد يكون أمكر منكن أنتن السلات مجتمعات • لسوف ترين • ولكن لماذا لم تقل شيئاً عن آجلايا يا أمير ؟
ان آجلايا تنتظر ، وأنا أيضاً أنتظر •

- لن أقول شيئاً الآن • سأقول فيما بعد •

- لماذا ؟ يخيّل الى أنك لاحظتها ملاحظة كافية !

- آ ... نعم نعم ... لاحظتها كثيراً • أنت آية من آيات الجمال يا آجلايا ايفانوفنا • انك تبلغين من الجمال أن المرء لا يجرو أن ينظر اليك •

قالت الجنرالة ملحة :

- أهذا كل شىء ؟ وطبيعتها ؟

- يصعب على المرء أن يقضى فى الجمال برأى • لم أنهياً لهذا بعد •
الجمال لغز •

تدخلت آديلايد قائلة :

- معنى هذا أنك تلقى على آجلايا لغزاً أو أحجية • حاولى أن تحزرى يا آجلايا • ولكن أليست جميلةً يا أمير ؟

أجاب الأمير بحرارة وهو ينظر الى آجلايا معجباً :

- جميلة جداً خارقاً • تكاد تكون فى مثل جمال ناستاسيا فيليوفا ، رغم أن وجهها مختلف جداً ...

نظرت النساء الأربع بعضهن الى بعض مدهوشات •
وسأله الجنرال :

- مَنْ ؟ ناستاسيا فيليوفا ؟ أين رأيت ناستاسيا فيليوفا ؟ أية
ناستاسيا فيليوفا ؟

- منذ قليل كان جبريل آرداليوتش يُرى ايفان فيدوروفتش
صورتها •

- كيف ؟ حمل الى ايفان فيدوروفتش صورتها ؟

- ليريه الصورة • ان ناستاسيا فيليوفا قد أهدت اليوم صورتها الى
جبريل آرداليوتش ، فجاء بها هذا الى الجنرال ليريه اياها •
صاحت الجنرال تقول :

- أريد أن أرى الصورة ! أين هى تلك الصورة ؟ اذا كانت قد
أهدتها اليه هو ، فلا بد أنه محتفظ هو بها ، ولا بد أنه الآن فى حجرة
المكتب • انه يأتى للعمل هنا فى جميع أيام الأربعاء ولا ينصرف قبل الساعة
الرابعة • احضروا جبريل آرداليوتش حالا ! بل لا تحضروه ! فلست
أموت شوقاً الى رؤيته ! يا أمير ، يا صديقى ، هلاً تطلقت فذهبت الى
حجرة المكتب ، فأخذت تلك الصورة منه ، ثم جئت بها الى هنا • قل له ،
من فضلك ، اننى أريد أن أرى الصورة !

قالت آديلايد بعد أن خرج الأمير :

- لا بأس به ! لكنه بسيط مسرف فى البساطة قليلاً !

فقالت ألكسندرا مؤيدة :

- نعم ، مسرف فى البساطة قليلاً ، حتى ليصبح من ذلك مضحكاً
بعض الشيء !

لا الأولى ولا الثانية كان يبدو عليها أنها تفصح عن كل رأيها ،
وتعبّر عن كل ما يخالج نفسها •

قالت آجلايا :

- ومع ذلك عرف كيف يحسن التصرف حين تحدث عن وجوهنا .
مدحنا جميعاً وسرّنا جميعاً ، حتى ماما •

صاحت الجترالة تقول :

- لا تتخاشى ! هو لم يمدحني ، ولكن أنا التي شعرت بأنني
مدّحت •

سألت آديلايد :

- هل تظنين أنه كان يحاول أن يحسن التصرف ويصل الى الهدف؟

- يخيل الىّ أنه ليس بسيطاً الى الحد الذي يُظن فيه •

قالت الجترالة غاضبة :

- ها هي ذى تعيد الكرة ! في رأيي أنا أنكن أدعى منه الى الضحك
عليكن ! صحيح أنه ساذج قليلاً ، لكنه يعرف ماذا يريد - أقول هذا
بأنبل معاني هذا التعبير • هو مثلي تماماً •

قال الأمير يحدث نفسه نادماً وهو ذاهب الى حجرة المكتب : «لاشك
أنني أخطأت اذ جئت على ذكر تلك الصورة • ولكن لعنني أحسنت اذ
تكلمت عنها مع ذلك • • • • •

ان فكرة غريبة قد أخذت تومض في ذهنه ، وان لم تكن بعد
واضحة كل الوضوح •

ان جبريل آرداليونتش ما يزال في حجرة المكتب ، غارقاً في أوراقه .
كان يبدو عليه أنه يستحق فعلاً الرواتب التي كان يتقاضاها من شركة
الأسهم •

واضطرب الى أقصى حدود الاضطراب حين طلب منه الأمير الصورة،
وروى له كيف علموا هناك بوجودها • وصاح يقول غاضباً حائقاً
مقهوراً :

- آه ... آه ... ما كانت حاجتك الى تلك الثروة كلها ؟

ثم تتم يقول من بين أسنانه :

- أنت لا تعرف شيئاً ... أنت أبله !

قال الأمير :

- متأسف • قلت ما قلته دون تفكير ، أثناء الحديث • قلت ان أجاليا

تكاد تكون في مثل جمال ناستاسيا فيليوفا •

سأله جانيا أن يقصّ عليه الأمر بالتفصيل ، ففعل الأمير • فألقى

عليه جانيا نظرة ساخرة •

ودمدم يقول :

- أنت مغرم بناستاسيا فيليوفا طبعاً ...

ولكنه لم يكمل كلامه ، وشرّد فكره •

كان واضحاً أنه قلق • وذكره الأمير بأن الجنرالة تطلب منه

الصورة •

قال جانيا فجأة ، كأن فكرة مباغتة قد وافته :

- اسمع يا أمير • هناك معونة ضخمة أحب أن أطلبها منك ...

ولكنني ... حقاً ... لا أدري ...

اضطرب جانيا ولم يكمل كلامه • كان يبدو نهياً لصراع داخلي ،

وكان يلوح عليه التردد في اتخاذ قرار •

انتظر الأمير صامتاً • وعاد جانيا يروز الأمير بنظرة ثابتة فاحصة

متفرسة • ثم بدأ يتكلم ثانية فقال :

- يا أمير ... انتى الآن ... لسبب من الأسباب ... سبب غريب
كل الغرابة ... بل سبب مضحك ... لست مسئولاً عنه ... وهذا على
هامش المسألة على كل حال ... أقول انتى الآن .. فيما أظن .. مؤاخذ
قليلاً هناك ... لذلك قررت أن أغيب مدة من الوقت الا اذا دُعيت .
لكننى مع ذلك فى حاجة قصوى الى أن أكلّم آجلایا ایفانوفنا . لقد
كتبْتُ بضعة أسطر (كان جانيا يحمل بيده ورقة مطوية) ، ولكننى لا أدرى
كيف أوصلها اليها . فهل لك يا أمير أن تحصل هذه الورقة الى آجلایا
ایفانوفنا فوراً ، ولكن الى آجلایا ایفانوفنا وحدها ، أى دون أن يرى أحد
ذلك ؟ هل تفهمنى ؟ ليس الأمر أمر سرّ كبير ... ليس هناك أى شىء
يمكن أن ... ولكن هل تصنع لى هذا ؟

أجاب الأمير :

- لا يسرنى هذا كثيراً !

فألحَّ جانيا قائلاً :

- آه ... أمير ... المسألة بالغة الخطورة بالنسبة الى ... وقد
تجيبنى آجلایا ... صدّقنى ... اذا كنتُ أتُجه اليك واستعين بك فلأن
المسألة بالغة الخطورة ... من ذا الذى يمكننى أن أكلفه بإيصال الرسالة
اليها سواك ! ان المسألة ذات خطورة ... خطورة رهيبية ، بالنسبة الى ...

كان وجه جانيا يعبر عن خوف بلغ من الفظاعة والهول أن الأمير
لم يرفض وأجاب يقول وهو ينظر الى جانيا نظرة اشفاق :
- طيب ... سأُنقلها .

فقال جانيا ضارعاً وقد اطمأن روعه :

- ولكن يجب ألا يلاحظ أحد ... وانى لأعتمد على عهد الشرف
الذى تقطعه على نفسك يا أمير ، أليس كذلك ؟

قال الأمير :

- لن أرى الرسالة أحداً •

أقلت من جانيا لفرط تمجله قوله :

- ليست الورقة مختومة ، ولكن ...

ثم أمسك عن اتمام كلامه خجلاً مضطرباً •

فأجابه الأمير ببساطة :

- لن أقرأها •

وأخذ الصورة ، وخرج من حجرة المكتب •

فلما أصبح جانيا وحيداً ، أمسك رأسه يديه ، وقال يحدث نفسه :
« كلمة واحدة منها تكفى ... وربما أقطع عندئذ صلتى ب ... » • كان
من شدة انفعاله أثناء الانتظار ، لا يستطيع أن يعود الى أوراقه ، وأخذ
يندفع الغرفة من ركن الى ركن ••

وكان الأمير يمشى شارد اللب • لقد أدهشه ادهاشاً مزعجاً أن يكلف
بهذه المهمة • بل ان مجرد تصويره رسالةً يبعث بها جانيا الى آجلايا كان
يسوءه • لكنه قبل أن يصل الى الصالون قاطعاً اليه حجرتين ، توقف فجأة
كمن تذكر شيئاً ما ، وألقى نظرة على ما حوله ، ثم اقترب من النافذة
التماساً لمزيد من الضوء ، وأخذ ينعم النظر في صورة ناستاسيا فيليوفا •
كان كمن يحاول أن يحزر شيئاً يختبئ في هذه الصورة وقد
خطف انتباهه منذ قليل • لم يتركه ذلك الشعور الذى قام في نفسه
حيثئذ ، ولكنه يحاول الآن أن يثبت منه ، فيما يظهر •

ان هذا الوجه الحارق بجماله وشيء آخر ، يخطف الآن انتباهه
بمزيد من القوة • ان فيه كبرياء وعجباً ، وان فيه احتقاراً وازدراء ، بل

يكاد يكون فيه كره وبغض ، غير أنه يعبر في الوقت نفسه عن ثقة وبراءة
وسداجة غريبة . حتى ان هذا التضاد نفسه يوقظ في النفس شيئاً من
العطف والشفقة . ثم ان هذا الجمال الذي يبهز الأبصار لا يكاد يطلق :
جمال الوجه الشاحب ذى الحدين الحاسفين قليلاً ، والعينين الساطعتين . . انه
جمال غريب ! تأملها الأمير لحظة ، ثم تاب الى نفسه ، فألقى نظرة حوالية ؛
وها هو ذا يقرب الصورة من شفتيه بحركة سريعة فيقبلها !

حين دخل الأمير الصالون بعد قليل كان وجهه هادئاً كل الهدوء .
ولكنه قبل ذلك ما ان صار في قاعة الطعام (قبل الصالون بحجرتين) حتى
كاد يصطدم عند الباب بأجلايا ، داخلة .
لقد كانت وحيدة .

قال لها وهو يمد اليها الرسالة :

- رجائي جبريل آرداليوتش أن أنقل اليك هذا .

فتوقفت أجلايا ، وتناولت الورقة ، وألقت على الأمير نظرة غريبة .
لم يكن في هذه النظرة أى اضطراب أو خجل . كل ما هنالك شيء قليل
من دهشة ؛ حتى ان هذه الدهشة هي دهشة من الأمير وحده . فكأن
أجلايا كانت بهذه النظرة تطالب الأمير بأن يشرح لها كيف وجد نفسه
مُفْحَماً في هذه القضية ، وتطالبه بذلك في هدوء وتعالٍ . وارتسم على
وجهها أخيراً شيء من سخرية ، وابتسمت ابتسامة خفيفة ومرّت .

تأملت الجنرالة صورة ناستاسيا فيليوفنا خلال مدة من الوقت صامتة ،
مع شيء من الاحتقار ؛ وكانت ممسكة بالصورة أمامها مادة ذراعها الى
مسافة بعيدة مسرفة في البعد .

ودمدت تقول أخيراً :

- نعم ، هي جميلة ، بل هي جميلة جداً . لقد رأيته مرتين ،
ولكن من بعيد .

ثم اتجهت الى الأمير فقالت له :

- اذن هذا هو نوع الجمال الذى تحبه ؟

فأجاب الأمير بشئ من الجهد :

- نعم ... هذا هو ...

- أقصد ... هل هو هذا بعينه ؟

- نعم ... هو بعينه ؟

- لأى سبب ؟

دمدم الأمير يقول رغم ارادته تقريباً ، كأنه يكلم نفسه ولا يجب
أحدًا :

- فى هذا الوجه ألم كبير وعذاب عظيم ...

قالت الجنرالة :

- على كل حال قد لا يكون هذا عندك الا هدياناً ...

ورمت الصورة على المائدة بحركة كبيرة متعالية . فتناولت ألكسندرا
الصورة ، واقربت منها آديلايد ، وأخذت البستان تنعمان النظر فيها معاً .
وفى تلك اللحظة عادت آجلانيا .

هتفت آديلايد تقول فجأة وهى تنظر الى الصورة بشراهة من فوق
كتف أختها :

- يا لها من قوة !

فسألتها الزابت بروكوفينا بخشونة :

- أين ؟ أية قوة ؟

فقالت آديلايد بحرارة :

- ان جمالا كهذا الجمال لهو قوة • ان جمالا كهذا الجمال يمكن
أن يقلب العالم !

وعادت الى مسند لوحها شاردة الذهن مفكّرة •
لم تلق آجلايا على الصورة الا نظرة عابرة ، فجمّدت عينيها ،
ومطت شفها السفلى ، ومضت تجلس منزوية عاقدة ذراعيها على صدرها •
دقت الجرنال الجرس ، فدخل خادم فقالت له :

- ادع جبريل آرداليونتش • هو في حجرة المكتب •
فهتفت ألكسندرا تقول :

- ماما !

فقالت الجرنال حاسمة ، مانمة كل جواب :
- أريد أن أقول له كلمة ! كفى !

كان واضحا أنها مهتاجة • والتفت الى الأمير فقالت له :

- هل ترى يا أمير ؟ لم يبق عندنا هنا الا أسرار ، لا شيء الا
الأسرار ! يظهر أن هذا لا غنى له ... يا للفاوة ! وذلك في أمر يقتضى
منتهى الصراحة والوضوح والصدق والاستقامة ! هناك مشروعات زواج
... وليست تعجبنى هذه المشروعات ! ...

أسرعت ألكسندرا توقفها عن الكلام من جديد قائلة :

- ماما ! ماذا جرى لك ؟

- ماذا تريدن يا ابنتى العزيزة ؟ أهى ترضيك أنت ، هذه
المشروعات ؟ لا مانع أن يسمع الأمير ... فنحن أصدقاء ! ... أنا وهو ،
على الأقل صديقان ... ان الله يبحث عن الأخيار أما الأشرار وأصحاب
النزوات ، فما أكثرهم ! ولا سيما أصحاب النزوات أولئك الذين يقررون

اليوم شيئاً ويفعلون في الغد شيئاً آخر • هل تفهمين عني يا ألكسندرا
ايفانوفنا؟ هنّ يقلن ، يا أمير ، اننى غريبة الأطوار ، في حين أننى
أستطيع أن أميز الأمور • ذلك أن العبرة بالقلب ، أما ما عدا ذلك
فسفاسف ! صحيح أن الذكاء لازم أيضاً ، بل قد يكون الذكاء أهمّ شيء •
لا تضحكى ساخرة يا آجلايا ، فأنا لا أتناقض • فإن الحمقاء التى لها قلب
وليس لها ذكاء ، لا تقلُّ شقاءً عن حمقاء لها ذكاء وليس لها قلب • هذه
حقيقة قديمة • فأنا الحمقاء التى لها قلب وليس لها ذكاء ؛ وأنت الحمقاء
التي لها ذكاء وليس لها قلب ؛ وذلك هو السبب في أننا كلتينا شقيتان ،
وفي أننا كلتينا نتألم ونتعذب •

لم تستطع آديلايد أن تكبح جماح نفسها ، بعد أن كانت بين جميع
الحاضرات أكثرهن احتفاظاً بمزاحها المرح الفرح ، فقالت :

– ما الذى يشقيك ياماما ؟

فقالت الجُرّالة حاسمة :

– يشقيني أولاً أن لى بنات متفهمات كثيراً ••• ولما كان هذا كافياً
فلا داعي الى أن أفيض في الكلام على ما عداه ! كفى ثرثرة ! سئرى كيف
تحسان التصرف كلتاكما (ولست أعد آجلايا) بما تملكان من قوة فكر
وسئرى هل ستستطيعين ، أنت يا ألكسندرا ايفانوفنا المدهشة ، أن تكوني
سعيدة مع صاحبك السيد النبل !•••

واذ رأت جانبا داخلاً ، صاحت تقول :

– آ ••• وهذا عرس آخر •••

وحياً جانبا ، فأجابته دون أن تدعوه الى الجلوس :

– صباح الخير • هيه ••• اذن ستزف ؟

فتمتم جبريل آرداليوتش يقول مبهوراً مصعوقاً :

- أرفى ؟ كيف هذا ؟... كيف أرفى ؟
لقد اضطرب اضطراباً فظيماً •
- أقصد ستتزوج ؟ ذلك ما أسألك عنه ، اذا كان هذا التعبير
يرضيك أكثر !

فكذب جبريل آرداليوتش قائلاً وقد احمر وجهه من الحجل :
- ل ... ل ... لا ... لن ... لن •
وألقى نظرة سريعة على آجلايا التى كانت ما تزال منتحية ، ثم أشاح
وجهه بسرعة • كانت آجلايا تنظر اليه بهدوء وبرود ، دون أن تحوّل
عنه بصرها ، وكانت تراقب اضطرابه •

ألحت اليزابت بروكوفينا اللجوج تسأله :
- لا ؟ تقول لا ؟ يكفى • سأتذكر أنك فى صباح يوم الأربعاء قد
أجبت عن سؤالى بقولك : « لا » • فى أى يوم نحن ؟ ألسنا فى يوم
الأربعاء ؟

أجابت آديلايد :
- أظن أنه يوم الأربعاء يا ماما •
- لا أحد يعرف الأيام والتواريخ • فى أى يوم من أيام الشهر
نحن ؟

قال جانبا :
- فى اليوم السابع والعشرين •
- فى السابع والعشرين ؟ هذا تاريخ مناسب من بعض النواحي •
طيب • استودعك الله ! عندك أعمال كثيرة فيما أظن ، وأنا يجب على أن
أرتدى ثيابى لأخرج • استرد هذه الصورة • واتقل تحيتى الى أمك
المسكينة نينا ألكسندروفنا ! الى اللقاء يا أمير ، يا صديقى ، يا صديقى !

زرني كثيراً • أما أنا فأتى ذاهبة الى المعجوز بيلوكونسكايا خصباً لأكلها
عنك • واسمع يا عزيزي : اننى أومن صادقة بأن الله انما أرسلك من
سويسرا الى بطرسبرج من أجلى أنا . قد تعمل شيئاً آخر ، ولكنك
بعثت الى هنا من أجلى أنا خاصة • الله هو الذى شاء ذلك • الى اللقاء
يا عزيزاتى • ألكسندرا ، تعالى الى يا صديقتى •

وخرجت الجنرالة • وتناول جانبا الصورة من على المائدة مضطرباً
طائش العقل ممتلئ النفس حقداً ، ثم التفت نحو الأمير وهو يتسهم ابتسامة
مصطنعة :

— أنا عائد الى بيتى يا أمير • فاذا كنت ما تزال تنوى أن تقيم عندنا ،
فسأقودك الى هناك ، فانك لا تعرف العنوان •

قالت آجلايا وهى تنهض عن مقعدها :

— لحظة يا أمير • عليك أن تكتب شيئاً فى دفترى (الألبوم) • بابا
يدعى أنك خاطا • سأجيتك بالدفتر •
قالت آديلايد :

— الى اللقاء يا أمير • أنا أيضاً منصرفة •

وصافحت الأمير مصافحة قوية ، وابتسمت له ابتسامة فيها لطف
ومودة ومحبة ، وخرجت دون أن تلقى على جانبا نظرة واحدة •

قال جانبا وهو يصرف بأسنانه ويهرع نحو الأمير :

— أنت الذى نثررت فجئت على ذكر زواجى ... يا لك من
نثرار وقع !

بهذا جمجم جانبا متعجلاً بصوت خافت ، وقد استمر وجهه سخطاً
وحقناً ، والتمعت عيناه خبثاً وشرّاً •

أجابه الأمير بأدب هادى :

ـ أوكد لك أنك مخطىء . لقد كنت أجهل كل الجهل أنك

ستزوج *

ـ لقد سمعتَ ايفان فيدوروفتش يقول منذ قليل ان كل شىء سيتقرر

هذا المساء فى منزل ناستاسيا فيليوفا ، وهذا ما نقلته اليهن . أنت كاذب!

أنىَّ لهنَّ أن يعلمن النبأ بغير ذلك . من ذا الذى كان يمكن أن يبلغهن

النبأ سواك ؟ ألم تشر العجوز الى هذا اشارة مباشرة ؟

ـ أنت أقدر منى على أن تعرف من عساه أطلعهن على النبأ ، اذا كنت

تحسن حقاً أن قد كان ثمة اشارة . أما أنا فلم أقل كلمة واحدة .

قاطعه جانيا يسأل محموماً :

ـ هل نقلت رسالتى ؟ ماذا كان الجواب ؟

ولكن آجلايا دخلت فى تلك اللحظة نفسها ، فلم يتسع وقت الأمير

لأن يجيب *

قالت آجلايا وهى تضع دفترها على المائدة :

ـ اليك الدفتر يا أمير . فاختر منه صفحةً واكتب لى شيئاً . هذه

ريشة جديدة كل الجودة . لا ضير فى أن تكون من معدن ؟ لقد سمعت أن

الخطاطين لا يستعملون ريشة من معدن .

كانت وهى تكلم الأمير كأنما لا تلاحظ حتى وجود جانيا . ولكن

بينما كان الأمير يهيم الريشة ويختار صفحة ويستعد للكتابة ، دنا جانيا

من المدفأة التى كانت تقف آجلايا قربها على يمين الأمير ، وتتم يقول فى

أذنها قريباً ، بصوت مختلج متقطع :

ـ كلمة ، كلمة واحدة منك ، فأنجو !

التفت الأمير بحركة سريعة ونظر اليهما كليهما • كان يُقرأ في وجه جانبا كرب كبير ويأس هائل • لكأنه نطق بتلك الكلمات دون تفكير، كمن يلقي بنفسه في الماء •

تأملته آجلايا بضع لحظات بتلك الدهشة الهائلة نفسها التي ظهرت عليها منذ قليل أمام الأمير ؛ فكانت هذه الدهشة ، وهذه البلبلة اللتان يبدو أنهما ناشتان عن أن الفتاة لا تفهم شيئاً البتة مما يقال لها ، كانتا أشد هولاً وأقطع وقفاً في نفس جانبا من أعماق احتقار وأكبر ازدراء !
سأل الأمير :

– ماذا يجب أن أكتب ؟

فقلت آجلايا وهي تلتفت اليه :

– سأبلى عليك • أأنت مستعد ؟ اكتب : « أنا لا أصلح للمساومات » •
والآن ضع التأريخ ، وأرني الكتابة •

مدَّ الأمير اليها الدفتر • فنظرت فيه وقالت :

– عظيم ! ان لك خطأً رائعاً • هذا جميل حقاً • شكرآ • الى اللقاء،
يا أمير !

ثم أضافت وقد تذكرت شيئاً ما :

– لحظة أخرى • تعال • سأهدي اليك تذكراً •

فتبعها الأمير ، ولكن آجلايا وقفت منذ صارت في حجرة الطعام ، فمدت اليه رسالة جانبا وقالت له :

– اقرأ هذا !

تناول الأمير الرسالة ، ونظر الى آجلايا متحيراً • فقلت آجلايا :

– أنا أعرف على وجه اليقين أنك لم تقرأها ، وانك لا يمكن أن تكون
نجيَّ هذا الرجل وحامل أسرارهِ • اقرأ • انتي أصر على أن تقرأ •

كان يبدو أن الرسالة كُتبت على عجل • قرأ الأمير :

« اليوم يتقرر مصيرى ، تعلمين كيف • اليوم سأُضطر أن أقطع على نفسى وعداً لا تكول عنه • ليس لى أى حق فى اهتمامك بى ، ولست أحمل أى أمل • غير أنك نطقت كلمةً فى ذات يوم ، كلمةً واحدة ، فأثارت تلك الكلمة ظلام حياتى الحالك ، وأمسّت منارةً لى • قولى لى كلمة أخرى كتلك الكلمة ، فتتقذينى من الضياع ! قولى فقط : « اقطع كل صلة » ، فأفعل ذلك فى هذا اليوم نفسه • آه ••• هل يكلفك باهظاً أن تقول لى ذلك ؟ اننى اذ أطلب منك هذه الكلمة لا ألتمس الا علامة اكرات وشفقة ، لا شىء غير ذلك ، لا شىء ، لا شىء ! اننى لا أجرؤ أن اسمح لنفسى بأى أمل ، لأننى « لا أستحق » • لكننى بعد كلمة واحدة منك سأرتضى فقرى من جديد ، وسأحتمل حالتى اليأس فرحاً • سأستأنف الكفاح ، وسيسعدنى أن أكافح ، وسأبث بالكفاح بعثاً آخر ، فأزخر بقوى جديدة •

« ابغى الى بكلمة الشفقة تلك وحدها (« لا شىء الا الشفقة » أحلف لك !) • ولا يفضبنك تهور رجل يائس ، رجل يفرق فيتجراً أن يقوم بجهد أخير ليتقى الهلاك •

« ج • اى • »

فلما فرغ الأمير من القراءة قالت آجلايا بلهجة قاسية :

- يزعم هذا الرجل أن كلمة « اقطع كل صلة » لا يمكن أن تعرضنى لشىء ولا يمكن أن تلزمنى بشىء • وما هذه الرسالة ، كما رأيت ، الا نوع من تأكيد مكتوب • لاحظ مدى سداخته فى الاسراع الى وضع خط تحت بعض الكلمات ، ومدى الغلظة فى ظهور فكرته الميتة ونيته

المخبات وراء ذلك • وهو يعلم على كل حال أنه لو قطع كل صلة من تلقاء نفسه ، بمحض ارادته ، دون أن ينتظر تشجيعاً منى ، وحتى دون أن يكلمنى فى هذا الأمر ، ودون أن يستطيع أن يعقد على أى أمل ، لكان من الممكن أن تتحسن عواطفى نحوه ، ولكان من الممكن أن أعاد صديقه له • وهو يعلم ذلك حق العلم على كل حال ! لكنه رجل دنس النفس • هو يعلم ذلك لكنه يطلب ضمناً • انه لا يستطيع أن يبنى عمله على الثقة انه يريد أن أعطيه أملاً ، فى مقابل المائة ألف روبل ! أما عن الكلمة التى يزعم فى رسالته أننى نطقت بها فأثارت حياته ، فذلك كله كذب واختلاق وقع • كل ما هنالك أننى شعرت نحوه بشيء من الشفقة فى يوم من الأيام • لكنه رجل وقع لا حياء فيه ، فسرعان ما قدّر أن فى وسعه أن يعقد أملاً • لقد فهمت أنا ذلك فوراً • وهو منذ ذلك اليوم يحاول أن يوقنى فى الفخ ، وهذا بعينه ما حاوله فى هذا النهار أيضاً • ولكن كفى الآن ! خذ رسالته هذه ، وأعدها اليه متى خرجتما من الدار ، لا قبل ذلك •

.. وما هو الجواب الذى ينبغى أن أحمله اليه ؟

.. لا جواب ، طبعاً ! ذلك خير جواب • اذن أنت تنوى أن تقيم فى بيتهم ؟

قال الأمير :

.. ان ايفان فيدوروفتش نفسه هو الذى نصحنى بهذا منذ قليل •

.. فكن منه اذن على حذر ! اننى أنبّهك • لن يغفر لك ارجاع هذه الرسالة التى سترجمها اليه !

صافحت آجلايا يد الأمير مصافحة خفيفة ، وخرجت • كان وجهها مقطباً مكفهاً • حتى انها لم تبسم له وهى تحيه برأسها مودعة •

قال الأمير يخاطب جانبا :

- لحظة ، آخذ صرتى فوراً ثم تنصرف •
قرع جانبا الأرض بقدمه من نفاذ الصبر • لقد اسودَّ وجهه حقاً •
وأخيراً خرج الاثنان الى الشارع ، والأمير يحمل بيده صرته •
سأله جانبا وهو يكاد يرتجى عليه :
- هيه ، الجواب ؟ ماذا قالت لك ؟ هل أعطيتها رسالتى ؟
فمدَّ اليه الأمير الرسالة صامتاً • فتصلب جانبا كالتجمد ، وهتف
يسأل :

- كيف ؟ رسالتى ؟ آه ... لم يعطها الرسالة ! كان على أن أقدر
ذلك ! آه ... لعنة الله عليه ... الآن ينضح لى كيف أنها لم تفهم اذن
شيئاً منذ قليل ! ... ولكن كيف ، كيف أمكنت ألا تعطيها الرسالة ؟
آه ... لعنة الله على ...

- عفوك • ان ما حدث هو عكس هذا تماماً • لقد سهلت لى
الظروف أن أعطيها رسالتك بعد أن أعطيتها أنت بلحظة واحدة ، مع
أدق الالتزام بما أوصيتنى به • واذا كانت الرسالة بين يدي الآن ، فلأن
أجلها قد ردتها الى منذ هنيهة •

- متى ؟ متى ردتها اليك ؟
- منذ أنهيت الكتابة فى دفترها فدعنتى الى أن أتبعها (هل سمعتها؟) •
فلما صرنا فى قاعة الطعام مدت الى هذه الرسالة وطلبت منى أن أقرأها
ثم أرجعها اليك •

زأر جانبا قائلاً :
- أن تقرأها ؟ أن تقرأها ؟ وقرأتها ؟
تجمد جانبا فى وسط الرصيف وقد بلغ من الشدة أن فمه ظل
فاغراً ...

قال الأمير :

- نعم ، قرأتها •

- وهى التى أقرأتك الرسالة ، هى نفسها ؟ هى نفسها ؟

- نعم ، هى نفسها • صدّقنى : ما كان لى أن أقرأها قط لولا أنتى
أمرت بذلك •

لبت جانبا صامتاً خلال لحظة ، يبذل جهوداً كبيرة من أجل أن يفهم
شيئاً ، ولكنه صاح يقول فجأة :

- مستحيل ! لا يمكن أن تكون قد طلبت منك قراءة الرسالة ! أنت
تكذب ! أنت قرأت الرسالة من تلقاء نفسك •

قال الأمير بتلك اللهجة الهادئة نفسها :

- لقد قلت لك الحقيقة • صدّق أنتى آسف أشد الأسف لما أحدث
هذا الأمر فى نفسك من انزعاج وضيق •

- ولكن ، أيها الشقى ، لا بد أنها قالت لك شيئاً على الأقل ، حين
أعادت اليك الرسالة ؟ فهل حملتلك جواباً ما ؟

- نعم ، طبعاً !

- فما بالك لا تتكلم اذن ! ما بالك لا تتكلم !

وفرع جانبا أرض الرصيف مرتين بقدمه اليمنى المتعلة جرموقاً من
مطاط فوق الحذاء •

قال الأمير :

- ما ان أنهت قراءة الرسالة حتى قالت لى انك تحاول أن توقمها
فى النفخ ؛ فأنت تريد أن تحصل منها على وعد بأمل ، فاذا قويت بهذا
الوعد ، أمكنك أن تقطع الصلة دون خسران ، وذلك بأمل مقداره

مائة ألف روبل ؟ وأضافت أنك لو فعلت دون أن تساومها ، أى لو قطعت تلك الصلة من تلقاء نفسك بمحض ارادتك دون أن تطلب منها أية ضمانه سلفاً ، لكان من الجائز أن تفوز بصادقتها لك . أظن أن هذا هو كل ما قالته . آآآ نعم . . . هناك شئ آخر : فحين سألتها بعد استرداد رسالتك ما جوابها ، قالت ان خير جواب هو ألا تعطى جواباً . أظن أن هذا هو ما قالته . سامحني اذا نسيت الألفاظ التي استعملتها هي نفسها نصاً ، فانا أنقل اليك ما أظن أنني فهمته .

استولى على جانبا غضب لا حدود له ، وانفجر حنقه دون أى سيطرة على نفسه ، فقال وهو يصرف بأسنانه :

- ها . . . هكذا ! . . . ترمى رسائل من النافذة ! آآآ هي لا تصلح للمساومات ! طيب . . . طيب . . . ولكنني سأصلح لها أنا . . . ولسوف نرى ! . . . أنا لم أقل بعد كل شئ . . . لسوف ترى ! . . . لتصلنّها أخباري ! . . .

كان يصمّر وجهه ، وكان يشحب لونه ، وكان يرغبى ويزيد ، ويهدد بقبضة يده ويتوعد . وسارا بضع خطوات وهما على هذه الحال . لم يتخرج جانبا أمام الأمير أى تحرج ، حتى لكأنه خال الى نفسه فى غرفته ، لأنه لم يكن يعدّه شيئاً مذكوراً . ثم توقف وقد فجأته فكرة مباغتة ، فقال يسأل الأمير :

- ولكن كيف أمكنك (وأضاف جانبا يقول بينه وبين نفسه : كيف امكن هذا الأبله) . . . كيف أمكنك أن تدخل الى خفايا أمورهن وأن تصبح محل سرّهن ولماً ينقض على ممرّتك بهن أكثر من ساعتين ؟ كيف هذا ؟

لم يكن ينقصه لاكمال أنواع عذابه الا أن تضاف اليها الغيرة . وما هي ذى الغيرة تمض الآن قلبه على حين فجأة .

أجابه الأمير قائلاً :

- هذا لا أستطيع أن أعلّله لك !

فرشقه جانبا بنظرة خبيثة شريرة ؛ وقال له :

- أمن أجل أن تهدى اليك ثقتها انما دعتك اذن الى قاعة الطعام ؟

لقد قالت انها تريد أن تهدى اليك شيئاً ، أليس كذلك ؟

- لا أفهم الأمر على غير هذا الوجه !

- ولكن لماذا ؟ حقاً انه لأمر عجيب !... ماذا فعلت هناك ؟ كيف

استطعت أن تحظى باعجابهن ؟ اسمع ...

كان جانبا يضطرب بكل قواه . وكان كل شيء في نفسه مشوشاً

يفلى ويفور ، فهو لا يستطيع أن يفلح في جمع شتات أفكاره . وتابع

كلامه فقال :

- اسمع ... ألا تستطيع أن تحاول أن تتذكر كل ما تحدثت فيه

وأن تعيده مرتباً منظماً متسلسلاً ، وأن تذكر كل ما قيل من البداية الى

النهاية ؟ ألم تلاحظ شيئاً يمكنك أن تتذكره ؟

أجاب الأمير :

- أوه ... هذا سهل ! منذ البداية ، منذ دخلت وتم التعارف ،

تحدثنا عن سويسرا .

- دعنا من سويسرا ... فلتنذهب سويسرا الى جهنم !...

- ثم تحدثنا عن عقوبة الاعدام ...

- عن عقوبة الاعدام ؟

- نعم ، عرضاً ... ثم وصفت لهن السنين الثلاث التي عشتها

هناك ، وقصصت عليهن قصة القروية المسكينة .

- فلتذهب القروية المسكينة الى جهنم ! أكمل ...
كان جانبا يدهب بقدميه من نفاذ الصبر وشدة التمليل • وتابع
الأمير كلامه فقال :
- ثم ذكرت لهن كيف أن شنايدر أطلعني على رأيه في طبعي ،
ودفعني الى ...

- فليذهب شنايدر الى جهنم ! لا تهمني آراؤه ! وبعد ذلك ؟
- بعد ذلك أخذت أتكلم عن الوجوه ، لا أدري بأية مناسبة ، أقصد
... عن تعبير الوجوه ، فقلت لأجلالها أيقانوفنا انها في مثل جمال نامتاسيا
فيليوفا تقريباً • وعندئذ انما أفلتت من لساني كلمات عن الصورة ...
- لكنك لم تنقل اليهن ما كنت قد سمعته في حجرة المكتب ، أليس
كذلك ؟ لم تنقله اليهن ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ، لم تنقله اليهن •
- أكرر لك أنني لم أنقله اليهن ...

- ولكن ... عجيب ... ألم تطلع أجاليا أمها على الرسالة ؟
- أستطيع أن أضمن لك أنها لم تطلعها عليها • أنني لم أتركهن
لحظة • ثم انها لو أرادت أن تطلعها عليها لما اتسع الوقت لهذا •
- ولكن لعل شيئاً حدث ولم تلاحظه ...

ثم صاح جانبا يقول وقد خرج عن طوره تماماً :
- يا لأبله النحس ! ... انه عاجز حتى عن أن يروى الأمور على
نحو مناسب !

واذ شتم مرة فلم يلق مقاومة ، أخذ يفقد كل تحفظ شيئاً بعد
شيء ، كما يحدث ذلك دائماً لبعض الأشخاص • حتى لقد كان من الممكن
وقد بلغ ذروة حقه أن يمضي الى حد البصق • لكن هذا الحق نفسه قد
أعماه • والا لكان قد لاحظ منذ مدة طويلة أن هذا « الأبله » الذي

يعامله هو هذه المعاملة يفهم في بعض الأحيان كل شيء بسرعة عظيمة ،
ودقة شديدة ، ويجيد الرواية اجادة تامة • غير أن شيئاً لم يكن في الحسبان
قد حدث على حين فجأة •

قال الأمير بفتة :

— يجب أن ألفت نظرك يا جبريل أرداليوتش أنني في الماضي كنت
مريضاً بالفعل ، حتى لقد أصبحت كالأبله ، ولكنني شُفيت منذ مدة
طويلة ، وانه ليؤلني أن أسمع أحداً يصفني بأنني أبله • ورغم أن المرء
قد يعذرك بسبب ما أنت فيه من خيبة الآمال وسقوط الأمانى ، فقد شتمتني
حتى الآن مرتين أو ثلاث مرات ، وهذا ما لا أرضى عنه البتة ، لا سيما
وانه لا سبب له ، وانما أنت تندفع فيه اندفاعاً وتسترسل فيه استرسالاً
بغير داعٍ منذ أول لقاء بيننا • أفلا ترى والحالة هذه ، ما دمنا الآن عند
مفترق طرق ، أن نفترق هنا ، فتذهب يمنةً وأذهب يسرة ؟ ان معي
خمسة وعشرين روبلاً ، ولا شك أنني واجد فندقاً أبيت فيه •

أحس جانبا بخجل شديد واضطراب كبير ، حتى لقد احمر وجهه
من شعوره بالعار لأنه أخذ هذا الأخذ بفتة على وجه لم يكن يتوقعه
البتة •

قال معتذراً بحرارة ، منتقلاً من الشتم المذع الى التهذيب الرقيق:

— سامحني يا أمير ، ناشدتك الله ... انك لترى ما أنا فيه من شقاء •
أنت لا تعرف بعد شيئاً ، فلو عرفت كل شيء لفرت لى بعض الففران
حتماً ، وان يكن سلوكي هذا لا يغتفر طبعاً ...

أسرع الأمير يطمشه قائلاً :

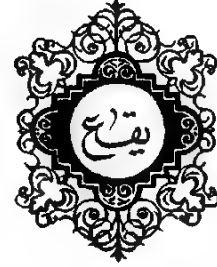
— لا أطلب كل هذه الاعتذارات • اني لأدرك أنك قلق مضطرب ،

وأن هذا هو السبب في شتمى • طيب • فلنذهب الى بيتك • أنا من
جهتى يسرنى هذا •

كان جانيا يقول لنفسه أثناء السير وهو يلقي على الأمير نظرات كره
وبغض : « لا ، يستحيل أن أتركه الآن • لقد أخذ منى هذا الوعد كل
ما كان يريد ، وها هو ذا يرمى عن وجهه القناع ••• ان فى الأمر شيئاً
مختلفاً • سوف نرى • سوف يتقرر كل شيء ، كل شيء ، فى هذا اليوم
نفسه » •

وكانا قد وصلا الى الدار •

الفصل الثامن



بيت جانبا في الطابق الثاني ، ويوصل اليه سلم
نظيف فسيح نير ، ويتألف من ست غرف أو
سبع تتفاوت سعة ؛ واذا كان هذا البيت عادياً في
الواقع ، فلا شك أن أجرته فوق طاقة موظف
متواضع يقع على كاهله عبء أسرة ، ولو بلغ مرتبه ألفي روبل . لكن
هذا البيت كان مهياً كذلك لاستقبال مستأجرين مع الطعام والخدمة ، ولم
يسكنه جانبا وأسرته الا منذ شهرين في أكثر تقدير ، على استياء من جانبا
نفسه ، وبالطبع من نينا ألكسندروفنا وباربارا آرداليونوفنا اللتين كانتا
ترغبان في أن تكونا نافعتين هما أيضاً ، وأن تساهما في زيادة دخل العائلة
ولو قليلاً . كان جانبا يظهر امتعاضه ويعدُّ هذا التدبير سقوطاً . وهو
منذ أقاموا في هذا المنزل يشعر بحرج في المجتمع ، حيث أُلِفَ حتى ذلك
الحين أن يظهر فتى لامعاً يبشر بأن يكون له مستقبل فكانت هذه التنازلات
كلها وهذا الشبوع المزعج كله بمثابة جروح عميقة في نفسه . حتى
أصبح منذ بعض الوقت يثيره أبسط أمر من الأمور اثاره شديدة تخرجه
عن طوره ؛ واذا كان لا يزال يرتضى أن يرضخ وأن يصبر ، فما ذلك الا
لأنه عقد النية بشبات وقوة وصلابة على أن يغير هذا الوضع كله في أقصر
مدة . ومع ذلك فان هذا التغير نفسه ، والحل الذي انتهى القتي اليه

وعزم أمره عليه ، قد أصبحنا مسألة خطيرة ، مسألة يهدّد حلّها بأن تكون متاعبه وهمومه أوفر عدداً وأشدّ إيلاً مما سبق •

كانت الشقة مشطورة شطرين بدهليز يبدأ من المدخل • ففى احدى الجهتين تقع الغرف الثلاث الموقوفة على المستأجرين « الموصى بهم توصية خاصة » ؛ وفى تلك الجهة نفسها ، عند آخر الدهليز ، قرب المطبخ ، توجد حجرة صغيرة هى أضيق سائر الحجرات ، يعيش فيها ويناام فيها ، على ديوان عريض ، ربُّ الأسرة نفسه ، الجنرال المتقاعد يفولجين ، الذى كانوا يضطرونه أن يكون خروجه ورجوعه من المطبخ وسلّم الخدم • وفى تلك الغرفة الصغيرة نفسها يسكن أيضاً الفتى الصغير كوليا* ، أخو جبريل أرداليوتش ، وهو تلميذ فى المدرسة الثانوية عمره ثلاثة عشر عاماً • كان هذا الفتى الصغير مضطراً هو أيضاً الى أن ينكمش حتى يستطيع أن يعيش فى هذه الغرفة وأن يطالع دروسه فيها ؛ فهو ينام على ديوان ثان ، متداع ، ضيق ، قصير ، مثقب الأعطية • وكان عليه عدا ذلك أن يعتنى بالجنرال وأن « يسهر عليه » ، لأن الجنرال كانت تزداد حاجته اليه يوماً بعد يوم •

أعطى الأمير غرفة الوسط ، فأما التى على يمينها فكان يسكنها فردشتينكو ؛ وأما التى على شمالها فما تزال خالية لم يقطعها أحد • ولكن جانبا فاد الأمير فى أول الأمر الى ذلك الجزء من الشقة ، الذى تقيم فيه الأسرة • ان الجزء يتألف من غرفة استقبال يحيلونها عند الحاجة الى غرفة طعام ، ومن صالون ليس فى الحقيقة صالوناً الا فى الصباح حتى اذا حلّ المساء أمسى حجرة مكتب فغرفة نوم لجانبا ؛ وهناك أخيراً غرفة ثالثة ، صغيرة مقفلة الباب دائماً ، هى غرفة نوم نينا ألكسندروفنا وباربارا أرداليونوفنا •

الخلاصة أن جميع الأشياء وجميع الأشخاص كانت فى هذه الشقة

محشورة متراسة تعيش في مكان أضيق من أن يتسع لها • فكان جانيا لا يكف عن الصريف بأسنانه غيظاً ، وكان لا يفوت من يراه منذ أول نظرة أنه في هذه الأسرة طاغية مستبد ، رغم حرصه على أن يظهر بمظهر من يحترم أمه ويوقرها •

لم تكن نينا ألكسندروفنا وحيدة في الصالون ، بل كانت تجالسها باربارا آرداليونوفنا • وكاتتا كلتاهما منهنكتين في النسيج بالابرة ، على تحدثهما مع زائر كان معهما هو ايفان بتسين • ان نينا ألكسندروفنا تبدو في الخمسين من العمر • وجهها نحيل شاحب اللون ؛ وتحت عينيها هالتان زرقاوان • مظهرها كله يدل على المرض ، ويدل على شيء من الألم ، غير أن في وجهها ونظرتها شيئاً من جاذبية • والمرء يدرك من أولى كلماتها أن لها طبعاً جاداً وخلقاً رصيناً ووقاراً صادقاً ؛ وأنها رغم الألم الذي يعبر عنه وجهها ، تملك جناحاً ثابتاً ، بل وعزيمة قوية • ثيابها متواضعة جداً ، فهي سوداء ، وهي على الزي الذي ترتديه المجازر ؛ ولكن حركاتها وآدابها وحديثها وسلوكها ، كل هذا يدل على أنها امرأة عرفت كذلك بيئة أرفع من هذه البيئة وأرقى •

أما باربارا آرداليونوفنا فهي فتاة في الثالثة والعشرين من العمر ، متوسطة القامة ، نحيلة الجسم ، ان لم يكن وجهها جميلاً حقاً ، فان فيه سرّاً الفتنة بغير جمال ، وآية الجذب الى درجة الهوى • انها تشبه أمها كثيراً ، وتكاد ترتدى ما ترتديه أمها ، فلا أثر في ثيابها لتبهرج أو تتندر • نظرة عينيها الشهباوين يمكن أن تكونا في بعض الأحيان مرحتين كل المرح ، ملاطفتين كل الملاطفة ، لكن هذه النظرة هي في الغالب الأعم رصينة مفكّرة ، مفرطة في الرصانة مسرفة في التفكير أحياناً ، ولا سيما في هذه الآونة الأخيرة • ومن يراها يقرأ في وجهها ثبات الجنان وقوة العزيمة أيضاً ، ولكنه يحس أن هذا الثبات وهذه العزيمة يمكن أن

يتجلبا عندما بأكثر مما يتجلبان عند أمها طاقةً دفاقة ومبادهة أصيلة أيضاً . ان لباربارا آرداليونوفنا طبيعة مندفة ، حتى لقد كان أخوها يخاف اندفاعاتها بعض الخوف أحياناً . وكان الزائر الذي تحدثانه ، يخاف اندفاعاتها بعض الخوف هو أيضاً . انه رجل ما يزال شاباً ، فى نحو الثلاثين من عمره ، يرتدى ثياباً متواضعة لكنها أنيقة . فى آدابه رقة ولطف ، وان يكن متصنعاً بعض التصنع . تدل لحيته الصغيرة القائمة الشقرة على أنه رجل غير مقتصر على حياة الوظيفة ، أو قانع بها . اذا تحدث كان حديثه ذكياً شائقاً ، لكنه فى أكثر الأحيان صموت . وهو على وجه الاجمال يُحدث فى النفس شعوراً بالارتياح .

كان واضحاً أن باربارا آرداليونوفنا تهمة وتغنيه ، وهو لا يحاول أن يخفى عواطفه . وكانت هى تعامله بمودة وصداقة ، لكنها ما تزال تتأخر فى الاجابة عن عددٍ من أسئلة كان يظهر على باربارا أنها لا تعجبها . ولكن بتسين لا تشبط من ذلك عزيمته ولا يئأس . وكانت نينا ألكسندروفنا تظهر له حفاوة وبشاشة ، حتى لقد تعودت فى الآونة الأخيرة أن تسرّ اليه بما فى نفسها . وكان معروفاً من جهة أخرى أن بتسين قد وجد لنفسه اختصاصاً هو أن يقرض مالاً بفوائد ، لآجال قصيرة ، على رهون مضمونة . وكانت تربطه بجانيا صداقة قوية .

قام جانيا بواجب التقديم والتعريف ، ولكن على نحو منقطع . حياءً أمه بكثير من الحشونة ، ولم يسلم على أخته ، ثم سرعان ما خرج مقتاداً بتسين .

وجهت نينا ألكسندروفنا الى الأمير بضع كلمات ترحيب ، ثم أمرت كولا ، الذى ظهر فى العتبة ، بأن يقود الأمير الى الغرفة الوسطى . ان كولا فتى مرح بشوش ، فى طبيعته ثقة وبسطة .

سأل كولا الأمير وهو يدخله غرفته :

- أين أمتعتك ؟

- لى صرة وضعتها فى حجرة المدخل •

- سأجيتك بها حالاً • ليس عندنا خدم الا الطباخة وماتريونا ، لذلك
ترانى أساعد فى العمل • ان فاريا تراقب كل شىء وتغضب • قال جانيا
انك وصلت اليوم من سويسرا ، هه ؟

- نعم •

- هل سويسرا جميلة ؟

- جداً •

- فيها جبال ؟

- نعم •

- طيب • سأجيتك بحزمك •

دخلت باربارا آرداليونوفنا • وقالت :

- ستهىء لك ماتريونا سريرك • هل معك حقيبة ؟

- لا شىء الا صرة • ذهب أخوك ليجيشنى بها • لقد تركتها فى
حجرة المدخل •

عاد كوليا الى الغرفة وقال يسأل :

- لم أجد شيئاً الا هذه الصرة الصغيرة ، فأين وضعت الأخرى ؟

فأجابه الأمير وهو يتناول منه الصرة :

- ليس لى صرة أخرى •

- ها ... خشيت أن يكون فردشتينكو قد استولى عليها •

قالت له أخته بقسوة :

- لا تقل سخافات !

كانت باربارا تكلم حتى الأمير بلهجة خشنّة تكاد تكون غير مهذّبة •
قال لها أخوها :

– « يا بنتى العزيزة » ! يمكنك أن تكلمينى بلهجة أرق • أنا لست
بتسعين !

– بل يمكننى أن أجلك يا كوليا ؛ انك غيبى جداً •
وعادت تكلم الأمير فقالت :

– فى كل ما قد تحتاج اليه تستطيع أن تتجه الى ماتريونا • نحن
نتقذى فى الساعة الرابعة والنصف • ولك أن تختار : تأكل معنا ، أو

يُحمل اليك الطعام فى غرفتك •

وعادت تخاطب كوليا فقالت :

– تعال يا كوليا ، لا تزعج السيد !

– هلمى بنا يا شديدة البأس !

وفيما كانا يخرجان اصطدما بجانيا •

قال جانيا يسأل كوليا :

– هل بابا هنا ؟

فلما أجابه كوليا بأن بابا هنا ، همس فى أذنه ببضع كلمات • فهزّ
كوليا رأسه ملياً ، وخرج يتبع باربارا آرداليونوفنا •

– كلمة أخرى يا أمير ••• نسيت أن أقولها لك فى زحمة هذه ••

القصص كلها ! لى رجاء أتوجه به اليك : قدّم لى هذه الخدمة – اذا كان
ذلك لا يكلفك جهداً كبيراً لا طاقة لك به – وهى ألا تترنر هنا عمّاً
جرى بينى وبين آجلايا ، ولا أن تترنر « هناك » عما ستراه هنا • ذلك
أن الأمور هنا أيضاً ليست جميلة كلها ، وان يكن هذا كله لا يعنينى ••
حاول على الأقل أن تحفظ لسانك اليوم •

أجاب الأمير متضايقاً من ملامات جانيا هذه :

- أؤكد لك أنى ثرثرت أقل كثيراً مما تظن .
كان واضحاً أن العلاقات بينهما تزداد سوءاً .
- على كل حال ... لقد تحملت اليوم بسبك ما فيه الكفاية !
الخلاصة : ذلك هو الرجاء الذى اتوجه به اليك .
قال الأمير :

- لاحظ أيضاً يا جبريل آرداليوتش أننى لم أكن مرتبطاً بشئ .
هناك ، لم أكن قد بذلت لك أى وعد ، لم تكن قد طلبت منى أى أمر :
ما الذى كان ينبغى أن يمنعنى عن الاتيان على ذكر تلك الصورة ؟ انك
لم تسألنى هذا .

قال جانبا وهو يلقي على ما حوله نظرة احتقار :
- اف . يا لها من غرفة رديئة ! هى مظلمة ، مع هذه النوافذ التى
تطل على الفناء ! من كل النواحي ، لم يحالفك التوفيق حين وقعت فى هذا
المكان . على كل حال ، ذلك أمر لا شأن لى به ، ولا يهمنى فى قليل أو
كثير . لست أنا الذى أتولى هذه التأجيرات !

ظهر بتسين فى الباب ونادى جانبا . فأسرع جانبا يودع الأمير
وخرج ، رغم ما يبدو عليه من أن هناك أشياء أخرى كان لا يزال يريد
أن يقولها . ولكن كان واضحاً أنه لا يعرف من أين يبدأ ، وأنه متحرج
مرتبك ؛ حتى ان انتقاده للغرفة لم يكن له من غرض الا أن يخفى ما هو
فيه من تشوش واضطراب وبلبله .

ما ان فرغ الأمير من غسل وجهه ويديه ، ومن ترتيب زيتته بعض
الشئ ، حتى شق الباب مرة أخرى ، فدخل عليه قادم جديد .
هو رجل فى نحو الثلاثين من العمر ، طويل القامة ، عريض
المنكبين ، يغطى رأسه الضخم شعر أحمر مجعد ، وجهه سمين زاهر

اللون ، شفتاه سميكتان ، أنفه قصير عريض ، عيناه صغيرتان غائرتان في الشحم تعبّرتان عن سخرية وكأنهما تطرفان بغير انقطاع . في جملة شخصه شيء من وقاحة . ملابسه أدنى الى الإهمال .

لقد شق الباب في أول الأمر شقاً ضيقاً يتيح له أن يطل برأسه فحسب ؟ وأخذ هذا الرأس يفحص الغرفة خلال بضع ثوان ، ثم أخذ الباب يفتح ببطء الى أن ظهرت قامته الشخص كلها في العتبة ، ولكن الزائر لم يدخل مع ذلك ، فانما هو يكتفى الآن بالفرس في الأمير طارفاً بعينه ، الى أن أغلق الباب وراءه آخر الأمر ، واقترب ، فتناول كرسيّاً ، وأمسك يد الأمير امسكاً قوياً فأجلسه على الديوان قبالة .

قال وهو ينظر الى الأمير بهيئة انتباه واستفهام :

- أنا فردشتينكو . . .

فقال الأمير وهو يوشك أن ينفجر ضاحكاً :

- طيب ، ثم ماذا ؟

دمدم فردشتينكو وهو ما يزال ينظر تلك النظرة نفسها :

- مستأجر هنا .

- تريد أن تتعارف ؟

- هيه ! . . .

بهذا نطق الزائر وهو يشمّت شعره ، ثم أخذ يحدق بنظره الى الزاوية المقابلة من الغرفة وهو يتنهد ؟ ثم عاد يلتفت نحو الأمير ويسأله فجأة :

- هل معك شيء من مال ؟

- قليل .

- كم بالضبط ؟

- خمسة وعشرون روبلاً •

- آرنها •

أخرج الأمير من جيب صديرتة ورقة مالية بخمسة وعشرين روبلاً ، ومدّها الى فردشتينكو • ففضّها هذا ، وفحصها ، وقلبها ، ثم نظر اليها من جهة الشفافية ، ثم قال مفكراً :

- غريب ! لماذا يقيم لونها هكذا ؟ ان أوراق الخمسة والعشرين روبلاً يقيم لون بعضها كثيراً ، على حين أن بعضها الآخر يحول لونها تماماً • خذها •

استرد الأمير ورقته المالية • ونهض فردشتينكو عن كرسیه • وقال للأمير :

- جئت لأحدرك أولاً من اقراضى مالا ، لأننى سوف أطلب منك أن تقرضنى ، فإياك أن تلبي طلبى ...
- سمعاً وطاعة •

- هل تنوى أن تدفع هنا أجراً ؟

- نعم ، أنوى ذلك •

- أما أنا فلا • شكرآ • غرفتى الى جانب غرفتك • هى الأولى على اليمين • هل رأيتهما ؟ حاول ألا تجيء الى كبرى • ولكن اطمئن : سأزورك أنا • هل رأيت الجنرال ؟

- لا •

- ولا سمعته ؟

- ولا سمعته طبعاً !

- فسوف تراه اذن وسوف تسمعه • ثم انه يطلب حتى منى أنا أن

أقرضه بعض المال • هأنذا نبهت • « تنبيه للقارىء ! » • • • • استودعك
الله • هل يستطيع المرء أن يحيا اذا كان يسمى فردشتينكو ؟ هه ؟
- لم لا ؟
- استودعك الله •

• واتجه الزائر الى الباب •

لقد علم الأمير ، فيما بعد ، أن هذا السيد قد أخذ على عاتقه أن
يذهل الناس بمرحه وغبائه وشذوذه ، ولكنه كان لا يفلح في ذلك كثيراً ،
حتى ان بعض الناس كانوا يضيقون به وينزعجون منه ، فكان يتألم من
ذلك صادقاً ، ولكن دون أن يكف عن القيام بمهمته •

عند عتبة الباب ، استطاع فردشتينكو أن يضفي على نفسه شيئاً من
خطورة الشأن ، حين اصطدم بقادم جديد : فانه اذ تعجى أمام هذا الزائر
الجديد الذى يجهله الأمير ، ليفسح له مجال المرور ، قد غمز بعينه عدة
مرات موثقاً اليه ، فأتاح له ذلك أن يخرج محتفظاً بشيء من الثقة بالنفس •

القادم الجديد رجل طويل القامة ؛ يبدو فى الخامسة والخمسين من
عمره أو يزيد ؛ بدين بعض البدانة ؛ وجهه محمر سمين مسطح قليلاً
تحيط بهارضية لحيتان كثيفتان شهبأوان ؛ له شاربان ؛ عيناه واسعتان
جاحظتان بعض الجحوظ • كان يمكن أن يكون لمنظره كله مهابة ، لولا
أن فيه شيئاً من سقوط واهتراء بل ومن اتساع • انه يرتدى رديجوتاً
عتيقاً يكاد يكون مقبواً عند الكوعين ؛ وفى قميصه اهمال وبقع ؛ ومن
فمه نفوح رائحة فودكا خفيفة تشمها من قرب • ومع ذلك لا تعدم أوضاعه
وحرركاته أن تحدث فى النفس بعض الأثر الحسن ، رغم أنها محسوبة
مدروسة ، فهي تدل على رغبة واضحة عنده فى أن يخطف البصر بوقاره •
اقترب الشخص من الأمير بغير تمجل ، وهو يهشم ابتسامة باشة

هاشة ، وتناول يده صامتاً ، وظل ممسكاً بها يتأمل وجهه في ابتاه كأنه
يتعرف ملامح لا يجهلها •

ودمدم يقول برفق ولكن بوقار :

- انه هو ، هو • هو كما لو كان حياً • لقد سمعتهم ينطقون هذا
الاسم المعروف العزيز ، فاستيقظ في نفسى ماض كامل ••• أنت الأمير
ميشكين ؟

- نعم •

- أنا الجنرال افولجين ، متقاعد بائس • هل يمكننى أن أسألك عن
اسمك واسم ابيك ؟

- ليون يقولون ليفتش •

- نعم ، نعم ، هو بنفسه ! انت ابن صديقى ، بل استطيع أن أقول
انك ابن صديق طفولتى ، يقولون بتروفتش !

- كان اسم أبى يقولون لفوفتش •

- لفوفتش ، نعم ، لفوفتش •••

كذلك صحَّح الجنرال ، ولكن دون تعجل ، بل بثقة تامة ، كأنه
لم ينس قط ، وانما زل لسانه بقلطة •

وجلس ، وأمسك الأمير بيده هو أيضاً ، وأجلسه قربه •

- لقد حملتك بذراعى !

قال الأمير :

- أهذا ممكن ؟ لقد انقضى على موت أبى عشرون عاماً •

- نعم ، عشرون عاماً ، عشرون عاماً وثلاثة أشهر • لقد كنا فى

المدرسة معاً ، وما لبثت أن التحقت أنا بالسلك العسكرى •••

- أبى أيضاً خدم فى الجيش ، كان ملازماً ثانياً فى لواء
فاسيلكوفسكى *

- بل فى لواء بيلوميرسكى . لقد نقل الى لواء بيلوميرسكى عشية
وفاته تقريباً . وكنت أنا هناك ، وباركته الى الأبد . وأملك ...
هنا صمت الجنرال برهة قصيرة كأنما أوقفته عن الكلام ذكرى
حزينة .

فقال الأمير :

- ماتت هى أيضاً بعد ستة أشهر ، من اصابة ببرد .
- لا ، لم تمت من اصابة ببرد ، أبداً ، صدّق كلام رجل عجوز .
كنت أنا هناك . وقد شهدت جنازتها هى أيضاً . لقد ماتت من حزنها على
فقد أبك ، لا من اصابها ببرد . نعم ، انى أتذكرها هى أيضاً ، الأمير !
آه ... يا لمهد الشباب ! بسببها انما أوشكنا ، أنا والأمير ، مع أننا صديقا
طفولة ، أوشكنا أن يقتل كل منا صاحبه .

أخذ الأمير يصغى الى الجنرال بشيء من الشك والارتياب .

- كنت مولّها بحب أمك منذ أن كانت خطيبة ، منذ أن كانت خطيبة
صديقى . ولاحظ الأمير ذلك ، فاضطرب اضطراباً شديداً ، وجاءنى ذات
صباح فى الساعة السابعة ، فأيقظنى من نومى . ارتديت ثيابى مذهولاً ،
وساد صمت ... صمت منه وصمت منى ! ... أدركت كل شيء . أخرج
أبوك من جيّه مسدسين . مبارزة من خلال منديل . دون شهود . فیم
الشهود ما دام كل منا سيرسل صاحبه الى الآخرة بعد قليل . حشونا
المسدسين . نشرنا المنديل . اتخذنا مكاننا . أطبق كل منا بفوهة مسدسه
على قلب صاحبه ، وأخذ ينظر اليه محدّقاً فى عينيه . وفجأة انبجست
الدموع من العينين ، وارتجفت اليد : انبجست الدموع من عينيه وعينى

فى آن واحد ، وارتجفت يده ويدي معا ! ثم اذا كل منا يرتدى بين ذراعى صاحبه طبعاً ، واذا نحن تنبارى فى الكرم ، فالأمير يصرخ قائلاً : « هـى لك » ، وأنا أصرخ : « بل هـى لك » . . . الخلاصة . . . الخلاصة . . . سوف تسكن معنا ، أليس كذلك ؟

قال الأمير مدمماً بشىء من السرعة :

– نعم ، ربما بمضى الوقت . . .

صاح كوليأ يقول وقد ألقى نظرة من الباب :

– ترجوك ماما يا أمير أن تجيء إليها .

فهمَّ الأمير أن ينهض ، ولكن الجنرال وضع يده اليمنى على كفه ، وعاد يجلسه على الديوان بحركة صداقة ؛ وقال له :

– لما كنت صديقاً وقياً لأبيك فأننى أحرص على أن أنبّهك : أنا كما ترى قد سقطتُ ضحيةً لظروف فاجعة ، ولكن دون أن يصدر علىَّ حكم . ان نينا الكسندروفنا امرأة نادرة . وان باربارا آرداليانوفنا ، ابنتى ، فتاة نادرة ! والظروف تجبرنا على أن نؤجر غرفاً مفروشة ، وهذا سقوط لا أعرف كيف أسميه . . . سقوط يصيبنى أنا ، أنا الذى كنت أوشك أن أعين حاكماً عاماً . وسنكون سعداء باستقبالك على كل حال . غير أن فى بيتى مأساة !

ألقى عليه الأمير نظرة استفهام فى كثير من الاستطلاع .

قال الأمير :

– يدبّر هنا زواج ، زواج نادر . زواج بين امرأة مشبوهة وشاب يمكن أن يصبح فتى مرموقاً فى البلاط الامبراطورى . يريدون أن يدخلوا تلك المرأة الى بيتى ، قرب ابنتى وزوجتى . ولكننى لن أدع لها

أن تدخل الى هذا البيت ما ظلمت أنففس ! سوف أتبدد على عتبة الباب ،
فلا تستطيع أن تدخل الا اذا مرّت فوق جسدى • أصبحت لا أكلم
جانيا ، بل صرت أنتحاشى أن ألقاه • انتى أنتهك الى هذا عامداً ، لأنك
لا بد أن تلاحظه على كل حال ، ما دمت ستقيم معنا • ولكنك ابن صديقى ،
ومن حقى أن أمل •••

قالت نينا ألكسندروفنا منادية ، وقد جاءت الى الباب بنفسها هذه
المرّة :

— هلاًّ تفضلت يا أمير فأدركنى فى الصالون •

هتف الأمير يقول :

— تصورى يا عزيزتى • لقد اتضح أننى قد هدهدت الأمير
بذراعى !

ألقت نينا ألكسندروفنا على الجنرال نظرة لوم ، ثم ألقت على الأمير
نظرة استفهام ؟ لكنها لم تقل شيئاً • وتبعها الأمير • فما ان وصلا الى
الصالون وجلسا ، وما ان أخذت نينا ألكسندروفنا تقول للأمير شيئاً بصوت
خافت وعلى عجل ، حتى دخل الجنرال نفسه الى الصالون فجأة • فسرعان
ما صمتت نينا ألكسندروفنا ، وعكفت على حياكتها متضايقه تضايقاً واضحاً ،
ولعل الجنرال قد لاحظ تضايقها ، لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار فى
اظهار مرح مزاجه • وهتف يقول مخاطباً نينا ألكسندروفنا :

— ابن صديقى ! وعلى نحو لم أكن أتوقه ! لقد كفت حتى عن أن
أحلم بهذا الأمر منذ مدة طويلة ! ولكن هل من الممكن ، يا عزيزتى ،
أنك أصبحت لاتذكرين المرحوم نيقولا لفوفتش ؟ انك قد عرفته مع ذلك
••• بمدينة تفير ! *

قالت نينا الكسندروفنا :

– لا أتذكر نيقولا لفوفتش •

ثم التفتت الى الأمير تسأله :

– أهو أبوك ؟

قال الأمير :

– نعم ، هو أبى •

ثم أضاف يقول للجنرال مصححاً على خجل :

– لكن يخيّل الىّ أنه لم يمت بمدينة تفير ، بل بمدينة اليزابيتجراد •

لقد قال لى بافلتشييف •••

قال الجنرال مصرأ :

– بل مات بمدينة تفير • فانه قد نقل الى تفير قبيل وفاته بقليل ،

بل حتى قبل أن يتطور مرضه ذلك التطور المشؤوم • كنت أنت صغيراً

جداً فى ذلك الوقت ، فلا تستطيع أن تتذكر النقل ولا السفر • أما

بافلتشييف فمن الجائز جداً أنه أخطأ ، رغم أنه كان رجلاً ممتازاً •

– هل عرفت بافلتشييف أيضاً ؟

– كان انساناً نادر المثال • لكننى أنا كنت شاهد عيان ، باركت

أباك وهو على فراش الموت •

قال الأمير مرة أخرى :

– لكن أبى مات متهمأ ، وان كنت لم أستطع أن أعرف السبب فى

يوم من الأيام • لقد مات فى المستشفى •

– أوه ! السبب هو قضية الجندى كولباكوف ، وليس هناك أى شك

فى أن أباك كان سيخرج من المحاكمة بريئاً •

سأله الأمير بشوق شديد واستطلاع قوى :

- صحيح ؟ أنت متأكد ؟

هتف الجنرال يقول :

- طبعاً طبعاً • لقد انفضت المحكمة دون أن تصدر حكماً • قضية مستحيلة ! بل يمكن أن يقال انها قضية محفوفة بالسر • مات قائد حاميتنا ، النقيب لاريونوف ، فكُلّف الأمير بأن يكون قائداً للحامية بالنيابة • وفي ذلك الحين ارتكب الجندي كولباكوف عمل سرقة ، اذ سطا على مواد حذائية لرفيق من رفاقه ، ثم باع المسروقات وشرب بثمرها خمرة • طيب • هنا قرأه الأمير وهدّده بالجلد ، وذلك بحضور الرقيب والعريف • طيب • عاد كولباكوف الى الثكنة ، واستلقى على مضجعه ، فما انقضى ربع ساعة حتى كان ميتاً • طيب • ولكن هذه الحالة لا يتوقعها أحد ، وتكاد تكون مستحيلة • ودُفن كولباكوف على كل حال • وكتب الأمير تقريراً بالواقعة ، فسطب اسم كولباكوف من قائمة الجنود • هل هناك ما هو خير من هذا ؟ ولكن ما ان انقضت على هذا الحادث ستة أشهر ، بعد أن كان الجنود يُستعرضون كل يوم ، حتى رثى الجندي كولباكوف من جديد في السرية الثالثة من الكتيبة الثانية من فوج مدفعية نوفوزمليانسك * ، وهو الفوج الذي ينتمى الى ذلك اللواء نفسه والى تلك الفرقة نفسها !

هتف الأمير متعجباً وقد بلغ ذروة الدهشة :

- كيف هذا ؟

فدخلت نينا ألكسندروفنا فجأة فقالت وهي تنظر الى الأمير نظرة

حزن تقريرياً :

- لا ، ليس الأمر كذلك ! هذا خطأ ! « زوجي مخطيء » •

- « مخطيء » ؟ هذا تسرع في الحكم ! اجهدى أن تحلى بنفسك

سراً كهذا السر ! لم يفهم أحد من الأمر شيئاً • لقد كان يمكن أن أكون أول القائلين : « هذا خطأ » • ولكنني شهدت الأمر بعيني رأسي ، وعُيِّنت

عضواً فى اللجنة • فدلّت جميع المواجهات على أن الرجل هو ذلك
الجندي نفسه كولباكوف الذى دُفِن قبل ستة أشهر على النحو الذى توجبه
الأنظمة العسكرية ، من قرع الطبول وما الى ذلك • أنا أسلّم بأن هذه
الحالة نادرة جداً ، حتى لتكاد تكون مستحيلة ، ولكن ...

هنا دخلت باربارا آرداليونوفنا ، فقالت تعلن لأبيها :

– غداؤك مجهز يا بابا •

– آ ... عظيم ... لقد أخذت أشعر بالجوع حقاً • ولكن يمكن
أن يقال ان هذه الحالة سيكولوجية ...

قالت فانيا متململة :

– حساؤك سيبرد !

فجمعهم الجنرال يقول وهو يترك الغرفة :

– حالاً ، حالاً ...

وسُمع يتم كلامه وهو فى الدهليز: « وذلك رغم جميع التحريات !»
قالت نينا ألكسندروفنا للأمير :

– سيكون عليك أن تفرض الطرف عن أمور كثيرة فى آرداليون
الكسندروفتش اذا بقيت عندنا • ومع ذلك آمل أنه لن يزعجك كثيراً •
انه يتناول وجبات طعامه وحيداً • أظن أنك تسلّم معى بأن لنا جميعاً
عيوبنا و ... خصالنا التى قد تكون غريبة شاذة ، حتى أن بعض الناس
من هذه العيوب وهذه الخصال أكثر مما لأولئك الذين يشار اليهم بالاصبع •
أريد أن أطلب منك هذا الطلب ملحة : اذا اتفق أن كلمك زوجي عن
أجرة الغرفة فقل له انك دفعتها لى • اذا دفعت له مبلغاً فسيحسب طبعاً ،
ولكننى أرجوك أن تتقيد بهذه القاعدة التى ذكرتها لك • ماذا يا فانيا ؟

كانت فاريا قد دخلت الغرفة، ومدت الى أمها صورة ناستاسيا فيليوفا دون أن تقول شيئاً • فارتعشت نينا ألكسندروفنا ، ارتعشت أول الأمر بنوع من الرعب ، ثم أخذت تنعم النظر فى الصورة خلال بعض الوقت وقد ظهر على وجهها شيء من مرارة • وأخيراً ألقت على فاريا نظرة استفهام فقالت فاريا :

— هذه هدية أرسلتها اليه اليوم • وسيقرر كل شيء فى هذا المساء •
قالت نينا ألكسندروفنا مكررةً جملة ابتها بصوت خافت ولهجة يائسة :

— هذا المساء ! اذن لم يبق مجال لأى شك ، ولا مجال لأى رجاء •
انها باهداء هذه الصورة اليه قد أعلنت كل شيء • ولكن أهو الذى أراك الصورة ؟

أضافت نينا ألكسندروفنا هذه الجملة الأخيرة مدهوشة •
أجابت الفتاة :

— تعلمين أننا أصبحنا منذ شهر لا نكاد نتخاطب • ان بتسين هو الذى روى كل شيء • أما الصورة فقد رأيتها ملقاة على الأرض قرب المائدة فلممتها •

قالت نينا ألكسندروفنا للأمير وهى تلتفت اليه فجأة :

— كنت أريد أن أسألك يا أمير ••• والحق انى من أجل هذا انما رجوتك أن تأتى الى هنا ••• كنت أريد أن أسألك : أأنت تعرف ابنى منذ مدة طويلة ؟ يخيل الى أنه قال انك اليوم وصلت من مكان ما ، أليس كذلك ؟

قدّم الأمير شروحات موجزة ، مسقطاً أكثر من نصف الوقائع ، فكانت نينا ألكسندروفنا وفاريا تصغيان اليه بانتباه •

قالت نينا ألكسندروفنا :

- أنا لا أحاول أن أعرف شيئاً عن جبريل آرداليوتش حين ألقى عليك هذه الأسئلة . فما ينبغي أن تخطئ الظن في هذا المجال . وإذا كان هناك ما لا يريد ابني أن يعترف لي به من تلقاء نفسه ، فأنني لا أحرص على أن أعرفه من غيره . وإذا كنت أكلّمك في هذا الموضوع فلأنه قال منذ قليل ، بحضورك ، ثم قال بعد انصرافك : « انه مطلع على كل شيء » ، فلا داعي الى التكلف والتصنع ! » . فما معنى هذا ؟ أى ... أود لو أعرف مدى ...

في تلك اللحظة دخل جانيا وبتسين . فسرعان ما صمتت نينا ألكسندروفنا . وظل الأمير جالساً الى جانبها ، بينما ابتعدت فارياً قليلاً . وكانت صورة ناستاسيا ما تزال ظاهرة على منضدة نينا ألكسندروفنا ، أمامها تماماً . فلما لمح جانيا الصورة قطب حاجبيه ، واكفهر وجهه ، وتناولها غاضباً ، فرماها على مكتبه الذى يوجد فى أقصى الغرفة .

سألته نينا ألكسندروفنا فجأة :

- هل فى هذا اليوم يا جانيا ؟

- ماذا فى هذا اليوم ؟

بهذا أجاب جانيا منتفضاً ، ثم هجم على الأمير فجأة يقول :

- آ ... فهمت ... عدتْ تشرثر ! أهذا مرض فيك يا صاحب

السمو ...

قاطعه بتسين يقول :

- أنا المذنب يا جانيا ، أنا وحيدى دون غيرى .

فألقي عليه جانيا نظرة استفهام . فجمجم بتسين يقول :

— هذا أفضل يا جانبا ، لا سيما وأن القضية قد سوّيت ، بمعنى من المعاني •

قال هذا ثم ابتعد ، وجلس قرب المائدة ، وأخرج من جيبه ورقة ملأى كتابةً بالقلم الرصاص ، وأخذ يدرسها •
ظل جانبا واقفاً ، مكفهر الهيئة مربد الوجه ، ينتظر انفجار مشكلة عائلية ، بكثير من القلق • حتى انه لم يخطر بباله أن يعتذر للأمير •
قالت نينا الكسندروفنا :

— ما دام كل شيء قد سوّى ، فإن ايفان بتروفتش على حق طبعاً • أرجوك أن لا تقطّب يا جانبا وألا تهتاج • لن أسألك عمّا لا تريد أن تقول له من تلقاء نفسك ، وأؤكد لك أنني مذعنة كل الاذعان • فلا تقلق •
قالت ذلك دون أن تترك حياكتها ، وقالت بهدوء ظاهر • فدهش جانبا ، لكنه صمت حذراً متروياً ، وأخذ ينظر الى أمه منتظراً أن تفصح بمزيد من الوضوح • ان المشاجرات العائلية قد أبهظته حتى الآن كثيراً ، وكلفته ثمناً غالياً • ولاحظت نينا ألكسندروفنا هذا الحذر وهذا التروى من جانبها ، فأضافت تقول وهي تبسم ابتسامة مرة :

— ما زلت تشك ، فلا تصدقني • اهدأ بالآ • لن ترى دموعاً ولا ضراعات ، منى على الأفل • ان رغبتى الوحيدة هي أن تكون سعيداً • أنت تعرف ذلك جيداً • اننى مذعنة لقدرى ، لكن قلبي سيظل معك دائماً ، سواء أبقينا معاً أم افترقنا • وأنا مشغولة عن نفسي وحدها فأحدث بلساني وحده ؟ أما أختك فلا تستطيع أن تطالبها بمثل هذا •

هتف جانبا يقول راشقاً أخته بنظرة سخر وكره :

— آه ... هي أيضاً ! أماء : اننى أكرر على مسامعك اليمين التي سبق أن حلفتها لك : ما دمت حياً فلن يجرؤ أحد في يوم من الأيام أن

ينتقص من احترامك • أياً كان الشخص المقصود ، أية كانت الاسانة
التي ستجتاز عتبة بابنا ، فانتى سأعرف كيف أفرض عليها توقيراً كاملاً
وكيف ألزمها باحترام مطلق •

لقد بلغ جانبا غاية السرور والحبور • كان ينظر الى أمه بهيئة تعبر
عن المصالحة ، وتكاد تزخر رقة وحناناً •

- ما كنت أخشى عليك من شيء يا جانبا ، فأنت تعلم ذلك حق
المعرفة • وما من أجل نفسى قلقت وتمذبت طوال هذه المدة • يقال ان كل
شيء سيسوى بينكم هذا المساء ؟ فيما الذى سيسوى ؟
أجاب جانبا :

- لقد وعدت بأنها ستعلن رأيها هذا المساء فى بيتها • فاما أن توافق
واما أن ترفض •

- لقد تحاشينا أن نتكلم فى هذا الأمر منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع،
وحسناً فعلنا • أما الآن وقد تقرر كل شيء ، فانتى لا أجد بدا من أن ألقى
عليك هذا السؤال : كيف أمكنها أن تعلن لك موافقتها بل وأن تهدى اليك
صورتها بينما أنت لا تحبها ؟ هل يمكن لامرأة لها مثل هذه •• هذه ال ••
- هذه التجربة أو الخبرة •••

- ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله • هل يمكن أن تكون قد استطعت
أنت أن تخذعها الى هذا الحد ؟

ان سخطاً شديداً وحنقاً رهيباً قد داخلا هذا السؤال بغتة • فظل
جانبا صامتاً ، وفكّر لحظة ، ثم أجاب دون أن يحاول اخفاء سخريته :

- ها قد اهددت للاندفاع والاهتياج من جديد يا ملما ! انك لم
تستطيعى حتى الآن أن تسيطرى على نفسك وأن تتحكمى بمشاعرك ؛ وعلى
هذا النحو انما كانت تبدأ الأمور عندنا دائماً ، فتشب النار فى البارود •

لقد قلت انك لن تلقى لا أسئلة ولا ملامات ، وها هي ذى الأسئلة واللامات
تُسْتَأْنَف ! لندع هذا الأمر ، فذلك خير وأبقى ... أؤكد لك ! حسبك
أنك أظهرت حسن النية وطيب الارادة . لن أتركك فى يوم من الأيام ،
بأى حال من الأحوال ! غيرى كان يفر من أخت كهذه الأخت . انظرى
كيف تحدثنى ببصرها ! حسبنا هذا ! لقد كنت مبهجاً أشد الابتهاج ..
ولكن كيف عرفت اننى أحاول خداع ناستاسيا فيليوفا ؟ أما فاريا ، فلتفعل
ما تشاء . وكفانا هذا الآن !

كان جانبا يزداد حرارة وحماسة عند كل كلمة جديدة ، وكان
يسير فى الغرفة بلا هدف . ان أمثال هذه المحادثات سرعان ما تصبح هى
النقطة الحساسة لدى جميع أفراد الأسرة .

قالت فاريا :

- قلت اننى سأترك هذا البيت متى دخلت هى ، هذا عهد أقطعه على
نفسى ولن أخلفه .
هتف جانبا بجيها :

- عناداً ! وعناداً انما ترفضين زواجك أيضاً . لماذا تلوين شفيتك
على هذا النحو احتقاراً واشمئزازاً ؟ لست أعبا بشيء يا باربارا آرداليونوفنا
... فى وسعك أن تنفذى مشروعاتك منذ الآن اذا شئت . لقد بدأت أسأم
منك وأضيق بك !

واذ لاحظ جانبا أن الأمير ينهض صاح يقول له :

- كيف تقرر أخيراً أن تتركنا يا أمير ؟

كانت تداخل صوت جانبا منذئذ ، تلك الدرجة من الاحتياج التى
يكاد يكون الانسان فيها مسروراً من غضبه ، فهو ينقاد له بدون أى تحفظ،
بل يسترسل فيه بتلذذ متزايد ، ولكن ما يكون !

وكان الأمير قد التفت ليردَّ عليه ، لكنه اذ أدرك في تعبير وجهه
المتشنج أنه لم يبق نمة الا القطرة التي يطفح بها الكيل ، أشاح وجهه
وخرج دون أن يقول كلمة واحدة . وفهم بعد لحظات ، من الأصداء التي
كانت تصل اليه من الصالون ، أن الحديث قد أصبح منذ انصرافه أشد
صخباً وأكثر انفلاتاً .

اجتاز القاعة الكبيرة حتى حجرة المدخل ليصل الى الدهليز فالى
غرفته . فلما بلغ الباب المفضى الى فسحة السلم سمع أحداً وراء الباب
يحاول أن يشدَّ حبل الجرس . ولكن الجرس كان معطلاً فيما يظهر ،
فهو لا يزيد على أن يتحرك تحركاً ضعيفاً دون أن يُسمع له أى صوت .
فسحب الأمير المزلاج ، وفتح الباب ، فاذا هو يتقهقر مذهولاً مرتعشاً
بجسمه كله : كانت ناستاسيا فيليوفا واقفةً أمامه ، وسرعان ما عرفها من
معرفة صورتهاء فلما لمحته ناستاسيا ومضت عيناها بمعنى الضيق والارتعاج ،
وأسرعت تلج حجرة المدخل ، فتصدم الأمير بكتفها عند دخولها ، وتقول
له بلمهجة حاققة وهي تنصو عنها معطفها :

— اذا كنت من الكسل بحيث لا تحمّل نفسك عناء اصلاح الجرس ،
فلا أقل من أن توجد فى حجرة المدخل حين يقرع الباب قارع ! ها هو
ذا يسقط معطفى ، مذهولاً !

كان المعطف قد رقد على الأرض فعلاً . فان ناستاسيا فيليوفا لم
تنتظر أن يساعدها الأمير فى خلع المعطف ، فرمته على ذراعيه بحركة من
كتفها دون أن تنظر اليه ، ولم يتسع وقت الأمير لأن يتلقاه .

— كان عليهم أن يطردوك من الخدمة . أبلغهم وصولى .
أراد الأمير أن يقول شيئاً ، لكنه كان قد بلغ من الاضطراب أنه لم
يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ؛ وها هو ذا يتجه نحو الصالون وعلى ذراعه
المعطف الذى رفعه من الأرض .

- الآن يأخذ معطفي ! ما بالك تأخذ المعطف ؟ ها ها ها ! قل لي :
ألست معجوناً بعض الشيء ؟

فقل الأمير راجعاً ، وحدّثْ إليها كالمُتجدد • فلما ضحكت ابتسم هو
أيضاً ، ولكنه ما يزال عاجزاً عن تحريك لسانه بكلمة • في اللحظة الأولى ،
حين فتح لها الباب ، اصفر لونه • أما الآن فإن الدم يزدحم في وجهه •
هتفت ناستاسيا فيليوفا ممتعضة وهي تقرع الأرض بقدمها :
- ما هذا الأبله ؟ الى أين تذهب هكذا ؟ ستبلغ عن وصول من ؟
تمتم الأمير :

- عن وصول ناستاسيا فيليوفا •
فسألته بقوة :

- لماذا تعرفني ؟ أنا لم أرك يوماً ! هيّا أبلغ عن وصولي ••• ما هذه
الصرخات ؟

أجاب الأمير وهو يتجه نحو الصالون :
- يتشاجرون •

ودخل عليهم الأمير في لحظة حاسمة : كانت نينا ألكسندروفنا متأهبة
لأن تنسى نسياناً كاملاً أنها « مدعنة لكل شيء » • كانت تدافع عن فارياء
والى جانب فارياء يقف بتسين الذي كان قد ترك ورقته المطروسة كتابة •
أما فارياء فلم يكن يبدو عليها كثيراً أنها فقدت سيطرتها على نفسها • ليست
هذه الأنسة من النوع الخواف • ومع ذلك كانت فظاظات أخيها تصبح في
كل كلمة أشد غلظة وأثقل وطأة ، فهي لا تطلق • ولقد اعتادت الفتاة في
مثل هذه الأحوال أن تكف عن المناقشة ، فهي لا تريد عني أن تنظر الى

أخيها صامتةً معبّرةً بوجهها عن السخرية ، دون أن تتحول بصرها عنه
لحظةً واحدة . انها تعرف هذا التكتيك ، وهي قادرة على أن تضيء فيه إلى
أقصى حدوده .

في تلك اللحظة بعينها انما دخل الأمير الى الغرفة معلناً :

- ناستاسيا فيليوفنا !

الفصل التاسع



صمت شامل • نظر الجميع الى الأمير كأنهم
لا يفهمون ، ولا يريدون أن يفهموا • تجمّد
جانيا رعباً •

ان زيارة ناستاسيا فيليوفنا ، ولا سيما في مثل
هذه اللحظة ، هي في نظر كل واحد منهم أدعى حدث الى الدهشة
والمعجب ، وأبعث حدث على الحيرة والارتباك ، على الأقل لأن ناستاسيا
فيليوفا تجيء أول مرة • لقد ظلت حتى الآن متكبرة متعالية ، فلم تعرب
في أحاديثها مع جانيا عن أية رغبة في معرفة أسرته ، بل لقد أصبحت
لا تجيء على ذكرها كأنها لا وجود لها • ورغم أن جانيا قد سرّ بمعنى
من المعاني ارجاء مثل هذا الحديث الذي يزعجه ويحرجه كثيراً ، فإنه في
قرارة نفسه قد حقق على ناستاسيا وحمل لها ضغينة • ولقد كان على كل
حال يتوقع منها وخزات وسخريات في حق أهله أكثر مما كان يتوقع منها
زيارة • كان يعلم علم اليقين أنها مطلّعة على كل ما كان يجري في بيته
عن خطوته لها ، وعلى كل ما كان يراه ذووه من رأى فيها • فقيامها بهذه
الزيارة « الآن » ، بعد اهداء الصورة ، في يوم عيد ميلادها ، في اليوم
الذي سبق أن وعدت بأنها ستقرر فيه مصيرها ، ان قيامها بهذه الزيارة
الآن يشير الى قرارها ويدل عليه •

لم تطل البلبلة التي أحدثها دخول الأمير : فها هي ذى ناستاسيا

فيليوفا بشخصها تظهر في اطار الباب ، ثم تدخل الغرفة فتصدم الأمير مرة أخرى صدمة خفيفة .

- أخيراً ظفرت بأن أدخل ... لماذا تربطون جرسكم ؟
كذلك قالت ناستاسيا فيليوفا مرحة وهي تمد يدها الى جانبا الذي صار الى جانبها بوثة واحدة .
وأردفت تسأله :

- مالى أرى وجهك منقلباً ؟ قد منى الى الحضور من فضلك .

كان جانبا قد فقد كل سيطرة له على نفسه ، فقدّمها الى أخته فاريا ، فتبادلت المراتبان نظرة غريبة قبل أن تمتد كل منها يدها الى الأخرى .
كانت ناستاسيا فيليوفا تضحك وتختبئ وراء فناع من المرح المصطنع ، أما فاريا فلم تحاول أن تخفى شيئاً ، فنظرتها ظلت مظلمة ثابتة ولم يظهر فى وجهها حتى طيف ابتسامة مما توجبه أسط مبادئ الأدب والتهديب .
فاغتاز جانبا من ذلك حتى كادت تقطع أنفاسه . ولكن أوان ردّها الى الصواب قد فات ؛ لذلك اقتصر على أن رشقها بنظرة تبلغ من امتلائها بالتهديد والوعيد أنها قرأت فيها عنفاً شديداً فأدركت قيمة هذه اللحظة عند أخيها ، فبدأ عليها أنها أرادت أن تتساهل فاصطنعت لناستاسيا فيليوفا ما يشبه أن يكون ابتسامة (ما يزال أهل هذا البيت يسرفون فى حب بعضهم بعضاً) .

وجاء دور نينا ألكسندروفنا فأصلحت الحال بمض الاصلاح ، رغم أن جانبا ، من فرط اضطرابه طبعاً ، قد قدّم ناستاسيا فيليوفا اليها بعد تقديمها الى اخته ، ثم زاد على ذلك فذكر اسم امه قبل أن يذكر اسم ناستاسيا .

ولكن ما ان بدأت نينا ألكسندروفنا كلامها فقالت : « يسرنى جداً

أن ... ، حتى التفت ناستاسيا فيليوفا نحو جانيا بحركة سريعة دون أن تدع للأم أن تكمل جملتها ، وصرخت تقول له بعد أن استقرت على كنية صغيرة قرب النافذة ، دون أن تدعى الى الجلوس :

- أين حجرة مكتبك ؟ و ... وأين السكان الذى يستأجرون عندكم غرفاً مع الطعام والخدمة ؟ عندكم مستأجرون ، أليس كذلك ؟

احمر وجه جانيا احمراراً رهيباً ، وهمّ أن يثأىء بجواب ؛ لكن ناستاسيا فيليوفا كانت قد تابعت كلامها تقول :

- أين يمكنكم أن تَسكنوا مستأجرين ؟ ليس لك حتى حجرة مكتب !

ثم التفت فجأة نحو نينا ألكسندروفنا فقالت لها :

- هل التأجير يدر ربحاً على الأقل ؟

حاولت نينا ألكسندروفنا أن تعجب فقالت :

- التأجير يورث متاعب كثيرة . وكان ينبغي أن يدر ربحاً بطبيعة الحال ، غير أن ...

ولكن ناستاسيا فيليوفا كانت قد انقطعت عن الاصغاء اليها ، لأنها التفت الى جانيا وصاحت تقول له :

- ما لى أرى وجهك منقلباً هذا الانقلاب ! رباه ! ما هذا الوجه الذى له الآن ؟

كان وجه جانيا قد تشوه فعلاً بعد بضع لحظات من ذلك الضحك . لقد بارحه فجأة ما أحسه فى أول الأمر من ذهول ، وما بدا على وجهه فى أول الأمر من شدة مضحك مبعثه الخوف . ان شفتيه الآن منعقتان متشنجتان ، وقد أخذ يحدّق بنظرة ثابتة خبيثة شريرة ، دون أن ينطق

بكلمة واحدة ، ودون أن يحول بصره لحظة واحدة ، أخذ يحدث الى وجه هذه الزائرة التي ما تزال تضحك .

غير أن ملاحظاً آخر كان موجوداً هناك ، ملاحظاً لم يكن هو أيضاً قد استطاع أن يتحرر من حالة البكم التي أغرقته فيها رؤية ناستاسيا فيليوفا . لكنه رغم أنه بقي مغروساً في مكانه من اطار الباب كأنه «تد» ، قد استطاع أن يلاحظ اصفرار جانبا وأن يرى ما طرأ على وجهه من تغير ينذر بشر . ان ذلك الملاحظ هو الأمير . وها هو ذا يتقدم الى الأمام خطوة على غير ارادة منه ، حتى لكأنه آلة ، وكان مروّعاً بمض الروع ، وقال لجانيا :

— اشرب قليلاً من ماء ، واكفف عن النظر هكذا ...

كان واضحاً أنه قال ذلك كله دون أى حساب ، بل ودون أية نية خاصة ، وانما هو انقاد لاندفاعه أولى . لكن أقواله هذه كان لها أثر خارق ، فكأن كل ما كان يعتل في نفس جانبا من حنق وغيط وسخط قد انصب على الأمير دفعة واحدة ، فها هو ذا يمسكه من كتفه ، ويحدث الى بنظرة فيها انتقام وحقد وكره ، صامتاً كأنه عاجز عن أن ينطق بكلمة . فسرى في الجمع كله انفعال شامل ، حتى ان نينا ألكسندروفا اطلقت صرخة صغيرة . وقلق بتسعين فتقدم خطوة الى أمام . وكان كوليا وفردشتينكو قد ظهرا في الباب فوقاً مذهولين مشدوهين ؟ وظلت فاريا وحدها خافضة رأسها ، ولكنها تراقب الأحداث بانتباه . كانت قد لبثت واقفة الى جانب أمها ، عاقدة ذراعيها على صدرها .

لكن جانبا لم يلبث أن عاد الى صوابه تقريباً ، فأطلق ضحكة عصبية ، ثم استرد وعيه كاملاً ، وصاح يقول بصوت حاول أن يجعله مرحاً طبيعياً :

- ماذا دهاك يا أمير ؟ أترك طبيياً ؟ لقد كدت تخيفنى •
والتفت الى ناستاسيا فيليوفا ، وأضاف يقول :
- ناستاسيا فيليوفا ، اسمحى لى أن أقدمه ... هو من أمن
الناس ، وان كنت لا أعرفه أنا نفسى الا منذ هذا الصباح ...
نظرت ناستاسيا فيليوفا الى الأمير محتارة • وقالت :
- أمير ؟ أهو أمير ؟ تصوروا اننى منذ قليل ، حين رأيته فى حجرة
المدخل ، قد ظننته خادماً ، فأرسلته الى هنا ليبلغ عن وصولى ! ها ها ها !
قال فردشتينكو وقد اقترب مسرعاً ، مبتهجاً بأن الضحك قد
استؤنف :

- لا بأس ! لا بأس ! حصل خير على كل حال ...
- كدت أسيء معاملتك يا أمير ، فاغفر لى ، أرجوك ! • فردشتينكو ،
ماذا تفعل هنا فى مثل هذه الساعة ؟ كنت آمل على الأقل ألا أصادفك
أنت هنا ••

قالت ناستاسيا فيليوفا ذلك ، ثم سألت جانيا ثانية ، وهو ما يزال
ممسكاً كتف الأمير يقدمه اليها ويعرفها به :
- ماذا تقول ؟ أى أمير ؟ ميشكين ؟
فقال جانيا :

- هو مستأجر عندنا •
واضح أن الأمير قد قدّم على أنه شخص طريف نادر (جاء فى
الوقت المناسب جداً ليخرجهم من وضع خطأ) ، حتى لقد كاد يُدفع نحو
ناستاسيا فيليوفا دفعا ؛ بل ان الأمير سمع كلمة « أبله » سماعاً واضحاً
يدمدم بها أحدهم وراءه على سبيل الشرح والتفسير ، ولعل قائلها هو
فردشتينكو •

تابعت ناستاسيا فيليوفا كلامها وهى تفحص الأمير من قمة الرأس الى أخمص القدمين بدون تحرج :

- قل لى : لماذا لم تصحح لى خطئى منذ قليل ، حين ارتكبت فى حقك
... تلك الغلطة الرهيبة ؟

كان يبدو على ناستاسيا توق شديد الى سماع جوابه ، لاقتناعها سلفاً بأن هذا الجواب سيلغ من الحماقة أنها لن تستطيع الا أن تضحك منه .
تمتم الأمير يقول :

- لقد دُهِشت من رؤيتك فجأة أمامى ...

- وكيف عرفتَ أننى أنا ؟ أين التقيت بى قبل اليوم ؟ عجيب ...
يخيّل الى حقاً أننى سبق أن رأيته فى مكان ما ! ... واسمح لى أن
أسألك أيضاً لماذا جمدت فى مكانك لا تتحرك ... ماذا وجدت فى من
شئ يبلغ هذا المبلغ من ... الفتنة ؟

قال فردشتينكو معجّداً وجهه :

- هيئاً ... أجب ... لماذا لا تجيب ؟ آه ... حين أفكّر فيما كان
يمكن أن أجيب به على مثل هذا السؤال لو كنت فى مكانك ! ... طيب
يا أمير ... ما أنت فى الحقيقة الا عييط ! ...

قال الأمير لفردشتينكو ضاحكاً كذلك :

- ولكن أنا أيضاً كان يمكننى أن أقول أشياء كثيرة لو كنت فى
مكانك .

ثم تابع كلامه مخاطباً ناستاسيا فيليوفا :

- فى هذا الصباح خطفت صورتك بصرى . وبعد ذلك تحدثت عنك
مع آل ايباتشين ، و ... فى ساعة مبكرة من هذا الصباح ، حين كنت

بالقطار ، حتى قبل وصولي الى بطرسبرج ، حدثني عنك بازفيون روجوين
كثيراً . وفي اللحظة التي فتحت لك فيها الباب ، في تلك اللحظة نفسها
كنت بخاطري ، فاذا أنا أراك أمامي .

- ولكن كيف عرفت أنني أنا ؟

- عرفت ذلك من رؤيتي للصورة ، و ...

- وماذا ؟

- ولأنني انما كنت أتخيلك هكذا ؛ وأيضاً لأنني كنت كمن سبق
أن رآك في مكان ما .

- ولكن أين ؟ أين ؟

- يخيل اليّ أنني سبق أن رأيت عينيك ... ولكن هذا مستحيل !
... لم يكن ذلك الا ... أنا لم أعش هنا قط . لعل ذلك حدث في حلم
أثناء النوم ...

هتف فردشتينكو قائلاً :

- مرحى أمير ! لا ، لا ، انني أسحب جملتي التي قلتها . أسحبها ! .
أحسنّت ...

ثم أضاف :

- رغم أن هذا كله انما هو في الحقيقة سذاجة وبراعة من جانبه !

كان الأمير قد نطق تلك العبارات القليلة بصوت مختلج متقطع مشوه ،
حتى لقد كان يتوقف عن الكلام في كثير من الأحيان ليسترده أنفاسه .
كان كل شيء فيه يدل على انفعال شديد . وكانت ناستاسيا فيليوفنا تأمله
باستطلاع قوى ، لكنها كفت عن الضحك .

وفي تلك اللحظة نفسها جلجل صوت قادمٍ جديد من وراء الجمهور

الكثيف الذى كان يحتشد حول الأمير وناستاسيا فيليوفنا ، فشطر الجمهور شطرين ان صح التعبير . انه رب الأسرة ، الجنرال ايفولجين بشخصه ، يقف الآن أمام ناستاسيا فيليوفنا . كان يرتدى بدلة « فراك » تحتها قميص نظيف ، وكان شارباه مدهنين مطيين .

كان هذا فوق ما يستطيع جانبا أن يطيق وأن يحتمل .

ان جانبا شاب مغرور مفتون بالظهور متملىء حباً لنفسه الى درجة الهوس . وقد عمد خلال هذين الشهرين الأخيرين الى جميع الوسائل ليضفى على شخصه شأنًا خطيراً وليجلها منزلة هامة . واذ شعر أنه ما يزال مبتدئاً فى الطريق الذى رسمه لنفسه ، واذ كان غير واثق من قدرته على المضى الى آخر الشوط ، فقد قرر مستميتاً أن يتصف سلوكه فى بيته بأكبر الوقاحة ، فكان فى بيته طاغية مستبدًا ، ولكنه لا يجرؤ أن يفعل هذا أمام ناستاسيا فيليوفنا التى تركته فى بحران الشك الى آخر دقيقة ، وكانت تسيطر عليه بلا رحمة ، حتى لقد خلعت عليه لقب «الشحاذ النافذ الصبر» ، وهو لقب نُقل اليه أنها وصفته به ، فألى على نفسه ليجعلها تدفع ثمن ذلك فى المستقبل غالباً ، مع احتفاظه بذلك الأمل الصياني وهو أن يحل كل المشكلات وأن يصالح جميع المتناقضات .

وهو الآن ما يزال مضطراً أن يشرب هذه الكأس المرة حتى الثمالة؛ والأنكى من ذلك أن عليه فى مثل هذه اللحظة أن يتحمل تعذيباً يُعدُّ أقسى أنواع التعذيب عند انسان مغرور ، ألا وهو أن يحمر خجلاً ومذلة أمام أهله فى بيته . فسرعان ما خطر بباله هذا الحاطر : « هل يستحق الثواب كل هذا العذاب فى آخر حساب ؟ » .

ان ما يحدث الآن أمام عينيه لم يكن قد تخيله أثناء هذين الشهرين الأخيرين الا ليلًا ، وكان ذلك كابوساً يجمده رعباً ويحرقه خجلاً ! ان اللقاء فى داخل أسرته بين أبيه وناستاسيا فيليوفنا يتم الآن أخيراً . لقد كان

يحاول فى بعض الأحيان ، ليزعج نفسه ، ويعذب نفسه ، أن يتخيل الجنرال أثناء حفلة العرس ، ولكنه لم يستطع فى يوم من الأيام أن يكمل رسم هذه اللوحة الأليمة ، فسرعان ما كان يتركها . لعله كان يبالغ فى تضخيم هذه البلية تضخيماً كبيراً ، ولكن هذا ما يحدث دائماً للأشخاص المغرورين . لقد اتسع وقته خلال هذين الشهرين لأن يفكر ولأن يتخذ قراراً ؛ وآلى على نفسه ليردّ أباه إلى الصواب مهما كلف الأمر ، ولو إلى حين ، حتى لقد يبعده عن بطرسبرج إذا اقتضت الحال ذلك ، سواء أوافقت أمه أم رفضت . وهو قبل هذه اللحظة بدقيقتين ، أى عندما دخلت ناستاسيا فيليوفا ، قد بلغ من البهت والشدة أنه نسي نسياناً تاماً احتمال ظهور آرداليون ألكسندروفيتش ، فلم يحتط للأمر أى احتياط ، ولم يتخذ أى تدبير !

وها هو ذا الجنرال يظهر الآن أمام جميع الناس ؛ وأكثر من ذلك أنه يجىء كالمتهيب لاحتفال فخم فهو يرتدى بدلة « فراك » ، وذلك كله فى اللحظة التى لا تحاول فيها ناستاسيا فيليوفا إلا أن « تتحين فرصة » للاستهزاء به والتهكم على أسرته « (كان هو من هذا على يقين تام) » . والا فما عسى أن يكون مغزى زيارتها ؟ أجابت تلتبس صداقة أمه وأخته ، أم جاءت لتهينهما فى عقر دارهما ؟

ثم إن الشك ينتفى انتفاءً تاماً متى رأى المرء موقف كل من المعسكرين . فأما أمه وأخته فقد جلسا متتحيين كمن أدركهما اذلال ، وأما ناستاسيا فيليوفا فقد كان يبدو عليها أنها نسيت حتى وجودهما فى الغرفة !... ولئن استمرت فى اتخاذ هذا الموقف ، إن ذلك يدل حتماً على أنها تخفى فكرة وتبيّت نية !

استولى فردشتينكو على الجنرال ليقدمه فقال الجنرال وهو ينحنى بوقار ويتسم برصانة :

- آرداليون الكسندروفتش ايفولجين • جندي قديم جاز عليه
الدهر ، أب لأسرة يسعدها أن تأمل أن تدخل في عدادها سيدة تبلغ هذا
المبلغ من الروعة ...

ولم يكمل كلامه • فان فردشتينكو قد أسرع يدس تحته كرسيًا ؛
واذ أن الجنرال يكون ضعيفاً على ساقيه بعد وجبات الطعام في العادة ، فقد
تهالك على الكرسي ، بل قل انه انهار عليه انهياراً ، ولكن دون أن يشعر
من ذلك بأي اضطراب أو خجل • جلس أمام ناستاسيا فيليوفنا تماماً ،
وتناول يدها ، ثم حمل أصابعها الى شفتيه بحركة بطيئة مدروسة مع
اصطناع هيئة اللطف والبشاشة والتودد • كان الجنرال ، بوجه عام ، امرأً
يصعب احراجه أو ارباكه أو بلبثته • وليس يخلو مظهره الخارجي ، اذا
استنينا شيئاً من الاهمال في ملبسه ، ليس يخلو من مهابة ، وكان هو
لا يجهل ذلك • حتى لقد استطاع في الماضي أن يُستقبل في أرقى
مجتمع ، ثم لم يطرد من المجتمع الراقي طرداً نهائياً الا منذ سنتين أو ثلاث
سنين • ومنذ ذلك الحين انما أخذ ينقاد لبعض مواطن الضعف فيه بدون
تحفظ • ولكنه حافظ على شيء من الطلاقة والجازية •

بدا على ناستاسيا فيليوفنا سرور عظيم بظهور آرداليون الكسندروفتش
الذي كان واضحاً أنها سبق أن سمعت عنه •

وأراد آرداليون أن يتكلم فقال :

- علمت أن ابني ...

- آ • نعم ••• ابنك !••• أنت أيضاً ظريف لطيف ! لماذا
لا تجيء الى أبدأ ؟ أنت الذي تخطبني أم أن ابنك هو الذي يخبك ؟ أنت
على الأقل تستطيع أن تزورني دون أن تمرّض سمعة أحد لخطر ...
استأنف الجنرال الكلام فقال :

- أبناء القرن التاسع عشر وآباؤهم ٠٠٠

وصاحت نينا ألكسندروفنا تقول بصوت عال :

- ناستاسيا فيليوفنا ، تفضلى فأذننى لأرداليون ألكسندروفتش

بالانصراف لحظة ، فانهم يطلبونه ٠٠٠

- أذن له ؟ أرجوك ٠٠ لقد سمعت عنه كثيراً فأنا أرغب فى معرفته

منذ مدة طويلة ! ما هى الأعمال التى تناديه ؟ أليس محالاً على التقاعد ؟

لن تركبى يا جنرال ، لن تنصرف ، أليس كذلك ؟

- أتعهد لك بأن يزورك شخصياً ، أما الآن فهو فى حاجة الى شىء

من الراحة •

هتفت ناستاسيا فيليوفنا تسأله وهى تلوى شفتها استياءً كطفلة مفتاح

انتزعت منها لمبتها :

- آرداليون ألكسندروفتش ، يزعمون أنك فى حاجة الى راحة ٠٠

فأسرع الجنرال يتكفل بجعل وضعه أدعى الى الاضحاك أيضاً ،

اذ قال يخاطب زوجته بلهجة متفخمة ونبرة لائمة ، وهو يحمل احدى

يديه الى موضع القلب من صدره :

- عزيزتى ، عزيزتى ٠٠٠

فسألت فاريا أمها بصوت عال :

- ألا تريدان أن تخرجى يا ماما ؟

فأجابتها أمها !

- لا يا فاريا ، ساقى الى النهاية !

لا يمكن الا أن تكون ناستاسيا فيليوفنا قد سمعت السؤال والجواب ،

ولكن مرحها لم يزد من ذلك الا شدة وقوة • وأخذت تمطر الجنرال

بالأسئلة ، فما انقضت خمس دقائق حتى كان الجنرال يفيض في الهذر
وسط ضحكات الحفل كله .

شدَّ كوليًا حافة سترة الأمير ، وقال له :

– أنت على الأقل ، أخرجته الى مكان ما ! ألا تستطيع أن تفعل ذلك؟
أرجوك ...

وكانت تلمع في عيني الصبي المسكين دموع استياء . وأضاف الصبي
يقول بينه وبين نفسه :

– لمنك الله يا جاني !

استرسل الجنرال في الاجابة عن أسئلة ناستاسيا فيليوفنا ، فقال :
– نعم ، كنت صديقاً حسيماً لايفان فيدوروفتش ايباتشين في الواقع .
فأنا وهو والمرحوم الأمير ليون يقولوا يفتش ميشكين الذي أتيح لي اليوم أن
أفرح بضمّ ابنه الى صدرى بعد فراق عشرين عاماً ، كنا لا نفترق ، كنا
أشبه بالفرسان الثلاثة : آنوس ، وبورنوس ، وآراميس . ولكن ...
واخزناه ! ... واحد منا هو الآن في القبر ، مضى ضحية النسيبة ورسالة
لثيمة ؟ والثاني يمثل أمامك وما يزال يصارع النائم والرسايات ...
هتفت ناستاسيا فيليوفنا تسأله متعجبة :

– الرسايات ؟

– هي هنا ، في صدرى ، أصابتنى أثناء حصار كارس * ،
وما زلت أحسّها حين يسوء الجو . ثم اتنى أحيا كما يحيا فيلسوف :
أُتجول ، أتنزه ، ألعب « الضاما » بمقهى كبورجوازي اعتزل العمل ،
وأقرأ جريدة « الاستقلال » * . ولكننى قطعت صلاتى بصاحبنا بورنوس –
ايباتشين قطعاً تاماً ، منذ ثلاث سنين ، فى أعقاب حادث وقع فى القطار
بصدد كلب صغير ...

سألته ناستاسيا فيليوفنا باستطلاع شديد :

- كلب صغير ؟ ما تلك القصة ؟ كلب صغير ؟ فى القطار ؟...

وكانت كأنها تحاول أن تتذكر شيئاً ما .

- أوه ! هى قصة سخيفة لا تستحق أن تُروى ، حدثت لى مع مسز سميت ، صاحبة الأميرة بيلوكونسكايا ... لا تستحق أن تُحكى .

هفت ناستاسيا فيليوفنا تقول فرحة :

- بل اقصصها علىّ ، يجب أن تقصها علىّ حتماً !

قال فردشتينكو :

- أنا أيضاً لا أعرفها بعد . « هذا من الأمور الجديدة » .

قالت نينا الكسندروفنا بصوتها الضارع مرة أخرى :

- أرداليون ألكسندروفتش !

وصرخ كوليا يقول :

- بابا ، انهم يطلبونك ...

بدأ الجنرال يحكى القصة مسروراً فقال :

- قصة سخيفة تُحكى بكلمتين . منذ سنتين تقريباً ، بعد تدشين خط السكة الحديدية بين ... ، كنت مسافراً بالقطار لأعمال هامة جداً تتعلق بتسليم منصبى (وكنت قد ارتديت الثياب المدنية منذ ذلك الحين) .

قطعت تذكرة سفر بالدرجة الأولى ، فلما صرت فى حجرة القطار جلست أدخّن ، بل قولى اننى استمررت أدخّن ، لأننى كنت قد بدأت أدخّن قبل ركوب القطار ؛ وكنت وحيداً فى الحجرة . ولئن لم يكن التدخين ممنوعاً ، انه ليس مباحاً على كل حال . وانما جرى العرف بالتسامح فى أمره ، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص . وكان زجاج النافذة مخفوضاً .

وفجأة ، قبل انطلاق رنة الايدان بتحريك القطار ، دخلت الحجرة سيدتان
وصلتا في آخر لحظة ، ومعهما كلب صغير ، وجلسنا قبالي . ان احدهن
ترتدى ثياباً تبلغ غاية الأناقة ، لونها أزرق سماوى . والثانية أقل أناقة
من الأولى ترتدى ثوباً من حرير أسود فوقه كلب . والسيدتان كلتاهما
على شيء من الجمال ، ولكنهما متعاليتان متكبرتان . وكانتا يتحدثان باللغة
الانجليزية . استمرت أنا في التدخين . ولقد فكرت في الأمر طبعاً ،
لكننى قررت مع ذلك ألا أكف عن التدخين ، على أن أدير وجهى نحو
زجاج النافذة الذى ظل مخفوضاً . كان الكلب الصغير فوق ركبتى السيدة
التي ترتدى ثوباً أزرق بلون السماء ، وهو كلب صغير جداً جداً ، لا يكاد
يتجاوز حجمه حجم قبضة اليد ، جسمه أسود ، وقوائمه بيضاء كلب
نادر كل الندره . وكان في رقبته طوق من فضة عليه نقوش . بقيت أنا
ساكناً صامتاً . لكننى لاحظت أن السيدتين تبدوان مستاءتين ، بسبب
السيجار طبعاً . فاحدهما تنفّس في وجهى من خلال نظارة تمسكها
بيدها . ظلمت لا أردُّ بشيء ، ما دامت لا تقولان لى شيئاً ! لو كلمتاني
على الأقل ، لو طلبتا منى ألا أدخن ، اذن لكان يمكن أن ألام . . . ان
للشعر لغة يتخاطبون بها ، ان لهم لساناً يتكلمون به . لكن السيدتين لبستا
صامتتين ! . . . وفجأة . . . بدون أى انذار . . . أوكد لك أن ذلك تمَّ
بدون أى انذار . . . كأن السيدة قد فقدت عقلها . . . انتزعت السيدة ذات
الثوب الأزرق . . . انتزعت من يدي السيجار ، ورمته من النافذة . واستمر
القطار يسير ، بينما أنا أنظر اليها مبهوتاً مصعوقاً . انها امرأة وحشية ،
وحشية فعلاً ، وحشية تماماً ، رغم أنها جميلة ، بضعة ، طويلة ،
شقراء ، زاهية اللون ، (بل زاهية اللون كثيراً) . صعقتنى بنظرتهما
صعقاً . وهأنذا ، دون أن أقول كلمة واحدة ، وبأدب كامل ، بل بأدب
يبلغ غاية الرقة ، أمدُّ اصبعي الى الكلب ، فاحمله بهما من جلد رقبته

حملًا لطيفاً ... و ... أرميه من النافذة ليلحق بسيجارى • لم يكده
يتسع وقته لأن يعول احواله صغيرة ! ... واستمر القطار يسير •
هفت ناستاسيا فيليوفنا تقول وهى تتفجر ضاحكة وتصفق بيديها
كصية صغيرة :

— أنت شيطان !

وزأر فردشتينكو يقول :

— مرحى ! مرحى !

وايشم بتسين هو أيضاً ، رغم أنه كان هو أيضاً قد دُهِش واستاء
من دخول الجنرال • وحتى كوليا أخذ يضحك ، حتى لقد صرخ يقول
« • مرحى ! » •

واصل الجنرال كلامه يقول متحمساً ، ظافراً :

— كنت على حق ، كنت على حق جداً • فاذا كان السيجار ممنوعاً
فى حجرة القطار ، فالكلاب أولى أن تكون ممنوعة أيضاً •
صرخ كوليا يقول متحمساً :

— مرحى ، بابا ! عظيم ، رائع ! لو كنت فى مكانك لفعلت مثل الذى
فعلت أنت حتماً !

سألت ناستاسيا فيليوفنا نافذة الصبر :

— وماذا فعلت تلك السيدة ؟

أظلم وجه الجنرال ، ثم قال :

— هى ؟ هنا جرت الأمور مجرى سيئاً : فبدون أن تقول كلمة
واحدة ، بدون أى تمهيد ، صفعتنى ! قلت لك : انها امرأة وحشية ،
وحشية تماماً !

- وأنت ؟

خفض الجنرال عينيه ، ورفع حاجبيه ، وأعلى كفيه ، وزمّ شفّيه ،
وباعد ذراعيه ، وقال أخيراً بعد صمت :

- لم أستطع أن أكبح جماح نفسي ؟

- هل ضربتها ضرباً شديداً ؟

- لا ، أحلف لك ! لقد أحدث الأمر يومئذ فضيحة ، لكنني لم
أضربها ضرباً شديداً . لم يكن ذلك مني الا ردّاً فعل ، لا لشيء الا أن
أبعدها . غير أن الشيطان دبّر لي هنا « مقلباً » لعيناً ! فالسيدة التي تلبس
ثوباً أزرق بلون السماء اتضح انها انجليزية ، وأنها مرافقة الأميرة
يلوكونسكايا ، بل وتكاد تكون صديقتها . تخيّلي الدراما : اغماءات ،
دموع ، حداد (كان الكلب الصغير أثيرهما) ، صيحات الأميرات الست
والسيدة الانجليزية ! ولقد ذهبت أعرب عن أسفى وأقدم اعتذارى طبعاً ،
حتى لقد كتبت رسالةً غير أنني لم أُنْتَقِل ، لا أنا ولا الرسالة ، ونشأ عن
ذلك شقاق بيني وبين ايباتشين بطبيعة الحال . فهأنذا الآن مشنّع على ،
منفى عنهم ، مبعّد من صحبتهم !

سألت ناستاسيا فيليوفا فجأة :

- ولكن اسمح لي ، كيف يمكن هذا ؟ لقد قرأت منذ خمسة أيام
أو ستة ، في « الاستقلال » (وأنا أقرؤها بانتظام) ، قرأت هذه القصة
نفسها تماماً ! حدث هذا على خط السكة الحديدية الذي يحاذي شاطئ
نهر الراين ، بين رجل فرنسي وامرأة انجليزية : هي انتزعت منه سيجاره
على النحو الذي وصفت ، وهو رمى كلبها الصغير القزم من النافذة بالطريقة
التي ذكرت ؛ وكل شيء جرى على نحو ما جرى لك دون أى اختلاف ،
فحتى ثوب السيدة كان أزرق بلون السماء !

احمر وجه الجنرال احمراراً شديداً • واحمر وجه كوليا أيضاً ،
وأمسك رأسه بيديه • وأسرع بتسكين يشيح وجهه • فكان فردشتينكو
وحده ما يزال يضحك ملء حلقه • أما جانيا ، فالأفضل ألا تتكلم عنه •
لقد ظل هنالك يعانى ألماً أخرس لا يطاق !

تمتم الجنرال يقول لئاستاسيا فيليوفنا :

— أؤكد لك أن هذا الشيء نفسه قد حدث لى ...

وصاح كوليا :

— فعلاً وقع لأبى حادث مزعج مع مسز سميت ، خادم
بيلوكونسكايا • أنا أتذكر هذا •

عادت ناستاسيا فيليوفنا تلح مصرةً فى غير رحمة ولا شفقة :

— كيف يحدث لك هذا الشيء نفسه ؟ أتكرر قصة واحدة فى طرفى
أوروبا ، بجميع تفاصيلها ، حتى الثوب الأزرق الذى لونه كلون السماء ؟
سوف أرسل اليك العدد الذى قرأت فيه قصة تلك الحادثة من جريدة
« الاستقلال البلجيكي » •

وتابع الجنرال كلامه ملحاً :

— لاحظلى مع ذلك أن الحادث الذى وقع لى عمره ستان !

— آ ... اذا كان الأمر كذلك ، ف ... طبعاً ...

قالت ناستاسيا فيليوفنا هذا وهى تضحك كأنما قد اعترتها نوبة
هسترية •

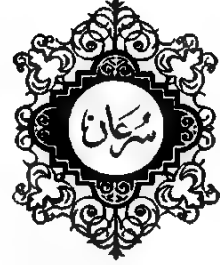
قال جانيا بصوت مرهق ، وهو يمسك أباه من كفه :

- بابا ، أرجوك أن تخرج معي قليلاً ... أريد أن أقول لك كلمتين •

كان كره لا نهاية له يسلم في نظرتة •

وفي تلك اللحظة دوى في المدخل صوت الجرس قوياً عنيماً يكاد ينخلع له الجرس انخلاعاً ، فكان يدل على زيارة غير عادية • فأسرع كولين يفتح الباب •

الفصل العاشر



ما سُمعت ضوضاء جمهور آتية من حجرة المدخل • ان من كان في الصالون يدرك أن عدة أشخاص قد دخلوا ، وأن آخرين ما يزالون يدخلون • كانت أصوات كثيرة تتكلم في آن واحد ، وتصرخ عند المدخل وعند السلم الذي ظل بابيه مفتوحاً واضح أنهم زوار غريبون عجيبون • أخذ جميع من في الصالون ينظر بعضهم الى بعض متحيراً • واندفع جانبا الى الصالون الكبير ، غير أن عدداً من الأشخاص كانوا قد دخلوا الى هناك •

صاح صوت يعرفه الأمير ، صاح يقول :
- آ ... هانت ذا يا يهوذا ، يا خائن ! سلامٌ جانبا ، يا وغداً عريقاً !

وصاح صوت آخر يقول مؤيداً :
- نعم ، انه هو ، هو نفسه !
لم يبق لدى الأمير أى شك • ان أحد الصوتين هو صوت روجوين ، وان الصوت الآخر هو صوت ليديف •
تجمد جانبا على العتبة مبهوئاً مصعوقاً ، وأخذ ينظر صامتاً ، دون أن يحاول اعتراض دخول هؤلاء الأشخاص العشرة أو الاثنى عشر الذين كانوا يجتاحون الغرفة وراء بارفيون روجوين •

كانت هذه العصابة خليطاً عجيباً ، يتميز أفرادها لا بتنوعهم فحسب ، بل بفوضاهم كذلك ، حتى ان بعضهم دخلوا كما هم ، بفرواتهم ومعاطفهم وكانوا يبدون جميعاً سكارى بمض الشىء ، رغم أن أحداً منهم لم يكن سكران فعلاً . وكان يظهر عليهم جميعاً أن كلاً منهم فى حاجة الى الآخرين يشدُّ بهم أزره ، ويستمد منهم شجاعته . ما كان لواحد منهم أن يجروا على أن يدخل لو كان وحيداً ، ولكنهم كانوا كمن يدفع بعضهم بعضاً الى الدخول دفعا . حتى روجويين الذى كان على رأسهم ، انما كان يدخل محاذراً ؛ فكان يبدو مظلم الوجه مشغول البال مهموم النفس الى درجة الهياج . أما الآخرون فلم يكونوا الا « كورس » هو فيه المغنى أو قل لم يكونوا الا عصابة عليها أن تساعد قليلاً . كانت العصابة تضم ، عدا ليديف ، كانت تضم زالويجيف الذى عني بتجديد شعره عناية كبيرة ، وترك فروته فى حجرة المدخل ، ودخل طلقاً متبخراً ، ووراءه شخصان أو ثلاثة أشخاص من هذا الطراز نفسه كان واضحاً أنهم أبناء تجار ؛ وكان فى العصابة كذلك رجل يرتدى معطفاً على الزى العسكرى ، ورجل قصير سمين مفرط فى السمنة ما ينفك يضحك بغير انقطاع ؛ ورجل ضخيم يدين هو أيضاً ، بدانة غير عادية ، يكاد يبلغ طوله مترين ، متجهم الوجه شديد الصمت ، لا بد أنه كان يعوّل على قبضتي يديه كثيراً ؛ وطالب من طلاب الطب ؛ وبولندى مرجح . وعلى فسحة السلم سيدتان تنظران الى حجرة المدخل ولا تجرؤان أن تدخلوا . فأغلق كوكليا الباب أمامهما وشدَّ المزلاج .

— سلام جانبا الوغد ! انك لم تكن تتوقع أن ترى بارفيون روجويين ، أليس كذلك ؟

هكذا ردَّ بارفيون روجويين حين وصل الى باب الصالون فوقف أمام جانبا . ولكنه فى تلك اللحظة نفسها ، لمح فى الصالون ، قبالة تماماً ،

على حين فجأة ، لمح ناستاسيا فيليوفنا • واضح أنه كان أبعد ما يكون عن تخيل امكان أن يراها هنا • فيما ان رآها حتى أحدثت رؤيتها في نفسه تأثيراً خارقاً ، فاذا هو يبلغ من الشحوب وانكفاء اللون أن شفثيه أصبحنا زرقاوين •

قال في رفق بصوت خافت ، كأنما هو يحدث نفسه ، وقد شلّ
فلا يدرى ماذا يفعل :

– ما يقال صحيح اذن • انتهى الأمر !...•

ثم قال مخاطباً جانيا من بين أسنانه ، وهو ينظر اليه نظرة تفيض
بغضب حائق لا يُغالب :

– طيب ... ستحاسب !...•

لقد انحبست أنفاس روجويين ، فلم يكذ يستطيع أن ينطق بهاتين
الكلمتين مقطعتين الا بكثير من العناء • وتقدم في الصالون ، ولكنه حين
أبصر نينا ألكسندروفنا وفاريا على حين فجأة ، توقف شاعراً ببعض الحجل
رغم كل انفعاله • ودخل ليديف وراءه ، يتبعه كظله ، وقد نال منه
السكر • ثم دخل الطالب ، فالعلاق ذو القبضتين الهائلتين؟ ودخل وراءهما
زالوجيف يحيى ذات اليمين وذات الشمال ؛ ثم دخل الرجل القصير
السمين يحاول أن يشق لنفسه طريقاً • ان وجود السيدات قد كبهم
قليلاً ، وكان واضحاً أنه يربكهم ارباكاً كبيراً ، ولكن المرء يحس أن
هذا الارباك سيزول متى حانت لحظة « البدء » ...• فان وجود السيدات
لن يحول دون الفضيحة متى تُطلق اشارة « البدء » •

قال روجويين في ذهول ، ولكن مع شيء من الدهشة :

– كيف ؟ أنت أيضاً هنا يا أمير ؟ وما تزال اللبادتان على حذاءيك ؟
وتنهّد • لكنه كان قد نسي الأمير وعاد ينقل بصره الى ناستاسيا

فيليوفنا ، وهو يقترب منها مزيداً من الاقتراب ، كأنما يجذبه اليها
مغناطيس •

وكانت ناستاسيا فيليوفنا ، هي أيضاً ، تفرس في الدخلاء قلقة
مستطلعة •

وأخيراً تاب الى جانبا صوابه • فقال بصوت عال وهو يلقي على
الدخلاء نظرة قاسية ، مخاطباً روجوين بخاصة :

- اسمحوا لي ! ما معنى هذا ؟ أنتم هنا في اسطبل أيها السادة ؟!
أمامكم هنا أمي وأختي ...

قال روجوين من بين أسنانه :

- نرى أنهما أمك وأختك •

وزاد ليديف يقول :

- واضح أنهما أمك وأختك •

وأغلب الظن أن صاحب القبضتين القويتين قدّر أن الحين قد حان ،
فاذا هو يهمهم •

فصاح جانبا رافعاً لهجته الى درجة الانفجار ، قائلاً :

- كفى ! أرجوكم أولاً أن تنتقلوا الى الغرفة الأخرى ، واسمحوا
لي بعد ذلك أن أسألكم ...

ضحك روجوين ضحكة شريرة ساخرة دون أن يتحرك من مكانه
وقال :

- عجيب ! لم يتعرفني ! ألم تتعرف روجوين ؟

- هبني التقيت بك في مكان ما ، فأنسى ...

- هه ! التقيت بي في مكان ما ! أنسيت اذن أنك منذ أقل من ثلاثة

أشهر قد سلبتني بالقمار مائتي روبل هي ملك أبي ؟ لقد مات الشيخ
المسكين قبل أن يتسع وقته لمعرفة ذلك . أنت جررتني الى اللعب ،
وصاحبك كيف تولى الفش . أفلا تعرفني اذن ؟ في وسع بتسين أن
يشهد . على كل حال ، يكفي أن أخرج من جيبي ثلاثة روبلات ، وأن
أريكها حتى تركع وتسير على أربع الى فاسيلفسكي أملاً في الحصول عليهما .
هذا أنت ! تلك هي نفسك الخسيسة ! وانما جئت الآن أيضاً لأشتريك
كلك بالمال ! لا تنظر الى حذاءي فأنا أملك يا صاحبي مالاً كثيراً ، وفي
وسعي أن أشتريك أنت وجميع ذويك ... لو شئت اشتريتكم جميعاً ،
جميعاً ! ...

كان روجوين يزداد اندفاعاً ، ويبدو أشد سكرأ لحظة بعد لحظة .
وهتف يقول :

— لا ، لا تطرديني يا ناستاسيا فيليوفنا ! قولي لي كلمة واحدة
لا أكثر : أأنت مقبلة على الزواج به أم لا ؟
ألقي روجوين هذا السؤال كما يلقيه انسان يشعر بأنه هالك ،
وخاطب ناستاسيا فيليوفنا كما يخاطب انسان الهه المعبود ، ومع ذلك كان
في لهجته جراءة هي جراءة من حكم عليه بالاعدام فلم يبق هنالك ما يخاف
أن يضع منه .

وراح ينتظر الجواب بقلق قاتل !

شقلته ناستاسيا فيليوفنا بنظرة ساخرة متعالية . ولكنها حين ألقت
بصرها على فاريا ونيئا الكسندروفنا ثم على جانبا ، غيّرت موقفها ، وقالت
تحييه في رفق وجد ، بصوت تلوح فيه الدهشة :

— لا ، أبداً ، ماذا دهاك ؟ ثم كيف خطر ببالك أن تلقى عليّ هذا
السؤال ؟

هتف روجوين يقول كمن جُنَّ فرحاً :

- لا ؟ لا ؟ أصحيح أنك لن تتزوجيه ؟ لقد زعموا لى أنك ستتزوجينه آه طيب • يا ناستاسيا فيليوفا ! هم يدعون أنك وعدت جانبا بأن تتزوجيه •• كيف تتزوجين هذا هذا ال •• أذلك ممكن ؟ لقد قلت لهم هذا • ان فى وسعى أن اشتريه كله بمائة روبل، فإذا أعطيته ألف روبل أو قولى ثلاثة آلاف روبل فى سبيل أن يعدل عن الزواج ، لهرب عشية الزواج تاركاً خطيبته • أليس هذا صحيحاً يا جانبا ، يا سافل ؟ ألن تقبل الثلاثة آلاف روبل ؟ خذ ! اليك هى ! من أجل هذا انما جئتُ اليوم ! لقد جئتُ لأحصل على توقيع منك بالعدول عن الزواج • قلت سأشتريك ، ولسوف اشتريك فعلاً !

صرخ جانبا يقول وهو يحمرُّ ثم يصفرُّ ، ثم يصفرُّ ثم يحمرُّ :
- اذهب من هنا ! أنت سكران !

أحدثت هذه الصرخة انفجارات أصوات • كانت عصبية روجويين لا تنتظر منذ مدة طويلة الا أول استفزاز • وها هو ذا ليديف يهمس فى أذن روجويين بعض الكلام مهتماً أشد الاهتمام •

أجاب روجويين :

- أصبتَ يا سيادة الموظف ! أصبتَ يا أيها السكّير ! ولمَ لا ، أخيراً ؟

ثم هتف يقول وهو ينظر الى ناستاسيا فيليوفا كالمجنون ، فتارةً برعب وتارةً بجرأة تشبه أن تكون وقاحة :

- ناستاسيا فيليوفا ! اليك ثمانية عشر ألف روبل ! و وهناك مبالغ أخرى !

قال ذلك ووضع ألامها ، على منضدة صغيرة ، حزمة ملفوفة بورق أبيض ، ومربوطة بخيط .

ولم يجرؤ أن يكمل فكرته ، لم يجرؤ أن يتم ما كان يريد أن يقوله .

همس ليديف في أذنه مرة أخرى يقول مرتاعاً :

— لا ، لا هذا ...

كان واضحاً أن ضخامة المبلغ قد روّعته ، وأنه يقترح تخفيضه .
فأجابه روجوين :

— لا يا صاحبي ، هنا أخطأت ... هنا أنت غبي ..

واذ رأى شرراً يقدح في نظرة ناستاسيا فيليوفنا ، ناب إليه صوابه ، وأخذ يرتجف ، وأضاف يقول :

— بل نحن كلانا غيان ، أنت وأنا ... آه ... ما كان أشد حماقتي حين سمعت لك .

أضاف روجوين هذه الجملة الأخيرة بلهجة فيها ندم عميق .
فبعد أن لاحظت ناستاسيا فيليوفنا بكثير من الانتباه كيف انقلب وجه روجوين وتشوّه ، انفجرت تضحك فجأة ، ثم أضافت تقول بلهجة خالية من الكلفة ، طافحة بالوقاحة ، وهي تنهض عن الكنبه كأنما لتصرف :

— ثمانية عشر ألف روبل ، لي أنا ؟

وكان جانيا يراقب المشهد منقبض القلب .

صاح روجوين يقول :

— بل أربعون ألفاً ، أربعون ألفاً ، لا ثمانية عشر ! ... لقد وعدني بتسعين ويسكوب بأن يدفع لي أربعين ألف روبل في الساعة السابعة !
أربعون ألف روبل عدأً وتقداً ! ...

أصبح المشهد دنيئاً حقاً ، ولكن ناستاسيا فيليوفا ظلت تضحك ، ولم تعزم أمرها على الانصراف ، كأنها تتعمد أن يطول المشهد . وقد نهضت نينا ألكسندروفنا وفاريا ، هما أيضاً ، ووقفنا تنتظران صامتتين مروعتين ما عسى أن ينتهى اليه الأمر . فأما فاريا فعيناها تلتعمان ؛ وأما نينا ألكسندروفنا فقد هزّها تعاقب الأحداث هذا هزّاً قوياً كل القوة فهي ترتجف حتى لتكاد تسقط مفضياً عليها .

- اذا كان الأمر كذلك ، فأننى أرفع المبلغ الى مائة ألف . نعم ، فى هذا اليوم نفسه سأدفع مائة ألف روبل . بتسين ، ساعدنى فى جمع هذا المبلغ ، ولك حسابك !

همس بتسين قائلاً وهو يقترب منه بحركة نشيطة ويمسك ذراعه:

- أنت سكران : سوف تستدعى الشرطة ! أين تظن نفسك ؟

قالت ناستاسيا فيليوفا كأنما تثيره وتحرّضه :

- الحمرة هى التى تتكلم !

فأخذ روجوين يصرخ قائلاً وقد ازدادت حماسه ازدياداً كبيراً :

- لا ، أنا لا أكذب ! سوف تقبضين مائة ألف روبل ! هذا المساء !

سوف أبرهن على أننى لا أتباخل !

هنا أردد صوت آرداليون ألكسندروفتش على حين فجأة يقول غاضباً

مهدداً وهو يتقدم نحو روجوين :

- ما معنى هذا كله أخيراً ؟

ان هذه الاندفاع المبالغية التى لم يكن يتوقعها أحد من المعجوز بعد

أن ظل صامتاً حتى ذلك الحين ، قد أحدثت أنشراً مضحكاً ، فانطلقت

ضحكات هنا وهناك .

قال روجوين وهو يضحك ساخراً :

- من أين خرج لنا هذا ؟ تعال معنا أيها المعجوز فتشرب حتى تسكر !

فصرخ كوكليا الذى كان يبكى عاراً وغضباً :
- هذه دنافة !

وصاحت فاريا فجأة وهى ترتعش غضباً من قمة رأسها الى أخمص قدميها :

- هل يُعقل ألا يكون بينكم واحد يُخرج هذه الوقحة من هنا ؟

فأجابت ناستاسيا فيليوفا تقول بمرح فيه احتقار :

- أنا أوصف بأننى وقحة ؟ ما كان أغباني حين جئت لأدعوهم الى سهرتى ! انظر كيف تعاملنى أختك يا جبريل آرداليوتش !

ظل جانبا بضع لحظات كالصعوق من اندفاعه أخته ، ولكنه حين لاحظ أن ناستاسيا فيليوفا عازمة فى هذه المرة فعلاً على أن تنصرف ، هجم على فاريا كالجنون فأمسك يدها بخنق شديد •

وهنف يسألها وهو ينظر اليها كمن يريد أن يحيلها الى رماد على الفور :

- ماذا فعلت ؟

كان قد خرج عن طوره ، وأصبح لا يدري ماذا يصنع •

صرخت فاريا تقول وهى ترشق أخاها بنظرة انتصار وتحد :

- ماذا فعلت ؟ وأنت الى أين تجبرنى ؟ أتركك تريد منى ، أيها الرجل الساقط ، أن أقدم اليها اعتذارى هى التى أهانت أمك ، وغطت بيتك كله بالعار ؟

ولبنا على هذه الحال بضع لحظات ، وجهاً لوجه •

كان جانبا ما يزال ممسكاً يد أخته بيده • وحاولت فاريا أن تخلص

يدها مرةً أو مرتين بكل ما تملك من قوة ، لكنها لم تغلج ، فإذا هي بعد ذلك تخرج عن طورها فتبصق في وجه أخيها •

صرخت ناستاسيا فيليبونا تقول :

— هذه فتاة حقاً ! يا بتسين ! أهتاك !

زاغ بصر جانبا ، ونسى نفسه تماماً ، فرفع يده يريد أن يضرب أخته بكل قواه • وكان يمكن أن تسقط يده على وجهها ، لولا أن يداً أمسكت ذراع جانبا بانطلاقة سريعة فأوقفتهما • لقد وقف الأمير بين الأخ وأخته •

قال الأمير حازماً ، ولكنه كان يرتعش بجميع أعضائه هو أيضاً ، كما يحدث في اثر اضطراب شديد :

— ما هنا ؟ أما كفاكم ؟!...

فزأر جانبا قائلاً وهو يترك يد فاريا :

— أأظلل أجذك دائماً في طريقي ؟

وكانت يد جانبا قد أصبحت طليقة ، وكان قد بلغ ذروة السخط ، فإذا هو ينزل بيده على وجه الأمير صفةً قوية •

صاح كولييا يقول وهو يرفع ذراعيه :

— آه ... آه ... رباه !...

وانطلقت هتافات التعجب من كل جهة • كان الأمير أصفر اللون ، يحدث إلى عيني جانبا بنظرة غريبة مثقلة لوماً ، وكانت شفاه المختلجان تحاولان أن تنطقا بشيء ما ، وكانت ابتسامة عجيبة غير مألوفة تشنّجها فما تستطيعان أن تقولوا شيئاً • واستطاع أخيراً أن يتلفظ فقال :

— أنا ، لا ضير ان ضربتني ... أما هي ... فلن أسمح لك بأن

تضربها !...

ولكنه فقد سيطرته على نفسه فجأة ، فترك جانبا ، وأمسك رأسه
بيديه ، واتجه نحو الحائط ، وقال بصوت متقطع :
- آه ... أشد ما ستنعر بالحزى والعار من فعلتك !
وكان جانبا كالمصعوق فعلاً •

هـرع كولا الى الأمير يقبله ويواسيه ، وتبعه روجوين وفاريا
وبتسين وينا ألكسندروفا ... تبعه الجميع ، حتى الشيخ آرداليون
ألكسندروفش •

تمتم الأمير قائلاً وهو ما يزال يتسم تلك الابتسامة غير المألوفة :
- ليس هذا بشئ ! ليس هذا بشئ !
وصرخ روجوين :

- لسوف يندم على ما فعل • لسوف تخجل يا جانبا من أنك أسأت
الى مثل ... هذه النعجة (لم يجد كلمة أخرى) • دعهم يا أمير ،
يا صديقي ؟ وتعال ... فسوف ترى كيف يعرف روجوين أن يحب !

تأثرت ناستاسيا فيليوفا ، هي أيضاً ، أشد التأثير من فعلة جانبا
وموقف الأمير • ان وجهها الذى يكون فى العادة شاحب اللون والذى
يعبر فى العادة عن شرود الذهن ، وذلك ما لا يتفق كثيراً مع ضحكها الذى
كانت تصطنعه اصطناعاً منذ قليل ، قد غيَّرتة الآن عاطفة جديدة • هذا
واضح كل الوضوح • ومع هذا يحس المرء أنها لا تحرص على اظهار
ذلك ، فهى تحاول أن تحافظ على ما كان يعبر عنه وجهها من سخرية •
وفجأة تذكرت السؤال الذى أثاره الأمير منذ قليل ، فقدمت تقول
على حين بقة ، ولكن بشئ من الجد والرصانة منذ الآن :
- حتماً ، سبق أن رأيت هذا الوجه قبل الآن !

فهتف الأمير فجأة يقول بلهجة عتاب عميق ، لكنه عتاب فيه مودة
وصداقة :

— وأنت ، ألا تشعرين الآن بخجل ؟ أنت لست تلك المرأة التي
حاولوا أن يصفوها بما وصفوها به !...

دُهِشت ناستاسيا فيليوفا ، وحاولت أن تبسم كأنها لتخفي شيئاً ما .
وبعد أن ألقت نظرةً على جانبا اتجهت نحو باب الصالون مضطربة . لكنها
حتى قبل أن تصل الى حجرة المدخل ، عادت أدراجها فجأة ، فاقتربت من
نينا ألكسندروفنا فتناولت يدها وحملتها الى شقتها . ودمدمت تقول بصوت
سريع ، وبحرارة ، وقد اشتعل وجهها واحمرَّ :
— لقد حزر . صحيح أنني لست هكذا ...

ثم استدارت وخرجت ، ولكنها بلغت من السرعة في هذا كله أن
أن أحداً لم يتسع وقته لأن يعرف لماذا هي رجعت أدراجها ؛ كل
ما هنالك أنهم رأوها تكلمت نينا ألكسندروفنا بضع كلمات همساً ، ولعلمهم
رأوها تقبل يدها . غير أن فاريا رأت كل شيء ، وسمعت كل شيء ،
وتابعتها بنظراتها مدهوشة .

عاد الى جانبا رشده ، فاندفع ليصحب ناستاسيا فيليوفا ، لكنها كانت
قد خرجت ، فأدركها في السلم .
صرخت تقول له :

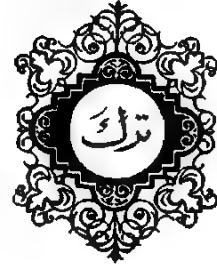
— لا تصحبني ! الى اللقاء في هذا المساء ! لا تتخلف ! هل سمعت ؟
فعاد جانبا مضطرباً ، مفكراً ، واجباً . ان لنزاً ثقيلًا يجثم الآن
على قلبه ، بل هو الآن أثقل مما كان . وطافت صورة الأمير أيضاً
بخطاه ...

وقد بلغ من عمق الاستغراق أنه لم يكن يرى انسحاب عصابة
روجويين التي كان أفرادها يصدّمونه في المدخل متدافعين متعجلين ترك
المنزل في اثر رئيسهم • كانوا جميعاً يتنافسون بحرارة شديدة وصوت
عال • وكان روجويين نفسه يمشى الى جانب بتسين ، ويكلّمه ملحاً في
شئ • لا بد أنه خطير ولا يحتمل أى تأخير • حتى اذا مرّ أمام جانيا قال له:

— خسرت يا جانيا !

فتابعهم جانيا بنظرة قلقة •

الفصل الحادي عشر



الأمير الصالون وجلس نفسه في غرفته • فسرعان
ما أسرع اليه كوليا ليواسيه • كان يبدو على
الصبي المسكين أنه أصبح لا يستطيع الانفصال
عنه • قال له :

- أحسنت اذ انصرفت • ستسوء الأمور مزيداً من السوء هناك •
يحدث هذا في جميع الأيام • كل ذلك بسبب ناستاسيا فيليوفنا تلك •
قال الأمير :

- في أسرتك ، يا كوليا ، آلام كثيرة متراكمة •

- نعم ، هذا صحيح • والحق أننا ليس لنا أن نشكو • فالذنب كله
ذنبنا • ولكن لي صديقاً هو أشقى منا أيضاً • هل تريد أن أعرفك به ؟

- بسرور كبير • أهو أحد رفاقك ؟

- نعم ، تقريباً • سأشرح لك الأمر فيما بعد • انها جميلة ، ناستاسيا
فيليوفا ، أليست كذلك ؟ لم يسبق لي أن رأيتها حتى الآن ، رغم كل
ما بذلت في سبيل ذلك من جهود • كانت اليوم باهرة حقاً ، باهرة ! كان
يمكنني أن أغفر لأخي جانبا كل شيء لو كان يتزوجها عن حب • أما أن
يأخذ مالاً فهذا هو العيب !

- نعم ، أخوك لا يعجبني كثيراً •

- أفهم ذلك جيداً ، ولا سيما بعد الذى فعله بك ... هل تريد أن أقول لك رأى ؟ هناك مواضع اجتماعية وأحكام شائعة لا أطيحها البتة . يكفى أن يقوم مجنون أو معتوه أو حتى وغد مجرم ، يكفى أن يقوم وهو فى حالة هذيان بصفع أحد الناس حتى يتلطح شرف الرجل الذى تلقى الصفعة ، الى الأبد ، فإذا هو لا يستطيع أن يغسل الإهانة الا بالدم ! اللهم الا أن يمشوا أمامه ركعاً ضارعين اليه أن يصفح ويغفر . فى رأى أن هذا طغيان واستبداد ، وأنه سخف ! وذلك هو موضوع الدراما التى كتبها ليرموتوف بعنوان : « الحفلة المقنعة » * ، والتى أجد أنها تافهة بلهاء ، بل وأنها مخالفة للطبيعة . يجب أن نذكر على كل حال أن تلك الدراما هى من الأعمال التى كتبها ليرموتوف فى طفولته تقريباً ...

- أعجبتى أختك كثيراً .

- أرايت كيف بصفت فى وجه جانبا ؟ شجاعةً فاريا ! ومع هذا فانك أنت لم تبصق ، وما أظن أن مردً ذلك الى نقص فى شجاعتك . هه ! ها هى ذى بنفسها . صدق المثل : اذكر الذيب وحضر القضيبي . كنت أعلم أنها لا بد أن تجيء ! ان فيها نبلاً وشهامة ، وان تكن لها عيوب ونواقص أيضاً .

كانت أول حركة من فاريا أنها قالت :

- أنت لا عمل لك هنا ولا شأن . اذهب الى أبيك . لا بد أنه يُضجرك يا أمير ؟

- لا ، بالعكس .

- ها هى ذى الأخت الكبرى تندفع وتثور ! ذلك هو عيبها . ولكن ، بالنسبة ، لقد ظننت أن أبانا سيتبع روجوين . لا بد أنه نادم الآن على أنه لم يفعل .

وأضاف كوليما يقول وهو يخرج :

- يستحسن فعلاً أن أذهب اليه فأرى ما هنالك !

قالت فاريا :

- الحمد لله ! استطعت أن أقود ماما وأن أرقدها ، ولم يحدث انفجار جديد • جانيا غارق في خجله وهمومه • هناك ما يدعوه الى ذلك على كل حال !... يا له من درس !... لقد جئت لأشكرك ، ولأسألك أيضاً ألم تكن تعرف ناستاسيا فيليوفا قبل اليوم ؟

- لا ، لم أكن أعرفها •

- فلماذا قلت لها اذن ، وجهاً لوجه ، انها ليست « تلك » المرأة ؟

ألا ان من الجائز أن تكون قد حذرت الواقع !... على كل حال ، طاش عقلي ، وتاه فكري ، فأصبحت لا أفهم من الأمر شيئاً ! لا شك في أنها كانت تتوى أن تهيننا • ذلك واضح • وقد سبق أن سمعت عنها أشياء كثيرة غريبة • ولكن اذا صدق أنها جاءت لتدعونا أنا وماما ، فكيف نفسر أنها بدأت بمعاملة ماما تلك المعاملة الغريبة ؟ ان بتسين يعرفها جيداً • وقد قال انه لم يستطع أن يفعل سلوكها منذ قليل • وموقفها ذاك من روجويين؟ ان من يحترم نفسه لا يسمح لنفسه بمثل هذه اللغة ، في منزل ... وأمي قلقة عليك كل القلق أيضاً •

قال الأمير وهو يحرك يده بحركة عدم الاكتراث :

- ما هذا بشيء !

- انه لغريب مع ذلك أنها أطاعتك ...

- كيف ... أطاعتني ؟

- حين قلت لها ان عليها أن تشعر بالحجل ، فاذا هي تتغير وتبدل دفعةً واحدة •

ثم أضافت فاريا وهي تبسم ابتسامة خفيفة :

– ان لك عليها نفوذاً وسلطاناً يا أمير !

وفُتِحَ الباب ، ودخل جانيا من حيث لم يكن يُتَوَقَّع دخوله البتة •
وحتى رؤية فاريا لم تحمله على التردد • تلبث عند العتبة لحظةً ، ثم دنا
من الأمير وقد بدا في وجهه الحزم والثبات ، وقال فجأةً بانفعال قوى :

– يا أمير ، لقد كنت أنا دنيئاً ، فاغفر لى يا عزيزى !

كانت قسّامات وجهه تعبر عن ألم كبير وعذاب شديد • فتأمله الأمير
مشدوهاً ولم يجب فوراً • فأسرع جانيا يكرر قوله نافذ الصبر :

– اغفر لى ، أرجوك ، اغفر لى • هل تريد أن أقبل يدك ؟

فما كان من الأمير ، وقد تأثر تأثراً شديداً ، الا أن عانقه بذراعيه
دون أن يقول كلمة واحدة • وتبادل الرجلان القبلات صادقة •

قال الأمير أخيراً وهو يسترد أنفاسه بكثير من العناء :

– ما كان ليخطر ببالى أنك قادر على هذا ••• كنت أظن أنك غير
قادر عليه •••

– على الاعتراف بأخطائى ؟ ••• انى لأتساءل كيف أمكننى أن أعدّك
أبله ، أنت الذى ترى ما لا يستطيع الآخرون أن يلاحظوه فى يوم من
الأيام • انه ليكون مفيداً أن أجرى معك حديثاً ••• ولكن ••• ربما كان
السكوت أفضل !••

قال الأمير وهو يومئ له الى فاريا :

– وهذه انسان آخر يجب عليك أن تستغفره !

فصاح جانيا قائلاً وهو يشيح بوجهه عن أخته :

– لا ، لا ، هؤلاء جميعاً أعداء لى • تأكد يا أمير أنتى قمت بمحاولات
كثيرة وبذلت جهوداً كبيرة • لا ، هنا لا يفرون غفراناً صادقاً قط !

فقلت فاريا فجأة :

- بل سأغفر لك !

- وهل تذهين هذا المساء الى بيت ناستاسيا فيليوفا ؟

- أذهب ، اذا أمرتني بأن أذهب • ولكن احكم في الأمر بنفسك :

هل يمكنني الآن أن أظهر هناك ؟

- ما دامت ليست « تلك » • انك ترين الألفاز التي تقوم في أذهانتنا

عنها ؟ ألا انها لتجيد التمثيل !...•••

قال جانبا ذلك وضحك ضحكة ساخرة خيثة •

- أنا أدرك أنها ليست ما يترامى لنا ، وأن في جعبتها « مقالب »

أخرى • ولكن ما هي تلك « المقالب » ؟ ثم انتبه يا جانبا ! أنت تعرف

رأيها فيك على الأقل ؟ صحيح أنها قبّلت يد ماما ، ولنفرض أن سائر

الأمور تمثيل ، ولكنها مع ذلك قد سخرت منك وتهكمت عليك ! هذه

مدلات لا تساويها خمسة وسبعون ألف روبل ! لا يا أخى ! عهدي فيك

أنتك قادر على الشعور بمواطف نبيلة ، لذلك ترانى أقول لك هذا الكلام •

صدّقي • أنت نفسك لا تذهب اليها هذه الليلة ! حذار أن تذهب !

لسوف يجرى الأمر كله مجرى سيئاً !

قلت فاريا ذلك ، وأسرعت تخرج من الغرفة منفعة أشد الانفعال ••

قال جانبا وهو يضحك مستهزئاً :

- كذلك هنّ جميعاً ! هل يتخيّلن أنني أنا نفسي لا أعرف ؟

لا شك أنني أعرف أكثر مما يعرفون !

وهنا جلس جانبا على الديوان ، فكان واضحاً أنه ينوى إطالة زيارته ••

تجاسر الأمير فقال خجلاً وجلاً :

- اذا كنت تعرف ، فلماذا اخترت اذن هذا التعذيب علماً أن خمسة وسبعين ألف روبل لا تساويه ؟

فدعهم جانبا يقول :

- ليس هذا هو الأمر • ولكن قل بالناسبة ، فأنا أحرص على أن أعرف رأيك : هل هذا « التعذيب » تساويه خمسة وسبعون ألف روبل أم لا تساويه ؟

- أعتقد أنها لا تساويه •

- مفهوم • وعارٌ أن يتزوج الرجل على هذه الشروط •

- عار جداً !

- طيب ... فاعلم اننى سأتزوج مع ذلك ، واعلم أننى الآن أشد ثقة وقيناً مما كنت من قبل • فمذ قليل ، كنت ما أزال متردداً ، أما الآن فقد انتهى الأمر ! لا تقل شيئاً ! أنا أعرف ماذا تريد أن تقول ... لا أريد أن أتكلم عما ظننت أنى سأتكلم عنه • كل ما هنالك اننى مدهوش من ثقتك وقيتك •

- مم ؟ من ثقتى وقيتى ؟

- من ثقتك أولاً بأن ناستاسيا فيليوفا ستزوجك حتماً ، وأن هذا أمر مفروغ منه ؟ ومن ثقتك ثانياً بأن هذه الخمسة وسبعين ألف روبل ستلقى فى جيبك رأساً • أقول هذا رغم أننى أجهل أشياء كثيرة على كل حال •

اقرب جانبا من الأمير بحركة نشيطة • وقال :

- طبعاً ، أنت لا تعرف كل شئ • والا فلماذا كان يمكن أن أقبل احتمال هذا الثقل كله ؟

- يخيّل الىّ أن ذلك يحدث في كثير من الأحيان : يتزوج الرجل طمعاً في مال ، ولكن المرأة هي التي تستولي على المال !
دمدم جانبا يقول واجماً مفكراً قلقاً :

- ل لا ! لن تجرى الأمور هذا المجرى في زواجنا !.. هناك
... ظروف معنية ...

ثم أسرع يضيف :

- أما عن جوابها فلم يبق ثمة أى شك فيه ! ما الذى يدعوك الى افتراض أنها قد ترفضني ؟

- لا أعرف أكثر مما رأيت . وقد قالت باربارا آرداليونوفنا ، هي أيضاً ، منذ قليل ...

- هيه ! هن يقلن هذا الكلام ، لأنهن لم يبق لهن ما يقلنه ! أما روجويين فقد كانت تسخر منه ، تق بهذا . ذلك نبيء ميّزته واضحاً ، ذلك نبيء لا يخفى عن البصر . عانيت منذ قليل لحظة قلق ، لكنني أرى الآن رؤية واضحة . اللهم الا أن يكون حكمك مبنياً على سلوكها مع أمي وأبي وفاريا ؟

- وعلى سلوكها معك .

- هب ملاحظتك صحيحة . ولكن هذا ليس الا روح الانتقام الأبدية لدى النساء . ان ناستاسيا فيليوفنا امرأة سريعة الاحتياج ، شديدة التأذي ، كثيرة الأنانية : لكانها موظف من الموظفين النسيين في كشوف الترقية ! لقد حرصت على أن تثبت لهم قوة شخصيتها ، وعلى أن تظهر لهم احتقارها ... لهم ... ولى أنا أيضاً ، ان شئت . هذا صحيح . لست أنكره ... لكنها ستزوجني مع ذلك . انك لا تستطيع أن تتخيل الألاعيب التي يمكن أن تدفع اليها الكبرياء . ان هذه المرأة تعدني شخصاً جديراً بالاحتقار ،

لأننى على علمى بأنها خلية رجل آخر ، أرى أن أتزوجها فى سبيل
المال صراحةً • ولكنها لا يخطر ببالها أن شخصاً آخر كان يمكن أن
يخدعها بطريقة أحقر وأدنى ، كأن يأخذ يحدتها مريضاً مسهباً عن الأفكار
البرالية والآراء التقدمية وتحرير المرأة وما الى ذلك ، ليجرّها بعد ذلك
من أنفها ! ان فى وسعهم يمثل هذه الأساليب أن يقنع هذه المجنونة اقناعاً
سهلاً كل السهولة بأنه لا يختارها الا « لنبل قلبها ، وكثرة معنوها » ، مع
أنه فى حقيقة الأمر لا يفكر الا فى مالها • أما أنا فلا أحظى بالقبول
والرضى ، لأننى أكره المواربة ••• ولكن كان علىّ فى الواقع أن ألتجأ
الى ذلك الأسلوب ! ثم قل لى : ما الذى تفعله هى ؟ ألا تفعل هذا الشيء
نفسه ؟ فلماذا اذن تحقرنى ، وتمثّل هذا التمثيل كله ؟ السبب بسيط :
هو أنتى أرفض أن أروضح ، وأظهر العزة والكبرياء أنا أيضاً ! على كل
حال ، سوف نرى •••

– أتراك أحيتها من قبل ؟

– نعم ، فى بداية الأمر • ولكن كفى ! هناك نساء لا يصلحن لأن
يُتخذن الا خيليات • لا أدعى بهذا القول أنها كانت خليلتى • فاذا
رضيت أن تكون عاقلة وأن تعيش هادئة ، رضيتُ بذلك أنا أيضاً ، أما اذا
أخذت تسمرد وتثور ، فسرعان ما سأتركها فاراً بالمال • لا أريد أن أكون
أضحوكة ، ذلك أهم شيء عندي !

قال الأمير بحذر :

– يخيّل الىّ أن ناستاسيا فيليوفنا ذكية ، فكيف تقع فى الفخ اذا
كانت توجس هذا الشقاء كله سلفاً ؟ فى وسعها أن تتزوج رجلاً آخر •
ذلك ما يثير دهشتى •••

– هنا يكمن الحساب كله ! انك لا تعرف كل شيء يا أمير •• ان

ههنا .. ثم انها مقتتة على كل حال بأننى أحبها حباً يبلغ الجنون .. أؤكد لك ذلك ... وأغلب الظن عندى أنها هى أيضاً تحبنى على طريقتها ، فكما يقول المثل : « من يحب حباً قوياً يعاقب عقاباً شديداً » . طوال حياتها ستظل تعدنى أسيراً تعذبّه (ولعل ذلك هو ما تحتاج اليه) ، مع حبها اياى على طريقتها فى الوقت نفسه . انها تهىء نفسها لهذا ، فذلك هو طبعها . انها امرأة روسية الى أقصى حد ، أؤكد لك هذا . أما أنا فأننى أخبىء لها أيضاً مفاجأة . ان ما حدث بينى وبين فاريا منذ قليل كان طارئاً عرضياً ، لكنه يفيدنى : لقد استطاعت أن تتأكد من تعلقى بها ، ومن أننى سأقطع جميع الصلات فى سبيلها . هانت ذا ترى أننى أنا أيضاً لست غيباً الى ذلك الحد . لا شك أنك تجدنى كثير الثثرة . جائز جداً يا أمير أننى أخطئ اذ أفضى اليك بهذه المسارآت كلها . ولكنى ما هججت عليك هذا الهجوم الا لأنك أول انسان نبيل ألقاه فى حياتى ! لا تأخذ كلمة «الهجوم» هذه بمعنيين : لست حاقداً علىّ لما حدث منذ قليل ، أليس كذلك؟ لعل هذه أول مرة أتكلم فيها مفتوح القلب منذ سنتين . الشرفاء هنا قليل : أشرفهم بتسين . ولكن يخيّل الىّ أنك تضحك ؟ ألا تضحك ؟ ان الأوباش يحبون الشرفاء كثيراً . ألم تكن تعرف هذه الحقيقة ؟ واذ اننى ... ولكن قل لى حقاً : فيم أنا وبشّ ؟ هلاً قلت لى هذا صريحاً صادقاً ! لماذا يقلدونها جميعاً فيعدونى وبشاً ؟ تصوّر فوق ذلك اننى حين أسمع كلامها وأسمع كلامهم آخذ أعدى نفسى وبشاً مثلما يعدوننى كذلك ! ذلك هو الصغار وتلك هى الحقارة فى الواقع !

قال الأمير :

— أما أنا فلن أعدك بعد اليوم وبشاً . الحق أننى منذ قليل كنت على وشك أن أعدك وغداً بالفعل . ولكنك أفرحتنى الآن كثيراً ! هذا درس سأنتفع به فى المستقبل ، وهو ألا أحكم على الناس قبل أن تكون لى خبرة

بهم • أنا الآن أرى أنك لست وغداً ، بل أذهب الى أبعد من ذلك فأقول
انك لست حتى رجلاً فاسداً • فى رأى انك انسان عادى جداً ، ربما على
شئ من ضعف الارادة وقلة الأصالة •

ابتسم جانبا ابتسامة مريرة ، ولكنه لزم الصمت • ولاحظ الأمير أن
رأيه لم يحظ برضى جانبا • فخبجل من ذلك كثيراً ، وصمت هو أيضاً •
سأله جانبا فجأة :

— هل طلب منك أبى مالا ؟

— لا •

— سيطلب ، فلا تعطه • أما أنه كان انساناً لائقاً جداً ، فهذا أمر
أتذكره كل التذكر • لقد كان يُستقبل فى أرقى مجتمع • ما أسرع
ما يترددون ويسقطون ، هؤلاء الناس اللاتقون جميعاً ! أمر غريب !
يكفى أيسر تغير فى ظروف حياتهم حتى يهتروا الى الدرك الأسفل ،
ثم لا يبقى منهم شئ • فكأنهم يارود اشتعل فاستحال كله دخاناً !
أوكد لك أنه كان فى الماضى لا يكذب أبداً كما يكذب الآن ! كل ما هنالك
أنه كان شديد التحمس ، فانظر كيف صار الآن ! هذا ذنب الشراب
طبعاً • هل تعلم أنه يعمل خليفة ؟ ثم انه الآن ليس كذاباً بغير أذى • انتى
لا أفهم كيف تصبر عليه ماما هذا الصبر كله ، وكيف تتسامح معه هذا
التسامح كله ! هل روى لك قصة حصار « كارس » ؟ أو قصة حصانه
الأبلق الذى طفق يتكلم ؟ انه يصل الى هذا الحد أحياناً •

قال جانبا ذلك وانفجر يضحك ضحكاً مجلجلاً • ثم سأل الأمير :

— ما بالك تنظر الى هكذا ؟

— أدهشنى ما فى هذا الضحك من صراحة وصدق • أرى أنك
ما تزال قادراً على أن تضحك كما يضحك طفل • ومنذ قليل ، حين دخلت

لتصالحي ، سألتني : « هل تريد أن أقبل يدك ؟ » • هذا بعينه هو ما يفعله طفل حين يستغفر من ذنب • ما زلت قادراً اذن على هذا النوع من الكلام الطيب والاندفاع الصادق ! فما بالك تنساق هذا الاسياق في تلك القصة المشبوهة ، قصة الخمسة وسبعين ألف روبل • حقاً ان ذلك ليدو لي مستحيلاً لا يصدق •

– فما هي النتيجة التي تستخرجها من هذا كله ؟

– انني أَسْأَلُ أَلَسْتُ تسرع في سلوكك كثيراً ؟ أليس الأفضل أن تفكر أولاً ؟ قد تكون باربارا آرداليونوفنا على حق •••
قاطعها جانيا قائلاً :

– ها ••• درس في الأخلاق ! ••• أما أنتي ما زلت صبيّاً صغيراً فذلك أمر أعرفه أنا نفسي • وأكبر دليل على ذلك أنني أثرت معك مثل هذا الحديث •

وتابع جانيا حديثه فاضحاً نفسه كفتي جُرحت كبرياؤه :

– لكنني لا أَرْضَى هذا الزواج بدافع الحساب وحده يا أمير • والا لكان من الممكن أن تخطيء حساباتي ، فما زلت لا أملك لهذا الأمر كل عدته من دماغ قوى وعزيمة صلبة • وانما أنا أقبل هذا الزواج مدفوعاً بهوى عفيف جامع ، وميلٍ عارم لا يغالب ، لأن لي هدفاً رئيسياً • لعلك تظن أنني متى قبضت هذه الخمسة وسبعين ألف روبل ، فسأشتري لنفسى مركبة فخمة • فاعلم اذن أن الأمر ليس كذلك • لسوف آخذ عندئذ في ابلاء ستره عتيقة عمرها ثلاث سنين ، ولسوف أعدل عندئذ عن جميع علاقاتي بالمتدنى • ما أقل القادرين في بلادنا على المضى في طريقهم قدماً لا يحيدون عنه ، وان تكن نفوسهم جميعاً نفوس مرايين ! أما أنا فسأصمد وسأتابع السير الى النهاية • فانما المهم أن يسير المرء الى النهاية • تلك هي

المشكلة ! كان بتسين ، فى السابعة عشرة من عمره ، بيت فى الشارع ويبيع سكاكين • بدأ كفاحه ببضعة كوبكات • وهو يملك الآن ستين ألف روبل • ولكن ما أفسى الجهود التى بذلها والمصاعب التى قاساها فى سبيل ذلك ! أما أنا فأستطيع أن أتخطى جميع تلك المصاعب فأبدأ برأس مال كبير على الفور • فما ان تمض خمس عشرة سنة حتى يشير الى الناس بالبشاشين قائلين : « هذا ايفولجين ، ملك اليهود ! » • أنت تصفنى بأننى خال من الأصالة • فاعلم يا عزيزى الأمير أن أكبر اهانة يمكن أن تلحقها بإنسان فى عصرنا ومن جنسنا هى أن نتعته بأنه محروم من الأصالة والارادة والمواهب الخاصة ، وأن تقول عنه انه رجل عادى • انك لم ترض حتى أن تمدنى وبشاً ذا قيمة ؟ وانى لأعترف لك بأننى أوشكت منذ قليل أن التهمك التهاماً بسبب ما قلته فى حقى ! لقد آلمتنى أكثر مما آلمنى ايباتشين ذاك الذى يظن أننى لن أنورع عن أن أبيع امرأتى (لم يصرح بهذا ، ولكنه يضمره ، وهذه سذاجة منه ، فانه لم يحاول حتى أن يسبر ما بنفسى) • هذا كله يثيرنى منذ مدة طويلة يا صديقى ، وذلك هو السبب فى اتنى محتاج الى مال • فمتى حصلت على المال ، أصبحت على جانب كبير من الأصالة ، تق بهذا ! من هذه الناحية خاصة انما يجب أن بوصف المال بأنه حقير وبقيض ، لأنه يضيف على صاحبه حتى الموهبة ! وسيستمر الحال على هذا المنوال الى نهاية العالم • قد تقول لى ان هذا الكلام كله صياني ، أو قد تقول لى انه كله شعر • لا ضير ••• ليزدد الأمر بذلك سخفاً ، ولكنه سيتحقق • سأسير الى نهاية الشوط ، وسأصمد • صدق التل : « يضحك جيداً من يضحك آخرأ » • لماذا يعاملنى ايباتشين هذه المعاملة ؟ أعن خبت وشر ؟ لا ••• وانما هو يعاملنى هذه المعاملة لأننى شخص يمكن اهماله تماماً ، فليس له قيمة أو وزن • أما حين أصبح ••• على كل حال ، كفى الآن كلاماً • لقد أزف الوقت ••• ثم ان

كوليا قد أطلَّ بأنفه مرتين ، ربما ليناديك الى الغداء • أما أنا فأخرج ••
سأتي اليك أحياناً • لن تتضايق كثيراً عندنا ، فلسوف يتبنونك الآن
جميعاً ! حذار أن تفضحنى • يخيل الى أننا لا نستطيع أن نكون الا
أصدقاء أو أعداء • قل لى يا أمير : لو أنتى قبَلت يدك منذ قليل (كما
اقترحتُ ذلك صادقاً) أكنت أصبح بعد ذلك عدوَّك لهذا السبب ؟

قال الأمير وهو يضحك بعد لحظة من تفكير :

— حتماً ! ولكن لا الى الأبد ، بل الى حين ، فانك ما كنت لتستطيع
أن تصمد طويلاً ، فلا بد أن تغفر لى أخيراً •

قال جانبا :

— هيه ••• هيه ••• أرى أن على المرء أن يكون حذراً كل الحذر
معه • انك حتى فى هذا الجواب قد استطعت أن تدسَّ شيئاً من سم • من
يدرى ! لعلك عدو ! بالنسبة : ها ها ها ••• لقد نسيت : خيل الى
منذ قليل أن ناستاسيا فيليوفا أعجبتك كثيراً ، هل هذا صحيح ؟

— نعم ، تعجبني !

— أأنت مغرم بها ؟

— لا ••• لا !

— ومع ذلك احمرَّ لونك ، وظهر العذاب فى وجهك • طيب ليس
هذا بشئ • لن أسخر منك • الى اللقاء • هل تعلم أنها امرأة متمسكة
بالفضيلة ؟ هل تستطيع أن تصدِّق ذلك ؟ لعلك تظن أنها خلية
الآخر ، توتسكى ؟ أخطأ اذن ظنك ! ما هى خليلته ، وذلك منذ زمن
طويل ! هل لاحظت خرافتها وخجلها فى بعض اللحظات ؟ تلك هى
الحقيقة • ان أصحاب أمثال هذه الطباع هم الذين يجبون أن يسيطروا •
طيب • استودعك الله !

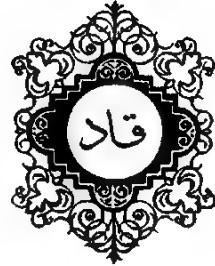
انسحب جانبا بكثير من اليسر والطلاقة والسهولة ، فكان عند
خروجه أحسن حالا وأصفى مزاجاً منه عند دخوله •
أما الأمير فقد لبث جامداً نحو عشر دقائق ، لا يتحرك •
وأطل كوليا برأسه من الباب من جديد • فقال له الأمير :
- لن أتحدى يا كوليا ، فقد أفطرت عند آل ايباتشين منذ قليل
فأصبحت حظاً كبيراً من الطعام •

فدخل كوليا ، ومدَّ الى الأمير رسالة • انها ورقة مطوية مهمورة
بتوقيع الجنرال • يستطيع من ينظر الى كوليا أن يقرأ في وجهه مدى الألم
الذي يشعر به وهو يتناول الأمير الرسالة • وقرأ الأمير الرسالة ، فهض
وتناول قبعته •
قال كوليا خجلان مضطرباً :

- ليس المكان بعيداً ، هو على مسافة خطوتين من هنا • بابا جالس
الى مائدة أمام زجاجة • انى لأتساءل كيف استطاع أن يقنهم بأن يسقوه
دينياً • أرجوك يا عزيزى الأمير ألا تذكر لأحد انى نقلت اليك هذه
الرسالة • لقد حلفت ألف مرة ألا أعود الى فعل هذا أبداً ، ولكننى أشعر
بشفقة عليه • ثم أرجوك أن لا تصانعه وتجاهله ؛ اعطه بضعة نقود
واكتف بهذا !

- كنت أنوى أنا نفسى يا كوليا أن ... انى فى حاجة الى أن أرى
أباك ... لسبب ما ... هيا بنا ! ...

الفصل الثاني عشر



كوليا الأمير الى « مقهى - بلياردو » قريب من المنزل ، قبل شارع ليتاينايا ، يقع في قبو على الطريق . فالى اليمين ، فى حجرة صغيرة خاصة ، كان آرداليون ألكسندروفتش جالساً الى مائدة كما يجلس زبون قديم ، وقد وُضعت أمامه زجاجة ، وكان يقرأ جريدة « الاستقلال البلجيكي » فعلاً . كان ينتظر الأمير . فما ان أبصره حتى ترك جريدته وشرع يفيض فى شرح طويل حار لم يفهم الأمير منه شيئاً كثيراً على كل حال ، لأن الجنرال كان فى الواقع قد نمل . وقاطعه الأمير يقول :

- ليس معى ورقة عشرة روبلات ، ولكن اليك ورقة خمسة وعشرين روبلاً ، فبدّلها ورُدَّ الىَّ خمسة عشر روبلاً ، والا بقيت بغير كوبك واحد !

- آ ... طبعاً ... طبعاً .. تأكد أن هذا سيتم فوراً .. فوراً ! ..
- ثم ان هناك شيئاً أريد أن أسألك عنه يا جنرال : ألم تزر ناستاسيا فيليوفا فى يوم من الأيام ؟

صاح الجنرال يقول فى نوبة اختيال وغطرسة وسخريه :
- أنا ؟ لم أزرها فى يوم من الأيام ؟ أسألتى أنا هذا السؤال ؟ مراراً

يا عزيزى مراراً !... لكننى انقطعت عن زيارتها آخر الأمر حتى لا يكون فى ذهابى إليها تشجيع على مصاهرة غير لائقة . لقد رأيت بمينيك وكنت شاهداً على ما حدث منذ قليل : انى فعلت كل ما يستطيع أن يفعله أب لئلا يتسامح . لكن أباً من نوع آخر سيدخل المشهد بعد الآن ، ولسوف نرى عندئذ : هل المحارب القديم المظفر هو الذى سيتصر على المؤامرة ويجبطها ، أم أن « غادة كاميليا » وقحة هى التى ستستطيع أن تدخل أسرة نبيلة كريمة المحتد !

— انما أردت أن أسألك ألا تستطيع ، بصفتك من رواد منزلها ، أن تدخلنى هذا المساء الى بيت ناستاسيا فيليوفا ؟ ولا غنى لى عن أن يتم هذا فى المساء نفسه . أنا فى حاجة الى أن أراها ، لكننى لا أعرف كيف أدخل عليها . صحيح أنتى قدّمت إليها منذ قليل ، ولكننى غير مدعو . هى تقيم فى هذه الليلة حفلة . على اننى مستعد أن أخالف بعض الأصول، ولو تعرضت لأن أكون أضحوكة ، فى سبيل أن أدخل إليها بطريقة أو بأخرى .

هتف الجنرال يقول بحماسة :

— ذلك يطابق فكرتى كل المطابقة يا صديقى الشاب .

ثم أردف يقول وهو يأخذ المال ويضعه فى جيبه :

— أنا لم أزعجك بالمجيء الى هنا من أجل هذا الأمر التافه (يقصد المال) ، وانما استدعيتك لاقتراح عليك أن تصحبني فى هجوم على ناستاسيا فيليوفا ! الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين ! ما أقوى الوقع الذى سيحدثه هذا التحالف فى نفسها ! سأظهر بأننى أزورها مهتماً بعيد ميلادها ، فأعرف عندئذ كيف أقض اإرادتى أخيراً ، لا بطريقة مباشرة ، بل بطريقة غير مباشرة ، ولكن الأمران واحد . وسيعرف جانبا عندئذ ما الذى يجب عليه أن يعمل : فاما أن يختار أباً أحق بالاعتبار وأجدر بالاحترام واما ...

ان صح التعبير ... الى آخره ... ولكن ما يكون ! ان فكرتك خصبة جداً • ستتحرك فى الساعة التاسعة ، ما يزال فى الوقت متسع •

— أين تقيم ناستاسيا فيليوفا ؟

— فى مكان بعيد عن هنا ، قرب « المسرح الكبير » ، فى عمارة ميتوفتسوف ، المطلة على الميدان تقريباً ، بالطابق الأول ... ولن يكون عندها ناس كثير ، رغم أن الليلة عيد ميلادها ، وستتفرق الحفل فى ساعة مبكرة •

تقدم المساء كثيراً ، وما يزال الأمير جالساً يصغى الى الجنرال وينتظره ، والجنرال ما ينفك يشرع فى سرد حكايات جديدة لا ينهى أية واحدة منها • كان ، حين وصل الأمير ، قد أمر بزجاجة جديدة لم ينته من شربها الا بعد ساعة • • ثم طلب زجاجة أخرى ، فكان مصيرها مصير سابقتها • ومن حقنا أن نفترض أن الجنرال قد اتسع وقته لأن يقص على الأمير سيرة حياته كلها تقريباً • ونهض الأمير أخيراً ، وأعلن أنه لا يستطيع أن ينتظر أكثر مما انتظر ... فسكب الجنرال لنفسه آخر قطرات الزجاجة ، ونهض متجهاً نحو باب الخروج مترنح الحطو بعض الترنح • كان الأمير فى حالة كرب شديد ، وكمد قوى • لم يستطيع أن أن يشرح لنفسه كيف أمكنه أن يعتمد على الجنرال وأن يركن اليه بمثل هذه الغباوة وهذه البلاهة • والحق أنه لم يكن قد اعتمد عليه أو ركن اليه قط ، وانما هو عوّل عليه ليستطيع الدخول الى بيت ناستاسيا فيليوفا ، ولو دفع ثمن ذلك فضيحة صغيرة • غير أنه لم يتصور أن تقع فضيحة ضخمة •

كان الجنرال قد أخذ منه السكر كل مأخذ ، فانطلق لسانه فصيحاً فصاحةً متدفقة لا ينضب معينها ، فهو لا ينفك يتكلم بغير انقطاع أو مهادنة ، وهو لا ينى يتحدث بانفعال وقد « امتلأ قلبه دموعاً » • وكان مدار

حديثه على ما أصاب أسرته من انهيار ودمار نتيجة لسوء سلوك أفرادها ، وعلى أنه قد آن الأوان لأن يضع لهذا التدهور حداً آخر الأمر .

ووصل الرجلان الى شارع ليتانيا . ما يزال الثلج ينوب . وهذه ريح باردة رطبة عفنة تصفر في خلال الشوارع . العربات تهدر في الوحل ، والحيلول المترفة والأفراس الحسيسة تضرب الأرض بحوافرها المنمّلة . والمشاة يطوّفون على طول الأرصفة جمهوراً مبتلاً بالماء ، بينه سكارى .
قال الجنرال :

— هل ترى الطوابق الأولى المضيئة من هذه المباني ؟ انها جميعاً يسكنها رفاقي القدامى ، وأنا ... أنا الذي خدمت أكثر منهم وتأملت أكثر منهم ، أمشي على قدمي في اتجاه « المسرح الكبير » ، الى بيت امرأة سيئة السمعة مشبوهة الأخلاق ! رجل في صدره ثلاث عشرة رصاصة ... ألا تصدقني ؟ ومع ذلك فمن أجلى وحدي انما ارسل بيروجوف * برقية الى باريس ، وترك سياستوبول المحاصرة الى حين ، ثم حصل نيلاتون ، كبير أطباء البلاط بباريس ، باسم العلم ، اذنأ بالمرور الى سياستوبول المحاصرة ليفحصني . وكانت القيادة العليا على علم بما حدث . « آه ان ايفولجين هو الذي أصيب بثلاث عشرة رصاصة ! » كذلك كانوا يتحدثون عني . هل ترى ، يا أمير ، ذلك المنزل ، هناك ؟ في ذلك الطابق الأول يسكن رفيقي القديم الجنرال سوكولوفتش مع ذريته النبيلة المحدث ، الغيرة العدد . ان ذلك المنزل ، وثلاثة منازل أخرى في شارع نفسكي ومنزلين آخرين بشارع مورسكايا ، هي الآن كل حلقة علاقتي ، أقصد علاقتي الشخصية . لقد أذعنت نينا ألكسندروفنا للظروف منذ مدة طويلة . أما أنا فما أزال أتذكر ... بل أتجراً فأقول ما أزال أذوق بعض الراحة في صحبة رفاقي القدامى ومرموسى الذين ما يزالون يعبدونني عبادة ان صح التعبير . ذلك الجنرال سوكولوفتش مثلاً ... على اتني منذ

مدة طويلة لم أزره ولا رأيت أنا فيدوروفنا ... أنت تعلم يا أمير : حين يصبح المرء عاجزاً عن استقبال أحد في بيته ، فانه يُضطر أخيراً الى الانقطاع عن زيارة الآخرين ... ومع ذلك ... هم ! ... يخيّل الى أنك لا تصدقني ... ولكن ، بالمناسبة ، لماذا لا أدخل على هذه الأسرة اللطيفة ابن خير اصدقاء طفولتي ؟ الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين ! سوف ترى هنالك فتاة رائعة ، ماذا ! بل فتاتين ، بل ثلاث فتيات ، هن زينة المجتمع وزينة عاصمتنا : جمال ، ثقافة ، فكر .. قضية المرأة ، قصائد ، ذلك كله ستراه هناك وقد انصهر في تنوع موفق منسجم ! ناهيك عن أن كل واحدة منهن تملك مهراً مقداره ثمانون ألف روبل عدأً وتقداً ، على الأقل ، وهذا لا يفسد شيئاً بطبيعة الحال ، رغم جميع قضايا المرأة والقضايا الاجتماعية ... الخلاصة : يجب علىّ حتماً أن أدخلك الى هذه الأسرة ، يجب علىّ ذلك حتماً ، هذا واجب يقع على عاتقي ! الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين ! تصور وقع ذلك في النفوس !

قال الأمير يسأله :

ـ الآن ؟ حالا ؟ فهل نسيت اذن أن ...

ـ لم أنس شيئاً البتة ! ادخل من هنا ! اصعد هذا السلم الرائع ! يدهشني أن السويسري غائب . ولكن هذا اليوم عطلة ، والسويسري يغيب في يوم العطلة . لم يطردوا ذلك السكّير حتى الآن . ان سوكولوفتش هذا مدين لي بكل سعادة حياته ، وبكل نجاحه وارتقائه في عمله ، مدين بذلك لي وحدي دون غيره . ولكن ... ها نحن وصلنا .

كفّ الأمير عن الاعتراض على هذه الزيارة ، فكان يتبع صاحبه طامعاً حتى لا يثير حنقه ، وهو يأمل أن يتبدد الجنرال سوكولوفتش وأسرته كلها رويداً رويداً كما يتبدد سراب ، وأن يتضح أن هذا الجنرال لم يوجد

فى يوم من الأيام ، فبعودا يهبطان السلم بهدوء وأمان وسلام • فما كان أشد ذعر الأمير حين أخذ يفقد ذلك الأمل : ذلك أن الجنرال كان يقوده على السلم قيادة رجل واثق بأنه سيجد أصدقاءه ، وهو ما ينفك يذكر للأمير مزيداً من التفاصيل عن سيرة حياتهم وأوصاف أشخاصهم بوضوح شديد ودقة رياضية • حتى اذا بلغنا « الطابق الأول » ، توقفاً بمنتهى ، أمام باب شقة غنية ، فأمسك الجنرال قبضة الجرس ، فهمّ الأمير أن يهرب ، ولكن ظرفاً خاصاً أوقفه عن الهرب لحظة • قال الأمير :

— لقد أخطأت يا جنرال ، فأننى أرى على الباب صفيحةً كتب عليها اسم كولاكوف ، وأنت تريد أن تفرع جرس سوكولوفتش •
قال الجنرال :

— كولاكوف ••• كولاكوف لا يدل على شئ • البيت بيت سوكولوفتش ، وأنا أفرع جرس بيت سوكولوفتش • لا يهمنى كولاكوف ولا أعاباً به ولا اكتر له ••• ثم ها هم يفتحون الباب •
فتُفتح الباب فعلاً ، وظهر خادم أعلن أن « سادته قد خرجوا » •
أخذ آرداليون ألكسندروفتش يكرر بصوت فيه حزن عميق :
— خسارة ، خسارة حقاً أن يخرجوا فى هذا اليوم بعينه !
ثم قال يخاطب الخادم :

— قل لهم اذن يا صاحبي ان الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين قد قد جاءا يؤكدان لهم احترامهما ، ويعبران لهم عن شديد أسفهما •••
وفى تلك اللحظة ، ظهر وراء الباب المقسوح شخص آخر لعله الناطرة أو المربية • انها سيدة فى نحو الأربعين من العمر ، ترتدى ثوباً قائم اللون ، اقتربت مستطلعةً محاذرة ، حين سمعت اسمى الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين •

قالت وهى تتفرس فى الجنرال باتباه :

- ان ماريا ألكسندروفنا ليست فى البيت • لقد ذهبت مع الأسه
ألكسندرا ميخائيلوفنا الى منزل جدتها •

- ألكسندرا ميخائيلوفنا أيضاً ؟ يا لسوء الحظ • أرجوك أن تفضل
فتنقل الى ألكسندرا ميخائيلوفنا تحيتى واحترامى ، آملاً أن تتذكرنى ••
الخلاصة : أبلغها أننى أرجو لها من كل قلبى أن تتحقق تمنياتها التى
أعربت عنها مساء يوم الخميس أثناء سماعها موسيقا شوبان • سوف تتذكر
••• انقلى اليها أخلص مودتى وأصدق أمانىَّ ! الجنرال ايفولجين والأمير
ميشكين !

قالت السيدة وقد اطمأنت :

- لن أنسى أن أنقل اليها ذلك !

وبينما كانا يهبطان السلم استمر الجنرال يعبر بحماسة لم تقتر عن
أسفه وحزنه لأنه لم يجد أحداً فى المنزل ، فحرم الأمير بذلك من عقد
صلة جميلة رائعة •

- هل تعلم يا عزيزى ؟ اننى لأكاد أكون شاعراً ؟ هل لاحظت ذلك؟

نم ختم كلامه بقول فجأةً على نحو لا يمكن توقمه :

- ولكن ••• ولكن يخيّل الىّ أننا أخطأنا تماماً • لقد تذكرت الآن
أن آل سوكولوفتش يسكنون فى عمارة أخرى ، وأعتقد أنهم الآن
بوسكو • نعم ، لقد أخطأت بعض الخطأ ، ولكن ••• لا قيمة لهذا !

قال الأمير مبهوراً :

- أودّ أن أعرف شيئاً واحداً • هل يجب أن أعدل عدولاً تاماً عن
الاعتماد عليك ؟ أليس الأفضل أن أذهب اليها وحدى ؟

- تعدل ؟ تعتمد ؟ وحدك ؟ ولكن لماذا ؟ لماذا والامر عندى امر رئيسى تتوقف عليه أشياء كثيرة ، ويرتبط به مصير أسرتى ؟ لا يا صديقى ! انك لا تعرف ايفولجين حق معرفته . من قال « ايفولجين » فقد قال « صخرة » . « اعتمد على ايفولجين اعتمادك على صخرة » . ذلك ما كان يُقال عنى منذ أن كنت فى فصيلة الفرسان أول عهدى بالجيش . وانما ينبغى لى ، قبل أن نذهب الى هناك ، أن أمر مروراً عابراً بمنزل ألفت منذ بضع سنين أن أريح فيه نفسى قليلاً بعد الشدائد والمحن ...

- أتريد أن تمر اذن بمنزلك ؟

- لا بل أريد أن أذهب الى الكابيتنة تيرتيف ، الى أرملة الكابتن تيرتيف ، مرموسى القديم ... بل وصديقى ... فعند الكابيتنة انما تتبعث نفسى ، وهناك انما أرمى نوائبى وأحزاني العائليه .. واذ كنت أجد نفسى اليوم أرزح تحت وطأة عبء روحى ثقيل ، فانى ...

دمدم الأمير يقول :

- أظن اننى قد ارتكبت حماقة كبرى حين أزعجتك ... ثم انك الآن ... استودعك الله !

صاح الجنرال يقول :

- مستحيل ، لا يمكننى أن أدعك تمضى هكذا يا صديقى الشاب ! هى أرملة ، هى ربة أسرة تعرف كيف تجد فى نفسها أوتاراً تهز كيانى كله ! لن تطول زيارتى لها أكثر من خمس دقائق . أنا أُستقبل فى هذا البيت بغير كلفة أو حرج ، حتى لكأنتى فى بيتى . سأرتاح بعض الراحة ، وسأرتب زيتى قليلاً ، ثم نمضى بعربة الى ميدان « المسرح الكبير » . نق بأننى فى حاجة اليك طوال السهرة . انظر . هذا هو المنزل . لقد وصلنا . آه ... كولين ... أوصلت منذ الآن ؟ هل مارتا بوريسوفنا هنا ، أم أنت وصلت فى هذه اللحظة ؟

أجاب كوليا وقد اصطدم بهما عند باب الفناء :
- أوه ! لا ! أنا هنا منذ مدة طويلة ، عند هيووليت • لقد ساءت
صحته مزيداً من السوء ، واضطر أن يرقد في الفراش هذا الصباح •
كنت قد نزلت لأشتري أوراق لعب •
واذ لاحظ كوليا حالة أبيه ، صاح يقول وهو يتفحص وضعه
ومشيته :

- ولكن ما هذا يا بابا ! الله الله ! الخلاصة ... هلمّ نصعد !
ان لقاء كوليا هذا دفع الأمير الى أن يتبع الجنرال في دخوله الى بيت
مارتا بوريسوفنا ، على ألا يمكث هنالك الا دقيقة واحدة • لقد كان الأمير
في حاجة الى كوليا • أما عن الجنرال فقد قرر الأمير أن يتركه على كل
حال ، وأصبح لا يفكر لنفسه أنه فكّر في الاعتماد عليه • وطال الصعود
حتى الطابق الثالث على سلم الخدمة •
سأل كوليا أباه أثناء صعود السلم :
- هل تنوى أن تعرّف بالأمير ؟

- نعم يا عزيزي ، سوف أعرفّ به : الجنرال ايفولجين والأمير
ميشكين ... ولكن ... كيف ... هي مارتا بوريسوفنا ؟
- هل تعلم يا بابا ؟ الأفضل ألا تذهب اليها • لسوف تلتهمك التهاماً !
انقضت على غيابك ثلاثة أيام ، وهي تنتظر أن تحمل اليها مالا • لماذا
وعدتنا بذلك ؟ هكذا أنت دائماً ، دبّر أمرك الآن !
وقفوا في الطابق الثالث أمام باب واطي • كان الجنرال قد خارت
عزيمته وبارحته شجاعته ، فهو يدفع الأمير الى أمام ، محتسباً به • دمدم
يقول له :

- أنا سأبقى وراءك • أحب أن أٌحدث لها مفاجأة !

دخل كولين أول الداخلين • وظهرت على الباب سيدة مثقلة الوجه بالخصاب ، ترتدى نعلين بالين وقميصاً فضفاضاً ، قد ضفرت شعرها غداً صغيرة ، وهي فى نحو الأربعين من العمر ، فما ان ظهرت حتى انعدمت المفاجأة التى أرادها الجنرال انعداماً • فانها ما كادت تلمحه حتى طفقت تشتم وتلعن قائلة :

— هذا هو ! هذا هو الوغد النجس الوقح ! قلبى حدثنى بأنه آتٍ • •
تمتم الجنرال قائلاً وهو يصطنع ابتسامة بريئة :
— فلندخل ، لا قيمة لهذا !

ولكن هذا لم يكن غير ذى قيمة • فما ان قطعوا حجرة المدخل المظلمة الواطىء سقفها ، فصاروا فى غرفة ضيقة أثنائها نصف دسته من كراسى القش ، ومائدتان للعب ، حتى استأنفت ربة البيت بكاءها تقول بلهجة دامعة مدروسة يبدو أنها مألوفة لها معهودة فيها :

— ألا تخجل أيها الهمجى ، أيها الطاغية المستبد الذى يسوم أسرته صوء العذاب ، أيها الشرير الزنديق الكافر ؟ لقد نهبتى ومصصت دمي ، أفلا يكفيك هذا ؟ الى متى أظل أتحملك ، يا رجلاً بلا حياة ولا شرف ؟
جمعهم الجنرال يقول مرتعشاً مختاراً مفلول السلاح :

— مارتا بوريسوفنا ، مارتا بوريسوفنا ! هذا • • • هذا هو الأمير ميشكين • الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين !
قالت الكاتبة فجأة تخاطب الأمير :

— هل تصدقنى اذا قلت لك ان هذا الرجل الوقح لم يرحم أولادى اليتامى ، لم يرأف بهم ، لم يشفق عليهم ؟ لقد سلب كل شئ ، أخذ كل شئ ، باعه أو رهنه ، ولم يترك لى شيئاً • ما عساي صانعةً بايصالات الدين هذه كلها أيها المحتال الماكر الذى لا ضمير له ؟ أجبني أيها الوغد ، أجبني

أيها الجشع الذي لا يشبع : بم أطمع أولادى اليتامى ؟ هكذا يجيء دائماً :
سكران حتى لكأنه ميت من فرط السكر ، عاجزاً عن الوقوف على ساقية !
ماذا فعلتُ أنا حتى استحققت غضب الله ، أيها اللص الدنيا السافل !
أجبنى !

ولكن الجنرال كان عاجزاً عن الصمود أمام العاصفة . قال :

- مارتا بوريسوفنا ، خذى ... هذه خمسة وعشرون روبلاً ...
هى كل ما أستطيعه الآن بفضل صديقى النبيل جداً ! يا أمير ! لقد أخطأ
ظنى خطأ قاسياً ! هذه هى الحياة ...

ثم ثأناً يقول بمشقة ، واقفاً فى وسط الغرفة ، مترنحاً الى جميع
الجهات :

- ولكن ... اعذرني الآن ... اننى أشعر بضعف ... أرجو أن
تعذرني ! لينوتشكا ، عزيزتى ... الى بوسادة !

أسرعت لينوتشكا * ، وهى صبية فى الثامنة من عمرها ، فجاءت
بوسادة وضعتها على الديوان المتهرى القاسى المنجّد بقماش مشمّع .
فجلس الجنرال ، وكان واضحاً أن هناك أشياء كثيرة ما يزال يريد أن يقولها .
لكنه ما إن مس الديوان حتى مال الى جانب والتفت نحو الحائط ونام نوماً
عميقاً . وحركة فيها كثير من الاحتفال والتألم أشارت مارتا بوريسوفنا
للأمير الى كرسي قرب مائدة اللعب ، فجلس الأمير عليه ، وجلست هى
قبالته ، وأسندت خدها الأيمن الى يدها ، وأخذت تنهد وهى تتأمل الأمير
صامتة . واقترب من المائدة ثلاثة أولاد ، بتان وصبى ، كبراهم لينوتشكا ،
فوضعوا أيديهم على المائدة جميعاً ، وأخذوا يلاحظون الأمير باتسباه هم
أيضاً . وظهر كوليأ ، خارجاً من الغرفة المجاورة .
قال له الأمير :

- يسعدنى جداً أنتى وجدتك هنا يا كولييا • فلعلك تستطيع أن تساعدنى • انتى فى حاجة الى أن أذهب الى ناستاسيا فيليوفنا حتماً • وقد طلبت من آرداليون ألكسندروفيتش منذ حين أن يقودنى الى بيتها ، ولكن ها هو ذا قد نام • فهل لك أن تصحبنى الى هناك ، لأننى لا أعرف الشوارع ولا الاتجاه ؟ لكننى أعرف العنوان : ميدان « المسرح الكبير » ، عمارة ميتوفزيفا •

- ناستاسيا فيليوفنا ؟ انها لم تقطن ميدان « المسرح الكبير » فى يوم من الأيام • ثم ان أبى لم يضع قدمه فى بيتها قط ، اذا أردت أن تعرف الحقيقة • غريب أنك ظننت أن فى وسعك أن تعتمد عليه • انها تسكن غير بعيد عن فلادميرسكايا ، بشارع « الأركان الخمسة » • ان بيتها أقرب كثيراً من ميدان « المسرح الكبير » • الساعة الآن هى التاسعة والنصف • وانه ليسرنى أن أقودك الى مسكنها •

وسرعان ما خرج كولييا والأمير • واضطرا أن يمضيا سيرا على الأقدام ، لأن الأمير لم يكن قد بقى معه ما يدفع منه كراء عربة ، مع الأسف !

- كنت أود لو أعرفتك بهيوليت • انه الابن الأكبر لهذه الكاتبة ذات القمص الفضفاض • لقد كان فى الغرفة المجاورة • انه مريض ، وقد ظل راقداً طوال هذا اليوم • لكنه فتى غريب الأطوار • هو سريع التأذى • وقد خيل الى أنه قد يخجل اذا أنت جئت فى مثل هذا الوقت ... أنا أقل شعوراً بالحرج منه • لأن الرجل أبى ، على حين أن المرأة أمه ، ولا عار يلحق بالذكر كالعار الذى يلحق بالأنثى • قد يكون هذا خطأ من الأخطاء التى يرتكبها المجتمع فى أحكامه ، اذ يجعل لأحد الجنسين غلبة على الجنس الآخر • ان هيوليت فتى رائع ، لكنه مستعبد لبعض الآراء الاجتماعية السائدة •

- قلتَ أنه مريض بالسل ؟

- نعم ، وأعتقد أن من الخير له أن يموت بسرعة • لو كنت في مكانه
لتمنيت أن أموت حتماً • انه يرئى لحال أخيه وأخته • لو كان في وسعنا
أن نستأجر شقة مستقلة ، لو كنا نملك مالاً ندفعه أجراً لشقة مستقلة ،
لتركنا أسرنا وعشنا معاً • هذا حلم لنا • هل تعلم انه غضب غضباً شديداً
حين قصصتُ عليه حالتي ؟ هو يزعم أن من الجبن والحقارة أن يتلقى
المرء صفةً ثم لا يدعو خصمه الى مبارزة • يجب أن نذكر أنه في درجة
من الحق كان لا بد لي معها من الانقطاع عن التحدث اليه • اذن دعتك
ناستاسيا فيليوفنا الى بيتها أنت أيضاً على الفور ؟

قال الأمير :

- لا ، لم تدعني •

فصاح كوليلاً قائلاً وهو يقف في وسط الرصيف :

- فكيف تستطيع اذن أن تذهب اليها ؟ لا سيما و ... أنت ...
ترتدى مثل هذا اللباس ، بينما هي تقيم حفلة فخمة ذات أبهة ؟
- حقاً لا أدري كيف سأستطيع أن أدخل • ان استقبكات كان بها ،
والا فلا • أما عن ملابسى ، فليس في يدي حيلة •
- ولكن هناك سبب يدعوك الى الذهاب ؟ أم تراك لا تبغى الا أن
« تقضى بعض الوقت » * في صحبة مجتمع محترم ؟

- لا ... الواقع أن ... أعنى ... هناك سبب يدعوني الى الذهاب
اليها حقاً • يصعب على أن أوضح ما بنفسى ، ولكن ...

- أما ما هو ذلك السبب ، فهذا أمر يخصك أنت ولا شأن لى به •
غير أن الشيء الذى يهمنى هو ألا تدعو نفسك ، بغير سبب ، الى سهرة
تضم هذه النخبة الفتاة من « غادات كاميليا » ، وجنرالات ، ومرايين •

فلولا أن هناك سبباً يدعوك الى الذهاب ، اذن لسخرت منك واحتقرتك يا أمير ! معذرة ! ليس ثمة الا قلة من أناس شرفاء ، ولا يكاد يوجد أحد يستحق الاحترام . ان المرء مضطر أن ينظر اليهم من فوق ، ومع ذلك تراهم جميعاً يطالبون بالاحترام . وفي طبيعتهم فاريا . هل لاحظت يا أمير أن جميع الناس في عصرنا هذا مغامرون ؟ ولا سيما عندنا ، في روسيا ، في وطننا الحبيب ! أما كيف أمكن أن يحدث هذا كله ، فذلك ما لا أفهمه ! لقد كان كل شيء يبدو متين القواعد راسخ الأسس ، والآن ... ان جميع الناس يقولون هذا الكلام ويكتبونه في كل مكان ، ان جميع الناس يتهمون والآباء يتراجعون أول المتراجعين ، ويحمرّون خجلاً من عاداتهم القديمة وأخلاقيهم الماضية . اليك هذا المثال : أبٌ بمدينة موسكو يوصي ابنه بأن « لا يصدّ شيء » في سبيل الحصول على مال * . تحدثوا عن هذا في الجرائد . انظر أيضاً الى أبي الجنرال ! انظر الى أين وصل ! ولكن هل تعلم ؟ يخجل الى أن الجنرال رجل شريف مع ذلك . أحلف لك ! الفوضى والشراب هما وحدهما أفسداه ! الأمر كذلك ،ؤكد لك ! خسارة ! اننى أخاف أن أعلن هذا الرأي ، لأن الجميع يضحكون عليه ويسخرون منه . شيء مؤسف حقاً ! وبماذا يفضل أولئك الأذكى ؟ هم جميعاً مرابون ، جميعاً بغير استثناء ! ان هيوليت لا يؤاخذ المراهين ولا يستكر عملهم . هو يزعم أن الربا ضرورة ، ويتكلم عن ايقاع اقتصادى ، وعن مد وجزر ، وما لا أدري أيضاً ! شيطان يأخذهم ! هذا يضايقنى كثيراً من هيوليت ، ولكن هيوليت حائق ! تصور ان أمه الكابيتنيه تأخذ مالا من الجنرال ، ثم تقرضه من هذا المال نفسه بالربا لأسبوع ! يا للعار ! وهل تعلم أن أمى ، أمى أنا ، أقصد نينا ألكسندروفنا ، الجنرالة ، ترسل الى هيوليت أمتعة ومالا ، بل وتساعد بواسطته اخوته الصغار لأن أهمهم تهملهم ؟ وكذلك تفعل فاريا أيضاً .

— هانت ذا ترى بعينيك اذن يا كوليا ! أنت تزعم أن لم يبق هناك
أناس شرفاء أقوياء ، وأن لم يبق هناك الا مرابون • فما قولك بأهلك
وما قولك بفاريا ؟ أليستا قويتين ؟ أليس دليلاً على قوة الخلق عند الانسان
أن يساعد الناس في مثل هذه الظروف ؟

— ان فاريا تفعل ما تفعله حباً للظهور وميلاً الى التفاخر ، حتى
لا تكون دون أمها • أما أمي ••• فقولك عنها صحيح ••• اننى احترمها ؟
نعم اننى احترمها وأبرر سلوكها • حتى ان هيبوليت نفسه يشعر شعورى ،
رغم أن عواطفه قد قست قسوة تامة • كان فى أول الأمر يسخر من أمي
ويعد ذلك منها صفاراً وحطة ، أما الآن فقد أخذ يتأثر ببعض التأثير أحياناً •
هم ••• أنت تعد ذلك اذن قوة • سأسجل هذا • ان جانيا يجهله • ولو
سئل لوصفه بأنه تشجيع على الرذيلة •

أقلت من الأمير قوله رغم ارادته ، بينما كان غارقاً فى أفكاره :
— ها ••• جانيا يجهله ؟ يخيّل الى أن جانيا يجهل أشياء كثيرة
أخرى !

قال كوليا :

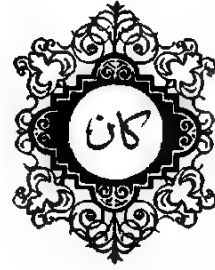
— هل تعرف أنك تعجبني كثيراً يا أمير ؟ ان الحادث الذى وقع منذ
ذلك الحين لا يبارح ذهنى •
— أنت أيضاً تعجبني كثيراً يا كوليا •

— اسمع : على أى نحو تقدّر أن تعيش هنا ؟ أنا سوف أجد لنفسى
عملاً بعد حين ، فأكسب بعض المال ، فاذا عشنا معاً ، أنت وهيبوليت وأنا ،
كان فى وسعنا أن نكترى شقة وأن نستقبل الجنرال فى بيتنا ، فما رأيك ؟
— أقبل ذلك بسرور عظيم • على كل حال سوف نرى فى المستقبل •
أما الآن فأنا مضطرب ••• مضطرب جداً • ماذا ؟ وصلنا ؟ فى هذا المنزل ؟

... ما أفخمه مدخلاً ! حتى أن هناك سويسرياً • طيب !... لا أدري
يا كوليا كيف يمكن أن تجري الأمور •
كان الأمير مضطرباً حائراً ، حقاً !
قال كوليا يشجعه :

– سوف تقص عليّ كل شيء غداً ! لا تدع للوجل سيلاً إلى نفسك •
اسأل الله أن يمدك بعونه ، لأنني أشاركك جميع آرائك • استودعك الله •
أنا عائد إلى هناك ، وسأروي هذا كله لهيوليت • أما أنهم سيستقبلونك ،
فكن من ذلك على يقين ، لا تخش شيئاً ! إنها امرأة غريبة الطبع متفردة !
اصعد هذا السلم • البيت في الطابق الأول • سيدلك عليه السويسري •

الفصل الثالث عشر



الأمير أثناء صعوده السلم يشعر بقلق شديد ، ويحاول أن يستجمع شجاعته بكل ما يملك من قوة . وكان يحدث نفسه قائلاً : « اسوأ الاحتمالات ألا أستقبل ، وأن يأخذوا عني فكرة سيئة ، أو أن يستقبلوني ليستهزئوا بي ويتهكموا عليّ » . . . طيب . . . لا بأس ! » . والواقع أن ذلك ليس ما كان يخشاه أكثر من أي شيء آخر . غير أنه لم يكن يجد جواباً مطمئناً عن هذا السؤال : « ماذا جاء يعمل هنا ، ولماذا جاء ؟ » . ذلك أنه حتى لو أتيح له أن يقول لئاستاسيا فيليوفنا : « لا تزوجي هذا الرجل ، لا تضيعي نفسك ، فهو لا يحبك ، وإنما يجب مالك وحده » ، وأنه قال لي ذلك هو نفسه ، وأن أجلايا ايباتشين قاله لي كذلك ، وأنني جئت لأنقل اليك هذه الحقيقة ، فإن من المشكوك فيه أن يكون هذا صحيحاً صادقاً من جميع الوجوه . وكان الأمير يلقي على نفسه سؤالاً آخر لا سبيل إلى حله ، سؤالاً يبلغ من الخطورة أنه كان لا يجرؤ حتى على أن يفكر فيه ، ولا يستطيع أن يسلم به ، ولا يعرف كيف يصوغه . ولكن أية كانت شكوكه وأنواع قلقه ، فقد دخل أخيراً ، وطلب ناستاسيا فيليوفنا .

ان ناستاسيا فيليوفنا تشغل شقة ان لم تكن واسعة جداً فهي مجهزة أحسن تجهيز . انها أثناء اقامتها ببطرسبرج مدة هذه السنين الخمس ، قد أعقد عليها آتانازي ايفانوفتش اغداقاً كبيراً خلال فترة معينة في أول

الأمر • كان لا يزال يأمل أن يحافظ على حبها ، وكان لا يزال يموّل على أن يفتتها بالرخاء والترف ، لعلمه بأن الانسان يألف الرخاء والترف بسهولة كبيرة ، فيصعب عليه بعد ذلك أن يستغنى عنهما متى أصبحا ضرورة من الضرورات شيئاً بعد شيء • ولقد كان توتسكى وفياً للعادات القديمة لا يغير منها شيئاً ، وظل يؤمن بأن للحواس سلطاناً لا يقهر ، فهو لذلك يحترم هذا السلطان احتراماً لا حدود له • وكانت ناستاسيا فيليوفنا لا تكره الترف بل وتحبه ، لكنها - وهذا هو الشيء الغريب - لم تستعبد له ، حتى لكأنها قادرة على أن تستغنى عنه في كل لحظة ؛ بل انها حاولت عدة مرات أن تعلن ذلك ، فدُهِش توتسكى وانزعج • على أن هناك أشياء كثيرة في ناستاسيا فيليوفنا كانت تدهشه وتسوؤه (حتى لقد بلغ بعد ذلك حدّاً احتقارها) • فالى جانب عامة الناس الذين كانت تحيط نفسها بهم أحياناً ، وهذا يكشف عن ميل طبيعي فيها ، أخذت تظهر لديها ميول أخرى غريبة كل الغرابة ، هي خليط وحشي عجيب من أذواق شتى تجعلها قادرة على أن تحب وتستعمل أشياء أو وسائل لا يمكن أن يقبل استعمالها انسانٌ أوتى حظاً من رقى النفس وعلو الثقافة • لعل آتاناىزى ايفانوفتشس كان يمكن أن يفتنه مثلاً أن يراها تتظاهر أحياناً بأنها تجهل جهلاً ساذجاً بريئاً أن الفلاحات الروسيات لا يلبسن ملابس داخلية من قماش الباتيسا مثلما تلبس هي ؛ فلو فعلت لكان ذلك منها شيئاً جميلاً أخاذاً • ان جميع الجهود التى بذلها آتاناىزى ايفانوفتشس فى المرحلة الأولى من تربيتها وتعليمها انما كانت تهدف الى بلوغ مثل هذه النتيجة ، وفقاً للبرنامج الذى وضعه على أساس خبرته الواسعة العميقة • لكن ثمرات جهوده خيبت آماله واأسفاه ! ومع ذلك فقد بقى فى ناستاسيا فيليوفنا شيء يفرض نفسه على آتاناىزى ايفانوفتشس ، هو تفرد نادر يفتنه ويفريه ويفغويه،

وظل متسلطاً عليه مستبداً به ، حتى بعد أن تداعت جميع الآمال التي عقدها على هذه المرأة الشابة .

استقبلت الأمير خادمة (كانت ناستاسيا فيليوفنا لا تستخدم الا نساء) فأصغت الى كلامه وهو يطلب منها أن تبلغ عنه ناستاسيا فيليوفنا ، أصغت الى كلامه دون أن تظهر عليها أية حيرة ، فدُهِش الأمير من ذلك دهشة كبيرة . فلا حذاء له المتسخان ، ولا قبعة المريضة حوافها ، ولا معطفه الذى ليس له أكمام ، ولا هيئته المضطربة ، لا شئ من ذلك كله أحدث فى نفسها أى تردد . وقد ساعدته فى خلع معطفه ، ورجته أن ينتظر فى حجرة المدخل ، وأسرعت تبلغ عنه فوراً .

كان المدعوون عند ناستاسيا فيليوفنا هم أصحابها المؤلفين . حتى لقد كان عدد الناس فى عيد ميلادها هذا أقل مما كان فى أعياد ميلادها السابقة . فمنهم أولاً وقبل كل شئ آتاناى ايفانوفتش توتسكى ، وايفان فيدوروفتش ايباتشين ، وكانا يُظهرا كلاهما كثيراً من التودد والبشاشة ، ولكن كان يبدو عليهما مع ذلك نوع من قلق ثقيل سببه توقعا الواضح المحرق الى أن يعرفا أخيراً ما وعدت به ناستاسيا فيليوفنا من اعلان اجابتها فى موضوع جانيا . وكان هناك جانيا بطبيعة الحال . كان يبدو هو أيضاً قائم المزاج كثير التفكير ، حتى انه من فرط ذلك يوشك أن يكون «قليل الأدب» ، فهو فى أكثر الأحيان معتزل منزو صامت . وهو لم يجرؤ أن يصطحب فاريا ، ولكن ناستاسيا فيليوفنا لم تلمع الى ذلك ولم تشر اليه ، بينما هى ، فى مقابل ذلك ، ما ان سلّمت عليه حتى ذكّرتة بالحادثة التي وقعت له مع الأمير . ولم يكن الجنرال ايباتشين قد علم بالأمر بعد ، لذلك أظهر اهتماماً وأصغى متنبهاً . ففطق جانيا عندئذ يقص ، بلهجة جافة وأسلوب متحفظ ولكن بصراحة مطلقة ، ما قد جرى بعد الظهر ، واذاف الى ذلك أنه قد مضى الى الأمير يستغفره .

وذكر في هذه المناسبة ، بحرارة وحماسة ، الرأي الذي ذهب الى أن الأمير أبله ، فاستغرب ذلك الرأي استغراباً شديداً ، وقال انه يؤمن بتقيض هذا الرأي تماماً ، ويعتقد اعتقاداً جازماً بأن الأمير « رجل يعرف ماذا يريد » . وقد أصغت ناستاسيا الى هذا الرأي بكثير من الانتباه ، وكانت تلاحظ جانبا مستطلعة مستغربة .

لكن الحديث سرعان ما انحرف نحو روجوين الذي شارك في الحادث مشاركة رئيسية هو أيضاً ، وأثار هو أيضاً اهتمام آنازى ايفانوفتش وايفان فيدوروفتش اثاره كبيرة . وقد اتفق أن استطاع بتسين أن ينقل بعض المعلومات الخاصة عن روجوين الذي ظل حتى الساعة التاسعة من المساء تقريباً يسعى هنا وهناك لتنفيذ غرضه وتحقيق مأربه . لقد كان روجوين يصر اصراراً شديداً على أن تجمع له المائة ألف روبل في ذلك المساء نفسه .

قال بتسين أثناء حديثه :

- صحيح أنه سكران ، ولكن يبدو أن المائة ألف روبل ستجمع له أخيراً ، مهما تكن المصاعب . كل ما هنالك اننى لا أدري هل يتم ذلك فى هذا اليوم نفسه ، ولا أدري هل يكون المبلغ كاملاً . غير أن الذين يعملون فى الأمر كثيرون ، فهناك كنيذر ، وهناك تريبالوف ، وهناك يسكوب .

وختم بتسين كلامه قائلاً :

- ان روجوين مستعد لدفع أية فائدة عن هذه القروض ، وذلك لأنه فى سكرين ، سكر الحمرة وسكر فرحته الأولى .

هذه الأنباء كلها قد استقبلها الحضور باهتمام مكفهر بعض الشيء . وكانت ناستاسيا فيليوفنا صامتة ، وكان واضحاً أنها لا تريد أن تفصح عن رأيها ؛ وكذلك جانبا من جهة أخرى .

لعل الجنرال ايباتشين كان فى قرارة نفسه أشد قلقاً من أى شخص آخر : ان اللآلىء التى قدّمها فى النهار قد استُقبلت بأدب فاطر وكياسة جامدة حتى لكأن شيئاً من سخرية كان يخالط ذلك الأدب وتلك الكياسة . وبين جميع المدعوين كان فردشتينكو مشرق المزاج مرحاً ، فكان يضحك ضحكاً مجلجلاً ، كما يحسن ذلك فى يوم عيد ، وكان ضحكته فى بعض الأحيان بغير مناسبة تدعو الى الضحك ، لا لشيء الا لأنه قد فرض على نفسه هذا الدور ، دور المهرّج . أما آتانازى ايفانوفتش الذى اشتهر هو نفسه بأنه محدث بارع لبق ، والذى كان فى السهرات الماضية هو الذى يمسك زمام الحديث ويوجه دفته ، فانه فى حالة اضطراب ليست معهودة فيه .

وأما المدعوون الآخرون ، وعددهم قليل على كل حال ، فهم : معلم مدرسة عجوز يرئى المرء لحاله ، ولا يدرى الا الله لماذا دُعى الى هذه الحفلة ؛ وشاب فى ريعان الصبا لا يعرفه أحد من الحضور ، خجول خجلاً رهيباً ، صموت صمتاً عنيداً ؛ وسيدة جريئة فى نحو الأربعين من عمرها كانت فى الماضى ممثلة ؛ وسيدة شابة جميلة جمالاً رائعاً ، ترتدى ثياباً أنيقة أشد الأناقة غنية كل الغنى ، لكنها قليلة الكلام جداً .

كان هؤلاء جميعاً لا عاجزين عن تشييط الحفلة فحسب ، بل كانوا عاجزين حتى عن العثور على موضوعٍ للحديث .

لذلك كان ظهور الأمير فى هذه الظروف أمراً مناسباً جاء فى محله وفى أوانه . ولئن أحدث الابلاغ عن وصوله شيئاً من الحيرة والبلبله ، ورسم على الشفاه ابتسامات دهشة ، لا سيما وأن الحضور قد أدركوا من امارات الاستغراب التى لاحت فى وجه ناستاسيا فيليوفنا أنها لم تكن قد خطر ببالها أن تدعوه قط ، فان ناستاسيا فيليوفنا ما لبثت بعد بادرة الاستغراب الأولى هذه أن أظهرت على حين فجأة رضى وارتياحاً بلغا من

القوة أن أكثر المدعوين أسرعوا يتهيأون لاستقبال الزائر الذى قادتة المصادفة استقبالاََ فرحاً مرحاً •

قال ايفان فيدوروفتش يختم كلامه :

- رغم أن برادته الساذجة هى التى تتحمل تبعه ذلك ، ورغم أن تشجيع ميول من هذا النوع أمر خطر على كل حال ، فليس سبباً أن خطرت بباله فكرة المجيء الآن ، وان يكن ذلك شذوذاً ؛ حتى لقد يحمل الينا شيئاً من مرح ، اذا صدق ما أعرفه عنه •

وأسرع فردشتينكو يقول :

- ولا سيما أنه دعا نفسه بنفسه !

قال الجنرال يسأل بخشونة ، لأنه يكره فردشتينكو :

- أى ضير فى هذا ؟

- عليه أن يدفع رسم الدخول !

- ما أمير اسمه ميشكين كرجل اسمه فردشتينكو !

بهذا أجاب الجنرال مندفعاً ، ولم يكن قد استطاع أن يعتاد أن تضمه هو وفردشتينكو سهرة واحدة يكونان فيها ندين •

أجاب فردشتينكو وهو يضحك ضحكة ساخرة :

- على مهلك يا جنرال ! عليك أن تراعى فردشتينكو وأن تداريه •
ان لى هنا حقوقاً خاصة •

- ما هى هذه الحقوق الخاصة ؟

اتبح لى فى المرة الماضية شرف شرحها للحفل • ومع ذلك يسرنى أن أكرر لسعادتك ما سبق أن شرحت • ان جميع الناس هنا يا صاحب

السعادة ، كما تستطيع أن تلاحظ ذلك ، يملكون فكراً ، أما أنا فمحروم من الفكر . ومن باب التعويض عن ذلك حصلت على إذن بأن أقول الحقيقة ، لأن كل انسان يعلم أن الحقيقة لا تنتمي الا الى المحرومين من الفكر . أضف الى ذلك اننى أحب الانتقام ، ومرد هذا أيضا الى اننى محروم من الفكر . فأنا أحتمل الاساءات والاهانات مذعناً ، ما ظل الرجل الذى أساء الىّ وأهانتى محتفظاً بما له من حظوة ، حتى اذا بدت أولى علائم فقدته الخطوة ، تذكرت الاساءة أو الاهانة التى ألحقها بى ، فتأرت لنفسى ، فرفست ولببط ، على حد التعبير الذى استعمله فى وصفى ايفان بتروفتش بتسين ذات يوم ، وهو رجل لا يرفس أحداً ولا يلبط أحداً قط . هل تعرف حكاية كيرلوف * « الأسد والحمار » يا صاحب السعادة ؟ هما نحن ، أنت وأنا ، يا صاحب السعادة ! لقد كتبت الحكاية عنا نحن .

قال الجنرال غاضباً :

- أراك تفرط مرة أخرى !

وكان فردشتينكو لا ينتظر الا هذا ليستمر فى كلامه ، وليمضى الى أبعد من ذلك ، فاستأنف كلامه يقول :

- ما بك يا صاحب السعادة ؟ لا تقلق ! أنا أعرف مكانى يا صاحب السعادة . فإذا قلت اننا ، أنت وأنا ، الأسد والحمار اللذان تحدثت عنهما الحكاية ، فمن المفهوم اننى أحتفظ لنفسى بدور الحمار ، بينما أنت الأسد يا صاحب السعادة ، كما ورد فى حكاية كيرلوف * :

أسد قوى يهرب الفلبات
فقد القوى اذ دب فيه الهرم

فأنا الحمار يا صاحب السعادة .

أقلت من لسان الجنرال قوله بغير ترور ولا تبصر :

- في هذه النقطة ، أوافقك على رأيك !

ذلك كله كان فظاظة وغلظة طبعاً ؛ وكان واضحاً أنه مبيت ومقصود . غير أن فردشتينكو كان قد ملك الى الأبد حق أن يكون مهرجاً . حتى لقد صاح يقول في ذات يوم : « ثم انتى انما أُسْتقبل هنا لهذا الغرض ، وانما يُحتفظ بى هنا لهذا الغرض ، أعنى من أجل أن أتكلم بهذه الطريقة . والا فهل يمكن أن يُستقبل رجل مثلى ؟ أنا أفهم ذلك وأدركه هيا ! هل من المقبول أو من المعقول أن أوضع ، أنا فردشتينكو ، جنباً الى جنب مع سيد نبيل مرهف الفكر والشعور مثل آتاناوى ايفانوفتش ؟ لا بد لى اذن أن أخلص من ذلك الى هذه النتيجة ، وهى أنتى لا يتيسر لى هذا الا لأنه غير مقبول وغير معقول ! » .

ولكن فردشتينكو كان رغم عاميته وابتداله يفلح أحياناً فى أن يكون لاذعاً جداً ؛ فكان ينبغى للذين يريدون أن يُستقبلوا فى دار ناستاسيا أن يتحملوا فردشتينكو . ولعل فردشتينكو قد أدرك منذ البداية أن ناستاسيا فيليوفا اخذت تستقبله لأنه استطاع أن يزجج توتسكى منذ أول يوم . كما أن جانباً قد تحمّل منه عذاباً لا نهاية له . فهذا المعنى عرف فردشتينكو أن يكون ذا نفع كبير وفائدة عظيمة لناستاسيا فيليوفا .

قال فردشتينكو وهو يراقب بطرف عينه أثر كلامه فى ناستاسيا فيليوفا :

- أما الأمير فسيأخذ يفنى لنا أغنية على الموضة .

فقلت ناستاسيا فيليوفا بخشونة :

- لا أظن ذلك يا فردشتينكو ، وأنا أنصحك بأن لا تدفع كثيراً .

- آ... اذا كان ينعم بحماية خاصة ، فلم يبق على الا أن أكون رقيقاً لطيفاً ، وأن ...

لكن ناستاسيا فيليوفنا كانت قد نهضت دون أن تصنى الى كلامه ، ومضت تستقبل الأمير .

قالت وهي تظهر أمام الأمير فجأة :

- يؤسفني اننى نسيت من تعجلى أن أدعوك منذ قليل . واتنى ليسرنى جداً أن تهينى الى بنفسك فرصة شكرك وتهنئتك على ما تملك من روح التصميم .

كانت وهي تتكلم تنظر الى الأمير بانتباه ، محاولة أن تفسر لنفسها سبب مجيئه .

ولقد كان يمكن أن يردَّ الأمير على كلماتها اللطيفة ، لكنه كان مبهوراً مبهوراً فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة .

وقد لاحظت ناستاسيا فيليوفنا ذلك مسرورةً مبتهجة . لقد كانت فى ذلك المساء فى أبهى حلة وأجمل زينة ، وكان منظرها يحدث فى النفس أثراً قوياً .

أمسكت الأمير من يده ، وقادته الى حيث كان المدعوون . وقد توقف الأمير على حين فجأة قيل دخول الصالون وأسرع يهمس فى أذنها منفعلاً انفعلاً شديداً :

- كل شيء فىك رائع كامل .. حتى نحولك وشحوبك .. لا يمكن أن يتمنى لك المرء غير هذا ... لقد بلغت من قوة الرغبة فى المجهى اليك أننى ... معذرة ... سامحني ...

قالت ناستاسيا فيليوفنا ضاحكة :

- لا تعتذر ، والا أفقدت بادرتك غرابتها وطرافتها . كانوا على

صواب حين قالوا ان فيك غرابة وتفرداً • اذن أنت تعدنى رائعة كاملة ؟

- نعم •

- هنا أنت تخطئ ، رغم أنك تعدُّ أستاذاً فى فن الحزر والتنبؤ •
سأذكرك بذلك فى هذا المساء نفسه

وقد مت الأمير الى ضيوفها الذين كان أكثر من نصفهم قد عرفه من قبل • وسرعان ما وجد توتسكى شيئاً لطيفاً يقوله • وبدأ على الحفل شئ من الاتعاش ، وأخذوا جميعاً يتكلمون ويضحكون • وأجلست ناستاسيا فيليبونا الأمير الى جانبها •

صرخ فردشتينكو يقول وقد طفا صوته على جميع الأصوات :

- أى غرابة حقاً فى مجيئ الأمير ؟ ان المسألة واضحة جليلة •

فقال جانبا فجأة بعد أن ظل أخرس حتى ذلك الحين :

- بل المسألة واضحة كل الوضوح ، جليلة كل الجلاء ! لقد ظلمت أراقب الأمير هذا اليوم بلا انقطاع تقريباً ، منذ اللحظة التى رأى فيها صورة ناستاسيا فيليبونا على مكتب ايفان فيدوروفتش • وانى لأتذكر تذكرأ واضحاً أن فكرة قد قامت فى ذهنى حينذاك ، وترسخت الآن فى نفسى قوية ، حتى أن الأمير نفسه قد أسرَّ الىَّ باعترافات عنها ، أقول هذا عابراً

نطق جانبا تلك العبارة كلها بجهد كبير لا يخالطه أى مزاح ، حتى أن وجهه كان مكفهراً ، فأثار ذلك شيئاً من الدهشة •

أجاب الأمير يقول وقد احمر وجهه :

- أنا ما أسررت اليك بأى اعتراف ، ولم أزد على أن أجبثُ عن سؤال ألقيته أنت على •

أعول فردشتينكو يقول :

- مرحى ! مرحى ! هذا كلام فيه صدق على الأقل ، فيه صدق
وحذق •

وضحك الجميع مقهقهين • فقال بتسعين بصوت خافت فيه استمزاز :
- لا تصرخ هذا الصراخ يا فردشتينكو !

وقال ايفان فيدوروفتش :

- لم أكن أتوقع منك ، يا أمير ، « لمحات » من هذا النوع ، لمحات
لا يجيد مثلها الا ... الا ... لقد كنت أتصورك فيلسوفاً لا أكثر ! ألا
ان على المرء أن يخشى الماء الساكن !
- حين رأيت كيف يحمر الأمير احمرارَ فتاة بريئة لمزاحة بريئة ،
انتهيت الى أن هذا الشاب النحيل يضمر قلبه أشرف النيات ويضم أجمل
المشاعر !

كذلك قال بل زأزأ يقول على دهشة من الحضور كافة ، معلم المدرسة
الأهتم الذي يبلغ من العمر نحو سبعين عاماً ، والذي لبث صامتاً خلال ذلك
الوقت ، وكان لا يتوقع أحد منه أن ينطق بكلمة واحدة طوال السهرة •
فانطلقت الضحكات مجلجة مزيداً من الجملجة • وظن المعجوز المسكين ان
الناس تضحك لنكتته الفكاهة فأخذ يشاركهم الضحك وهو ينظر اليهم ،
حتى ألت به نوبة سعال شديد • وكانت ناستاسيا فيليوفنا تحب هذا النوع
من الرجال الشيوخ والنساء المجائز الذين يتصفون بشيء من الفرابه
والتفرد والشذوذ ، بل كانت تحب حتى ضعاف العقول ، فأخذت تلاطفه
وتدله ، حتى لقد قبلته ، ثم أمرت بأن يُصبَّ له فنجان آخر من الشاي •
وطلبت من الخادمة أن تحييه بخمارها فدثرت به وأمرت باضافة حطب الى
الموقد •

وحين سألت الخادمة عن الساعة ، أجابتها الخادمة بأن الساعة هي
العاشرة والنصف • فقالت ناستاسيا فيليوفنا تخاطب الحفل •

- ألا تشربون شيبانيا أيها السادة ؟ لقد حضّرت الشيبانيا ، فمضى
أن تجعلكم الشيبانيا أكثر مرحاً ؛ فارفموا التكليف ، أرجوكم ...

ان هذه الدعوة الى الشراب ، ولا سيما بعبارات تبلغ هذا المبلغ من
السذاجة ، قد بدا صدورها عن ناستاسيا فيليوفنا غريباً كل الغرابة . ان
الجميع يعرفون التقيد بالقواعد الصارمة والآداب الدقيقة التي كانت تسود
حفلاتها السابقة . لقد اخذت السهرة تنتعش ولكنها فافت في انتعاشها
المألوف في أمثالها . لم يرفض أحد الشيبانيا : قبلها الجنرال أولاً ، ثم
السيدة المتبرجة ، فالشيخ المسكين ، ثم فردشتينكو ، ثم قبلها الجميع آخر
الأمر . لقد قبل توتسكى ، هو أيضاً ، كأساً من الشيبانيا ، بغية أن يسفخ
شيئاً من روح الدعابة اللطيفة على المجرى الجديد الذى جرت فيه السهرة .
لكن جانبا وحده لم يشرب شيئاً . أما ناستاسيا فيليوفنا التي تناولت كأساً
كذلك ، وأعلنت أنها ستشرب اثناء السهرة ثلاث كنوس على الأقل ، فقد
كان من الصعب على المرء أن يفهم شيئاً من حركاتها المفاجئة العنيفة ،
وضحكها العصبى الذى لا موضوع له ، والذى تتخلله فترات تفكير متجهم
صامت . قدّر بعضهم أنها تعاني من حمى . وبدعوا يلاحظون أخيراً أنها
تتظر هى نفسها شيئاً ما ، فهي تلقى نظرات كثيرة متكررة على ساعة
الجدار ، وهى قد أخذ يظهر عليها نفاد الصبر وشروذ الفكر .

سألها السيدة الجريئة قائلة :

- كأنك تعانيين شيئاً من حمى !

فأجابتها ناستاسيا فيليوفنا ، مصفرة الوجه فعلاً ، جاهدة أن تكبح

ارتعاضها :

- بل انتى اعانى حمى شديدة ، لذلك تدنرت بخمادى .

فقامت من حولها حركة اضطراب وقلق .

اقترح توتسكى قائلاً وهو ينظر الى ايفان فيدوروفتش :

- ماذا لو تركنا مضيقنا تراثاً ؟
فهتفت ناستاسيا فيليوفا تقول بالخاح ذى دلالة :
- لا ، أبداً أيها السادة ! أنا أصر على أن تبقوا • اننى لا أستطيع
الاستغناء عن وجودكم هذا المساء •

واذ كان جميع الضيوف تقريباً يلمنون سلفاً أن قراراً يبلغ مبلغاً
كبيراً من خطورة الشأن سيُتخذ فى أثناء هذه السهرة ، فقد بدت لهم
هذه الكلمات مثقلة بالمعاني • وتبادل الجنرال وتوتسكى نظرة جديدة •
وسرت فى جانبها رعشة •

قالت السيدة الجريئة :

- يستحسن أن تنظّم « لعبة صغيرة » •

فصاح فردشتينكو يقول متحمساً :

- أنا أعرف لعبة جديدة رائعة • هى على كل حال لعبة لم تُجرّب
الامرة واحدة ، ثم لم تنجح !
سألته السيدة الجريئة :
- ما هى هذه اللعبة ؟

- اجتمعنا فى ذات يوم لفيفاً من الأصحاب • فلما شربنا قليلاً -
والحق يقال - اقترح أحدهم أن يقصّ كل واحد منا ، دون أن ينهض
عن المائدة ، قصة عن نفسه ، على شرط أن يكون فى قرارة ضميره مقتنعاً
بأن القصة التى سيرويها هى أسوأ فعل ارتكبه فى حياته ، وعلى شرط أن
يكون صادقاً كل الصدق ، خاصة أن يكون صادقاً كل الصدق فلا يكذب
البتة !

قال الجنرال :

- فكرة عجيبة !

- ليس هناك فكرة أعجب منها يا صاحب السعادة ، ولكن هذا نفسه سرٌ حسنٌها •

قال توتسكى :

- شئٌ مضحك ! لكنه مفهوم ! نوع مقلوب من التباهى والمفاخرة !

- لعل هذا بعينه هو ما كانوا يشددونه يا آتانا زى ايفانوفتش •

قالت السيدة الجريئة :

- امثال هذه اللعب تبكى أكثر مما تضحك !

قال بتسين :

- لعبة سخيفة !

سألت ناستاسيا فيليوفنا :

- وهل نجحت اللعبة ؟

- لم تنجح ! جرت الأمور مجرى شيئاً ! صحيح أن كل واحد روى حكاية ، وذكر أموراً صادقة كثيرة ، حتى أن بعضهم كان يجد فى رواية قصته لذة - تصوروا ! - ولكنهم جميعاً شعروا بالخزى والعار آخر الأمر ، ولم يقووا على متابعة اللعبة الى نهايتها ! يمكن أن نقول بوجه عام ان اللعبة كانت مسئليته ، ولكن فى بابها طبعاً !

قالت ناستاسيا فيليوفنا وقد تحمست فجأة :

- يحسن حقاً أن نجرب ! حقاً يجب علينا أن نجرب هذه اللعبة أيها السادة ! اننى ألاحظ أننا لم نستطع حتى الآن أن نخلق جواً مرحاً فى هذا المساء ، ليت كل واحد منا يقبل أن يقص شيئاً ما ... من هذا النوع طبعاً ، اذا هو أراد ... فكل واحد حر ، هه ؟ ولعلنا نستطيع أن نمضى فى هذا الى آخر الشوط • على كل حال ، اللعبة طريفة جداً ! •

قال فردشتينكو :

- فكرة عبقرية ! غير أن السيدات مغفيات ... السادة وحدهم هم الذين سيقصون !... وسنحدد دور كل واحد بالقرعة ، كما فعلنا في المرة السابقة ، هذا لا بد منه ! والذي لا يريد أن يروى حكاية ، له أن يتمتع طبعاً ... ولكن لا بد انكم توافقون على أن هذا لن يكون لطيفاً منه ! يكتب كل واحد اسمه على ورقة أيها السادة ، ولنضع الأوراق كلها في قبة ، هنا ! وستولى الأمير سحب الورقة واحدة بعد واحدة بالقرعة . مهمتكم بسيطة جداً . على كل واحد منكم أن يقصّ قصة أسوأ فعل ارتكبه في حياته . وهذا سهل جداً أبها السادة ! سوف ترون ! حتى اذا لاحظت في ذاكرة أحدكم توابياً ، توليت أنا تشييطها !

كانت الفكرة مستهجنة فلم ترض أحداً . فبعضهم تقطعت حواجبهم واكفهرت وجوههم ، وبعضهم رسموا على شفاههم ابتسامات ساخرة . واحتج بعض آخر ، ولكن دون الحاح شديد ، مثل ايفان فيدوروفتش الذي كان لا يريد أن يُسَخَط ناستاسيا فيليوفنا والذي كان قد لاحظ مدى افتئانها بهذه الفكرة الغريبة ، ربما لما تتصف به هذه الفكرة من غرابة توشك أن تكون استحالة . ولقد كانت ناستاسيا فيليوفنا امرأة لا ينشئ عزمها ولا تتراجع عن رغباتها متى قررت أن تظهر هذه الرغبات، ولو كانت نزوات شاذة وبدوات لا تجديها نفعا . وانها الآن لفي حالة تكاد تكون هسترية ، فهي تتحرك كثيراً وتضطرب اضطراباً شديداً وتضحك ضحكاً تشنجياً ، ولا سيما في الرد على ما كان يديه توتسكى من احتجاج قلق . كانت عيناها القائمتان تسطمان ، وقد ظهرت على خديها الشاحين بقمتان حمراوان . ولعل ما في وجوه بعض المدعويين من تجهم

واشمئزاز كان يزيد ضرام رغبتهما الساخرة فى ازعاجهم ؛ ولعل ما كان يرضيها فى تلك الفكرة التى اقترحها فردشتينكو انما هو استخفافها واستهتارها وقسوتها • حتى لقد أيقن بعضهم أن ناستاسيا فيليوفا تبيّت نيةً ما • على أن الحضور قد قبلوا الاقتراح أخيراً ، فالفكرة طريفة سائقة على كل حال ، وهى بالنسبة الى بعضهم مغرية أشد الاغراء ، وكان فردشتينكو أكثر الحضور نشاطاً وحركة •

قال المراهق الصموت سائلاً فى خجل :

– فماذا لو كانت القصة يستحيل على المرء أن يروىها ••• بحضور

سيدات ؟

فأجابه فردشتينكو قائلاً :

– ما عليك فى هذه الحالة الا أن تمتنع عن روايتها • يا للشبيب

الساذج ! لكأنه لا يوجد أفعال أخرى سيئة كثيرة !

قالت السيدة الجريئة صائحة :

– أما أنا فلا أدري ماذا أختار من بين أفعالى السيئة !

فعاد فردشتينكو يكرر :

– النساء معفيات من ضرورة رواية شئ • لكنهن معفيات فحسب •

أما من شئت منهن أن تذكر شيئاً من وحى ذاتها ومن تلقاء نفسها ، فلها أن تفعل ذلك مشكورة • والرجال أيضاً معفون اذا أزعجتهم هذه اللعبة كثيراً •

سأل جانباً :

– ولكن كيف أبرهن على أننى لا أكذب ؟ اذا كذبت فقدت اللعبة

كل معناها • ومن ذا الذى يمكن ألا يكذب ؟ ان كل واحد سوف يكذب ، هذا أكيد !

صاح فردشتينكو يقول فى نوبة من حماسة شديدة :

- يكفى أن نرى أحد الأشخاص يكذب حتى نشعر من هذا وحده
بمتعة • أما أنت يا جانيتشكا فليس لك أن تخشى الكذب حقاً ، لأن الفعل
الذى هو أسوأ ما ارتكبت فى حياتك من أفعال سيئة يعرفه الجميع منذ
الآن • تصوروا كذلك أيها السادة ، تصوروا بأى عين سينظر كل منا الى
الآخر غداً بعد جميع القصص التى سنرويها !

سأل توتسكى بوقار ورصانة :

- أهذا ممكن ؟ أهذا جدّ حقاً يا ناستاسيا فيليوفنا ؟

قالت ناستاسيا فيليوفنا ساخرة :

- من يخشى الذئب لا يذهب الى الغابة ! *

وعاد توتسكى يقول ملحاً ، بينما كان فلفه يزداد ويشد شيئاً

بعد شيء :

- لكن اسمح لى يا سيد فردشتينكو : كيف يمكن أن تجعل من هذه
اللعبة لعبة مجتمع ؟ أؤكد لك أن الألعاب التى من هذا النوع لا تنجح
أبداً • ولقد قلت أنت نفسك ان هذه اللعبة لم تنجح مرة •

- كيف لم تنجح ؟ ألم أقصص فى المرة الأخيرة كيف اتفق لى أن
سرق ثلاثة روبلات ؟ ألم أقصص ذلك ؟

- صحيح • ولكن لم يكن فى وسعك أن تقص القصة على نحو
يظهرها صادقة ، فيصدقك المستمعون ، أليس كذلك ؟ لقد ذكر جبريل
آرداليوتش منذ هنيهة - وهو فى ذلك على صواب - أنه يكفى أن يشم
المستمع رائحة كذب فى القصة حتى تفقد اللعبة معناها • ان الحقيقة غير
ممكنة هنا الا بالمصادفة ، أو بنوع فاسد من حب الظهور لا يمكن قبوله
ولا يمكن تصوره فى هذا المكان •

صاح فردشتينكو قائلاً :

- يا لك من رجل مرهف الفكر لطيف الحس حقاً ! انك لتثير دهشتي يا آتاناڙى ايفانوفتش . انظروا ايها السادة : انه حين نبّه الى اننى لم أستطع أن أتحدث عن سرقتى على النحو الذى يجعلها تشبه الحقيقة قد أفهمنا بالطف أسلوب وأنعم طريقة أننى فى الواقع لم يكن فى امكانى أن ارتكب جريمة السرقة (اذ ليس من اللائق أن يتحدث المرء عن مثل هذه الأمور) ، رغم أنه ربما كان فى فراة نفسه مقتنعاً كل الاقتناع بأن فردشتينكو يمكن أن يسرق ! ولكن هلموا يا سادتى هلموا : أصبحت الأسماء فى القبة ، ومنها اسمك أنت يا آتاناڙى ايفانوفتش ، فالجميع اذن موافقون . ابدأ يا أمير !

أغطس الأمير يده فى القبة دون أن يقول شيئاً ، وأخرج منها أول ورقة فكانت ورقة فردشتينكو ، ثم سحب الثانية فكانت ورقة بتسين ، ثم سحب باقى الأوراق واحدة بعد واحدة ، فكانت الثالثة ورقة الجنرال ، وكانت الرابعة ورقة آتاناڙى ايفانوفتش ، وكانت الخامسة ورقته هو ، وكانت السادسة ورقة جانيا ، الخ . ولم تكن السيدات قد وضعت فى القبة أوراقاً .

هتف فردشتينكو يقول :

- يا لسوء حظي ! لقد كنت آمل أن يخرج اسم الأمير أول اسم ، وأن يخرج اسم الجنرال بعده ! من حسن الحظ على كل حال أن اسم ايفان بتروفتش يأتي بعد اسمي ، فهذه مكافأة لى أو تعويض على . واضح اذن يا سادة أننى أنا الذى يجب ان أكون القدوة الحسنة فى هذه اللعبة ، ولكن ما يؤسفنى أكثر من أى شئ آخر فى هذه اللحظة هو اننى امرؤ تافه كثيراً وأننى لا أتميز بشئ ، فحتى رتبتي ليس لها أى شأن . ما قيمة أن يكون فردشتينكو قد ارتكب عملاً سيئاً فى الواقع ؟ وماهو أسوأ أعمالي ؟

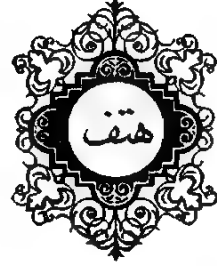
حقاً انه ليصعب على الاختيار ! اللهم الا أن أقص حكاية السرقة تلك نفسها ، فأبرهن لآنانازى ايفانوفتش أن من الممكن أن يسرق المرء دون أن يكون لصاً .

- لقد استطعت أن تقنعني أيضاً يا سيد فردشتينكو أن من الممكن أن يجد المرء متعة ولذة فى أن يروى قصص أعمال قذرة ، حتى دون أن يكون أحد قد طلب منه ذلك . على كل حال ... معذرة يا سيد فردشتينكو !

قالت ناستاسيا فيليوفنا تحسم الموقف بلهجة فيها تملل وانزعاج :
- ابدأ يا فردشتينكو ! لقد أسرفت فى الطريز والتوشية حتى لتكاد لا تفرغ من ذلك !

ولاحظ الجميع أنها بعد نوبة الضحك الأخيرة التى انتابتها ، قد ارتدت فجأة الى نوع من الحذر المتجهم ، وانها أصبحت أسهل استارة وأسرع احتياجاً . ولكنها ما تزال تصرُّ على تنفيذ نزوتها بالحاح عنيد مستبد . كان آنانازى ايفانوفتش فى مثل الجحيم عذاباً . وقد أحققه كذلك موقف ايفان فيدوروفتش الذى كان يحتسى كأس الشمبانيا هادئاً ، ولعله كان عازماً على أن يقص قصة متى جاء دوره .

الفصل الرابع عشر



فردشنيكو يقول :

- أنا انما أنرت كثير لأنتى يعوزنى الفكر .
ولكنى سأبدأ . لو كان لى فكر كفكر آتانا زى
ايفانوفتش أو ايفان فيدوروفتش ، للبت أنا
أيضاً صامتاً ساكناً طوال السهرة كلها . يا أمير ، اسمح لى أن أسألك
هل توافقنى على هذا الرأى : يخيل الىّ أن عدد اللصوص فى العالم أكبر
من عدد غير اللصوص ، حتى لقد يمكن القول انه ما من انسان لم يسرق
طوال حياته شيئاً ما . هذا انطباع شخصى ، لا أستتج منه مع ذلك أن
ليس فى العالم الا لصوص ، رغم أن القول بهذا الرأى كثيراً ما أغرانى ،
أعترف لك بذلك . فما رأيك أنت ؟

قالت داريا ألكسيفنا (السيدة النشيطة الجريئة) :

- ما أسخف هذا الكلام ! ما أغبى هذا الهذر ! ليس ممكناً أن يكون
جميع الناس قد سرقوا شيئاً ما . أنا لم أسرق شيئاً فى يوم من الأيام .
- أنت لم تسرقى فى يوم من الأيام يا داريا ألكسيفنا ، ولكن ماقول
الأمير الذى أرى أنه احمر وجهه ؟

قال الأمير وكان قد احمر وجهه فملاً :

- يخيل الىّ أنك على حق فيما تقول ، ولكنك تبالع كثيراً .

- ولكن ألم تسرق أنت نفسك شيئاً ما فى يوم من الأيام يا أمير ؟

تدخل الجنرال يقول :

- كلام مضحك سخيف ! هلاً فكرت فيما تقول يا سيد فردشتينكو؟

وقالت داريا ألكسيفنا حاسمة :

- أمرك بسيط : انك حين أخرجت خجلت أن تروى شيئاً ، لذلك

تحاول أن تنجر الأمير معك ، لأنه لا يملك عن نفسه دفاعاً .

قالت نامتاسيا فيليوفا بشدة وقسوة :

- فردشتينكو ! لك أن تقصّ أو أن تسكت . ولكن لا تهتمّ الا

بنفسك ؟ لقد أخذتَ تفقدنى صبرى !

- حالاً يا نامتاسيا فيليوفا . ولكن ما دام الأمير قد اعترف (وانى

لألح على هذه النقطة ، لأن ما قاله انما هو اعتراف حقاً) ، فأنا أَسْأَلُ

عما عسى أن يقصه علينا شخص آخر (لا أسميه) اذا هو أراد أن يقول

الحقيقة يوماً . أما أنا أيها السادة ، فالحق أن ما سأرويه لكم ليس شيئاً

كثيراً ، فهو بسيط غاية البساطة ، وهو عدا ذلك غبى وبشع . لكننى أؤكد

لكم مع ذلك اننى لست لصاً ، واننى ارتكبت فعل السرقة ذاك دون أن

أدرى لماذا ! لقد حدث ذلك منذ ثلاث سنين ، فى فيلا صديق من

الأصدقاء ، هو سيمون ايفانوفتش اشتينكو، يومَ أحد . كان عنده ضيوف .

فلما انتهى الغداء بقى الرجال يتجاذبون أطراف الحديث أمام كأس .

وخطر ببالى أنا أن أطلب من ماريا سيمونوفنا ، ابنة صاحب الدار ، أن

تعزف لنا شيئاً على البيانو . فلما اجتزت احدى الغرف لمحت على منضدة

عمل ماريا ايفانوفنا ورقة نقدية خضراء بثلاثة روبلات لا شك أنها كانت

قد أخرجتها لحاجة من حاجات الدار . لم يكن فى الغرفة أحد . تناولت

الورقة ودسستها فى جيبي . لماذا ؟ لا أدرى ! اننى لا أعرف السبب الذى

لعله دفعنى الى ذلك • ولكننى أسرعرت أعود الى المائدة • ولبت هنالك
أتظر ، منفلاً بعض الانفعال • كنت أترنر بلا توقف ، وأروى فكاهات ،
وأضحك • ثم جلست قرب السيدات • وبعد انقضاء قرابة نصف ساعة ،
لوحظ اختفاء الورقة النقدية ، فسئلت عنها الخدم • وحامت الشبهة حول
داريا ، الخادمة • أظهرت كثيراً من الاهتمام والاستطلاع ، وشاركت فى
الاستجابات ، حتى لأتذكر اننى ، حين ارتبكت داريا ارتباكاً تاماً ،
أخذت أقنعها بضرورة الاعتراف ، وحلفت برأسى لأضمنن لها تسامح ماريا
ايفانوفنا ، وذلك على مسمع ومرأى من جميع الحضور • فكان هؤلاء
ينظرون الى ، وكنت أشعر بلذة عظيمة من تدفقى فى الكلام والوعظ
بينما الورقة النقدية فى جيبى • وفى مساء ذلك اليوم نفسه شربت بالمال
خمرة فى أحد المطاعم : دخلت فأمرت لنفسى بزجاجة من خمر «لايت» •
لم يحدث قبل ذلك أن طلبت زجاجة على هذا النحو دون أن أكل شيئاً •
ولكننى كنت أستعجل اتفاق ذلك المال • على أننى لم أشعر بأى ندم خاص ،
لا فى ذلك الحين ، ولا بعده • ولا أعتقد أن فى امكانى أن ارتكب ذلك
الفعل مرة أخرى • صدقونى : ان الأمر لا يهمنى • انتهت القصة •
هذا كل شئ •

قالت داريا الكسيفا مشمثة :

— لكننى أعتقد أن هذا العمل ليس أسوأ عمل ارتكبته فى حياتك
طبعاً !

وعقب آتاناى ايفانوفتش :

— بل ليس هذا عملاً وانما هو حالة نفسية مرضية •

وسالت ناستاسيا فيليوفنا دون أن تحاول اخفاء تفرزها :

— وماذا جرى للخادمة ؟

- طردوها منذ الغد طبعاً • ذلك بيت شديد لا يتهاون فى أمر كهذا الأمر !

- وتركت لهم أن يطردوها ؟

- هه ! فهل كنتم تريدون اذن أن أثنى بنفسى واعترف بفعلتى ؟

بذلك أجاب فردشتينكو ، وقد دُهِش ، على كل حال ، من الأثر السيء الذى أحدثته قصته فى نفوس الحضور •

هتفت ناستاسيا فيليوفنا تقول :

- ما أفدر هذا العمل !

- هوه ! أتطلبون من انسان أن يروى أسوأ فعل ارتكبه فى حياته ثم تريدون أن يكون هذا الفعل ناصحاً مثلاً ؟ ان أسوأ الأفعال قدر دائماً يا ناستاسيا فيليوفنا • لسوف يثبت لنا ذلك ايفان بتروفتش بعد قليل • ثم ان كثيراً من الناس يظهرون بمظهر باهر ، ويوهمون بأنهم مثال الفضيلة لأنهم يملكون الثراء ! وما أكثر الذين يملكون الثراء فى هذه الأيام ! ولكن لبتا نعرف الوسائل التى استعملوها للوصول الى ذلك ••• انهم لا يتورعون عن شيء ، ولا ينحرجون من شيء !

الخلاصة أن فردشتينكو قد خرج عن طوره ، وأصبح سليط اللسان ناسياً نفسه متجاوزاً كل حد • ان كثرة خيثة تجعد الآن وجهه • لعله كان يتوقع أن تحدث قصته فى نفوس سامعيه أثراً غير هذا الأثر تماماً ، مهما يدُ توقعه هذا غريباً • ان هذا النوع من « الزلات » الرديئة و « التباهى الخالص » ، على حد تعبير تومسكى ، أمر مستمر مألوف عند فردشتينكو ، وهو يناسب طبعه ، ويعبر عن خلقه •

ارتعدت ناستاسيا فيليوفنا غضباً ، وحدقت اليه بنظرة ثابتة ، فسرعان

ما استولى عليه رعب شديد ، فصمت وقد جمده الخوف من أن يكون قد أسرف قليلاً .

قال آتاناى ايفانوفتش يقترح متهمكاً :

– ألا تحسن صنماً اذا نحن اكتفينا بهذا ؟

فقال بتسكين :

– هذا دورى أنا ، لكننى أستعمل حتى فى الرفض ، فلا أروى شيئاً .

– ترفض ؟

– لا أستطيع يا ناستاسيا فيليوفنا . ثم اننى اعد مثل هذه اللعبة غباوة وحمافة !

قالت ناستاسيا فيليوفنا وهى تلتفت نحو اياتشين :

– يا جنرال ، أعتقد أن الدور دورك الآن . فاذا امتعت أنت أيضاً

فقد انهارت لعبتنا كلها ، ولسوف يؤسفنى ذلك كثيراً ، لأننى أنوى أن أقصّ فى الحتام قصة عمل مأخوذ « من حياتى أنا » . لكننى لا أريد أن أفعل ذلك قبلك وقبل آتاناى ايفانوفتش ، اذ لا بد أن تشجعانى .

قالت ناستاسيا فيليوفنا جملتها الأخيرة هذه ضاحكة . فهتف الجنرال

يقول بحرارة وحماسة :

– أوه ! اذا كنت أنت تعدين بذلك ، فانتى مستعد أن أروى لك قصة

حياتى كلها . وأعترف لك باننى قد هيات قصة أحكيها متى جاء دورى . .

تجراً فردشتينكو فقال وهو ما يزال خجلاً بعض الشيء ، لكنه

يشتم ابتسامة وقحة مع ذلك :

– يكفى أن يراك المرء يا صاحب السعادة حتى يحزر ما شعرت به

من لذة أدبية فى سبك قصتك .

وألقت ناستاسيا فيليوفنا على الجنرال ، هى أيضاً ، نظرة خاطفة ،

وابتسمت • ومع ذلك كان يستطيع المرء أن يرى أن أعصابها كانت تزداد توتراً ، وأن اضطرابها كان يزداد شدة • وارتعش آتاناىزى ايفانوفتش حين علم أنها ستقص ، هي أيضاً ، حكاية ما •
بدأ الجنرال كلامه فقال :

- لقد اتفق لى ، أيها السادة ، كما يتفق لكل انسان ، أن ارتكبت فى حياتى أفعالاً لا توصف بأنها أنيقة جداً ، ولكن أغرب ما فى الأمر أننى أعد القصة القصيرة التى سأرويها لكم الآن هى أسوأ فعل اقترفته فى حياتى • صحيح أن خمسة وثلاثين عاماً على وجه التقريب قد انقضت على حدوث تلك القصة ، ولكننى لم أستطع قط أن أحرر ذاكرتى من ذلك الانطباع الذى يقبض صدرى • هى حكاية غيبة جداً على كل حال • كنت لا أزال أياخذ فى الجيش برتبة مرشح ؛ وانكم لتعرفون ما المرشح : دمٌ يغلى ويفور ، وجيب خالٍ الا من قروش معدودة • وكان لى تابع اسمه نيكيفور يهتم بالقيام بأعباء البيت اهتماماً شديداً ؛ فهو يوقر ويقتصد ، ويرتق ويرقّع ، ويمسح الأرض ويلمّع البلاط ، بل هو يسرق من كل مكان كل ما يتاح له أن يسرقه خلصةً ليزيد به رزقى • كان يمتاز بأمانة تامة واستقامة نادرة وشرف لا يضارع • أما أنا فكنت فى معاملته الرجل الذى يوصف بأنه قلس ، ولكنه عادل • ولقد بقينا فى الحامية مدة من الوقت بمدينة صغيرة • كنت قد أُعطيت بطاقة سكنى فى ضاحية من الضواحي ، عند أرملة ملازم ثانٍ محال على التقاعد • هى عجوز قصيرة فى الثمانين من عمرها أو فى نحو ذلك • وكان بيتها الخشبي يشبهها بلىً وتداعياً وتهديماً ، وكانت تبلغ من الفقر أنها ليس عندها حتى خادمة تساعد فى أعمال البيت • غير أن الشيء الذى تتميز به خاصةً هو أنها كان لها فى الماضى أسرة كبيرة العدد وأقرباء كثيرون • وتماقت السنون فبعضهم ماتوا وبعضهم سافروا أو نسوها • أما زوجها فكانت قد دفنته منذ ما يقرب من

خمسـة وأربعين عاماً • وقد احتفظت خلال مدة طويلة بفتاة حدياء هى بنت أختها ، وكانت الفتاة فيما يروى عنها شريرة خبيثة كساحرة ، حتى لقد عضت خالتها فى اصبعها ذات يوم ، لكن الفتاة ماتت آخر الأمر هى أيضاً ، فأصبحت المعجوز تدبر أمورها بنفسها وحيدة منذ ثلاث سنين • وكنت أشعر عندها بضجر شديد وسأم قوى ، فليس ثمة ما يمكن أن أعقد عليه أملاً • وأخيراً سرقت من دجاجى فى ذات يوم ديكاً • وظل الأمر غامضاً ، ولكن لا يمكن أن يكون السارق أحداً غيرها • وقد تشاجرنا تشاجراً عنيفاً فى موضوع الديك ، واستطعت بعد ذلك بمدة قصيرة أن أحصل على اذن بتغيير مسكنى تلبيةً لطلبى ، فأرسلت الى ضاحية أخرى عند بائع طويل اللحية غفير الذرية • اننى أتذكر هذا كأنتى أراه اليوم • انتقلنا أنا ونيكىفور فرحين ، وتركنا المعجوز لحزبها وعارها • وبعد ذلك بثلاثة أيام ، عدت الى البيت من التدريب فبادرنى نيكيفور بقوله : « لقد أخطأت ، سيادتك ، اذ تركت للمعجوز وعاء الحساء ، فأننى لم يبق عندى وعاء أصب فيه الحساء » • فتجمدت من الدهشة طبعاً وقلت : « كيف تركنا لها وعاء الحساء ؟ » ، وأخذ نيكيفور يشرح لى الأمر ، فتبين أن المعجوز قد رفضت عند رحيلنا أن ترد إليه وعاءها ، زاعمة أنها تحتفظ به بديلاً عن آنية كنت قد كسرتها لها ، وأننى أنا الذى اقترحت عليها ذلك • فلما شرح لى نيكيفور ذلك ، فاردم « المرشح » فى عروقى طبعاً ، بسبب حقارة هذه المرأة وصغارها ، فاذا أنا أثب وأطير ؟ فما وصلت الى المعجوز حتى كنت خارجاً عن طورى ، ووجدتها جالسة فى المدخل وحدها ، لا طية فى ركن من الأركان كأنما لتحتسى من الشمس ، مسندةً خدها الى يدها • فنزلت عليها نزول الصاعقة ، وأخرجت لها كل ذخيرتى من التشم والتسم : « يا كيت وكيت ! » • على الطريقة الروسية ••• هل لاحظتم ؟ لكنها بدت لى غريبة عجيبة : فهى ما تزال جالسة أمامى تحدق الى بعينيها

الجاحظتين دون أن تحيينى بكلمة واحدة ، وما تزال نظرتها غريبة غريبة شديدة ، وكأنها كانت ترجع قليلاً . وهدأت أخيراً ، ونظرت إليها ، وسألته ، فطلت صامتة لا تجيب . فلبثت متحيراً من هذا الصمت ، فى جو هذه الشمس الغاربة وهذا الذباب المدندن ؛ ثم اضطربت أخيراً فقفلت راجعاً . وقبل أن أصل الى دارى استدعيت الى القيادة ، واضطرت أن أمرت بسريرى ، ثم لم أعد الى بيتى الا فى الليل . فكانت الكلمات الأولى التى بادرنى بها نيكيفور هى : « هل تعلم ، سيادتك ، أن صاحبة البيت ماتت منذ قليل ؟ » فسألته : متى ؟ فقال : اليوم فى هذا المساء ، ربما منذ ساعة ونصف ساعة . اذن فقد ماتت لحظة كنت أغرقها بالشتائم والسباب ! بلغت من قوة الشدة اننى لم أثب الى رشدى الا بعد وقت . أصبحت المعجوز لا تفارق فكرى ، حتى لقد حلمت بها فى الليل . صحيح اننى امرؤ لا أومن بالحرفات ولا أنطير ، ولكننى ذهبت فى اليوم الثالث أشيخ جنازتها واحضر دفنها . وصرت مع مضى الزمن أفكر فى هذه القصة مزيداً من التفكير . لا أزعم أن هذه القصة قد احتلت فكرى كله ، ولكننى أقول انها كانت تنبثق فى ذهنى على حين فجأة ، فأشعر بانزعاج واضطراب . وفهمت أخيراً ما الذى كان يفجؤنى أكثر من أى شئ آخر : هذه امرأة ، أو قل بلغة هذا العصر ذى النزعة الانسانية : هذه كائن حى ، عاشت زمناً طويلاً حتى نسيها الموت . ولقد كان لها فى الماضى أولاد ، وزوج ، وأسرة ، وأقرباء . وكان ذلك كله يفلى ويفور من حولها ان صح التعبير ، وكانت تحوطها ابتسامات من كل صوب ؛ وفجأة لم يبق من ذلك كله شئ ، وغاب بما يشبه أن يكون ضربة سحر ، فاذا هى تبقى وحيدة مثل . . . مثل ذبابة خريف ، كأنها تحمل على ظهرها لعنة العصر . وقادها الله أخيراً الى نهايتها ، فطارلت هى أيضاً فى ذات مساء لطيف من أماسى الصيف عند غروب الشمس . هذه فكرة زاخرة بالعبر طبعاً . ولكن

المرشح الشاب ، بدلاً من أن يفسرها بالدعوات وبدلاً من أن يذرف العبرات ، يضع يديه على خاضرتيه ، وينفخ صدره ، ويمطر المعجوز المحتضرة بوابل من الشتائم المقدعة ناراً لنفسه ، لأنها سلبته وعاء الحساء . لا شك في أنني أئمت ، ذلك أمر لا جدال فيه . ورغم أنني أصبحت منذ زمن طويل أعدّ ذلك الفعل غريباً عني ، لتقدم المهد أولاً ، ولتغير طبعي ثانياً ، فما زلت أشعر بأسف وحسرة ، حتى أنني أدهش من ذلك ، لا سيما وإنني إن كنت آئماً ولا شك ، فلست آئماً كل الأئم : فما الذي حملها على أن تموت في تلك اللحظة نفسها ؟ من الواضح على كل حال أن عذر ذلك العمل السيئ أن له بواعث نفسية ، وأنه ثمرة حالة سيكولوجية . ومع ذلك لم يهدأ بالي هدوءاً تاماً ولم تطمئن نفسي طمأنينة كاملة ، إلا حين قررت ، منذ نحو خمسة عشر عاماً ، أن أقف مبلغاً من المال على ملجأ من الملاجئ ، لا يواء امرأتين عجوزين ، لتكون أيامهما الأخيرة من حياتهما الأرضية أخف وطأةً على نفسيهما بفضل ظروف معاشية أفضل . حتى أنني أتوى أن استمر في وقف هذا المال إرثاً . تلكم هي القصة كلها . أعود فأقول : لعل في حياتي آئماً أخرى ، ولكن هذا الفعل الذي رويت لكم الآن قصته هو الذي يبدو لي أسوأ عمل ارتكبته في حياتي .

فما إن أنهى الجنرال كلامه حتى انبرى فردشتينكو يقول :

- انك ، يا صاحب السعادة ، بدلاً من أن تروي لنا قصة أسوأ عمل ارتكبته في حياتك ، رويت قصة أفضل عمل قمت به في حياتك ، فخيبت بذلك قال فردشتينكو .

وقالت ناستاسيا فيليوفنا بهدوء وإهمال :

- حقاً يا جنرال ... ما كنت أتصور أن يكون لك قلب طيب !

خسارة ...

فسألها الجنرال وهو يضحك ضحكة تحجب وتلطف :

— خسارة ؟ لماذا ؟

وشرب جرعة من السمبانيا ، بشيء من الاعتزاز •

جاء الآن دور آتانازى ايفانوفتش الذى هيا نفسه لرواية قصة هو أيضاً • كان الحضور يقدرون أنه ، كما فعل ايفان فيدوروفتش ، لن يرفض أن يروى قصة ، وكان بعضهم ، لأسباب معينة ، ينتظرون قصته بكثير من الشوق واللهفة ، وهم يلقون على ناستاسيا فيليوفا نظرات غتلسة • وبوقار عظيم يتفق ومهابته ، أخذ آتانازى ايفانوفتش يسرد واحدة من « قصصه اللطيفة » بصوت هادى • عذب • (يجب أن تذكر عابرين أن آتانازى ايفانوفتش رجل طويل القامة مهيب الطلعة ، على شيء من الصلح والشيب ؛ بدين بعض البدانة ، خداه زاهيتان رخوتان خاسفتان قليلاً • أسنانه صناعية • يرتدى ثياباً أنيقة فضفاضة ، ويلبس قميصاً ناصع البياض • يدها البضتان البيضاءون تخطفان الانتباه • فى بنصر يده اليمنى خاتم نمين من ماس) • فكانت ناستاسيا فيليوفا طوال مدة سرده قصته لا تنفك تنعم النظر فى شريط الداتيل الذى يزدان به كمها والذى كانت تقرصه باصبعين من يدها اليسرى ، فلم يُتَح لها أن تنظر الى القصص ولو مرة واحدة • بدأ آتانازى ايفانوفتش كلامه فقال :

— ان الشيء الذى يسهل مهمتى هو اننى مضطر اضطراراً مطلقاً أن أروى أسوأ فعل ارتكبته فى حياتى • فلا مجال فى مثل هذه الحالة لأى تردد ، فالضمير وذاكرة القلب يمليان على اختيار القصة ويفرضانها فرضاً • يجب على أن اعترف ، وأنا أشعر بغير قليل من المرارة ، أن بين الأعمال الطائشة و ... الصيانة التى ارتكبتها والتى قد يكون عددها لا نهاية له ، أن بين تلك الأعمال عملاً نُقِشت ذكره فى نفسى عميقة فلا سبيل الى نسيانها • حدث ذلك منذ قرابة عشرين عاماً • كنت عندئذ فى اقامة قصيرة بالريف عند أفلاطون أوردتسيف الذى انتخب منذ برهة وجيزة ماريشالا

للطبقة النيلة ، وكان يقضى أعياد آخر العام فى أراضيه مع امرأته الشابة .
وكان عيد ميلاد آنفيسا ألكسيفنا يقع فى تلك الفترة نفسها ، فكانت تهيئاً
لهذه المناسبة حفلة رقص . وفى ذلك الأوان كانت الرواية التى ألفها
الكسندر دوما الابن « غادة الكاميليا » رائجة رواجاً عظيماً فى المجتمع
الراقى ، وكانت قد أحدثت فى ذلك المجتمع ضجة كبيرة . وهى فى رأى
عمل أدبى لا يمكن أن يموت ، بل ولا يمكن أن يشيخ . كانت جميع السيدات
فى الريف متحمسة له أشد التحمس ، ولا سيما اللواتى قرأنه . فجمال
القصة ، وطرافة الموقف ، وأصالة الشخصية الرئيسية ، والتصوير المرفف
ليثية ملأى بالأمور الجذابة ، وجميع تلك التفاصيل الأخاذة المثورة فى
الكتاب (كاستعمال باقات من أزهار الكاميليا بيضاء وحمراء على التناوب) ،
الخلاصة أن الكتاب ، فى جملة وتفصيله ، كان قد أحدث أثراً كبيراً هز
نفوس الناس هزاً قوياً . وأصبحت أزهار الكاميليا موضة يتهافت عليها
الناس تهافتاً شديداً ، ويسعون إليها سعيًا محمومًا ، ويريدون شراءها مهما
يكن الثمن . وانى لأسألكم : هل يمكن أن يوجد كثير من أزهار الكاميليا
فى مقاطعة صغيرة حين يريد جميع الناس أن يشتروا أزهار الكاميليا لحفلات
الرقص ، ولو لم تكن حفلات الرقص هذه كثيرة . وكان بطرس
فورخوفسكى فى ذلك الأوان يموت حباً وهياماً بآنفيسا ألكسيفنا . لست
أدرى حتى هذه اللحظة هل كان بينهما شئ ، أقصد هل كان يمكن أن
يساوره أمل جدى . وانما المهم أن المسكين أخذ يسعى هنا وهناك
كالشيطان المسعور بغية الحصول على أزهار كاميليا لحفلة الرقص التى
ستقام بمناسبة عيد ميلاد آنفيسا ألكسيفنا . وكان قد عُرِف أن الكونتيسة
سوتسكى (من بطرسبرج) وهى صديقة زوجة الحاكم ، وصوفيا
بسبالوفا ، ستحييان حتماً ومعهما باقات من أزهار الكاميليا البيضاء . فكانت
آنفيسا ألكسيفنا ترغب فى أن يهدى أحد إليها أزهار كاميليا حمراء ليكتمل

بها تأثيرها وسحرها . فكان أفلاطون التعيس في أشد الضيق وأكبر الحرج .
انكم تعلمون ما واجبات الزوج : لقد تورط فوعد بباقة من أزهار الكاميليا
الحمراء . ولكن ما العمل ؟ ان كاترين ألكسندروفنا ميتستشيفا ، التى هى
أرهب منافسة لأنفيسا ألكسييفا فى كل شئ ، ، والتى يمكن أن توصف
العداوة بينهما بأنها عداوة تبلغ درجة الطمان ، كانت قد نشلت من المنطقه
كلّ ما فيها من أزهار الكاميليا قبل حفلة الرقص بيوم واحد . فماذا كانت
النتيجة ؟ كانت النتيجة أن آنفيسا ألكسييفا انتابتها نوبات بكاء ، وأغمى
عليها ، النخ ! لقد هلك أفلاطون ! ان من الواضح أن بطرس اذا استطاع
فى هذه اللحظة الحاسمة أن يحصل على الباقة المطلوبة ، فستحقق أموره
تقدماً كبيراً . ان العرفان بالجميل والشعور بالامتنان لا حدود لهما فى
حالات كهذه الحالات . أخذ بطرس يسمى هنا وهناك كمن مسّه جن ،
ولكن الأمر كان مستحيلاً ، حتى انه لا مجال للتفكير فيه ! وهأنذا ألقى
بطرس ، عشية عيد ميلاد آنفيسا ، عند جارة من جيران أسرة أوردتسييف ،
فأراه مشرق الوجه متهلل الأسارير .
سأله :

« - ماذا حدث ؟ »

« - وجدت ، أوريكا ! * »

« - انك لتهشنى حقاً ! كيف وجدت ؟ وأين ؟ »

« - بمدينة ايكاييسك (مدينة صغيرة بالمقاطعة المجاورة تقع على
مسافة لا تكاد تبلغ عشرين فرسخاً) . يوجد هناك تاجر طويل اللحية
واسع الثراء ، اسمه تريبالوف . يعيش مع امرأته وحيدى ويتخذان
عصافير الكنارى بمثابة أولاد ، ويهويان الأزهار هوى عظيماً ، وعندهما
أزهار كاميليا . »

« - ولكن هذا أمر غير مضمون . ماذا لو منعها عنك ؟ »

« - سأركع عندئذ أممه ، وأظل قابلاً على قدميه الى أن يوافق ،
نم لا أنصرف قبل أن يعطيني الأزهار !
« - متى تسافر اليه ؟
« - غداً في الفجر ، الساعة الخامسة .
« - طيب . أسأل الله أن يمدك بعون من عنده !
شعرت حقاً بسعادة كبيرة له . وعدت الى دار أسرة أوردتسيف .
وفيما كنت أهمُّ أن أمضي الى السرير لأنام ، خطرت ببالي على حين فجأة
فكرةٌ من أطرف الفكر . فسرعان ما ذهبت الى المطبخ ، فأبقت
سافيلي ، الحوذى ، ووعدته بخمسة عشر روبلاً إذا هو قرن الحيل بالعربة
فى خلال نصف ساعة . فما انقضى نصف ساعة حتى كانت العربة تنتظرني
عند الباب طبعاً . وقد أبلغت فى أثناء ذلك أن أنفيسا ألكسيفنا قد اتابها
صداع ، وألمت بها حمى ، وأنها تهذى .
ركبت العربة ، وانطلقنا . وتوقفت بعد الساعة الرابعة بقليل أمام
نزل ايسايك أنتظر طلوع الفجر ، فما ان طلع الفجر حتى استأنفت
المسير ؟ وفى الساعة السابعة كنت عند تريبالوف أحدثه فى أمرى .
قلت له :
« - هل عندك أزهار كاميليا ؟ كن أباً رحيماً ، ساعدنى ، أنقذنى ،
فأنحنى لك حتى الأرض محياً شاكراً .
ورأيت الشيخ طويل القامة ، مبيض الشعر ، قاسى الهيئة ، رهيباً
مخيفاً . وسمعه يقول :
« - لا ... لا ... لا ! لا تحاول ! عبثاً تحاول ! اننى أرفض !
وهاذا أسقط على قدميه ، وأنبطح ... نعم أنبطح انبطاحاً تاماً
كاملاً . فخاف الرجل ، وقال ينادينى :
« - ما هذا الذى تفعله يا بنى ؟ ما هذا الذى تفعله ؟ رباه !

فصحت أقول له :

« - ان حياة انسان هي المعرّضة للخطر !

« - طيب .. طيب ... خذ أزهار الكاميليا ... وكان الله معك !
فأخذت أجنى أزهار كاميليا حمراء ! كانت أزهاراً رائعة ، فتاة !
جنيت كل ما ضمته منها حديقته • وتهد الشيخ • فأخرجت من جيبي
ورقة نقد بمائة روبل • فقال :

« - لا يا بني ، لا تلحق بي هذه الالهة !

فقلت له :

« - طيب ، اذا كان الأمر كذلك ، ففضل بدفع هذه المائة روبل
لمستشفى المدينة ترفيهاً عن المرضى •
قال :

« - هذا ، هذا شيء آخر يا عزيزي ! هذا عمل طيب نبيل ، عمل
يرضى الله • سأقدم هذه الهبة نيابةً عنك •
أعجبني ذلك الشيخ ، ذلك الشيخ الروسي الأصيل ، الأصيل حقاً ،
الأصيل حتى الأرومة ، ذلك الشيخ الذي ينتمى الى ما يسمى باسم « الطبقة
الكريمة حقاً » •

وعدت أدراجي مفتوناً بالنجاح الذي حققته ، ولكنني سلكت طريقاً
ملتوية ، حتى لا ألتقي ببطرس • فما ان وصلت حتى أرسلت الباقة الى
آنفيسا ألكسيفنا لتفاجأ بها متى استيقظت من نومها • وفي وسعكم أن
تصوروا دهشتها ، وامتنانها ، والدموع الذي ذرفتها اعترافاً بالجميل !
وهذا هو أفلاطون الذي كان أسس متهدماً مدمراً ميتاً ، ها هو ذا يرتدى
على صدرى نائجاً • وا أسفاه ! ذلك هو شأن جميع الأزواج دائماً منذ
ابتدع ... الزواج الشرعى ! لا أجرؤ أن أضيف شيئاً الى ما قلت ، عدا

أن جميع آمال ذلك المسكين بطرس انهارت منذئذ انهياراً لا قيام لها بعده !
ولقد قدّرت في أول الأمر أنه سيدبحني اذا عرف الدور الذي قمت به
في هذه القضية ، حتى لقد تأهبت للأمر واستعددت ، ولكن حدث ما لم
يكن في وسمى حتى أن أتصور أن في الامكان أن يحدث : لقد أغشى
عليه ، وفي المساء أخذ يهدى ، وفي الغد كانت قد انتابته الحمى الدماغية ،
فهو يجهش باكيًا مع تشنجات شديدة كطفل • حتى اذا أبلّ من مرضه
بعد شهر ، طلب نقله الى القوقاز * • قصة كأنها رواية من الخيال • وانتهى
به المطاف الى ان قُتل في القرم ؛ وكان أخوه ستيفان فورجوفسكى قد
اشتهر في ذلك الأوان قائدًا متفوقًا لاحدى كتائب الجيش •

لا أنكر أنني ظلمت خلال سنين طويلة أعانى من عذاب الضمير :
لماذا طعنته تلك الطعنة ؟ ولقد كان يمكن أن يهون الأمر في نفسى لو أنني
كنت هائمًا مثله بحب آنفيسا ألكسيفنا • ولكن الأمر ليس كذلك ، وانما
كان « شطارة » منى أو « شيطنة » لا أكثر • ومن يدري ؟ فلولا أنني
سلبت الفتى باقة الزهر تلك ، لجاز أن يكون الى الآن حيًا ، سعيدًا ، بل
مغمورًا بسعادة طافحة ، ولا خطر بباله أن يمضى الى مقاتلة الأتراك •

أنهى آتانازى ايفانوفتش سرد قصته وقورًا رصينًا كما بدأها •
ولاحظ الحضور أن عيني ناستاسيا فيليوفنا قد قدحتا شررًا ، وأن شفتيها
قد اختلجتا حين ختم آتانازى ايفانوفتش كلامه • فأصبحتا محطّ الأنظار
المستطلعة •

هتف فردشتينكو يقول بصوت داعم ، اذ أدرك أنه أصبح يحسن بل
يجب أن يقول كلمته :

- ضحكوا على فردشتينكو ! خدعوه ! غشوه ! ذلكم هو ما يسمى
خداعاً وغشاً !

- لم يجبرك أحد على شيء ! كان عليك أن تفهم اللعبة فهماً أصح .
كان عليك أن تتعلمها من أناس أذكاء .

ان داريا ألكسيفا هي منذ مدة طويلة الصديقة الوفية والشريكة
الدائمة للسيد توتسكى .

قالت ناستاسيا فيليوفا باهمال وفطور :
- أنت على حق يا آتاناى ايفانوفتش . ان هذه اللعبة مضجرة مملة
تبعث السأم فى النفس ، وقد آن لنا أن تنتهى منها . سأقص عليكم الآن
ما وعدتكم به ، ثم ننقل جميعاً الى اللعب بالورق .
قال الجنرال مؤيداً بحرارة :

- ولكن يجب أن نسمع القصة التى وعدتنا بها قبل كل شيء !
قالت ناستاسيا فيليوفا بصوت واضح دون أن تتحرك ، قالت مخاطبة
الأمير :

- يا أمير ، ان صديقىَّ العزيزين ، الجنرال و آتاناى ايفانوفتش ،
يصران كثيراً على أن أتزوج . فقل لى رأيك : أيجب أن أتزوج أم لا ؟
سوف أقرر لنفسي ما تقررره أنت لى .

اصفرَّ وجه آتاناى ايفانوفتش ، وجمد الجنرال ، والتفت جميع
الروس نحو الأمير ، وحدّقت اليه جميع الأعين . وتجمّد جانيا فى مكانه .
سألها الأمير بصوت يضعف وينطفئ :

- تزوجين ... من ؟
فأجابته ناستاسيا فيليوفا بذلك الصوت نفسه ، الثابت القاطع
الواضح :

- جبريل آرداليوتتش ايفولجين .
ساد الصمت بضع لحظات . كان الأمير كمن يجهد أن ينطق بكلمة

واحدة دون أن يستطيع ذلك ، وكأن حملاً ثقيلاً كان يحتم على صدره
فيسحقه سحقاً . ثم هس يقول أخيراً وقد استرد أنفاسه بكثير من
المشقة والعناء :

— ل ... لا ... لا تتزوجيه !

فقلت ناستاسيا فيليوفا تخاطب جبريل آرداليوتش بصوت فيه
سلطة واضحة وفيه شيء من أبهة :

— ذلك ما سيكون . هل سمعت قرار الأمير ؟ انه يتضمن جوابي أنا
أيضاً . فلنفرغ من هذه القضية دفعة واحدة الى الأبد !

تمم آتاناى ايفانوفتش يقول بصوت مرتجف :

— ناستاسيا فيليوفا !

وأضاف الجنرال بصوت مؤثر لكنه قلق :

— ناستاسيا فيليوفا !

وسرت فى الحضور مهمة ، وظهرت بينهم حركات انفعال .

فقلت ناستاسيا فيليوفا وهى تنفّس فى وجوه ضيوفها مدهوشة :

— ماذا أيها السادة ؟ علام هذا الانفعال ؟ وفيهم استطلت وجوهكم

هذه الاستطالة ؟

ثاتا توتسكى متلعثماً متعشراً فى الكلام :

— ولكن ... تذكرى يا ناستاسيا فيليوفا أنك وعدت ... من

تلقاء نفسك ... دون ضغط أو اكراه ... وكان فى وسعك .. الى حد

ما .. أن تدارى وتراعى ... لا أكاد أستطيع أن .. ربما كنت مضطرباً

... لكن ... على كل حال ... الخلاصة : الآن ... فى لحظة كهذه

اللحظة ، وأمام هذا الحفل كله من الناس ، وبهذه الطريقة ... نختم

بهذه « اللعبة الصغير » قضية هي على هذا الجانب العظيم كله من خطورة الشأن ، قضية هي قضية شرف وقلب ... قضية يتوقف عليها ...

- حقاً لا أفهمك يا آتانا زى ايفانوفتش . انك تخطئ فى كلامك خبط عشواء ! أولاً : ما معنى قولك هذا : « أمام هذا الحفل كله من الناس » ؟ ألسنا هنا أصحاباً حميمين ؟ وما اعتراضك على هذه « اللعبة الصغيرة » ؟ لقد نويت حقاً أن أروى حكاية . وهأتا ذا فعلت . أليست حكايتي جميلة ؟ ما الذى يجردّها فى نظرك من الجد ، ويضفى عليها طابع اللعب ؟ ألم تسمعنى أقول للأمير : « سأقرر لنفسي ما تقررّه أنت لى » ؟ فلو قد قال « نعم » لوافقت فوراً ، أما وأنه قال « لا » ، فقد رفضت . فكيف تستطيع أن تصف ذلك بأنه خال من الجد ، بينما كان مصيرى كله مرهوناً بكلمة واحدة . هل يمكن أن يكون هناك جدٌ أكبر من هذا الجد ؟

دمدم الجنرال يقول وهو لا يستطيع أن يكظم غيظه من هذه السلطة المهينة التى منحت للأمير :

- ولكن لماذا الأمير ؟ ثم ، ما مجيئ الأمير الى هنا ؟ ماذا جاء يعمل ؟
- انا انما استشرت الأمير ، لأنه أول شخص آمنت بأنه مخلص لى اخلاصاً تاماً كاملاً . لقد آمن هو بى منذ أول نظرة ألقاها علىّ ، وأنا أومن به أيضاً .

وأخيراً نطق جانيا فقال بصوت مرتجف وقد شحب لونه وانعقف فمه بجعدة عجيبة :

- لم يبق لى الا أن أشكر لاساتاسيا فيليوفنا ما عمدت اليه من لطف عظيم ورهافة قصوى ... فى حقى . طبعاً كان لا بد أن تجرى الأمور هذا المجرى . ولكن ... الأمير ... فى هذه القضية ... انما ...

- ... يسعى الى الحصول على الخمسة وسبعين ألف روبل ، أليس كذلك ؟

بهذا قطعت ناستاسيا فيليوفا كلام جانبا فجأة • وتابعت تقول :
- أهذا ما كنت تريد أن تقوله ؟ لا تدافع عن نفسك ! هذا ما كنت
تريد أن تقوله حتماً ! يا آنازى ايفانوفش ، لقد نصيت نسياناً تاماً أن
أضيف ما يلى : استردّ الخمسة وسبعين ألف روبل ، واعلم أنتى أعتقك
مجاناً ! يكفي هذا ! أنت أيضاً محتاج الى أن تتنفس ! تسع سنين وثلاثة
أشهر ! غداً تبدأ الحياة الجديدة ! أما اليوم فنحتفل بعيد ميلادى ، وهذه
أول مرة أستقل فيها بنفسى ، وأتحرر من غيرى ! يا جنرال ، استردّ أنت
أيضاً لآلئك ، واهدّها الى زوجتك ! اليك اللآلىء ! خذها ! وسوف أترك
هذه الشقة منذ غد ، فلا سهرات بعد اليوم أيها السادة !

قالت هذا الكلام ونهضت كأنما لتخرج •

فارتفعت أصوات من كل صوب تناديها :

- ناستاسيا فيليوفا ! ناستاسيا فيليوفا !

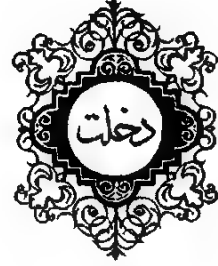
واضطرب الجميع ، وبارحوا أماكنهم ، وأحاطوا بها ، وأخذوا
يصفون فى قلق شديد الى أقوالها المتقطعة المحمومة الهاذية • كانوا
يشعرون جميعاً بأن فى هذا نوعاً من اختلال ، أو من جنون ، دون أن
يفهموه ، أو أن يستطيعوا تعليله لأنفسهم •

وفى تلك اللحظة دقّ جرس الباب على حين فجأة دقة قوية تشبه
من جميع النواحي الرنة التى ترجعت فى بيت جانبا بعد الظهر من ذلك
اليوم •

فهتفت ناستاسيا فيليوفا تقول :

- ها ... جاءت الخاتمة ! أخيراً ! الساعة هي الحادية عشرة
والنصف • أرجوكم أن تجلسوا أيها السادة • لقد حان موعد الخاتمة !
قالت ذلك وعادت تجلس • وكانت تنبض على شفيتها ضحكة غريبة •
وصمتت تنتظر انتظاراً محموماً وهي تنظر الى الباب •
دمدم بتسين يقول لنفسه :
- لا شك في أنه روجوين قد جاء بالمائة ألف روبل !

الفصل الخامس عشر



الخدمة كاتيا * مرتاعة أشد الارتياح ، وقالت :
- حدث ما لا يعلمه الا الله يا ناستاسيا فيليوفنا !
هناك نحو عشرة أشخاص اجتاحوا حجرة المدخل
سكاري يطلبون الدخول . وقد سألتني أن أبلغ
عن وصول روجيين ، وزعموا أنك على علم بالأمر .

- صحيح يا كاتيا ، أدخلهم فوراً !
- حقاً ؟ أدخلهم جميعاً يا ناستاسيا فيليوفنا ؟ ان حالتهم فظيعة ،
انهم مخيفون !

- جميعاً ، أدخلهم جميعاً يا كاتيا ، لا تخشي شيئاً ، أدخلهم حتى
آخرهم ، والا دخلوا دون أن تأذني لهم بالدخول . هل تسمعين الضجة
التي يحدثونها منذ الآن ؟ انها عين الضجة التي أحدثوها بعد الظهر من
هذا اليوم !

ثم قالت ناستاسيا فيليوفنا ملتفتة الى ضيوفها :

- أيها السادة ، ربما أزعجكم أن أستقبل عصابة كهذه العصابة
بحضوركم . أنا آسفة . سامحوني . ولكن لا بد من ذلك . انني أرغب
كثيراً في أن توافقوا على أن تكونوا شهودي في هذه الحادثة ، ولكن لكم
ما تشاءون طبعاً !

استمر الحضور فى دهشتهم يتهايمون ويتبادلون النظرات • لقد أصبح واضحاً كل الوضوح أن ذلك كله كان محسوباً مرتباً مهياً ، وأنه بات من المستحيل اكراه ناستاسيا فيليوفنا على ترك فكرتها ، رغم أنها قد جنّت طبعاً ! وكان حب الاطلاع قد استبد بهم جميعاً ، ولم يكن هناك ما يدعو أحداً منهم الى أن يرتاع ارتياحاً شديداً على كل حال • لم يكن بين الحضور الا سيدتان اثنتان : داريا ألكسيفنا ، وهى امرأة محزنة سبق أن رأت فى حياتها أموراً كثيرة ، وليس ترويعها بالأمر السهل • تلك هى السيدة الأولى • أما الثانية فهى تلك المرأة المجهولة الصموت التى كانت على جانب عظيم من الجمال • لكن المجهولة البكماء كانت فى أغلب الظن عاجزة عن ان تفهم أى شىء • انها ألمانية كانت مارةً ببطرسبرج ، وهى تجهل الروسية • ورغم أنها لم تصل الا منذ مدة قصيرة ، فقد جرت العادة أن تدعى الى بعض الحفلات • انها ترتدى ثياباً جميلة فاخرة ، وتصفّف شعرها كأنها متأهة لدخول مسابقة ، فالتاس يدعونها الى الحفلات صورة فتاة تزين السهرة ، تماماً كما يُزيّن البيت بلوحة أو آنية خزف أو تمثال أو قطعة أثاث ثمينة تُستعار من الأصدقاء فى المناسبات •

وأما عن الرجال فان بتسين ، مثلاً ، صديق للفتى روجوين • وفردشتينكو يشعر بأنه أشبه بسمكة فى الماء • وجانيا الذى لم يستطع بعد أن يثوب الى رشده ، كان يشعر شعوراً لا يقاوم ، رغم انه شعور مبهم ، بحاجة الى أن يبقى حتى النهاية مسمرّاً فى مكانه أمام الناس • ومعلم المدرسة العجوز الذى لم يفهم شيئاً كثيراً مما كان يحدث ، قد أوشك أن يجهش باكياً ، وكان يرتجف من الخوف ارتجافاً ، لشعوره بجو القلق والخشية حول ناستاسيا فيليوفنا التى يحبها كما يحب حفيدته ؛ ولكنه يؤثر أن يموت على أن يترك ناستاسيا فيليوفنا فى لحظة كهذه اللحظة • وفيما يتعلق بآنانازى ايفانوفتش ، فانه كان لا يستطيع طبعاً أن يمرّض

نفسه لأحداث من هذا النوع تسيء إليه وإلى سمعته ، ولكنه كان مرتبطاً بهذه القضية ارتباطاً شخصياً قوياً ، فهو مشدود إليها لا يستطيع منها فكاًكاً ، رغم المجرى الجنونى الذى أخذت تجرى فيه ! لذلك قرر أن يبقى حتى النهاية ، صامتاً مع ذلك ، مكتفياً بالمشاهدة كما يقتضى وقاره ، وكما تقتضى كرامته ومهابته ! والجنرال ايباتشين الذى سبق أن أهين قبل لحظات بتلك الطريقة السخيفة فى ردِّ هديته إليه ، كان هو الشخص الوحيد الذى يحق له أن يزداد غضبه ، لما يراه من هذه الأنواع الجديدة من الشذوذ ، كظهور روجويين مثلاً . ان من كان فى مثل رتبته ، حسب تساهلاً وتنازلاً أن يرضى المشاركة فى سهرة تضم أشخاصاً مثل بتسين أو فردشتينكو . لقد غلبه الهوى على أمره ، فسقط تلك السقطه . ولكن الشعور بالواجب واعتبار الرتبة والمركز ، واحترام الذات ، قد انتصرت أخيراً ، فأصبح لا يطيق وجود روجويين وعصبته . لذلك التفت نحو ناستاسيا فيليوفا يريد أن يعبر لها عن ذلك ، ولكن ما ان فتح فمه وهم بالكلام حتى قاطعته تقول :

- آآآ جنرال . . . لقد نسيتك . ولكن ثق اننى قد تنبأت باعتراضك . فاذا كنت متضايقاً تضايقاً شديداً ، فانتى لا ألح عليك ولا أحب أن احتجزك ، رغم أنك أنت من أرغب أقوى رغبة فى أن يكون بقربى هذه اللحظة . مهما يكن من أمر ، فأنا أشكر لك المتعة التى هياتها لى معرفتى بك ، وأشكر لك التفاتك الكريمة التى أعتر بها ، ولكن اذا كنت تخشى أن . . .

فهتف الجنرال يقول وقد استولت عليه نوبة من روح الفروسية السمحة السخية :

- عفوك يا ناستاسيا فيليوفا ! لمن تقولين هذا الكلام ؟ لأبقياً بقربك ولو لمجرد الاخلاص لك والتفانى فى سبيلك ، فاذا وجد خطر من

الأخطار مثلاً ... ثم انتهى متعجب أشد التعجب ، اعترف لك بذلك .
أريد ان أقول ان من الممكن أن يفسدوا السجاد ، حتى لقد يكسرون شيئاً
من الأشياء ... فالحق أنه ما ينبغي أن يُسمح لهم بالدخول أبداً ياناستاسيا
فيليوفا !

قال فردشتينكو معلناً :

— هذا روجوين بشخصه !

وهمس الجنرال يسأل آتازرى ايفانوفتش مسرعاً :

— ما رأيك ؟ ألا تظن أنها جُنت ؟ لا أقصد بالجنون معناه المجازي

بل معناه الطبي ، الطبي ..

فأجابه توتسكى قائلاً بشيء من المكر والحيل :

— قلت لك منذ زمان طويل ان بها استعداداً للجنون ...

— تضاف الى ذلك الآن حالة الحمى هذه ...

كانت عصبة روجوين تتألف تقريباً من أولئك الأفراد أنفسهم
الذين كانت تتألف منهم بعد الظهر من ذلك اليوم ؛ وانما أضيف اليها
الآن شيخ ضئيل فاسق كان في زمانه مديراً لصحيفة حقيرة من الصحف
التي تقدم اليها الرشوات خوفاً من التشهير ويُرَوى عنه أنه رهن أسنانه
الذهبية ليشرب بشنها خمراً ؛ وقد أضيف الى العصبة أيضاً ملازم ثان
محال على التقاعد ، يشبه ذلك الذي رأيناه بعد الظهر متميزاً بقبضتى يديه
القويتين ؛ وهو فى الحق نذل له ومنافس ، بالهنة والوظيفة معاً ! ان جميع
افراد عصبة روجوين كانوا لا يعرفونه ، ولكنهم التقطوه فى الطريق على
رصيف شارع نفسكى ، الذى تفره أشعة الشمس ، حيث كان يستوقف
المارة ليطلب منهم مساعدة ، بأسلوب يشبه أسلوب مارلنسكى * ، زاعماً
لهم أنه « كان هو نفسه فى الماضى يهب لكل سائل من السائلين عشرة

روبلات أو خمسة عشر روبلاً ، ولم يلبث الندآن المتنافسان أن شعرا
بعداوة متبادلة ، فالسيد ذو القبضتين يرى أنه قد أهين اهانة مباشرة حين
ضمَّ هذا « السائل » الى الجماعة ، ولكنه بحكم طبعه الصموت كان
لا يزيد على أن يصدر همهمات كههمات دب ، ويقابل بأشد الاحتقار
محاولات التودد الكثيرة ، والانحناءات اللطيفة التي كان يقوم بها «السائل»
اظهاراً لأدبه ورفقه . كان واضحاً أن الملازم الثاني هو من أولئك الذين
يؤثرون ، من أجل أن يشقوا لأنفسهم طريقاً ، يؤثرون حسن التصرف
وبراعة التدبير على استعمال القوة والعنف؛ هذا الى أن قامته أقل ضخامة من
قامة السيد ذي القبضتين القويتين . وقد أثار عدة مرات ، بطريقة مرهقة ،
دون أن يثير نقاشاً صريحاً ، ولكن بشيء من التفاخر والتباهي ، الى أفضلية
الملاكمة الانجليزية (البوكس) ، مفصحاً بذلك عن أنه رجل غربي
المذهب والاعتقاد . فكان السيد ذو القبضتين الضخمتين ، حين يسمع كلمة
«البوكس» ، لا يزيد على أن يتسم ابتسامة تهكم وغضب ، وكان لاحتقاره
كل مجادلة ، يقتصر بين الفينة والفينة ، في صمت وبما يشبه المصادفة ،
على أن يظهر أو يمدّ الى أمام ذلك الشيء الوطني جداً ، الروسي
جداً : قبضة ضخمة نامية العضلات كثيرة العقد مغطاة بشعر أحمر . فكان
يتضح للجميع حينذاك أن هذا الشيء الوطني جداً اذا هو هوى على هدفه
باحكام ، استطاع أن يهشمه تهشماً .

وكما لوحظ بعد الظهر من ذلك اليوم ، لم يكن أحد من عصابة
روجوين سكران سكرأ شديداً ، وذلك بفضل جهود روجوين الذي ظل
طوال النهار لا تقيب عن فكره زيارة ناستاسيا فيليوفنا في بيتها . وقد اتسع
وقته هو نفسه لأن يصحو من السكر صحوأ شبه كامل . ولكنه في مقابل
ذلك ، بعد جميع تلك المشاعر التي غاناها في ذلك اليوم العجيب ، والتي
لا تشبه في شيء كل ما سبق أن عرفه طوال حياته ، كان مرهقاً مخبولاً .

ان شيئاً واحداً قد ظل ماثلاً في ذهنه وفي ذاكرته وفي قلبه بغير انقطاع .
ومن أجل ذلك كان قد قضى وقته كله ، منذ الساعة الخامسة بعد الظهر
حتى الساعة الحادية عشرة من المساء ، وهو في حالة همٍّ وغمٍ وقلق
لا حدود لها ، قضى وقته كله ساعياً وهناك عند أمثال كندر وأمثال
بيسكوب اللذين شارفا على الجنون هما أيضاً من ككرة ما تحركا في سبيل
قضاء حاجته وتدير أمره . المهم على كل حال أن المائة ألف روبل ، عدأً
ونقداً ، التي أملت إليها ناستاسيا فيليوفنا الماعاً خاطفاً ساخراً ، وغامضاً كل
الغموض ، قد أمكن جمعها قروضاً بفوائد باهظة تبلغ من الفداحة أن
بيسكوب نفسه كان يستحي أن يتحدث فيها مع كندر الا همساً .

وكما حدث بعد الظهر من ذلك اليوم ، كان روجوين يتقدم عصبته
ويسير في طليعتها ، وكان رجاله يمشون وراءه ، مدركين لتفوقهم ،
شاعرين مع ذلك بشيء من الخشية . وكانت ناستاسيا فيليوفنا هي التي
يخشونها خاصة ، لا يدرى الا الله لماذا ! حتى لقد كان بعضهم يتصور
أنهم « سوف يُرمون الى أسفل السلم » . وكان زالبوجيف ، المغوى
الأنيق ، واحداً من هؤلاء . غير أن بينهم رجالاً آخرين ، ولا سيما
صاحب القبضتين الجبَّارتين ، كانوا في قرارة أنفسهم يحترقون ناستاسيا
فيليوفنا احتقاراً مطلقاً ، بل وكانوا يكرهونها كرهاً شديداً ، وكانوا
يشعرون أنهم انما ذهبوا الى بيتها ذهابهم الى مدينة محاصرة . ومع ذلك
فان الترف العظيم الذي رأوه في الحجرتين الأولين ، وجميع هذه الأشياء
التي لم يتح لهم طوال حياتهم حتى أن يحلموا بمثلها ، والأثاث النادر
واللوحات الجميلة وتمثال فينوس الكبير ، كل هذا قد أحدث في نفوسهم
احتراماً لا سبيل الى مغالته ، بل وأحدث في نفوسهم ما يشبه الخوف .
على أن هذا لم يمنهم طبعاً من أن يتسللوا الى الصالون وراء روجوين
قليلاً قليلاً ، بفضل وقح ، رغم ما شعروا به من خوف . ولكن حين

رأى صاحب القبضتين الضخمتين و « السائل » وبضعة أشخاص آخرين ، حين رأوا الجرال اياتشين بين المدعويين ، خارت قواهم حتى همّوا أن ينسحبوا الى الفرقة المجاورة ، الا واحداً منهم هو ليديف الذى لم يتزعزع ، حتى لقد كان يمشى مع روجوين جنباً الى جنب تقريباً ، لادراكه قيمة مبلغ هو مليون واربعمائة ألف روبل يحمل روجوين بيده منه مليوناً كاملاً . يحسن أن نلاحظ مع ذلك أن الجميع ، ومنهم ليديف المعارف بالقانون ، كانوا لا يدركون حدود سلطتهم على وجه الدقة ، ولا يعلمون هل كل شئ مباح لهم الآن حقاً أم هو غير مباح . ففى بعض اللحظات كان ليديف مستعداً لأن يحلف أن كل شئ مباح ، وفى لحظات أخرى كان يتابه قلق ويشعر بالحاجة الى أن يتذكر بعض مواد القانون - استعداداً للطوارئ - ولا سيما المواد التى تشجع وتطمئن .

أما الأثر الذى أحدثه صالون ناستاسيا فيليوفنا فى نفس روجوين فكان مختلفاً عن الأثر الذى أحدثه فى نفوس أصحابه كل الاختلاف . فانه ما ان أزيحت الستارة أمامه ، فأبصر ناستاسيا فيليوفنا ، حتى أصبح كل ما عداها لا وجود له فى عالمه ، كما حدث له هذا بعد الظهر ، غير أنه حدث الآن على نحو أتم وأكمل . واصفّر وجهه وتوقف لحظة من الوقت . ان المرء يستطيع أن يتصور شدة خفقان قلبه . حدّق الى ناستاسيا فيليوفنا بضع لحظات ، وجلّ الهيئة زائغ العقل ، لا يحوّل عنها بصره . ثم اقترب من المائدة فجأة كمن فقد عقله وهو يكاد يترنح ، فاصطدم أثناء خطوه بكرسى بتسين وداس بحذاءيه الوسخين شريط الداتيل الذى يزيّن حافة الثوب الأزرق المترف الباذخ الذى ترتديه الألمانية الصموت الرائمة الجمال . فلم يعتذر عن ذلك ، بل ولم يلاحظه . فلما دنا من المائدة وضع عليها شيئاً غريباً كان قد دخل به ممسكاً اياه بيديه كليهما . هو حزمة سمكة من ورق ، يبلغ علوّها نحو اثنى عشر سنتيمتراً ويبلغ

طولها نحو ستة عشر؟ قد لُفَّتْ بعدد من أعداد جريدة «أنباء البورصة» * ،
وأحكم ربطها بخيط متين • وضع روجوبين الحزمة على المائدة ، ووقف ،
ولبت على هذه الحال متهدل الذراعين لا ينطق بكلمة واحدة ، كاللثم
الذى ينتظر صدور حكم المحكمة • لم تتغير ثيابه التى كان يرتديها بعد
الظهر ، فيما عدا منديل من حرير أخضر وأحمر معقود حول عنقه
بدبوس ضخّم من الماس على شكل فراشة ، وفيما عدا خاتم كبير له فص
ضخم من ماس تزدان به اصبع متسخة من أصابع يده اليمنى •

وكان ليديف قد توقف على مسافة بضع خطوات من المائدة • أما
الآخرون فكانوا ، كما سبق أن ذكرنا ذلك ، يتسللون الى الصالون قليلاً
قليلاً • وقد هرعت كاتيا وباشا * ، خادمتا ناستاسيا فيليوفنا ، هرعتا
هما أيضاً ، وأخذتا تلقيان من وراء الستارة نظرات مبهوطة قلقة •

قالت ناستاسيا فيليوفنا تسأل روجوبين بعد أن تفرست فيه محدقة
مستطلعة ، قالت تسأله وهى تومىء بعينها الى « الشئ » :

— ما هذا ؟

فأجاب روجوبين يقول بما يشبه أن يكون زفرة :

— مائة ألف !

— وفى بوعده مع ذلك ... هل رأيتم ؟ اجلس من فضلك ، هنا ،
على هذا الكرسي • سأقول لك شيئاً بعد قليل • من هؤلاء الذين جثت بهم؟
كل العصبة التى كانت معك بعد الظهر ؟ طيب ، فليدخلوا • يستطيعون أن
يجلسوا على ذلك الديوان هناك ، وعلى هذا الديوان الآخر ، وعلى هذين
المقعدين ... ماذا ينتظرون ؟ ما بالهم لا يدخلون ؟ ألا يريدون أن
يدخلوا ؟

كان بعضهم قد شعروا بالوجل فعلاً ، فانسحبوا الى الغرفة المجاورة

واستقروا بها ينتظرون الأحداث ، ولكن بعضاً آخر بقوا فجلسوا حيث
دعوا الى الجلوس ، مؤثرين مع ذلك أن يظلوا بعيدين عن المائدة ،
ولا سيما فى الأركان ، فمنهم من لا يزال يرغب فى الامحاء فعلاً ، ومنهم
من كان يسترد جرائته بسرعة تفوق الحد الطبيعى .

وجلس روجوين على الكرسي الذى عينته له هو أيضاً ، لكنه لم
يبق جالساً مدة طويلة ، فما لبث أن عاد ينهض ولم يجلس بعد ذلك .
وشياً فشيئاً أخذ يميز المدعوين ويتصفح وجوههم . فلما رأى جانبا
ابتسم ابتسامة مسمومة ودمدم يقول بينه وبين نفسه : « هه ! » . ولاحظ
وجود الجنرال ووجود آتاناى ايفانوفتش فلم يضطرب أى اضطراب ،
بل ولم يشعر بأى استغراب . ولكنه حين أبصر الأمير الى جانب ناستاسيا
فيليوفا لبث مدةً طويلة لا يستطيع أن يحوّل عنه نظره المدهوشة ،
وكأنه عاجز عن أن يعلل لنفسه هذا اللقاء . ان من يراه يحس فى بعض
اللحظات أنه يعاني نوبة هذيان حقاً . فهو ، عدا الانفعالات التى كابدها
طوال هذا اليوم ، كان قد قضى الليلة الماضية كلها فى القطار ، ولم يكن
قد نام خلال ثمان وأربعين ساعة تقريباً .

قالت ناستاسيا فيليوفا وهى تلثف نحو ضيوفها وقد ظهر فى وجهها
تحدٍ زاهرٌ بتململ محموم :

— يا سادة ، هذه مائة ألف روبل ! هنا ، فى هذه الحزمة القذرة :
ان هذا الرجل الذى ترون قد صرخ يقول كالمجنون بعد الظهر من هذا
اليوم انه سيحيى فى المساء بمائة ألف روبل ، وقد انتظرتة . انه يجيئنى
بالمال ليشترينى . بدأ بشمانية عشر ألف ، ثم ارتفع بوثة واحدة الى أربعين
ألفاً ، ثم ارتفع أخيراً الى المائة ألف التى ترون . لقد وفى بوعده على كل
حال ! هيه . . ما أشد اصفرار وجهه ! . . حدث هذا كله منذ مدة قصيرة
فى بيت جانيتشكا . ذهبت الى الأسرة التى كانت ستصير أسرئى ، ذهبت

أزور أمه ، فاذا بأخته تصرخ فى وجهى قائلة : « هل يمكن ألا يكون هناك أحد يُخرج هذه الوقحة ؟ » • ورمت وجه أخيها ببصقة فى الوقت نفسه • قوية الشكيمة !

قال الجنرال بلهجة العتب ، وقد أخذ يفهم القضية قليلاً على طريقته :
- ناستاسيا فيليوفنا !

فقلت ناستاسيا :

- ماذا يا جنرال ؟ أترك تعدُّ كلامى هذا غير لائق ؟ كفانى تمثيلاً !
لقد ظلمت سنين ، فى شرفتى من « المسرح الفرنسى » ، أعرض نفسى مثلاً للفضيلة التى لا سبيل الى الاقتراب منها ، وظلمت أفرس كالتوحشة من جميع أولئك الذين كانوا يلاحقوننى ويطاردوننى ، وظلمت اصطنع هيئة البراءة المتكبرة المتعالية ، فما كان ذلك كله الا سخافة وجنوناً ! انظر ...
لقد جاء رغم ذلك ، رغم تلك السنين الخمس التى قضيتها متمسكةً بأهداب الفضيلة ، جاء يضع المائة ألف روبل على المائدة ؟ ولا شك فى أنهم أعدوا عربات الترويكما ، وأن العربات تنتظرنى • لقد قدَّر لى سعراً هو مائة ألف روبل ! يا جانيشكا ، أرى أنك ما تزال غاضباً منى • ولكن هل صحيح أنك أردت أن تدخلنى فى أسرتك ، أنا التى « أصلح لأمثال روجويين » !
ألم تسمع ما قاله الأمير منذ قليل ؟

تسم الأمير بصوت مختلج :

- أنا لم أقل أنك تصلحين لروجويين ؛ أنت لم تُخلقى لمثل

روجويين •

انفجرت داريا ألكسيفنا تقول فجأة :

- ناستاسيا فيليوفنا ! كفى يا عزيزتى ! كفى يا يمامتى ! اذا صحَّ

أنك أصبحت لا تطيقينهم ، فما الذى يحملك على مداراتهم ؟ ولكن هل من الممكن أن تقبلى الرحيل مع هذا الرجل ، ولو فى سبيل مائة ألف

روبل ؟ صحيح أن مائة ألف روبل ليست شيئاً يسيراً ! ولكن ما عليك الا أن تأخذها ، هذه المائة ألف روبل ، ثم تتخلصى من الرجل الذى قدمها اليك . ذلك ما يجب فعله مع أمثال هؤلاء الناس . لو كنت فى مكانك لعرفت كيف أسيرهم جميعاً

كانت داريا ألكسيفنا قد بلغت حدَّ الغضب . انها امرأة طيبة القلب ، سريمة التأثير .

قالت لها ناستاسيا فيليوفنا مبتسمة :

- لا تفضى يا داريا ألكسيفنا ! لقد كلمت جانبا دون غضب . هل وجهت اليه أى لوم ؟ صحيح أنتى لا أستطيع أن أفهم الآن كيف أمكن أن أبلغ من الغباء حدَّ الطمع فى الدخول الى أسرة كريمة شريفة . لقد رأيت أمه ، وقبلت يدها . أما عن سلوكى فى بيتك يا جانيتشكا فقد تممته تمداً ، من أجل أن أدرك ، مرةً أخيرة ، المدى الذى يمكن أن تمضى اليه : وانى لأعترف لك بأنك أثرت دهشتى . كنت أتوقع أشياء كثيرة . لكننى لم أتوقع هذا ! كيف تريد أن تتزوجنى وأنت تعلم أنه قدَّم الى لآلىء كملك اللآلىء عشية زواجك تقريباً ، وانى قبلت أخذها ؟ وروجوين؟ انه فى بيتك نفسه ، أمام أمك وأختك ، انما ساوم على . ورغم ذلك جئت تطلبنى للزواج ، حتى لتكاد تصطحب اختك . أصبح اذن ما قاله عنك روجوين من أنك مستعد فى سبيل ثلاثة روبلات أن تزحف منبطحاً على بطنك حتى جزيرة فاسيلفسكى ؟ *

قال روجوين فجأة بصوت خافت ، ولكن بلهجة فيها اقتناع كامل :

- انه مستعد أن يفعل ذلك !

وتابعت ناستاسيا فيليوفنا كلامها تقول :

- لو كنت تموت جوعاً لعدرتك . ولكن يظهر أنك تقبض رواتب طيبة ! ثم انك ، عدا المار ، لا ترفض أن تتزوج امرأة تكرها (ذلك أنك

تكرهني ، فأنا أعرف ذلك حق المعرفة) . لا ، لا ، انتي مستعدة لأن
أصدق الآن أن رجلاً مثلك يمكن أن يقتل في سبيل أن يحصل على
مال ! هذا شأن جميع الناس الآن . انهم ظالمون الى المال ظمًا يفقدهم
عقولهم ! حتى الأطفال يحلمون بأن يكونوا مرابين ؟ أو هم يأخذون
سكيناً فيلفونها بحريز ، ويتسللون بهدوء ورفق وراء رفيق لهم ليذبحوه
كما يُذبح خروف * . قرأت عن هذا حديثاً . يمكن أن توصف بأنك
رجل لا حياة له . وأنا أيضاً امرأة بغير حياة ، ولكنك أسوأ مني . أما صاحب
بقعة الأزهار ، فلا أتكلم عنه الآن

هتف الجنرال يقول آسفاً أشد الأسف :

- أأنت من أسمع ياناستاسيا فيليوفا ؟ أتقولين مثل هذا الكلام ، أنت
ذات الشعور الرقيق ، والفكر المرهف ؟ ما هذه اللغة ؟ ما هذه التعابير ؟
أخذت ناستاسيا فيليوفا تضحك قائلة :

- أنا الآن سكرى يا جنرال ، أحب أن ألهو وأقص ! ان هذا
اليوم يومى ، هو يوم عيسى ، هو يوم فرحى الذى انتظرت طويلاً !
يا داريا ألكسيفا ، انك تريه ، ذلك السيد ، « صاحب أزهار الكاميليا » ،
الذى يضحك هناك ، الذى يضحك منا

- أنا لا أضحك يا ناستاسيا فيليوفا . أنا لا أزيد على أن أصغى
بأكبر انتباه .

كذلك ردَّ توتسكى على ناستاسيا فيليوفا بوقار وورصانة . وتابع
ناستاسيا كلامها تقول :

- انك تريه . لماذا عذبت طوال خمس سنين دون أن أردَّ اليه
حريته ؟ هل كان يستحق منى ذلك العناء كله ؟ انه ما يجب أن يكون ،
لا أكثر من ذلك ولا أقل ولسوف يحكم علىَّ بأننى أنا المذنبه فى
حقه . لقد ضمن لى تششة راقية وتربية عالية وعالى كما تُعال

كوتيسه ، وما أكثر ما أنفق في سبيل من مال ! حتى لقد عثر لي هناك على رجل شريف ليتزوجني ، وعثر لي هنا على جانيشكا . وفوق ذلك كله ، هل تصديق أني لم أعاشره خلال تلك السنين الخمس كلها ، وإنما كنت آخذ ماله وأظنني صاحبة حق فيه ؟ إلى هذا الحد اختلطت في عقلي الأمور ! تقولين لي إن عليَّ أن آخذ المائة ألف روبل وأن أطرده هذا الشاب الذي يهدىها إليَّ إذا كنت أشتري منه . الحق أنني أشتري ... لقد كان في وسعي أن أتزوج ، منذ زمن طويل ... وكان في وسعي أن أتزوج رجلاً خيراً من جانيا ، ولكن ذلك أيضاً كان يثير اشترازي . لماذا قضيت إذن هذه السنين الخمس أشتري كرهى وأغذى بغضى ؟ هل تصديق أنني بلغت حدَّ التساؤل أحياناً منذ أربع سنين : « لماذا لا أتزوج صاحبي آتاناى ايفانوفتش ؟ » . كان ذلك يخطر ببالى من قبل الحقد والنصر . الله يعلم ما الذى كان يجول في فكري حينذاك ! وكنت أستطيع طبعاً أن أجبره على أن يتزوجني ! هو نفسه كان لا يرجو خيراً من ذلك ، هل تصديق ؟ صحيح أنه كان يكذب ولكنه كان ملتهاً فلا يطيق صبراً . أحمد الله على أنني قد أتيت لي أن أفكر فاتتهيت إلى أنه لا يستحق منى كل ذلك الكرم ! فبلغت عندئذ من شدة الاشتزاز منه أنني لو طلب أن يتزوجني لرفضت . واستمر ذلك التمثيل خمس سنين ! لا ، لا ، من الأفضل أن أنزل إلى الشارع ، فهناك مكانى ! أو أن ألهو وأقص مع روجوين ، أو أن أعمل غسالة منذ الغد ! ذلك أن كل ما أحمله ليس ملكي ، فإذا انصرفت رمت له كل شيء ، كل شيء ، حتى آخر خرقه ، ومن ذا الذى يمكن أن يريدنى بعد ذلك ، بعد أن أصبح فقيرة معدمة ؟ أسألى جانيا هل يريدنى بعد أن أفعل هذا ؟ حتى فردشتينكو لن يقبل ! ...

فأطعها فردشتينكو قائلاً :

— جائر ألا يرغب فيك فردشتينكو ! اننى رجل صريح ! ولكن فى

مقابل ذلك ، يمكن أن يتزوجك الأمير في هذه الحالة • انك الآن تشكين ،
فهلاً نظرت الى الأمير ! اننى أراقبه منذ مدة طويلة •••

التقت ناستاسيا فيليوفنا الى الأمير مستطلعة • وسألته :

- أهذا صحيح ؟

فقال الأمير لاهناً :

- صحيح •

- أتزوجني كما أنا ، بدون شيء ؟

- نعم يا ناستاسيا فيليوفنا •••

دمدم الجنرال يقول :

- وهذا شيء جديد !••• كان يمكن أن تتوقع ذلك !

وحدق الأمير بنظرة قاسية أليمة نافذة الى وجه ناستاسيا التى ماتزال
تنفرس فيه •

قالت وهى تلتفت نحو داريا ألكسيفنا من جديد :

- هذا شخص آخر يتقدم ! وانه ليفعل راضياً ، أنا أعرف ذلك •
لقد وجدت محسناً ، وان يكن صحيحاً فى أغلب الظن ما يقال من أنه ••
قليلاً ! ولكن بأى مورد تقدّر أن تعيش يا أمير اذا بلغ بك الحب مبلغ
اتخاذى زوجة لك ، أنا التى أصلح لمثل روجويين ؟•••

قال الأمير :

- أنا أعذك امرأة صالحة شريفة يا ناستاسيا فيليوفنا ، وأنت
لا تصلحين لروجويين ولا خلقت لمثله •
- أنا ؟ انا امرأة صالحة شريفة ؟ أنا ؟

— أنت •

— أوه!... هذا كلام خيالى مستمد من الروايات!... هذه حكايات قديمة يا أمير ، يا صديقى • لقد أصبح الناس فى هذه الأيام أعظم ذكاء وأشد فطنة ، وما ذلك كله الا سفاف وترهات ! ثم ... أى زوج عسلك تكون أنت الذى ما تزال فى حاجة الى مربية تُعنى بأمرك ؟

نهض الأمير وقال بصوت مختلج وجل ، ولكن بلمهجة تعبر فى الوقت نفسه عن اقتناع عميق :

— أنا لا أعرف شيئاً يا ناستاسيا فيليوفنا ... أنا لم أر شيئاً ... انك على حق ولكننى ... أعتقد أنك أنت التى تسبغين على شرفاً اذا ارتضىتنى زوجاً • أنا لست شيئاً • أما أنت فأنت قد تأملت ، وأنت قد خرجت طاهرة نقيه من جحيم كهذا الجحيم • وذلك شئ كثير • لماذا تشعرين بالعار وتريدين أن ترحلى مع روجوين ؟ انها الحمى ... لقد رددت الى السيد توتسكى السبعين ألف روبل ، وأنت تقولين انك ستركين له كل شئ ، كل ما هو موجود فى هذا المكان • ما من أحد هنا قادر على أن يفعل ما تفعلين • اننى ... يا ناستاسيا فيليوفنا ... اننى أحبك • أنا مستعد لأن أموت فى سبيلك يا ناستاسيا فيليوفنا • لن أسمح لأحد أن يقول فيك كلمة سوء يا ناستاسيا فيليوفنا ... واذا كنا فقيرين ، فلسوف أعمل يا ناستاسيا فيليوفنا ...

هنا سُمع صوت فردشتينكو ولييديف يضحكان ساخرين • واستاء الجنرال نفسه فأصدر هذا الصوت « مم » ! ولم يستطع بتسين وتوتسكى أن يمتعا عن التبسم ، ولكنهما لم يلبثا أن كبحا ابتسامتهما • أما سائر الحضور فكانوا فاغرى الأقواء من الدهشة •

وتابع الأمير يقول بذلك الصوت الوجمل نفسه :

- ولكن من الجائز ألا نكون فقيرين البتة ، بل غنيين جداً يا ناستاسيا فيليوفنا • على أنتى لست متأكداً من نى • يؤسفنى اننى لم أستطع حتى الآن أن أعرف شيئاً طوال هذا اليوم ، ولكننى تلقيت وأنا بسويسرا رسالةً من موسكو بعث بها الى رجل اسمه السيد سالازكين ، وفيها يلفتنى أن على أن أطلب بحفى فى ميراث يظهر أنه ضخم جداً • اليك الرسالة •••

وأخرج الأمير من جيبه رسالةً بالفعل •

دمدم الجنرال يقول :

- أليس هذا هدياناً ؟ أترانا فى مستشفى مجانيين ؟

وخيم الصمت لحظة •

سأل بتسين :

- هل قلت ان الرسالة قد بعثها انيك سالازكين يا أمير ؟ هذا رجل معروف جداً فى بيتنا ، هو رجل مشهور من رجال الأعمال ، فاذا صحَّ أنه هو الذى بعث اليك بهذه الرسالة ، فان فى وسعتك أن تتق به كل الثقة ، وأن تطمئن اليه كل الاطمئنان • من حسن الحظ أننى أعرف توقيعه ، فقد كان لى عمل معه فى الآونة الأخيرة • فاذا سمحت لى أن ألقى على الرسالة نظرة فقد أضى لك الأمر •

مدَّ الأمير اليه الطرف صامتاً ، بيد مرتعشة •

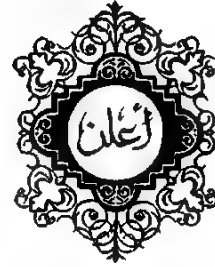
واتفَض الجنرال قائلاً وهو يلقى على الحضور نظرة مبهوتة :

- ماذا ؟ ماذا ؟ أميراً حقاً ؟

وانصبت جميع الأنظار على بتسين بينما هو يقرأ الرسالة • لقد ألهمت الرسالة فضول الحاضرين بنار جديدة • أصبح فردشتينكو لا يستطيع

الاستقرار فى مكانه • وصمق روجوين فهو يلقى نظرات حائرة مضطربة
قلقة على الأمير تارة وعلى بتسين تارة أخرى ، وينقل بصره بينهما بغير
توقف • وأصبحت داريا ألكسيفنا أثناء هذا الانتظار كالجالسة على ابر •
ونفذ صبر ليديف نفسه فترك ركنه ، وحنى جسمه نصفين يحاول أن
يقرأ الرسالة من فوق كنف بتسين ، وكأنه يتوقع أن يُصفع صفقة قوية
من لحظة الى أخرى معاينة له على فضوله •

الفصل السادس عشر



بتسين أخيراً وهو يطوى الرسالة ويردها الى
الأمير ، أعلن يقول :

- هذه قضية مؤكدة • سوف تراث ، دون القيام
بأى مسعى خاص ، ثروة طائلة جداً ، الت اليك

من خالك في وصية لا مجال للطعن فيها على الاطلاق •

صاح الجنرال يقول :

- غير معقول !

وكان انطلاق صيحته أشبه بدوى انفجار •

ولبت الآخرون فأغرى الأفواه من التعجب •

عندئذ أخذ بتسين يشرح الأمر ، مخاطباً ايفان فيدوروفتش خاصة ،
فقال ان للأمير خالة ماتت منذ خمسة أشهر ، هي الأخت الكبرى لأمه ،
ولكن الأمير لا يعرفها معرفة شخصية ولم يرها في يوم من الأيام ؛ وهي
من أسرة بابوشين ، وكان أبوها تاجراً من الطبقة الثالثة بموسكو ، أفلس
ثم مات فقيراً معوزاً ؛ وكان الأخ الأكبر لهذا الرجل ، وقد مات منذ مدة
قصيرة ، يحتل مكاناً عالياً في عالم التجارة • فلما مات ابنه منذ سنة في
غضون شهر واحد ، مرض من شدة الحزن مرضاً شديداً ومات • وكان
أرمل ، وليس له الا وريث واحد هو ابنة أخيه ، خالة الأمير ، التي كانت
امراًة فقيرة جداً تعيش في بيت أناس غرباء • وحين آل اليها هذا الميراث

كانت مصابة بداء الاستسقاء وكانت تُحتضر • لكنها أسرعت تكلف سالازكين بأن يبحث عن الأمير ، حتى لقد اتسع وقتها لأن تكتب وصيتها • ويبدو أنه لا الأمير ولا الطبيب الذي كان ضيفاً عليه بسويسرا أرادا أن ينتظرا الإبلاغ الرسمي أو أن يعمدا الى التثبت من الأمر : وانما وضع الأمير الرسالة في جيبه وقرر أن يجرى الى روسيا •••

وختم بتسعين كلامه مخاطباً الأمير فقال :

- الشيء الوحيد الذى أستطيع أن أقوله لك هو أن هذا الأمر كله لا بد أن يكون ثابتاً لا جدال فيه لا من جهة الواقع ولا من جهة الحق ، وان فى امكانك أن تعد أقوال سالازكين فى هذا الموضوع بمثابة مالٍ فى جييك • أهنتك يا أمير • من الجائز أن تنال أنت أيضاً مليوناً ونصف مليون ، ان لم يكن أكثر من ذلك • لقد كان بابوشكين واسع الثراء •
جأر فردشتينكو يقول :

- مرحى لآخر رجل من سلالة الأمراء ميشكين •

وأعول ليديف يقول بصوت مخمور أبع :
- مرحى !

وقال الجنرال مصعوقاً من الدهشة :

- وأنا الذى أقرضته خمسة وعشرين روبلاً كما يفرض رجل بائس ! ••• ها ها ها ! ••• أمر أغرب من الخيال ! ••• طيب ! ••• تهانى •
يا عزيزى ، تهانى ! •••

قال الجنرال ذلك ونهض متجهاً نحو الأمير ليقبله • واقتدى به آخرون فاسرعوا يحدقون جميعاً بالأمير • وحتى أولئك الذين كانوا قد انسحبوا الى الغرفة المجاورة أخذوا يظهرن فى الصالون من جديد • وقامت ضوضاء مضطربة ، فمن أحاديث مبهمه ، الى صيحات تعجب ، بل

والى صرخات نداء تطالب بشامبايا • وأخذ الحضور يتزاحمون ويصدم بعضهم بعضاً كأنما أصابتهم جميعاً حمى • حتى لقد كادوا ينسون ناستاسيا فليوفنا خلال برهة من الوقت ، وكادوا ينسون أنها سيدة فى بيتها رغم كل شيء • ولكنهم تذكروا شيئاً بعد شيء • فى وقت واحد على وجه التقريب ، أن الأمير قد عرض عليها منذ هنيهة أن يتزوجها • فإذا بهذا التذكر يفاقم الحالة ويجعل الوضع أشد امعاناً فى الجنون • وقد دُهِش توتسكى أعقق الدهشة ، لكنه كان لا يزيد على أن يرفع كفيه ، حتى ليكاد يكون الشخص الوحيد الذى ظل جالساً • أما الآخرون فقد كانوا جميعاً يحتشدون حول المائدة فوضى • ولقد أكدوا فيما بعد أن ناستاسيا فليوفنا انما فقدت عقلها فى تلك البرهة •

كانت ناستاسيا فليوفنا قد لبثت جالسةً ، وظلت بعض الوقت تجيل على الحضور نظرة غريبة مدهوشة ، كأنها لم تفهم ما حدث ، فهى تبذل جهوداً كبيرة من أجل أن تدركه • ثم التفتت الى الأمير فجأةً ، فحدقت اليه باتباه ، عابسةً مهددةً • ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة • فلعلها قد ظنت أن الأمر لم يكن الا مزاحاً أو سخرية ، حتى اذا رأت الأمير تخلصت من ذلك الوهم بسرعة ، وعادت الى الوجوم والتفكير ؛ وها هى ذى الآن تبسم وكأنها لا تعرف كثيراً لماذا تبسم ...

ودمدت تقول بلهجة ساخرة :

— اذن سأصبح أميرة حقاً !

وألقت نظرةً على داريا ألكسييفنا دون ارادة منها ، ثم انفجرت

تضحك • وتابعت كلامها فقالت :

— هذه خاتمة لم تكن فى الحسبان ... ليس ... ليس هذا ما كنت

أتوقعه ... هيه أيها السادة ! ما بالكم تطلون واقفين ، هلاً تفضلتم فجلستم وهنأتمونا أنا والأمير ! يخيل الى أن أحداً قد طلب شامبايا •

هلاً أُصدرت أوامرك يافردشتينكو ؟ يا كاتيا ، ويا باشا (هكذا نادى خادمتها حين لمحتهما فجأة على الباب) تقدّما الىّ ! سوف أتزوج ، هل سمعنا ؟ سوف أتزوج الأمير ، انه يملك مليوناً ونصف مليون ؛ هو الأمير ميشكين ، وسوف يتزوجنى !

هتفت داريا ألكسيفنا تقول وقد هزتها هذه الأحداث هزاً عميقاً :

- وليكن الله معك ! لقد آن الأوان ...

تابعت ناستاسيا فيليوفنا كلامها :

- طيب يا أمير ... اجلس بقربى ، هنا ، واليك الشمبانيا • وهياً

يا سادة ، اشربوا نخب صحتنا !

أعولت أصوات كثيرة تهتف :

- مرحى !

واحتشد عدد كبير من الحضور حول زجاجات الشمبانيا ، واحتشد حولها خاصةً جميع أفراد عصابة روجويين على وجه التقريب • غير أن كثيراً من الحضور قد أحسوا ، رغم صراخهم ، ورغم استعدادهم لمزيد من الصراخ ، أن الجو قد أخذ يتغير ، على ما كان فى الأحداث من غموض وابهام ؟ واضطرب بعضهم فبدأ ينتظر التهمة مرتاباً قلقاً ؛ وتهامس بعضهم يقول ان الحالة عادية جداً ، وان الأمراء كثيراً ما يتزوج احدهم أية امرأة ، حتى لقد يتزوج فتاة عجيبة يختطفها اختطافاً •

أما روجويين فقد كان جامداً ساكناً يراقب المشهد وقد انعقف وجهه

بتجميدة حبرى •

وجاء الجنرال الى الأمير خلصةً من جانب ، وهمس يقول له مرتعياً

وهو يشده من كفه :

- يا أمير ، يا عزيزى ، نب الى رشذك !

فرأته ناستاسيا فيليوفا وسمت كلماته ، فاذا هي تنفجر ضاحكةً
ضحكاً مجلجلاً ، وتقول :

- لا يا جنرال ، أنا نفسي الآن أميرة ، سمعتَ ذلك بأذنيك ، ولن
يسمح الأمير الآن بأن أهاج . يا آتانا زى ايفانوفتش ، أنت على الأقل هنتى .
سوف أستطيع بعد الآن أن أجلس فى كل مكان الى جانب زوجتك .
ما رأيك ؟ أليس لمثل هذا الزوج نفع ؟ مليون ونصف مليون ... وهو
عدا ذلك أمير ... وفوق هذا كله يقال انه أبله ... فهل هناك ما هو
خير من ذلك ؟ الآن انما سبدا الحياة حقاً ! فات الأوان يا روجوين ،
جئت متأخراً ! خذ حزمك . سوف أتزوج الأمير . أنا أغنى منك .
لكن روجوين كان قد أدرك أخيراً ما يجرى . فارتسمت على وجهه
علامات ألم لا سبيل الى مغالبته ، وضمَّ يديه احدهما الى الأخرى
متضرعاً ، وأفلتت من صدره أنه توجع ، ثم هتف يقول للأمير :

- تنازل عن طلبك !

فأخذ الحضور يضحكون من حوله .

وانبرت داريا ألكسيفنا تعجب منتصرة :

- يتنازل لك أنت طبعاً ، أليس كذلك ؟ انظروا الى هذا الفلاح
الذى يلقى ماله على المائدة ! ان الأمير يتخذها زوجة له ، أما أنت فتجىء
لفضيحة !

- أنا أيضاً أتزوجها . فوراً . فى هذه اللحظة . وسوف أدفع كل

شئ ...

قالت داريا ألكسيفنا مستامة :

- انظروا الى هذا السكران الخارج من الحمارة ! يجب أن يطرد !

واشتد الضحك .

فقال ناستاسيا فيليوفا وهي تلتفت نحو الأمير :

- هل تسمع يا أمير ؟ انظر كيف يساوم فلاح ليشتري خطيته !
قال الأمير :

- انه سكران ، وهو يحبك كثيراً .

- ألن تخجل من أن خطيتك قد أوشكت أن تهرب مع روجوين ؟

- كنت تعانين من حمى وما تزالين ، فكأنك كنت تهذين .

- ألن تخجل أيضاً حين يقال لك في المستقبل ان زوجتك كان
يعولها توتسكى خلية له ؟

- لا ، لن أخجل !... ان ذلك لم يحدث بارادتك !

- ألن تأخذ على هذا الأمر فى يوم من الأيام ؟

- أبداً !

- انتبه ! لا تورط نفسك على مدى الحياة !

قال الأمير برفق وهدوء ، وبمatitude تشبه أن تكون شفقة :

- ناستاسيا فيليوفا ، لقد قلت لك منذ لحظة اننى أعد موافقتك شرفاً
لى ، وانك أنت التى تشرفينى ، لا العكس ! وقد ابتسمت أنت لأقوالى
هذه ، وسمعت من حولى ضحكات . جائز أن تعبرى كان مضحكاً جداً ،
وأنتى كنت أنا نفسى مضحكاً جداً ، لكننى أعتقد بأننى أفهم أين هو
الشرف ، وأنا على يقين من أننى قلت الحقيقة . منذ قليل ، كنت تريد
أن تضيعى نفسك تضيقاً لا عودة منه ولا رجعة عنه ، لأنك لو فعلت لما
غفرت لنفسك ذلك السلوك فى يوم من الأيام . وأنت مع ذلك لم تأتى
فى شيء . يستحيل أن تكون حياتك قد ضاعت ضائعاً تاماً . ما قيمة أن
يكون روجوين قد سعى اليك ، وما قيمة أن يكون جبريل آرداليوتش قد
حاول أن يخدعك ؟ علام العودة الى هذا بغير انقطاع ؟ ان ما فعلته أنت

لا يقدر عليه الا قليل من الناس ، أكرر لك هذا • أما الرحيل مع روجوين فقد اتخذت فيه قرارات وأنت مريضة • وانك ما تزالين مريضة الى الآن ، وما تزالين تعانين من حمى ، وخير ما يمكن أن تفعله في هذه اللحظة هو أن تمضي الى فراشك فتنامي • ولو قد تبعت روجوين لتركته منذ الغداة ومضيت تعملين غسالة • انك ذات كبرياء وشمم يا ناستاسيا فيليوفا ؛ ولسوف أعتني بك وأسهر عليك • في هذا الصباح ، حين رأيت صورتك ، أحسست أنني أرى وجهها أعرفه • لقد شعرت فوراً بأنك قد سبق أن ناديتي ... سوف ... سوف أحترمك كثيراً يا ناستاسيا فيليوفا •

بهذا ختم الأمير كلامه بفتة على غير توقع ، واحمر وجهه حين تذكر نوع الناس الذين كان يتكلم أمامهم •

وكان بتسين قد خفض رأسه حياءً ، وأطرق الى الأرض • وقال توتسكي بينه وبين نفسه : « هو أبله ، نعم ، لكنه يعرف أن لا شيء يساوي المديح • يعرف هذا بالفترة ! » • ولا حظ الأمير أيضاً ما كان من شرر في نظرة جانبا الذي كان يحدثه من ركه حائقاً كأنه يريد أن يحيله رماداً •

وهتفت داريا ألكسيفنا تقول وقد فاضت نفسها عاطفة وحناناً :

— هذا ما يسمى قلباً طيباً !

ودمدم الجنرال يقول بصوت خافت :

— رجل مثقف ، لكنه ضائع !

وقالت ناستاسيا فيليوفا :

— شكراً * يا أمير ؛ ما من أحد قال لي مثل هذا الكلام حتى الآن • كانوا يضعون لي سمرأ ويحدّون لي نمنأ ، ولكن ما من رجل شريف

طلبني للزواج في يوم من الأيام • هل سمعته يا آتانا زى ايفانوفتش ؟ ما هو الأثر الذى أحدثته في نفسك كلمات الأمير ؟ أغلب الظن أنك تجد هذا كله يكاد يكون بعيداً عن اللياقة والحشمة ؟ • يا روجويين ، انتظر لحظة ! على كل حال ، لا أرى أنك تنوى الانصراف • ما يزال من الجائز أن أرحل معك • الى أين كنت تريد أن تأخذني ؟

فقال ليديف من الركن الذى هو فيه :

— الى ايكاتيرنهوف * *

بينما لم يزد روجويين على أن ارتعش ، وكان ينظر بكل عينيه وكأنه لا يصدق أذنيه • كان مصموفاً كمن ضرب على رأسه بفتة •

وهتفت داريا ألكسيفا تقول مروعة :

— ما هذا الذى تقولينه يا عزيزى ؟ أترأى جئت ؟

فصاحت ناستاسيا فيليوفا تقول وقد انفجرت ضاحكة ونهضت واثبة :

— هل أخذت كلامى مأخذ الجد اذن ؟ أنا أرضى أن أضيع حياة

برىء ؟ ذلك أمر خلىق بأن يفعله آتانا زى ايفانوفتش • فهو امرؤ يحب أن

يفسد على الأبرياء حياتهم • هلم نرحل يا روجويين • هبى • حزمة

الأوراق المالية ! ليس أمراً هاماً أن تريد أن تتزوجنى • حسبك أن تدفع

مالاً • ومن الجائز ألا أقبل أن أتزوجك • هل تصورت أن تقدم لى

الزواج وأن تحتفظ لنفسك بالمال ؟ لست غبية الى هذا الحد • أنا أيضاً

قليلة الحياء خالمة العذار ! لقد كنت خلية توتسكى أعاشره سفاحاً ! •

يا أمير ، أنت الآن فى حاجة الى آجلأيا ايباتشين لا الى ناستاسيا فيليوفا •

ولو ارتكبت هذه الحماقة لأصبحت مضغة فى الأقواء ، ولأشار اليك باصبعه

حتى رجلٌ مثل فردشتينكو ! أنت لا تخشى ذلك ؟ ولكنى أنا أخاف أن

أكون سبب ضياعك ، وأخاف أن تلومنى على هذا فى المستقبل • أما

ما تقوله عن الشرف الذى أسبغه عليك اذا أنا تزوجتك ، فان توتسكى

يعرف من أمر هذا الشرف ما يجب أن يُعرف ! أما أنت يا جانيتشكا فقد خسرت آجلايا ايباتشسين . هل تعلم ذلك ؟ لولا أنك ساومت معها ، لتزوجتك حتماً . هكذا أتم جميعاً . ينبغي لكم أن تختاروا بين المرأة الشريفة والغانية البغي ، وليس ثمة خيار آخر ! فان لم تفعلوا ذلك تحيرتم وارتبكتكم واختلطت أموركم ... انظروا الى الجنرال كيف ما يزال فاعراً فاه !

قال الجنرال مردداً وهو يرفع منكبيه :

- هذه مدينة سدوم ، هذه مدينة سدوم !..

كان الجنرال قد نهض هو أيضاً . وكان جميع الحضور قد وقفوا على كل حال . وكانت ناستاسيا كمن جُنَّ جنونها .

قال الأمير في أنين وهو يلوى يديه حسرةً ولوعة :

- أهذا ممكن ؟

فردت ناستاسيا فيليوفا تقول :

- أكنت تظنه مستحيلاً ؟ قد أكون أنا نفسى ذات كبرياء وشمم ، مهما أكن قليلة الحياء خالعة العذار ! لقد قلت منذ هنيهة اننى امرأة كاملة . يا لهذه المرأة الكاملة التى تلقى بنفسها فى الوحل لا لشيء الا أن تفخر بأنها ركلت بالقدمين مليوناً ولقب أمير ! أنا أصلح لك زوجة بعد هذا ؟ يا آتاناى ايفانوفتش ، لقد رميتُ المليون من النافذة فعلاً ، فكيف أمكنك أن تصور أننى سأعد نفسى سعيدة بأن أتزوج جانيتشكا مدفوعةً الى ذلك باغراء الخمسة وسبعين ألف روبل التى تدفعها ؟ خذها ، خذ روباتك البالغة خمسة وسبعين ألفاً يا آتاناى ايفانوفتش (انك لم توصلها حتى الى مائة ألف ، فتفوق عليك روجوين) . أما جانيتشكا فسوف أتولى مواساته بنفسى . لقد خطرت بآلى فكرة . والآن أريد أن ألهو وأقصص .

ألست من بنات الشوارع ؟ قضيت عشر سنين فى سجن • وقد آن لى أن
أصبح سعيدة • هلم يا روجوين ، هىء نفسك ! لنرحل !

فزأر روجوين يقول وقد كاد يُجنُّ فرحاً :

- لنرحل ! هيه ! أنتم ••• نريد خمراً ! أف ! •••

- هىء خمراً • سوف أشرب • وهل سنسمع موسيقا ؟

- نعم ، سنسمع موسيقا ، سنسمع موسيقا •••

كذلك أجاب روجوين ، فلما رأى داريا الكسيقنا تتقدم نحو
ناستاسيا فيليوفا ، جأر يتابع كلامه قائلاً :

- لا تقتربى ! لا تقتربى ! انها لى أنا ! كل شىء لى أنا ! هى ملكتى !

انتهى الأمر !

كان يهتق فرحاً • وكان يدور حول ناستاسيا فيليوفا صارخاً يقول
لكل واحد : « لا تقرب ! » • وقد تجمعت عصبته كلها فى الصالون •
فبعضهم يشرب ، وبعضهم يصرخ ويضحك ضحكاً صاخباً ، وجميعهم مهتاج
يشعر بفرح غامر • وكان فردشتينكو يحاول منذ ذلك الحين أن يجد له
مكاناً بينهم •

وتحرك الجنرال وتوسكى مرة أخرى يريدان أن يسجبا • وكان
جانبا قد حمل قبعته يده هو أيضاً ، لكنه ظل أخرس لا ينطق بحرف ،
وظل جامداً لا يتحرك ، كأنه عاجز عن انتزاع نفسه من المشهد الذى
يجرى أمامه •

- لا تقرب !

كذلك كان يجأر روجوين •

فانفجرت ناستاسيا تضحك وتقول له :

- ما بالك تمول هذا الاعوال ؟ أنا ما زلت فى دارى سيدة نفسى • تكفى

إشارة واحدة منى حتى تطرد شر طردة • أنا لما آخذ مالك بعد •
ما يزال المال فى مكانه • هاته الى هنا • أعطني الحزمة كلها • أهذه الحزمة
هى التى تضم مائة ألف روبل ؟ فطاعة ! ولكن ماذا بك يا داريا ألكسيفنا ؟
أكان يجب على حقاً أن أفسد حياته ؟ (سألت هذا السؤال وهى تومىء
الى الأمير) • كيف يمكنه أن يتزوج وهو ما يزال فى حاجة الى مربية
أطفال ؟ سوف ينوب الجنرال عن مربية أطفال ، سوف يقوم له بهذا
الدور • انظرى كيف يحوم حوله ويدلّله ! انظر يا أمير : ان خطيتك
قد أخذت المال لأنها مومس ، وأنت كنت تريد أن تتزوجها ! ولكن ما بالك
تبكى ؟ أتجد فى هذا مرارة شديدة ؟ أضحك مثلى ...

كذلك تابعت ناستاسيا فيليوفنا كلامها وقد تلالأت على خديها ، هى
أيضاً ، دمعتان كبيرتان • وواصلت تقول :

- اتكل على الزمن • سوف ينقضى كل شئ • لأن يغير المرء رأيه
الآن خير من أن يغيره فى المستقبل ... ولكن ما بالكم تكون جميعاً ؟
هذه كاتيا قد أخذت تذرف الدموع هى أيضاً • لماذا تبكين يا كاتيا ،
يا صغيرتى ؟ سوف أترك لكما أنت وباشا أشياء كثيرة • لقد اتخذت لهذا
الأمر ما يجب اتخاذه من تدابير • والآن ، وداعاً ! أنت الفتاة الشريفة ،
كنت أجبرك على أن تخدمينى أنا العاهرة ! هذا أفضل يا أمير ! حقاً هذا
أفضل ! والا فسوف تحقرنى فى النهاية ، فلا تتحقق لنا سعادة • لا تحلف
الأيمان المغلظة ، فلن أصدقك • ما كان أسخف أن أوافق على أن
تتزوج ! ... لا يا أمير ، ان الأفضل أن نفترق على صداقة ، لأننى أنا
أيضاً حاملة ، فلو تزوجنا لما كان فى ذلك أى خير ! ألم أحلم بك أنا أيضاً ؟
انك على حق : لقد حلمت بك زمناً طويلاً ، منذ أن كنت بالريف ، عنده
قضيت هناك خمس سنين ، وحيدة تماماً • فكنت أنتقل من خواطر الى
خواطر ، ومن أحلام الى أحلام ، حتى وصلت الى تصور رجل مثلك ،

طيب ، شريف ، رفيق ، غبي بعض الغباء أيضاً ، يأتي على حين فجأة
فيقول لي : « ما أنت بآثمة يا ناستاسيا فيليوفا • اننى أحبك وأعبدك ! »
نعم كنت استرسل في الأحلام أحياناً الى درجة الجنون ! فإذا بهذا الرجل
يصل ، ليقصي شهراً أو شهرين كل عام ، ثم يتركني مهانةً ملطخة
الشرف بالعار مهتاجةً مدنّسة • أردت ألف مرة أن ألقى بنفسى فى
الغدير ، لكننى كنت جبانة ، فأعوزتنى الشجاعة • • • والآن ، أنت مستعد
يا روجوين ؟

- كل شىء مهياً !

ورددت عدة أصوات تقول :

- كل شىء مهياً !

- وعربات الترويكا تنتظر تحت ، مع أجراسها •

تناولت ناستاسيا فيليوفا حزمة الأوراق المالية بيديها • وقالت :

- يا جانيا ، خطرت ببالى فكرة • أريد أن أعوِّض عليك خسارتك

لماذا ينبغي أن تفقد كل شىء ؟ يا روجوين ، هل تعتقد أنه مستعد أن يزحف
منبطحاً حتى فاسيلفسكى فى سبيل ثلاثة روبلات ؟

- نعم ، انه مستعد أن يزحف منبطحاً •

- فاسمع اذن يا جانيا • أريد أن أتأمل نفسك مرةً أخيرة • لقد

عذبتنى طوال ثلاثة أشهر • وجاء الآن دورى أنا • هل ترى هذه الحزمة ؟
انها تضم مائة ألف روبل ! سوف أرميها فى الموقد ، على رأى من جميع
الحضور ، ليكونوا كلهم شهوداً • فمتى أمسكت النار بها من كل جهة ،
فأسرع أنت الى الموقد ، ولكن بدون قفازين ، بل عارى اليدين ، واشمر
كمكّك واستلّ الحزمة من النار • فإذا أفلحت فى ذلك كانت المائة ألف
روبل لك أنت ! لن يكون عليك الا أن تتحرق أصابعك قليلاً ، ولكن

المكافأة مائة ألف روبل، فكّر في الأمر! هل يستغرق استلالها وقتاً طويلاً؟
لا ... وفي أثناء ذلك سيتاح لي أن أعجب بنبل نفسك وعلوّ همتك ،
بينما أنت تنشل مالى من النار ! الجميع شهود على أن المال سيكون مالك
أنت ! أما اذا لم تنشل أنت الحزمة من النار فسوف تحترق الحزمة . لن
أسمح لأحد بأن ينتشلها . ابتعدوا جميعاً الى وراء ، الى وراء ! المال مالى
أنا ! هو من ليلى مع روجوين ! هل هذا المال مالى أنا يا روجوين ؟

– لك أنت يا فرحتى ، لك أنت يا ملكتى !

– فابتعدوا اذن الى وراء ، ابتعدوا كلكم ، أنا أفعل ما أشاء ،
لا تضايقونى ! يا فردشتينكو ، حرّك النار لتوريها !
فأجابها فردشتينكو يقول مصعوقاً :

– لا تظاوعنى يداى يا ناستاسيا فيليوفنا !

فهتفت ناستاسيا فيليوفنا تقول :

– طيب ، طيب .

وأمسكت الملقط ، فحرّكت الجمر ، حتى اذا ارتفعت ألسنة اللهب ،
رمت الحزمة فى الموقد .

صرخ الجميع ، حتى أن كثيرين منهم رسموا على أنفسهم اشارة
الصليب . وارتفع من جميع الجهات صياح يهتف :
– مجنونة ، مجنونة !

وهمس الجنرال فى اذن بتسين قائلاً :

– أليس الأفضل أن نوثقها بالحبال ؟ أو أن نستدعى ... هي
مجنونة ، أليس كذلك ؟ مجنونة حقاً ؟

فأجابه بتسين بصوت خافت ، شاحب الوجه مرتعش الجسم عاجزاً
عن تحويل بصره عن الحزمة التى أخذت النار تمسك بها :

- ل . . . لا ! ليس هذا بالجنون تماماً .

فاتجه الجنرال عندئذ الى توتسكى يسأله :

- مجنونة ، أليست مجنونة ؟

فقدم ايفانوفتش يقول صاحب الوجه هو أيضاً :

- ألم أقل لك انها امرأة « طريفة » ؟

- مائة ألف روبل !

وسمعت من جميع الجهات صيحات تقول :

- يا لطيف يا رب !

احتشد الحضور جميعاً قرب الموقد ، يحاولون جميعاً أن يروا ،
ويطلقون جميعاً صيحات الدهشة . . . حتى لقد اعتلى بعضهم كراسى
وراح ينظر من فوق رموس الآخرين . وكانت داريا ألكسييفا قد أسرع
الى الغرفة المجاورة مروعة الهيئة توشوش كاتيا وباشا . وكانت الألمانية
الجميلة قد ولّت هاربة .

جأر ليديف قائلاً وهو يزحف على ركبتيه أمام ناستاسيا فيليوفا ،
ويمد ذراعيه نحو الموقد :

- ماتوشكا ! ايها الملكة القادرة على كل شئ . . هذه مائة ألف روبل !
مائة ألف ! رأيته بعيني ، حُزمت أمامي ! ماتوشكا الرحيمة ! مرينى
فأرمى جسمى كله فى الموقد ، وأضع فى الذار رأسى الأنثيب ! . . . ان
عندى امرأة مريضة . . . فاقدة الساقين . . . وثلاثة عشر طفلاً هم جميعاً
يتامى . لقد دفنت أبى فى الأسبوع الماضى . انهم يتضورون جوعاً .
ناستاسيا فيليوفا !

كذلك زأراً ليديف ، وأخذ يزحف نحو الموقد .

فصرخت ناستاسيا فيليوفا تقول وهى تدفمه :

- الى وراء ! ابتعدوا جميعاً ! ماذا تنتظر يا جانبا ؟ لا تستع ! هلم !
هذه فرصتك !

لكن جانبا كان قد تحمل كثيراً خلال ذلك النهار وتلك الليلة ، ولم يكن قد تهيأ لهذا الامتحان الأخير الذى لا يُتوقع ! انشطر الحشد أمامه شطرين ، فاذا جانبا يصبح قبالة ناستاسيا فيليوفنا وجهاً لوجه ، على مسافة ثلاث خطوات . كانت واقفة عند الموقد تنتظر ، دون أن تحوّل عنه نظرتها الملتصبة الثابتة . ان جانبا يقف الآن برداء « الفراك » ، حاملاً قبعة بيديه ، صامتاً لا يجيب ولا يتحرك ، عاقداً ذراعيه على صدره ، يتأمل اللهب .

وكانت ابتسامة تائهة تطوف بوجهه الشاحب نحوباً شديداً .
صحيح أنه كان لا يستطيع أن يحول عينيه عن النار ، وعن الحزمة التى أخذت تسود ، غير أن شيئاً جديداً كان يبدو أنه اجتاح نفسه واستولى عليها . لكأنه حلف ليحتملن التعذيب حتى النهاية ، فهو لا يبدى حراكاً ؛ حتى أصبح واضحاً للجميع بعد بضع لحظات أنه لن ينتشل الحزمة من النار ، أنه لا يريد ذلك .

وكانت ناستاسيا فيليوفنا تصرخ قائلة له :
- ستحترق الحزمة ، فتكون أنت الملوم ؛ ولتشنقن نفسك حزناً
وكمداً بعد ذلك . لست أمزح !

ان النار التى نبعت فى أول الأمر من بين حطبتين خامدتين قد بدا عليها بعد ذلك أنها اخذت تنطفئ تحت وطأة الحزمة . غير أن لهباً رقيقاً أزرق ما يزال عالقاً بطرف من الخطبة . وأخيراً جاءت شرارة دقيقة طويلة تمس الحزمة ، ثم تجرى على طوال الورقة التى تلفها حتى زواياها ، ثم اذا بالنار تمسك الحزمة كلها فجأة ، فيخرج منها لهب ساطع . واذا بالحضور جميعاً يصيحون !

عاد ليديف يعول قائلاً وهو يتجه نحو الموقد من جديد :

– ماتوشكا !

ولكن روجوين أمسكه ودفعه •

ولم يكن روجوين نفسه الا نظرة جامدة • كان لا يستطيع أن
يحوّل بصره عن ناستاسيا فيليوفا • وكان يشعر من ذلك بنشوة وسكر •
كان في السماء السابعة •

كان يهتف قائلاً وقد جُنَّ جنونه ثملاً :

– هذه ملكة حقاً ! هذه من بلدنا فعلاً ! من منكم ، يا عصابة من
أوغاد ، يستطيع أن يفعل مثل الذي تفعل ؟
وكان الأمير يراقب المشهد حزيناً صامتاً •
قال فردشتينكو مقترحاً :

– أنشلها بأسناني اذا كوفت بورقة واحدة قيمتها ألف روبل •
فجأراً الرجل ذو القبضتين الضخمتين الذي كان واقفاً وراء الجميع ،
جأراً يقول وقد اعترته نوبة كرب هائلة :

– أنا مستعد أن أنشلها بأسناني أيضاً •

ثم صاح يقول وقد رأى اللهب :

– انها تحترق ! سوف يحترق كل شيء !

وهتف الجميع بصوت واحد :

– أخذت تحترق ! أخذت تحترق !

واندفع الجميع تقريباً نحو الموقد • قالت ناستاسيا :

– جانبا ! لا داعي الى التخرج ! لا تستع ! أقول لك هذا اخر

مرة !

أعول فردشتينكو قائلاً وهو يهجم على جانبا كالمسموم ويشده
من كفه •

- هلمَّ أيها المتجج ! سوف يحترق المال ! أوه ! نحس !
تصدى جانبا لفردشتينكو فدفعه عنه بكل قواه ، واستدار ، ومشى
نحو الباب ، لكنه ما ان خطا خطوتين حتى ترنح وسقط على الأرض •
فصاح الحضور يقولون :
- اغماء !

وعاد ليديف يزقق ضارعاً :
- ماتوشكا ! سوف تحترق !
وزار الحشد من كل جهة :
- سوف تحترق بلا سبب !
وصرخت ناستاسيا فيليوفا منادية :
- يا كاتيا ، يا باشا ، جيئاه بماء ، وجيئاه بخمرة !

ثم أمسكت الملقط ، وانتشلت الحزمة • كانت الورقة التي تلف
الحزمة قد احترقت كلها تقريباً وهلكت ، ولكن أمكن أن يرى فوراً أن
ما بداخلها لم يمسه أذى • كانت الحزمة ملفوفة بثلاث صحائف من
ورق الجرائد ، وكان المال سليماً • تنفس الجميع الصعداء •
قال ليديف بحنان :

- لعل ورقة واحدة بألف روبل قد فسدت ، ذلك في أكثر تقدير •
أما الباقي فسلم لم يمسه سوء •

هفت ناستاسيا معلنةً وهي تضع الحزمة قرب جانبا :
- هذه الأموال كلها له ! الحزمة كلها له ! هل تسمعون كلامي

يا سادة ؟ لقد ملك من القوة ما أتاح له ألا يأخذها • لقد صمد ! هذا دليل على أن كبرياءه ما تزال أكبر من جشعه • لا تقلقوا ، سوف يفيق من اغمائه ! ولولا أنه قد أغمى عليه لكان من الممكن أن يقتلني !... هه ، ها هو ذا يفيق منذ الآن ! يا جنرال ، يا ايفسان بتروفتش ، يا داريا ألكسيفنا ، يا كاتيا ، يا باشا ، يا روجوين ، هل سمعتموني ؟ ان الحزمة كلها له ، له هو ، لجانيا ! أهدبها اليه وأملكه اياها ، تعويضاً له ... عما لا أدري ! قولوا له ذلك ! فلتبق الحزمة بقبريه • يا روجوين هلم ، سر ! وداعاً يا أمير ، هذه أول مرة أرى فيها كائناً انسانياً ! وداعاً ، آتانا زى ايفانوفتش ! و « شكرآ » •

وسارت عصبة روجوين كلها نحو باب الخروج بضجة وصخب وضوضاء وصراخ يدوى فى البيت كله ، سارت تتبع روجوين وناستاسيا فيليوفنا •

وفى القاعة ألبستها كاتيا وباشا معطفها ؟ وهرعت الطباخة مارتا من مطبخها • فقبلتهن ناستاسيا فيليوفنا جميعاً • سألتها وهنّ يبكين ويقبلن يديها :

- هل يمكن يا ماتوشكا أن تتركينى حقاً ؟ والى أين عسالك تذهين ؟ وفى يوم عيد ميلادك ، فى يوم كهذا اليوم ؟

- أذهب الى الشارع يا كاتيا ، سمعت ذلك • هناك مكانى • الا أن أعمل غسالة • سئمت آتانا زى ايفانوفتش • أبلغنه سلامى ، ولا تظننّ بى سوءاً ...

وهرع الأمير نحو باب الخروج • كان الجميع قد أخذوا يستقرون فى عربات الترويكات الأربع التى كانت أجراسها تتحرك بغير انقطاع • واستطاع الجنرال أن يدركه فى السلم • قال له وهو يمسك ذراعه :

— ما هذا يا أمير ؟ تب الى عقلك • انركها ! لقد رأيت كيف هي •
أقول لك هذا قولة أب ...
نظر اليه الأمير ولكن دون أن يقول كلمة واحدة • ثم انتزع ذراعه
منه • وهبط السلم راكضاً •

واستطاع الجنرال وهو واقف على درجات المدخل الذى بارحته
عربات الترويكا منذ هنيهة • استطاع أن يرى الأمير يشب الى أول مركبة
ويصبح مهيباً بالحوضى : « الى ايكاترينهوف ! اتبع عربات الترويكا ! » •
ثم وقفت مركبة الجنرال الفخمة أمام درجات المدخل • فركبها • ومضى الى
منزله بأمال جديدة وحسابات جديدة • وبمقد اللآلى الذى حاذر أن
يساء ! وفى وسط تلك الحسابات • تراءت له صورة ناستاسيا فيليوفنا
الفتاة الأخاذة مرةً أو مرتين فتهد يقول : « خسارة • خسارة حقاً ! امرأة
ضائعة ! مجنونة ! نعم ... ولكن ما أصبح الأمير يحتاج اليه الآن ليس
امرأة مثل ناستاسيا فيليوفنا ... فلعل من الخير أن جرت الأمور هذا
المجرى » •

وان أقوالاً فيها عبر كهذه العبر تقريباً قد نطق بها شخصان آخران
من ضيوف ناستاسيا فيليوفنا قررا أن يسيرا معاً بضع خطوات • فقد قال
ايفان بتروفتش بتسين يخاطب آتانازى ايفانوفتش :

— هل تعلم يا آتانازى ايفانوفتش ؟ يظهر أن فى بلاد اليابان تقاليد
من هذا النوع : يذهب الشخص المهان الى الشخص الذى أهانه فيقول له :
« أنت أهنتنى فلذلك جئت الآن أبقر بطنى أمامك » • ثم يقر بطنه على
مرأى من الشخص الذى أهانه • ولعله يشعر بارتياح كبير ورضى عظيم
كأنه انتقم لنفسه فعلاً • ما أكثر الطبائع المعجية فى هذا العالم يا آتانازى
ايفانوفتش !

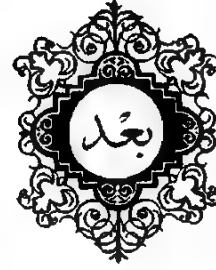
فأجابه آتانازى ايفانوفتش مبتسماً :

- فأنت ترى اذن أن شيئاً من هذا القليل هو ما حدث الآن . هم .
أمر فكه على كل حال وتشبيهه بديع ! ولكنك رأيت بنفسك يا صديقي
العزیز جداً ایقان بتروفتش اننى قد فعلت من جهتى كل ما كان فى وسعى
أن أفعله . لا يمكننى أن أفعل المستحيل على كل حال ! يجب أن توافقنى
على هذا . ولكن يجب أن توافقنى أيضاً على أن هذه المرأة كانت لها مواهب
رفیعة ، وميزات ساطعة ! لو استطعت ، منذ قليل ، أن أجزى لنفسى ، وسط
مدينة سدوم تلك ، أن أفصح عما يدور فى خاطرى ، لوددت أن
أجيبها بقولى انها هى نفسها أكبر مبرّر وأعظم مسوِّغ لى تجاه جميع تلك
التهم ! من ذا الذى يمكنه ألا تقويه هذه المرأة فى بعض الأحيان الى حدٍ
يفقد معه عقله وسائر ما عدا ذلك ؟ انظر الى ذلك الجلف روجوين
الذى أتاها بمائة ألف روبل ! هَبْ كل ما حدث هناك منذ قليل عرضاً
طارئاً ، واندفاعاً رومانسياً لا داعى اليه ، لكنه فى مقابل ذلك غنى
بالألوان ، طريف أعظم الطرافة ! عليك أن تعترف بهذا ! آه . . . حين
أفكر فيما كان يمكن أن يخرج من اجتماع طبع كهذا الطبع وجمال كهذا
الجمال ! . . . لكن كل شيء ضاع ، رغم جميع جهودى ، بل ورغم كل
ما هيأته لها من أسباب الترية والثقافة ! هى ماسة لم يمكن صقلها . قلت
ذلك غير مرة .

قال آتانازى ایفانوفتش ذلك ، وزفر زفرة عميقة .

الجزء الثاني

الفصل الأول



يومين اثنين من أحداث السهرة التي شهدناها في بيت ناستاسيا وختنا بها الجزء الأول من قصتنا ، أسرع الأمير ميشكين يسافر الى موسكو ليغني بأمر الميراث المفاجيء الذي آل اليه على غير توقع . وقد زعم بعضهم في ذلك الأوان ان هناك أسباباً دعت الأمير الى الاسراع في السفر . ولكننا لا نستطيع فيما يتعلق بهذا الأمر ، وكذلك فيما يتعلق بجميع الأحداث التي وقعت للأمير بموسكو ، أو التي وقعت له طوال مدة غيابه عن بطرسبرج عامة ، لا نستطيع أن نقدم الا معلومات قليلة . لقد دام غياب الأمير ستة أشهر تماماً . ومع ذلك فحتى الذين كانت تحضهم أسباب معينة على أن يهتموا بمصيره ، لم يستطيعوا أن يعلموا عنه الا أشياء قليلة جداً طوال تلك المدة . صحيح أن هناك شائعات كانت تصل الى مسامع بعضهم في أحيان نادرة ، ولكن تلك الشائعات كان أكثرها غريباً عجيبيّاً ، وكانت متناقضة في جميع الأحيان على وجه التقريب . وكان أفراد أسرة ايباتشين التي لم يتسع وقت الأمير حتى لتوديعها قبل سفره ، أكثر الناس اهتماماً به وتفصيلاً لأبنائه . ثم ان الجنرال قد التقى به أثناء تلك الفترة ، حتى انهما تناقشا نقاشاً جاداً مرتين أو ثلاث مرات . غير أن الجنرال لم يذكر لأسرته شيئاً عن لقائه بالأمير . والواقع أن السكوت عن ذكر الأمير في الآونة الأولى التي أعقبت سفره ، أي خلال شهر كامل تقريباً ، كان قاعدة في منزل الجنرال ايباتشين . الجنرالة اليزابت

بروكوفيتا وحدها أعلنت في البداية أنها « قد أخطأ ظننا فيه خطأ قاسياً » .
ثم أضافت بعد شهرين أو ثلاثة أشهر قولها : « ان أبرز سمة في حياتها
هى أنها تُخدع في أمر الناس دائماً » ، ولكنها في هذه المرة لم تذكر اسم
الأمير ، وأطلقت حكمها غامضاً مبهماً . واغتازت من بناتها بعد عشرة أيام
فخمت كلامها بهذه العبارة : « كفانى أخطاء ! لا خطأ بعد الآن ! »

لا نستطيع الا أن نذكر في هذه المناسبة أنه قد ساد المنزل خلال مدة
طويلة نوعٌ من اعتكار المزاج ، شئ من الثقل والتوتر ، جوٌّ مليءٌ بأموور
غير معلنة يمكن أن يثير الشقاق في كل لحظة . كان جميع من بالمنزل
مكتئباً مظلم النفس . والجنرال مشغول بمساعيه وأعماله ليلاً ونهاراً : انه
ما رثى في حياته كلها أكثر انهماكاً بالعمل وأكثر جدياً وتشاطاً منه في هذه
الفترة ، ولا سيما في وظيفته . ان ذويه لا يكادون يرونه . أما الآسات
ايباتشين فكنَّ لا يعبّرن عما يدور في أذهانهن بصوت عالٍ . وللمهن
كنَّ لا يتحدثن فيما بينهن الا قليلاً . انهن فتيات فيهن كبرياء وأتفة ،
بل فيهن أيضاً حياء وخفر حتى حين يخلو بعضهن الى بعض ؛ ولكن هذا
لا ينفي طبعاً أنهن يفهم بعضهن عن بعض لا من أول كلمة فحسب ، بل
من أول نظرة أيضاً . فلا يكون ثمة داعٍ الى كلام كثير في بعض الأحيان .
الشئ الوحيد الذى كان يمكن أن يلاحظه ملاحظ غريب عن البيت ،
لو أمكنه أن يوجد فيه ، هو أن الأمير ، كما تدل على ذلك بعض العلامات ،
وهى قليلة على كل حال ، وقد أشرنا اليها من قبل ، أن الأمير قد استطاع
أن يحدث في أسرة ايباتشين انطباعاً خاصاً ، رغم أن الأمير لم يظهر في
منزل هذه الأسرة الا مرة واحدة كانت من جهة أخرى طارئة عارضة .
قد لا يكون ذلك الانطباع الا حبّ اطلاع ، تعلله وتفسّره ما وقع للأمير
من أحداث غريبة ، وما عرف في حياته من مغامرات عجيبة . غير أن ذلك
الانطباع قد بقى في نفوس أفراد الأسرة .

وشيئاً فشيئاً ، غابت الشائعات التي انتشرت في المدينة أول الأمر ، غابت هي نفسها في ظلام المجهول . صحيح أن بعض الناس كانوا يتحدثون عن أمير صغير ساذج (لم يكن يستطيع أحد أن يعين اسمه على وجه الدقة) قد ورث ثروة طائلة على حين فجأة ، وتزوج امرأة فرنسية كانت مارةً بالبلاد مروراً عابراً ، فهي راقصة معروفة من فرقة « الكانكان الفرنسي » التي تعمل في « قصر الأزهار » بباريس . غير أن ناساً آخرين كانوا يؤكدون أن الذي ورث تلك الثروة الطائلة إنما هو جنرال ، وأن تاجراً روسياً شاباً ، ثرياً ثراءً لا يُحصى ، هو الذي تزوج راقصة الكانكان الفرنسية ؛ وأن هذا الشاب قد أحرق على لهب شمعة - لا لسبب غير التباهي - سبعين ألف روبل من الأوراق المالية على وجه التمام والكمال .

ولكن انتشار الشائعات سرعان ما انقطع بفضل بعض الظروف . لقد لبث روجويين مع أفراد عصبته أسبوعاً في محطة ايكاترينهوف ، غارقين في مجنون رهيب يوماً بعد يوم ، وهو مجنون شاركت فيه ناستاسيا فيليوفا . حتى إذا انتهى الأسبوع سافر روجويين على رأس أفراد عصبته الى موسكو (ولعل بين هؤلاء من كان يمكن أن يروى شيئاً) ؛ وعلم العدد القليل من الناس الذين يمكن أن يهتموا بهذا الأمر ، علموا من شائعات أخرى ، أن ناستاسيا فيليوفا قد هربت واختفت غداة يوم الرحيل الى ايكاترينهوف ، وأمكن أن يُعرف أنها سافرت الى موسكو . فأدرك الناس أن هناك صلةً بين هروبها وبين سفر روجويين .

وسرت شائعات أيضاً عن جبريل آرداليونتش ايفولجين الذي كان معروفاً في بيته هو أيضاً . غير أن حادثاً وقع له فسرعان ما أبرد حرارة السنة السوء ، بل انتهى الى وقف جميع الأفاويل السيئة في حقه وفقاً تاماً : لقد مرض مرضاً شديداً ، وانقطع عن الظهور في المجتمع ، وغاب حتى من مكتبه . ثم أبلّ من مرضه بعد شهر ، غير أنه لسبب من الأسباب

ترك عمله فى شركة الأسهم ، وحل محله موظف آخر . ولم يظهر كذلك فى منزل أسرة ايبانتشين ، واضطر الجنرال ، هو أيضاً ، أن يتخذ لنفسه سكرتيراً آخر . ولقد كان فى وسع أعداء جبريل آرداليوتش أن يفترضوا أنه قد بلغ من الشعور بالعار مما حدث له أنه أصبح يستحي أن يظهر فى الشارع . ولكن الحقيقة هى أنه كان مريضاً حقاً : كانت تعثره نوبات وسواس ، وكان كثير الوجوم ، شديد السوداوية ، سريع الاحتياج .

وفى ذلك انثناء نفسه تم زواج باربارا آرداليونوفا وبتسين . فرأى جميع الذين يعرفونهما أن هناك علاقة مباشرة بين هذا الزواج وبين تصميم جانيا على ألا يعود الى عمله ، فهو الآن ليس عاجزاً عن مساعدة أسرته فحسب ، بل هو نفسه أصبح فى حاجة الى مساعدة ، بل يكاد يحتاج الى أنواع خاصة من العناية .

ولنذكر ، مستطردين ، ان اسم جبريل آرداليوتش أصبح هو أيضاً لا يُلفظ أبداً فى منزل أسرة ايبانتشين ، فكأن جبريل آرداليوتش لم يوجد فى يوم من الأيام ، لا فى هذا المنزل ولا فى العالم . ومع ذلك عرف جميع أفراد الأسرة (بل عرفوا ذلك بسرعة كبيرة) أمراً هاماً يتعلق به : ففى تلك الليلة التى كانت ليلة حاسمة فى حياته ، بعد الحادث الأليم الذى وقع له فى بيت ناستاسيا فيليوفا ، لم ينم جانيا حين عاد الى بيته ، بل ظل ينتظر عودة الأمير كالمحموم من نفاذ الصبر . وكان الأمير قد سافر الى ايكاترينهوف هو أيضاً ، فلم يعد منها الا بعد الساعة الخامسة من الصباح . فدخل عليه جانيا عندئذ غرفته ، ووضع أمامه على المائدة حزمة الأوراق المالية التى تجففت أطرافها من نار الموقد ، والتى كانت ناستاسيا فيليوفا قد وهبتها له أثناء اغمائه . ورجا الأمير ملحاً أن يتولى ردّ هذه الهدية الى ناستاسيا فيليوفا فى أول مناسبة . ولقد كان جانيا ،

حين دخل على الأمير ، فى حالة نفسية عدائية ساخطة • ولكن يظهر أن الرجلين قد تبادلوا أقوالاً مكث بعدها جانبا عند الأمير ساعتين كاملتين لم ينقطع فى أثنائهما عن البكاء ناشجاً نشيجاً مريراً • وافترقا أخيراً على مودة وصداقة •

هذا النبأ الذى وصل الى جميع أفراد أسرة ايباتشين كان صحيحاً كل الصحة ، كما ثبت ذلك فيما بعد • انه لمجيب طبعاً أن يمكن وصول هذا النوع من الأنباء الى علم أناس آخرين بمثل تلك السرعة الشديدة • من ذلك مثلاً أن كل ما حدث فى بيت ناستاسيا فيليوفا قد عُرف فى منزل أسرة ايباتشين منذ الغد بتفاصيل كثيرة • وفيما يتعلق بالأنباء الخاصة بعجيل أرداليوتشس كان يمكن أن نفترض أن باربارا أرداليونوفا هى التى نقلتها الى أفراد أسرة ايباتشين ، لأنها جاءت الى الآسأت ايباتشين فسرعان ما قامت بينها وبينهن صلات عميقة ، وهذا أمر أثار أشد الدهشة فى اليزابت بروكوفينا • ولكن باربارا أرداليونوفا رغم أنها وجدت أن من الضروري - لا ندرى لماذا ؟ - أن تعقد تلك الصلات الوثيقة بأسرة ايباتشين ، لم تحدث الآسأت عن أخيها حتماً • فانها هى أيضاً امرأة ذات كبرياء ، على طريقتها الخاصة ، وان تكن قد قبلت أن تربطها صداقة بأولئك اللواتى طردن أخاها طرداً على وجه التقريب • فى الماضى ، رغم أنها قد عرفت الآسأت ايباتشين ، كانت لا تراهن الا نادراً • وهى حتى الآن ، على كل حال ، لا تكاد تظهر فى الصالون قط ، وانما تأتى من مدخل الخدمة كأنها عابرة عبوراً • ان اليزابت بروكوفينا لم تُظهر لها فى يوم من الأيام بشاشة أو ترحيلاً ، لا فى الماضى ولا فى الحاضر ، وان تكن تحمل لأمها نينا ألكسندروفا كبراً من الاعتبار ، وتقدرها قدرأ كبيراً • فكانت تُدهش وتغضب ، وتعزو تلك العلاقات الجديدة التى قامت بينهما وبين فاريا الى النزوة وحدها ، والى استبداد بناتها اللواتى أصبحن على حد تعبيرها

« لا يعرف حقاً ماذا يخترعن من أساليب لمضايقتها » • ولكن ذلك كله لم يمنع باربارا آرداليونوفنا من مواصلة زيارتها ، سواء قبل زواجها وبعد زواجها •

بعد سفر الأمير بشهر أو يزيد قليلاً ، تلقت الجنرالة ايبانتشين رسالة من الأميرة المعجوز بيلوكونسكايا التي سافرت قبل خمسة عشر يوماً الى موسكو لزيارة ابنتها الكبرى المتزوجة هناك • فأحدثت تلك الرسالة في نفس الجنرالة بعض الأثر ؛ ورغم أنها لم تنقل من مضمون هذه الرسالة شيئاً الى بناتها أو الى زوجها ، فقد أدرك ذووها من علامات كبيرة أن في نفسها غلياناً بل واضطراباً • انها تُجرى مع بناتها أحاديث غريبة ، في موضوعات غير مألوفة • كان واضحاً انها تريد أن تفضي بما في نفسها ، لكنها تلجم لسانها لسبب من الأسباب • انها ، يوم تلقت الرسالة ، قد أظهرت للجميع عاطفة رقيقة، حتى انها قبّلت آجلايا وأديلايد، واعترفت أمامهما بأخطائهما وعيوبهما فلم تعرف البنتان ماذا كانت تلك الأخطاء ولا ماهي طبيعة تلك العيوب • وقد أصبحت المعجوز متساهلة متساهلة على حين فجأة حتى في معاملة ايفان فيدوروفتش الذي ظلت غاضبةً منه ساخطة عليه مدة شهر كامل • ولكن المعجوز عادت منذ الغد تتقدم على الرقة والحنان اللذين أظهرتهما بالأمس ، ووجدت السبيل الى مشاجرة الجميع حتى قبل أن يحين موعد العشاء • ثم عاد الجو يصفو في المساء من جديد ، فبقيت الجنرالة هادئة المزاج طوال أسبوع ، وذلك أمر لم يحدث لها منذ زمن بعيد •

ولكن الجنرالة تلقت رسالةً أخرى من الأميرة بيلوكونسكايا بعد أسبوع ، فقررت في هذه المرة أن تتكلم • فأعلنت أن « المعجوز بيلوكونسكايا » (كانت الجنرالة لا تسمى الأميرة أثناء غيابها الا بهذا الاسم) قد بعثت اليها بمعلومات مطمئنة جداً عن ذلك « الشاب الغريب

الأطوار .. الأمير ، • لقد استطاعت العجوز أن تهتدى الى الأمير بموسكو، وحصلت على معلومات عنه ، حتى لقد اطلعت على أشياء حسنة جداً في حقه . وقد زارها الأمير ، فأحدثت في نفسها أثراً يكاد يكون خارقاً • « ذلك أمر يراه المرء من مجرد أنها دعته أن يزورها كل يوم ساعة أو ساعتين ، وأنه يزورها فعلاً بانتظام ، وأنها لم تضجر منه حتى الآن » • بهذا ختمت الجنرالة كلامها وأضافت اليه أن الأمير أصبح بفضل « العجوز » يُستقبل في أسرتين أو ثلاث من أرقى الأسر • « حسنٌ أنه لا يبقى معتكفاً في بيته كناسك ، وأنه لا يظهر خجولاً كعبي » •

حين اطلعت الأم بناتها على هذه الأمور ، لاحظن أنها أخفت عنهن مع ذلك كثيراً من فقرات الرسالة • وللهن عرفن هذا من باربارا آرداليونوفا التي تستطيع أن تعرف بل تعرف حتى كل ما يعرفه بتسين عن الأمير بموسكو ؛ ويتسعين لا بد أن يعرف أكثر مما يمكن أن يعرف أى شخص آخر • لكنه رجل متكتم أشد التكم في شئون الأعمال ، وان يكن يُطلع فاريا على بعض الأمور طبعاً • هكذا سرعان ما تفاقم شعور العداوة الذي تحمله الجنرالة لباربارا آرداليونوفا •

ومهما يكن من أمر ، فقد تكسّر الجليد وأصبح يمكن التحدث عن الأمير جهاراً على حين فجأة •

وعدا ذلك تأكد تأكداً واضحاً ، مرةً جديدة ، أن مرور الأمير بمنزل أسرة ايباتشين قد أحدث انطباعاً خارقاً وولّد اهتماماً شديداً • حتى الجنرالة أدهشها الأثر الذي خلفته في بناتها أبناء موسكو • أما البنات فقد أدهشن أن أمهن التي سبق أن أعلنت لهن جهاراً أن « أبرز سمة في حياتها هي أنها تخدع في أمر الناس دائماً » ، لم يمنعها ذلك من أن تعهد بالأمير في موسكو الى حسن رعاية العجوز يلوكونسكايا « ذات

السلطة الكبيرة ، لا سيما وأنها قد اضطرت حتماً أن تتضرع اليها ، لأن
« المعجوز » امرأة ليس اقناعها بالأمر السهل .

ولكن ما ان تكسّر الجليد، وما ان دارت الريح حتى أسرع الجنرال،
هو أيضاً ، يذكر ما كان يعلم . ولكنه اقتصر على « جانب الأعمال من
الأمر » ، اقتصر على هذا الجانب وحده دون غيره . فأتضح أنه ، في سبيل
مصلحة الأمير ، قد كلف شخصين من موسكو ، هما أهل الثقة ومن
أصحاب النفوذ الكبير في الوقت نفسه ، بأن يسهرا على الأمير ، وأن يسهرا
خاصةً على وكيله سالازكين . ان كل ما قيل عن الميراث أو قل عن « أن
هناك ميراثاً » قد اتضح أنه صحيح ، لكن مقدار الميراث أصبح في الحساب
الأخير أقل كثيراً مما ظُن في بداية الأمر . فلقد كانت التركة مضطربة
متشابكة ، وكانت مثقلة بالديون ، كما أن وريثةً أديعاء تقدموا يطالبون
بحقوقهم في الميراث ؟ والأمير نفسه تصرف تصرفاً بعيداً عن تصرف رجل
من رجال الأعمال ، رغم جميع النصائح التي أسديت إليه . « كان الله
في عونته ، طبعاً » . لقد أصبح الجنرال ، بعد أن انكسر جليد الصمت ،
يسعده أن يقول هذا الكلام باخلاص كامل ، ذلك أن هذا الشاب « رغم
أنه ... قليلاً » يستحق كل خير . لكنه قد ارتكب بعض الحماقات . من
ذلك مثلاً أن الذين ادعوا أن لهم على التاجر المتوفى ديوناً قد أبرزوا
للمطالبة بحقوقهم مستندات يمكن انكارها أو اهمالها * ، حتى ان بعضهم لم
يبرزوا أية وثائق على الاطلاق ، لأنهم أدركوا حقيقة الأمير وحزروا
طبيعته . فهل تصدقون ماذا حدث ؟ لقد أرضاهم الأمير كلهم تقريباً ،
رغم ملاحظات أصدقائه الذين برهنوا له على أن هؤلاء الناس ليس لهم أى
حق شرعى . ولكنه فعل ذلك لأنه ظهر أن بعضهم قد أصابه ضرر بالفعل .
وقد أكدت الجنرالة أن الأميرة بيلوكونسكايا قد كتبت اليها شيئاً بهذا
المعنى ، وأن ذلك « غباء طبعاً ، غباء شديد ، ولكن لا سبيل الى شفاء رجل

أبله » . هنا ما أضافته الجنرالة بلهجة قاطعة ، وإن يكن وجهها قد فصح رضاها عن سلوك « الأبله » المزعوم ، وارتياحها له . الخلاصة أن الجنرال لاحظ أن امرأته مهتمة بالأمير حتى لكأنه ابنها ، وأنها من جهة أخرى تبدو لابنتها آجلايا عاطفة كبيرة وحناناً عظيماً . فلما رأى ذلك اتخذ الوضع الذى يليق اتخاذه فى الأمور الهامة ، الى حين .

لكن هذه الحالة النفسية الحسنة لم يطل عمرها أيضاً . فما ان انقضت خمسة عشر يوماً حتى حدث تغير مفاجئ آخر . فأظلم وجه الجنرالة من جديد ، أما الجنرال فانه بعد أن هزّ منكبيه مرتين أو ثلاثاً عااد يرضخ « جليد الصمت » . وجلية الأمر أن الجنرال كان قد تلقى قبل أسبوعين خبراً سرياً مقتضباً لكنه مؤكد ، يقول ان ناستاسيا فيليوفا التى كانت قد اختفت فى موسكو ثم عثر عليها روجويين ، قد اختفت مرة أخرى ثم اهتدى اليها روجويين مرة ثانية فوعده بأن تتزوجه . وها هو ذا الجنرال يعلم بعد ذلك بأقل من أسبوعين أن ناستاسيا فيليوفا قد هربت مرة ثالثة ، قيل مثولها مع روجويين أمام الكاهن فى الكنيسة للزواج ، وأنها الآن مختبئة بمكان ما فى الأقاليم ؛ وأن الأمير ميشكين قد اختفى هو أيضاً ، تاركاً جميع شؤنه لوكيله سالازكين ، « فاما انه سافر معها واما أنه مضى يلاحقها ، فذلك أمر مجهول ، ولكن لا بد أن هناك شيئاً » . ذلك مااستتجه الجنرال . وقد تلقت اليزابت بروكوفينا ، هى أيضاً ، أنباء مزعجة . الخلاصة أن الناس بمدينة بطرسبرج أصبحوا بعد سفر الأمير بشهرين لا يجيئون على ذكره الا لاماً ، أما أسرة ايباتشين فان « جليد الصمت » لم يتكسر فيها بعد ذلك . ولكن باربارا آرداليسونوفنا واصلت زياراتها للنساء .

واذا تركنا الآن جميع تلك الشائعات وجميع تلك الأنباء ، وجب علينا أن نذكر أن سلسلة من التغيرات قد حدثت فى أسرة ايباتشين عند

اقتراب فصل الربيع ، وهى تغيرات لم تسمح للأسرة كثيراً أن تفكر فى الأمير ، لاسيما وأن الأمير لم يدلّ على وجوده ، ولعله لم يشأ أن يدلّ على وجوده . ففى أثناء الشتاء تقرر شيئاً فشيئاً أن تسافر الأسرة لقضاء الصيف فى الخارج ، أغنى أن تسافر الزابت بروكوفينا وبناتها ، لأن الجنرال لا يستطيع طبعاً أن يجيز لنفسه تضييع وقته فى « تسليات لا طائل فيها ولا جدوى منها » . وقد تم اتخاذ هذا القرار بعد الحاح شديد واصرار مستمر من قبل الاخوات الثلاث اللواتى كن على يقين من أن أبويهما اذا لم يوافقا على قيامهن برحلة الى الخارج ، فانما يكون مرد ذلك الى اهتمامهما الدائم بتزويجهن والبحث لهن عن عرسان .

ولعل الأبوين قد اقتنعا من جهتهما بأن العرسان يمكن أن يتقدما فى الخارج أيضاً ، وبأن رحلة يقمن بها فى الصيف لا تعطل شيئاً ، حتى لقد « سهّل الأمور » .

ويحسن أن نذكر هنا أن الزواج الذى كان مزمعاً أن يتم بين آتاناى ايفانوفتش وتوسكى وكبرى بنات ايباتشين قد انفسخ من تلقاء نفسه ، وأن توسكى لم يتقدم بأى طلب رسمى فى خطبة الفتاة . ولقد تم ذلك على نحو طيعى جداً ، دون مناقشات كثيرة ، ودون أى صراع فى داخل الأسرة ؛ كل ما هنالك أن أحداً أصبح لا يجىء على ذكر هذا الموضوع بعد سفر الأمير ، لا من هذا الطرف ولا من ذاك . ولا شك أن هذا كان أحد أسباب الجو الثقيل الذى خيم على منزل أسرة ايباتشين ، وان تكن الجترالة قد أعلنت منذ تلك اللحظة أنها مستعدة أن « ترسم اشارة الصليب بكلتا يديها حمداً لله وشكراً » . أما الجنرال فانه رغم اعترافه بصحة المآخذ التى كانت تأخذها عليه امرأته ، ورغم اعترافه بأنه مخطيء مذنب ، قد ظل معتكراً المزاج متجهماً النفس مدة طويلة ، لأنه

كان آسفاً على آتاناڤى ايفانوفنا حقاً : « ثروة طائلة كهذه الثروة ، ورجل بارع هذه البراعة ! » . وعلم الجنرال بعد ذلك بمدة قصيرة أن آتاناڤى ايفانوفتش قد أغوته امرأة فرنسية من المجتمع الراقى كانت مارةً بالبلاد ، وهى مركيزة من أنصار الشرعية ، وأن الزواج قد حُدِّدَ مواعده ، وأن المركيزة ستأخذ آتاناڤى ايفانوفتش الى باريس أولاً ، ثم الى مكان بمقاطعة بروتانيا بعد ذلك . قال الجنرال : « يتزوج فرنسية ؟ لقد ضاع اذن ! » .

كان آل ايباتشين يهين اذن رحلة الصيف . غير أن حدثاً جديداً جاء يغير كل شئ على حين فجأة ، فيتأجل السفر مرة أخرى ، ويفرح الجنرال وزوجته من ذلك فرحاً كبيراً . ان أميراً اسمه « ششت . . » * ، وهو شخصية معروفة ، معروفة بأحسن الصفات ، قد وصل الى بطرسبرج قادماً من موسكو . انه واحد من أولئك الرجال المثقفين ثقافة حديثة ، الفعاليين النشيطين ، الشرفاء المستقيمين ، المتواضعين الذين يريدون أن يكونوا نافعين بكل صدق واخلاص ، والذين يعملون بغير انقطاع ، ويتميزون بذلك الاستعداد النادر الثمين لأن يستعملوا نشاطهم دائماً . انه لا يحاول أبداً أن يضع نفسه فى مقدمة الناس ويتحاشى ما يقوم بين الاحزاب من اضطراب عقيم وبلاغة لا طائل تحتها ؛ ولا يعد نفسه بين رجال الصف الأول ، ولكنه كان مع ذلك يدرك دلالة الأحداث الجارية والتبدلات القائمة ادراكاً سليماً . كان فى أول الأمر موظفاً بالدولة ، ثم شارك فى جهاز الحكم المحلى (زمتوف *) . وكان الى ذلك عضواً مراسلاً فى عدة جمعيات علمية روسية ، وكان له فى هذا المجال شأن محترم . وقد ساهم ، متعاوناً مع مهندس من أصدقائه ، فى رسم مسارٍ سليم لواحدٍ من أهم خطوط سككنا الحديدية التى كان تنفيذها مزمعاً فى ذلك الحين . ان عمره خمسة وثلاثون عاماً . وهو ينتمى الى أرقى طبقة فى المجتمع ،

ويملك ثروة « ممتازة » متينة ، لا يمكن جحودها ، على حد تعبير الجنرال نفسه الذى أتيح له بمناسبة عمل من الأعمال الهامة أن يلتقى بالأمير عند الكونت ، رئيسه فى سلم الوظيفة .

ومن غرائب طبع الأمير أنه كان لا يتحاشى أبداً أن تكون له اتصالات « برجال الأعمال » الروس . وقد اتفق أن تعرف أيضاً الى أسرة الجنرال . فأحدثت فيه آديلايد ايفانوفنا ، البنت الوسطى من بنات الجنرال ، انطباعاً قوياً . فلما كان مطلع الربيع أعلن رغبته فى زواجهما . وقد أعجبت به اليزابت بروكوفينا ورضيت عنه . وكان طبعياً أن تأجلت الرحلة . وعين للزواج موعد فى الربيع .

وكان يمكن أن تتم الرحلة فى وسط الصيف أو فى نهايته ، ولو نزهة تقوم بها الأم اليزابت بروكوفينا وابنتاهما اللتان بقيان لها ، لولا أن شيئاً جديداً آخر قد حدث . ففى نهاية الربيع (وكان زواج آديلايد قد تأخر وتأجل الى منتصف الصيف) أدخل الأمير « شتس » الى منزل أسرة ايباتشين شاباً يمت اليه بقرابة بعيدة ، لكن بينه وبينه معرفة قوية . هو شاب اسمه يوجين بافلوفتش ر . . . * ، فى نحو الثامنة والعشرين من العمر ، ضابط من ضباط الامبراطور*، يتمتع بحظ كبير من الجمال ، ينتمى الى « سلالة شهيرة » ، وينعم عدا ذلك بأنه مرهف الفكر ، مرح الطبع ، لامع ، « عصرية » ، « مثقف ثقافة نادرة » ، ويملك ثروة طائلة . ولكن الجنرال ريباب دائماً فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة . لذلك راح يستطلع حقيقة الأمر ، فاتتهى « الى أن الى الشاب غنى حقاً فيما يظهر ، ولكن لا بد من مزيد من التحقق والتثبت » . وعدا ذلك فان هذا الضابط الذى ينتظر له « مستقبل عظيم » قد كتبت العجوز بيلوكونسكايا من موسكو توصى به خيراً ، وتكيل له مديحاً كبيراً . كل ما هنالك أن سمعته كانت

تشوبها شوائب صغيرة : علاقات غرامية و « غزوات » قام بها الشاب فحطم بعض القلوب الحساسة ، فيما يقال •

فحين رأى الشاب أجلايا أصبح يلزم منزل آل ايباتشين ملازمة شديدة • ولئن لم يقل شيئاً حتى الآن ، ولو فى صورة تلميح ، فان الأبوين أصبحا يعتقدان أنه لا مجال للتفكير فى السفر الى الخارج هذا الصيف • أما أجلايا ، فلعلها كانت ترى رأياً آخر •

ذلك كله حدث قبل عودة بطل قصتنا الى المسرح • كانت الظواهر الخارجية تدل على أن الأمير المسكين ميشكين كان قد نسيه أهل بطرسبرج فى تلك الفترة نسياناً يكاد يكون تاماً ، فلو خطر بباله أن يعود الى الظهور بين أولئك الذين كانوا يعرفونه ، لبدا كالهابط من السماء •

بقى علينا مع ذلك أن نروى واقعة من الوقائع قبل أن نفرغ من هذه المقدمة •

بعد سفر الأمير ، بقي كولييا ايفولجين يعيش كما كان يعيش فى الماضى ، فهو يذهب الى المدرسة ، ويتردد على صديقه هيبوليت ، ويعتنى بأبيه ، ويساعد فاريبا فى أعمال البيت أى يشتري لها ما يجب شرائه من السوق • غير أن المستأجرين قد تبعضوا بسرعة: فردشتينكو ترك المنزل بعد أحداث سهرة ناستاسيا فيليوفنا بثلاثة أيام ، وسرعان ما غاب عن الأعين ، فليس يراه أحد ، وليس يسمع عنه أحد شيئاً • كل ما هنالك أنه كان يقال عنه ، ولكن بغير جزم أو قطع ، انه كان يسكر فى مكان ما • وبرحيل الأمير رحل عن البيت آخر مستأجر • فلما تزوجت فاريبا بعد ذلك مضت نينا ألكسندروفنا ومضى جانبا يسكنان عندها فى منزل بتسين بحى اسماعيلوفسكى *• أما الجنرال ايفولجين فقد حدث له فى تلك الفترة نفسها تقريباً حادث لم يكن فى حسابه قط : لقد أودع السجن بسبب ديون عليه • ذلك أن صديقه أرملة الكابتن طالبت بسداد سندات تصل قيمتها

الى ما يقرب من ألفى روبل ، وهى سندات كان الجنرال قد وقّعها لها
فى فترات مختلفة . وقد دهّش الجنرال من ذلك دهشة هائلة . لا شك أن
الجنرال المسكين قد وقع « ضحية ايمانه العظيم بنبل القلب الانسانى » .
لقد أُلّف تلك العادة المطمئنة ، وهى أن يوقع سندات كيفما اتفق ، فلم
يخطر بباله أن فى الامكان أن تُستعمل هذه السندات فى يوم من الأيام .
كان يظن أن الأمور تقف عند حدود توقيع السندات . ولكن هذا الحادث
خيب آماله وبدّد أوهامه . فكان يهتف قائلاً وقد جلس الى مائدة مع
أصدقاء جدد فى سجن تاراسوف أمام زجاجة خمر وهو يحدثهم عن
حصار كارس ، وعن قصة الجندى الذى بُعث من الموت حياً ، كان
يهتف قائلاً : « فكيف يثق المرء بالناس بعد هذا ، كيف يحضهم ثقته
النييلة ؟ » .

والحق أنه كان يعيش فى السجن حياة مريحة ممتعة جداً . حتى
لقد كان بتسين وفاريا يقولان انه وجد هنالك مكانه الملائم له ، وكان جانيا
يشاطرهما هذا الرأى تماماً . ان المسكين نينا ألكسندروفنا وحدها كانت
تبكى بكاءً مرّاً على غير مرأى من أحد (وكان ذلك يثير دهشة أفراد
أسرتها) ، وكانت رغم مرضها المستمر تجرّ نفسها كلما أمكنها ذلك ،
فتخرج من حىّ اسماعيلوفسكى ، وتمضى تزور زوجها .

ولكن منذ « حادثة الجنرال » (على حد تعبير كولا) ، أو منذ زواج
فاريا على وجه العموم ، أفلت كولا من سلطة أسرته افلاتاً يكاد يكون
تاماً ، حتى لقد بلغ من ذلك أنه أصبح لا يعود الى البيت للمبيت الا نادراً .
كان يقال انه قد عقد صلات جديدة كثيرة ، وأنه عدا ذلك اكسب
شهرة كبيرة فى سجن المدنيين . فكانت نينا ألكسندروفنا لا تستطيع الاستغناء
عنه أثناء زياراتها لزوجها فى السجن . وكفّ أهله فى البيت عن مساءلته

ولو من باب حب الاطلاع • ان فاريا التى كانت من قبل قاسية فى معاملته
أشد القسوة ، أصبحت لا تلقى عليه الآن أى سؤال عن غيابه •
أما جانبا فكان فى بعض الأحيان (وهذا ما أثار دهشة ذويه) يثرثر معه
بمودة كبيرة ، رغم كآبته وسوداويته ، وذلك أمر لم يسبق أن حدث فى
الماضى قط ، لأن جانبا المعتز بعمره البالغ سبعة وعشرين عاماً كان لا ينتبه
أى انتباه بشوش الى أخيه الذى لا تتجاوز سنه الخامسة عشرة ، بل كان
يعامله معاملة خشنة ، ولا يطلب من الأسرة كلها الا أن تكون قاسية معه ،
ولا يفتأ يهدد بأنه « سيشدد له أذنيه » ، فكان هذا يخرج كولييا عن
« حدود قدرة الانسان على الصبر والاحتمال » • أما الآن ففى وسعنا أن
نقول ان كولييا يكاد يكون فى بعض الأحيان حاجة ماسة لأخيه لا غنى
له عنها • وكان كولييا قد فاجأ من جانبا انه ردّ المال ، وكان لذلك مستعداً
لأن يفقر له أشياء كثيرة •

بعد سفر الأمير بثلاثة أشهر ، عرفت أسرة ايفولجين أن كولييا قد
تعرّف على أسرة ايباتشين ، بل وأن الآسات يحسنّ استقباله كثيراً •
لقد علمت فاريا النبأ بسرعة ، رغم أن كولييا لم يعتمد على وساطتها للتعرف
على أسرة ايباتشين وانما تولى تقديم نفسه بنفسه • وشيئاً فشيئاً أحبته
الآسات ايباتشين • ونظرت اليه الجذالة فى أول الأمر نظرة شذراء ،
لكنها أخذت تحبه هى أيضاً حين عرفت « أنه صريح وأنه لا يداهن
ولا يتملق » • فلما أن كولييا كان لا يحاول أن يتملق أحداً فذلك أمر
صحيح كل الصحة • وقد عرف كيف يضع نفسه فى موضع الند ، وفى
موضع المستقل ؛ ولئن كان يقوم أحياناً بقراءة بعض الروايات أو المجلات
للجذالة ، فما ذلك الا لأنه كان فتى خدوماً على الدوام • على أنه قد
تشاجر مع اليزابت بروكوفينا تشاجراً قاسياً ، مرة أو مرتين ، فغتها
بأنها مستبدة طاغية ، وأعلن لها أنه لن يضع قدمه فى منزلها بعد الآن •

فأما المرة الأولى فكانت بسبب « قضية المرأة » ، وأما المرة الثانية فكانت
بمناسبة هذه المشكلة : أى الفصول أنسب لاصطياد البلابل • ومهما بيد
لكم الأمر غريباً ، فإن الجنرالة قد أرسلت إليه غداة غداً خادماً يحمل إليه
منها رسالةً ترجوه فيها أن لا يتخلف عن المجيء إليها • فلم يماند كوليّا ،
وجاء إليها فى الحال • كانت آجلايا وحدها لا يسرها وجوده كثيراً -
لا يدري أحد لماذا ؟ - وكانت تنظر إليه من على • ومع ذلك كان مكتوباً
عليها أن تحدث لها على يديه هو مفاجأة • ففى ذات يوم - وكان ذلك فى
أسبوع عيد الفصح - انتهز كوليّا فرصة اختلاؤه بها لحظةً ، فمدّ إليها
رسالةً كان قد طُلب منه أن ينقلها إليها بنفسه دون واسطة ، فتسلمتها منه
بيدها ذاتها • ألقت آجلايا نظرة تهديد على هذا « الفتى الوقح » ، ولكن
كوليّا خرج دون أن ينتظر حدوث شىء آخر غير ذلك • وفضت الفتاة
الرسالة فقرأت ما يلى :

« لقد أوليتى شرفاً عظيماً فى ذات يوم ، حين وثقت بى واطمأنت
الىّ • ولعلك نسيتهى الآن نسياناً تاماً • فلا أدري كيف تجرأت على أن
اكتب اليك هذه الكلمة • لكننى أحسست برغبة لا تقاوم فى أن أذكرك
بى ، أن أذكرك أنت خاصةً • مراراً كثيرة كان يمكن أن تنفقتى كثيراً
أنت وأختاك ، لكنك كنت أنت الوحيدة التى أراها بخيالى منكن • اننى
فى حاجة ماسة اليك • أنت لى ضرورة لازمة ، لازمة جداً • ليس هناك
ما أطلبه منك ، ولا ما أرويه لك عنى • وليس هذا ما كان يمكن أن
يحضنى على الكتابة اليك • ولكن أقوى رغبة تحيى فى نفسى هى أن أعلم
أنك سعيدة ، فهل أنت سعيدة ؟ ذلك هو كل ما أردت أن أقوله لك •

ابن عمك : الأمير ل • ميشكين

بعد أن قرأت آجلايا هذه الرسالة القصيرة المضطربة الحالية من

الانسجام ، احمرّت فجأة ، ولبت مطرقة تفكر • يصعب علينا أن نتابع مجرى خواطرها • لقد طرحت على نفسها هذا السؤال ، فيما طرحت من أسئلة أخرى : هل أطلع أحداً على هذه الرسالة ؟ وأخيراً رمت الرسالة فى درج منضدتها ، بينما اثنت شفتاها على ابتسامة ملفزة ساخرة •

وفى الغد تناولت الرسالة مرة أخرى ودسّتها فى كتاب ضخّم مجلد تجليداً سيكاً • هذا ما كان تفعله دائماً بالأوراق التى تحب أن تهتدى إليها بسرعة • واقتضى أسبوع قبل أن يخطر ببالها أن تنظر فى عنوان الكتاب : « دون كيشوت دولامانث » * • لا ندرى لماذا جعلها هذا العنوان تنفجر ضاحكة • لا ولا ندرى هل أطلعت أختاً من أختها على الرسالة •

ولكنها حين أعادت قراءة الرسالة ومض فى ذهنها سؤال : هل يُعقل أن يختار الأمير هذا الصبى الوقح المتفطرس رسولاً ، وربما رسولاً وحيداً ؟ وسألت عن هذا الأمر كوليا ، مع استمرارها على مخاطبته بتعالٍ وخيلاء • ولكن « الصبى » ، على سرعة تأذيه فى العادة ، لم يلق بالاً الى هيئة الاحتقار التى ظهرت على آجلايا • وشرح لها باختصار ، وبشئ من الجفاف أو الحسونة ، أنه قد أعطى الأمير عنوانه استعداداً للمصادفات ، وأنه عرض عليه خدماته ، وذلك قبل أن يغادر الأمير بطرسبرج ، ولكن هذه المهمة هى مع ذلك المهمة التى كلفه بها الأمير ، وأن هذه الرسالة هى الرسالة الأولى التى تلقاها منه • ومن أجل أن يبرهن كوليا على صحة قوله ، أظهرها على الرسالة التى وجهها الأمير اليه شخصياً • فلم تخرج آجلايا أى تخرج من قراءة هذه الرسالة التى كان نصها ما يلي :

« عزيزى كوليا ، أرجو أن تسلم آجلايا ابفانوفنا الرسالة المختومة المرفقة • وأتمنى لك صحة جيدة »

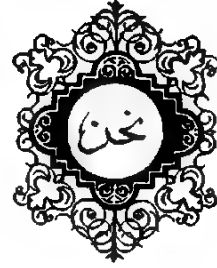
ولك أخلص العاطفة من صديقك :

الامير ل • ميشكين

قالت آجلآيا بلهجة الأسف وهى ترد الرسالة الى كوليا :
- انه لشيء مضحك مع ذلك أن يمنح مثل هذا الصبي كل هذه
الثقة •

ثم ابتعدت وقد لاحت فى وجهها علامات احتقار •
كان ذلك أكثر مما يستطيع أن يطبق كوليا الذى استعار لهذه
المناسبة من جانيا منديله الأخضر الجديد دون أن يشرح له السبب •
فأحس بالاهانة احساساً قاسياً •

الفصل الثاني



الآن في مطلع حزيران (يونيه) : الجو في
بترسبرج رائع منذ أسبوعين • ان اسرة
اياتشين تملك في بافلوفسك* فيلا مترفة أنيقة.
أخذت اليزابت بروكيفونا تتحرك وتسعى بكل
قوة على حين فجأة لتذهب الى هناك • فما انقضى يومان الا وقد تم الانتقال.
وبعد هذا السفر بيوم أو يومين وصل الأمير ليون نيقولايفتش
ميشكين من موسكو بقطار الصباح • لم يجرى الى المحطة أحد لانتظاره
واستقبائه ، لكنه حين نزل من حافلة القطار خيل له فجأة أنه يميز في
الجمهور المحتشد حول المسافرين عشرين ملتهبين كانتا تفرسان فيه تفرساً
غريباً • حاول أن يعرف مصدر تلك النظرة ، لكنه لم يميز بعدئذ شيئاً •
لعل ذلك لم يكن الا وهماً ، لكن هذا الوهم قد ترك في نفسه أثراً
مزعجاً ، ولم يكن الأمير في حاجة الى هذا ليكون حزيباً مهموماً مغموماً •
كان ثمة شيء يبدو أنه يشغل باله ويقلق نفسه •

ركب عربة أقلته الى فندق غير بعيد عن شارع ليتانيايا • فاستأجر
في ذلك الفندق الذي لم يكن باهر المنظر ، استأجر غرفتين صغيرتين
معتمتين سيئتي أرائهما • وأسرع يفسل يديه ووجهه ، ويدل ثيابه دون أن
يطلب شيئاً ، وخرج متعجلاً كمن يخشى أن يضع وقتاً أو أن تفوته
زيارة •

لو أن شخصاً من الأشخاص الذين عرفوه قبل ستة أشهر ، يوم وصوله الى بطرسبرج ، لو أن شخصاً من أولئك الأشخاص رآه في تلك البرهة ، لاحظ تحسناً ملحوظاً واضحاً في مظهر الأمير . ولكن ذلك لم يكن من الامر الا ظاهره فحسب . ان ملايسه وحدها قد تغيرت تغيرا كاملاً : ان رداءه الآن قد أعدّه له خياط من أحسن الحياطين بموسكو . ومع ذلك كان يعيب هذا الرداء أنه مسرف في الانقياد للموضة (ذلك دائماً شأن الحياطين الذين يملكون من حسن الارادة أكثر مما يملكون من رهاقة الذوق) ، ولا سيما بالنسبة الى شخص لا يفهم من أمور الزينة شيئاً . فلو رآه ملاحظ ميّال الى السخرية لاستطاع اذا هو أنعم النظر في الأمير أن يجد فيه ما يبعث على الضحك والاستهزاء . ولكن ما أكثر الأشياء التي يمكن أن تبعث على الضحك والاستهزاء !

ركب الأمير عربة وأمر الخوذي بأن يقوده الى حي « الرمال » * . وسرعان ما اهتدى هنالك في أحد شوارع مجموعة رودجستنسكى الى العنوان الذي كان يبحث عنه ويسمى اليه : انه بيت صغير من خشب ، بيت لطيف المظهر ، أدهشته نظافته والعناية به ، تحيط به حديقة مزروعة أزهاراً ، نوافذه المطلة على الشارع مفتوحة ، ومن خلالها يُسمع صوت حاد يكاد يكون صارخاً هو صوت رجل يبدو أنه يقرأ كتاباً أو يلقي خطاباً . والصوت تقطّعه انفجارات ضحك من حين الى حين . دخل الأمير فناء البيت ، وصعد درجات المدخل ، ودق الباب ، ففتح له ، فسأل عن « السيد ليديف » .

قالت طبّاخة مشمورة الأكمام الى الكوعين ، وهي توميء بيدها الى مدخل الصالون :

— هو ذا !

ان هذا الصالون ، المغطاة جدراننه بورق أزرق قاتم ، كان معتنى

بنظافته ، بل كان فيه شيء من اسراف في التأنيق : يتألف أثاثه من مائدة مستديرة ؛ وديوان ؛ وساعة برونزية ذات نواس ، تحت غطاء من زجاج ؛ ومراة ضيقة مثبتة في الحائط ؛ وثرىا صغيرة قديمة تدلى فيها قطع الكريستال ، معلقة بالسقف بسلسلة من برونز .

في وسط تلك الغرفة كان يقف السيد ليديف بنفسه ، مديراً ظهره الى الباب الذي دخل منه الأمير ، مرتدياً قميصاً بغير سترة من شدة الحر ، متدفقاً في حديث مسهب بلهجة عاطفية وهو يلطم صدره . وكان سامعوه : فتى في الخامسة عشرة من عمره يقظ الهيئة فطناً ذكياً ، قد أمسك بيده كتاباً ؛ وفتاة في نحو العشرين من عمرها ترتدى ملابس الحداد وعلى ذراعها طفل صغير ؛ وبنية في الثالثة عشرة ترتدى ثياب الحداد أيضاً وتضحك ملء حلقها ؛ ثم شخصية غريبة مستلقية على الديوان : انه فتى في نحو العشرين من عمره ، حسن الهيئة وسيم الطلعة اسمر اللون طويل الشعر كثيفه ، واسع العينين أسودهما ، وعلى وجهه زغب خفيف بمثابة لحية وعارضين . وكان يبدو على هذا الفتى أنه ما ينفك يقاطع خطاب ليديف ليمارضه ، وعن ذلك انما كانت تنشأ نوبات الضحك لدى جمهور المستمعين في أغلب الظن .

— لوكيان تيموفتشس ! لوكيان تيموفتشس ! عجيب أمرك ! هلاً نظرت من هنا ! آه آه آه على كل حال ، افعل ما يحلو لك ! . . .

وخرجت الطباخة محمّرة الوجه غضباً ، وهي تحرك ذراعها بحركة العجز .

والفت ليديف ، فلما رأى الأمير ، ظل مبهوراً خلال بضع لحظات ، ثم أسرع نحوه مبتسماً ابتسامةً ذليلة ، لكنه توقف عند العتبة من جديد ، متجمداً من الدهشة ، وتمتم يقول :

- صا .. صاحب السمو الأمير ! * .

وفجأة ، وكأنه ما يزال عاجزاً عن السيطرة على نفسه وامتلاك زمام ارادته ، استدار على عقبيه واندفع نحو الفتاة التي ترتدى ملابس الحداد وتحمل على ذراعيها طفلاً صغيراً ، اندفع نحوها بلا سبب ظاهر ، فتقهقرت الفتاة الى وراء ، أمام هذه الهجمة التي لم تكن في الحسبان . لكنه سرعان ما تحول عنها ، وأخذ يتهمج على البنية التي عمرها ثلاثة عشر عاماً ، والتي ما تزال عاجزة عن أن تسيطر على ضحكها أو أن تلجمه ؛ فلم تملك أن تحتمل صراخه ففرّت الى المطبخ بوتبة واحدة . وخبط ليديف الأرض بقدمه ليروعها مزيداً من الترويع ، ولكنه حين التفت نظرتة بنظرة الأمير الذي كان خجلاً أشد الحجل ، قال شارحاً :

- ذلك .. للاحترام ! هيء هيء !...!

فبدأ الأمير يقول :

- انك لتخطيء جداً اذ ...

لكن ليديف لم يمهله لاتمام كلامه ، بل قاطعه يقول :

- حالاً ، حالاً ... ، بسرعة الريح ...

وغاب ليديف من الغرفة مسرعاً .

أخذ الأمير يتأمل الفتاة والصبي والشخصية المضطجعة على الديوان مدهوناً . لقد كانوا جميعاً يضحكون . فأخذ يضحك منهم .

قال الفتى :

- ذهب يرتدى « الفراك » .

قال الأمير :

- ما أكر ما يضايقتني هذا كله !...! لقد كنت أعوّل على ...

ولكن قل لي : أهو مثلاً ...

- سكران ؟ تريد أن تسأل أهو سكران ؟ لا ، ما هو بالسكران
البته ! كل ما فى الأمر أنه أنه شرب ثلاث كتوس ، أو أربعاً ، وربما
خمساً ، حتى لا يخل بالقاعدة لا أكثر !

كذلك صاح صوت انطلق من على الديوان •

وقد همَّ الأمير أن يجيب المتكلم ، ولكن سبقته الفتاة التى كان
وجهها الحلو الجميل يعبر عن أكبر الصراحة • قالت :

- انه لا يشرب كثيراً فى الصباح قط • فإذا أردت أن تكلمه فى
أعمال ، فافعل • هذا هو الوقت المناسب • أما حين يعود الى البيت مساءً ،
فانه يكون نملًا فى بعض الأحيان • وقد أصبح يتفق له الآن ، ولا سيما
فى الليل ، أن يطفق يبكى ، ثم يأخذ يقرأ لنا فى الكتاب المقدس بصوت
عال ، لأن أمنا ماتت منذ خمسة أسابيع •

قال الفتى الراقد على الديوان :

- لئن هرب فلأنه يصعب عليه أن يجيبك • أراهن أنه الآن يحاول
أن يخدعك ويضللك ، وأنه الآن بسيل اجترار الضربة التى يهيشها لك •
- منذ خمسة أسابيع ماتت ، منذ خمسة أسابيع فقط •••

كذلك صاح يقول ليديف وقد عاد الى الصالون مرتدياً « الفراك »؛
وطرفت عيناه ، وأخرج من جيبه منديلاً يجفف به دموعه • وأردف يقول:

- يتامى ! انهم يتامى !

قالت الفتاة :

- ما هذا يا بابا ؟ لماذا ارتديت رداءً مهترئاً منقباً ؟ ان عندك هناك ،
وراء الباب ، رديجوتاً جديداً • أما رأيتك اذن ؟
- اسكتى يا جرادة ! أهذه أنت ؟

قال ليديف ذلك وخطب الأرض بقدمه ليخيفها ، لكنها في هذه المرة لم تزد على أن ضحكت ، وقالت :

- لماذا تحاول أن تخيفني ؟ أنا لست تانيا * . لن أهرب . اسمع . سوف توقظ ليوبوتشكا * ، وسوف تعاودها تشنجات . علام هذا الصراخ ؟

صاح ليديف يقول بحركة رعب مفاجئة :

- دعي لسانك ملتصقاً بسقف حلقك ، فلا تحركيه !

ثم أسرع نحو الطفلة التي كانت نائمة على ذراعي الفتاة ، فرسم عليها إشارة الصليب عدة مرات وهو زائغ الهيئة . وقال :

- احفظها يا رب ! صنها يا رب ! احمها يا رب !

ثم أضاف يقول متجهاً الى الأمير :

- هذه الطفلة هي ليوبوف ، ابنتي انا . ولدت لي بزواج شرعى جداً من امرأتى هيلينا التى ماتت أثناء الوضع . وهذه الطائر اللقلق هي ابنتى فيرا ، ترتدى ملابس الحداد . . أما هذا . . أما هذا . . أوه . . فهذا . .

- لماذا تقطع كلامك ؟ أكمل ! لا تضطرب !

هتف ليديف قائلاً بحماسة :

- يا صاحب السمو ، هل تابعت فى الجرائد أنباء قاتل أسرة جيرامين ؟*
فأجابه الأمير مدهوشاً :

- نعم .

- فهذا هو قاتل أسرة جيرامين بنفسه ! هذا هو بعينه !

قال الأمير :

- ما معنى هذا الكلام ؟

فأجاب ليديف :

- لتفاهم : أنا أتكلم بطريقة الرمز والكناية • أريد أن أقول أنه هو القاتل المقبل لأسرة جيرامين أخرى ، اذا وجدت أسرة جيرامين أخرى • انه يستعد لهذه الجريمة ...

أخذ الجميع يضحكون ، وخطر ببال الأمير أن ليديف لعله كان يسترسل في هذه التهريجات لأنه كان يتنبأ بأسئلة يلقيها عليه الأمير فلا يعرف بماذا يجيب عنها ، فهو اذن يريد ارجاء الأمر وكسب الوقت •

صرخ ليديف يقول بلهجة رجل أصبح لا يسيطر على نفسه :

- ان هذا الفتى ثائر متمرد مدبر مؤامرات • هل في وسعي أنا أن أعدّ لسان الأقمى هذا ، أن أعدّ هذا الزاني ، أن أعدّ هذا الشيطان الرجيم ، ابناً لأختي آيسيا ؟ ابناً وحيداً لأختي آيسيا ؟

- اخرس ايها السكير ! هل تصدق يا أمير أنه قد وضع في رأسه الآن أن يصبح محامياً • انه يريد أن يتعلم مهنة الملاحكة ، ويتمرن على البلاغة والفصاحة ، حتى اذا كلم أولاده كلمهم بلهجة الخطابة ! منذ خمسة أيام ترافع في محكمة الصلح * • ترافع لمصلحة من ؟ ان امرأة عجوزاً كانت قد ناشدته أن يحامي عنها ضدّ مراب نذل سلبها خمسمائة روبل هي كل ما تملك • فهل دافع عن المرأة العجوز ؟ لا ... وانما ترافع لمصلحة المرابي ، وهو يهودى اسمه سايدلر ، لأن هذا المرابي وعده بخمسين روبلاً ...

صحّح ليديف كلام ابن اخته قائلاً بصوت تبدل الآن بدلاً تاماً ، فكأنه لم يصرخ منذ هنيهة :

- خمسين روبلاً اذا ربحت القضية ؟ أما اذا خسرتها فخمسة روبلات فحسب !

- وقد أخفق طبعاً ! ان القضاء اليوم غير ما كان بالأمس • انهم لم

يزيدوا على أن ضحكوا منه • هذا لا ينفي أنه ظل معترأً بمرافته اعتراضاً كبيراً • اسمع ماذا قال في المرافعة : « سادتي القضاة الزريهين ، تصوروا أن موكلى ، وهو شيخ مسكين كسيح يعيش من عمل شريف ، تصوروا أن موكلى هذا هو الآن بسبيل أن يفقد آخر لقمة خبز • تذكروا الأقوال الحكيمة التى قالها الشرع : « واحكموا بين الناس بالرحمة » * فهل تتصور أنه يلقي على مسامعنا هذه المرافعة فى كل صباح كما ألقاها هناك ؟ اتنا نسمعها اليوم خامس مرة • كان يرددها لحظة وصولك منذ برهة • فالى هذه الدرجة هو مفتون بها • يتلوها ويتلمظ • وهو يستعد الآن للدفاع عن موكل آخر من هذه الطينة نفسها • أنت الأمير ميشكين ، فيما أظن ، ألسنت الأمير ميشكين ؟ لقد حدثنى عنك كوليا كثيراً ، وقال انه لم يرَ فى حياته رجلاً أذكى منك •

فقال ليديف مؤيداً :

- نعم نعم ، ليس فى العالم رجل أذكى منه !
- هذا كاذب • كوليا يحبك صادقاً ، أما هذا فهو يمسح ظهره لئلا خطوتك • وأنا لا اتوى البتة أن أتملكك ، تستطيع أن تصدقنى • ولكنك لا يعوزك الحس السليم : فاحكم بينى وبينه •
واتجه الشاب المستلقى على الديوان الى خاله يسأله :
- هيه ... ما رأيك فى أن يفصل فى قضيتنا الأمير ؟ لقد أراحنى جداً أنك جئت يا أمير !

قال ليديف بلهجة قاطمة ، وهو يلقي نظرة بغير ارادة منه على « الجمهور » الذى عاد يتحلق حوله :

قال الأمير مقطباً حاجبيه :

- ما المسألة ؟

لقد كان الأمير مصاباً بصداغ فعلاً ، ولكنه كان عدا ذلك يزداد اقتناعاً ، لحظة بعد لحظة ، بأن ليديف يخادعه ويسعى الى مهرب ويحاول التملص .

قال ابن الأخت :

— هأنا ذا أعرض لك المسألة . انا ابن اخته . ففي هذه النقطة ، خلافاً لمادته ، لم يكذب . وأنا لم أتم دراستي ، لكنني أريد اتمامها ، وسوف أتمها لأنني أملك قوة الارادة . وبانتظار ذلك أريد ، لأعيش ، أن أعيّن موظفاً في السكة الحديدية براتب قدره خمسة وعشرون روبلاً . انتي اعترفي ، على كل حال ، بأنه ساعدني مرتين أو ثلاثاً . ولقد كان معي عشرون روبلاً ، فخسرتها في القمار . نعم يا أمير ! هل يمكنك أن تصدق ذلك ؟ لقد بلغت من الحطة والدناءة والنصر انني خسرتها في القمار !

صاح ليديف يقول :

— خسرتها مع رجل نذل ، رجل نذل كان ينبغي لك أن لا تدفع له شيئاً .

تابع الشاب كلامه فقال :

— أما أنه نذل فهذا صحيح ، ولكن كان من واجبي أن أدفع . وأما أنه وغد حقير ، فهذا ما أسلّم به ، ولكن لا لأن الرجل قد ضربك ضرباً مبرحاً فحسب ، بل لأسباب أخرى كثيرة أيضاً . يا أمير ، الرجل ضابط مطرود من الجيش ، ملازم محال على التقاعد ، كان أحد أفراد عصابة روجويين ، وكان يعطي دروساً في الملاكمة . ان جميع أفراد تلك العصابة هائمون الآن على وجوههم منذ تخلص منهم روجويين . على أن أنكى مافي الأمر أنتي كنت أعلم أنه وغد دنىء ، ووش حقير ، وتافه لا يصلح لشيء ،

ومع ذلك غامرت بآخر روبلات أملكها مقامراً معه (لعبنا لعبة البالكى) *
قلت لنفسي : اذا خسرت ذهبت الى الخال لوكيان ، فما زلت أثقل عليه حتى
يساعدنى . تلك هى الدنائة ، ذلك هو الصغار ! الصغار المحض ! لقد كان
ذلك حقارة واعية !

قال ليديف مؤيداً :

- نعم ، حقارة واعية !

أجاب ابن الأخت يقول بحرارة وهمة :

- لا تسرع الى التباهى بالانتصار ! انه يتعجل كثيراً فى الابتهاج !
وقد جئت الى خالى - يا أمير - واعترفت له بكل شيء . تصرف تصرفاً
نيلاً ، لم أدار نفسي ولا دافعت عن خطئى . بالعكس : اتهمت سلوكى
أقسى الاتهام ، ونمته بأشجع النعوت ، وأدنته أشد الادانة . الجميع هنا
يشهدون بذلك . ومن أجل أن أدخل الوظيفة التى أهدف الى دخولها ،
لا بد لى حتماً من الارتفاع بمستوى ملابسى ، ذلك أننى ارتدى اسملاً
بالية وخرقاً رثة . بل انظر الى حذاءى ! اننى لا أستطيع أن أقدم الى
وظيفتى الجديدة بهذه الثياب . واذا أنا لم أقدم خلال المهلة المحددة ،
فسيعين للوظيفة شخص آخر ، فأبقى عندئذ عاطلاً عن العمل ،
ولا يدرى الا الله متى أجد وظيفة أخرى ! أنا الآن لا أطلب منه أكثر من
خمسة عشر روبلاً . وله على عهد أن لألجأ اليه بعد اليوم قط ، وأن
أردّ اليه آخر قرش له على فى غضون ثلاثة أشهر . ولسوف أفى
بوعدى . أنا أعرف ما هو العيش على الحبز و « الكفاس » * طعاماً وشراباً
خلال أشهر بكاملها ، ولكننى قوى الارادة قادر على الاحتمال . فى غضون
ثلاثة أشهر أكون قد كسبت خمسة وسبعين روبلاً . فاذا أضفنا الى القرض
الذى اطلبه منه الآن ما سبق أن أقرضنى من مبالغ أخرى يكون مجموع
الدين الذى له على خمسة وثلاثين روبلاً . فسأملك اذن من المال

ما ابرىء ببعضه ذمتى • أما الفوائد فليطلب من الفوائد ما يشاء ، وليأخذه الشيطان ! أهو لا يعرفنى ؟ أسأله يا أمير : أرددتُ اليه المال الذى ساعدنى به أم لا ؟ هو غاضب علىّ لأننى دفعت لذلك الملازم • ليس هناك سبب آخر • ذلك هو شأنه : لا شئ له ، اذن لا شئ لغيره !

صاح ليديف يقول :

- وهو لا ينصرف ! انه مضطجع هنا حيث تراه ، لا يريد أن يتحرك !

- سبق أن قلت لك : لن أنصرف قبل أن تعطينى ما أطلبه منك • لماذا يبدو عليك التيسم يا أمير ؟ كأنك لا تستحسن فعلى • قال الأمير كأنما على مضض :

- لست ابتسم ، ولكننى أرى أنك مخطيء قليلاً •

- بل قل صراحة اننى مخطيء تماماً • لا توارب • لماذا كلمة «قليلاً» هذه ؟

- اذا شئت : لنقل انك مخطيء خطأ تاماً •

- اذا شئت ! انك لمضحك حقاً ! أتظن اننى لا أدرك أن طريقتى هذه خالية من الكياسة ؟ أنا أعلم أن المال ماله ، وأنه يستطيع التصرف فيه على ما يريد له هواه ، وأننى أبدو كمن يريد أن يسلبه إياه • ولكنك لا تعرف الحياة ••• أنت يا أمير ! اذا لم يلقن المرء أمثال هؤلاء الناس درساً فلا يجب أن ينتظر منهم شيئاً • فلا بد من تلقينهم درساً • ان ضميرى طاهر نقى : أقول لك ذلك صادقاً كل الصدق ، مخلصاً كل الاخلاص ؛ لن ألحق به أى ضرر ، لن أصيبه بأى أذى ، سأردُّ اليه ماله ، مع الفوائد أيضاً • فماذا يريد أكثر من ذلك ؟ لأى شئ يصلح اذا لم

يقدم خدمة ؟ بل انظر كيف يتصرف هو نفسه • اسأله عن سلوكه مع الآخرين وعن فنه فى خداع الناس • بأية وسائل أصبح مالكاً لهذا المنزل؟ انتى مستعد لأن أقطع رأسى اذا ثبت أنه لم يفششك حتى الآن ، وأنه ليس بسبيل التفكير فى أسلوب يخدعك به مزيداً من الخداع • أتبتسم؟ ألا تصدق ما أقول ؟

قال الأمير :

- يخيل الىّ أن هذا كله ليس له كبير صلة بقضيتك •
- أنا مضطجع هنا منذ ثلاثة أيام ، فما أكثر ما رأيت خلال هذه

المدة !

بهذا هنف الشاب دون أن يصنى الى كلام الأمير ؟ وتابع يقول :

- هل تصور أن عنده شكوكاً وشبهات حول هذه الملاك ، حول هذه الفتاة التى أصبحت اليوم يتيمة ، حول ابنة خالتي التى هى بنته ؟ انه يبحث فى كل ليلة عن عشيق لملها خبائنه فى غرفتها ، ويتسلل الى هنا بخطى كخطى الذئب ينظر تحت ديوانى الذى أرقد عليه عسى أن يجد شيئاً • لقد أطاش الشك صوابه • انه يرى لصوصاً فى جميع الزوايا والأركان • ينب عن سريره فى الليل كل لحظة ، ويمضى يشب من أن الأبواب والنوافذ قد أُحكمت اغلاقها ، حتى انه يذهب الى الموقد يفتشه • ويتكرر ذلك فى ليلة واحدة سبع مرات أحياناً • فى المحكمة يترافع عن أوغاد وأوباش • وهنا ينهض فى كل ليلة ثلاث مرات أيضاً ليصلى وليتجه الى الله بدعائه • يجثو على ركبتيه فى الصالون ويظل يلطم جبهته بالأرض ويرتل ويتضرع مدة نصف ساعة • لا شك أن هذا نمرة السكر • لقد صلى على روح كوتيسة بارى * • سمعته بأذنىّ هاتين • وسمعه كولياً أيضاً • الخلاصة : لقد فقد العقل تماماً !

هتف ليديف يقول وقد احمر وجهه احمراراً شديداً وغضب غضباً قوياً :

- هل رأيت يا أمير ، هل سمعت كيف يتهكم على ويستهزئ بي .
قد أكون سكتيراً ، وقد أكون زير نساء ، وقد أكون لصاً ، وقد أكون
إنساناً مسيئاً من جميع النواحي ، غير أن هناك شيئاً لا يعرفه هذا الرجل
الذي يحقّرني الآن ، وهذا الشيء هو أنني أنا الذي كنت أتمطّطه وأنظفه
حين كان في المهد صبيّاً . كنت أقضي ليلتي بكاملها ساهراً عليه مع أمه
أختي آنيسيا التي توفي عنها زوجها وهوت الى حضيض الفقر والبؤس .
رغم أنني كنت لا أقلّ عنهما فقراً وبؤساً ، فقد كنت أعنتي بهما اذا
مرضا ، وأمضى أسرق حطباً من عند البواب ؛ وكان بطني خاوياً في أكر
الأحيان ، لكنني كنت أغنى وأصفق بأصابعي لينام الطفل . لقد دلّته
وأسرفت في تدليله ، ثم ها هو ذا الآن يضحك عليّ ويسخر مني . ثم أي
ضير يلحق بك أنت ، اذا أنا رسمت اشارة الصليب مصلياً على روح
كوتيسة باري ؟ يا أمير ، منذ ثلاثة أيام ، قرأت سيرة حياتها لأول مرة في
موسوعة من الموسوعات . ولكن هل تعلم أنت من هي كوتيسة باري ؟
تكلم : أتعلم أم لا ؟

دمدم الشاب يقول رغم ارادته تقريباً ، ولكن بلهجة ساخرة :

- لكأنك الانسان الوحيد الذي يعلم ذلك !

قال ليديف يجيبه :

- هي كوتيسة خرجت من حماة العار فأصبحت شبه ملكة ،
حتى ان امباطورة كبيرة خاطبتها بقولها « يا ابنة عمي » * في رسالة
كتبها بخط يدها . وحين تنصيب الملك (هل تعرف ما هو تنصيب
الملك ؟) تطوّع كاردينال هو سفير البابا ليلبسها جوربها الحريري :

كان يعد ذلك شرفاً له ، رغم علو مقامه ، وقداً منصبه ! هل تعلم ذلك؟
أرى فى وجهك أنك تجهل هذا • فكيف ماتت هذه الكوتيسية ؟ أجب
ان كنت تعلم !

— دعنى وشأنى ! انك تضجرنى !

— اسمع كيف ماتت • بعد جميع تلك الأمجاد ، وبعد تلك المكانة
التي جعلتها نصف ملكة ، جرّها الجلاد سامسون الى المقصلة ، رغم أنها
كانت بريئة ، وذلك ليدخل المسرة والبهجة الى نفوس العاميات من نساء
باريس • وقد بلغت من الذعر والرعب أنها لم تفهم شيئاً مما كان يُراد
أن يفعل بها ، فلما أحسّت أن الجلاد يخنى رقبتها ليضعها تحت سكين
المقصلة ، ويدفعها الى أمام ركلاً بقدميه ، بينما الناس من حولها يضحكون
مقهقهين ، أخذت تصرخ قائلة : « لحظة واحدة أخرى يا سيدى الجلاد ،
لحظة واحدة أخرى ! » * • اذن لعل تلك اللحظة هى التي ستشفع لها
عند الله فيغفر لها ، ذلك أنه لا يمكن أن يتخيل المرء عذاباً للنفس
الانسانية أكبر من ذلك العذاب ! هل تعلم ماذا تعنى كلمة « عذاب » ؟ *
انها تعنى تلك اللحظة بعينها ! حين قرأت الفقرة التي تذكر صرخة
الكوتيسية ضارعةً أن 'تمهل لحظة' واحدة ، انقبض قلبي كأنما أمسك
بها فكاً كماشة • أى ضير يصيبك أنت ، أيها التفاهة ، اذا أنا خطر
بإلى أن أدعو الله لتلك الحاططة الكبيرة أثناء صلواتي قبيل الرقاد ؟ لئن
فعلت ذلك ، فربما لأن أحداً لم يدر فى خلده حتى الآن أن يصلى على
روحها أو أن يدعو لها أو حتى أن يرسم من أجلها إشارة الصليب •
لسوف يبهج قلبها حتماً ، فى الحياة الآخرة ، أن تحصّ أنه قد وُجد على
هذه الأرض خاطيء مثلها صلى على روحها ولو مرة واحدة ! ما بالك
تضحك ساخراً ؟ أأنت تؤمن بهذا أيها الملحد ؟ وما مدى علمك بهذه
الأشياء أنت ؟ ثم انك قد سمعت كلامى فنقلته محرّفاً أو ناقصاً : أنا لم

أصل على روح كوتيسة بارى فحسب ، وانما قلت : « اللهم هب راحة النفس للحاطئة الكبيرة الكوتيسة بارى ، ولجميع أولئك اللواتي يشبهنها ! » . وهذا يختلف كثيراً عما نقلته أنت ، ذلك أن في العالم الآخر كثيراً من الحاطئات الكبيرات اللواتي عرفن قلب الحظ ، وقاسين من ظروف الحياة ، وتوجعن من عذاب الاحتضار والانتظار . ولقد دعوت أيضاً لك ولأمنالك ، أمثالك من الوقحين الذين طلقوا الحياء وخلعوا العذار ! هكنا صليت أنا ، ما دمت تقحم نفسك في التفتت على صلواتي ! .

قاطع ابن الأخت خاله قائلاً :

- طيب طيب ... كفى هذا ! صل كما تشاء ، وليأخذك الشيطان !
لا حاجة الى الصراخ ...

ثم التفت الى الأمير فأضاف يقول بلهجة اصطنع فيها السخرية :

- ويجب أن تقول لك يا أمير ان عندنا عالماً هو خالي هذا ! أكنت لا تعرف ذلك ؟ انه يقضى وقته الآن عاكفاً على قراءة جميع أنواع الكتب والمذكرات التي من هذا النوع !

قال الأمير وقد بدأ يشعر نحو الشاب بكره :

- مهما يكن من أمر ، فان خالك رجل لا يخلو ... من قلب !
قال الشاب :

- أماديحك هذه ستصعد الى رأسه ، فتطيش عقله . انظر كيف يتلذذ بمذاقها منذ الآن ، واضمأ يده على صدره ، مضيقاً فتحة فمه ! صحيح أنه ليس خالياً من الاحساس ! لكنه رجل خداع ، وهو فوق ذلك سكّير ، فهذه هذه البلية ! لقد اختل عقله كسائر أولئك الذين أدمنوا على السكر زمناً طويلاً . لذلك ترى كل ما فيه يتفكك .

أنا أسلم بأنه يحب أولاده ، وأنه كان يعامل المرحومة معاملة فيها احترام
.. بل انه يحبني أنا أيضاً ، والحمد لله على أنه لم ينسني في وصيته .

صاح ليديف يقول غاضباً :

- لن أؤرتك شيئاً !

قال الأمير بصوت جازم وهو يتحول عن الشاب :

- اسمع يا ليديف ، اننى أعرف بالتجربة أنك رجل جدٍ في شئون
الأعمال متى شئت ... ولست أملك من الوقت الا قليلاً جداً ... فإذا
كنت ... معذرة ... نسيت اسمك واسم نسبتيك الى أبيك ، فهلاً
ذكرتني بهما ؟

- ت ... ت ... تيموفى .

- ثم ؟

- لوكيانوفتش .

فانفجر الجميع ضاحكين من جديد . وهتف ابن الأخت يقول :
- لقد كذب ! كذب حتى فى ذكر اسمه . يا أمير ، ليس اسمه
تيموفى لوكيانوفتش بل لوكيان تيموفتش ! قل لنا لماذا كذبت ؟ لوكيان
أو تيموفى ، ألا يستوى الأمران ؟ وأى فرق بالنسبة الى الأمير أن يكون
اسمك لوكيان أو تيموفى ؟ يميناً انه يكذب للكذب ... لأنه تعود أن
يكذب !

سأل الأمير وقد نفذ صبره :

- هل صحيح ما يقول ؟

- صحيح . اسمى لوكيان تيموفتش .

بهذا اعترف ليديف ذليلاً خافضاً عينيه طائماً واضماً يده على قلبه

من جديد .

- ولكن لماذا كذبت اذن ؟ يا رب السماء !
تتم ليديف يقول وهو يخفض رأسه مزيداً من الخفض :
- من المذلة !

- لا أرى أين المذلة في هذه الكذبة ! آه ... ليتني أعرف فقط
أين أجد كوليا .
أضاف الأمير هذه الجملة الأخيرة وقد بدا عليه أنه يهمل أن ينصرف .
فقال الشاب :

- سأقول لك أين كوليا .
فأسرع ليديف يقاطعه قائلاً :
- لا ، لا !

وتابع الشاب كلامه فقال :
- بات كوليا الليلة عندنا ، ومضى في الصباح يبحث عن الجنرال
الذي أخرجه أنت من سجن الديون يا أمير ، لا يعلم الا الله لماذا ! أمس
وعد الجنرال أن يأتي الى هنا ليبيت ، ولكنه لم يظهر . ولعله ذهب يسكن
على بعد خطوتين من هذا المكان في « فندق الميزان » . فلا بد اذن أن
يكون كوليا هناك . الا أن يكون قد ذهب الى بافلوفسك يزور أسرة
ايبانتشين . كان يريد أن يذهب اليهم منذ أمس ، اذ كان معه مال .
فستجده اذن اما في « فندق الميزان » واما في بافلوفسك .
هتف ليديف يقول :

- في بافلوفسك ، في بافلوفسك ! أما الآن فلنذهب الى الحديقة ، من
أجل أن .. تشرب هناك القهوة ...
قال ليديف ذلك وأمسك الأمير من ذراعه فجراً الى الخارج ، الى
فناء يفضي الى الحديقة من باب صغير .

الحديقة صغيرة ، لكنها جميلة • وبفضل حسن الجو كانت الأشجار جميعها فى تفتح كامل •

أجلس ليديف الأمير على دكة من خشب مدهون بلون أخضر ، أمام مائدة مثبته فى الأرض ، خضراء اللون هى أيضاً • وجلس أمامه • وجىء بالقهوة بعد لحظة ، فلم يرفضها الأمير • وظل ليديف يحدث الى عيني الأمير بشراة ، مفرطاً فى الاكرام والمراعاة •

قال الأمير وهيئته هيئة انسان يفكر فى شىء آخر لا صلة له بما يقول البتة :

- لم أكن أعرف أن لك ملكاً •

قال ليديف كأنما ليستأنف شكواه :

- يتامى !

ولكنه سرعان ما كفَّ عن ذلك •

كان الأمير ينظر الى أمام ، ذاهلاً ، فلا شك أنه قد نسي العبارة التى قالها منذ لحظة عن ملك ليديف • وانقضت دقيقة • ان ليديف مايزال يحدث الى محدثته منتظراً شرحاً أوسع •

قال الأمير وكأنه عاد الى شعوره :

- طيب ، ماذا ؟ ها ••• نعم ••• أنت تعلم الأمر حق العلم

يا ليديف • لقد جئت اليوم عقب الرسالة التى تلقيتها منك • فتكلم !

اضطرب ليديف ، وأراد أن يقول شيئاً ، لكنه لم يزد على أن نطق بأصوات غير مفهومة • فكان الأمير يصبر عليه ، ويتسم ابتسامة حزينة •

- يخجل الى أننى أفهمك جيداً يا لوكيان تيموفتشس • كنت

لا توقع بجيئى طبعاً • كنت تقدّر أننى لن أترك عزلتى عند تلقى أول رسالة لم تبعثها الىّ الا من باب تبرئة الذمة • ولكن هأت ذا ترى اننى جئت •

هلمّ . . . لا تحاول أن تخذعنى . انقطع عن خدمة اثنين فى آن واحد .
لا يجب أن يكون لك سيدان . ان روجوبين موجود هنا منذ ثلاثة أسابيع .
أنا أعرف كل شئ . هل استطعت أن تبيعه هذه المرأة كما فعلت فى المرة
الماضية ؟ قل الحقيقة .

— بل اكتشفها بنفسه ، هذا الشيطان الحيث !

— لا تشتبه : يظهر أنه أساء معاملتك .

— قال ليديف مهتاجاً :

— أشبعنى ضرباً ، نعم ، أشبعنى ضرباً . وفى قلب موسكو حرّض
على كلبه الفظيع ، كلبه السلوقى الرهيب ، فظل الكلب يطاردنى من أول
الشارع الى آخره .

— انك تعدنى طفلاً يا ليديف . قل لى : أهى تركته جادة حين
تركه بموسكو منذ مدة قصيرة ؟

— جادة ، جادة ، بل انها قد تركته هذه المرة قيسل الاحتفال
بالزواج . . . كان يعدّ الدقائق بانتظار أن يحين موعد الاحتفال بالزواج .
هربت من موسكو الى بطرسبرج ، فجاءت الى رأساً تقول : « اخذنى ،
هىء لى عندك مأوى يا لوكيان ، ولا تذكر للأمير شيئاً . انها تخشاك أكثر
مما تخشاه أيضاً يا أمير ، وذلك هو السر !

قال ليديف ذلك وحمل اصبعه الى جبينه متخابئاً . سأله الأمير :

— والآن ، هل قرأت بينهما من جديد ؟

— يا سمو الأمير العظيم . . . هل كان يمكننى أن أعارض هذا
التقارب بينهما ؟

— طيب . سأستطلع الأمر بنفسى . ولكن قل لى : أين هى الآن ؟

عنده ؟

- لا ، لا • انها ما تزال تعيش وحدها • وهى تقول : « أنا حرة » •
اعلمُ يا أمير انها تلح كثيراً على هذه النقطة • انها ماتتفك تكرر : « ما أزال
أملك حريتي كاملة » • ما تزال تقيم فى شارع بطرسبرجسكايا ، عند
زوجة أخى ، كما ذكرت لك هذا فى رسالتى •

- أهى الآن هناك ؟

- نعم • اللهم الا أن تكون فى بافلوفسك ، فلعلها انتهزت فرصة
جمال الجو ، فمضت تصطاف عند داريا ألكسيفنا • انها تكرر دائماً قولها :
« أنا أملك حريتي كاملة » • أمس تباغت باستقلالها أمام نيقولا
أرداليونوفتش * (كولا) • هذه علامة سيئة •

وأخذ ليديف يتسم •

- هل يزورها كولا فى أحيان كثيرة ؟

- صبى طائش ، صبى لا أفهمه ، عاجز عن المحافظة على سر •

- هل كان ذهابك اليها منذ مدة طويلة ؟

- انتهى أذهب اليها كل يوم ، بلا تخلف !

- اذن ذهبت اليها أمس ؟

- لا • منذ ثلاثة أيام لم أرها •

- خسارة أنك سكران قليلاً يا ليديف ! ولولا ذلك لألقيت عليك

سؤالاً آخر •

أجاب ليديف وهو ينصب أذنه :

- لا ، لا ، لم أشرب شيئاً البتة •

- قل لى : على أى حال تركتها ؟

- هيم ••• تركتها على حال امرأة تبحث •

- امرأة تبحث ؟

- نعم ، امرأة تبحث بغير انقطاع ، كأنما هي فقدت شيئاً . أما زواجها المرتقب ، فإن مجرد تفكيرها فيه يثير اشترازاها ، وهي تنضب اذا حدثت فيه . وقد أصبحت لا تعباً « بصاحبنا » أكثر مما تعباً بقشرة برتقالة ، بل قل انه أصبح لا يوقف في نفسها الا شعوراً بالهول . انها تمنع أى انسان من أن يأتي على ذكره وهما لا يلتقيان الا فى حالات الضرورة القصوى . . . وهو يدرك ذلك حق الإدراك . ولكن لا بد لها من الاذعان أخيراً ، فلن تفلت منه ! . . . انها قلقة ، ساخرة ، ملتبسة ، سريعة الاحتياج !

- ملتبسة سريعة الاحتياج ؟

- نعم ، سريعة الاحتياج . من ذلك أنها أوشكت أن تشد شعري أثناء حديث بسيط قام بينى وبينها فى زيارتى الأخيرة لها .
سأله الأمير وقد قدّر أنه لم يسمع كلام ليديف سماعاً واضحاً :

- كيف ؟

- سأقول لك . لقد حدث هذا بينما كنت أقرأ لها رؤيا القديس يوحنا . ان للسيدة خيلاً مضطرباً قلقاً . هى . هى ! وقد لاحظت لديها ، عدا ذلك ، ميلاً بارزاً الى المناقشات الجدوية والموضوعات الحارقة . انها تؤثر هذه الموضوعات ، وترى أن محادثتها فيها دليل على احترامها . هذا هو الواقع . وأنا متمكن جداً من تأويل رؤيا القديس يوحنا التى أدرسها منذ خمس عشرة سنة ، وقد وافقتنى على رأيى حين قلت لها اتنا وصلنا الى العهد الذى يمثلته الحصان الثالث ، الحصان الأسود الذى يمسك راحته ميزاناً بيده . ذلك أن كل شئ فى عصرنا هذا يُزَن بميزان وينظم بعقد ، وليس لأحد من هم الا أن يبحث عن حقه ويسعى اليه . « ثمنية قمع بدينار ،

وثلاث ثمنيات شعير بدينار ، * . وهم فوق ذلك يريدون جميعاً أن يحتفظوا بحرية الفكر وطهارة القلب ، وصحة الجسم ، وجميع ما وهب الله . لكنهم لن يصلوا الى هذا بطرق الحق وحدها . لأن الحصان الشاحب لونه سيظهر هو وراكبه الذى اسمه « الموت » والذى يتبعه « الجحيم » * . هذه هى الموضوعات التى نعالجها حين نلتقى ، فتأثر بها تأثراً قوياً .

سأله الأمير ' وهو ينظر اليه مدهوشاً :

- هل تؤمن أنت نفسك بهذا كله ؟

- أوّمن وأوّل . اننى ، وأنا الفقير العارى ، لست الا ذرة فى الزوبعة الانسانية . من ذا الذى يحترم ليديف ؟ ان كل واحد يجرب مكره فيه ، ويكاد يركله برجليه ان صح التعبير . ولكننى فى مجال التأويل أساوى أكبر سيد من السادة . تلك هى ميزة الذكاء . ان فكرى المتوقد قد أفزع عظيمًا من العظماء ذات يوم فأخذ يرتعش على مقدمه . حدث ذلك منذ سنتين ، قيل أعياد الفصح . ان صاحب السعادة نيل ألكسيقتش ، حين سمع عنى أيام كنت تحت امرته فى الوزارة ، استدعانى الى مكتبه خصيصاً ، وسألنى : « هل صحيح أنك استاذ فى تأويل النبوءات الخاصة بالأعور الدجال ؟ » ، فلم أكنه أن هذا حق ، وأخذت أقرأ عليه وأشرح له النص المقدس . ولم أحاول أن ألطّف ما يشتمل عليه النص من تهديد بأخطار رهيبة ، بل توسعت فى شرح الرموز وغصت الى أعماق معنى الأرقام . وقد أخذ يضحك فى أول الأمر ، ولكنه ازاء دقة الأرقام ووضوح المقارنات ، لم يلبث أن أخذ يرتعش ، ثم رجاني أن أطوى الكتاب وأن أنصرف . وأمر لى فى عيد الفصح بمكافأة . ولم ينقض على ذلك أسبوع حتى فاضت روحه وذهبت الى بارئها .

- ما هذا الذى تقوله يا ليديف ؟

– هو الحقيقة بعينها ، فقد سقط من مركبته بعد العشاء ، فاصطدم صدغه بحجر حائط فمات على الفور • ان سجلات وظيفته تدل على أن عمره كان ثلاثة وسبعين عاماً • وهو رجل يضرب لونه الى حمرة ، أبيض الشعر ، ممطر دائماً ، مبتسم بغير انقطاع ، كطفل • وقد تذكر بطرس زاخارتش عندئذ زيارتي له فقال : « تنأت أنت بما حدث له » •

نهض الأمير لينصرف • فدُهِش ليديف ، حتى لقد آله أن يراه متمجلاً هذا التمجل • فجازف وقال له بلهجة فيها كثير من الاكرام والمداراة والمراعاة :

– أرى أنك أصبحت لا تكترث !

فأجاب الأمير يقول منزعجاً :

– الحق أن صحتي سيئة • اتى أشعر بثقل فى رأسى • قد يكون مردٌ هذا الى مشقة السفر •

قال ليديف على وجل واستحياء :

– تحسن صنفاً اذا مضيت ترتاح وتستجم فى الريف •

فظل الأمير واقفاً واجماً • وتابع ليديف كلامه يقول :

– أنا مثلاً ، سأذهب الى الريف مع جميع أفراد الأسرة بعد يومين أو ثلاثة أيام • هذا أمر لا غنى عنه لصحة الطفل الوليد ؛ وسيتيح لى السفر اجراء جميع الاصلاحات اللازمة هنا • والى بافلوفسك انما سأذهب أيضاً • قال الأمير يسأله فجأة :

– وأنت أيضاً ستذهب الى بافلوفسك ؟ ها ... اذن يذهب جميع الناس هنا الى بافلوفسك ! وتقول ان لك هناك منزلاً ريفياً ، أليس كذلك ؟

- لا يذهب جميع الناس الى بافلوفسك • ولكن ايضا بتروفتش
بتسين قد تنازل لى عن احدى الفيلات التى حصل عليها هناك بثمان بخص •
المكان جميل ، مرتفع ، محضوضر • وتكاليف المعيشة غير باهظة ، والمجتمع
راق ، وسوف نستمتع هناك بالموسيقى * • ذلك هو السبب فى أن بافلوفسك
يرتادها الناس كثيراً • على أنني سوف أكتفى بجناح صغير ، أما الفيلا ••

- هل أجزتها ؟

- ل ••• لا ••• لم أجزها تماماً •

قال الأمير يقترح عليه فجأة :

- أنا أستأجرها •

واضح أن ما كان ليديف يريد أن يقود اليه انما هو هذا الطلب •
ان هذه الفكرة تدور فى ذهنه منذ ثلاث دقائق • ولم يكن مع ذلك يبحث
عن مستأجر ، فان هناك شخصاً أعلن له أنه « قد » يستأجر الفيلا • وكان
هو يعلم أن كلمة « قد » هذه تعدل اليقين • لكنه تصوّر فجأة النفع التى
سيجنيه من تأجيره الفيلا للأمير ، فسمح لنفسه بهذا على أساس أن
المستأجر الآخر لم يثبت وعده بالاستئجار • قال يخاطب نفسه : « هذا
نزاع جديد يلوح فى الأفق ، وهذه هى الأمور تجرى مجرى جديداً كل
الجنة ! » • لذلك استقبل اقتراح الأمير بنوع من الحماسة ، فلما سأله
الأمير عن الكراء رفع يديه بحركة تعنى أنه لا يكثر بالكراء ، وأنه
لا يطمع فى منفعة •

قال الأمير :

- طيب • سأدفع لك ما يرضيك • سوف أسأل عن السعر ، فلا
تخسر شيئاً •

وكانا على وشك أن يخرججا من الحديقة • فاذا بليديف يندندن
قائلاً ، وهو يتوالب حول الأمير فرحاً :

– فى وسعى يا أمير ، فى وسعى يا أمير ، اذا أنت شئت ذلك ، أن
أبلغك أمراً هاماً جداً عن المسألة التى تهمنى •••

توقف الأمير • وتابع ليديف كلامه :

– ان داريا ألكسيفنا تملك ، هى أيضاً ، فيلا فى بافلوفسك •••
– وبعد ؟

– ان الشخصية التى يعنيا أمرها هى صديقتها ، ويظهر أنها تنوى
أن تتردد عليها كثيراً فى بافلوفسك • ان لها هدفاً •
– أى هدف ؟

– آجلايا ايضاً •••

– هو ! كفى يا ليديف !

لذلك قاطع الأمير ليديف متمعضاً امتعاض انسانٍ مُسَّت فيه نقطة
موجعة • وأضاف :

– ليس هذا هو الأمر • الأفضل أن تقول لى متى تنوى أن تسافر •
واعلم ان الاسراع فى السفر يناسبنى أكثر مما يناسبنى الابطاء ، لأننى
فى الفندق •••

كان الرجلان قد اجتازا الحديقة وهما يتحدثان • ولم يرجعا الى
المنزل ، بل عبرا الفناء متجهين نحو باب الخروج •

قال ليديف بعد لحظة تفكير :

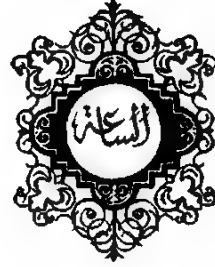
– أرى أن من الخير أن تترك الفندق فى هذا اليوم نفسه ، فتأتى
تقيم هنا ، ثم تسافر معاً الى بافلوفسك بعد غد •

قال الأمير شارد الذهن ، وهو يصل الى الشارع :

- سوف أرى •

تابعه ليديف بنظره • وقد أدهشه هذا الدهول المفاجيء في الأمير
الذى نسى أن يودّعه حين خرج ، بل غفل حتى عن تحيته • ان هذا
النسيان لا يتفق وما عهده ليديف في الأمير من حسن الآداب وبشاشة
المعاملة ولطف السلوك •

الفصل الثالث



تقارب الثانية عشرة ظهراً • كان الأمير يعرف أنه لن يجد في المدينة من آل ايبانتشين الا الجنرال الذي تمنعه أعماله من مغادرة المدينة • حتى ان هذا نفسه ليس مؤكداً •

خطر ببال الأمير أن الجنرال قد يستعجل أخذه الى بافلوفسك ؛ ولكن الأمير يحرص كثيراً على زيارة يجب أن يقوم بها قبل أن يذهب الى بافلوفسك • فقرر أن يبحث عن المنزل الذي كان لا بد أن تقوده اليه تلك الزيارة ، ولو ترتب على ذلك أن يصل الى دار آل ايبانتشين متأخراً ، وأن يؤجل رحلة بافلوفسك الى الغد •

والمسعى الذي سيقوم به الأمير يشتمل على بعض المخاطر من بعض النواحي • ومن ثم كان ارتباكه وكان تردده • وكان يعلم أن المنزل الذي يجب أن يهتدى اليه يقع في شارع « الباسلاء » الذي لا يبعد عن شارع « الحداثق » • فقرر أن يتجه اليه من هذه الجهة آملاً أن يعزم أمره أثناء الطريق على قرار حاسم •

فلما اقترب من تقاطع الشارعين أدهشه الاضطراب الشديد الحارق الذي اجتاحه واستولى عليه • لم يكن يتوقع أن يحس بقلبه يخفق هذا الحفقان القوي • ولفت نظره أحد المنازل من بعيد • أغلب الظن أن غرابية مظهر هذا المنزل هي التي لفتت نظره • وقد تذكر بعد ذلك أنه قال عندئذ

لنفسه : « لا شك أن المنزل الذى أبحث عنه هو هذا » . وتقدم مدفوعاً بفضول شديد ليتحقق من صدق تخمينه ، مع شعوره سلفاً بأنه سيزعجه أن يصدق ظنّه . المنزل عمارة كبيرة مظلمة ذات ثلاثة طوابق ، ليست بذات طراز ، واجهتها خضراء اللون وسخة . ان عدداً قليلاً جداً من المباني التى من هذا النوع والتى يرجع عهدا الى نهاية القرن الماضى ما يزال قائماً فى هذا الحى من بطرسبرج (حيث يتغير كل شيء بسرعة) . انها مباني متينة ، سميكة الجدران ، واسعة النوافذ جداً ، تُحصَن شبابيكها أحياناً بقضبان حديدية فى الطابق الأرضى الذى تشغله دكان صرّاف (من ملة الحصان *) . ان المخصى الذى يملك الدكان يسكن عمارة فى الطابق الذى يعلوها . وان ظاهر هذه المنازل كباطنها جفوة وعبوساً : فكل شيء يبدو للمرء فيها بارداً ، موصداً ، سريعاً ، دون أن يستطيع المرء مع ذلك أن يحلل بواعت هذا الشعور بسهولة . لا شك ان التراوح بين الخطوط المعمارية فى هذه المنازل يشتمل على شيء يُشعر بالسرية والحفاء . ويندر أن يسكن هذا المنازل الا تجار .

اقرب الأمير من باب الفناء ، وقرأ على لوحة معدنية : « منزل روجويين ، بورجوازي فخرى وراثى » * . وتغلب على تردده فدفع باباً ذا زجاج ، ودخل ، فانطلق الباب وراءه محدثاً ضجة . وصعد الى الطابق الأول على السلم الكبير . ان السلم مبنى باحجار غليظة ، غائب فى الظل بين جدران مدهونة بلون أحمر . كان الأمير يعرف أن روجويين يحتل مع أمه وأخيه كل الطابق الأول من هذا المبنى الكئيب . فتح له الخادم الباب ؛ ودون أن يُخبر بوصوله ، قاده خلال سلسلة من الغرف : دخلا أولاً الى قاعة عرض ، جدرانها تحاكي المرمر ، وأرضها من خشب السنديان ، وأثاثها الثقيل الفليط من طراز عام ١٨٢٠ ؛ ثم ولجا سلسلة من حجرات صغيرة يقطعها المرء بلف ودوران وتخرج . ثم صعدا درجتين أو

ثلاث درجات ، ثم هبطا درجتين أو ثلاث درجات . وفي النهاية قرعا باباً .
ففتح لهما بارفيون سيمينوفتش روجوين بنفسه . فلما رأى روجوين
الأمير جمد في مكانه ذاهلاً ، واصفر لونه ، حتى صار يشبه ، خلال بضع
لحظات ، تمناً من حجر . ان نظراته المحدقة الثابتة تعبر عن دعر
ورعب ، وان فيه تقلصه ابتسامة مبهوتة . لقد بدا له حضور الأمير حادثاً
لا يتصوره العقل ، بل حادثاً يكاد يكون معجزة . ودش الزائر من
هذا ، رغم أنه كان يتوقع أن يحدث حضوره أنراً من هذا النوع .
قال الأمير وهو يشعر بحرج :

— ربما كان مجيئي مزعجاً يا بارفيون . فاذا صحَّ هذا فسوف
أنصرف .

فقال بارفيون وقد تاب الى رشده :

— لا ، أبداً ! تفضل ادخل !

كان الرجلان يتخاطبان بصيغة المفرد . لقد أتيح لهما أن يلتقيا
بموسكو كثيراً وطويلاً . حتى لقد اشتملت لقاءاتهما على لحظات تركت
في نفس كل منهما أنراً لا يمحي . ولم يلتقيا بعد ذلك منذ أكثر من
ثلاثة أشهر .

ما يزال وجه روجوين شاحباً . وما تزال تشنجات خفيفة خاطفة
تقلص هذا الوجه . ورغم أنه أدخل الزائر فانه ما يزال يشعر باضطراب
لا حيلة له في دفعه . ودعا الأمير الى الجلوس على مقعد قرب المائدة ،
ولكن الأمير حين التفت نحو روجوين مصادفةً ، تجمَّد في مكانه تحت
نظرة غريبة غرابة هائلة كان يلقيها عليه روجوين ، حتى لكأنها تخترقه
اختراقاً ؛ وعادت الى ذهنه في الوقت نفسه ذكرى حديثة ، أليمة ، مبهمة؛
فبدلاً من أن يجلس ، لبث واقفاً ، ساكناً سكوناً كاملاً ، محدقاً الى عيني

روجوين بنظرة ثابتة خلال لحظات • فأخذت عينا روجوين تسطمان
ببريق فيه مزيد من القوة • وابتسم روجوين أخيراً ، ولكن ابتسامته
كانت تشي باضطرابه وحزنه •

وتتم يقول للأمير :

- لماذا تنظر الى هذه النظرة الثابتة ؟ اجلس •

فجلس الأمير • وقال :

- بارفيون ، كلمني بصراحة • أكنت تعلم أنني سأصل الى بطرسبرج
اليوم ؟

أجاب روجوين وهو يتسم ابتسامة مرة :

- كنت أقدر أنك قد تجيء ، وهأنت ذا ترى أنني لم يخطئ •
تقديرى ، ولكن كيف كان يمكنتى أن أحزر أن وصولك سيكون فى هذا
اليوم نفسه ؟

كان العنف والحق فى لهجة هذا السؤال الذى ألقاه روجوين
والذى كان فى الوقت نفسه جواباً ، باعاً جديداً للأمير على الدهشة •
فقال الأمير برفق ولين بينما كان الاضطراب يجتاح نفسه :

- وهبك عرفت اننى سأصل « فى هذا اليوم نفسه » ، فلماذا تغضب
هذا الغضب ؟

- وأنت ، لماذا تلقى على أنت ذلك السؤال ؟

- لأننى فى هذا الصباح ، بينما كنت أنزل من القطار ، لاحظت
فى زحمة الجمهور عيني تشبهان كل الشبه العيين اللتين كنت تحدثنى بهما
الى من ورائى منذ برهة •

فججم روجوين يقول مرتاباً :

- غريب ! ترى ، هما عينا من ؟

ولكن خيّل الى الأمير أن روجوين قد ارتعش •

قال الأمير :

- لا أدري • كان ذلك في زحمة الجمهور • ومن الجائز على كل حال أن أكون قد توهمت • أصبحت تتأبى أو هام كثيرة من هذا النوع في الآونة الأخيرة • لقد صرت ، يا عزيزى بارفيون ، في حالة قريبة من الحالة التي كنت عليها قبل خمس سنين ، أيامَ كانت تعترى نوبات • دمدم بارفيون قائلاً :

- جائز أنك كنت فريسة وهم • لا أدري !

وتغيرت ابتسامة التلطف التي كانت مرتسمة على شفّيته في تلك اللحظة ؛ وظهرت ابتسامة جديدة تعبر عن مشاعر متفرقة وعواطف شتى كان عاجزاً عن أن يؤلف بينها •

قال يسأل :

- أنت مسافر الى الخارج مرة أخرى ؟

ثم أضاف فجأة :

- هل تذكر كيف التقينا في الحريف الماضي في قطار بسكوف -

بطرسبرج ... هل تذكر ممطفك ولبّادتي حذاءيك ؟

وأخذ روجوين في هذه المرة يضحك بخبث صريح ومكر واضح

سراً أن يطلق لهما العنان •

سأله الأمير وهو يلقي نظرة على الحجرة :

- هل استقر بك المقام هنا تماماً ؟

- نعم ، أنا هنا في بيتي ؟ أين تريد لي أن أذهب ؟

- نحن لم نلتق منذ مدة طويلة • وقد سمعت عنك أشياء يصعب على

أن أصدّقها •

أجاب روجوين بجفاف :

- ما أكثر ما يقوله الناس !

- ولكنك طردت عصبتك كلها ، ولجأت الى منزل أهلك ، وأصبحت لا تهرب منه . هذا شيء حسن . هل المنزل لك أنت ، أم هو مشترك بين الأسرة كلها ؟

- هو لأمي . وشقتها تقع في الجهة الأخرى من الممر .

- وأين يسكن أخوك ؟

- أخى سيميون سيموفتش يسكن في جناح .

- أهو متزوج ؟

- هو أرمل . ما حاجتك الى معرفة هذا ؟

نظر اليه الأمير دون أن يجيب . لقد أصبح واجماً شارد الذهن ، فكأنه لم يسمع السؤال . ولم يلح روجوين ، بل سكت ينتظر .
ولبت الاثنان صامتين برهة من الوقت .
قال الأمير :

- تعرفت منزلك من أول نظرة ، من على مسافة مائة متر !

- كيف هذا ؟

- لا أدري كيف أعبر لك . ان لمنزلك هيئة هي هيئة أسرتك كلها ، وهيئة طراز حياتك . ولكن اذا سألتني أن أشرح لك مصدر هذا الشعور عندي ، لم أستطع أن أفعل . أغلب الظن أن هذا نوع من الهذيان . حتى انني ارتعب حين أرى مدى تأثير هذه الأمور . لم تكن في ذهني أية فكرة عن المنزل الذي تسكنه ، ولكن ما ان رأيت حتى قلت لنفسى : « هذا بعينه نوع المنزل الذي لا بد أن يسكنه ! » .

قال روجوين وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة ، دون أن يفلح في ادراك الفكرة المهمة التي قالها الأمير :

- حقاً ! وان جدى هو الذى بنى هذا المنزل . وقد سكنه دائماً أناس من ملة « الحصيان » ، هم آل خلودياكوف . ولا يزالون يستأجرونه حتى اليوم .

قال الأمير وهو ينظر حوالبه :

- ظلام حالك ! انك تعيش فى غرفة معتمة جداً .

كانت الحجرة غرفة واسعة ، عالياً سقفها ، لا يدخلها ضوء ، مزدحمة بأثاث من الأثاث : مناضد ، مكاتب ، خزائن ملأى بالسجلات والقراطيس . وكان هناك ديوان عريض منجد بجلد أحمر لا شك فى أن روجوين يستعمله سريراً . ولاحظ الأمير على المائدة التي كان روجوين قد أجلسه قربها ، لاحظ كتابين أو ثلاثة كان أحدها ، وهو « كتاب التاريخ » الذى ألفه سولوفيف * ، مفتوحاً على صفحة محدّدة بشرطة . وقد علقت بالجدران بضع لوحات زيتية ذات أطر مزخرفة ، وقد بلغت من القمامة والتشحر أن المرء لا يكاد يميّز فيها شيئاً البتة . غير أن هناك صورة رجل بالحجم الطبيعي لفتت نظر الأمير . هو رجل فى نحو الخمسين من العمر ، يرتدى رديجتاً أجنبياً التفصيلة ولكنه طويل الخواف ، ويتدلى على عنقه وسامان ، وله لحية متناثرة قصيرة شائبة ، ووجه مجعّد أصفر ، ونظرة متجهمة عابسة .

سأل الأمير :

- أليس هو أباك ؟

فأجاب روجوين يقول مبتسماً ابتسامة سيئة كأنما هو يتأهب لأن يقذف بمزاحة ثقيلة فى حق أبيه :

- نعم ، هو بعينه !

- هل كان يتسمى الى ملة « المؤمنين القدامى » ؟ *

- لا ! كان يذهب الى الكنيسة . ولكنه كان يزعم فعلاً أن الشعائر القديمة كانت أقرب الى الحق . وكان عدا ذلك يحترم « ملة الحصيان » . وكانت حجرة مكتبه هي هذه الحجرة التي نحن فيها الآن . لماذا سألتني هل كان يتسمى الى « المؤمنين القدامى » ؟

- هل ستحتفلون بالعرس هنا ؟

- هـ ... هنا ...

كذلك أجاب روجوين الذي أوشك أن يرتجف عند سماع هذا السؤال المفاجئ غير المتوقع .

- هل سيتم الزواج في القريب ؟

- أنت تعلم أن هذا لا يتوقف علىّ أنا .

- بارفيون ، أنا لست عدوك ، ولست أنوى أن أعرق أى أمر من أمورك ، أو أن أقف عقبة في طريقك . أكرر لك هذا الآن كما سبق أن أعلنته لك ذات مرة ، في لحظة شبيهة بهذه اللحظة . انك لتعلم اننى لست الذى منع زواجك حين كان على وشك أن يتم بموسكو . ففي المرة الأولى « هي » التى هربت الى لحظة زفافكما تقريباً لترجونى أن أنقذها منك . هذه كلماتها هي أكررها لك بنصّها . ثم هربت منى أنا أيضاً . فاهتديت أنت اليها وقدمتها الى الكنيسة مرة أخرى للزواج . والآن يقال لى انها فرّت منك من جديد وجاءت تلوذ ببطرسبرج . هل هذا صحيح ؟ ان ليديف هو الذى أبلغنى النبأ . وبسبب ذلك انما جئت . ولقد علمت أمس ، فى القطار ، من فم أحد أصدقائك القدامى - وهو زاليوجيف ، اذا أردت أن تعرف من هو - علمت أنكما عدتما فترابطتما . ان رجعتي

الى بطرسبرج ليس لها الا هدف واحد : هو أن أضعها أخيراً بأن تصافر الى الخارج لتسترد صحتها . فهي في رأيي مريضة جسماً وروحاً . رأسها ، خاصة ، مريض ؛ وحالتها تتطلب عناية كبيرة . ولا أنوى أن أصحبها ، وانما أريد أن أرتب سفرها دون أن أشاركها فيه . أقول لك الحقيقة خالصة . ولكن اذا صدق أنكما رتبتما أموركما من جديد ، فلن أظهر أمام عينيها قط ، ولن أضع قدمي في بيتك . أنت تعلم أنني لا أخدعك ، لأنني كنت صادقاً معك على الدوام . لم أكنك رأيي في هذا الأمر يوماً ؟ قلت لك دائماً أنني أعتقد بأنها ستصبح حتماً اذا هي ارتبطت بك . وسوف تضع أنت أيضاً . . . بل قد يكون ضياعك محتوماً أكثر من ضياعها . اذا انفصلتما من جديد ، سرّني ذلك كثيراً ، لكنني لن أساعد في تحقيق هذه القطيعة بينكما . فاطمئن اذن ، ولا يخالجنك في ريب ، ولا تساورنك شبهة . ثم انك تعلم حقيقة الأمر : أنا لم أكن منافساً « حقيقياً » لك في يوم من الأيام ، حتى حين لجأت الى ولاديت بي . هانت ذا تضحك : أنني أعرف سبب ضحكك . نعم لقد عشنا هناك ، أنا وهي ، منفصلين ؛ بل لقد عاش كل واحد منا في فيلا مستقلة : « أنت على علم تام بهذا » . ألم أشرح لك قبل الآن « أنني أحبها لا حباً بل شفقة » . أعتقد أن التعريف صادق . ولقد صرّحت لي حينذاك بأنك تفهم ما أريد أن أقول . فهل هذا صحيح ؟ هل فهمت حقاً ؟ ما أشد هذا الكره الذي أراه في نظرتك ! أنا انما أتيت لأهدىء بالك وأطمئنك ، لأنك أنت أيضاً عزيز في نفسي . أنني أحبك كثيراً يا بارفيون . أقول هذا وأرحل ثم لا أرجع قط . وداعاً !

نهض الأمير . فقال له بارفيون برقة ورفق ، ولم يكن قد نهض ، وانما هو ما يزال مسنداً رأسه الى يده اليمنى :
- ابق معي قليلاً ، فاني ما رأيته منذ مدة طويلة .

فعاد الأمير يجلس • وساد صمت ، ثم قال روجوين :

- حين لا تكون أمامي يا ليون نيقولا يقتس ، فأننى سرعان ما أشعر
بكره شديد لك ، وحقد قوى عليك • اننى فى خلال هذه الأشهر الثلاثة
التي لم أرك أثناءها كنت أبغضك فى كل لحظة من اللحظات • فلو استطعت
لسرّنى أن أقتلك بالسّم حتماً ••••• يميناً لو استطعت لفعلت ذلك !•••
هذه هى الحقيقة • ولكن كرهى لك زال خلال ربع الساعة هذا الذى
قضيناه معاً ، فاذا أنت عزيز فى نفسى كما كنت عزيزاً فيها من قبل • ابقى
معي قليلاً •••

أجابه الأمير بمودة وصدافة ، محاولاً أن يخفى عواطفه تحت ستار
ابتسامة خفيفة :

- حين أكون بقربك فانك تثق بي ، حتى اذا ابتعدت عنك بارحتك
تفتك وعدت ترتاب فى من جديد • انك تشبه أباك !
- أثق بك حين أسمع صوتك • أنا أدرك حق الادراك وأفهم كل
الفهم أننى لا يمكن اعتبارى مساوياً لك ، لا يمكن اعتبارى نداً لك •••
قال الأمير وهو ينظر الى روجوين مدهوشاً :

- لماذا أضفت هذه الجملة الأخيرة ؟ هأت ذا تنضب من جديد !
- نحن هنا ، يا صديقى ، لا نُسأل رأينا ، وانما نرتب الأمور دون
استشارتنا !

وصمت روجوين برهة ثم أردف يقول بصوت خافت :

- كل واحد منا يحب بطريقته الخاصة ، أى اننا مختلفان فى كل
شئ • فأنت مثلاً تقول انك تحبها شفقة ؛ أما أنا فلا أشعر نحوها فى الواقع
بأية شفقة • ثم انها تكرهنى كرهاً عميقاً كاملاً • اننى أراها الآن فى

أحلامي كل ليلة : أراها مع شخص آخر ، وأراها تسخر مني . وهذا بعينه ما يحدث في الواقع يا عزيزي . انها ستزوجني أنا ، ولكنها لا تفكر في أكثر مما تفكر في حداثي أبدلتها منذ لحظة . هل تصدقني اذا قلت لك انني لم أراها منذ خمسة أيام ، خوفاً من أن أذهب اليها ؟ فلو ذهبت اليها لسألتني لماذا جئت ... لشد ما غمرتني بالحزى والعار منذ الآن !

- بالحزى والعار ؟ ماذا تقصد ؟

- كأنك لا تعرف ! لماذا هربت من الكنيسة حين كنا على وشك الزفاف ؟ ألم تهرب من أجل أن تفرّ معك ؟ أنت نفسك سلّمت بهذا منذ برهة .

- عجب . ألا تصدقني حين أقول لك ان ...

- ألم تجلّني بالحزى والعار حين قامت في موسكو بمغامرة مع ضابط من الضباط اسمه زميتوجنيكوف ؟ أنا أعرف هذه الحقيقة الآن معرفة اليقين ، وقد حدث الأمر بعد أن حدّدت هي نفسها يوم العرس !

هتف الأمير بقول :

- مستحيل !

فقال روجوين باقتناع :

- أنا على يقين من هذا . قد تزعم لي أنت انها ليست كذلك . قل هذا الكلام لغيري يا عزيزي ! قد تتصرف معك أنت تصرفاً آخر ، حتى لقد يُشعرها مثل هذا الفعل عندئذ بهول رهيب . أسلم لك بذلك . ولكنها معي لا يزعمها وازع كهذا ، ولا يساورها تورع من هذا النوع ! هذه هي الحقيقة . انها لا تعدني شيئاً مذكوراً ، انها لا تقيم لي أى وزن ! انني أعلم علم اليقين أن علاقة نشأت بينها وبين ذلك الضابط كيلر الذي

كان يمارس الملاكمة ، لا لشيء الا لتجعلنى هزأة ! انك لا تعرف مدى ما لقيت منها بموسكو من عذاب ، ولا تعرف ما أنفقت بسببها من مال !! •
سأله الأمير مروّعاً :

- فلماذا تفكر فى تزوجها الآن ؟

لم يجب روجوين بشيء فى أول الأمر ، وحدهج الأمير بنظرة ثابتة ناقبة • ثم قال بعد برهة صمت :
- لم أذهب اليها مرة واحدة منذ خمسة أيام • اتنى أخشى دائماً أن تطردنى • انها ما تنفك تكرر قولها : « ما زلت حرة التصرف بنفسى • فاذا شئت طردتك طرداً تاماً وسافرت الى الخارج » •
وأضاف روجوين يقول كالستطرد ، وهو يلقي على الأمير نظرة ثابتة ملحة :

- سبق أن حدثتني هي عن هذا • صحيح أنها تتكلم أحياناً بغير قصد الا أن تخيفنى • انها تجد فى دائماً ما يمكن أن تتخذه موضوعاً للتندر والضحك • وفى أحيان أخرى تقطّب حاجبيها ويكسى وجهها طابع الهمّ والغم ، وتسكت فلا تنطق بحرف : وذلك هو ما أخشاه أكثر من أى شيء آخر • قلت لنفسى فى يوم من الأيام : لن أذهب اليها فارغ اليدين • فماذا حدث ؟ ان الهدايا التى حملتها اليها لم تزد على أن حرصتها مزيداً من التحريض على السخرية بل وعلى الغضب • حتى لقد أعطت خادمتها كاتيا شالاً رائماً أهديته اليها ، شالاً لعلها ما رأت مثله فى حياتها قط ، رغم الترف الذى كانت تعيش فيه • وأما أن أسألها تحديد يوم الزواج فذلك أمر لن أجازف فأفعله • ما أحلى وضع الخطيب الذى لا يجروء حتى أن يزور مَنْ ستكون زوجته ! لهذا ترانى أقبع فى بيتى ! حتى اذا نفذ صبرى ، ونضبت مقاومتى ، مضيت خلصة أحوم حول منزلها أو أختبئ •

فى ركن من الشارع • وفى ذا ثمرة بقيت واقفاً أمام باب منزلها كالخارس
الى مطلع الصبح تقريباً • كان قد تراءى لى اننى الّاظ شيئاً ما • ولاشك
أنها رأتنى من النافذة ، فها هى ذى تصرخ قائلةً : « ما عساك تستطيع أن
تفعل بى اذا رأيت أننى أخونك ؟ » واذ لم أطلق صبراً أجبتها قائلاً :
« أنت تعرفين » •

سأله الأمير :

– ما الذى تعرفه ؟

– أنى لى أن أعلم !

قال روجوين ذلك وهو يضحك ضحكة ساخرة • وواصل كلامه
فقال :

– لم أستطع ، بموسكو ، أن أفاجئها مع أحد ، رغم اننى تجسست
عليها مدة طويلة • فأخذتها مرة وقلت لها : « لقد وعدتنى بأن تتزوجينى •
وستدخين أسرة محترمة • هل تعرفين ماذا أنت ؟ انظرى ماذا أنت ! » •
– أقلت لها هذا ؟

– نعم ؟

– فماذا قالت ؟

– قالت : « أنا الآن لا أوافق على أن أكون زوجتك ؛ وربما كنت
لا أرضاك خادماً ! » •

« فأجبتها :

« – وأنا لن أتحرك من هذا المكان •

» فقالت :

« – وأنا سأنادى كيللر ليطردك ويضحك خارج الباب •

» فهجبت عليها ، فما زلت أضربها حتى تغطى جسمها ببقع زرقاء •

صاح الأمير يقول :

- هذا مستحيل !

فقال روجوبين مؤكداً بصوت خافت ، ولكن عينيه كانتا تلتزمان :

- بل هذه هي الحقيقة أقولها لك خالصة . وظللت يوماً ونصف يوم على وجه الدقة لا أنام ولا أشرب ولا آكل ولا أغادر الغرفة . ظللت راکماً على ركبتي أمامها أقول لها :

« سأفطس ، لكنني لن أخرج ما لم تكوني قد غفرت لي ، وإذا وضعتني على الباب مطروداً ، مضيت أتتحر غرقاً ، اذ ما عساي أصبح بدونك ؟ » وظلت هي طول النهار كالجنونة ، فتارةً تبكي ، وتارةً تريد أن تقتلني بسكين ، وتارةً تشتمني . واستدعت زاليوجيف وكيلر وزميتيوجيكوف وسائر الآخرين ، لترهبهم حالي ولتذلّني أمامهم .

« - هلموا نذهب الى المسرح هذا المساء عصابةً واحدة ، وليبق هو هنا اذا لم يشأ أن ينصرف ، فليست مضطرة أن أقبع بالبيت لأحرسه . . . سيقدّم اليك الشاي دون أن أكون حاضرة يا بارفيون سميونوفتش ؛ لا بد أنك اليوم جائع .

« ورجعت من المسرح وحيدة . وقالت لي !

« - انهم جناء رعيديون . . . انهم يخافون منك ، ويريدون أن يخيفوني أنا أيضاً منك . قالوا لي : « انه لن ينصرف هكذا . . . انه لا يتورع عن قتلك » ولكنني ، أنا ، حين سأمضي الى غرفتي للنوم بعد قليل ، لن أقفل الباب بالفتاح ، فأنظر الى أي حد أخاف منك ! أريد أن تعرف هذا وأن تراه . هل شريت شايًا ؟

« - لا ، ولن أشرب .

« - تريد أن تظهر أنفةً وكبرياءً ، ولكن هذا لا يناسبك كثيراً .
« وفعلت ما قالت . لم تقفل الباب بالمفتاح . وحين خرجت في الصباح
من غرفتها أخذت تضحك ، قالت :
« - أتراك جُننت ؟ أتريد أن تموت من الجوع حقاً ؟
« قلت لها :

« - اغفري لي !
« - لا أريد أن أغفر لك . ولقد أثبتك بأنني لن أتزوجك . هل
لبثت على هذا المقعد حقاً طوال الليل بدون أن تنام ؟
« - نعم ، لم أتم لحظة واحدة .
« - ما أعظم هذا المكر ! . ألن تحسني شيئاً من الشئ ؟ ألن تتعني
أيضاً ؟

« - قلت لك . لا أريد إلا أن تغفري لي .
« - لبتك تعلم الى أي حد لا يناسبك هذا الوضع ! انه لا يناسبك
أكثر مما يناسب البقرة أن يوضع على ظهرها سرج * . أتراك تتصور أنك
بهذا تخيفني ؟ ولكن فيم يهمني أنا أن يكون بطنك خاوياً ؟ هه !...
« وغضبت . لكن غضبها لم يدم طويلاً ، وعادت الى التهكم على .
أدهشني أن يزول غضبها بمثل تلك السرعة ، مع ما يتصف به طبعها من
حقد وميل الى الانتقام . عندئذ خطر ببالي انني في نظرها أهون شأنًا من
أن تحقد عليّ مدة طويلة . وكان ما خطر ببالي حقاً . فقد سألتني :

« - هل تعرف ما البابا في روما ؟

« فأجبته :

« - سمعت عنه .

• قالت :

• - هل درست التاريخ العام يوماً يا بارفيون سيميونتشى ؟

• - لم أدرس شيئاً .

• - اذن سأعطيك كتاباً تقرأ فيه قصة بابا غضب من امبراطور * ،

فاضطره أن يظل ثلاثة أيام لا يشرب ولا يأكل ، جائياً على ركبتيه ، حافى القدمين ، عند مدخل قصره ، الى أن تفضل فعفا عنه وغفر له . هل تتصور ما قد دار فى ذهن الامبراطور الراكع من أفكار خلال تلك الأيام الثلاثة ، وما قد حلف بينه وبين نفسه من أيمان ؟ ولكن انتظر : سأقرأ عليك هذا بنفسى .

• وركضت تجىء بالكتاب . وقالت لى : « هى أشعار » . وأخذت

تقرأ على فقرة يدور الكلام فيها على مشاريع الانتقام التى آلى ذلك الامبراطور على نفسه لينفذنها ، بينما كان راکعاً مذلاً خلال تلك الأيام الثلاثة . وأضافت تسألنى : « هل يمكن أن لا يعجبك هذا يا بارفيون سيميونوفتشى ؟ » .

• قلت لها :

• - ان كل ما قرأته صحيح .

• - ها ... انك ترى هذا صحيحاً . واذن فلعلك أنت أيضاً تقول

لنفسك : « حين تصبح زوجتى ، فلأذكرنها بهذا اليوم ، ولانتقمنّ
لنفسى ! » .

• - لا أدرى ! ذلك ممكن !

• - كيف لا تدرى ؟

• - لا أدرى . ليس هذا ما أفكر فيه الآن .

• - فى أى شىء تفكر اذن ؟

« - اليك ما أفكر فيه : حين تنهضين ، وتمرين بقربي ، فانتى أنظر اليك ، وأتابعك بعيني » ، وأسمع حفيف ثوبك ، فيسقط قلبي ؛ وحين تغادرين الغرفة ، أتذكر كل كلمة من كلماتك بلمهجتها ؛ وطوال الليل لم أفكر فى شيء ، وإنما كنت أصغى الى أنفاسك ، ولاحظت أنك تحركت فى سريرك مرتين ...

« قالت ضاحكة :

« لعلك نسيت الكلمات التى هويت بها على أيضاً ؟

« - ربما كنت أفكر فيها ، لا أدري ...

« - فماذا اذا لم أغفر لك ولم أتزوجك ؟

« - سبق أن قلت لك : ألقى بنفسى فى الماء فأموت غرقاً .

« قالت وقد نرد فكرها :

« - وقد تقتلنى قبل أن تلقى بنفسك فى الماء ؟

« ثم غضبت وخرجت ، وبعد ساعة عادت فقالت لى عابسة :

« - سوف أتزوجك يا بارفيون سيمونوفتش . لا لأننى أخشاك ،

فانه ليستوى عندى أن أهلك بهذه الطريقة أو بتلك . لكننى لا أجيد

مخرجاً أفضل من هذا المخرج ، اجلس . سوف تؤتى بعشائرك . واذا

تزوجتك فسأكون امرأة وفية ، فلا يراودك شك فى هذا ، ولا تقلق .

وأضافت تقول بعد برهة صمت :

« - كنت أعدك من قبل خادماً حقيقياً ، لكننى كنت مخبطة .

« وهنا حددت موعد زواجنا . غير أنها هربت منى بعد أسبوع

ولجأت الى ليديف . ولما وصلت الى بطرسبرج قالت لى : « أنا لم أعد

عن زواجك ، لكننى أريد أن أتاهل ، فما زلت حرة التصرف بنفسى ،

فاتنظر أنت أيضاً ، اذا شئت أن تنتظر . . . الى هذه المرحلة وصلنا الآن
... ما رأيك في هذا كله يا ليون نيقولايفتش ؟

فأجاب الأمير وهو ينظر الى روجوين بحزن :
- ما رأيك أنت ؟

فهتف روجوين قائلاً :

- هل لي أنا من رأى ؟

وأراد أن يضيف شيئاً ، لكنه أمسك عن الكلام ، وقد ألمّ به كرب
شديد .

نهض الأمير من جديد لينصرف . وقال بصوت خافت ولهجة حاملة ،
كأنما هو يجيب عن سؤال خفى يطرحه هو نفسه في باطنه :

- على كل حال ، لن أخلق لك أى صعوبة ، ولن أضع أمامك أى
عثرة .

قال روجوين وقد انتعش وسمعت عيناه :

- هل تعرف ما سأقوله لك ؟ اننى لا أفهم أن تتنازل لى عنها هذا
التنازل . أتكون قد كففت عن حبها تماماً ؟ كنت فى السابق حزيناً
مغموماً . لاحظت أنا هذا بوضوح . ولماذا جئت الى هنا مسرعاً ذلك
الاسراع كله ؟ أمن باب الشفقة ؟

قال روجوين ذلك وقد تقلصت شفتاه بإبسمامة ساخرة . فسأله
الأمير :

- أظن أننى أكذب عليك وأخدعك ؟

- لا . اننى أثق بك . لكننى لا أفهم موقفك . لا بد أن شفقتك
أعنف من حبي .

والتمتع فى عيني روجوين كره تعجز الكلمات عن التعبير عنه •
قال الأمير مبتسماً :

– ان حبك القوى يشبه الكره الشديد • حتى ليكادان يختلطان •
واذا انقضت هذه العاطفة يوماً فسيكون الأمر عندئذ أنكى وأدهى •
يا عزيزى المسكين بارفيون ، أنا الذى أقول لك هذا ...
– ماذا ؟ أعتقد أنتى سأذبحها ؟

ارتعش الأمير • وقال :

– ستكرهها فى يوم من الأيام كرهاً رهيباً ، بسبب هيامك بها الآن ،
وبسبب ما تتحملة اليوم من آلام • أما أنها يمكن أن تفكر فى تزويجك ،
فهذا شئ لا أفهمه حقاً ، فحين أنبت به لم أكد أصدقه ، وشعرت منه
بحزن • لقد سبق أن غيّرت رأيها مرتين فتركك قبل الاحتفال بالزفاف •
معنى هذا أنها كانت توجس شيئاً ... فما الذى يمكن أن يردّها الآن
نحوك ؟ أهو مالك ؟ من السخف أن نفترض هذا الافتراض ، لا سيما وأنك
قد بددت منذ الآن جزءاً كبيراً من ثروتك • فهل يكون السبب هو الرغبة
فى الزواج لا أكثر من ذلك ؟ ولكن فى وسعها أن تجد زوجاً آخر
غيرك • وأى زوج آخر خير لها منك ، لأنك أنت قد تذبحها ، ولعلها
توجس هى ذلك وتتنبأ به • أليكون جموح هواك ، أو عنف هيامك هو
الذى يجذبها اليك ؟ قد يكون الأمر كذلك ... لقد سمعت أن هناك نساء
يشقن هذا النوع من العشق ... ولكن ...

وأمسك الأمير عن الكلام وشرذ فكره •

سأله روجوين الذى كان يرصد أسير حركة من حركات وجهه :
– لماذا ابتسمت أيضاً حين نظرت الى صورة أبى ؟

– لماذا ابتسمت ؟ ابتسمت لفكرة خطرت ببالى ، هى أنك لولا هذا

الهيام الذى يعذبك ، لأصبحت تشبه أباك خلال فترة وجيزة من الزمن :
تحبس نفسك فى هذا المنزل مع زوجة مطيعة بكماء ، ولا يسمع منك أحد
الا كلاماً قليلاً قاسياً ، ولا تصدّق انساناً بل ولا تشعر بالحاجة الى أن
تتق بامسان ، وتكتفى بأن تجمع المال فى الظل والصمت . وفى أكثر تقدير ،
تهتم عند نهاية العمر بالكتب القديمة ، وترسم اشارة الصليب باصبعين .. *

- اسخر منى ! لقد قالت لى هذا الكلام نفسه منذ مدة غير طويلة ،
حين نظرت الى هذه الصورة . ما أغرب التقاء رأيكما هذا الالتقاء !
سأله الأمير متحيراً :

- ماذا ؟ هل جاءت الى بيتك ؟

- نعم ، وتأملت الصورة طويلاً وسألتنى عن المرحوم ، وختمت
كلامها قائلة : « ذلك ما كنتَ ستصير اليه بمضى الزمن . ان لك أهواء
عنفة عارمة يا بارفيون سيميوتش ، أهواء تبلغ من العنف والعرامة أنها
يمكن أن تؤدى بك الى سيبيريا ، الى السجن ، لولا أنك ذكى ، ذلك أنك
ذكى جداً (تلك كانت كلماتها بنصها ، صدّق أو لا تصدّق . وكانت هذه
أول مرة تقول لى فيها ذلك) . وأضافت تقول : « كان يمكن أن تترك
جميع السخافات التى تتعلق بها اليوم ؟ واذ أنك محروم من الثقافة ، فانك
كنت ستصرف عن كل شئ الا جمع المال . كنت ستبقى فى بيتك ،
كأبيك ، مع أصحاب ملتك « الحصيان » ، حتى لقد ينتهى بك الأمر الى
اعتناق ملتهم . انك تحب مالك حباً يبلغ من القوة أنك قد تجمع
لا مليونين بل ربما عشرة ملايين ، ولو اقتضى ذلك أن تموت جوعاً فوق
أكياس الذهب التى تملكها ، لأنك تفعل كل شئ بهوى شديد وولع
عنيف ، ولا يقودك خطاك الا الهوى الشديد والولع العنيف ! » . ذلك
ما قالته لى بنصه ، كلمة كلمة على وجه التقريب . لم تكن قد كلمتى

بهذه اللغة فى يوم من الأيام • انها لا تحدثنى عادةً الا فى سفساف
وترهات ، أو هى تأخذ تسخر منى وتهكم على • وفى تلك المرة بدأت
بالاستهزاء ، ثم تجهم وجهها وأظلم • واستعرضت المنزل كله كأنها كانت
تشعر بخوف من شىء ما • قلت لها : « سوف أغير هذا كله ، وأعيد
ترتيبه ، أو سوف أشتري منزلاً آخر لزواجنا » • فأجابتنى قائلة : « لا ،
لا ، ما ينبغى تغيير شىء هنا • سنعيش على هذا النسق نفسه • أريد أن
أقيم بقرب أمك حين أصبح زوجتك » • وعرفتُها بأسمى • فأظهرت لها
احتراماً كالاحترام البت أمها • ان أمى مريضة منذ سنتين ، وقد أصبحت
لا تملك قواها العقلية كاملةً ؛ ولا سيما بعد أن مات أبى ، فكانها ارتدت
الى الطفولة منذ ذلك الحين • ساقاها مشلولتان • وهى لا تتكلم • ولا تزيد
على أن تحرّك رأسها بإشارة لمن يقصدونها • اذا لم تُؤت بطعامها فقد تظل
يومين أو ثلاثة أيام لا تطلب شيئاً • وقد تناولتُ يد أمى اليمنى ، فضمت
أصابعها لرسم اشارة الصليب ، وقلت لها : « باركيها يا أمى ، فسوف
تكون زوجتى • وعندئذ قبّلتُ يد أمى بحرارة وقالت : « أنا على يقين
من أن أمك تألت كثيراً » • وحين لمحت هذا الكتاب الذى تراه سألتنى :
« أأخذت تقرأ تاريخ روسيا اذن ؟ » (هى التى قالت لى ذات يوم
بموسكو : « يجب عليك أن تتقف قليلاً » ، فتقرأ « تاريخ روسيا » مثلاً
- تأليف سولوفيف - لأنك لا تعرف شيئاً البتة !) • وأضافت تقول :
« أحسنت • استمر ! سأضع لك بنفسى قائمةً بالكتب التى يجب
عليك أن تقرأها قبل كل شىء • هل تريد ؟ » • لم تكن قد كلمتنى بهذه
اللهجة فى يوم من الأيام ، أبداً • دهشت دهشة شديدة • ذهلت •••
شدهت ••• ولأول مرة تنفست كما يتنفس انسان عادت اليه الحياة •
قال الأمير بصدق :

- يسرنى هذا كثيراً يا بارفيون ، يسرنى كل السرور • من يدري؟
قد يشاء الله أن يجمع بينكما •

فصاح روجوين يقول مندفعاً :

- لن يكون هذا أبداً !

- اسمع يا بارفيون : اذا كنت تحبها هذا الحب كله ، فهل يُعقل أن لا تحرص على أن تستحق اعتبارها واحترامها ؟ واذا كنت تحرص على ذلك ، فهل يُعقل أن تيأس من الوصول اليه ؟ لقد قلت لك منذ قليل اتنى لا أفهم كيف قلت أن تتزوجك • ولكن لا بد أن يكون لقبولها هذا سبب ، وان كنت لا أدركه • لا يمكن أن يشك المرء فى هذا • انها مقتنعة بحبك ، ولكنها مقتنعة أيضاً بأن لك مزايا معينة • لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، وما ذكرته لى الآن يأتي مؤيداً ومصدقاً لاعتقادى هذا • أنت نفسك تقول انها استطاعت أن تخاطبك وأن تعاملك بطريقة مختلفة كل الاختلاف عن الطريقة التى كانت تعتمد اليها من قبل فى مخاطبتك وفى معاملتك • أنت كثير الشك شديد الغيرة ، وذلك هو السبب فى أن خيالك ضخم الشر الذى لاحظته فيها • مما لا شك فيه أن رأيها فىك ليس سيئاً الى الحد الذى يصوره لك وهمك ، ويعبر عنه لسانك • والا كان علينا أن نسلّم بأنها اذا تزوجتك كان تحكم على نفسها ، عامدة متعمدة ، بأن تهلك غرقى أو مذبوحة • هل هذا معقول ؟ من ذا الذى يمضى الى الموت باراته واعياً بصيراً ؟

كان بارفيون يصفى الى كلمات الأمير المختلجة المرتعشة ، وهو يتشم ، ولم يسع الأمير الا يقول له مغموماً :

- ما هذه النظرة العابسة المشنومة التى تلقىها علىّ يا بارفيون ؟
فهتف روجوين يقول أخيراً :

- أن تهلك غرقى أو مذبوحة ! هيه ... صحيح ... إذا تزوجتني
فمن أجل أن تُدبج بدي حتماً ! لا ... هل يُعقل يا أمير أن لا تكون
قد فهمت حقيقة الأمر في هذه القضية كلها بعد ؟

- لا أدرك ماذا تعنى •

- جائز أن لا تفهمنى على كل حال ! ... يزعم بعضهم فعلاً أنك
على شيء من ... ! انها تحب رجلاً آخر • هل فهمت ؟ انها تحب الآن
رجلاً آخر كما أحبها أنا • وهذا الرجل الآخر ، هل تعلم من هو ؟ انه
« أنت » ! ماذا ؟ ألم تكن تعرف هذا ؟

- أنا !

- نعم ، أنت • لقد بدأت تحبك منذ حفلة عيد ميلادها • لكنها تقدّر
أنه يستحيل عليها أن تتزوجك ، لأنها لو تزوجتك لجللتك بالعار ،
ولأفسدت مستقبلك • هى تقول : « الناس تعلم من أنا » • انها تؤكد هذا
الكلام ، ولم تتخرج من أن تملكه لى جهاراً • هى تخشى عليك أنت أن
تضيّعك وأن تلتطخ شرفك بالعار • أما أنا ففى وسعها أن تتزوجنى ،
فليس فى هذا خير • تلك هى قيمتى عندها ، وذلك هو قدرى فى نظرها •
احفظ هذا !

- ولكن كيف أمكن أن تهرب منك وأن تلجأ الىّ ثم تهرب منى • •
- لتعود الىّ ؟ هه ... هل يستطيع المرء أن يعرف ماذا يدور فى
رأسها ، وماذا يجول فى خاطرها ؟ هى الآن فى حالة من حمى ! يوماً
تصبح قائلة لى : « اننى أتزوجك كما يلقى المرء نفسه فى الماء • فلتزوج
بأقصى سرعة ! » ، وتمضى تتعجل الاستعدادات بنفسها ، وتحدد يوم
الزفاف ... حتى اذا اقترب ذلك اليوم خافت أو راودتها أفكار أخرى
أو ساورتها خواطر أخرى لا يدري ما هى الا الله ! لقد رأيتها بعينيك :

انها تبكى ، وتضحك ، وتتخبط هنا وهناك كالمحمومة . فأى غرابة فى
أنها هربت منك أنت أيضاً ؟ لقد هربت منك لأنها أدركت عنف الهوى
الجارف الذى تحمله لك . كان بقاؤها بقربك فوق طاقتها . زعمت منذ
قليل أننى اهديت إليها أو عثرت عليها بموسكو . ليس هذا صحيحاً .
انها هى التى سارعت الى هاربة منك ، وقالت لى : « حدد يوماً للزواج ،
أنا مستعدة ! أحضر شبنانيا ! وهلم نسمع الفجريات ! » . وكانت تصرخ .
لولاي لألقت نفسها فى الماء منذ مدة طويلة . أؤكد لك . وإذا كانت
لا تلقى بنفسها فى الماء حتى الآن ، فربما كان ذلك يرجع الى أنها ترائى
أفظم من الموت غرقاً . انها تتزوجنى حقاً وغيظاً .

هتف الأمير يقول :

ـ ولكن كيف ترضى أنت أن ... كيف ...

ولكنه لم يكمل كلامه . وكان ينظر الى روجوين مروّعاً . فسأله
روجوين وهو يضحك ضحكاً ساخراً .

ـ لماذا لا تكمل سؤالك ؟ هل تريد أن أقول لك فى أى شيء تفكر
فى هذه اللحظة ؟ انك تسأل نفسك : « كيف يمكن أن تتزوجه الآن ؟
كيف يمكن قبول مثل هذا الزواج والسكوت عنه » . ذلك هو شعورك
وتلك هى عاطفتك حتماً ...

ـ اعود فأكرر لك يا روجوين اننى لم أجبى اليك لهذا الغرض ،
وان الفكرة التى كانت فى ذهنى ليست هذه الفكرة .

ـ جائز أن لا تكون قد جئت لهذا الغرض ، وأن لا تكون الفكرة
التي كانت قائمة فى ذهنك أول الأمر هى هذه الفكرة ، ولكن لا شك

فى أن هذا هو ما تفكر فيه الآن • دحك من المماحكة ! لماذا اضطربت هذا
الاضطراب كله ؟ هل كنت لا تعرف شيئاً من ذلك حقاً ؟ انك لتدهشنى !
تمتم الأمير يقول وقد بلغ ذروة الانفعال :

— ذلك كله غير • يا روجوين ! هذا مرض • انك تفتقد الاعتدال
والقصد ••• انك تعالى وتبالغ ••• ولكن ما هذا الذى عندك ؟

فأسرع بارفيون ينتزع من يدى الأمير سكيناً صغيرة تناولها الأمير من
على المائدة بقرب الكتاب دون وعى ، وقال له وهو يعيد السكين الى مكانها:
— دعها !

وواصل الأمير كلامه فقال :

— لكأنتى كنت أوجس هذا كله حين وصلت الى بطرسبرج •••
لم أكن أحب أن أجيء ••• كنت أريد أن أنسى كل ما يربطنى بهذه
المدنية ويشدنى اليها ، وأن استأصله من قلبى استئصالاً ! هيأ •••
استودعك الله !••• ولكن ما هذا الذى عندك ؟

كان الأمير ، أثناء الكلام ، قد تناول السكين مرة أخرى ذاهلاً •
فانتزع روجوين السكين من يده ، ورماها على المائدة • السكين ذات شكل
بسيط شائع • قبضتها من قرن وعل ، ونصلها يبلغ طوله نحو خمسة
عشر سنتيمتراً ، وعرضها يناسب هذا الطول •

فحين لاحظ روجوين دهشة الأمير من انتزاع السكين من يده
مرتين ، تناول السكين غاضباً ودسّها فى الكتاب ثم رمى الكتاب على مائدة
أخرى •

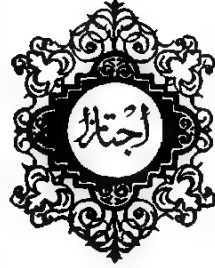
سأله الأمير ذاهلاً مستغرقاً فى تفكيره :

— أأنت تستعملها قطعاً ورق !

— نعم •••

- لكنها سكين حديقه •
- وهل يستحيل قطع صحائف الورق بسكين حديقه ؟
- لكنها ... جديدة تماماً •
- أى خير فى هذا ؟ ألا أستطيع أن اشترى سكيناً جديدة ؟
- كذلك صاح روجوين وقد انتابه حنق شديد • وكان غضبه يزداد عند كلمة يقولها الأمير •
- ارتعش الأمير وحدّق الى روجوين • ثم قال ضاحكاً وقد تاب اليه وعيه كاملاً :
- ما دهانا ؟ اعذرني يا عزيزى • فأننى حين ينقل رأسى ويعاودنى مرضى كما حدث لى الآن ... أصبح ذاهلاً ذهولاً مضحكاً • ليس ذلك هو السؤال الذى كنت أريد أن ألقيه عليك ... نسيت ما الذى كنت أريد أن أسألك عنه • استودعك الله •
- قال روجوين :
- ليس هذا هو الطريق •
- نسيت !
- من هنا ! سأريك الطريق !

الفصل الرابع



الحجرات نفسها التي سبق أن قطعها الأمير . كان روجوين يتقدمه قليلاً . ودخلا الصالون الكبير الذي كانت معلقة بجدرانه لوحاتٌ هي جميعاً صور أساقفة ومناظر طبيعية لا يميّز المرء فيها شيئاً . ان فوق الباب المفضي الى الغرفة المجاورة لوحةً شكلها غريب، فطولها يبلغ مترين وعلوّها لا يزيد على ثلاثين سنتيمتراً . انها تمثل يسوع المسيح ، المخلّص ، لحظة نزوله عن الصليب .

ألقي الأمير على الصورة نظرةً سريعةً وكأنه تذكر شيئاً ما ، لكنه لم يتوقف . وهمّ أن يتخطى العتبة . كان يشعر بانقباض في صدره وتقل في قلبه ، ويتمجّل مغادرة هذا المنزل . لكن روجوين توقف فجأة أمام اللوحة . وقال :

- جميع هذه اللوحات التي تراها هنا انما اشترى المرحوم أبي كل واحدة منها بروبل أو روبلين في مبيعات عامة . كانت له هذه الهواية . وقد فحص اللوحات رجلٌ خبير ، فوصفها جميعاً بأنها غير ذات قيمة ، الا هذه التي تراها فوق الباب والتي اشتراها أبي بروبلين أيضاً فقد وصفها بأنها ليست غير ذات قيمة . وقبل وفاة أبي ، وجد من عرض عليه أن يشتريها منه بثلاثمائة وخمسين روبلاً ؛ حتى ان سافليف ، ايفان دمترتش سافليف ، وهو تاجر ثرى من كبار هواة الصور ، قد عرض

عليه أربعمئة روبل ثمناً لها . وفي الأسبوع الماضي عرض على أخى
سيمون سيمونوفتش خمسمئة روبل ؛ ولكنى رفضت واحتفظت بها
لنفسى .

قال الأمير وقد اتسع وقته للتدقيق فى اللوحة ، وانعام النظر اليها :
- ولكن... ولكن هذه اللوحة منسوخة عن لوحة هانس هولباين*
ويخيل الى أنها نسخة ممتازة ، رغم اننى لست على جانب كبير من
الخبرة والدراية فى هذا المجال . لقد رأيت هذه اللوحة فى الخارج ،
ولا أستطيع أن أنساها . ولكن ماذا ... ماذا بك ؟

كان روجويين قد ترك اللوحة فجأة ، واستأنف السير . صحيح أن
ما كان قد اعترى روجويين من ذهول واحتياج يمكن أن يعلل تقلبات
مزاجه هذه . غير أن الانقطاع المباغت عن حديث لم يكن الأمير هو الذى
بدأه قد أثار دهشة الأمير ؛ كما ان امتناع روجويين عن الرد على سؤاله
بدا له غريباً كذلك .

وهذا هو روجويين يسأل الأمير على حين فجأة بعد بضع خطوات :
- قل لى يا ليون نيقولايفتش ... كنت أريد منذ مدة طويلة أن
ألقى عليك هذا السؤال : - أأنت تؤمن بالله أم لا ؟
قال الأمير على غير ارادة منه :

- ما أغرب سؤالك ... وما أغرب نظرتك !...
ودمد روجويين يقول بعد صمت ، كأنه قد نسى سؤاله مرة أخرى :
- اننى أحب أن أنظر الى هذه الصورة !
فهتف الأمير يقول وقد ساورته فكرة مباغثة :
- هذه الصورة ! ان هذه الصورة يمكن أن تفقد بعض الناس
إيمانهم !

فقال روجويين مؤيداً كلام الأمير على غير توقع :

... حقاً ... انها تفقد المرء ايمانه ! ...

وكانا قد بلغا باب الخروج . فقال الأمير وهو يتوقف فجأة :

... كيف ؟ أنا قلت كلامي من باب المزاح تقريباً ، وأنت تأخذه مأخذ الجد ! لماذا سألتني منذ لحظة هل أومن بالله ؟

... لا شيء ... هكذا ... وكنت أريد أن ألقى عليك هذا السؤال من قبل . ان في هذه الأيام أناساً كثيرين لا يؤمنون بالله . لقد عشت في الخارج . فهل صحيح ما كان يقوله لي احد السكّيرين من أن الذين لا يؤمنون بالله هم في بلادنا ، روسيا ، أكبر عدداً منهم في أى بلد آخر ؟ لقد قال لي ذلك السكّير : « الاتحاد أسهل علينا منه على الآخرين ، لأننا سرنا شوطاً أبعد ... » .

وابتسم روجويين ابتسامة مرة . انه حين ألقى سؤاله كان قد فتح الباب فجأة ، وانتظر خروج الأمير واضعاً يده على قبضة الباب . ودُهِش الأمير ، لكنه تخطى العتبة ، وتبعه روجويين الى فسحة السلم منطلقاً الباب وراءه نصف اغلاق . وبقي الرجلان واقفين وجهاً لوجه ، وكأنهما لا يعرفان الى أين وصلا من أمرهما ولا ما الذى يجب عليهما أن يفعله .

قال الأمير وهو يمد الى روجويين يده :

... طيب ... استودعك الله !

فقدم روجويين وهو يشد على اليد الممدودة اليه شداً قوياً ، ولكن على نحو آلى تماماً :

... استودعك الله .

وهبط الأمير درجة ثم التفت يستأنف الكلام مع روجويين . كان

واضحاً أنه لا يريد أن يتركه على تلك الحال . قال له مبتسماً ، وقد
شجنت همته ، عدا ذلك ، ذكرى مباغته :

- فيما يتعلق بالايمان ، أذكر اننى فى الأسبوع الماضى قد حدثت لى
أربع مقابلات فى غضون يومين . ففى ذات صباح ، أثناء سفرى على خط
جديد من خطوط السكة الحديدية ، ظللت أترثر مدة أربع ساعات مع
رجل اسمه س . * . ، كنت تعرفت اليه حينذاك . كنت قد سمعت عن
هذا الرجل كثيراً قبل ذلك ، فصرفت فيما عرفت أنه ملحد . انه رجل
واسع الثقافة ، غزير الاطلاع ، وقد سرّنى أن أتيتحت لى فرصة المناقشة
مع عالم يبلغ ما يبلغه هذا الرجل من وفرة الاطلاع . وكان فوق ذلك
انساناً جماً التهذيب ، فكان يكلمنى كما يكلم قرين قرينه ، أو كما يكلم
نداً له فى سعة العلم وسداد الرأى . انه لا يؤمن بالله . غير أن هناك
شيئاً خطف انتباهى فى مناقشته هو أنه طوال مدة حديثنا لم يبد أنه يواجه
الموضوع الحقيقى ، أو يعالج المسألة الحقيقية . ومما فاقم دهشتى أننى قبل
ذلك ، كلما التقيت بزنادقة أو قرأت كتاباً تذهب هذا المذهب ، كان يبدو
لى دائماً أن هؤلاء الناس لا يتكلمون عن المسألة الحقيقية ، وان كانوا
يتكلمون عنها فى ظاهر الأمر . وقد عرضت على الرجل شعورى هذا ،
ولكن لعلنى عرضته عليه عرضاً مضطرباً مبهماً أو لعلنى لم أحسن
الافصاح ولم أحسن التعبير ، لأن الرجل لم يفهم من كلامى شيئاً البتة . .
وفى المساء حللت بنزول للمبيت . وكانت جميع المناقشات ، عند وصولى ،
تدور على جريمة ارتكبت فى الليلة السابقة ، خلاصتها أن اثنين من الفلاحين
ليسا شابين ولا كانا سكرانين ، وهما صديقان منذ مدة طويلة ، قد قررا
بعد احتساء الشاى أن يستأجرا غرفة بيتان فيها . ولكن أحدهما كان قد
لاحظ منذ يومين أن رفيقه يملك ساعة من فضة معلقة بجبل أصفر ومزدانة
باللؤلؤ من زجاج ، ولم يكن الرفيق قد رأى هذه الساعة فى حوزة رفيقه

من قبل • ليس الرجل لصاً ، حتى لقد كان أميناً مستقيماً ؛ لا ولا كان فقيراً اذا قيس بغيره من الفلاحين • غير أن هذه الساعة قد أعجبت وأغرته الى حد أصبح لا يستطيع معه أن يقاوم وأن يصمد • فلما رأى رفيقه ينكفيء الى الجهة الأخرى ، استلّ سكينة ، وتسلسل اليه من وراء محاذراً ، وحسب ضربته ، ورسم إشارة الصليب رافعاً عينيه الى السماء ، وتمتم يدعو الله بلهجة مرة : « اغفر لى يا رب ، باسم يسوع المسيح ! » ، ثم ذبح رفيقه بضربة واحدة ، كما يُذبح خروف ، وأخذ منه ساعته •

انفجر روجوين يضحك ضحكاً شديداً كمن اعترته نوبة عصبية • فكان هذا الضحك يثير الدهشة بعد المزاج القاتم الذى كان يستبد به منذ قليل • وأخذ روجوين يصرخ فى تشنج ، والضحك يخنقه :

— هذا ما يعجبني ! هذا أجمل من كل شيء ! الأول لا يؤمن بالله البتة ، والثانى يؤمن به ايماناً يبلغ من القوة أنه يذبح الناس وهو يتلو دعاءه • • • لا يا أمير ، لا يا أخى ، هذا شيء لا يمكن اختراعه اختراعاً • آ • • • آ • • • آ ! لا ، لا ، هذا أجمل من كل شيء حقاً ! • • •

وما ان هدأ روجوين قليلاً ، وان كان الضحك ما يزال يُرْعش شفتيه على تشنج ، حتى استأنف الأمير كلامه فقال :

— وفى صباح الغد خرجت أتجول بالمدينة قليلاً • فرأيت جندياً سكران ، قد اختلت ثيابه تماماً ، وراح يمشى على الرصيف الحنسى مترنحاً • وها هو ذا يقترب منى ويقول لى « اشتر منى هذا الصليب يا سيدى • انه من فضة • وأنا أبيعك اياه بعشرين كوبكاً » • رأيت فى يده صلياً مربوطاً بشريط أزرق مهترى ، لا بد أنه قد انتزع من عنقه منذ قليل • ولكن الصليب من قصدير صرف ، ذلك أمر تراه العين من أول نظرة • هو صليب كبير الأبعاد ، من الطراز البيزنطى ، ذو ثمانية أفرع •

أخرجت من جيبي عشرين كوبكاً ، وأعطيتها السكران ، ولم ألبث أن علفت الصليب بمعنى . ما كان أعظم فرحه بأنه استطاع أن يفضّس ماراً ساذجاً ! وانطلق على الفور يشرب بضمن صليبه خمرأ ، لا شك في ذلك البتة ! كان كل ما ألاحظه في روسيا يحدث في نفسى تأثيراً قوياً . كنت في الماضى لا أفهم من أمر بلدى شيئاً ، كنت جاهلاً جهلاً مطبقاً . وفي البلاد الأجنبية ، أثناء السنين الخمس التى عشتها فيها ، لم أكن قد احتفظت عن روسيا الا بذكرى خيالية . تابعت سيرى وأنا أقول لنفسى : « لا ، سأنتظر مدة أخرى قبل أن أدين هذا الحائن . الله وحده يعلم ما يحدث في قلوب هؤلاء السكرارى الضعيفة ! » وبعد ساعة ، بينما كنت عائداً الى التزلُّ ، صادفت امرأة طيبة تحمل رضيعاً . ان المرأة ما تزال شابة ، ولعل الطفل في الأسبوع السادس من عمره . لقد ابتسم لأمه لأول مرة منذ ولادته ، ابتسم لها منذ لحظة ، فاذا هى ترسم على نفسها اشارة الصليب بكثير من التقى . سألتها (وكنت أسأل الناس دائماً) : « لماذا رسمت اشارة الصليب أيتها الشابة ؟ » . فأجابتنى قائلة : « كفرحة الأم التى ترى أول ابنتها فى ثمر ابنها هى فرحة الرب حين يرى من عليها سمائه مذبذباً يدعوه دعاءً صادقاً من أعماق قلبه . » انها فلاحه بسيطة تلك التى عبّرت لى ، بهذه الألفاظ نفسها تقريباً ، عن فكرة تبلغ هذا المبلغ من الرهافة ، فكرة تتناسب هذا الانتساب الصادق الى المسيحية ، فكرة تعبّر دفعةً واحدة عن روح الديانة المسيحية كلها ، وهى أن الرب أبونا جميعاً ، وأن فرحة الرب بالانسان كفرحة الأب بابنه ! هذه فكرة أساسية من أفكار المسيح ! هى أم ، طبعاً . . . ومن يدري ؟ فلربما كانت زوجة ذلك الجندى . اسمع يا بارفيون ، لقد سألتنى عن هذا الأمر منذ قليل ، فإليك جوابى : ان جوهر العاطفة الدينية مستقل عن جميع البراهين ، وجميع الأفعال السيئة وجميع الجرائم وجميع مذاهب الالحاد . ان في هذه العاطفة شيئاً لا يمكن أن تدركه ولا يمكن أن تتاله

أدلة الملحين في يوم من الأيام • وسيظل الأمر على هذا النحو أبد الدهر • غير أن أهم شيء هو أن هذا يلاحظ في النفس الروسية أسرع ما تكون الملاحظة وأوضح ما تكون الملاحظة • وتلك هي النتيجة التي أخلص إليها • هذه قاعة من أولى القاعات التي تكونت في نفسى عن بلادنا روسيا • هناك أمور كثيرة يجب أن تعمل يا بارفيون ، أمور كثيرة يجب أن تعمل في عالمنا الروسى ، صدقنى ! تذكر لقاءاتنا وأحاديثنا بموسكو ... لم أكن أرغب أية رغبة في أن أعود الآن الى هنا • ولم أكن أتصور أن أجدك على هذه الحال أبداً • وكفى هذا !... استودعك الله ... الى اللقاء ! أسأل الله أن يكون معك !...•

قال الأمير ذلك ثم استدار وأخذ يهبط السلم • فلما وصل الى الفسحة الأولى ، صرخ بارفيون يسأله من فوق :
- ليون نيقولايفتش ! ذلك الصليب الذى اشتريته من الجندى ، هل هو ملك الآن ؟

فأجابه الأمير وقد توقف من جديد :

- نعم ، هو معى •

- أرنيه •

هذه غرابة أخرى ! تردد الأمير ، ثم صعد درجات السلم ، وأخرج الصليب من قميصه دون أن ينزعه عن عنقه • فقال له روجوين :

- هب لى هذا الصليب •

- لماذا ؟ هل أنت ...•

- أحمله وأعطيك صليبي فتحمله ...•

- تريد أن تبادل صليبينا * ؟ ليكن ذلك يا بارفيون اذا شئت ! سوف يسعدنى هذا • فلنكن أخوين •

انتزع الأمير صليبه القصديرى ، وانتزع بارفيون صليبه الذهبى ،
وتبادلا الصليبين . كان بارفيون صامتاً لا يتكلم . فما كان آلم الدهشة
التي شعر بها الأمير حين لاحظ أن الريبة والابتسامة المرة التي تكاد تكون
ساخرة ما برحتا ظاهرتين في وجه أخيه في الصليب ، أو قل على الأقل
انهما تظهران ظهوراً واضحاً في بعض اللحظات . وأخيراً تناول روجويين
يد الأمير صامتاً ، ولبت جامداً لا يتحرك خلال برهة كأنما هو عاجز عن
اتخاذ قرار ، ثم جرَّ الأمير في النهاية وراءه قائلاً له في دمدمة خافضة
لا تكاد تُسمع : « تعال » . فاجتازا فسحة الطابق الأول ، وقرعا جرس
الباب المقابل ، فسرعان ما فتحت الباب امرأة عجوز محدودة الظهر ترتدى
سواداً وتضع على رأسها منديلاً ، فلما رأت روجويين انحت أمامه انحناءً
شديداً دون أن تتكلم . فسألها روجويين عن أمر من الأمور مسرعاً ،
واقفاد الأمير يدخله البيت دون أن ينتظر جوابها . واجتازا مرةً أخرى
حجرات كثيرة مظلمة ، نظيفة نظافة خارقة ، أثنائها قديم بارد متقشف
مكسو بأغطية بيضاء ؛ ودون أن يطلب روجويين الابلاغ عن حضوره ،
أدخل الأمير رأساً في غرفة صغيرة لها مظهر صالون ، يقطعها حاجز من
خشب الأكاجو الملمع ، وفي طرفي الحاجز بابان صغيران ، ووراء غرفة
النوم في أغلب الظن . في ركن من الصالون ، على مقعد قرب المدفأة ،
كانت تجلس امرأة عجوز صغيرة ، لا يبدو أنها طاعنة في السن كثيراً ،
لكن شعرها قد أبيض تماماً ، وعقلها قد ارتد إلى الطفولة (يفتح
المرء بذلك منذ أول نظرة) . انها ترتدى ثوباً من صوف أسود ، وتلف
عنقها بمنديل كبير أسود ، وتضع على رأسها طاقية ناصعة البياض مزودة
بأشرطة سوداء . وكانت قدماها موضوعتين على دكة صغيرة . وبجربها
تجلس عجوز أخرى ، أكبر منها سنّاً شديدة النظافة ، مرتدية ثياب الحداد
أيضاً ، وعلى رأسها طاقية بيضاء هي الأخرى . لا شك أنها قريبة فقيرة

من قريبات المعجوز الأولى • وكانت الثانية تحيك بالأبرة جورباً • لا بد
أنهما بقيان على هذه الحال طول الوقت لا تتكلمان • فحين رأت المعجوز
الأولى روجوين والأمير ابتسمت لهما ، وحتت رأسها عدة مرات بإشارات
تعبّر عن العاطفة والرضى •

قال لها روجوين بعد أن قبّل يدها :

— أماء ، هذا صديقى الكبير الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين • لقد
تبادلنا صليبين • وكان لى بمثابة الأخ فى فترة ما بموسكو ، وله على آلاء
كثيرة • باركيه يا أماء ، كما لو كان ابنك • انتظرى يا أماء ، سأساعدك
فى ضمّ أصابعك •••

ولكن المعجوز رفعت يدها اليمنى قبل أن يتسع وقت روجوين لأن
يلمسها ، فضمّت ثلاثاً من أصابعها ، ورسمت إشارة الصليب فوق رأس
الأمير ثلاث مرات بكثير من التقى والخشوع • ثم حنت له رأسها من جديد
بإشارة ودود حنون •

قال بارفيون :

— تعال الآن يا ليون نيقولايفتش • فمن أجل هذا وحده انما جئت
بك الى هنا •••

وأضاف يقول للأمير حين بلغا فسحة السلم :

— انها لا تفهم شيئاً مما يقال لها ، ولم تفهم شيئاً من كلامى ، ومع
ذلك باركك • معنى ذلك أنها أرادت من تلقاء نفسها ••• طيب •••
أستودعك الله ••• لقد آن الأوان لنا كلينا •

قال روجوين ذلك وفتح الباب • فهتف الأمير قاتلاً وهو ينظر إليه
ظفرة فيها عتب رقيق :

— دعنى أعانقك على الأقل قبل أن أنصرف !

وأراد الأمير أن يحتضنه بذراعيه • ولكن بارفيون ما كاد يهيم أن
يرفع ذراعيه حتى عاد يسبلهما • انه لم يستطع أن يزم أمره • وأشاح
وجهه حتى لا يرى الأمير • وجمجم يقول بصوت مبهم وهو يضحك
ضحكة غريبة :

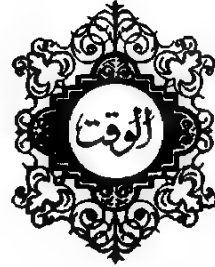
- لا تخف ! لن أقتلك من أجل ساعة ، وان كنت قد أخذت
صليكَ !

لكن وجهه انقلب فجأة ، فاذا هو يشحب شحوباً رهيباً ، واذا شفتاه
تأخذان بالارتجاف ، واذا عيناه تسطمان • ورفع ذراعيه ، وعانق الأمير
عناقاً قوياً ، وقال بصوت لاهت :

- خذها ما دام هذا هو القدر ! هي لك ! انتى اتنازل لك عنها ! ••
تذكّر روجوين !

ثم ترك الأمير دون أن يلقي عليه نظرة ، وعاد يدخل مسرعاً ويفلق
الباب وراءه بقرعة شديدة •

الفصل الخامس



متأخر ، فالساعة قاربت الثانية والنصف • لم يجد الأمير الجنرال ايبانتشين فى بيته • فوضع بطاقته، وقرر أن يمضى الى فندق « الميزان » عسى أن يجد فيه كوليا ، أو يترك له كلمة اذا لم يجده •
ف قيل له فى الفندق ان يقولوا أرداليوتش قد خرج فى الضحى ، وطلب أن يذكر لمن يسأل عنه « أنه قد يعود فى نحو الساعة الثالثة » فاذا بلغت الساعة الثالثة والنصف قبل أن يعود فيكون معنى ذلك أنه سافر بالقطار الى بافلوفسك ليزور الجنرالة ايبانتشين ، وأنه سيتغدى هناك • • بقى الأمير فى الفندق ينتظر ، وانتهاز الفرصة فأمر لنفسه بغداء •

ولكن كوليا لم يظهر لا فى الساعة الثالثة والنصف ، ولا فى الساعة الرابعة • فخرج الأمير من الفندق وأخذ يمشى على غير هدى •

ان بطرسبرج تعرف عند بداية الصيف فى بعض الأحيان أياماً لذيذة مضيئة دافئة هادئة • ولقد كان ذلك اليوم واحداً من تلك الأيام النادرة ، كأننا على عمد • ظل الأمير يطوف فى المدينة زمناً دون هدف أو غاية • انه لا يعرف المدينة معرفة جيدة • وكان يتوقف أحياناً عند مفارق الطرق أمام بعض المباني ، أو يتلبث فى الميادين والساحات ، أو يقف على بعض الجسور • وفى لحظة من اللحظات دخل مطعم حلوى ليستريح قليلاً • لقد كان ينعم النظر فى المارة باستطلاع قوى وفضول شديد أحياناً ، ولكنه

فى أكر الأحيان لا يلاحظ المارة ، ولا يعرف أين هو . انه الآن فى حالة قلق عميق وتوتر أليم ، وهو فى الوقت نفسه يشعر بحاجة قصوى الى العزلة . انه يريد أن يخلو الى نفسه وحيداً ، وأن يستسلم لألم ذلك التوتر استسلاماً سليماً ، فلا يسعى الى أى مخرج منه ؛ وهو يدفع سيل الأسئلة التى كانت تغزو قلبه ونفسه ، يدفعها عنه مشمئزاً ؛ ويجمع قائلاً لنفسه دون أن يشعر تقريباً : « أنا مسئول عن هذا كله ؟ » .

وفى نحو الساعة السادسة وجد نفسه على رصيف خط السكة الحديدية الذى يصل بين تسارسكوى وسيلو . ان العزلة قد أصبحت ثقيلة الوطأة على نفسه فهو لا يطيقها ولا يحتملها . ان اندفاعه جديدة قد استولت على قلبه بقوة وحرارة ، وان ضياءً ساطعاً قد أثار الظلمات التى كانت تملأ نفسه بالغم والقلق . اشترى تذكرة سفر الى بافلوفسك ، متعجلاً أن ينطلق بأقصى سرعة . غير أن هناك شيئاً كان يلاحقه ويطارده ولا شك ، شيئاً واقعياً لا خيالياً كما لعله كان يظن . فما ان همَّ أن يركب القطار ، حتى رمى تذكرة السفر على الأرض ، وغادر المحطة واجماً مفكراً مضطرباً . وبعد قليل ، حين صار فى الشارع ، بدا كأنه تذكر شيئاً ما على حين فجأة ، كأنه أدرك شيئاً غريباً جداً كان يقلقه منذ مدة طويلة . لقد باغت نفسه مشغولاً بامرٍ ما برح يلزمه منذ زمن ، لكنه لم يكن قد لاحظته حتى ذلك الحين . انه منذ كان فى فندق « الميزان » ، وربما قبل ذلك ، قد أخذ فجأة يبحث عن شئ من حوله بين الفينة والفينة . انه كان ينسى هذا الشئ أحياناً ، حتى لقد كان ينساه مدة طويلة ، مدة نصف ساعة ، لكنه ما يلبث أن يلتفت بفتة من جديد ، ليعود يبحث من حوله قلقاً .

ولكنه ما ان لاحظ فى نفسه هذه الاندفاع المراضية التى كانت حتى ذلك الحين غير شعورية والتى كانت قد استولت على نفسه منذ مدة طويلة ،

حتى انبجست أمامه على حين فجأة ذكرى أخرى اهتم بها اهتماماً قوياً .
تذكر أنه حين لاحظ أنه ما انفك يبحث عن شيء ما حوله ، انما كان
واقفاً على الرصيف أمام الواجهة الزجاجية لاحدى الدكاكين ، وأنه كان
ينعم النظر بكثير من الاستطلاع والاهتمام فى الأشياء المعروضة داخل
الواجهة . فأصرَّ عندئذ على أن يتحقق من أنه قد وقف أمام تلك الدكان
فعلاً ، منذ ما لا يزيد عن خمس دقائق تقريباً . فاذا لم يكن ذلك وهماً
من أوهام الخيال لا أكثر ، أفلا يكون من الجائز أنه خلط بين الأمور ؟ هل
لتلك الدكان وتلك الأشياء المعروضة فى واجهتها وجودٌ حقاً ؟ ذلك أنه
كان يحس فعلاً ، منذ مطلع النهار ، أنه فى حالة مرضية تكاد تكون نفس
الحالة التى كان يحسها فى الماضى عند بداية نوبات مرضه القديم . كان
يعلم أنه يصبح فى تلك الفترات ذاهلاً الى أبعد حدود الذهول ، وأنه يتفق
له عندئذ أن تختلط عليه الأشياء وتشابه عليه الوجوه ، اذا هو لم ينتبه
اليها انتباهاً خاصاً مشدوداً . غير أن هناك شيئاً خاصاً كان يدفعه الى التحقق
من أنه وقف أمام تلك الدكان فعلاً حينذاك . لقد كان بين الأشياء المرتبة
فى الواجهة الزجاجية شيء نظر اليه حتى لقد قدَّر له ثمناً هو ستون كوبكاً .
انه يتذكر هذا الأمر رغم ذهوله ورغم اضطرابه . فاذا كانت تلك الدكان
موجودة ، واذا كان ذلك الشيء موجوداً فى الواجهة بالفعل ، فانما يكون
قد توقف هنالك بسبب ذلك الشيء . ويترتب على هذا أن ذلك الشيء قد
همَّ فى ذاته الى درجة بعيدة فلفت انتباهه حتى فى حالة الاختلاط الأليمة
تلك التى كان عليها حين خرج من المحطة . منى الأمير وهو ينظر الى
اليمين بما يشبه أن يكون خوفاً ، وقلبه يخفق من شدة القلق وفرط نفاد
الصبر . ولكن ها هي ذى الدكان . لقد وجدها أخيراً ! كان قد ابتعد عنها
قراءة خمسمائة خطوة حين بدا له أن يقفل راجعاً . وها هو ذا الشيء
الذى قدَّر له ثمناً هو ستون كوبكاً . قال الأمير مؤكداً تقديره : « نعم ،

ستون كوبكاً ، انه لا يساوى أكثر من ذلك ! » . وضحك . لكن ضحكه كان هسترياً . وشعر بثقل فى قلبه ، وانقباض فى صدره ! هو يتذكر الآن تذكراً واضحاً أنه منذ قليل ، فى هذا المكان نفسه ، أمام هذه الواجهة ذاتها ، قد التفت بقوة ، كما التفت فى الصباح حين فاجأ نظرة يلقبها عليه روجويين . فلما تأكد أنه لم يخطئ الظن (وذلك أمر كان موقناً به يقيناً مطلقاً حتى قبل أن يتحقق منه) ، ترك الدكان وابتعد مسرعاً . ان عليه أن يفكر فى هذا كله بأقصى سرعة . لقد وضع الآن أن ماحدث فى المحطة لم يكن وهماً كذلك ، وأن شيئاً واقعياً لا شك أنه ذو صلة بكل قلقه السابق قد حدث له فعلاً . الا أن نوعاً من نفور داخلى لا يقاوم قد تغلب عليه أيضاً ، فلم يشأ أن يفكر . لقد عدل عن التفكير عدولاً تاماً . وها هو ذا يفكر فى أمور أخرى .

تذكر ، فيما تذكر ، أن نوبات الصرع التى كان يعانها ، كانت تشمل على لحظة تسبق النوبة بزمان قصير جداً (وذلك حين توافيه النوبة أثناء اليقظة لا أثناء النوم) ، لحظة يضطرم فيها ذهنه فجأة وسط الحزن وظلمات النفس والاختناق ، وتستمر فيها جميع قواه الحيوية دفعة واحدة ، فيضعف احساسه بالحياة ، ويشد وعيه لذاته . ان الفكر والقلب يشرقان عندئذ بضياء ساطع ، فاذا باضطرابه وشكوكه وقلقه ومخاوفه تهدأ على الفور ، وتصير الى نوع من طمأنينة عليا زاخرة بوعى لعله العلل وغاية الغايات . غير أن تلك اللحظات أو تلك الومضات ليست ، بعد ، الا استشرافاً للهنية الأخيرة ، للثانية الأخيرة التى تبدأ بها النوبة . هى ثانية لا تطاق طبعاً . ولقد كان اذا فكّر فى هذا بعد أن تعود اليه صحته ، كان يقول لنفسه : ما هذه الومضات وهذه الاشرافات التى نظن أنها ومضات واشراقات « وعى أعلى » ومن ثم « حياة عليا » ، ما هى اذن الا مرض ، ما هى الا فساد الحالة السليمة ، فاذا كان الأمر كذلك لم يكن

ثمة حياة عليا ، بل حالة يجب أن تعدّ من أدنى الحالات !... ومع ذلك
 قاده هذا الى استنتاج مفارق غريب الى أبعد حدود المفارقة والغرابة فقال
 يحسم الأمر : « أى خير فى أن تكون هذه الحالة مرضاً ، أى خير فى أن
 تكون هذه الحالة حالة توتر غير سوى ، ما دامت النتيجة ، أى ما دامت تلك
 اللحظة التى يتذكرها المرء ويتأملها حين تعود اليه صحته تبدو له أعلى
 درجة من درجات الاتساق والانسجام والجمال ، وما دامت تحدث له عاطفة
 لا عهد له بها ولا خطرت بباله ، هي عاطفة التمام والامتلاء ، والقصد
 والاعتدال ، والسكينة والطمأنينة ، والاندماج بالصلاة فى أعلى مركّب
 للحياة ؟ » كانت هذه التعبيرات الضبابية تبدو له مفهومة تماماً ، رغم أنها
 ما تزال ضعيفة غير قوية . أما أن ثمة « جمالاً » وتواصلًا بالصلاة «
 و « مركّباً أعلى للحياة » فى حقيقة الأمر ، فذلك ما لم يكن يراوده فيه
 ريب ، ولا يمكن أن يقبل فيه أى شك . ذلك أن ما يحسه فى تلك
 اللحظات ليس أخيلة سراب أو رؤى أحلام مرضية باطلة ، كذلك التى
 تنشأ عن الخشيش أو الأفيون أو الخمر ، مما ينحدر بالعقل ويفسد النفس .
 ان فى امكانه أن يحكم فى هذا حكماً سليماً عند الخروج من حالته
 المرضية . لا ، لا ، ان تلك اللحظات انما هي جهد خارق فى سبيل الوعى
 - اذا كان لا بد من وصف تلك الحالة بكلمة - وهي فى الوقت نفسه
 التعبير المباشر عن الوعى ذاته . واذا كان يتفق له أن يقول لنفسه بوضوح
 وجلاء فى تلك الثانية ، أعنى فى تلك اللحظة الأخيرة التى تسبق الفيوبة :
 « نعم ، ان المرء مستعد لأن يهب حياته كلها فى سبيل هذه اللحظة » ، فانه
 كان واقعاً كل الثقة بأن هذه اللحظة تساوى حياةً بكاملها حقاً . على أنه
 كان لا يحرص حرصاً شديداً على الجانب الجدلى المنطقي من استنتاجه ،
 فان خيال العقل واضطراب النفس وبلاهة الذهن كانت تبدو له نتيجة
 واضحة لتلك « اللحظات العليا » ، فلو أراد أحد أن يشرع فى مناقشة

جادة معه حول هذا الموضوع لرفض المناقشة • لا شك أن استنتاجه، أغنى تقديره لتلك الثانية ، كان يشتمل على خطأ ، ولكن واقعية الاحساس ذاته كانت تفرض نفسها عليه وتقلقه • كيف يمكنه أن لا يقيم وزناً للواقع ، كيف يستطيع أن لا يعبأ بالواقع ؟ ذلك أن ما حدث له قد حدث له حقاً ، في الواقع ؟ ولقد قال لنفسه فعلاً أثناء تلك الثانية ان هذه الثانية بما تحمله اليه من سعادة غير ذات حدود ، يمكن أن تساوى حياة بكاملها . لقد قال ذات يوم لروجين أثناء لقاءتهما بموسكو : « في تلك اللحظة يصبح ما جاء في رؤيا يوحنا مفهوماً عندي ، وهو قوله الحارق : « لن يكون يومئذ زمان » * • وقد أضاف الأمير يقول حينذاك مبتسماً : « لعل هذه اللحظة هي تلك اللحظة نفسها التي لم تتسع لأن ينسكب خلالها على الأرض ماءُ الجرة التي قلبها النبي محمد حين وافته غيبوبته ، لكنه استطاع خلالها أن يرى وأن يتأمل جميع السماوات » •

نعم ، كان يتفق له بموسكو أن يلقى روجوين في أحيان كثيرة ، وكانت تجرى بينهما أحاديث في موضوعات أخرى أيضاً •

« لقد قال لي روجوين منذ قليل انني كنت له بمثابة أخ • ان روجوين يتكلم بهذه اللغة اليوم لأول مرة » • هذا ما خطر ببال الأمير • خطر بباله وهو جالس على دكة تحت شجرة في « حديقة الصيف » • كانت الساعة في نحو الساعة من المساء • الحديقة خالية • وهذه سحابة دكناء تحجب الشمس عند غروبها • الهواء خائق كأنما توشك أن تهب زوبعة • والأمير مرتاح الى حالة التأمل هذه • كان بذكرياته وفكره يتعلق بأى شيء يقع عليه بصره • ان هذا يسرُّه ويرضيه • وكان ما ينفك يشعر برغبة في نسيان شيء ما ، شيء راهن ، شيء أساسي • ولكنه ما ان ينظر حواله حتى تعود اليه الفكرة المحاصرة التي كان يود أن يتخلص منها • لقد تذكر ، في لحظة من اللحظات ، الحديث الذي جرى بينه وبين خادم المطعم

عن جريمة القتل الغريبة كل الفراية ، التي وقعت منذ مدة قصيرة ،
وأثارت كثيراً من الصخب والمناقشات . ولكنه ما كاد يتذكر هذا حتى
حدث له شيء غريب أيضاً .

ان رغبة ذات قوة خارقة لا تقالب ، رغبة توشك ان تكون غواية ،
قد سلبته ارادته . فنهض عن الدكة التي كان جالساً عليها ، وخرج من
الحديقة ، ومضى قدماً نحو الضفة اليمنى . انه منذ قليل ، حين كان على
أرصفة نهر نيفا ، قد سأل أحد المارة عن ذلك الحلي من أحياء بطرسبرج ،
الذي يقع وراء النهر ، فدله الرجل عليه ، لكن الأمير لم يذهب الى ذلك
الحلي حينذاك . ولم يكن يفيد أنه يذهب اليه اليوم على كل حال . لقد
حصل على العنوان منذ مدة طويلة ، وكان سهلاً عليه أن يهتدى الى منزل
قريبة ليديف ، لكنه كان على شبه يقين من أنه لن يجدها في بيتها .
« لا شك أنها سافرت الى بافلوفسك ، والا لكان كوليناً قد ترك كلمة في
فندق « الميزان » ، كما اتفق على ذلك » . فاذا كان يتجه الآن الى منزل
قريبة ليديف ، فانه لا يفعل ذلك من أجل أن يراها . ان هناك شيئاً آخر
يفريه بالذهاب الى هناك ، شيئاً هو فضول مظلم أليم . ان فكرة جديدة
مفاجئة قد ومضت في ذهنه ...

ولكن كان يكفي الآن أن يسير وأن يعرف الى أين هو يسير حتى
يأخذ بمشي من جديد دون أن يلاحظ الى أين هو يسير . وأصبح ينفر
أشد النفرة من الايغال في تحليل «فكرته المبالغته» ، بل لقد أصبح يستحيل
عليه ذلك .

وأخذ ينعم النظر في كل ما يقع عليه بصره ، مركّزاً انتباهه تركيزاً
أليماً ... أخذ ينظر الى السماء والى نهر نيفا . حتى لقد حاول أن يشرع
في حديث مع طفل التقى به . لعل حالته المرضية كانت تتفاقم . ان

العاصفة تقترب ، ولو ببطء . ان رعداً يُسمع منذ الآن في بعيد . وأصبح
الهواء خائفاً جداً .

وبدون سبب من الأسباب ، استيقظت في ذهن الأمير ذكرى ابن
أخت ليديف ، الذى رآه منذ ساعات ، وأخذت تفرض نفسها عليه بغير
انقطاع ، كما تفرض نفسها على المرء جملةً موسيقيةً تحاصره فيظل
يرددّها وقد ضاق بها أشد الضيق . شئ غريب : ان ابن أخت ليديف
يتراءى له الآن بملامح القاتل الذى جاء ليديف نفسه على ذكره حين
عرفه بابن اخته ، والذى كان الأمير قد قرأ قصته منذ مدة قصيرة . كان
الأمير ، منذ وصوله الى روسيا قد قرأ كثيراً وسمع كثيراً عن
أمثال هذه القصص ؛ وكان يتابع هذه المسائل باهتمام شديد واصرار
عند . حتى انه أثناء حديثه مع خادم المطعم قد أظهر اهتماماً قوياً بتلك
الجريمة نفسها التى كانت أسرة جيرامين ضحيتها . وهو يتذكر الآن أن
الخادم فتى ليس بالنبي البتة ، فيه رصانة ووقار ، وفيه روية وتمقل ،
« ولكن الله وحده يعلم ما حقيقته . ان من الصعب على المرء أن ينفذ الى
أعماق أناس جدد فى بلد جديد » . وبدأ الأمير مع ذلك يؤمن بالنفس
الروسية ايماناً قوياً حاراً . ألم يلاحظ ، خلال هذه الأشهر الستة ،
أشياء كثيرة ، جديدةً عليه ، لا عهد له بها من قبل ، ولم تخطر له ببال ،
ولا كان يتوقعها بحال من الأحوال ؟ ولكن نفس الآخر ظلمات ، والنفس
الروسية ظلمات ، ظلمات فوق ظلمات ، أمام كثير من الناس . ها هو ذا
قد ارتبط بروجوين ، منذ مدة طويلة ، ارتباطاً وثيقاً ، ارتباطاً «أخوياً» ،
ولكن هل هو يعرف روجوين ؟ ثم ان هذا كله يشتمل فى بعض الأحيان
على كثير من الغموض والفوضى والاضطراب والاختلاط والصغار ! وابن
أخت ليديف ذاك . . . يا له من فتى دعى دنى كريبه ! « فعلاً » ، بماذا
أسأت اليه ؟ (كذلك تسأل الأمير) أهو الذى قتل أولئك الأشخاص

السنة ؟ يبدو أنتى أخلط ... نىء غريب ! ... انتى أشعر بدوار ...
ولكن ما كان أجمل وألطف محيّا ابنة ليديف الكبرى ... تلك التى
كانت تحمل الطفل فى ذراعيها ! ... وما كان أصغى تعبير وجهها الذى
يكاد يكون وجه طفلة صغيرة ، وما كان أروع ضحكاتها التى تكاد تكون
ضحكة طفلة صغيرة ! « . غريب أن ينسى ذلك الوجه وأن لا يتذكره الا
الآن ! ان ليديف الذى يقرع الأرض بقدميه ليروّعهم ، لعله يحبهم جميعاً
أعظم الحب ، لعلهم يعبدون عبادة . والأمر الثابت الذى لا شك فيه ولا يقل
يقيناً عن أن اثنين واثنين أربعة ، هو أن ليديف يحب ابن اخته كذلك
حباً عظيماً .

ثم كيف أمكنه أن يتولى إصدار حكم مبرم عليهم ، هو الذى وصل
منذ مدة قصيرة ؟ كيف يحق له أن يصدر أحكاماً من هذا النوع ؟ هذا
ليديف نفسه : ألم يظهر اليوم أنه لغز ، أنه مشكلة ؟ هل كان يتوقع أن
يجد ليديف هكذا ؟ هل عرفه حتى اليوم فى هذه الصورة ؟ ليديف
وكوتيسة بارى ... رباه ! اذا قتل روجوين ، فانه لن يقتل على هذا
النحو المشوش على الأقل . لن يكون هناك فوضى كهذه الفوضى . سلاح
يطلب صنعه وفقاً لرسم معيّن ، وستة أشخاص يُذبّحون دفعة واحدة *
فى نوبة هذيان وجنون ! لا ، ان روجوين لا يطلب صنع سلاح وفقاً
لرسم معيّن ... ولكن هل ثابتٌ اذن أن روجوين سيقتل ؟ ارتضى
الأمير ، وهتف يخاطب نفسه وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة من الشعور
بالحجل والعار : « أليست جريمةً ، أليست حيلةً منى أن افترض هذا
الافتراض بمنثل هذه الصراحة السفهية ؟ » .

وتسمّر فى مكانه مذهولاً . لقد تذكر فجأةً محطة بافلوفسك التى
كان فيها منذ حين ، ومحطة نيقولا ، والسؤال المباشر الذى ألقاه على
روجوين عن « النظرة » ، و صليب روجوين الذى يحمله هو الآن معلّقاً

بعنفه ، ومباركة أم روجوين التي قاده اليها روجوين من تلقاء نفسه ،
والمعاقبة التشنجية الأخيرة ، وتنازل روجوين له عن حييته تنازلاً نهائياً
أعلنه روجوين منذ قليل وهو على سلم البيت . وبعد ذلك كله يفاجئ
نفسه باحثاً بحثاً متصلاً عن شيء ما حوله وتلك الدكان . . . وذلك
الشيء المعروض في الواجهة الزجاجية ، الذي قدّر له ثمناً هو ستون
كوبكاً يا للحطة والصغار ! وها هو ذا الآن يسير الى « هدف
خاص » تدفعه اليه تلك « الفكرة المباحثة » . كان الكمد والألم قد استوليا
على نفسه استيلاءً تاماً . وأراد الأمير أن يعود الى الفندق رأساً . حتى
لقد استدار وأخذ يمشي في اتجاه الفندق ، لكنه لم يلبث أن وقف بعد
دقيقة واحدة ، ففكّر وعاد يسير في اتجاهه الأول .

وكان قد بلغ الضفة اليمنى وأصبح غير بعيد من المنزل . قال لنفسه
مبرراً : لا شك أنه لا يذهب الآن الى هناك لتحقيق ذلك الغرض نفسه ،
ولا من أجل تلك « الفكرة الخاصة » ذاتها . كيف أمكن أن يخطر بباله
هذا ؟ نعم ، لقد عاوده مرضه ، ذلك أمر لا ريب فيه : ولعله نوبة
ستوافيه في هذا اليوم نفسه . فمن اقتراب النوبة انما تنشأ هذه الظلمات
جميعها ، والنوبة هي التي حملت اليه تلك « الفكرة » . ولكن الظلمات
تبددت ، والشیطان ولى هارباً ، ولم يبق هنالك شكوك ان قلبه يفيض
الآن فرحاً ! وانه منذ زمن طويل لم يرها « هي » ، وهو في حاجة الى أن
يرaha ، و نعم انه يودّ لو يرى روجوين . فلو رآه لأمسك
يده وذها اليها معاً . ان قلبه طاهر نقى أهو منافس لروجوين ؟
ليذهبن الى روجوين منذ الغد ليقول له انه رآها . ألم يهرع الى هنا ،
كما قال ذلك روجوين منذ قليل ، لسبب واحد هو أنه يريد أن يراها ؟
لعله سيجدها مع ذلك في بيتها ، فهو ليس متأكداً من أنها سافرت الى
بافلوفسك .

نعم ، ينبغي الآن توضيح كل شيء ، حتى يستطيع هؤلاء وأولئك من الناس أن يقرأ بعضهم ما في قلوب بعض غير التباس أو اشتباه . فلا يكون بعد اليوم تنازلات ظلماء محموعة كتنازل روجويين ، بل أفعال يقلها المرء بحرية ووضوح . هل يعجز روجويين عن تحمل الوضوح ؟ لقد ادعى أنه يجب هذه المرأة حباً لا يشتمل لا على عطف ولا على شفقة أو رافة . صحيح أنه أضاف الى ذلك قوله : « لعل شفقتك أكبر من حبي » . ولكنه قد تقول على نفسه . هم ! . . . أن يأخذ روجويين في قراءة كتاب ، أليس هذا وحده فعلاً يشتمل على عطف أو على بداية عطف ؟ أليس وجود هذا الكتاب بين يديه دليلاً على أنه أدرك ادراكاً كاملاً ما يجب أن يكون عليه موقفه ازاء هذه المرأة ؟ لا ، ان في نفسه شيئاً أعمق من الوله . « وهل وجه هذه المرأة لا يوقظ في النفس الا الوله ؟ وهل يمكن أن يوقظ وجهها ولها في هذه الآونة ؟ ان وجهها لا يأسر النفس كلها الا بالألم والعذاب اللذين يعبر عنهما ، انه . . . » .

هنا أحس الأمير بذكرى كاوية أليمة تلسع قلبه . نعم ، ذكرى أليمة . تذكر العذاب الذي سبق أن عاناه حين لاحظ فيها علائم جنون لأول مرة . ان ذلك الاكتشاف قد رماه في هوة اليأس حينذاك . كيف أمكنه أن يتركها حين هربت منه الى روجويين ؟ كان ينبغي له أن يندفع في ملاحقتها ومطاربتها بدلاً من أن ينتظر أنباءها وأخبارها .

ولكن . . . هل يمكن أن لا يكون روجويين قد لاحظ أعراض جنونها حتى الآن ؟ « هم ! . . . ان روجويين ينسب كل ما تفعله الى دوافع أخرى هي دوافع الهوى ! ان غيرته خطأ وضلال . ماذا أراد أن يقول بافتراضه ذاك الذي أفصح عنه منذ قليل ؟ ، (واحمر الأمير فجأة وأحس في قلبه بما يشبه أن يكون ارتجافاً) .

ولكن ما الفائدة المودة الى هذه الذكريات ؟ ان هناك جنوناً في الطرفين

كليهما • أما فيما يتعلق به هو ، فقد كان الأمير يرى أن من غير المعقول أن يحب الانسان هذه المرأة حباً غرام ، بل لقد كان يرى أن ذلك أمر قاس وغير انساني • قال الأمير يحدث نفسه : « نعم ، ان روجويين قد تقول على نفسه ظالماً • ان له قلباً يزخر بالمعاطفة ، وهو قادر على أن يتألم وعلى أن يشعر بالشفقة • وحين سيعرف الحقيقة كلها ، حين سيقتنع بأن هذه المرأة مخلوقة بائسة مختلة العقل شبه مجنونة ، فلن يسهه الا أن يفر لها كل الماضي ، وكل آلامها • ولسوف يصبح لها عندئذ خادماً وأخاً وصديقاً ومعيناً • سوف يردُّه العطف الى الطريق القويم ، وسوف تكون هي له تعليمًا من التعاليم ، لأنها القانون الأساسي وربما القانون الوحيد الذي يحكم الوجود الانساني » • ما أشد ندم الأمير الآن على السلوك الذي سلكه مع روجويين ، وهو في نظره سلوك غير شريف ، سلوك لا يُغتفر • لا ، ليست النفس الروسية هي الظلمات ، ليست هي اللغز ، وانما اللغز نفسه هو ، لأنه أمكن أن يتخيل تلك الشناعة • ان روجويين قد وصفه بأنه أخ ، لا لشيء غير بضع كلمات فيها حرارة ومودة قالها له بموسكو ، فما باله هو ... ولكن ذلك كله لم يكن الا مرضاً ، لم يكن الا هذياناً ... سوف ينقضي كل هذا • ما أغرب تلك الهيئة المتجهمة الذي بدت على روجويين حين قال له منذ قليل انه « بسيل فقد ايمانه » ! لا بد أن الرجل يعاني ألماً رهيباً • هو يدعى أنه « يحب أن ينظر الى لوحة هولباين » : ليست المسألة أنه يحب أن ينظر اليها ، بل المسألة أنه يشعر بحاجة الى ذلك • ان روجويين ليس ذا طبيعة ملتهبة فحسب ، بل هو كذلك ذو مزاج مناضل : انه يريد استرداد الايمان الذي فقده ، يريد استرداده بأي ثمن ، مهما يكلفه ذلك من غناء • انه يشعر الآن بضرورة ذلك ، وهو من هذا في ألم شديد ... نعم ، الايمان بشيء ، الايمان بأحد ! ولكن ما أغرب تلك اللوحة ، لوحة هولباين ! ... آ ... هذا هو

الشارع ، وربما هذا هو المنزل الذى أبحث عنه ... نعم ، هذا هو المنزل :
رقم ١٦ ، « دار زوجة الموظف فليسوف » • هذه هى الدار •

قرع الجرس ، وطلب ناستاسيا فيليوفا •

فأجابته صاحبة الدار بنفسها قائلة ان ناستاسيا فيليوفا قد سافرت منذ
الصباح الى بافلوفسك ، وانها نزلت ضيفاً على داريا ألكسييفا ، « وانها قد
تمكث عندها بضعة أيام » • ان السيدة فليسوفا امرأة قصيرة فى نحو
الأربعين من العمر ، مديبة الوجه حادة العينين ، لها نظرة ماكرة فاحصة •
سألت الزائر عن اسمه وقد لاح فى وجهها شيء من معنى السر • فأراد
الأمير فى أول الأمر أن لا يجيب عن سؤالها ، لكنه ما لبث أن عدل عن
رأيه ، فعاد ليرجوها ملحاً أن تنقل اسمه الى ناستاسيا فيليوفا • فسجلت
السيدة هذه التوصية بكثير من العناية والاهتمام ، مصطنعة لهجة خاصة
هى لهجة المسارّة فكانها تريد أن تقول : « لا تخف • لقد فهمت ! » •
يظهر أن اسم الزائر قد أحدث فى نفسها أثراً قوياً • ألقى الأمير عليها
نظرة ذاهلة ، واستدار على عقبيه ، وعاد يسير فى الطريق المؤدى الى
فندقه • لكن حالته الآن لا تشبه الحالة التى كان عليها حين قرع جرس
باب السيدة فليسوفا • لقد تغير مظهره كله فى طرفة عين : فهو الآن يسير
شاحب الهيئة ، واهن العزم ، معذب النفس ، قلقاً مضطرباً ؛ ركبته
ترنحان ، ابتسامة حائرة زائفة تلمّ بشفتيه المرزقين : ان « فكرته
المباغثة » قد جاء الآن ما يؤكد ما ويررها • وأحسّ الأمير مرةً أخرى
أن الشيطان استلمه • فما الذى حدث فأكد فكرته وبرّرها ؟ لماذا يعتريه
مرةً أخرى هذا الارتجاف ، وهذا العرق البارد ، وهذه الظلمات الكثيفة
فى النفس ؟ لأنه رأى « تينك العينين » من جديد ؟ ولكن ألم يعتمد أن
يترك « حديقة الصيف » لفرض واحد هو أن يراها ؟ تلك كانت
« فكرته المباغثة » • لقد شعر برغبة قوية غيفة فى أن يرى « تينك

العنين « اللتين رآهما منذ قليل ليقتنع اقتناعاً نهائياً بأنه سيجهدهما لا محالة « هناك » ، قرب تلك الدار . فإذا كان قد رغب في رؤيتهما تلك، الرغبة القوية الحارة كلها ، فلماذا أُرهِق هذا الارهاق كله واضطرب ذلك الاضطراب كله حين رآهما ، كأنه أمام حادث لم يكن في حسبانهِ ؟ نعم ، انهما نفس « تينك العنين » (لا مجال للشك في هذا الآن) اللتين رشقتهما بنيرانهما صباحاً في محطة بقولا * وسط الجمهور حين نزل من القطار . وهما نفس تينك العنين (تماماً) اللتين شعر بثقلهما على كفيه ، بعد الظهر ، في منزل روجويين ، حين كان يهيمُ أن يجلس . لقد أنكر روجويين ذلك . حتى لقد سأل وهو يتنسم ابتسامة متقلصة باردة كالصقيع : « هما عينا من ؟ » . وهاتان العنان نفسيهما ، رآهما الأمير مرةً أخرى ، مرةً ثالثة في ذلك اليوم نفسه ، قبل برهة قصيرة ، في محطة خط تسارسكوى * ، عندما همَّ أن يركب القطار مسافراً لرؤية آجلایا . لقد راودته عندئذ رغبة محمومة مسهورة في أن يقترب من روجويين وأن يقول له « هما عينا من ؟ » . ولكنه خرج من المحطة مسرعاً ، ثم لم ينب الى وعيه الا أمام دكان بائع سكاكين ، فقدّر لشيء رآه في الواجهة الزجاجية، شيء له نصاب من قرن الوعل ، قدّر له ثمنه هو ستون كوبكاً .

ان شيطاناً عجيباً رهيباً قد استولى عليه استيلاء نهائياً ، وأصبح لا يريد أن يتركه . فذلك الشيطان هو الذي أوحى اليه أثناء تأمله جالساً تحت شجرة زيزفون في « حديقة الصيف » ، أن روجويين يلاحق كل خطوة من خطواته منذ الصباح ، حتى اذا عرف أن الأمير لن يسافر الى بافلوفسك (وهذا وحده نبأ رهيب عنده) قرّر أن يذهب « الى هناك » ، الى حي بطرسبرج القديمة ، ليقرب فيما حول الدار وحول ذلك الرجل الذي عاهده في ذلك اليوم نفسه « على أن لا يزورها » ، وقال له « انه لم ييجيء الى بطرسبرج لهذا الغرض » .

حينئذ هرع الأمير الى تلك الدار باندفاعه مباغتة • فأية غرابة اذن
فى أن يلقى هنالك روجوين ؟ انه لم ير الا رجلاً شقياً بائساً تعذبه
خواطر مظلمة لكنها مفهومة • ثم ان ذلك الرجل السىء الحظ لم يحاول
حتى أن يخبى • نعم ، لا شك أن روجوين قد كذب حين أنكر أثناء
الحديث الذى جرى بينهما بعد الظهر • لكنه فى محطة تسارسكوى قد
ظهر دون اختباء تقريباً • واذا كان قد اختبأ أحد فان الأمير هو الذى اختبأ
لا روجوين الذى يقف الآن قرب الدار • لقد وقف روجوين منتظراً
على الرصيف المقابل ، على مسافة خمسين متراً ، عاقداً ذراعيه فوق صدره •
واضح أنه لا يحاول الاختباء ، حتى لكأنه يرغب فى أن يُرى • ان موقفه
هو موقف المتهم ، هو موقف القاضى ، لا موقف ال • • • موقف من
فعلاً ؟

ولكن الأمير ، بدلاً من أن يقترب منه ، مضى مبتعداً كأنه لم يلمحه ،
مع أن أعينهم قد التقت ، فلماذا ؟ (نعم ، لقد التقت أعينهم ، وتبادلا
نظرة) • ألم يكن ينوى قبل ذلك هو نفسه أن يمسك يده وأن يذهب
« الى هناك » فى صحبته ؟ ألم يكن ينوى أن يمر به فى الغد ليقول له انه
ذهب اليها ؟ ومنذ قليل ، فى منتصف طريقه الى الدار ، ألم يتحرر من
من شيطانه حين غمرت نفسه فرحة مفاجئة ؟ أم تُرى كان فى
شخص روجوين أو قل فى الوضع العام لهذا الرجل ، « طوال ذلك
اليوم » ، أى فى مجموع أقواله وحركاته وأفعاله ونظراته ، شىء يمكن أن
يرد توجسات الأمير الرهيبة وإحياءات شيطانه المثيرة ؟

ذلك كله كان يشتمل على ملاحظات تخطف البصر ، ولكن يصعب
تحليلها وترتيبها ، ويستحيل كذلك أن يُنسب اليها أساس منطقي • ومع
ذلك ، رغم هذه الصعوبة ، ورغم هذه الاستحالة ، كانت تحدث انطباعات

اجمالياً لا يمكن التخلص منه ، انطباعاً يتحول من تلقاء نفسه الى اقتناع مطلق .

اقتناع ، ولكن بماذا ؟ آه ... لشد ما كان السخف المجيب و « الدناءة المنحطة في هذا الاقتناع » والصغار الشديد في « هذا التوجس » ، لشد ما كان هذا كله يعذب الأمير ؛ وما أعنف اللوم والتفريع اللذين كان الأمير يأخذ بهما نفسه لهذا كله ! كان الأمير يقول لنفسه مكرراً معنفاً بلهجة الاتهام والتحدى : « أفصح عن ذلك الاقتناع بصراحة على الأقل ، ان كنت تجرؤ ! عبّر عن فكرتك بوضوح ، بدقة ، بغير موارد ومداورة ! أوه ! أنا انسان غير مستقيم ، غير شريف ! (هذا ما كان يضيفه وقد اعترته نوبة استياء تخضب وجهه بحمرة شديدة) . بأى عين سأجرؤ أن أرى هذا الرجل بعد الآن طوال حياتي ؟ آه ... يا لهذا اليوم ! يا رب ! ما هذا الكابوس الثقيل ! ... »

وفي ختام هذه المودة الطويلة الشاقة من حى بطرسبرج القديمة ، جاءت دقيقة استبدت بالأمير خلالها رغبة قوية لا تقاوم فى أن يذهب الى روجوين فوراً ، وأن يعاقبه ساكباً دموع الندامة ، وأن يقول له كل شئ ، فيفرغ من هذه القضية دفعة واحدة . ولكنه كان قد وصل الى الفندق . ان الفندق ، والمرات التى فيه ، والغرفة التى نزلها الأمير ، والمبنى نفسه ، ان ذلك كله كان قد أثار انزعاج الأمير الى أقصى حد ، منذ أول وهلة . وقد شعر عدة مرات خلال ذلك النهار بنفور خاص واشمئزاز شديد حين كان يتصور أن عليه أن يعود الى ذلك الفندق . وها هو ذا الأمير يقول مخاطباً نفسه : « ولكن ماذا أصابنى ؟ اننى أشبه امرأة مريضة ... فأنا أو من اليوم بجميع أنواع التوجسات ومشاعر التنبؤ ! » . قال الأمير ذلك لنفسه بلهجة فيها غضب وسخرية . وحين وافته هذه الفكرة ، توقف أمام الباب الكبير . ان حادثاً واحداً من بين جميع أحداث النهار

يحتكر في هذه اللحظة فكره ، لكن الأمير يواجهه الآن « بهدوء وبرود » ،
« مالكاً كامل عقله » ، « لا من خلال كابوس ثقيل » . لقد تذكر السكين
التي كانت على مائدة روجوين . وها هو ذا يتساءل مستغرباً فكرته نفسها :
« ولكن أى غرابية فى أن يكون على مائدة روجوين ما يشاء من
سكاكين ؟ » . وتضاعف استغرابه حين تذكر ، على حين فجأة ، توقفه بعد
الظهر أمام دكان بائع السكاكين . وها هو ذا يهتف قائلاً : « ولكن !
عجيب ! .. أية علاقة يمكن أن تكون بين .. » . ولم يكمل جملة . ان
نوبة جديدة من الشعور بالحجل والحزى ، بل ومن الشعور بالكمد والبأس
تقريباً ، قد سمرته فى مكان أمام الباب . ولبت جامداً برهة من الوقت
لا يتحرك . انها لظاهرة تحدث كثيراً ، أن تستيقظ فى ذهن المرء ذكرى
لا تطاق ، ذكرى رهيبة ، فاذا هى تشلّه عن الحركة بضع نوان . قال
الأمير يكرر لنفسه متجهم الوجه مظلم الهيئة : « نعم ، أنا انسان بلا قلب ،
أنا رجل جبان ! » ، وتحرك الى أمام ليدخل ، ولكنه ... توقف من
جديد .

ان مدخل الفندق ، وهو فى العادة قليل الضوء ، كان عندئذ مظلماً
ظلاماً حالكاً ، بسبب اقتراب هبوب العاصفة التى أعتمت نهاية ذلك النهار .
وقد هبت العاصفة فى اللحظة التى عاد فيها الأمير ، وأخذت تهطل أمطار
غزيرة كالسيول . فلما همّ الأمير أن يدخل بعد وقفة قصيرة عند عتبة
الباب الخارجية ، لمح فى الداخل على حين فجأة ، رجلاً واقفاً فى الظلام
على أول السلم . كان يبدو على هذا الرجل أنه ينتظر شيئاً ، لكنه سرعان
ما غاب فى مثل لمح البصر سرعة . واذا لم يميّز الأمير قسماً وجهه ،
فانه لا يستطيع أن يقول جازماً من هو على وجه الدقة لا سيما وأن ناساً
كثيرين يمرون هناك ، ففى كل فندق حركة لا تنقطع ، والناس بين داخل
وخارج وسائر فى الممرات . غير أن الأمير قد اقتنع على الفور اقتناعاً تاماً

لا يتزعزع بأنه قد تعرّف ذلك الرجل وأن ذلك الرجل لا يمكن أن يكون أحداً آخر غير روجوين . وها هو ذا يسرع مقتفياً أثره مطارداً خطاه على السلم . انه يحطم القلب . وقال لنفسه واقفاً : « سينضح الآن كل شيء ! » . ان السلم الذى اندفع فيه الأمير يفضى الى ممرات الطابق الأول والطابق الثانى . انه سلم من حجر ، كسلالم جميع المباني القديمة ، وهو مظلم ضيق ، يصعد ملتفّاً حول عمود ضخّم . وقد جعلت فى هذا العمود عند الفسحة الأولى فجوة لا يزيد طولها عن قدم ولا يزيد عرضها عن نصف قدم عمقاً ، فيستطيع رجل أن يقف فيها . فلما وصل الأمير الى هذه الفسحة لاحظ على الفور ، رغم الظلام ، أن أحداً كان مخبئاً فى الفجوة ، فأراد فى أول الأمر أن لا يكثر بالأمر وأن يتخطى الفسحة دون أن ينظر الى يمين . ولكنه لم يكد يتقدم خطوة واحدة حتى أصبح لا يستطيع أن يسيطر على نفسه فالتفت .

عندئذ التفت بعينه العيان اللتان التقتا بهما بعد الظهر ، « العيان نفسها » ، التقتا بعينه فجأة . ان الرجل الذى كان مخبئاً فى الفجوة قد تقدم خطوة ليخرج منها . وبقي الرجلان واقفين وجهاً الى وجه ، متلامسين تقريباً ، خلال ثاية . ثم أمسك الأمير الرجل من كفيه وجره فى السلم نحو الضوء ليتفرس فيه مزيداً من التفرس .

سلطت عينا روجوين ، وتقلصت شفتاه بابتسامة خنق . ورفع يده اليمنى التى كانت تشهر أداة من الأدوات . لم يخطر ببال الأمير أن يصدّه . ولكن الأمير تذكر ، فيما بعد ، أنه صرخ يقول :
- روجوين ! لا أصدق هذا !

لقد بدا للأمير عندئذ أن شيئاً ما يفتر أمامه على حين فجأة . ان ضياء «داخلياً» ذا سطوع خارق قد أثار نفسه . لعل الأمر لم يدم الا نصف ثاية . ولكن الأمير احتفظ بذكرى واضحة واعية عن النبذة الأولى

للصرخة الفظيعة التي انطلقت من صدره والتي تعجز جميع قواه عن
كبحها • ثم انطلقاً شعوره في لحظة ، وغاب في الظلمات •

لقد اعترته نوبة صرع ، وذلك أمر لم يحدث له منذ زمن طويل
جداً • تعلمون أن هذه النوبات تبغت المريض مباغتةً ، فيتشوه عندئذ
وجهه وتشوه نظراته تشوهاً سريعاً لا يُصدّق • ان تشنجات وتقبضات
تقلّص جسمه كله وقسمات وجهه جميعها • وان أنات رهيبية لا يتصورها
الخيال ولا يمكن أن تشبّه بشيء • تخرج عندئذ من صدره • هي أنات
ليس فيها ما يذكّر بالإنسان ؛ ويصعب بل ويستحيل أن يتخيّل المرء حين
يسمعا أن هذا المسكين هو الذي يطلقها ، وانما يسيل به الظن الى الاعتقاد
بأنها صادرة عن كائن آخر مخبئ في داخل المريض • هذا ، على الأقل ،
ما يقوله كثير من الأشخاص حين يريدون أن يصفوا شعورهم ازاء تلك
الأنات • ان منظر المريض الذي اعترته نوبة الصرع يحدث في نفوس
كثير من الناس رعباً لا سبيل الى مغالته •

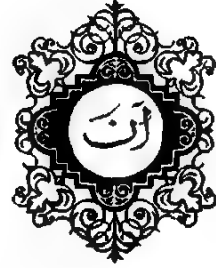
لعل روجوبين قد شعر بمثل ذلك الرعب المفاجيء • ولعل هذا
الرعب المفاجيء حين أضيف الى انفعالات أخرى هو الذي جمّده في
مكانه فأخذ الأمير من طعنة السكين الذي كانت ستقتله لا محالة • لم يتسع
وقت روجوبين لأن يدرك النوبة التي جندلت خصمه • ولكنه حين رأى
خصمه يترنج ويسقط منقلباً على السلم فجأة ، مصطلياً بنقرته على إحدى
الدرجات ، أسرع يهبط الدرجات أربعاً أربعاً ، متحاشياً الجسم المتمدّد ،
وولى هارباً من الفندق كالمجنون •

وكان من شأن التشنجات والتقبضات أن دحرجت الجسم درجةً
درجة (وكان عدد الدرجات لا يزيد على خمس عشرة) حتى أسفل
السلم • ولم تمض خمس دقائق حتى اكتُشف فاحتشد الناس من حوله •

وكانت بركة من الدم تحيط برأسه فأثار ذلك شكوكاً وشبهات : أحادية طارئة أم جريمة مقترفة ؟ غير أن عدداً من الأشخاص لم يلبثوا أن أدركوا أن الأمر أمر نوبة صرع . وتعرف خادم الفندق الأمير ، فقال انه نزول من نزلاء الفندق قدم في هذا الصباح . ثم تبددت الشكوك والتشبهات تبداً تاماً بفضل مصادفة سعيدة جاءت في أوانها .

ان كوليا ايفولجين الذى كان قد وعد بأن يأتى الى فندق «الميزان» قبل الساعة الرابعة ثم عدل عن رأيه فسافر الى بافلوفسك ، قد رفض ، لسبب لم يكن فى الحسبان ، أن يتقذى عند الجترالة ايباتشين ؟ وعاد الى بطرسبرج ، وأسرع الى « فندق الميزان » فوصله فى الساعة السابعة من المساء . فلما وجد الرسالة التى تبلغه أن الأمير بالمدينة ، هرع الى العنوان المشار اليه فى الرسالة . فقبل له فى الفندق ان الأمير قد خرج . فنزل الى قاعة الطعام ينتظره . وهو يحتسى الشاي ويصفى الى أنغام الأرغن الآلى . وشامت المصادفة أن يسمع أناساً يتحدثون عن رجل سقط على السلم فى نوبة صرع ، فأوجس بما يشبه النبوءة أن الرجل قد يكون هو الأمير ، فأسرع الى مكان الحادث فتعرف الأمير فعلاً . وسرعان ما اتخذت الاجراءات اللازمة فأُصعد الأمير الى غرفته . وقد تاب الى الأمير بعض شعوره ، لكنه لم يسترد وعيه كاملاً الا بعد مدة طويلة . وقال الطبيب الذى استدعى لفحص جروح الرأس ان الاصابات بسيطة ليس فيها خطر، ونصح للرضوض بكمدات . وبعد ساعة من الزمن كان الأمير قد عاد يعي كل ما يحيط به وعياً كاملاً . وعندئذ نقله كوليا بالعربة من الفندق الى دار ليديف . فاستقبله استقبالاً فيه كثير من الاهتمام والرعاية والاحترام . حتى لقد قدّم فى سيّله موعد السفر الى الريف ، فبعد ثلاثة أيام كان الجميع فى بافلوفسك .

الفصل السادس



منزل ليديف فى الريف فيلا صغيرة لكنها مريحة بل جميلة • والجزء المهدى للتأجير منها قد أولى تزيينه عناية خاصة • ففى الشرفة الواسعة المطلّة على الشارع عند مدخل الدار وضعت أحواض كبيرة من خشب مدهون باللون الأخضر ، فيها شجيرات برتقال وليمون وباسمين صفّت صفّاً لا بد أن يكون له أجمل الأثر ، فى تقدير ليديف وفى حسابه • ان عدداً من هذه الشجيرات قد اشترى مع العقار نفسه ؛ وبلغ ليديف من اعجابه وافتانه باصطفافها على الشرفة أنه انتهز فرصة بيع بالمزاد فاشترى عدداً آخر من نوعها ؛ فلمّا نقلت الشجيرات كلها الى الفيلا ووضعت فى مكانها ، أصبح ليديف يهبط درجات الشرفة عدة مرات كلّ يوم ليتأمل منظرها من الشارع ، حاسباً فى كل مرة الزيادة التى سيطلبها من المستأجر •

أعجب الأمير بالفيلا كثيراً ، وكان ما يزال واهن الجسم ، خائر القوة ، محطّم البدن • الواقع أنه منذ وصوله الى بافلوفسك ، أى فى اليوم الثالث الذى انقضى على نوبة الصرع ، كان قد استردّ مظهر الصحة والعافية ، ولكنه لمّا يشعر بأنه أبلّ ابلاّ تلمّاً • وقد أسعده أن يرى من حوله ناساً خلال تلك الأيام الثلاثة : كوليّا الذى لا يكاد يتركه ، وأسرة ليديف (باستثناء ابن الأخت الذى رحل لا يدرى أحد الى أين) ،

وليديف نفسه • حتى لقد سرَّ أن زاره الجنرال ايفولجين ببطرسبرج قبل سفره •

وفى ذلك المساء الذى وصل فيه الى بافلوفسك ، اجتمع حوله على الشرفة عدد من معارفه ، رغم أن الوقت متأخر : جاء جانبا أول من جاموا ، فلم يكذ يتعرفه الأمير من شدة تغيّره وفرط نحوله وهزاله ؛ ثم جاءت فاريا ومعها بتسين ، وكانا يصطافان فى بافلوفسك أيضاً • وكان الجنرال ايفولجين يلبث عند ليديف طول الوقت تقريباً ، وكأنه انتقل معه ، وكان ليديف يبذل قصاره لبقية بقربه ولينمنه من مقاربة الأمير • وكان يعامله معاملة الصديق للصديق ، وكان يبدو على الرجلين كليهما أنهما صديقان منذ عهد بعيد • وقد رآهما الأمير عدة مرات فى أثناء تلك الأيام الثلاثة يندفعان فى محادثات طويلة ، فكانا يصيحان حتى يبدو عليهما أنهما يتناقشان فى مسائل علمية ، وذلك أمر كان واضحاً أنه يلقي هوى فى نفس ليديف • فمن رآهما قال ان ليديف أصبح لا يستطيع الاستغناء عن الجنرال •

وكان ليديف يتخذ هذه الاحتياطات ازاء أسرته أيضاً ، مدارةً للأمير ومراعاةً له ، منذ أقامتهم فى الفيلا • فكان بحجة عدم ازعاج الأمير لا يدع لأحد أن يدنو منه ، فمتى أظهر أولاده أنهم ماضون الى الشرفة التى يجلس فيها الأمير ، قرع الأرض بقدمه وركض وراءهم ، رغم أن الأمير قد رجا أن لا يبعدوا عنه • وكانت فيرا نفسها ، التى تحمل الطفل بذراعيها ، لا تنجو من حركاته هذه ، وكان يردُّ على اعتراضات الأمير قائلاً :

— ان رفع التكليف هذا لا بد أن يؤدى الى قلة الاحترام ، اذا نحن أجزناه • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان ذلك يكون من جانبهم مجافاةً للباقة واللباسة ...

فكان الأمير يعترض قائلاً :

— لماذا ؟ أؤكد لك أن رقابتك وقسوتك لا تزيدان على أن تحزناني .
قلت لك مراراً اتنى أشعر بسأم وضجر من الوحدة ، وانك تضعف
هواجسى ومخاوفى حين أراك ما تنفك تحرك يديك بإشارات وإيماءات ،
وتسير على رموس الأصابع .

كان الأمير يلمع بذلك الى العادة التى ألفها ليديف خلال هذه
الأيام الثلاثة وهى أن يدخل عليه فى كل لحظة ، فيطرد جلساءه بحجة
توفير الهدوء والسكينة للمريض . كان ليديف يبدأ بأن يشق الباب ، فيدخل
منه رأسه ، ويتفحص الفرفة كأنما ليتحقق من وجود الأمير فيها ، ومن
أنه لم يهرب ؟ ثم يدنو من المقعد خلسةً على رموس الأصابع ، فيروّع
الأمير أحياناً بظهوره المفاجئ غير المتوقع ، ويسأله بغتة أهو فى حاجة الى
شئ ؟ فإذا رجاه الأمير أخيراً أن يدعه وشأنه خرج طائعاً دون أن يقول
كلمة واحدة ، سائراً على رموس الأصابع أيضاً ، محرّكاً يديه بإشارات
 وإيماءات كذلك ، كأنما ليوهم بأنه لم يدخل الا عابراً ، وأنه لم يبق ثمة
ما يضيفه ، وأنه خارج ولن يعود . ولكن ذلك لا يمنعه من أن يظهر
مرةً أخرى بعد ربع ساعة ، ان لم يكن بعد عشر دقائق .

وكان كوليا الذى يجوز له أن يلقي الأمير فى كل لحظة بغير حظر
وأن يبقى معه ما شاء أن يبقى ، يثير غيرة ليديف الذى كان هذا التفضيل
يغضبه ويحنقه الى أبعد الحدود . وقد لاحظ كوليا أن ليديف كان يقف
وراء الباب فى بعض الأحيان نصف ساعة يتجسس على حديثه مع الأمير ،
ولم يغب عن بال كوليا طبعاً أن ينبه الأمير الى ذلك .

قال الأمير يحتج على ليديف :

— انك تحجر على كأنك ولى أمرى . وأنا أفهم أن يكون الأمر

على غير هذه الحال ، على الأقل هنا فى الريف • فاعلم أنتى سأستقبل من أريد استقباله ، وانتى سأذهب الى حيث يحلو لى أن أذهب •

فأجابه ليديف محرّكاً ذراعيه :

- طبعاً ، بدون أدنى شك !

فنظر اليه الأمير من الرأس الى القدمين •

- قل لى يا لوكيان تيموفتش : هل نقلت الى هنا الخزانة الصغيرة التى كانت عندك فى بطرسبرج ، فوق سريرك ؟

- لا ، لم أنقلها !

- كيف ؟ أتركها هناك ؟

- لا سبيل الى نقلها • فلو أردت نقلها لوجب انتزاعها من الجدار •

انها مثبتة فى الجدار تثبيتاً قوياً متيناً •

- قد يكون ثمة خزانة مثلها هنا ؟

- نعم ، بل ثمة خزانة أفضل منها • وهذا أحد الأسباب التى دفعتنى

الى شراء هذه الفيلا •

- آآآ ومن هو ذلك الشخص الذى حجبت عنه الوصول الى

غرفتى منذ ساعة ؟

- هو آآآ هو الجنرال • نعم ، صحيح ، لم أسمح له أن يدخل •

ليس هذا المكان مكانه • يا أمير ، انتى احترم هذا الرجل احتراماً عميقاً •

انه آآآ انه رجل عظيم ، ألا تصدقنى ؟ طيب آآآ لسوف ترى ! آآآ ومع

ذلك فان الأفضل يا سمو الأمير أن لا تستقبله فى بيتك •

- هلاً سمحت لى أن أسألك لماذا يجب أن لا أستقبله فى بيتى ؟

ولماذا أراك الآن ، يا ليديف ، تقف على رموس الأصابع وتظل تدنو منى

دنواً من يريد أن يفضى الى بسرهمساً فى الأذن ؟

أجاب ليديف فجأة ، وهو يلطم صدره يده ، قائلاً بلهجة مؤثرة :
- من حظتي وصغاري ! انتى أحس ذلك . هذا حطة وصغار !
ولكن ألا يمكن أن يكون الجنرال مضيفاً الى حد الغلو ، بالنسبة اليك ؟
- مضيفاً الى حد الغلو ؟ ماذا تريد أن تقول بهذا الكلام ؟

- نعم ، مضيفاً الى حد الغلو ! هو أولاً يهين نفسه لأن يستقر فى منزلى ساكناً مقيماً . هبنا قبلنا هذا على كل حال . ولكن المهم أنه لا يشعر بحرج ، فسرعان ما يحشر نفسه فى الأسرة . لقد سبق أن درسنا معاً روابط القرابة التى تجمعنا ، فلاحظنا أننا أقرباء بالمصاهرة . وأنت أيضاً تمت اليه بقربى من جهة أمك . شرح لى ذلك أمس . فاذا كنت أنت قريبه ، فتحن اذن قريبان يا سمو الأمير . على كل حال ، هذه مسألة بسيطة . . . لا تمدو أن تكون نقطة ضعف يسيرة فى الجنرال وليس لها نتائج ذات بال . لكنه قد أكد لى قبل لحظة أنه طوال حياته ، منذ حصل على رتبة مرشح الى اليوم الحادى عشر من شهر حزيران (يونيه) من العام الماضى ، لم يقل عدد الضيوف فى بيته كل يوم عن مائتى شخص ، فالمائدة لا تخلو فى لحظة فى اللحظات : فمن افطار الى غداء الى شاي الى عشاء خلال خمس عشرة ساعة متصلة غير منقطعة . وقد قال ان هذه الحال دامت ثلاثين عاماً بلا انقطاع ، فلا يكاد يتسع الوقت أثناء ذلك لتجديد غطاء المائدة ؟ وما ان ينهض ضيف لينصرف حتى يجيء ضيف آخر فيحل محله . وفى أيام الأعياد ، ولا سيما أعياد الأسرة الامبراطورية ، كان عدد ضيوف الجنرال يبلغ ثلاثمائة . وقد بلغ عددهم سبعمائة عند الاحتفال بالذكرى الألفية لروسيا * . شئ رهيب . ان قصة كهذه القصة لا تبشر بخير ، وانه لمن الخطر أن يستقبل المرء فى بيته أناساً يبلغون هذا المبلغ من كرم الضيافة . لذلك تساءلت ألا يمكن أن يكون الجنرال مضيفاً الى حد الغلو ، بالنسبة اليك ، وبالنسبة الى أيضاً .

- ولكننى لاحظت أنكما كنتما على أتم وفاق ، فهل كان ظنى خطأ ؟

- اننى أحمل هذره على محمل المزاح ، بروح الأخوة . فأن نكون قريين بالمصاهرة فهذا لا يضرنى ، بل هو شرف لى . اننى أعدُ الجنرال شخصاً ممتازاً رغم ضيوفه المائتين ورغم الحفلة الألفية . أعلن هذا صادقاً كل الصدق ، مخلصاً كل الاخلاص . لقد قلت لى منذ هنيهة يا أمير اننى أدنو منك دنوً من يريد أن يفضى اليك بسرٍ يملكه . فاعلم أن لدى سرّاً أريد أن أفضى به اليك : هناك انسانة أعلمتى منذ برهة أنها تمنى كثيراً أن تلقاك خفيةً .

- لماذا خفية ؟ مستحيل . سأذهب اليها بنفسى ، اليوم اذا لزم الأمر .

عاد ليديف يقول وهو يعجزى اشارات كبيرة :

- لا ، لا . ليست مخاوفها هى ما تظن أنت . بالمناسبة . ان الشيطان يأتي كل يوم سائلاً عن صحتك .

- أنت تصفه دائماً بأنه شيطان . وأرى أن هذا يوجب الشبهة

والشك !

أجاب ليديف مسرعاً :

- لا مجال لشبهات وشكوك . وانما أردت أن أقول انه ليس هو

من تخشاه تلك الانسانة . ان مخاوفها ترجع الى غير هذا !

سأله الأمير منزعجاً من اصطناعه هيئة السر :

- الى ماذا ترجع مخاوفها ؟ قل بسرعة !

فأجاب ليديف ضاحكاً :

- ذلك هو السر !

- سرٌ من ؟

- سرٌ . لقد منعتنى أنت نفسك يا سمو الأمير أن أتكلم أمامك ..

بهذا تتم ليديف • واذ لاحظ متببطاً مبتهجاً أنه استطاع أن يثير
حب الاطلاع عند محدثه ، أضاف يقول :

- ان تلك الانسنة خائفة من آجلايا ايفانوفنا •

فقطب الأمير حاجيه ثم قال بعد دقيقة صمت :

- عينا لأتركّن منزلك يا ليديف ! أين جبريل آرداليوتش
وأسرة بتسين ؟ عندك ؟ هل جئت بهم الى هنا أيضاً ؟

- سيأتون ، سيأتون • وسيأتي الجنرال أيضاً بعدهم • سأفتح أبوابي
كلها ، وسأنادي بناتي جميعهن ، جميعهن في هذه اللحظة نفسها •

بهذا همس ليديف مذعوراً وهو يحرك يديه ويركض من باب الى
باب •

وفي تلك اللحظة ظهر كولا في الشرفة آتياً من الشارع ، فأعلن
أن زائرات هن اليزابت بروكوفينا وبناتها الثلاث واصلات وراءه •

فقال ليديف يسأل مضطرباً لهذا النبأ أشد الاضطراب :

- أيجب أن أدخل أسرة بتسين وجبريل آرداليوتش أم لا ؟ أيجب
أن أسمع للجنرال بالمجيء ؟

قال الأمير ضاحكاً :

- لم لا ؟ فليدخل من يشاء أن يدخل • أؤكد لك يا ليديف أنك
فهمت علاقاتي فهماً خطأً منذ أول يوم • أنت في ضلال متصل مستمر •
ليس هناك أى سبب يدعوني الى أن اختبئ عن أحد •

فحين رآه ليديف ضاحكاً اعتقد أن من واجبه أن يقلده ، فأخذ
يضحك هو أيضاً • كان واضحاً أنه مسرور أشد السرور رغم اضطرابه
الشديد •

كان النبأ الذي أعلنه كولا صحيحاً : لم يكن كولا يتقدم أفراد

أسرة ايباتشين الا بضع خطوات ، ليلغ عن قدمهن . وهكذا دخل زوار
من جهتين فى آن واحد : فأفراد أسرة ايباتشين جئن من جهة الشرفة ،
بينما جاء بتسين وجانيا والجنرال ايفولجين من شقة ليديف .

ان كوليا هو الذى أعلم أسرة ايباتشين بمرض الأمير وبوصوله الى
بافلوفسك . وكانت الجنرالة حتى ذلك الحين فى حيرة أليمة . كان زوجها
قد نقل الى الأسرة ، أمس الأول ، بطاقة الأمير ، فاستتجت الزبات
بروكوفينا بدون أى تردد أن الأمير لن يتأخر عن المجيء الى بافلوفسك
لزيارتهم . وعبتاً حاولت الآسات أن يعترضن على استئاجها بأن الأمير
الذى لبث ستة أشهر لا يكتب اليهن قد لا يستعجل زيارتهن ، فربما كانت
له بطرسبرج مشاغل أخرى - من ذا يعرف شئونه ؟ وقد ضاقت الجنرالة
بهذه الاعتراضات ، وانزعجت منها ، وأعلنت أنها مستعدة لأن تراعن على أن
الأمير سيجيء فى الغد اذا تأخر . وانتظرته فى الغد طوال الصباح ، ثم
انتظرته على الغداء ، ثم انتظرته أخيراً فى السهرة . فلما هبط الليل اعتكر
مزاجها واشتدت شراستها ، فصارت تشاجر الجميع ، ولكن دون أن تقحم
اسم الأمير فى مشاجراتها طبعاً . ولم تشر اليه فى اليوم اتالى كذلك .
ولكن آجلايا أفلتت منها هذه الملاحظة أثناء العشاء ، قالت : « ان ماما غضبى
لأن الأمير لم يجيء إلينا » ، فأسرعت الجنرالة تقول : « ليس هذا خطأه » ،
ونهمت غاضبةً وغادرت المائدة !

ووصل كوليا أخيراً فى المساء ، فأبلغهن أنباء الأمير ، وحكى لهن
كل ما عرفه عما وقع له . فكان هذا فرحة انتصار لأليزابث بروكوفينا ؟
ومع ذلك طفتت تؤاخذ كوليا ، فقالت ممرضةً به : « يقضى هنا أياماً
بكاملها فلا نعرف كيف تتخلص منه ، حتى اذا احتجنا اليه غاب فكأنه
مات ! » . أو شك كوليا أن يغضب حين سمع قولها : « فلا نعرف كيف
تتخلص منه » ، لكنه كبح شعوره وأرجأ حقه . ولقد كان يمكنه أن

يفغر كل الغفران فى الواقع لولا أن التعبير يبلغ هذا المبلغ من جرح الاحساس واينداء الكرامة ، نعم كان يمكنه أن يفغر كل الغفران ، لشدة اغتباطه بما ظهر على الزابت بروكوفينا من انفعال واضح وقلق بين حين علمت بمرض الأمير . وألحت الجنرالة طويلاً على ضرورة ايفاد رسول الى بطرسبرج ليجي بطبيب شهير يعتنى بالأمير المريض ، ففتتها بناتها عن ذلك ، ولكنهن لم يشأن أن يقصرن عن أمهن حين أعلنت فجأة أنها تريد أن تزور المريض .

قالت وهى تتحرك هنا وهناك :

— ما ينبغي أن تتينا أو أن تصدنا قواعد البروتوكول اذا كان الفتى على فراش الموت ! أهو صديق للأسرة أم لا ؟
قالت آجلانيا :

— ولكن « لا تنزل الماء ما لم تضمن المخرج ! » * .

— طيب . لا تذهبي أنت . وذلك أفضل . لأن أوجين بافلوفتش سيجيء ، فلا بد أن يكون أحدٌ فى استقباله .
وقد أسرع آجلانيا ، بعد هذا الحوار ، تنضم الى أمها وأختها طبعاً ؛ وكانت تلك نيتها منذ البداية على كل حال . ووافق الأمير « شتت ... » الذى كان يصحب آديلايد ، على أن يرافق السيدات تلبية لطلب الفتاة . وكان منذ مدة طويلة ، منذ أن صارت له علاقات بأسرة ايباتشين ، قد اهتم اهتماماً شديداً بسماع كلامهن عن الأمير . وكان يعرف الأمير ، فقد التقى به قبل نحو ثلاثة أشهر فى مدينة صغيرة بالريف ، وقضى معه خمسة عشر يوماً ؛ وقصَّ أموراً عن هذا الشاب الذى كان يحمل له أجمل المحبة وأطيب المودة . لذلك رضى ، مبتهجاً ابتهاجاً صادقاً ، أن يشارك فى زيارة صاحبه القديم . ولم يكن الجنرال ايفان فيدوروفتش بالمنزل فى ذلك اليوم ، ولا كان أوجين بافلوفتش قد وصل .

لا تزيد المسافة بين فيللا أسرة ايباتشين وفيللا ليديف على ثلاثمائة خطوة •

وحين دخلت الجنرالة على الأمير كان أول شعور مزعج أحست به هو أنها وجدت حوله جمهرة كبيرة من الناس ، لا سيما وأن شخصين أو ثلاثة أشخاص منهم كانوا ممن تكرههم • يضاف الى ذلك أنها دُهِشت كثيراً حين تقدم اليها الأمير فرأت شاباً يدل ظاهره على أن صحته جيدة ، ويرتدى ثياباً أنيقة ، ويبدو عليه المرح والبشر ، بدلاً من أن ترى الفتى العليل الذى كانت تتوقع أن تراه ؛ فوقفت لا تصدق عينها ، فما كان أشد فرح كوليّا الذى كان فى وسعه أن يطلعها على حقيقة الأمر قبل أن تخرج من دارها ، ولكنه حرص على أن لا يفعل ، لأنه تنبأ ماكرأ بالغضب المضحك الذى لا بد أن تُظهره حين ترى صديقها العزيز فى صحة جيدة! حتى لقد مضى كوليّا فى الوقاحة الى أبعد من ذلك ، فأعلن انتصاره وتباهى بنجاحه ، ليجعل اليزابت بروكوفينا تبلغ من الغضب أقصى ذروة • لقد كان كوليّا يخز الجنرالة دائماً ، وكانت وخزاته فى بعض الأحيان جارحة جداً ، رغم ما بينهما من صداقة •

ردّت عليه الجنرالة قائلة وهى تجلس على المقعد الذى قدّمه نحوها الأمير :

ـ صبرك يا عزيزى ، لا تتعجل هذا التعجل كله ! لا تفسد انتصارك ! وأسرع ليديف وبتسين والجنرال ايفولجين يقدّمون مقاعد للآنسات • قدّم الجنرال كرسياً لأجلابا • وقرّب ليديف كرسياً آخر للأمير « شتت • • • » وهو ينحنى أمامه احناء شديداً باحترام عظيم • وحيّت فاريا الآنسات بكثير من الحرارة والتودد على عاداتها ، وأخذت تهامس معهن •

قالت الجنرالة :

- صحيح يا أمير أنتى كنت أقدر أن أجذك فى السرير ، من فرط ما ضخمتم مخاوفى الأمور ؟ وانى لأعترف لك ، حتى لا أكذب ، بأننى تضايقت كثيراً حين رأيتك طلق المحيّا منذ قليل ، ولكننى أحلف لك أن هذا التضايق لم يدم الا دقيقة واحدة هى المدة التى كان لا بد منها للتفكير .
اننى حين أفكرّ يصبح سلوكى أسلم وكلامى أعقل وأرشد . أظن أن هذه حالتك أنت أيضاً . يجب أن قول لك اننى لو كان لى ابن مريض لما سُررت بشفاؤه أكثر من سرورى بشفائك . فإذا لم تصدق كلامى كان هذا عاراً عليك لا على . ولكن هذا الولد الحيث يسمح لنفسه بأن يدبر لى مكائد أنكى كثيراً من هذه المكيدة . يظهر أنك ترعاه وتحبيه . فاعلم اذن اننى فى ذات يوم قريب سأحرم نفسى من متعة وشرف صحبته ، صدّقنى ...

صاح كولينيا يقول :

- ولكن ما هو الذنب الذى ارتكبه ؟ لو قد أكّدت لك أن الأمير أبلّ من مرضه تقريباً لما ارتضيت أن تصدقنى . لقد كنت تريد أن تصوّريه راقداً على فراش الموت . تلك صورة تشوقك أكثر ...

قالت اليزابت بروكوفينا تسأل الأمير :

- أأنت باقى هنا مدة طويلة ؟

- الصيف كله ، وقد أزيد .

- أأنت وحيد ؟ ألم تتزوج ؟

أجاب الأمير مبتسماً من سذاجة الجنرالة فى القاء هذا السؤال .

- لا ، لم أتزوج .

- لا تبسم ! ذلك يمكن أن يحدث . لكننى أفكر فى الاصطياف :

لماذا لم تنزل عندنا ؟ ان في دارنا جناحاً بكامله لا يشغله أحد • على كل حال ، هذا شأنك أنت !

ثم أضافت تسأل بصوت خافت وهي توميء بعينها الى ليديف :
- أنت مستأجر عند هذا الشخص ؟ ما باله يتلوى طول الوقت ؟
وفي تلك اللحظة ظهرت فيرا في الشرفة خارجة من شقة ليديف •
انها على عادتها تحمل الطفل بذراعيها • وكان ليديف يدور حول الكراسي
لا يعرف ماذا يعمل بنفسه ولكنه لا يعزم أمره على أن ينصرف ، وها هو
ذا يهجم فجأة على ابنته ويأخذ يحرك يديه بإشارات كثيرة ليعبدها ،
حتى لقد نسي نفسه ففرع الأرض بقدمه •

أسرعت الجترالة تسأل :

- أهو مجنون ؟

- لا ، ولكنه ...

- فلعله اذن سكران ؟ ...

ثم أضافت تقول بعد أن ألقت نظرة على سائر الزوار :

- لست تُفبط على هؤلاء الذين يحيطون بك ويصحبونك • على كل حال ، هذه فتاة لطيفة • فمن تكون هذه الفتاة ؟

- هي فيرا لوكيانوفنا ، ابنة ليديف هذا •

- آ ... هي لطيفة حلوة حقاً ... أريد أن أتعرف اليها •

ولكن ليديف الذي سمع أقوال المديح هذه ترجعها اليها
بروكوفينا ، كان قد أخذ يقود ابنته نحوها ليقدمها اليها •

قال في أنين وهو يقترب باحترام واجلال :

- يتامى ! انهم يتامى • والطفل الذي تحمله بذراعيها يتيم أيضاً •

هذه أخته ليوبوف، ابنتي التي وُلدت لي من زواجي الشرعي جداً بزواجي
إيلينا التي توفاه الله أثناء الوضع منذ ستة أسابيع نعم هي للطفل
بمثابة أم ، رغم أنها ليست إلا أخته ، ليست إلا أخته ، ليست إلا أخته
فحسب

- وأنت أيها الرجل لست إلا غيباً فحسب • اغفر لي صراحتي •
وكفى الآن هذا !

ثم أضافت تقول وقد اعترتها نوبة استياء مفاجئة :

- أحسب أنك تدرك ذلك بنفسك !

فأجاب ليديف وهو ينحني باحترام عميق :

- هذه هي الحقيقة بعينها !

سألته آجلايا :

- قل لي يا سيد ليديف : يدعي بعضهم أنك تفسر رؤيا يوحنا ،
فهل هذا صحيح ؟

- هذه هي الحقيقة بعينها ! ما برحت أفسرها منذ خمسة عشرة عاماً .

- سمعت منك ، بل أظن أن الجرائد جاءت على ذكرك •

قال ليديف وقد أخذ يشعر بفرح :

- لا • الجرائد تكلمت عن شارح آخر مات فحللت محلّه •

- هلاً سررتني ، ما دمتا جيراناً ، فجئت إلى ذات يوم لتفسّر لي

بعض فقرات من رؤيا يوحنا • انتي لا أفهم منها شيئاً •

وكان الجنرال ايفولجين جالساً إلى جانب آجلايا يحرقه العذاب من

أنه لا يستطيع التدخل في الحديث ، فاذا هو يقول الآن فجأة :

- لا أستطيع أن أعفى نفسى من واجب تنبيهك يا آجلايا ايفانوفنا
الى أن هذا كله ليس الا تدجيلاً منه ، صدّقينى ...

وتابع الجنرال ايفولجين كلامه يقول :

- صحیح أن للحياة فى الريف حقوقها ، كما أن لها سراتها .
ولأن يستقبل المرء فى بيته رجلاً دخیلاً من أجل أن يشرح له رؤيا يوحنا
فهذه نزوة كغيرها من النزوات ، ولعلها نزوة بارعة الذكاء ، لكننى ...
مالك تنظرين الى مدهوشة ؟ اسمحى لى أن أقدم اليك نفسى : أنا الجنرال
ايفولجين . لقد حملتك على ذراعى يا آجلايا ايفانوفنا .

دمدمت آجلايا تقول وهى تبذل جهوداً كبيرة من أجل أن لا تنفجر
ضاحكة :

- سعيدة بمعرفتك . اننى أعرف باربارا آرداليونوفنا ونيينا
الكسندروفنا ...

غضبت اليزابت بروكوفينا حتى احمرت أشد الاحمرار . ان
الغضب الذى كظمته فى قلبها مدةً طويلة كان فى حاجة الى أن ينطلق .
وكانت لا تطيق احتمال الجنرال ايفولجين الذى سبق أن عرفته فى الماضى
منذ زمن بعيد . قالت له باندفاع :

- أنت تكذب ، يا عزيزى ، على عادتك ! انك لم تحمل ابنتى على
ذراعىك فى يوم من الأيام !

فانبرت آجلايا تؤيد كلام الجنرال فجأة فتقول :

- بلى يا ماما . أنت نسيت . لقد حملنى على ذراعيه فعلاً . كان
ذلك فى مدينة تفير التى كنا نقيم بها أيامئذ . كان عمري ست سنين ، مازلت
أتذكر هذا . وقد صنع لى قوساً وسهماً وعلمنى الرماية فاصطدت حمامة .
ألا تتذكر أننا اصطدنا معاً حمامة ؟

وهتفت آديلايد تقول :

- وأعطاني خوذة من كرتون وسيفاً من خشب • أنا أيضاً أتذكر •

وزادت ألكسندرا فقالت :

- أنا أيضاً أتذكر • حتى لقد تشاجرتما على الحمامة الجريح ،
فوضعت كل واحدة منكما في ركن • واضطرت آديلايد أن تتسمر في
مكانها مع خوذةها وسيفها •

حين ذكّر الجنرال أجلايا بأنه حملها على ذراعيه ، فانه لم يكن
ينبغي الا أن يقول شيئاً ما ليجرى معها حديثاً ، كما يفعل هذا نفسه كلما
أراد أن يتعرف الى شبان أو شابات •

ولكن شامت المصادفة ، بما يشبه العمد ، أن يكون كلامه في هذه
المرة صحيحاً ، لأنه ذكّر بواقعة صادقة كان قد نسيها هو نفسه ، فلما
قالت أجلايا على غير توقع انهما اصطادا حمامة معاً ، عادت اليه ذاكرته
دفعاً واحدة ، فذكر كل شيء بأدق تفاصيله ، كما يحدث ذلك في أحيان
كثيرة للشيوخ حين يتذكرون ماضياً بعيداً • انه يصعب علينا أن نقول ماهو
الشيء الذي أثار انفعال الجنرال المسكين من تلك الذكرى (وكان مثلاً
على عادته) ، ولكن مما لا شك فيه أنه قد انفعّل انفعلاً قوياً وتأثر تأثراً
شديداً • فصاح يقول :

- أتذكر ، نعم أتذكر كل شيء ! كنت عندئذ كاتب • وكنت أنت
صغيرة جداً ، لطيفة حلوة !... يا نينا ألكسندروفنا !... يا جانيا !...
كان ذلك في الزمن الذي استقبلت فيك عندكم ...

قالت الجنرالة :

- فانظر الى أين صرت الآن ! على أن الشراب لم يخفق فيك

العواطف النبيلة ، ما دمت تتأثر هذا التأثر من تلك الذكرى . ولكنك
عذبت امرأتك عذاب الشهداء . وبدلاً من أن تكون قدوةً ومثالاً
لأولادك أخذت تستدين وتستدين الى أن وضعت في السجن .
اذهب من هنا يا صاحبي ! انسحب الى أى مكان ، الى ما وراء الباب ، الى
ركن من الأركان ، لتبكي براءتك القديمة الذاهبة ، فلعل الله أن يفر لك
ويتوب عليك ! هيا ، اذهب ! انتى أكلمك جادةً لا هازلة . لا نىء ينفع
فى اصلاح المرء كما تنفعه ذكرى ماضيه نادماً !

لم يكن ثمة داع الى مزيد من الكلام : لقد كان الجنرال يملك
الحساسية المفرطة التى يملكها المدمنون عادةً ، وكان يؤله كما يؤلم سائر
الساقطين أن يتذكر أيامه السعيدة . فها هو ذا ينهض ويتجه نحو الباب
طائماً صاعراً ، فسرعان ما أشفقت عليه اليزابت بروكوفينا ، فصاحت
تأديده قائلة :

- أرداليون ألكسندروفتش ، صديقى ، انتظر دقيقة ! نحن جميعاً
خطاة آثمون . فمتى شعرت بأن ضميرك قد هدأ بمض الهدوء واسترد
شيئاً من السكينة والطمأنينة ، فتعال الى زائراً لتحدث لحظةً عن الماضى .
من ذا الذى يستطيع أن يؤكد أننى لم أرتكب من الذنوب أضعاف
ما ارتكبت أنت ؟ ولكن استودعك الله الآن ، اذهب ، انصرف ، فليس لك
هنا شأن ...

أضافت تقول هذه العبارة الأخيرة فجأة وقد روَّعها أن رأته عائداً .

همّ كوليأ أن يلحق بأبيه ، ولكن الأمير قال له :

- الأفضل أن لا تتبعه الآن . والا اعتكر مزاجه وفسد ما ينعم به من

صفاء وسعادة !

فقالت اليزابت بروكوفينا :

- صحيح ! دعه ! ستلحق به بعد نصف ساعة •

وجازف ليديف فقال :

- هذا تأثير قول الحقيقة للإنسان مرة في حياته : لقد تأثر حتى

الدموع •

فأسرعت اليزابت بروكوفينا ترده الى مكانه قائلة له :

- وأنت أيضاً ، يا صاحبي ، لا بد انك سيد مدهش اذا صدق

ما سمعته عنك !

أخذ وضع كل واحد من الزوار المجتمعين على الشرفة يتضح شيئاً بعد شيء • واستطاع الأمير طبعاً أن يدرك حق الادراك دلائل عاطفة المودة التي تحملها له الأميرة وبناتها • فقال لهن بلهجة صادقة انه قبل زيارتهن كان قد عقد النية على أن يذهب اليهن في ذلك اليوم نفسه رغم سوء حالته الصحية ، ورغم أن الوقت متأخر • فأجابته اليزابت بروكوفينا ، وهي تلقي على الزوار نظرة ازدراء ، ان انفاذ تلك النية ما يزال ممكناً • فلم يلبث بتسعين ، وهو رجل مهذب مسير ، أن نهض على الفور وانسحب الى شقة ليديف • وقد أراد أن يقتاد ليديف ، ولكنه لم يحصل منه الا على وعد بأنه سيدركه في الحال • وكانت فاريا تتحدث مع القتيات فلم تتحرك • وقد سرّت هي وجانيا من انصراف الجنرال • وانصرف جانيا بعد بتسعين بقليل • انه خلال الدقائق القليلة التي قضاها على الشرفة بحضور أسرة ايباتشين قد حافظ على موقف متواضع كريم رصين ، ولم يضطرب بتأثير نظرة السيطرة التي ألقها عليه اليزابت بروكوفينا مرتين من قمة رأسه الى أخمص قدميه • ان الذين عرفوه من قبل لا بد أن يبدو لهم الآن أنه تغير تغيراً كبيراً • وقد أحدث وضعه أثراً حسناً جداً في نفس أجلايا •

- أظن أن جبريل آرداليونوفتش هو الذى خرج الآن ، أليس كذلك ؟

هكذا سألت آجلايا فجأة ، على عادتها فى الليل الى مقاطعة حديث الآخرين أحياناً على حين بفتة ، دون أن توجه الكلام الى أحد بعينه .
فأجاب الأمير بقوله :

- نعم هو .

قالت آجلايا :

- كدت أنكره فما أعرفه . لقد تغير كثيراً ... لقد تحسّن !

قال الأمير :

- سرّنى تغيره هذا أعظم السرور .

وأضافت فاريا تقول بلهجة تعبر عن شفقة ويخالطها فرح خفى :

- كان مريضاً جداً .

وسألت اليزابت بروكوفينا بنبرة فيها غضب ويكاد يكون فيها زعر :

- فى أى شىء تحسّن ؟ من أين جئت بهذا ؟ اننى لا أرى فيه شيئاً تحسّن ؟ ما الذى تجدينه أنت ؟

صاح كوليا يقول فجأة وكان ما يزال واقفاً قرب كرسي اليزابت بروكوفينا :

- لا شىء أحسن من « فارس فقير » * .

قال الأمير « شئت ... » وهو يضحك :

- هذا رأى أيضاً .

وأعلنت أديلائيد قائلة :

- وهو رأى كذلك •

فسألت الجذالة وهى تحدّق اليهما بنظرة فيها حيرة وغضب :

- أى « فارس فقير » ؟

ثم أضافت تقول غاضبة حين رأت أن آجلایا احمر وجهها :

- لا بد أنها سخافة من السخافات ! ما « الفارس الفقير » هذا ؟

قالت آجلایا بلهجة فيها غطرسة شديدة :

- أهذه أول مرة يشوّه فيها هذا الصبي ، الأثير عندك ، أقوال

الآخرين ؟

كانت آجلایا تقرّرها نوبات غضب فى كثير من الأحيان ، ولكن انقيادها لنوبات الغضب يصحبه دائماً شئ يبلغ من سذاجة الطفولة وخراقة التصرف أن المرء لا يملك أحياناً الا أن يضحك حين يراها • وكان هذا الضحك يخرجها عن طورها لأنها لا تستطيع أن تجد له تفسيراً ، وكانت تسأل كيف يستطيع هؤلاء الناس وكيف يجسرون أن يضحكوا من سلوكها •

وحين قالت آجلایا عبارتها الأخيرة فى حق كوليّا ضحكت أختها وضحك الأمير « شش • • • » • حتى أن الأمير ليون يقولابفتش نفسه لم يستطع أن يحبس ابتسامه ، وان يكن وجهه قد احمر لا ندرى لماذا ! أما كوليّا فقد انتصر وطق يضحك ملء حلقه • فنضبت آجلایا ، فزادها ذلك جمالاً • ان الاضطراب والغضب اللذين شعرت بهما قد ضاعفا فتنتها الأخاذة •

وعادت تتكلم فقالت :

- ألم يسبق لهذا الصبي أن شوّه أقوالك نفسها في أحيان كثيرة ؟
قال كوليا :

- أنا لم أزد على أن كررت صيحةً من صيحات الإعجاب التي تطلقونها . فمئذ شهر ، حينما كنت تقرأين « دون كيشوت » ، قلت انه لا شيء أحسن من « فارس فقير » . لم أكن أعرف من ذا الذي كنت تقصدين حينذاك : أهو دون كيشوت ، أم أوجين بافلتش ، أم شخص آخر ؟ وانما المهم أن أقوالك كانت تعني أحداً ما . وقد جرى حول هذا حديث طويل طويل ...

قالت اليزابت بروكوفينا بلمهجة حادة :

- أرى يا صديقي أنك تسمح لنفسك بالاسراف قليلاً فيما تمضي اليه من افتراضات ...

فتابع كوليا كلامه مباحكاً :

- أنا الوحيد ؟ لقد تكلم الجميع في هذا وما زالوا يتكلمون : فمئذ لحظة واحدة قال الأمير « شتت » ... ، « وآديلايد ايفانوفنا والآخرون انهم من أنصار « الفارس الفقير » . فهذا الفارس موجود اذن بالفعل ، وفي رأيي أننا كان في وسعنا جميعاً أن نعرف من هو ، لولا آديلايد ايفانوفنا .

سألت آديلايد ضاحكة :

- ما ذنبي أنا ؟

- ذنبك أنك لم تقبلي أن ترسمي لنا صورة وجهه ! ان أجلاًبا ايفانوفنا قد رجك أن تفعل حتى لقد أمدّتك بجمع تفاصيل اللوحة كما تصورها هي ، ألا تذكرين ؟ ولكنك لم تشائى ...

- ولكن كيف كان في وسمى أن أفعل ، ومن ذا الذي كان يمكنني أن أصورها ؟ ان « الفارس الفقير » هو كما وُصف لي رجل

لم يرفع أمام أحد حافة خوذته اللولابية

فما هو الوجه الذي يجب أن أهبه له ؟ ماذا أصوّر ؟ أأصور حافة خوذة ؟ أأصور وجهاً ليس وجه أحد ؟
صاحت الجنرالة تقول منزعجة :

- لست أفهم شيئاً ؟ ما حافة الخوذة هذه التي تتكلمون عنها ؟
وكانت الجنرالة في الواقع قد بدأت تتحدّث شخصية صاحب هذا اللقب (الذي لعله قد تم تخيله منذ مدة طويلة) ، اعني لقب « الفارس الفقير » .

غير أن الأمر الذي أثار استيائها خاصة ، إنما هو ما رأيته في هيئة الأمير ليون نيقولايفتش من اضطراب كاضطراب طفل في العاشرة من عمره . فهتفت تقول :

- أما لهذه السخافات من آخر ؟ هلاًّ شرحتم لي أخيراً قصة « الفارس الفقير » هذه ؟ أهذا سرٌّ كبير فلا تجوز مقارنته ؟

ولكن الجميع لم يزدوا على أن استمروا في الضحك .

فتدخل الأمير « شتش » . . . أخيراً فقال ليحوّل الحديث عن مجراه :

- الأمر أمر قصيدة روسية غريبة بعض الغرابة ، لا أكثر من ذلك .
هي أبيات من قصيدة لا ذنب لها ولا رأس ، تصوّر فارساً فقيراً . فمنذ نحو شهر ، في ذات مساء بعد العشاء ، كنا قد ضحكنا كثيراً ونحن نبحت

على عادتنا عن موضوع اللوحة الجديدة التى سترسمها آديلايد ايفانوفنا •
انك لا تجهلين أن هذا البحث عن موضوع للوحات آديلايد ايفانوفنا قد
أصبح واجباً من واجبات الأسرة منذ زمن طويل • وفيما نحن نبحت ،
وقمنا على موضوع « الفارس الفقير » •• ولست أدري من ذا الذى خطرت
بباله فكرته قبل الآخرين •

صاح كوليا يقول :

— هذه فكرة آجلايا ايفانوفنا !

وتابع الأمير « شئت ••• » كلامه فقال :

— جائز جداً • ولكننى لا أذكر • فبعضهم ضحك من الموضوع ،
وبعضهم أكد أنه ليس ثمة موضوع أرفع منه ولا أسمى ، ولكن لا بد على
كل حال من أن نخلع على « الفارس الفقير » وجهاً • فأخذنا نبحت عن
وجه بين وجوه جميع الناس الذين نعرفهم ، ولكن أحداً منهم لم يقع عليه
الاختيار ، ووقف الأمر عند ذلك الحد • هذا كل شئ • ولا أدري لماذا
خطر ببال نيقولا آرداليونوفتش أن يعيد هذا الأمر الى الأذهان • فان
ما كان مسلياً ومناسباً منذ شهر قد أصبح اليوم غير ذى قيمة •

قالت اليزابت بروكوفينا بلهجة قاطعة :

— لأن ثمة غمزاً مضمرأ ، غمزاً جارحاً مؤذياً •

قالت آجلايا :

— لا شئ من ذلك البتة • وليس ثمة الا التمييز عن احترام عميق •

نطقت آجلايا تلك الكلمات بلهجة فيها رصانة شديدة غير متوقعة •
فهى لا تسيطر على أعصابها سيطرة تامة كاملة فحسب ، بل يبدو عليها
أيضاً من بعض القرائن أنها الآن مسرورة باتساع نطاق المزاح • وقد

حدث هذا الانقلاب في نفسها حين لوحظ أن اضطراب الأمير قد أخذ يشتد مزيداً من الاستناد .

- يضحكون كالمجانين ، ثم اذا بهم يتحدثون فجأة عن احترامهم العميق ! جنون مطبق ! لماذا الاحترام ؟ أجيبني فوراً : من أين جاءك هذا الاحترام العميق بفتة بلا سبب ظاهر ؟

فقلت آجلايا تجيب عن السؤال الذي ألقته عليها أمها ناثرة ، قالت تجيب بتلك اللهجة الرصينة الوقور نفسها :

- تكلمت عن احترام عميق ، لأن تلك الأشعار في القصيدة تتحدث عن رجل قادر على أن يكون له مثل أعلى ، وقادر متى حدد لنفسه ذلك المثل الأعلى على أن يؤمن به ايماناً أعمى وعلى أن ينذر له حياتها كلها . وهذا أمر ليس شائعاً في زماننا الحاضر . ان القصيدة لا تعين لنا المثل الأعلى الذي يؤمن به « الفارس الفقير » ، ولكننا نرى بوضوح أن ذلك المثل الأعلى نوع من صورة مضيئة هي « آية الجمال الطاهر النقي » ؛ حتى ان الفارس العاشق يلف عنقه بمسبحة بدلاً من أن يلفعه بمنديل . صحيح أن هناك أيضاً شعاراً غامضاً مبهماً ملفزراً تمبّر عنه هذه الأحرف الثلاثة « آم.ب. » * التي رسمها على ترسه .

فانبرى كوليا يصحّح قائلاً :

- بل « آم.د »

فردّت آجلايا غاضبة :

- بل « آم.ب. » ، ولا أراجع . من الواضح على كل حال أن الفارس الفقير كان لا يقيم أي وزن لما هي عليه سيده ، ولا لما كانت تفعله . حسبه أنه اختارها وآمن « بجبالها الطاهر النقي » حتى ينحني أمامها الى الأبد . وميزته أنه ، ولو أصبحت بعد ذلك لصة ، يظل يؤمن

بها ويظل مستعداً لأن يدافع عن جمالها الطاهر النقي • يبدو أن القصيدة أرادت أن تجسّد في صورة استثنائية فذة قوة فكرة الحب الفروسي طبعاً • ولكن هذا المثل الأعلى يصل في « الفارس الفقير » الى أعلى درجاته ، ويبلغ حدّ التقشف والنسك والزهد • يجب أن نعترف بأن القدرة على الشعور بمثل هذه العاطفة ، التي تقتضى بذاتها شيكّة قوية وطبعاً صلباً واردة عنيدة ، هي شيء لا يُستهان به ، وهي شيء محمود جداً من جهة ما ، بصرف النظر عن دون كيشوت هنا • ان « الفارس الفقير » هو دون كيشوت ، هو دون كيشوت "جدي" لا هزلي • انني لم أفهمه في البداية ، حتى لقد ضحكت منه وتندرت عليه ، أما الآن فاني أحب « الفارس الفقير » ، وأحترم جسارته واقدامه خاصة •

صمتت آجلايا • انه ليصعب على المرء حين ينظر اليها أن يعرف
أكانت جادةً فيما قالته أم كانت هازلة •

— فاعلمني أن هذا « الفارس الفقير » رجل غيبي رغم كل ما وصفته به من جسارة واقدام • وأنت يا صغيرتي قد تدفقت تلقيننا درساً كاملاً ، فصدقيني اذا قلت لك ان هذا لا يناسبك • وهو على كل حال لا يُطاق • ما هي أشعار تلك القصيدة ؟ أنشدني أبياتها • لا بد أنك تحفظينها • انني أحرص على سماعها أشد الحرص • أنا لم أطلق الشعر في حياتي • فلعل ذلك كان مني احساساً أشبه بالنبوءة • تجمل بالصبر ياأمير ، ناشدتك الله • واضح أن الصبر خير ما يمكن أن تذرعه به أنا وأنت •

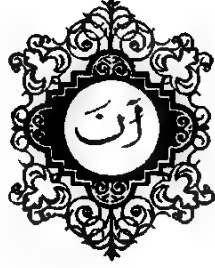
أضافت الجزالة قولها هذا مخاطب الأمير • وكان واضحاً أنها مستاءة أشد الاستياء ، ممتعضة أكبر الامتعاض •

أراد الأمير أن يقول شيئاً ، ولكنه كان قد بلغ من الاضطراب أنه لم يستطع أن ينطق بكلمة • آجلايا وحدها التي أجازت لنفسها هذه

الجرأة كلها في « تلقين درسها » ، كانت لا تُظهر أى اضطراب ، بل وكانت تبدو راضيةً عن نفسها ، مقتبحةً بما قالته . وها هي ذى تنهض على الفور بمثل ذلك الوقار نفسه وبمثل تلك الأبهة نفسها ، كأنها كانت متهيئة لانشاد تلك الأشعار ، فهي لا تنتظر الا أن يدعوها أحد الى ذلك . وها هي ذى تتقدم الى وسط الشرفة ، وتقف قبالة الأمير الذى ما يزال جالساً على كرسيه .

نظر الجميع اليها بشيء من الدهشة . كان الأمير « شش . . . » ، وأختها ، وأُمها ، وجميع الحضور تقريباً ، يشعرون بحرج وضيق ازاء هذه الاندفاع الطفولى الذى يقدرّون انه سيتجاوز حدود القصد والاعتدال . ولكن كان واضحاً أن أجلايا مفتتنة أشد الأفئتان بهذه الطريقة فى التمهيد لانشاد القصيدة . وهمّت اليزابت بروكوفينا أن تحملها على العودة الى الجلوس فى مكانها ؛ ولكن فى اللحظة التى أوشكت فيها الفتاة أن تشد قصيدتها ، صعد من الشارع الى الشرفة زائران جديان آخذان فى الحديث بصوت عال . انهما الجنرال ايفان فيدوروفتش ايباتشين وفتى يتبعه . فأحدث ظهورهما دهشة .

الفصل السابع



الشاب الذي يصحب الجنرال هو في نحو الثامنة والعشرين من عمره ، طويل القامة ، حسن التكوين ، له وجه وسيم ذكي ، وعينان واسعتان تفيضان نشاطاً ومكرراً • أبت أجلايا حتى أن تلتفت اليه واستمرت تشدد قصيدتها متظاهرة بأنّها لا تنظر الا الى الأمير ، ولا تتجه الى أحد غيره • فأدرك الأمير أنها تخفي وراء ذلك نية خاصة • غير أن مجيء الزائرين الجديدين خفف ارتباكها قليلاً على كل حال • فما ان رأها حتى نهض نصف نهوض ، وحرك رأسه من بعيد يحيي الجنرال تحية فيها مودة ، وأوصى بإشارة من يده أن لا يقطع انشاد القصيدة • ثم مضى يقف وراء كرسيه ، مستنداً بكوعه الأيسر على ظهر المقعد ، ليسمع تمة القصيدة وهو في وضع أكثر طلاقة وأقل اضحاً كما من وضع رجل غاطس في مقعد • وانبرت اليزابت بروكوفينا من جهتها تهيب بالزائرين أن يتوقفا ، وذلك بحركة من يدها قامت بها مرتين •

اهتم الأمير اهتماماً شديداً بالشاب الذي يصحب الجنرال • وأحس أنه قد يكون أوجين بافلوفتش رادومسكى الذي سمع عنه كثيراً ، وفكّر فيه غير مرة • غير أن اللباس المدني الذي كان يرتديه هذا الشاب قد حيرته ، ذلك أنه قد سمع أن أوجين بافلوفتش عسكري لا مدني* • وكانت ابتسامة ساخرة تطوف بشفتي الزائر الجديد طوال مدة انشاد القصيدة • فكان الشاب كان يعرف ، هو أيضاً ، قصة « الفارس الفقير » •

قال الأمير يخاطب نفسه : « لعله هو الذى اخترع هذا » •

أما آجلايا فكانت حانتها النفسية مختلفة كل الاختلاف • ان التصنع والافتعال اللذين بدأت بهما لقاء القصيدة قد حلت محلها عاطفة رزينة ملأى بمعنى الأشعار التي كانت تلقىها • وكانت تنطق كل كلمة من الكلمات نطقاً يبلغ من قوة التعبير وجمال البساطة أنها في آخر انشادها لم تأسر انتباه السامعين فحسب ، بل برّرت كذلك ، بابرار قوة الوحي وعمق الالهام في هذه القصيدة ، برّرت الأبهة التي اصطنعتها منذ قليل حين نصبت قامتها في وسط الشرفة • ان في وسع المرء أن لا يرى الآن في ذلك التصنع الا علامة احترام بالغ ذكى غير محدود تحمله الفتاة للقصيدة التي تولت لقاءها • كانت عيناها تسطعان ؛ وسرت في وجهها الجميل ، مرتين ، رعدة حماسة لا تكاد تدرك •

واليكم ما أنشدته :

فقيرا كان الفارس
وصموتا وبسيطا ،
ومظلما كان وجهه وشاحبا ،
وكانت نفسه جسورة وصريحة •
لاحت له رؤيا
حفرت في قلبه
أثرا عميقا
التهبت نفسه منذ ذلك اليوم •
حول عينيه عن النساء ،
فألى ان وورى التراب ،
لم يخاطب امرأة بكلمة •
بمسبحة لف عنقه ،
لا بمنديل لفعها

ولم يرفع لعمام احد
حافة خوذته الفولاذية •
بحب ظاهر امتلا قلبه
ظل وفيا لرؤياه ،
وبلمه على ترسه
كتب : نون • فاء • باء
وفي صحارى فلسطين
بينما الفرسان بين الصخور
يهبون الى القتال
ذاكرين اسماء سيئاتهم
كان يصيح بحماسة عاتية قائلا :
يا ضياء السماء ، ابتها الوردة المقدسة !
وبانتفاضه كالصاعقة ،
كان يجندل الأعداء •
وحين عاد الى قلعته البعيدة
عاش فيها معتزلا ناسكا ،
وظل صامتا ، وحزينا ،
ومات كمجنون •

حين تذكر الأمير تلك اللحظات فيما بعد ، عذبت فكره مسألة
لا يجد الى حلها سبيلا : كيف أمكنهم أن يجمعوا بين عاطفة صادقة هذا
الصدق ، جميلة هذا الجمال ، وبين سخرية سافرة غير محجبة ، سخرية
سيئة ذلك السوء كله ؟ لم يراوده شك في أن نعمة سخرية • السخرية
واضحة لها ما يؤكد ما : ان آجلايا قد سمحت لنفسها أثناء اللقاء أن تبدل
الأحرف « ألف ، ميم ، باء » بالأحرف : « نون ، فاء ، باء » • هو واثق
بأنه لم يخطئ السمع (وذلك ماجاء البرهان عليه فيما بعد) • وكيف كان

الأمر فإن مزاحة آجلایا - ذلك أن المسألة لا تعدو أن تكون مزاحة
مهما تكن جارحةً ومهما تتضمن من خفة وطيش - إنما كانت مبيتة
مقصودة . فالجميع ما برحوا منذ شهر يتكلمون عن « الفارس الفقير »
ويضحكون .

على أن الأمير حين رجع الى هذه الذكريات فيما بعد ، اقتنع بأن
آجلایا قد نطقت هذه الأحرف « نون ، فاء ، باء » دون أن تضيف عليها
لهجة مزاح أو تهكم ، ودون أن تبرزها إبرازاً يظهر معناها الجبى .
بالمكس ؟ لقد نطقها برصانة تبلغ من الهدوء ، وبساطة تبلغ من البراءة
والسذاجة أن المرء يمكن أن يظن أن هذه الأحرف موجودة فعلاً فى نص
القصيدة المطبوع .

ومهما يكن من أمر ، فإن الأمير لم يلبث أن شعر بعد سماع القصيدة
بضيق شديد وألم قاس . ان اليزابت بروكوفينا لم تلاحظ تبديل
الأحرف وما يختبئ وراء هذا التبديل من تلميح . وكل ما أدركه الجنرال
ايفان فيدوروفتش هو أن هناك أشعاراً تُنشد . أما السامعون الآخرون فقد
أدرك كثيرون منهم قصد آجلایا فأدهشتهم جسارتها هذه ولكنهم صمتوا
فكأن شيئاً لم يكن . وأما أوجين بافلوفتش فإنه لم يدرك فحسب (وهذا
ما يراهن عليه الأمير) ، بل حاول أن يفصح أيضاً عن أنه أدرك ، فزاد
مقدار السخرية فى ابتسامته .

هفت الجنرالة تقول فى اندفاعه اعجاب صادق ، منذ انتهى انشاد

القصيدة :

- رائع ! لمن هذه الأشعار ؟

فصاحت آديلايد تقول :

- هى لبوشكين يا ماما . لا نُشعرنا بالحزى والمار ! كيف يمكن

أن يجهل أحد أنها لبوشكين ؟

فقلت الزابت بروكوفينا بلهجة مرة :

- ان المرء يمكن أن يصبح من معانرتكن أشد غباوة وأكثر جهلاً !
هذا معيب ! عليكن أن تأتيني بقصيدة بوشكين هذه متى رجعنا الى البيت !
- أظن أننا ليس فى بيتنا شيء من شعر بوشكين •
قالت ألكسندرا :

- بلى ! عندنا مجلّدان مهترّان ملقيان فى البيت منذ عهد بعيد !
- يجب ارسال احد الى المدينة فوراً لشراء كتب بوشكين • فليذهب
فيدور أو ألكسى فى أول قطار • والأفضل أن يذهب ألكسى • آجلا يا ،
تعالى ! قبلنى ! لقد أحسنت القاء القصيدة ايما احسان !
ثم أضافت تهمس فى أذنها قائلة :

- ولكن اذا كانت نبرتك فى القاء القصيدة صادقة ، فانتى أرنى
لحالك • واذا كنت قد أردت أن تسخرى منه فانتى لا تؤيد شعورك • وفى
الحالين كان الأفضل أن لا تلقى هذه القصيدة • هل تفهمين عنى ؟ اذهبي
الآن يا آنسة ، سنعاود الكلام فيما بعد • لقد طال مكوّننا هنا •
فى أثناء ذلك كان الأمير قد سلّم على الجنرال ايفان فيدوروفتش
ايباتشين الذى قدم اليه أوجين بافلوفتش رادومسكى •

- لقد أدركته فى الطريق • ذهب من القطار الى البيت رأساً فليل
له انتى جئت الى هنا التحق بسائر الأسرة •••
قال أوجين بافلوفتش مقاطعاً :

- وقد علمت أيضاً أنك هنا ؟ واذا كنت أرغب منذ مدة طويلة لا فى
التعرف اليك فحسب ، بل وفى التماس صداقتك أيضاً ، فانتى لم أنشأ أن
أضيّع وقتاً ••• أأنت مريض ؟ انتى لم أعرف هذا الا منذ لحظة •••

أجاب ليون نيقولايفتش وهو يمد اليه يده :

- سُفيت شفاءً تاماً ، ويسعدني أن أتعرف اليك . لقد سمعت عنك كثيراً ، حتى اننى تحدثت فى أمرك مع الأمير « شتش » . . .

تصافح الرجلان بعد تبادل هذه الأقوال المهذبة ، ثم حدّق كل منهما الى عيني الآخر . وسرعان ما أصبح الحديث عاماً . ولاحظ الأمير ، الذى أصبح الآن يلاحظ بسرعة ويقظة ، حتى لقد يرى أشياء لا وجود لها ، لاحظ أن الجميع قد أدهشهم أن يروا أوجين بافلوفتش مرتدياً ثياباً مدنية لا عسكرية . وقد بلغت دهشتهم من القوة أنها محت سائر ما عداها من مشاعر . لا بد أن تغير الثياب هذا يدل على وقوع حادث هام . وتحيرت آديلايد وألكسندرا فبادرتا الى سؤال صاحب الشأن عن الأمر . وبدا على الأمير « شتش » ، وهو قريب الشاب ، قلق شديد . وكان الجنرال منفصلاً انفعالاً يكاد يخالط صوته . آجاليا وحدها كانت هادئة كل الهدوء ، فألقت على أوجين بافلوفتش نظرة فضول وكأنها تتسائل هل تناسبه الثياب المدنية أكثر مما تناسبه البزة العسكرية ، وما هى اللحظة حتى أشاحت وجهها عنه ثم لم تهتم به قط . وامتمت اليزابت بروكوفينا عن سؤاله كذلك، رغم أنها لعلها شعرت ببعض القلق هى أيضاً . وأحسن الأمير أن هناك شيئاً من الفتور تشعر به الجنرالة نحو أوجين بافلوفتش .

ردّد ايفان فيدوروفتش يقول مجيئاً عن جميع الأسئلة :

- دُهِشت أشد الدهشة . . . لم أصدّق عينيّ حين رأيته بثياب مدنية لا عسكرية بطرسبرج . ما هذا التغير المفاجئ ؟ ذلك هو اللغز ! انه هو نفسه أول المنادين بأن على المرء أن لا يحطّم الكراسى * .

وخرج من الحديث الذى دار حول هذا الموضوع أن أوجين بافلوفتش كان منذ زمن طويل قد أقصع عن نيته فى ترك الخدمة العسكرية . ولكنه كان ، كلما أثار هذا الموضوع ، يتكلم بلهجة تبلغ من

قلة الجدد أن أحداً لم يصدقه • ذلك عدا أنه اعتاد أن يخلع على الأمور الهامة الخطيرة صفة الهزل ، فلا يعرف أحد أصدقه أم لا يصدقه ، ولا سيما حين يعتمد هو نفسه أن يحير الناس وأن يضلهم في شعاب الظنون !
قال رادومسكى مرحاً :

– لكننى لا أدع الخدمة العسكرية الا الى حين ، لا أدعها الا بضعة أشهر ، أو سنةً في أكثر تقدير •
فقال الجنرال بحرارة وهمة :

– لكننى لا أرى ضرورة هذا ، فى حدود معرفتى بشئونك وأعمالك على الأقل •

– ألا يجب على أن أزور أطيانى ؟ ألم تنصحنى أنت نفسك بذلك ؟
ثم اننى أود أن أقوم برحلة الى الخارج ••

وسرعان ما انحرف الحديث ، ولكن القلق ظل ظاهراً ، فاعتقد الأمير أن أمراً خطيراً يختبئ تحت هذا التبدل •

قال أوجين بافلوفتش سائلاً وهو يدنو من آجلايا :

– هل عاد « الفارس الفقير » اذن الى بساط البحث ؟

فما كان أشد دهشة الأمير حين ردَّت عليه الفتاة بنظرة مشدوهة مستفهمة ، كأنما لتفهمه بأن « الفارس الفقير » لم يكن موضع بحث بينهما فى يوم من الأيام حتى انها لا تفهم ماذا يريد أن يقول ؟

وكان كوليما ما يزال فى جدال مع اليزابت بروكوفينا ، فهو مايفتأ يردد قائلاً :

– فات الأوان ، فات الأوان ، لا يمكن ارسال أحد الى المدينة فى

هذه الساعة ليحيى بكتب بوشكين • سأظل أكرر هذا ثلاثة آلاف مرة اذا
لزم الأمر : فات الأوان !

قال أوجين بافلوفتش وهو يتعد عن آجلانيا مسرعاً :

- فعلاً ••• فات الأوان ••• الوقت متأخر الآن ••• أظن أن
التاجر ستغلق أبوابها ببطرسبرج بعد قليل ، فالساعة قاربت التاسعة •
قال ذلك وهو ينظر فى ساعته •

وقالت آديلايد :

- انتظرنا حتى الآن ، ففى وسعنا أن نتظر الى غد •

وأضاف كولا :

- لا سيما وأنه لا يليق بأبناء المجتمع الراقى أن يهتموا بالأدب
كثيراً • اسألنى أوجين بافلوفتش • لأن يملك المرء عربة ذات مقاعد صفراء
وعجلات حمراء ، فذلك أرقى وأميز •
قالت آديلايد :

- لقد اقتبست هذا أيضاً من كتاب يا كولا !

فقال أوجين بافلوفتش معقياً :

- صحيح ان كل ما يقوله مستمد من قراءات ، فهو قادر على أن يتلو
عليكم صفحات بكاملها مستمدة من مجلات نقدية ، وقد سعدت بمعرفة
حديث نيقولا آرداليوتش منذ زمن طويل ؛ ولكنه فى هذه المرة لا يردد
جملة قرأها ، وانما هو يلمع الى عربتى ذات المقاعد الصفراء ، التى تجرى
على عجلات حمراء فعلاً • ولكننى أحب أن أقول لك اننى أبدلت عربتى
تلك ، فجاء كلامك متأخراً عن الوقت المناسب •

أصغى الأمير الى كلام رادومسكى ... فلاحظ أن الشاب يسلك سلوكاً لا مأخذ عليه ، وأنه متواضع مرح • وأعجبه فيه خاصة أنه يعامل كوكلاء معاملته فيها مودة الند للند ، حتى حين يناكده كوكلاء •

— ما هذا الذى تحيىنى به ؟

كذلك قالت اليزابت بروكوفينا تسأل فيرا ، بنت ليديف ، التى وقفت أمامها فجأة ، مثقلة الذراعين بعدة كتب كبيرة الحجم أنيقة التجليد تكاد تكون جديدة •

قالت فيرا :

— هذا بوشكين ! هذا شاعرنا بوشكين ! أمرنى بابا بأن أهدى اليك كتبه •

فقالت اليزابت بروكوفينا مدهوشة :

— كيف ؟ أهذا معقول ؟

— لا ، لا ، ما هذا بهدية ! ما هذا بهدية ! ما كان لى أن أجزى لنفسى ذلك !

هكذا قال ليديف محتجاً وقد ظهر وراء ابنته على حين فجأة • وتابع كلامه يقول :

— وانما أتنازل لك عن هذه الكتب بيعاً بسعر الشراء • انها نسخة أسرتنا من مؤلفات بوشكين ، طبعة آتذكوف * ، التى أصبح العثور عليها الآن مستحيلاً • أتنازل عنها بيعاً بسعر الشراء • انتى يا صاحب السعادة أقدمها اليك باحترام ، على نية أن تبيعها اياها فتشبع بذلك نهمها النيل الى المباحج الأدبية •

- اذا كنت تيمنها فأنا أشكر لك ذلك • لا تخف ، لن تخسر شيئاً •
ولكن كفاك تلويّاً وتعقفاً ، أرجوك ! • • سمعت عنك أنك غزير الاطلاع
جم المعرفة ، فستحدث معاً فى يوم من الأيام • هل تتولى حمل الكتب الى
بنفسك ؟

قال ليديف وهو يظهر سروره ورضاه بحركات شتى من التلوى
والتعقّف :

- بكل احترام واجلال • • •

واتترع الكتب من يدي ابنته •

- حسن • اتنى بها • اتنى أعفك من الاحترام والاجلال ، ولكن
لا تضع الكتب !

ثم أضافت تقول وهى تحدّق الى عينيه •

- ولكنى اشترط أن لا تتخطى عتبة باب بيتى ، فاتنى لا أنوى أن
استقبلك هذا اليوم • غير أن فى وسعك أن ترسل الى ابنتك فىراً حالاً
اذا شئت • لقد أعجبتنى كثيراً •

قالت فىراً لأبيها بلهجة تدل على نفاد الصبر :

- لماذا لا تقول شيئاً عن أولئك الذين ينتظرون هناك ؟ اذا لم تدخلهم
فسوف يقتحمون الباب • لقد بدأوا بإحداث صخب وضجة •

ثم أضافت مخاطبة الأمير الذى كان قد تناول قبعته :

- يا ليون نيقولا يفتش ، ان فى بيتك أربعة أفراد ينتظرونك منذ مدة
طويلة ، ويحدثون جلبةً لأن أبى لا يسمح لهم بأن يدخلوا عليك •

سألها الأمير :

- من هم هؤلاء الزوار ؟

- يدعون أنهم يجيئون اليك لعمل من الأعمال ، لكنهم أناس لا يتورعون أن يستوقفوك في الشارع اذا لم يُسمح لهم بالدخول • فالأفضل يا ليون نيقولايفتش أن تدخلهم وتتخلص منهم • عبثاً حاول جبريل آرداليونوفتش ويتسعين أن يفاوضاهم ، انهم لا يريدون أن يسموا ، لا يريدون أن يسموا شيئاً البتة !

قال ليديف وهو يحرك يديه بإشارات كثيرة :

- هذا ابن بافلشتشيف ! ابن بافلشتشيف • لا داعي الى استقباله ، لا داعي •• ان هؤلاء الناس لا يستحقون أن تصنى اليهم وتسمع كلامهم ، بل انه لا يليق بك يا سمو الأمير أن ترعج نفسك من أجلهم • نعم ، لا يستحقون •••

هتف الأمير يقول بانفعال عميق :

- ابن بافلشتشيف ؟ آه !••• أنا أعلم أن ••• ولكنى عهدت الى جبريل آرداليونوفتش أن يهتم بهذه القضية • هو نفسه قال لي منذ لحظة ان •••

هنا ظهر جبريل آرداليونوفتش في الشرفة خارجاً من شقة الأمير • وظهر بعده بتسعين • ان ثمة ضجة تُسمع من الفرقة المجاورة • وان صوت الجنرال ايفولجين المدوّى يحاول أن يطنى على أصوات عدة أشخاص آخرين • هرع كولا يستطلع بواغت هذه الجلبة •

قال أوجين بافلوفتش :

- شيء شاق جداً !

فحدث الأمير نفسه بقوله : « هو اذن على علم بالأمر » .

وقال الجنرال ايفان فيدوروفتش متحيراً وهو يسأل بنظرة جميع الوجوه ، كأنما يدهشه أن يكون الوحيد الذى يجهل هذه الحكاية الجديدة :

- ابن بافلشتشيف ؟ هل يمكن أن يكون هناك شخص هو ابن بافلشتشيف ؟

أيقظ الأمر اهتمام الجميع ، وشحذ انتباههم . فما كان أشد دهشة الأمير حين رأى أن قضية شخصية لا تتعلق بأحد غيره قد أثارَت هذا الاهتمام كله لدى جميع الحضور .

قالت آجلايا وهي تقترب من الأمير برصانة ووقار :

- الأفضل أن تسوَّى هذه القضية فوراً ، وأن تسوَّىها «بنفسك» .
اسمح لنا بأن نكون جميعاً شهوداً لك . انهم يريدون أن يلطخوك يا أمير .
فعليك أن تبرىء نفسك تبرئة ساطعة باهرة . انتهى لأبتهج سلفاً حين أتصور أنك فاعل ذلك .

وهتفت الجنرالة تقول :

- أنا أيضاً أتمنى أن يوضع حدٌ لهذا الادعاء الدنيء ! لقنَّهم درساً قاسياً يا أمير ، لا ترأف بهم ! لقد صدَّعوا رأسى بهذه القضية ، ما أكره ما زعلت لك . انه لمن الشائق أن تراهم . ادعهم الى المجيء . سنبقى هنا .
فكرة آجلايا فكرة حسنة .

ثم قالت الجنرالة تسأل الأمير « شئت » : .

- هل سمعت عن هذه القضية يا أمير ؟

- نعم ، سمعت عنها ، بل سمعت عنها في بيتكم أتم . انتى أحب كثيراً أن أرى هؤلاء الشبان .

- هم عديمون * ، أليس كذلك ؟

قال ليديف وهو يتقدم خطوة ويكاد يرتجف من شدة الانفعال :

- لا ، ليسوا عديمين بمعنى الكلمة ، هم فئة أخرى ، من نوع على حدة ! ابن اختى يزعم أنهم أكثر غلواً من العديمين . تخطيء يا صاحب السعادة اذا ظننت أنك بحضورك ستربكهم وتخيفهم . هؤلاء فتية لا يهابون أحداً . ان بين العديمين أناساً مثقفين على الأقل ، حتى لقد تجد بينهم علماء . أما هؤلاء فهم يفوقون العديمين لأنهم أناس عليمون . صحيح أنهم منحدرون من العديمين ، ولكنهم منحدرون منهم على نحو غير مباشر ، بطريقة مواربة . انهم لا يعبرون عن أنفسهم بمقالات في الجرائد ، بل يمشون الى الوقائع رأساً . لا يعنيه مثلاً أن يبرهنوا على أن بوشكين لا نفع فيه ولا جدوى منه * ، ولا يعنيه أن يبرهنوا على أن من الواجب تقسيم روسيا وتجزئتها . لا ، هذه أمور لا تهمهم . وانما هم يرون أن من حقهم ، متى رغبوا في شيء من الأشياء ، أن لا يصدّهم عنه أى عائق وأن لا تقترضهم أية عقبة ، فاذا اقتضى الأمر أن يقتلوا ثمانية أشخاص فعلوا دون تردد . انتى انصحك يا أمير بأن لا ...

لكن الأمير كان قد مضى يفتح الباب للزوار . وقال وهو يتسم :

- انك تتجنى عليهم يا ليديف . صحيح أن ابن اختك قد سبب لك متاعب كثيرة . لا تصدقيه يا اليزابت بروكوفيتنا . أؤكد لك أن أمثال جورسكى وأمثال دانيلوف * ليسوا الا حالات فردية استثنائية . أما هؤلاء الشبان ... فانهم مخطئون لا أكثر ! ... على انتى أوتر أن لا أتحدث معهم هنا أمام الجميع . معذرةً يا اليزابت بروكوفيتنا : سوف يدخلون ،

فأقدمهم اليكم وأعرفكم بهم ، ثم أخرج معهم • ادخلوا أيها السادة ،
تفضلوا •••

والحق أن الأمير كانت تشغل باله وتعذبه فكرة • أخرى • كان يتساءل أليست هذه مكيده مدبرة لهذه الساعة بعينها ولهذا الاجتماع نفسه ، لا من أجل أن تتاح له فرصة الانتصار ، بل من أجل أن تهيأ له أسباب التلطيخ بالحزى والعار ؟ ومع ذلك كان يأخذ على نفسه اتهيبه لمثل هذا « الشك انشاذ الحيث ! » ، ويشعر من ذلك بحزن شديد ، حتى لكأنه يمكن أن يموت من الشهور بالحزى والعار على الفور لو استطاع أحد أن يكشف أن فكرة كهذه الفكرة قد خطرت بباله أو دارت في خلداه ! وحين ظهر الزوار كان مستعداً أصدق الاستعداد لأن يعد نفسه أحط الناس قاطبة من الناحية الأخلاقية بين هؤلاء الذين يحيطون به •

دخل خمسة أشخاص : أربعة قادمين جدد ، ووراءهم الجنرال ايفولجين الذى كان يبدو منفعلاً أشد الانفصال ، وكان يبدو أن نوبة فصاحة وبلاغة قد استولت عليه واستبدت به • قال الأمير يحدث نفسه مبتسماً : « لا شك فى أن هذا معنى ! » • وكان كولينيا قد تسلل الى الجماعة ، فهو يتحدث بحرارة الى هيبوليت ، احد أفراد العصابة ، وكان هيبوليت يصفى الى كلامه مبتسماً ابتسامه عدم التصديق •

أجلس الأمير القادمين • انهم شبان فى غضارة العمر ، يكادون أن يكونوا مراقبين ، حتى ليستغرب المرء أن يُستقبلوا بهذا الاحتفال كله وهم فى هذه السن • وحين رأى ايفان فيدوروفتش هؤلاء الصبيان الأغرار - وكان يجهل كل شيء عن هذه « القضية الجديدة » ولا يفهم منها شيئاً البتة - استاء استياءً شديداً ، حتى لقد كان يمكن أن يعترض ويحتج لولا أن صدّه عن ذلك ما لاحظته لدى امرأته من اهتمام غنيف بشئون الأمير الشخصية ، وهو اهتمام كان يبدو له فى الوقت نفسه غريباً عجيباً • على

أنه بقي ولم ينسحب ، مدفوعاً الى ذلك بحب الاطلاع من جهة ، وبحب فعل الخير من جهة أخرى ، فلعله يمكن أن يكون نافعاً ، ولعله يستطيع أن يفرض مهابته بما له من سلطة . ولكن التحية التي حياه بها الجنرال ايفولجين من بعيد حين دخل ، قد أضمرت استياءه من جديد ، فاكفهر وجهه وقرر أن يلوذ بالصمت فما ينطق بحرف .

بين الزوار الشبان الأربعة كان واحد منهم على الأقل في نحو الثلاثين من عمره . انه ذلك الملاك المليونير الذي كان أحد أفراد عصبة روجويين ، والذي كان يتباهى بأنه أعطي في الماضي صدقة قدرها خمسة عشر روبلاً . في وسع المرء أن يقدّر أنه قد انضم الى الآخرين رقيقاً يشد أزهرهم ويثبت عزيمتهم ويهب الى مساعدتهم اذا اقتضى الأمر . وبين صحبه الثلاثة ، كانت المنزلة الأولى وكان الدور الأكبر لذلك الذي يسمى « ابن بافلستشيف » ، رغم أنه كان هو نفسه يعرف نفسه للناس باسم آتيب بوردوفسكى . انه فتى أشقر ؛ في وجهه بثور ؛ ثيابه فقيرة قدرة ؛ يبلغ رذنجوته من الاتساخ أن كميته يلعمان ؛ تدل صدرته الوسخة المعقودة أضرارها حتى النحر على أنه لا يلبس تحتها قميصاً ؛ يلفع عنقه منديل من حرير أسود ملطخ متلفف كجبل ؛ يدها غير مفسولتين ؛ نظراته تعبر عن مزيج من سذاجة ووقار ؛ تحيل الجسم أميل الى الطول ؛ يبدو في نحو الثانية والعشرين من العمر ، لا يكشف وجهه لا عن أى سخرية ولا عن أى تفكير ، لا يقرأ المرء في هذا الوجه الا امتلاء غيياً بليداً بما يظن أنه حقه ، والا حاجة غريبة مستمرة في الوقت نفسه الى الشعور بأنه مساء اليه مهان ؛ يتكلم بلهجة فيها انفعال ؛ وفي كلامه المتدفق السريع المتردد الذي يضيع جزءاً من الألفاظ ما قد يوهم بأنه ثناء أو بأنه أجنبي مع أنه روسى صرف .

وكان يصحبه ابن اخت ليديف الذي سبق أن عرفه القارىء ،

وكان يصحبه كذلك هيوليت . ان هيوليت فتى فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر . يتم مجيئه عن ذكاء ، لكن وجهه دائم التقلص ، يحمل طابع المرض الرهيب الذى يأكله أكلاً . انه نحيل أشد التحول ، حتى لكأنه هيك من عظم ؟ وهو شاحب اللون ، كالشمع اصفراراً ؛ له عينان ساطعتان متقدتان ، وعلى خديه بقعتان حمراوان ؛ وهو لا ينفك يسعل بغير انقطاع ؛ وكل كلمة من كلماته ، وكل زفرة من زفراته تصحبها حشجة تقريباً . واضح أنه بلغ المرحلة الأخيرة من مرض السل ، فاذا رآه المرء قدّر أنه لن يعيش أكثر من أسبوعين أو ثلاثة . كان يبدو مرهقاً ، فما كاد يدخل حتى تهالك على كرسي قبل أن يجلس الآخرون . وقد دخل رفاقه وهم يفتعلون شيئاً من الأبهة والاحتفال . كان يبدو عليهم أنهم مرتبكون بعض الارتباك ، لكنهم يصطنعون خطورة الشأن كأنهم يخشون أن يعرضوا مهابتهم للضياع . وذلك وضع يتعارض تعارضاً غريباً مع ما اشتهروا به من أنهم أناس يستخفون بالسفاسف الاجتماعية ولا يعبأون بالآداب السخيفة التافهة ، ومن أنهم لا يعرفون الا قانوناً واحداً هو مصلحتهم .

دمدم « ابن بافلشتشيف » يقول معرفاً بنفسه :

– آتيت بوردوفسكى .

وقال ابن أخت ليديف معرفاً بنفسه ، ناطقاً اسمه بوضوح وتميز كأنما هو يعتر به :

– فلاديمير دوكتورنكو :

وتتم الليوتنان القديم قائلاً فى التعريف بنفسه :

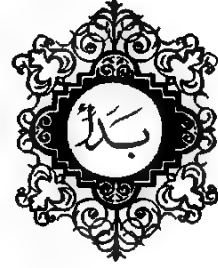
– كيللر .

وصاح الزائر الأخير يقول بنبرة غير متوقمة :

- هيبوليت تيرتيف *

جلس هؤلاء كلهم صفّاً واحداً أمام الأمير * حتى اذا فرغوا من تقديم أنفسهم وذكر أسمائهم عبسوا وقطبوا ، وأخذوا ينقلون طاقاتهم من يد الى يد ، زيادةً في اظهار قوة البأس * كان كل منهم متأهباً لأن يتكلم ، لكنه يلتزم الصمت ، ويتخذ وضع الانتظار والاستفزاز ولسان حاله يقول : « لا يا صاحبي ، لن نخدعنا ونغرر بنا ! » * ان المرء ليحس أنهم متى قيلت الكلمة الأولى التي تحطم الجليد فسوف يندفعون في الكلام جميعاً في آن واحد يقاطع بعضهم بعضاً ما استطاع الى ذلك سبيلاً !

الفصل الثامن



الأمير الكلام فقال :

- لم أكن أتوقع أن أرى أحداً منكم يا سادة .
ولقد كنت أنا نفسي مريضاً حتى هذا اليوم . أما
قضيّتك (قال الأمير ذلك متجهاً بالكلام الى آتيب
بوردوفسكى) ، فانتى قد عهدت بها منذ شهر الى جبريل آرداليونوفش ،
كما أبتأتك بذلك فى حينه . ثم انتى لا أرفض أن أبحث معكم الأمر
بنفسى . ولكن لا بد أنكم توافقوننى على أن بحث هذا الأمر الآن ...
فاذا كنتم تقدّرون أن البحث لن يطول فانتى اقترح عليكم أن تنتقلوا معى
الى غرفة أخرى ... ان عندى فى هذه اللحظة أصدقاء ، وأرجوكم أن
تصدّقوا أن ...

فقاطعه ابن اخت لبيديف قائلاً بلهجة فيها شدة وتسلط ، دون أن
يرفع صوته مع ذلك :

- أصدقاء ... ليكن عندك ما شئت من أصدقاء ... ولكن اسمح
لنا أن نعلن أنك كان فى وسعك أن تسلك معنا سلوكاً أقرب الى الأدب
والتهذيب ، وأن لا تجعلنا نتظر فى حجرة المدخل ساعتين .

فما ان قال ابن اخت لبيديف ذلك الكلام حتى اندفع آتيب
بوردوفسكى يقول فجأة وقد بلغ ذروة الانفعال :

- طبعاً ... طبعاً ... وأنا أيضاً ... انظروا كيف يتصرف
الأمراء ! .. أنا لست خادمك ! ولكننى ... ولكننى ...

كانت شفتاه تختلجان وكان صوته يرتجف من فرط الغيظ ، وكان
الزبد يخرج من فمه فقاعات تنفجر ، وكان تدفقه فى الكلام يبلغ من
السرعة أنه أصبح بعد عشر كلمات لا يفهم البتة .

وقال هبوليت بصوت صارخ :

- نعم هذه أساليب الأمراء !

ودمدم الملاك قاتلاً :

- لو كان هذا السلوك موجهاً الىّ ، أعنى لو أن هذا الأسلوب
استعمل معى لا مع بوردوفسكى ، لكنت ...
قال الأمير :

- صدّقوا يا سادة أننى لم أعلم بوجودكم هنا الا منذ دقيقة واحدة .
وعاد ابن أخت ليديف يقول :

- لسنا نخشى أصدقاءك مهما يكن شأنهم يا أمير ، لأننا على حق .
واستأنف هبوليت زعيقه فقال وقد ازدادت حرارته ازدياداً واضحاً:
- من ذا الذى أجاز لك - اسمح لى أن ألقى عليك هذا السؤال -
من ذا الذى أجاز لك أن تعرض قضية بوردوفسكى لحكم أصدقاءك ؟ قد
لا تكون مستعدين لأن نقبل هذا الحكم . اتنا نعرف ما عسى أن تكون قيمة
هذا الحكم !

ارتبك الأمير من هذا الاستهلال أشد الارتباك ، فلم يعرف كيف
يدس فى زحمة هذا الكلام جواباً . قال :

- لكننى سبق أن قلت يا سيد بوردوفسكى ان فى وسعنا ، اذا أنت

لم تشأ أن تشرح الأمر هنا ، فى وسعنا أن نتنقل ، الى غرفة أخرى على الفور . وأعود فأقول لك اننى لم أعلم بحضوركم الا فى هذه البرهة .
وعاد بوردوفسكى يغمغم وهو يلقي حوله نظرة ريب وشك ،
ويزداد اندفاعاً على قدر شعوره بقلة الثقة :

— ولكن لا يحق لك ، لا يحق لك ، لا ... لا يحق لك ... ان
اصدقائك ... هه ! لا يحق لك ...

ثم توقف عن الكلام فجأة كأن شيئاً قد تحطم فيه ؛ ومال بجسمه الى
أمام ، ثم حدّق الى الأمير ، كما لو كان يريد أن يسأله ، حدّق اليه
بعينه الحسرتين اللتين تخذّدهما أوردة صغيرة حمراء .

فبلغ الأمير من الدهشة فى هذه المرة أنه لم يجد كلمة يقولها ،
ونظر هو أيضاً الى بوردوفسكى محملاً .

وفجأة نادته الزابت بروكوفينا قائلة له :

— اقرأ هذا فى هذه الجلسة نفسها يا ليون نيقولايفتش : فان له علاقة
مباشرة بقضيتك .

وأسرعت تمد اليه جريدة أسبوعية ساخرة * ، ودلّته باصبعها على
مقالة فى الجريدة .

ان ليديف الذى كان يريد أن تنظر اليه الجنرالة نظرة حسنة كان
قد استل تلك الجريدة من جيبه لحظة دخول الزوار ، فوضعتها تحت بصر
الجنرالة مشيراً لها الى عمود مؤشّر عليه بالقلم الرصاص . فاذا بالأسطر
القليلة التى اتسع وقتها لأن تقرأها تحدث فى نفسها أعماق الاضطراب .
تمتم الأمير يقول خجلاً أشد الحجل :

— لعل الأفضل أن لا تكون القراءة جهاراً . سأطلع على المقالة
وحدى ... فيما بعد ...

فما كان من الزبابت بروكوفينا الا أن انتزعت الجريدة من يدي
الأمير بحركة تملل وتذمر ، قبل أن يستطيع الأمير أن يلقي على المقالة
غير نظرة سريعة ، ثم مدت الجريدة الى كوليا وقالت له :
- طيب ... اقرأ أنت ... اقرأ على الفور ... وقرأ بصوت
عال ... اقرأ جهاراً ... هل سمعت ؟ جهاراً ، جهاراً ! ...

ان الزبابت بروكوفينا امرأة شديدة الاندفاع ، حتى لقد ترفع
في بعض الأحيان جميع المواسي دون تفكير ناضج ، وتقلع في عرض البحر
رغم العواصف . شعر ايفان فيدوروفتش بقلق . وبينما كان الحضور
حائرين مرتبكين منتظرين ، فض كوليا الجريدة وأخذ يقرأ ، بصوت
عال ، المقالة التي أسرع ليديف يدله عليها :

كادحون واحفاد امراء

قصة سرقة وقعت اليوم وتقع كل يوم

تقم ! اصلاح ! عمالة ! ...

« تحدث أمور غريبة في هذه البلاد التي يسمونها روسيا المقدسة ،
في هذا الزمان ، زمان الاصلاحات والمشروعات الرأسمالية الكبرى
والروح القومية وتزوح الملايين الى البلاد الأجنبية في كل عام وتشجيع
الصناعة واضطهاد العاملين ، الخ الخ . واذا أننا لن نفرغ من هذا التعداد
أيها السادة فلنتقل الى الواقع :

« ان حدثاً غريباً قد وقع لواحد من أبناء أرستقراطيتنا الاقطاعية
المتوفاة رحمها الله ! ... ان أسلاف هؤلاء الأبناء قد خسروا كل شيء في
القمار بالروليت . ووجد آباؤهم أنفسهم مضطرين أن يخدموا في الجيش
مرشحين أو ملازمين ، ثم ماتوا على وجه العموم تحت وطأة ملاحقات
قضائية لمخالفات « بريئة » ارتكبوها في حق أموال ائتمنوا عليها وعيّنوا
لها محاسبين .

« ويشب أولادهم ، كبطل قصتنا ، كما يشب أولاد بلهاء ، أو يقبض عليهم لجرائم يقرّفونها فيبرئهم القضاء ليتيح لهم فرصة إصلاح حالهم ، أو يسيبون فضيحة من تلك الفضائح التي تدهش الرأى العام ويجلبون بهار جديد هذا العصر الذى أصبح يجلبه العار بما فيه الكفاية منذ الآن .

« لقد عاد صاحبنا ابن سلالة الأمراء ، عاد الى روسيا من سويسرا منذ ستة أشهر بعد أن اتبّع هنالك علاجاً لشفائه من البلهاء (كذا) ، وهو يرتجف برداً تحت معطف ليس له حتى بطانة . يجب أن نعتز بأنّه كان امراً ذا ... فبصرف النظر هنا عن المرض اللطيف الذى سافر الى سويسرا لمعالجته (معالجة البلهاء ، تصوروا هذا !) ، فإن أمره يأتى مصداقاً للمثل الروسى القائل : « لا حظّ الا لقطة من الناس » * . وسنعرض عليكم الوقائع فاقضوا فى المسألة بأنفسكم : لقد أصبح هذا الشاب يتيماً فى طفولته منذ نعومة أظفاره ، لأن أباه مات ، فيما يقال ، حين كان سيمبل أمام المجلس الحربى لتبديده فى القمار أموال سريته كضابط ملازم ، وربما أيضاً لأنه جلد بكثير من السخاء واحداً من مرؤسيه (تذكّروا الزمان القديم أيها السادة !) . وحين مات أبوه كفله ورباه ملاك روسى محسن غنى جداً . ان ذلك الملاك - ولنطلق عليه اسم « ب . ٠٠٠ » - كان يملك فى ذلك العصر الذهبى أربعة آلاف نفس ، أربعة آلاف من الأفتان (الأفتان ! هل تفهمون معنى كلمة الأفتان هذه أيها السادة ؟ أما أنا فأنى لا أفهمها ولا بد لى من الرجوع الى معجم لأدرك معنى هذه الكلمة . « فالمرء لا يكاد يصدق هذا الأمر رغم أنه قريب العهد » *) . أغلب الظن أنه كان واحداً من أولئك الروس الكسالى الطفيلين الذين يقضون حياتهم الحالية العاطلة فى الخارج ، ففى الصيف يذهبون الى مناطق المياه

المعدنية وفي الشتاء ينتقلون الى « قصر الأزهار » بباريس ، فينفقون هنالك مبالغ خرافية ! نستطيع أن نؤكد أن ثلث الاناوات التي كان الفلاحون في عهد القنانة يدفعونه لأسيادهم انما كان ينتقل الى يدى مالك « قصر الأزهار » (الرجل السعيد !) •

« مهما يكن من أمر ، فان ذلك الرجل اللاهى قد نشأ اليتيم كما يُنشأ أمير ، فعين له مربين ومربيات (جيلات طبعاً !) كان يأتي بهن من باريس • ولكن هذا الابن الأخير من أبناء تلك السلالة الشهيرة كان أبله • فرغم جميع الجهود التي بذلتها المربيات اللواتي تم اغراؤهن في « قصر الأزهار » ، فان تلميذنا قد بلغ العشرين من عمره دون أن يستطيع تعلم أية لغة أجنبية ، وحتى دون أن يستطيع تعلم اللغة الروسية • على أن جهل اللغة الروسية أمر يقتصر ! وأخيراً نبتت فكرة سخيفة في ذهن ذلك السيد « ب • • • » ، الذى كان يؤمن بالمبودية ، فاعتقد ان فى الامكان أن يكتسب الأهل ذكاءً فى سويسرا • على أن هذه الفكرة لا تخلو من منطق : فان هذا الطفلى ، هذا الملاك ، كان لا بد أن يتصور أن أى شئ يمكن أن يُشترى بالمال كسائر الأشياء ، ولا سيما فى سويسرا • وهكذا وقفت خمس سنين على معالجة سليل الأمراء فى تلك البلاد تحت اشراف استاذ شهير ، وأُنفقت فى ذلك آلاف الروبلات • ولم يصبح الأبله رجلاً ذكياً بطبيعة الحال ، ولكن يزعم بعضهم أنه أخذ يشبه الانسان بعض الشبه •

« هنا مات « ب • • • » فجأة • ولم يترك أى وصية طبعاً • وكانت أعماله وشئونهِ المالية فوضى ، مضطربة أشد الاضطراب • وورثه جمهور من الورثة الطامعين الشرهين الذين لا يكثر أحد منهم بأن يعول أبناء سلالة نبيلة وأن يساعدهم من باب الاحسان على الشفاء فى سويسرا • ن بلاهة وُلدوا بها • ولكن سليل أسرة الأمراء الذى تتحدث عنه حاول أن

يخدع البروفسور الذى يعالجه ، فأخفى عنه نبأ موت الرجل المحسن اليه ، واستطاع بذلك أن يحمله على أن يعالجه بالمجان ستين آخرين • ولكن البروفسور نفسه كان دجّالاً بارعاً : فانه اذ أفلقه أخيراً أن لا يقبض شيئاً من مريض يلتهم الطعام بشهوة ابن الخامسة والعشرين من العمر ، ألبس قدميه لبادتي حذاءيه ، وخلع على كتفيه معطفاً مهترئاً ، ورحّله على نفقته الى روسيا فى الدرجة الثالثة من القطار ليخلّص منه سويسرا •

« يمكن أن يُظن أن الحظ قد أدار ظهره لبطلنا • ولكن الحقيقة ليست هذه : ان الحظ الذى يحلو له أن يبيد بالمجاعة أقاليم بأكملها قد أغدق جميع نعمه على هذا الارستقراطى الصغير دفعةً واحدة ، مثله فى ذلك كمثّل تلك السحابة التى تحدثنا عنها حكاية كرييلوف * ، تلك السحابة التى مرت فوق حقول يابسة من الظمأ ، ثم مضت تهطل مطراً غزيراً فوق البحر المحيط • ففى اللحظة التى كان فيها صاحبنا سليل الأمراء عائداً من سويسرا الى بطرسبرج مات رجل من أقرباء أمه (سليل أسرة من التجار طبعاً) ، هو تاجر عجوز ذو حية لم يخلف أولاداً وكان ينتمى الى ملة « الرامكولنيك » * ، وقد ترك ميراثاً لا يمارى فيه أحد ، يقدر ببضعة ملايين عدداً وقدراً (شئ • يمكن أن يسوَّى قضيتنا ، أليس كذلك أيها القارىء العزيز ؟) ، ترك هذا الميراث لصاحبنا سليل أسرة الأمراء ، لصاحبنا البارون الذى كان يُعالج فى سويسرا من البلاءة !

« عندئذ تغيّرت الموسيقى • ان صاحبنا البارون الواضع على حذاءيه لبّادتين ، رأى نفسه بعد أن غازل امرأة مغناجاً شهيرة ، رأى نفسه محاطاً بجمهور من الأصدقاء والأصحاب • لقد اكتشف لنفسه أقرباء • أكثر من ذلك أن آسأت نيبالات كثيرات أصبحن يحترقن رغبةً فى أن يتزوجنه زواجاً شرعياً ، اذ هل يمكنهنّ أن يجدن عريساً أفضل من شاب ارستقراطى ، صاحب ملايين ، أبله ؟ عريساً اجتمعت فيه كافة الزايا

فى آن واحد؟ ما كان لهنّ أن يعثرن على عريس مماثل ، ولو بحثن عنه
فى ضوء قنديل ، أو أوصين عليه وفقاً لمقاييس !... .

صاح ايغان فيدوروفتش يقول وقد بلغ ذروة الاستياء :
- هذا ... أصبحت لا أفهمه !

ودوّت صيحات تعجب فى كل جهة من الجهات .
قالت اليزابت بروكوفينا آمرة :
- فليقرأ ، فليقرأ مهما يكلف الأمر . يا أمير ، اذا كفّ عن القراءة

فسوف نزعل !

وكان واضحاً أن اليزابت بروكوفينا كانت أقلهنّ سيطرة على
نفسها وكبحاً لجماحها !

لم يكن ثمة مفر . تابع كوليناً قراءته مختلج الصوت محمراً أشد
الاحمرار من فرط الانفعال :

« وبينما كان صاحبنا المليونير الجديد يشعر انه انتقل الى السماء
السابعة ان صحّ التعبير ، حدث ما لم يكن متوقفاً قط . ففى ذات صباح جاء
اليه زائر ذو وجه هادىء قاس ، يرتدى ثياباً بسيطة لكنها محترمة . وأخذ
هذا الرجل الذى تميز لفته بأنها مهذبة رضية معقولة فى آن واحد ،
والذى يدل تفكيره على أنه لبرالى الاتجاه ، أخذ يشرح له الغرض من
زيارته بايجاز . هو محام مشهور جاء من قبل شاب وكّله عنه فى تولّى
شؤنه . وليس ذلك الشاب الا ابن المرحوم « ب . . . » ، رغم أنه يحمل
اسماً آخر . ان المرحوم « ب . . . » الذى كان فى شبابه رجلاً داعراً
فاسقاً قد أغوى فتاةً فقيرة شريفة كانت رغم حالة العبودية التى هى فيها
قد تربّت تربيةً أوروبية (واضح أنه استعمل ما كانت تجيزه القنانة
للسادة من حقوق) . فلما لاحظ ما ستنتجبه هذه العلاقة من ثمره قريبة

لا مفرَّ منها أسرع يزوج الفتاة لرجل نبيل الخلق كان له عمل صغير بل وكانت له وظيفة رسمية ، وكان يحب الفتاة منذ عهد بعيد . وقد ساعد العروسين في أول الأمر ، ولكن الزوج لم يلبث أن رفض مساعداته أنفةً وشمماً وكبرياء . فما انقضى بعض الوقت حتى كان « ب . . . » قد نسي شيئاً فشيئاً صديقه القديمة والطفل الذي وُلد له منها . ثم مات ، كما ذكرنا ، دون أن يكتب وصية .

« فهذا الابن الذي وُلد لصاحبنا « ب . . . » بعد زواج أمه ، والذي تبناه الرجل الطيب القلب فحمل الولد اسمه ، أصبح بغير مورد بعد وفاة الرجل الطيب زوج أمه ، وأصبح مشلولاً عن أمه المريضة الكسيرة . كانت أمه تعيش في إقليم ناءٍ من الأقاليم . وقد استقر هو في العاصمة ، فكان يجني رزقه شريفاً باعطاء دروس خاصة في بيوت أسر من التجار ، فاستطاع بذلك أن يقيم أوده وأن يعول نفسه خلال مدة دراسته في المدرسة الثانوية ، ثم استطاع بعد ذلك أن يتابع دراسة عليا بقية التمهؤ لمركز في المستقبل . ولكن ما الذي يمكن أن تدرَّه لك دروس خاصة تعطيلها في بيوت أسر من التجار الروس الذين يدفعون أجر الساعة عشر كوبيكات ، ولا سيما حين يكون عليك أن تساعد أماً مريضة كسيرة ؟ وقد ماتت أمه في الاقليم النائي بعد ذلك ، فلم يكد يخرجها هذا مما هو فيه من عسر وضيق .

« والآن يُطرح سؤال : ما عسى يكون تفكير صاحبنا سليل الأمراء في هذا الأمر اذا هو أراد المدل والانصاف ؟ أغلب الظن أنك تقدّر أيها القارئ العزيز أنه قال لنفسه : ان « ب . . . » قد غمرني بفضله ونعمه طوال حياته . وقد أنفق عشرات الألوف من الروبلات على تعليمي ومرياتي وعلاجي بسويسرا . وأنا اليوم مليونير ، بينما أرى ابنه النذل ذاك ، البريء من أخطاء أب طائش نساً ، يرهق نفسه في اعطاء دروس

خاصة . ان كل ما أنفقه على أبوه انما ينبغي أن يعود اليه شرعاً وانصافاً !
ان جميع تلك المبالغ الضخمة التي ضحى بها أبوه في سبيل ليست ملكي
في حقيقة الأمر . فلولا خطأ ارتكبه الحظ الأعمى لكان ينبغي أن تثول الى
ابن « ب » ، ، وأن ينتفع هو بها لا أنا ، لأن « ب » لم يقفها على
الا من باب النزوة أو الحفة أو النسيان . فاذا كنت رجلاً شريفاً كل
الشرف ، مرهف الشعور تماماً ، عادلاً كل العدل ، لوجب أن أهب لابن
ذلك الرجل الذي أحسن اليّ وأنعم عليّ نصف ميراثي . ولكن لما كنت
رجلاً مقتصداً قبل كل شيء ، وكنت أعلم حق العلم أن مطالبة لا تستند
الى أى أساس قانوني فسوف امتنع عن مقاسمته ملايني . على انني اذا
لم أردّ اليه الآن ، على الأقل ، عشرات الألوف من الروبلات التي انفقها
على أبوه لشفاثي من بلاهتي ، فاني أرتكب عملاً ذنباً كل الدناءة ، حقيراً
كل الحقارة (نسي أن يضيف الى ذلك ان عمله يكون عندئذ « مفقراً الى
بعد النظر وحسن التبصر بالعواقب ») . ان المسألة لا تعدو أن تكون مسألة
ضمير وعدل وانصاف . اذ ما الذي كان يمكن أن أصير اليه لو أن
« ب » لم يكفلني ولم يتولّ تربيتي ، وانصرف باهتمامه الى ابنه
لا الى ؟ » .

« ولكن لا ، أيها السادة ! ان أبناء سلاطات الأمراء لا يفكرون في
الأمور هذا التفكير ! هل تصدّقون أن صاحبنا سليل أسرة الأمراء هذا
الذي نشأ بسويسرا لم يستجب أى استجابة للحجج الدامغة والأدلة
القوية التي ساقها له المحامي (يجب أن نذكر هنا أن المحامي حين قبل
أن يتولى شئون مصالح الشاب انما فعل ذلك من باب الصداقة ، ورغم ارادة
الشاب تقريباً) موضحاً ما توجبه قواعد الشرف وأخلاق الكرم ومبادئ
العدل ، بل ويوجبه أبسط احساس بالصلحة ذاتها .

« ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان وأمكن احتمالاه . ولكن اليكم

ما حدث مما لا يمكن غفرانه ولا يمكن أن يلتمس له عذر بأي مرض من الأمراض . ان هذا المليونير الذي لم يخلع لبادتي البروفسور عن حذاءيه الا منذ برهة قصيرة ، لم يستطع حتى أن يفهم أن هذا الشاب النحيل الذي كان يضني جسمه في العمل حتى لكأنه يقتل نفسه به قتلاً لم يتجه اليه طالباً الرأفة به والتصدق عليه ، وانما هو يطالبه بدين صريح ، وأن هذا الدين اذا كانت تعوزه المؤيدات القانونية فهو التزام يوجبه الحق . ذلك عدا أن الشاب لم يطلب شيئاً بنفسه ، لأن أصدقاء له هم الذين كانوا يتدخلون في الأمر نيابة عنه . وهذا هو صاحبنا سليل أسرة الأمراء يصطنع هيئة التعاضم ، ويستل من جيبه ورقة نقدية قدرها خمسون روبلاً ، فيقدمها الى الشاب النحيل صدقة وقحة ، وهو يشعر بكل ما يشعر به من كبر وخيلاء ، مليونير يعتقد أن كل شيء مباح . ألا تصدقون أيها السادة ؟ انكم مستاءون ثائرون ! انكم تطلقون صيحات استنكار ! ومع ذلك فان هذا هو ما حدث ! طبعي أن المبلغ قد رُدَّ اليه فوراً ، بل ألقى في وجهه القاءً ان صح التعبير !

« ما عسى تكون نتيجة هذه القضية ؟ لا كانت هذه القضية تفتقر الى أساس قانوني ، فانه لم يبق الا أن تُعرض على الرأي العام . فنحن لذلك نقل هذه القصة الى قرائنا مؤكدين لهم صحتها وصدقها . وقد نظم أحد شعرائنا الساخرين المشهورين ، نظم بهذه المناسبة أبياتاً جميلة تستحق أن يكون لها مكان في وصف أخلاقنا وعاداتنا لا بالاقليم وحدها بل بالعاصمة أيضاً . فاليكم هذه الأبيات :

ظل ليوفا اعواما خمسة *

يختال بمعطف شنابير *

يقضي وقته على عادته

في أنواع السفاسف والترهات *

- حتى اذا عاد وعلى حذاءيه لبادتان ضيقتان •
- ورث مليون روبل •
- انه يرتل صلواته بالروسية •
- لكنه يسرق الطلاب •

حين انتهى كولا من القراءة أسرع يناول الأمير الجريدة ، ومضى يعتصم بركن من الأركان دون أن يقول كلمة واحدة ، دافئاً وجهه في يديه • كان يشعر بخزي لا يطاق ، وكانت نفس الطفل التي هي نفسه لما تأنف بعدُ حقارات الحياة ودنائاتها ، فهو مضطرب الآن اضطراباً يفوق كل وصف • كل يخيل اليه أن شيئاً خارقاً للعادة قد حدث ، شيئاً سيعقبه انهيار كل شيء من حوله دفعةً واحدة ، وأنه سبب هذه الكارثة كلها بمعنى من المعاني ، لأنه قرأ هذه المقالة بصوت عالٍ جهاراً •

واتفق أن جميع الحضور قد راودهم شعور من هذا النوع •

أحست الفتيات بضيق وحياء • وكبحت الزيات بروكوفينا غضبها الذي بلغ أقصى حد • ولعلها كانت تشعر بندم مر على اقحامها نفسها في الأمر • فهي الآن صامتة لا تتكلم •

أما الأمير فكان يعاني المشاعر التي يعانيها الأفراد الحبولون جداً في مثل هذه الحالات : كان يحس بعار هذه الأفعال التي يقوم بها هؤلاء الزوار احساساً بلغ من القوة أنه لبث لحظة من الوقت لا يجرو أن ينظر الى أحد • وكان بتسين وفاريا وجانيا وحتى ليديف ، كانوا جميعاً يشعرون بخجل شديد واضطراب قوى • وأغرب ما في الأمر أن هيوليت و « ابن بافلشتشيف » كان يبدو عليهما هما أيضاً ، أنهما مدهوشان • وكان ابن أخت ليديف يصطنع هيئة عدم الرضى وقلة الارتياح • واحتفظ الملاكم وحده بهدوء كامل ، فكان يرفع شاربيه بوقار ويفض عينيه لا حرجاً

بل تواضعاً كريماً ، وشعوراً بانتصار صريح • كان واضحاً أنه معجب
بالمقالة اعجاباً شديداً •

دمدم ايفان فيدوروفتش يقول :

- الشيطان وحده يعلم مصدر هذه الدنائة ! لكأن خمسين حقيراً
اشتركوا في تلفيق حكاية تبلغ هذا المبلغ من الحسة !

قال هبوليت وهو يرتجف أشد الارتجاف من فرط الغضب :

- اسمح لى أن أسألك ، يا سيدى العزيز : بأى حق تفرض هذه
الافتراضات الجارحة ؟

وجمعهم الملاك يقول وقد ارتعش فجأة وأخذ يعقف شاربيه بينما
أخذت كفاه وجسمه تهتز بارتعادات :

- هذه ، هذه ، هذه اهانة ، يا جنرال ، بالنسبة الى سيد نبيل ،
بالنسبة الى رجل يجب أن تسلم بأنه سيد نبيل •

قال الجنرال بلهجة قاسية وقد اغضبه هذا الكلام أشد الغضب :

- أولاً أنا لست « سيدك العزيز » ؛ وثانياً ليس عندى ما أوضحه
لك أو أعتذر به اليك •

ثم نهض وتحرك حركة من يريد أن ينزل من الشرفة دون أن
يضيف كلمة واحدة ، ولكنه لبث واقفاً على الدرجة العليا ، مديراً
للحضور ظهره • لقد أزعجه أن يرى الزابت بروكوفيتنا لا يخطر ببالها
أن تنصرف ، حتى فى هذه اللحظة •

هتف الأمير يقول وقد امتلأ غماً وانفعالاً :

- أيها السادة ، أيها السادة ، دعوا لى أن أشرح لكم أمرى ، وأن

أبسط لكم عذري • أرجوكم : دعونا نتكلم على نحو يتيح لنا أن يفهم بعضنا عن بعض • ليس لدى ما أعقَّب به على هذه المقالة ، فلا تمودنَّ إليها • ولكن اعلّموا أيها السادة أن ما حوته باطل كل البطلان • أقول لكم ذلك لأنكم تعلمونه كما أعلمه • ألا ان هذا عار • لسوف يدهشني أشد الدهشة أن أعرف أن واحداً منكم هو الذي كتب هذه المقالة •

قال هيبوليت :

- حتى هذه اللحظة لم أكن أعرف عن هذه المقالة شيئاً • ولست أؤيدها أو أحبها •

وأضاف ابن ليديف الى ذلك قوله :

- أما أنا فكنت أعلم بوجودها ••• لكنني لو استشرت لما نصحت بنشرها • ان نشرها سابق لأوانه •

فتم ابن « بافلشتشيف » يقول :

- وأنا كنت على علم بأمرها ، ولكن هذا حقى ••• اننى •••

فسأله الأمير وهو يتفرس فيه مستطعاً مستغرباً :

- ماذا ؟ أأنت الذى لفتت هذا كله ؟ مستحيل •••

قال ابن ليديف :

- ليس من حَقِّك أن تلقى أسئلة كهذه الأسئلة •

- أنا لم أزد على أن عبّرت عن دهشتي من أن يكون السيد

بوردوفسكى قد استطاع أن ••• ولكن ••• على كل حال أريد أن أقول

لكم ما يلى : ما دمت قد نشرتم هذه القضية فى الجرائد ، فأنى لا أرى

السبب الذى أغضبكم منذ قليل حين أردت أن أتكلّم فيها أمام أصدقائى •

دمدتم الزبابت بروكوفينا تقول مستاعة :

- أخيراً ! •••

ونفذ صبر ليديف فانسل فجأة بين الكراسي وهو يكاد يكون
محموماً ، وقال :

- هناك نبي، نسبت أن تضيفه يا أمير : هو أنك اذا كنت قد
استقبلت هؤلاء الناس وأصغيت الى كلامهم ، فانما فعلت ذلك مدفوعاً اليه
بنبل نفسك وطيب قلبك . لم يكن من حقهم أن يطالبوا بذلك ، لا سيما
وأنت عهدت بالقضية الى جبريل أرداليونوفتش . فهذا دليل جديد على
فرط طيب قلبك . وانتك لتسى أيضاً يا سمو الأمير أنك الآن فى صحبة
أصدقاء مختارين مصطفىين لا تستطيع أن تضحي بهم فى سبيل هؤلاء
السادة . فأنت وحدك تملك أن تطرد هؤلاء ، وتلك مهمة يسرنى أنا
كثيراً ، بصفتى صاحب البيت ، أن ...

نادى الجنرال ايفولجين يقول من آخر الغرفة بصوت قوى :

- هذا صحيح كل الصحة .

وبدأ الأمير يتكلم فقال :

- كفى يا ليديف ، كفى ...

غير أن صيحات استياء واستنكار تفجرت فى كل جهة ففطت كلمات
الأمير ...

وصرخ ابن اخت ليديف صرخة غلب صوتها سائر الأصوات ،
فقال :

- لا يا أمير ، معذرة ؛ أصبح هذا غير كافٍ . يجب الآن أن توضع
النقط على الحروف ، اذ لا يبدو أن هناك رغبة فى فهمنا . ان بين الحضور
هنا من يدلى بحجج قانونية فيهددنا بالطرد . ولكن هل تظن يا أمير أننا
نبلع من الحماقة حداً يجعلنا لا ندرك نحن أنفسنا أن قضيتنا خالية من أى
أساس قانونى وأن القانون لا يجيز لنا أن نطالبك بروبل واحد ؟ اتسا

لكوننا ندرك هذه الحقيقة انما نقف على أرض الحق الانساني ، الحق الطبيعي ، الحق الذي يملكه الحس السليم والضمير الصادق . ليس أمراً ذا بال أن لا يكون ذلك الحق مكتوباً في نص قانوني بال عتيق ، لأن الانسان الذي يملك عواطف نبيلة ومشاعر شريفة ، أعنى الانسان الذي يملك سداد الرأي وسلامة الحكم ، من حقه أن يبقى وفياً لتلك العواطف والمشاعر ، حتى في الحالات التي تغفلها نصوص قانون المكتوب ولا تتكلم عنها . واذا كنا قد جئنا الى هنا دون أن نخشى الطرد (الذي هددتنا به منذ لحظة) بسبب مطالباتنا - ذلك أننا « نطالب » ولا « نرجو » - وبسبب أن مجيئنا قد تم في ساعة غير مناسبة (والحق أن مجيئنا لم يتم في ساعة متأخرة ، وانما أنت حجزتنا في حجرة المدخل) ، فانا لم نفعل ذلك الا لأتأكد أننا أن نجد فيك انساناً سديد الرأي سليم الحكم أى انساناً ذا شرف وضمير .

« نعم ، هذه هي الحقيقة ، فنحن لم نأتك أذلاءً نستجدي نعمك وآلاءك كطفيلين ، وانما دخلنا رافعين رؤسنا ، أحراراً لا يقدمون رجاء بل يبلغون انذاراً (هل سمعت ؟ انذاراً لا رجاء . لاحظ هذا) . انا تلقى عليك هذا السؤال جهاراً دون لف أو دوران : أعتقد أنك على حق أم على باطل في قضية بوردوفسكى ؟ هل تعترف بأن بافلشتشيف قد أحسن اليك وأنعم عليك ، وبأنك ربما كنت مديناً له بحياتك ؟ واذا كنت تعتقد بهذه الحقيقة الواضحة فهل تتنوى وهل تجد أن من الانصاف والعدل ، بعد أن أصبحت مليونيراً ، أن تعوّض عن الضرر ابن بافلشتشيف الذي يعيش الآن حياة بؤس ، دون أن يصدك عن ذلك أنه يحمل الآن اسم بوردوفسكى ؟ أنعم أم لا ؟

« فاذا قلت « نعم » ، أى اذا كنت تملك ما تسمونه بلفتكم شرفاً وضميراً ، وما نسميه نحن سلامة الحكم - وهذه تسمية أصدق - فما عليك

الا أن تبادر الى ارضائنا ثم لا تعودنَّ الى الكلام في هذا الأمر أبداً ؛ ما عليك
الا أن تسوَّى القضية دون أن تنتظر منا لا رجاء ولا شكراً ، لأن ما ستفعله
ان تفعله من أجلنا بل من أجل العدل .

« أما اذا رفضت ارضاءنا ، أى اذا قلت « لا » ، فستصرف فوراً ،
فقف القضية عند هذا الحد . لكننا نحرص على أن نقول لك دون تهيب ،
أمام هؤلاء الناس جميعاً ، انك انسان غليظ الفكر منحط الثقافة ، وانك
لن يحق لك بعد الآن أن تعد نفسك رجلاً ذا شرف وضمير . اتنا نطالب ،
ولا نستجدي !... » .

وتوقف ابن أخت ليديف عن الكلام . لقد تكلم مهتاجاً أشد
الاهتياج .

وتتم بوردوفسكى يقول وقد احمر وجهه احمراراً شديداً :

— اتنا نطالب ، نطالب ، نطالب ، ولكننا لا نستجدي !... » .

بعد الخطبة التي ألقاها ابن أخت ليديف سرت في الجمع حركة
شاملة ، وسُمت دمدمات متصلة ، رغم أن كل واحد كان يميل ميلاً
واضحاً الى أن يتحاشى اقحام نفسه في هذه القضية ، الا ليديف الذي
كان مهتاجاً مضطرباً . (شئ غريب : ان ليديف ، على كونه مناصراً
للأمير ، كان يبدو عليه نوع من الاعتزاز العائلي اثناء سماع كلام ابن اخته ؛
فكان يُجبل على الحضور نظرات يتجلى فيها رضى خاص ومسرة واضحة)
بدأ الأمير يتكلم فقال بصوت خافت بعض الحفوت :

— في رأيي أن في كلامك نصف حقٍ يا سيد دوكتورنكو ، بل اتنى
لأسلم بأن فيه أكثر من نصف حق ، وكان يمكن أن أوافقك كل
الموافقة لولا أنك أغفلت في حديثك أمراً من الأمور . وهذا الأمر لا أملك

أن أقوله لك على وجه الدقة ... المهم أن أقوالك يعوزها شيء ما حتى تكون صحيحة كل الصحة . ولكن فلتكنم في القضية نفسها أيها السادة ، فهذا أولى . قولوا لي : لماذا نشرتم تلك المقالة ؟ ألا تعتقدون أن فيها من النماذج بقدر ما فيها من ألفاظ ؟ رأيي أيها السادة أنكم ارتكبتم عملاً منحطاً .

- اسمح لي ...

- يا عزيزي ...

- آه ... هذا ... هذا ...

كذلك صاح الزائرون معاً في آن واحد وقد ظهرت عليهم علامات
الاحتياج .

وأجاب هيبوليت بصوته الحاد :

- أما عن المقالة فقد سبق أن قلت لك أنني لا أؤيدها ولا أحبها ، لا أنا ولا غيري . ان كاتبها هو هذا (قال هيبوليت ذلك وهو يوميء بيده الى الملاكم الجالس قربه) . أفر لك بأنها مقالة غير لائقة ، كتبها رجل غير متقف ، بأسلوب هو أسلوب أمثاله من العسكريين المحالين على التقاعد . انه رجل أحرق ، وانه فوق ذلك غشاش ، أوافقك على هذا . وأنا أكرر هذا الكلام على مسامعه كل يوم . ولكنني أضيف الى ذلك انه كان على بعض الحق : ان النشر حق يملكه جميع الناس شرعاً ، ويملكه اذن بوردوفسكي . واذا تضمنت المقالة سخافات فهو مسئول عنها . أما الاعتراض الذي أعلنته منذ قليل باسمنا جميعاً ، وهو الاعتراض الخاص بحضور أصدقائك ، فأنني أعتقد أن من الضروري أن أعلمكم أيها السادة أن ذلك الاعتراض لم يكن له من هدف الا تأكيد حقنا . فالواقع أننا كنا نريد أن يكون ثمة شهود ، حتى لقد اتفقنا نحن الأربعة على هذا قبل أن

ندخل ، فنحن نقبل الشهود أيًا كانوا ، ولو كانوا أصدقاءك ، اذ ما داموا لا يستطيعون أن يجحدوا حق بوردوفسكى (وهو حق بديهي كالرياضيات) فمن الأفضل أن يكونوا أصدقاءك ، لأن ذلك يظهر الحقيقة بوضوح أكبر وجلاء أعظم .

قال ابن أخيت ليديف مؤيداً :

– نعم لقد اتفق رأينا على ذلك .

فاعترض الأمير يقول مدهوشاً :

– اذا كانت هذه نيتكم ، فلماذا أحدثتم تلك الجلبة كلها وذلك الشغب كله منذ الكلمات الأولى من الحديث بيننا ؟

كان الملاك يحترق رغبة في أن يقول كلمة ، فتدخل يقول بلمهجة فيها تودد (نستطيع أن نخمّن أن وجود السيدات قد أثّر في نفسه تأثيراً قوياً) :

– فيما يتعلق بالمقالة يا أمير ، أعترف لك بأننى كاتبها فعلاً ، رغم أن صديقى المراض قد نقدها نقداً لاذعاً ، وذلك أمر أغفره له كما أغفر له ما عداه بسبب حالة الضعف التى هو فيها . ولكنى كتبها ونشرتها على شكل رسالة صحفية فى جريدة واحد من أصدقائى الخُلص . الأشعار وحدها ليست لى ، وانما نظمها شاعر ساخر مشهور . وقد قرأت المقالة لبوردوفسكى ، حتى اننى لم أقرأها كلها ، فأسرع بأذن لى بنشرها . لاحظ اننى لم أكن فى حاجة الى موافقته لنشرها . فالنشر حق عام ، نبيل ، مفيد ؛ وانى لأرجو يا أمير أن تكون أنت نفسك أكثر لبرالية من أن تتكر حق النشر ...

– لست أنكر حق النشر ، ولكن لا بد لك أن تعترف بأن مقالتك

تضمن ...

- تتضمن أشياء قاسية بعض القسوة ... أهذا ما تريد أن تقول ؟
ولكن هذه الأشياء لها ما يسوّغها من اعتبارات المصلحة الاجتماعية بمعنى
من المعاني . عليك أن تعترف أنت نفسك بذلك . ثم هل يستطيع المرء أن
يفوّت فرصة كهذه الفرصة ؟ نحن لا يهمنا الجناة ، فمصلحة المجتمع
فوق كل مصلحة ! أما فيما يتعلق بما ورد في المقالة من أمور ليست
صحيحة صحة تامة ، أقصد بعض المبالغات في التعبير ، فيجب عليك أن
تعترف أيضاً أن العبرة بالغاية المنشودة والنية المقودة ، والهدف المقصود .
فإنما المهم أن تقدم مثلاً مفيداً ، ثم يتسع وقتنا بعد ذلك للمناقشة في
حالات خاصة . وأما فيما يتعلق بالأسلوب أخيراً ، فهو الفكاهة الساخرة
طبعاً ، والناس جميعاً يكتبون بهذا الأسلوب ؛ عليك أن تعترف أنت
نفسك بذلك ، ها ها ها ! ...

صاح الأمير يقول :

- لكنكم ضللتكم الطريق أيها السادة ، أؤكد لكم ذلك . لقد نشرتم
المقالة وأتم تصورون أنني لا أريد أن أصنع شيئاً البتة للسيد بوردوفسكى ،
فحاولتم على أساس هذا الافتراض أن تخيفوني وأن تتقموا مني . ولكن
ما أدراكم ؟ لعلني أتوى ارضاء السيد بوردوفسكى . وهأنذا أعلن لكم
الآن بقول قاطع على رؤوس الأشهاد أن تلك هي نيتي ...

صاح الملاكم يقول :

- أخيراً ! هذا قول حكيم نبيل يصدر عن انسان حكيم نبيل !
وتهدت الزبابت بروكوفيتنا وهي تقول على غير ارادة منها :
- رباه !

ودمدم الجنرال قائلاً :

- هذا لا يطاق !

وتضرع الأمير يقول :

- اسمحوا لى يا سادة ، دعونى أبسط لكم القضية ! منذ نحو خمس أسابيع ، زارنى فى « ز » ، يا سيد بوردوفسكى ، زارنى مندوبك رجل الأعمال تشيياروف . لقد رسمت له فى مقالتك صورة أخاذه جداً ، ياسيد كيلر (أضاف الأمير ذلك ضاحكاً وهو يلتفت نحو الملاك) ، غير أن هذا الشخص لم يعجبني البتة فى الواقع . لقد أدركت منذ أول لحظة أن تشيياروف هذا هو المحرّض فى القضية كلها ، وأنه هو الذى ورطك يا سيد بوردوفسكى ، مستغلاً بسلطتك ... أقول لك هذا بكل صراحة .
نأنا بوردوفسكى يقول وقد بلغ الفيظ منه كل مبلغ :

- لا يحق لك ... انتى ... أنا ... أنا لست بسيطاً ...

وقال ابن اخت ليديف بلهجة الواعظ الناصح :

- لا يحق لك أن تفترض مثل هذه الافتراضات !

وصات هيوليت يقول بصوته الحاد :

- هذا شيء رهيب فطيع ! هذا افتراض جارح كاذب مهين ، وليس له بالقضية أية علاقة !

أسرع الأمير يبرىء نفسه قائلاً :

- عفوكم عفوكم يا سادة ! اعذروني ، أرجوكم . لقد قدّرت أن الأفضل أن يتكلم الطرفان كلاهما بصراحة تامة . ولكن لكم ما تشاؤون . أجبت تشيياروف باننى لى لى ببطرسبرج قد أسرعرت أرجو صديقاً لى بأن يتابع هذه القضية ، وقلت لتشياروف انتى سأقل النتيجة اليك أنت يا سيد بوردوفسكى . ولا أكتسكم أيها السادة أن تدخل تشيياروف هو الذى جعلنى أحس بأن فى الأمر غشاً . آه ... لا تزعلوا يا سادة ، ناشدتك الله ! لا تزعلوا !

كذلك هتف الأمير مرتاعاً حين رأى بوردوفسكى يعود الى الاحتياج،
وحين رأى اصحابه يهبون الى الاعتراض والاحتجاج • وتابع كلامه
فقال :

- حين أقول ان المطالبة بدت لي محاولة غش ونصب ، فان قولى
لا يمكن أن يتناولكم أنتم • لا تسوا أننى كنت لا أعرف حينئذ أى واحد
منكم • حتى لقد كنت أجهل أسماءكم • اننى لم أحكم على الأمر الا من
خلال تشيياروف • اننى أتكلم بصورة عامة ••• ليتكم تعلمون كم خُذعت
منذ آل الى هذا الميراث !

قال ابن ليديف بلهجة السخرية :

- أنت ساذج سذاجة رهية يا أمير !

وزاد هبوليت على ذلك فقال :

- وأنت عدا ذلك أمير ومليونير ! فرغم ما قد تملك من طية النفس
وبساطة القلب ، لا يمكنك أن تخرج على القانون العام •

فقال الأمير يجيب بسرعة :

- جائر ، جائز جداً ، وان كنت لا أفهم عن أى قانون عام تتكلم •
ولكننى أتابع كلامى ، فأرجوكم أن لا تهتاجوا فى غير داع الى احتياج ،
لأننى - أقسم لكم - لا أتوى أن أسىء الى شعوركم البتة ! ما هذا
يا سادة ؟ ألا يستطيع المرء أن يقول كلمة صدق دون أن تتوروا ؟

« لقد ذهلت حين علمت بوجود شاب يقال انه « ابن بافلشتشيف » ،
وحين علمت بحالة البؤس التى ذكر لى تشيياروف أنه يعيش فيها • ان
بافلشتشيف كان المحسن الى وكلان صديق أبى (آه يا سيد كيلر ، لماذا
كبت فى مقالاتك عن أبى أشياء تبلغ هذا المبلغ من البعد من الحقيقة ؟ انه
لم يسلب أموال سريته فى يوم من الأيام ، لا ولا أساء معاملة أحد

مرعوسيه قط • اننى مؤمن بهذا كل الايمان • كيف استطاعت يدك أن
تخط نسيمة كهذه النسيمة ؟) • وان ما قلته عن بافلشتشيف لا يمكن
قبوله البتة • أنت تزعم أن هذا الانسان النحيل كان داعراً فاسقاً ، وأنه
كان خفيفاً طائشاً • وأنت تقول هذا الكلام بثقة كاملة كأنما أنت تذكر
الحقيقة • والواقع خلاف هذا تماماً • لقد كان بافلشتشيف أعفّ انسان
فى العالم ! وكان عدا ذلك عالماً مرموقاً ؛ كان يرسل عدداً من الشخصيات
العلمية ، وقد وهب أموالاً كثيرة فى سبيل تقدم العلم • أما عن شهامته
وأعماله الحيرة ، فقد كنت على حق حين كتبت أننى كنت فى ذلك الحين
شبه معنوه أو أبله أو أهبل ، واننى كنت لا أستطيع أن أدرك من ذلك
شيئاً البتة (ومع هذا كنت أتكلم الروسية وأفهمها) • ولكننى الآن قادر
على أن أقضى برأى فى كل ما أتذكره ...

صرخ هيوليت يقول :

- اسمح لى ... دعك من العاطفيات • ما نحن بأطفال • لقد كنت
تريد أن تنضى الى جوهر القضية • والساعة الآن قد تجاوزت التاسعة •
لا تنس هذا !

فأسرع الأمير يوافق قائلاً :

- ليكن يا سادة ، أريد ذلك حقاً • هأنذا أعود الى القضية • قلت
لنفسى بعد شئ من الشك والارتياب : لعلنى مخطئ ، ولعل بافلشتشيف
أن يكون له ابن • غير أن الشئ الذى كان يبدو لى صعب التصديق هو أن
يعمد ذلك الابن ، بمثل هذه الحفة كلها ومثل هذا الطيش كله ، أن يفصح
سراً ولادته وأن يطلع شرف أمه علانية ، للناس قاطبة • ذلك أن
تسياروف كان قد هدّنى باذاعة الفضيحة ونشرها ...

هتف ابن ليديف يقول :

- يا للحماقة !

وصاح بوردوفسكى قائلاً :

- لا يحق لك ، لا يحق لك !...

وانبرى هيوليت يقول بصوته الحاد وقد احتاج احتياجاً شديداً :

- ليس الابن مسئولاً عن فجور أبيه ، وليست الأم مذنبه !

فقال الأمير خجلاً :

- فهذا فى رأى أدعى الى مداراة الأم والامتناع عن التشهير بها .

قال ابن أخت ليديف وهو يضحك ضحكة ساخرة :

- لست ساذجاً فحسب يا أمير ، فلعلك تتجاوز حدود البساطة ..

وسأله هيوليت بصوت لم يبق فيه نية طيعة :

- وأى حق كان لك أنت ؟

- لم يكن لى أى حق ، لم يكن لى أى حق ...

كذلك أسرع الأمير يضيف الى كلامه . ثم تابع فقال :

- أنت هنا على صواب ، أعترف لك بذلك . لكننى لم أستطع أن

أمتنع عن ذلك التفكير . ثم سرعان ما قدّرت أن انطباعى الشخصى يجب

أن لا يكون له فى القضية أى تأثير . فمتى كان من واجبى أن أرفض

السيد بوردوفسكى عرفاناً بجميل بافلشتشيف وتحيةً لذكراه ، فسيان

أن أحترم السيد بوردوفسكى وأن لا أحترمه ... واذا كنت قد حدثتكم

عن ترددى أيها السادة ، فانتى لم أفعل ذلك الا لأنه كان قد بدا لى أنه

من غير الطبيعى أن يكشف عن سرّ أمه للناس كافة ... الخلاصة : أن

هذا الدليل خاصة هو الذى أقننى بأن تشيياروف لا بد أن يكون وغداً

ورط السيد بوردوفسكى فى هذا الغش باحتيالات محسوبة .

صاح الزوار يقولون :

- آه .. هذا كلام يتجاوز جميع الحدود !

حتى أن بعضهم اندفع ينهض *

- أيها السادة ! ان هذا الدليل نفسه هو الذى جعلنى أحمّن أن السيد بوردوفسكى المسكين التيس هذا لا بد أن يكون متخلف العقل محدود الذكاء ، فهو لا يحسن أن يدفع عنه مكر الماكرين وأن يحمى نفسه من أحابيل الفشائين ، فرادنى ذلك شعوراً بواجب مساعدته ما دام « ابن بافلتشتيف » ، وذلك بثلاث طرق : أن أدراً عنه تأثير تشيياروف أولاً ، وأن أوجهه وأرشده باخلاص ومجبة ثانياً ، وأن أدفع له عشرة آلاف روبل ثالثاً ، وهو المبلغ الذى يساوى فى حسابى ما أنفقه على بافلتشتيف *

صاح هيوليت يسأل :

- ماذا ؟ عشرة آلاف روبل فقط ؟

وهنف ابن أخت ليديف :

- هيّا يا أمير ، لست قديراً فى علم الحساب ، أو قل انك قدير فى علم الحساب أكثر مما يجب ، رغم ما تصطنعه من بساطة *

وأعلن بوردوفسكى قائلاً :

- لا أقبل هذه العشرة آلاف روبل !

فهمس الملاكم يقول له بسرعة وهو يميل عليه من وراء كرسى هيوليت :

- اقبل يا آتيب !

وزأر هيوليت يقول :

- اعتذر يا سيد ميشكين ! عليك أن تفهم أننا لسنا أغنياء • نحن لسنا أولئك الأغنياء المفرطين في الغباوة الذين يفترضهم ضيوفك فيما يبدو ، لسنا أولئك الأغنياء الذين تصورهم هاته السيدات اللواتي ينظرن إلينا وهنَّ يتسمن ابتسامة احتقار ، أو يتصورهم خاصةً هذا السيد الذي ينتمى الى المجتمع الراقى (قال ذلك وهو يشير الى أوجين بافلوفتش) ، هذا السيد الذي لم أتشرف بمعرفته طبعاً ، ولكننى سمعت عنه أشياء كثيرة ...

قال الأمير بحرارة مضطربة :

- اسمحوا لى ، اسمحوا لى أيها السادة • لقد أخطأتم فهمى مرة أخرى • يجب أن أذكر أولاً أنك يا سيد كيلر قد قدَّرت ثروتى تقديرأ بعيداً عن الصحة كل البعد : فأنا لم أقبض ملايين ، ولعل ما أملكه لا يزيد على ثَمَن أو عَشْر ما تظنون • ثم ان ما 'أنفق على' بسويسرا ليس عشرات ألوف الروبلات : لقد كان شنايدر يتلقى ستمائة روبل فى السنة ؛ وهذا المبلغ نفسه لم يُدفع الا فى السنين الثلاث الأولى • أما عن المريات الجميلات ، فان بافلشتشيف لم يأت بمرية من باريس فى يوم من الأيام • فهذه أيضاً نسيمة • أعتقد أن المبالغ التى 'أنفقت على' تقل كثيراً عن عشرة آلاف روبل ، لكننى وافقت على ذلك الرقم • لا بد لكم من التسليم بأننى اذا كنت أرد ديناً فلا أستطيع أن أقدم للسيد بوردوفسكى مبلغاً أكبر من ذلك الدين ، مهما تكن عاطفة المحبة التى أحملها له • ذلك أن الشعور بأبسط قاعدة من قواعد الذوق يمنعنى من أن أظهر بمظهر من يتصدق عليه ، فى حين أننى أرد اليه ديناً • لا أدري أيها السادة كيف يمكن أن لا تفهموا عنى هذا الأمر • ولكننى أردت أن أقول أكثر من ذلك ، فأهـب للسيد بوردوفسكى هذا العائر الحظ ، صداقتى ودعمى • لقد لاحظت أنه خُدع وأنه غُررَ به ، فلولا ذلك لما رضى عن دناءة

كدناءة نشر ذلك المقال الذى كنبه السيد كيللر مشهراً فيه بأمه • ولكن
ما بالكم تفضبون من جديد أيها السادة ؟ لسوف ينتهى بنا الأمر الى أن
لا نفهم شيئاً البتة •

وختم الأمير كلامه قائلاً :

– صدق ظنى اذن ! لقد اقتنعت الآن اقتناع المشاهدة والعيان بأن
تخمينى كان صحيحاً صادقاً •••

قال الأمير ذلك متعشياً ، دون أن يلاحظ أن سامعيه كانوا أثناء
محاولته تهدئتهم يزدادون غضباً وغيظاً •

سألوه حاتقين :

– ماذا ؟ بماذا اقتنعت ؟

أجاب الأمير :

– استطعت أن أرى السيد بوردوفسكى على مهل ، فعرفت حقيقة
بنفسى ••• انه رجل برىء ، ولكن الجميع يخدعونه ويفرون به • هذا
انسان لا يملك عن نفسه دفاعاً ، فيجب على اذن أن أحبيه • ثم ان جبريل
آرداليونوفتش الذى كلفته بمتابعة هذه القضية ثم لم تصلنى أنباءه منذ
مدة طويلة بسبب سفرى وبسبب مرضى أثناء الأيام الثلاثة التى قضيتها
ببطرسبرج ، اقول ان جبريل آرداليونوفتش هذا قد أطلعنى على نتائج
تحرياته منذ ساعة ، فى أول لقاء بيننا ، فأبلغنى أنه كشف النقاب عن جميع
مراعى تشيياروف وأهدافه ، وأنه يملك البرهان القاطع على أن جميع افراضاتى
عن هذا الرجل صحيحة • أنا أعلم تماماً أيها السادة أن كثيراً من الناس
يعدوننى أبله • فلما سمع تشيياروف اننى انسان مبسوط الكف ، وان
انتزاع المال منى أمر يسير ، قدّر بأن فى وسعه أن يخدعنى بسهولة ،
مستغلاً ما أحمله للمرحوم بأفلشتشفس من شعور الشكر والامتنان ومن

عاطفة العرفان بالجميل • غير أن الأمر الأساسي ... ما بالكُم أيها السادة ؟ أرجو أن تصفوا الى كلامي حتى النهاية ... أقول ان الشيء الأساسي هو أنه قد ثبت الآن بالدليل القاطع أن السيد بوردوفسكى ليس ابن بافلشتشيف ! لقد أبلغنى جبريل آرداليونوفتش هذا الاكتشاف منذ هنيهة ، مؤكداً أن ثمة أدلةً ثابتة وبراهين قاطعة • فما قولكم ؟ انه يصعب على المرء أن يصدقَ هذا الكلام بعد جميع ما عوملت به من اهانة واذلال ! واسمعونى جيداً : ان ثمة أدلة ثابتة وبراهين قاطعة • أنا نفسى لمّا أصدقها بعد • أؤكد لكم اننى لا أستطيع تصديقها • ما زلت أشك فى صحتها ، لأن جبريل آرداليونوفتش لم يتسع وقته لأن يذكر لى جميع التفاصيل • غير أن هناك واقعة أصبحت ثابتة لا مجال للشك فيها ، هى أن تشيياروف وغد ، فهو لم يقتصر على أنه أضلّ السيد بوردوفسكى المسكين ، وانما أضلكم أتم جميعاً أيها السادة ، أتم الذين جثم الى هنا على نية نبيلة وغاية شريفة هى أن تدعوا صديقكم وأن تسندوه (ذلك أنه فى حاجة الى الدعم والسند ، فهذا أمر أفهمه حق فهمه) • لقد ورطكم تشيياروف ، ورطكم جميعاً فى قضية غش ونصب واحتيال ، لأن هذه القضية ليست الا غشاً ونصباً واحتيالاً •

هتف الجميع يقولون من كل جهة :

- كيف ؟ غش ونصب واحتيال ؟ كيف هذا ؟ ليس هو • ابن بافلشتشيف • ؟ كيف يمكن أن يكون هذا ؟

أصبحت عصبه بوردوفسكى كلها فى حالة انصحاق !
قال الأمير :

- هى قضية غش ونصب واحتيال طبعاً ! اذا ثبت الآن أن السيد بوردوفسكى ليس ابن « بافلشتشيف » ، فان مطالبته تصيح غشاً ونصباً

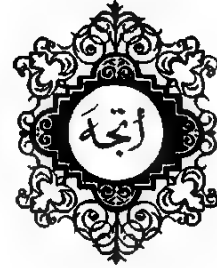
واحتيالا لا أكثر (هذا اذا كان يعرف الحقيقة طبعا) . ولكن الواقع أنه خُدع وغُرر به . اتنى ألح على هذه النقطة لأبرئه من الجرم ، وأزعم أن بساطته تجعله جديراً بالشفقة عاجزاً عن الاستغناء عن سند يدعمه . والا كان يمكن أن يعد شريكاً فى النش والنصب والاحتيال فى هذه القضية . لكننى مقتنع منذ الآن أنه لا يفهم من الأمر شيئاً ؛ ولقد كنت أنا نفسى على هذه الحال الى حين سفرى الى سويسرا . كنت أتمتم بأقوال غير مترابطة كنت أريد أن أعبر عما توافينى الكلمات اتنى أدرك هذا ! وأنا أنشفق عليه وأرئى لحاله وأتعاطف معه ، لأننى كنت فى مثل وضعه تقريباً . فمن حقى اذن أن أتكلم عن هذا الأمر . وانى لأعلن لكم فى الختام ، رغم أنه لا وجود الآن لأحد هو « ابن بافلشتشيف » ، أعلن لكم اتنى ما زلت متمسكاً بقرارى ، ما زلت مستعداً لأن أدفع للسيد بوردوفسكى مبلغ عشرة آلاف روبل ، نتيجةً لذكرى بافلشتشيف . لقد كنت أنوى ، قبل السيد بوردوفسكى ، أن أفف هذا المبلغ على انشاء مدرسة ، تمجيداً لذكرى بافلشتشيف . ولكن أصبح يستوى الآن عندى أن أفف هذا المبلغ على انشاء مدرسة أو أن أهبه للسيد بوردوفسكى ، لأنه ان لم يكن « ابن بافلشتشيف » فهو قريب من ذلك ، ما دام قد اعتقد صادقاً بأنه ابن بافلشتشيف ، نتيجةً للتضليل والخداع الذى كان ضحيته . استمعوا الى جبريل آرداليونوفتش أيها السادة . فلنفرغ من هذا الأمر دفعةً واحدة . لا تقضبوا ، ولا تضطربوا ! اجلسوا ! سيشرح لكم جبريل آرداليونوفتش القضية كلها ؛ وانى لأعترف بأننى أحترق شوقاً الى معرفة التفاصيل . هو يقول انه ذهب الى بسكوف يا سيد بوردوفسكى ، وقابل أملك التى لم تمت كما زعمت المقالة اجلسوا ايها السادة ! اجلسوا !

جلس الأمير هو نفسه ، واستطاع أن يجلس أصدقاء السيد بوردوفسكى الذين كانوا يضطربون ويتحركون ولا يستقرون على حال .

لقد ظل ربع ساعة يتكلم بعاطفة حارة ، وصوت قوى ، وتدفق سريع ،
واندفاع شديد ، محاولاً أن يسيطر على صيحات التعجب وصرخات
الاستنكار ! وهو الآن نادم نداماً مرّاً على أن أفلتت منه تميزات وأقوال
كان ينبغي أن لا تفلت . فلولا أنه استثير وأُخرج عن طوره ان صح
التعبير لا أجاز لنفسه أن يفصح بمثل هذا الوضوح وهذه القسوة عن
بعض تخميناته ، ولما أجاز لنفسه أن يتساق هذا الانسياق في صراحة زائدة
لا داعي اليها ولا محلّ لها . فما ان جلس حتى أحسّ بندامة أليمة
تقبض قلبه : انه لا يكتفى الآن بمؤاخذة نفسه على أنه «أهان» بوردوفسكى
اذ وصفه على رموس الأشهاد بأنه مصاب بالمرض الذى ذهب هو الى
سويسرا لمعالجته ، بل يزيد على ذلك فيلوم نفسه على أنه عامله معاملة قظة
خالية من اللطف والذوق اذ عرض عليه العشرة آلاف روبل الموقوفة على
انشاء مدرسة ، عرضها عليه صدقةً أمام جميع الناس . قال الأمير يخاطب
نفسه : « كان ينبغي لى أن أنتظر فأقدمها اليه غداً فى خلوة بنى وبينه .
هذه خرافة لا سبيل الى اصلاح ما أفسدته ! نعم ، انتى أبله ، أبله ، حقاً ! »
بهذا ختم الأمير كلامه لنفسه وهو يشعر بأشد الحجل والحزى
والعار !

بعد ذلك ، تلبيةً لدعوة الأمير ، تقدم جبريل آرداليونوفتش الذى
ظل متنجياً حتى ذلك الحين ولم ينطق بكلمة واحدة ، تقدم نحو الأمير
وجلس الى جانبه وأخذ يشرح ، بصوت واضح رصين ، المهمة التى عهد
به اليها ، فأنقطمت الأحاديث فجأة ، وأخذ جميع الحضور ، ولا سيما
بوردوفسكى ، يصيخون السمع باهتمام قوى وفضول شديد .

الفصل التاسع



جبريل آرداليونوفتشس بالكلام فى أول الأمر الى
بوردوفسكى الذى كان مضطرباً اضطراباً واضحاً
وكان يحدق اليه متنبهاً أشد الانتباه ، وقد
امتلات نظرتة دهشة • قال له جبريل
آرداليونوفتشس :

- لا شك فى أنك لن تنكر ولن تجحد ، جاداً ، أنك وُلدت بعد
انقضاء عامين على الزواج الشرعى بين أمك المحترمة وأبيك الموظف
بوردوفسكى • انه لمن السهل جداً تحديد تاريخ ميلادك بواسطة وثائق
ثابتة وسجلات دقيقة • أما تزوير هذا التاريخ فى مقالة السيد كيللر ،
ذلك التزوير الذى يهين كرامة أمك ويهين كرامتك فى آن واحد ، فان
تفسيره الوحيد هو خيال السيد كيللر الذى كان يظن أنه يخدم بذلك
مصلحتك اذ يجعل حَقَّك أوضح • لقد صرَّح السيد كيللر بأنه قرأ لك
المقالة قبل نشرها ، ولكنه لم يقرأها كاملة ••• فمما لا شك فيه أنه
أسقط من قراءته تلك الفقرة •••

قاطع الملاكم يقول :

- فعلاً ، لم أقرأ له تلك الفقرة • ولكن جميع الوقائع انما نقلها
الى شخص مطلع ، وأنا •••

قال جبريل آرداليونوفتشس :

- معذرة يا سيد كيللر ، دعنى أكمل كلامى • أعددك بأننا سنتكلم
عن مقالتك فى الوقت المناسب ، فتقدم الينا عندئذ ما لديك من تفسيرات •
أما الآن فالأفضل أن تتبع تسلسل العرض • لقد حصلت ، بمصادفة محض
وبمعاونة أختى باربارا أرداليونوفنا بتسسينا ، حصلت من صديقتها الحسنة
فيرا ألكسينا زوبكوفنا ، وهى أرملةٌ صاحبة أملاك ، على رسالة كان
المرحوم نيقولاى آندريفتش بافلستشيف قد كتبها إليها منذ أربعة وعشرين
عاماً حين كان فى الخارج • وبعد أن اتصلت بفيرا ألكسينا اتجهت ، عملاً
بإشاراتها ، الى كولونيل محال على التقاعد اسمه تيمونى فيدوروفتش
فيازوفكين ، وهو واحد من أقرباء المرحوم كان صديقاً حميماً له •
فاستطلعت أن أحصل منه على رسالتين أخيرتين من نيقولاى آندريفتش
مكتوبتين من الخارج هما أيضاً • ان المقابلة بين التواريخ والوقائع المذكورة
فى هذه الوثائق الثلاث تثبت بدقة رياضية لا تدع مجالاً لأى اعتراض أو
أى شك ، أن نيقولاى آندريفتش عاش فى ذلك الأوان بالخارج خلال
ثلاث سنين ، وأن سفره الى الخارج انما تمَّ قبل ولادتك بسنة ونصف سنة
على وجه الدقة يا سيد بوردوفسكى • وأنت تعلم أن أمك لم تخرج من
روسيا طول حياتها ••• ولن أقرأ لك الآن تلك الرسائل لأننا فى ساعة
متأخرة ، ولكننى أقرر الواقعة فحسب • فإذا شئت يا سيد بوردوفسكى أن
نلتقى غداً عندى ، بحضور شهودك (وليكن عددهم ما شئت !) وأن تجيء
بخبراء فى الخطوط ، فلسوف تضطر الى التسليم بالحقيقة البديهية التى
أذكرها لك • انى من هذا لعل يقين • ومتى سلّمت بهذه الحقيقة ، سقطت
القضية كلها من تلقاء نفسها طبعاً •

استولت على جميع الحضور ، من جديد ، حركة انفعال عميق •
ونهض بوردوفسكى عن كرسيه فجأة • وقال :
- اذا كان الأمر كذلك فقد خُذعت اذن ، نعم خُذعت ، ولكن ليس

تشيباروف هو الذى خدعنى ، ويرجع هذا الى زمن بعيد ، بعيد جداً !
لا أريد خبراء فى الخطوط ، ولن أجيء اليك • انتى أصدّك • وأتنازل
عن دعواى ••• وأرفض العشرة آلاف روبل ••• استودعكم الله !••
قال بوردوفسكى ذلك وهو يتناول قبعته ، ويدفع كرسيه ، ويهم
أن يخرج •

فقال له جبريل آرداليونوفتش بلهجة تصطنع الرقة والعذوبة :
- ابقى قليلاً ، ولو خمس دقائق ، اذا كنت تستطيع ذلك ، يا سيد
بوردوفسكى • ان هذه القضية تكشف أيضاً عن أمور خطيرة الشأن جداً ،
ولا سيما بالنسبة اليك ، وهى على كل حال أمور تبلغ غاية الطرافة • وفى
رأى أنك لا تستطيع أن تستغنى عن معرفة هذه الأمور ، وقد تقبّل
نفسك على أنك جلوت المسألة كلها وأخرجتها الى النور •••

جلس بوردوفسكى دون أن يقول كلمة واحدة ، جلس مائلاً
برأسه الى أمام ، على وضع انسان مستغرق فى التفكير أعمق الاستغراق •
وجلس أيضاً ابن أخت ليديف الذى كان قد قام ليخرج معه • لقد كان
يبدو عليه الاضطراب والتشوش ، وان لم يفقد هدوء الأعصاب ولا هيئة
الوقاحة • وكان هيبوليت مظلم الوجه حزين النفس ، مصعوقاً بعض
الشيء ، هذا الى أن نوبة من سعال قد استبدت به فى تلك اللحظة وبلغت
من القوة أن منديله تلتطخ كله بالدم • وبدت على الملاك أمارات الانسداد ،
وهتف يقول مخاطباً بوردوفسكى بلهجة فيها مرارة :

- آ ••• ألم أقل لك يا آتيب ••• منذ مدة ••• أمس الأول •••
ان من الجائز فعلاً أن لا تكون ابن بافلشتشيف !
فاستقبل هذا الاعتراف بضحكات مخنوقة • وعجز اثنان أو ثلاثة
عن كظم شعورهما فانفجروا يضحكون فى قهقهة مجلجلة •

تابع جبريل آرداليونوفتش كلامه فقال :

- ان لهذا الأمر السير الذى كشفت لنا عنه الآن يا سيد كيلر
لقيمة كبيرة . وفى وسعى أن أؤكد مع ذلك ، بناءً على أدق المعلومات ،
أن السيد بوردوفسكى ، على علمه الكامل بتاريخ ميلاده ، كان يجهل
أن بافلشتشيف كان مقيماً فى تلك الآونة بالخارج ، حيث قضى الشطر
الأكبر من حياته دون أن يعود الى روسيا الا فترات قصاراً . ثم ان تلك
السفرة كانت أهون شأنًا فى ذاتها من أن تحفظها ، بعد انقضاء أكثر من
عشرين عاماً عليها ، ذاكرة أقرب المقرّبين الى بافلشتشيف من أصدقائه ،
ناهيك عن ذاكرة السيد بوردوفسكى الذى لم يكن قد وُلد فى ذلك
الأوان . صحيح أن تقصّى أمر تلك الرحلة الى الخارج لا يبدو متعذراً
أو مستحيلاً ، ولكن يجب أن أعترف أن جهود التقصى التى بذلتها أنا
كان يمكن أن لا تؤدي الى نتيجة ، وان المصادفة هى التى يسّرت لى جمع
ما جمعته من معلومات ، بحيث كان يمكن أن لا تثمر مثل تلك الجهود ،
وأن لا يكون لها أى حظ من النجاح ، لو قام بها السيد بوردوفسكى ،
أو حتى تشيياروف ، هذا اذا خطر ببالهما أن يفعل ذلك . ولكن من
الجائز أن ذلك لم يخطر لها ببال

قاطع هيوليت يقول فى غضب :

- اسمح لى يا سيد ايفولجين ، عسى هذا اللغو الطويل كله ؟
(معذرة !) . لقد أصبحت القضية واضحة وعرفنا جوهر الأمر . فلماذا
هذا الالحاح المؤلم الجارح ؟ أم تُراك تريد الافتخار ببراعتك فيما قمت
به من بحوث ، وتريد أن تُظهر الأمير وتظهرنا على ما تملك من مواهب
الباحث المتقصى والمحقق المتحرى ؟ أم أنت تريد أن تعذر بوردوفسكى
وأن تبرئه بالبرهنة على أن الجهل هو الذى قاده الى هذه الحالة ؟ ولكن
هذه وقاحة أيها السيد العزيز ! ان بوردوفسكى ليس فى حاجة الى ان

تفضل عليه بالتبرئة ، فاعلم ذلك ! هذه امانة له ، ما أغناه عن هذا وهو
فيما هو فيه الآن من وضع مؤلم محرج . كان عليك أن تدرك هذا ، وأن
تفهمه ...

قال جبريل آرداليونوفتش مقاطعاً :

- طيب يا سيد تيرتسييف ! كفى ! هدىء روعك ! لا تندفع كثيراً !
أعتقد أنك مريض جداً ، أليس كذلك ؟ اننى أشاطرك ألمك . لقد أنهيت
كلامي ، اذا كنت تريد ذلك ! أو قل اننى مستعد لأن أختصر الوقائع التى
كان لا يخلو من فائدة ، فى رأى ، أن تُعرف كاملة ...
أضاف ايفولجين ذلك وقد لاحظ فى الحضور حركة تشبه أن تكون
رغبة فى الاستماع اليه . وتابع كلامه فقال :

- فمن أجل أن أثير الأشخاص الذين يهتمون بهذه القضية انما
أحرص على أبيتين ، والبراهين فى يدي ، أن أملك يا سيد بوردوفسكى قد
حظيت من بافلشتشيف بأنواع من الرعاية والعناية لأنها كانت أخت
خادمة شابة من بلد نيقولاى آندريفتش ، خادمة أحبها فى شبابه الأول
وكان يمكن أن يتزوجها حتماً لولا أنها ماتت فجأة . اننى أملك براهين
ثابتة على هذه الواقعة التى لا تُعرف الا قليلاً بل قل نُسيت نسياناً تاماً .
هذا وأستطيع أن أشرح لك كيف كفل السيد بافلشتشيف أمك حين لم
يكن عمرها الا عشر سنين فأنفق على تعليمها ووقف لها مهرأ كبيراً . ان
علامات التعلق هذه قد ولدت بعض المخاوف لدى أقرباء السيد
بافلشتشيف ، وهم كثيرون جداً ، حتى ظن بعضهم أن الرجل سيتزوج
الفتاة التى كفلها . ولكن أمك حين بلغت العشرين من عمرها تزوجت
موظفاً بمصلحة المساحة اسمه بوردوفسكى ، زواجاً قائماً على الميل ، وهذا
كله أستطيع أن أتى ببراهين عليه . وقد جمعت كذلك بيانات دقيقة توضح
أن أباك ، السيد بوردوفسكى ، الذى لم يكن يملك أى موهبة تمكنه من

النجاح فى الأعمال الحرّة ، قد بادر الى ترك الوظيفة بعد قبض مهر أمك ، وهو خمسة عشر ألف روبل ، واندفع فى مشروعات تجارية ، فخذع وفقد رأس ماله ، ثم لم يستطع تحمل هذه الضربة فأخذ يشرب ، فدمر بذلك صحته ومات قبل الأوان ، بعد زواجه بسبع سنين أو ثمانى سنين . وقد شهدت أمك نفسها أنها عاشت فى أعقاب موت أليك حياة فقر مدقع وعوز شديد ، حتى لقد كان يمكن أن تضع لولا المساعدة السخية الكريمة المتصلة التى قدّمها اليها بافلشتشيف اذ خصّها بايراد سنوى قد يبلغ ستمائة روبل . وهناك شهادات لا حصر لها تدل على أن بافلشتشيف قد محضك منذ طفولتك أشد العطف وأكبر الحنان . ويُسْتدل من تلك الشهادات ، وقد أيدتها أمك ، على أن سبب ذلك العطف وذلك الحنان هو فى الدرجة الأولى أنك كنت فى طفولتك الأولى عىّ اللسان ضعيف الجسم هزيلًا نحيلًا ، وكان بافلشتشيف طوال حياته - وأنا أملك البرهان على ذلك - يشعر بعطف خاص على أولئك الذين أساءت الأقدار أو أساءت الطبيعة معاملتهم ، ولا سيما اذا كانوا أطفالًا . وفى رأيى أن لهذه الخاصة شأنها الكبير فى القضية التى تهمننا الآن . وأستطيع أخيراً أن أنباهى باننى حققت اكتشافاً رئيسياً هو الاكتشاف التالى : ان العاطفة القوية التى كان يحملها لك بافلشتشيف (والتى بفضلها دخلت المدرسة وتابعت تعليمك باشراف ادارة خاصة) قد جعلت أقرباء وأصدقاء يتصورون شيئاً فشيئاً أنك قد تكون ابنه ، وأن أباك الشرعى قد لا يكون الا زوجاً خاتمه امرأته . غير أن من الضرورى أن نضيف الى ذلك أن هذا التصور لم يبلغ من القوة حدّ الاقتناع الكامل الشامل الا فى السنين الأخيرة من حياة بافلشتشيف ، حين أخذ المحيطون به يخشون أن يكتب وصيته بينما كانت الوقائع الأولى قد نُسيت وبينما كانت التحريات قد أصبحت مستحيلة . ولعل هذا الظن قد وصل الى مسامعك يا سيد بوردوفسكى ولعله استولى على فكرك .

وكانت أمك ، التي تشرفت بمعرفتها شخصياً ، على علم بهذه الشائنة أيضاً ، ولكنها ما تزال تجهل أنك صدقت هذه الشائنة أنت ابنا (أخيت أنا عنها ذلك) • يا سيد بوردوفسكى ، لقد وجدت أمك المحترمة ، فى بسفوك ، مريضة معوزة أشد العوز بعد وفاة بافلستشيف • وقد أعلمتني ، ودموع الاعتراف بالجميل تملأ عينيها ، أنها اذا كانت ما تزال تعيش ، فانما هى تعيش بفضلك وبفضل مساعدتك • وهى تعقد على مستقبلك آمالاً كبيراً ، وتؤمن ايماناً حاراً بأنك ستنجح • • • • »

نفذ صبر ابن أخت ليديف فصاح يقول :

— هذا يتجاوز كل حد أخيراً ! ما فائدة هذه القصة الروائية كلها ؟
وتحمس هيوليت فقال :

— هذه وقاحة مثيرة !

ولكن بوردوفسكى لم يقل كلمة ، بل لم يتحرك •

ورد جبريل آرداليونوفتش وهو يتسم ابتسامة مأكرة وينتهي لحاتمة قارصة ، فقال :

— ما فائدة هذا ؟ فائدته أولاً أن يستطيع السيد بوردوفسكى الآن أن يقتنع بأن بافلستشيف قد أحبه مدفوعاً لا بفريزة الأبوة بل بعظمة النفس • فهذه الواقعة وحدها كانت تتطلب أن تُقرّر ما دام السيد بوردوفسكى قد أكد وأيد منذ قليل ، بعد قراءة المقالة ، مزاعم السيد كيللر • أقول هذا لأننى أعدك رجلاً مهذباً يا سيد بوردوفسكى • وفائدة ذلك ثانياً أنه قد اتضح الآن أن نية النصب والاحتيال لم يكن لها وجود حتى عند تشيباروف • اننى أحرص على اللاحاح على هذه القطعة ، ذلك أن الأمير قد قال منذ لحظة ، أثناء احتدام المناقشة ، اننى أشاطره شعوره بأن فى هذه القضية المشنومة محاولة غش ونصب واحتيال • بالعكس : ان الجميع هنا كانوا صادقين • قد يكون تشيباروف محتالاً كبيراً ، ولكنه فى

الحالة الراهنة لم يكن الا رجلاً بارعاً ومحامياً محترفاً ومشاكساً لجوجاً .
كان يأمل أن يربح مالا كثيراً من حيث هو محام ، وكان حسابه لا يتصف
بالبراعة فحسب ، بل يتصف كذلك بأنه يقوم على أساس قوى : لقد كان
يعتمد على ما يتميز به الأمير من أنه رجل سهل العطاء ، ومن أنه يقدر
ذكرى المرحوم بافلستشيف ، ومن أنه أخيراً (وخاصة) يفهم واجبات
الشرف والتزامات الضمير فهماً فروسياً . أما السيد بوردوفسكى فيمكن
أن نقول عنه انه بسبب بعض اقتناعاته ، قد انقاد لتأثير تشيياروف وتأثير
المحيطين به انقياداً جعله يتورط فى هذا الأمر بدون أية منفعة شخصية
تقريباً ، وانما الخدمة قضية الحقيقة والتقدم والانسانية بمعنى من المعانى .
أما وقد انجلت الآن جميع الوقائع ، فمن الواضح أن السيد بوردوفسكى
رجل صادق رغم جميع المظاهر ، ففى وسع الأمير أن يعرض عليه مساعدته
الودية ومعوته الفعلية التى عرضها عليه منذ قليل بمناسبة كلامه عن
المدارس وعن بافلستشيف ، بل فى وسعه أن يعرضها عليه الآن بمزيد من
طيب الخاطر وطوع الارادة .

صاح الأمير يقول بلهجة فيها زعر صادق :

- قف يا جبريل آرداليونوفتش ! اسكت !

ولكن الأوان كان قد فات . فها هو ذا بوردوفسكى يصرخ قائلاً

فى حلق شديد :

- قلت ... قلت ثلاث مرات اننى أرفض هذا المال . لا ... لن

أأخذه ... لماذا أخذه ؟ أنا لا أريده ! اننى ذاهب ...

قال ذلك وركض على الشرفة ، فأدركه ابن اخت ليديف وأمسكه
من ذراعه وهمس له ببعض الكلام . فعاد عندئذ مسرعاً ، فاستل من جيبه
ظرفاً كبيراً غير مفضوض ورماه على منضدة صغيرة كانت بقرب الأمير ،
قائلاً :

- اليك المال !... ما كان ينبغي لك أن تجرؤ على أن تقدمه الى !
اليك المال !...

وقال دكتورنكو شارحاً :

- هي الروبلات المائتان والخمسون التي أبحث لنفسك أن ترسلها
اليه صدقةً بواسطة تشيياروف •

قال كولا متعجباً :

- المقالة لا تشير الا الى خمسين روبلاً !

قال الأمير وهو يقترب من بوردوفسكى :

- أنا آثم في حقك، أنا آثم جداً في حقك يا بوردوفسكى • ولكننى لم
أرسل اليك هذا المبلغ صدقةً • صدقتنى • وما زلت آثماً في حقك حتى
الآن ••• أثمت في حقك منذ قليل (كان الأمير مشوشاً مضطرباً ؛ كان
يبدو متعباً موهناً ، وكانت أقواله مفككة) • لقد تكلمت عن غش ونصب
واحتيال ••• ولكن ذلك لا يتناولك أنت • انتى أخطأت • قلتُ انك
مريض مثلى ••• مثلى • ولكن لا ، ما أنت مثلى • أنت تعطى دروساً ،
وأنت تساعد أمك • ولقد قلت انك لطخت شرف أمك ، والحقيقة أنك
تحبها • هى نفسها تقول ذلك ••• لم أكن أعلم ••• لم يحدثنى جبريل
أرداليونوفتش عن هذا كله من قبل • انتى أخطأت • وقد تجرأت
فعرضت عليك عشرة آلاف روبل ، فكان هذا منى اسامة • كان ينبغي لى
أن أتدبر الأمر بطريقة أخرى ••• وقد أصبح هذا مستحيلاً الآن ، لأنك
تحتقرنى •••

قالت اليزابت بروكوفينا :

- هذا مستشفى مجاني !

فقال آجلًا يا مؤيدة " وقد أصبحت لا تستطيع السيطرة على نفسها
وكبح جماح غضبها :

- هو حتمًا مستشفًى مجانيين !

ولكن كلماتها ضاعت في خضم لفظ شامل وجلبية كاملة •
الجميع يتكلمون الآن ويتنافسون بصوت عالٍ • فبعضهم يتساجرون ،
وبعضهم يضحكون • وكان إيفان فيدوروفتش أيباتشين ساخطًا حاقًا ،
ينتظر الزايت بروكوفينا انتظار رجل أسى إلى مهابته وأهين كرامته •
وأراد ابن أخت ليديف أن يدس كلمة أخيرة ، فقال :

- طيب يا أمير ! يجب أن نصفك فنعترف لك بأنك تحسن الاستفادة
... من مرضك (إذا أردنا أن نستعمل كلمة مهذبة) • لقد بلغت من
الحذق والبراعة في عرض صداقتك ومالك أنه أصبح يستحيل على رجل
شريف أن يقبلهما في أية صورة من الصور ، وعلى أى شكل من الأشكال
... هذا افراط في السذاجة أو افراط في المكر ... أنت أدري بذلك
من أى أمان على كل حال •

هتف جبريل آرداليونوفتش يقول ، وكان في أثناء ذلك الوقت قد
فضَّ الطرف الذي يضم المال :

- اسمحوا لى يا سادة : ليس في الطرف مائتان وخمسون روبلاً ،
بل مائة روبل فحسب • انتى أذكر هذا يا أمير تحاشياً لكل التباس قد
يؤدى إلى سوء تفاهم !

قال الأمير لجبريل آرداليونوفتش وهو يحرك يده بإشارة تملل :

- دع هذا ! دع هذا !

فأسرع ابن أخت ليديف يردُّ بقوله :

- لا ، لا تدع هذا ! ان قولك « دع هذا » فيه اهانة لنا يا أمير !
اتنا لا تتخفى ، اتنا نتكاشف صراحة : نعم ، ليس في الطرف الا مائة روبل
لا مائتان . ولكن الأمرين واحد . أليس الأمران واحداً ؟

أجاب جبريل آرداليونوفتش بلهجة فيها دهشة ساذجة :

- لا ، ليس الأمران واحداً !

فصرخ ابن اخت ليديف يقول غاضباً حائقاً :

- لا تقاطعنى . لسنا أغنياء الى الحد الذى تظن يا سيادة المحامى .
واضح أن مائة روبل ليست مائتين وخمسين روبلاً . لكن الشيء الهام
هنا انما هو المبدأ . أما أن ينقص المبلغ مائة وخمسين روبلاً فذلك أمر
تفصيلي . ان الشيء الأساسى هو أن بوردوفسكى لا يقبل صدقتك وأنه
يرميها فى وجهك أيها الأمير العظيم ! فمن هذه الناحية ، وعلى هذا الأساس
يستوى أن يردّ مائة وأن يردّ مائتين وخمسين . لقد رأيت بنفسك منذ
قليل أنه رفض عشرة آلاف . ولولا أنه رجل شريف لما ردّ حتى هذه
المائة روبل ! ان المائة وخمسين روبلاً الناقصة انما دُفعت لتشياروف
لقاء نفقات سفره حين مضى يلقي الأمير . لك أن تسخر من خرافتنا ومن
جهلنا فى شئون الأعمال . وقد بذلت قصارك لتتدّر بنا وتضحك علينا
فى كل حال . ولكن لا تسمحنّ لنفسك بأن تقول اتنا أناس غير شرفاء !
أيها السيد العزيز ، نحن مسئولون جميعاً عن دفع المائة وخمسين روبلاً
للأمير ، نعم ، سوف نرد اليه المبلغ كاملاً مع الفوائد ولو اضطررنا أن
نرده روبلاً روبلاً . ان بوردوفسكى فقير . ما هو بالمليونير . وقد قدم
اليه تشياروف فاتورة الحساب بعد رحلته . وكنا نأمل أن نربح ٠٠٠ من
ذا الذى يمكن أن لا يفعل الذى فعل ، لو كان فى مكانه ؟

صاح الأمير « شتت ٠٠٠ » يقول :

- يا له من سؤال !

وهتفت اليزابت بروكوفينا :

- أمور تدفع المرء الى الجنون !

وقال أوجين بافلوفتش ضاحكاً ، وكان قد ظل يلاحظ المشهد مدة طويلة دون أن يتحرك :

- هذا يذكر بالمرافعة التي ألقاها في الآونة الأخيرة محام شهير كان موكله قد قتل ستة اشخاص ليسرقهم . لقد أشار المحامي الى الفقر ليبرر الجريمة ، وحتم كلامه بهذه الكلمات تقريباً : « واضح أن الفقر هو الذى أثبت في ذهن موكل فكرة قتل أولئك الأشخاص الستة . من ذا الذى يمكن أن لا تثبت هذه الفكرة في ذهنه لو كان في مكانه ؟ » . لقد قال المحامي كلاماً من هذا النوع . ومهما يكن من أمر فقد كان استدلاله في منتهى الطرافة والفكاهة !

قالت اليزابت بروكوفينا فجأة وهي ترتعش أشد الارتعاش من فرط الغضب :

- كفى كفى ! آن لنا أن نضع حداً لهذا اللغو السخيف ، والهدر التافه !

كانت اليزابت بروكوفينا في حالة احتياج رهيب . وها هي ذى ، وقد ردت رأسها الى وراء ولاحت في وجهها علامت التهديد ، ترشق الحضور جميعهم بنظرة تحد واستفزاز ، لا تميز فيهم بين أصدقاء وأعداء . ان حنقها الذى طال كظمه ينفجر أخيراً وينطلق عارماً قوياً . كانت في حاجة الى أن تقاتل وتعارك ، كانت في حاجة الى أن تهوى على أى مخلوق بأقصى سرعة . فسرعان ما أدرك الذين يعرفونها أن شيئاً خارقاً يحدث الآن في نفسها . لقد قال ايفان فيدوروفتش في الغد للأمير « شئت .. »

ان هذه النوبات تقتربها أحياناً ، ولكنها قلماً تكون على مثل هذه الدرجة من العنف - فلعلها لا تبلغ هذا الحد من القوة الا مرة كل ثلاث سنين !

صاحت اليزابت بروكوفيتنا تقول :

- كفى يا ايفان فيدوروفتش ! دعنى ! لماذا تقدم الى ذراعك الآن ؟ انك لم تخرجنى من هذا المكان قبل هذه اللحظة ، وأنت الزوج ورب الأسرة فكان ينبغى لك أن تجرئنى من أذنى لو بلغت من الحماقة حد الامتناع عن طاعتك واتباعك . كان ينبغى لك أن تفكر فى بناتك على الأقل ! لأهتدين الى طريقى الآن بدونك ، بعد هذه المهانة التى سأظل أحمر خجلًا منها طوال سنة بكاملها ! .. انتظر ، على أن أشكر الأمير أيضاً ! .. شكرًا يا أمير على هذه البهجة العظيمة التى هيأتها لنا ! كيف ارتضيتُ لنفسي أن أبقى هنا لأصغى الى كلام هؤلاء الشبان ؟ يا لها من حطة ! يا لها من حطة ! .. فوضى ، فضيحة ، جرسه ، لا يرى المرء مثلها حتى فى كابوس ! هل هناك أناس كثيرون من هذا النوع ؟ .. اسكتي يا أجلايا ! اسكتي يا الكسندرا ! ليس هذا شأنكما ! .. لا تدر حولى هذا الدوران يا أوجين بافلوفتش ، انك تنير أعصابي ! ..

وعادت تخاطب الأمير فتقول :

- أهكذا اذن يا عزيزي ؟ أنت الذى تستغفرهم ؟ « لا تؤاخذونى على اننى سمحت لنفسي بأن أهدى اليكم ثروة ... هكذا يقول لهم » ! .. والتفتت الى ابن أخت ليديف فقالت فجأة :

- وأنت أيها الوقح ، ما الذى يضحك ؟ هذا يقول : « نحن نرفض المبلغ المعروض . اتنا نطالب ولا نستجدى ! » ، كأنه لا يعلم أن هذا

الأبله سيمضى يعرض عليهم صداقته وماله منذ الغد ! أليس هذا ما ستفعله
يا أمير ؟

أجاب الأمير بصوت رقيق مغلوب :
- نعم !

فعدت تهتف قائلة لدكتورنكو :

- هل سمعته ؟ ذلك بعينه هو ما تموّل عليه • لكن هذا المال فى
جيبك منذ الآن • فإذا كنت تتظاهر بالشسم والعظمة ، فانك لا تفعل ذلك
الا لتخدعنا ... لا يا عزيزى ، اخدع غيرى ان استطعت • أما أنا فان
لى عينين تبصران ... انتى أرى لمبتك !

هتف الأمير :

- اليزابت بروكوفينا !

فاقترح الأمير « شئت ... » قائلاً وهو يتسهم ويصطنع أكبر
الهدوء :

- فلتنصرف يا اليزابت بروكوفينا ! آن الأوان وأكثر ! ولناخذ
الأمير معنا •

كانت الأسات متحيات حتى لكأنهن مروّعات • أما الجنرال فكان
مروّعاً بالفعل • وكانت الدهشة تُقرأ فى جميع الوجوه • وكان بعض
الذين بقوا فى الحلف يضحكون خفية ويتهامسون • وكانت هيئة ليديف
تعبر عن أقصى الوجد والنشوة •

قال ابن أخت ليديف ، وهو يشعر مع ذلك بغير قليل من الحرج :

- الفوضى والفضائح يا سيدتى موجودة فى كل مكان !

فأجابت اليزابت بروكوفينا تقول بحق متشنج :

- لا الى هذا الحد ، لا الى هذا الحد !

وأضافت تقول للذين حاولوا أن يهدّثوها :

- هلاًّ تركتموني وشأني ! دعوني وشأني !

واتجهت الى أوجين بافلوفتش فقالت :

- اذا استطاع محام أن يعلن في المحكمة ، كما ذكرت أنت نفسك منذ هنية يا أوجين بافلوفتش ، أنه يرى أن من الطبيعي جداً أن يقتل امرؤ ستة اشخاص بدافع الفقر ، فهذا دليل على اقتراب الساعة . لم أسمع في حياتي شيئاً من هذا القيل . الآن أصبح كل شيء واضحاً لي . انظروا الى هذا الثناء مثلاً (قالت ذلك وهي تشير الى بوردوفسكى الذى كان ينظر اليها مشدوهاً) : أهو يتسورع عن أن يقتل ؟ أراهن على أنه سيقتل أحداً . قد لا يأخذ العشرة آلاف روبل ، قد يرفضها بشرف وإباء . ولكنه ما يلبث أن يعود في الليل ، فيذبحك ويسرق المال من صندوقك بشرف وإباء أيضاً ! لن يعدّ ذلك عملاً إجرامياً . سوف يعدّهُ « نوبة يأس نيل » ، أو يعدّهُ « بادرة انكار ورفض » ، أو ما لا أدري أيضاً ! .. هه ... العالم مقلوب ، الناس يسعون على رءوسهم لا على أقدامهم . ان فتاة تربت في منزل أبيها تقفز اليوم الى الشارع قائلة لأُمها : « يا ماما ، تزوجت بالأمس فلاناً ، كارلنش أو ايفاتنش ، فأستودعكم الله ! » . هل ترون هذا حسناً ؟ هل تعدونه أمراً لائقاً ؟ هل تجدونه شيئاً طبيعياً ؟ أهذه قضية المرأة ؟ انظروا الى هذا الصبي (قالت ذلك مشيرة الى كولا) لقد زعم لي منذ مدة أن قضية المرأة هي ذلك بعينه . هب أمك غيبة حمقاء ! ان هذا لا ينفي أن عليك أن تعاملها معاملة انسانية ! .. لذا دخلتم منذ قليل بتحدٍ واستفزاز كأنكم تقولون : « اتنا نتقدم ، فلا تتحركوا ! اعطونا جميع الحقوق ولكن اياكم أن تقولوا بحضورنا كلمة واحدة . أحيطونا بجميع أنواع الرعاية والمدارة ، ما تعرفون منها وما لا تعرفون . ولكننا

سنعاملكم نحن كما يعامل أحقر خادم ! » • انهم يسمعون الى الحقيقة ، ويستندون الى الحق ، ولكن ذلك لا يمنعهم من أن يفتروا على الأمير في مقالاتهم افتراء الكفرة • « ونحن نطالب ولا نستجدي • لن نتألوا منا أية كلمة تعبر عن الشكر ، لأن ما تفعلونه انما تفعلونه لراحة ضميركم أتم ! » يا لها من أخلاق رائعة ! كيف لا تدرك أنك حين تعفى نفسك من أى شكر فانما تتيج للأمير أن يجيبك من جهته بأنه غير مضطر أن يشعر بأى امتنان نحو بافلشتشيف ، لأن بافلشتشيف لم يفعل ما فعله ، هو أيضاً ، الا لراحة ضميره • فكيف تموت اذن على شعور الأمير بالامتان نحو بافلشتشيف ؟ ان الأمير لم يقتض منك مالا ، فهو غير مدين لك بشئ • فعلى أى شئ اعتمدت اذا لم تكن قد اعتمدت على ذلك الشعور بالامتان ؟ ولماذا ترفض اذن ذلك الشعور ؟ ألا ان هذا لضللال ! هؤلاء أناس يهتمون المجتمع بالقسوة والتجرد من الانسانية لأنه يجعل بالعار فتاة أغويت ؟ وهم حين يفعلون ذلك يعترفون بأن الفتاة المسكينة تتألم من المجتمع • فكيف يجيزون لأنفسهم ، والحالة هذه ، أن يذيعوا خطيئتها بواسطة الجرائد على أشرار الناس وأن يدعوا أنها لن تتألم من هذا التشهير بها ؟ ألا ان ذلك لجنون ! ألا ان ذلك لتبجح وادعاء ! انهم لا يؤمنون بالله ولا بالمسيح • ولكن الفرور والصلف يأكلان نفوسهم أكلاً ، ولينتهين بهم الأمر الى أن يلتهم بعضهم بعضاً • أنا أقول لكم ذلك • أنا أتبأ لكم به ! أليس هذا جنوناً وفوضى وجرسة ؟ وانظروا من بعد الى هذا الرجل الذى لا حياة له ، الى هذا الرجل الذى يستغفرهم ! هل يوجد أناس كثيرون من أمثالكم ؟ أتضحكون ساخرين ؟ ألا أنتى أذلت نفسى بالتورط فى الكلام معكم ؟ نعم ، لقد أذلت نفسى بذلك حقاً ، ولا سبيل الى اصلاح الأمر ••• أما أنت ، أيها التافه الذى لا يصلح لشيء (وجهت هذا الكلام الى هيسوليت) ، فانتى أنهاك عن الضحك منى ! انه لا يكاد يستطيع التنفس ، ولكنه يفسد

الآخرين • لقد أفسدت لى هذا الصبي (قالت ذلك مشيرةً الى كولا من جديد) • فهو لا يحلم الا بك • انك تلقنه الالحاد • أنت لا تؤمن بالله ، مع أنك ما تزال ، أيها السيد الصغير ، فى سنٍ يجوز فيها جلدك ! • • على كل حال ، اذهبوا جميعاً الى جهنم ! يا ليون نيقولا يفتش ، أصبح حقاً أنك ستذهب اليهم غداً ؟ أذهب اليهم فعلاً ؟

ألت على الأمير هذا السؤال وهى تكاد تختنق غيظاً • فأجابها الأمير بقوله :

- نعم ، سأذهب •

- اذا صدق هذا فلا أريد أن أعرفك بعد اليوم !
وهمت بالانصراف فجأة ، ولكنها لم تلبث أن التفتت تسأله وهى تشير الى هيبوليت :

- أذهب الى هذا الملحد أيضاً ؟

وأضافت صائحة تقول بصوت غير ممهود فيها ، وقد هجمت على هيبوليت الذى أخرجتها ضحكته الساخرة عن طورها :

- مالى أراك كمن يسخر منى ؟

فصاحت أصوات تنادىها من كل جهة :

- اليزابت بروكوفينا ! اليزابت بروكوفينا !

وهتفت أجاليا تقول بصوت قوى :

- ماما ! • • • هذا عيب ! • • •

كانت اليزابت بروكوفينا قد وثبتت على هيبوليت فأمسكت ذراعه تشدها شداً قوياً بحركة مندفعة ، وتفرس فى وجهه بنظرة تفيض حقاً وسخطاً •

قال هيوليت بهدوء وحرصانة :

- لا تجزعي يا آجلايا ايفانوفنا. لسوف تدرك أمك أن المرء لا يهجم على مريض يُحتضر ... واني لستعد على كل حال لأن أشرح لها لماذا كنت أضحك ... سوف يريخني كثيراً أن أفلح في أن ...

غير أن نوبة سعال رهيب قد اعترته فجأة ولم يستطع أن يكبحها .
هفت اليزابت بروكوفينا تقول وهي تترك ذراع هيوليت وت نظر اليه ، مذعورة بعض الذعر ، حين رأته يمسح الدم الذي طفر الى شفثيه :
- محتضر لا يكف عن القاء خطب ! ماذا تريد أن تقول ؟ أو لي بك أن تمضي الى فراشك فترقد ...

أجابها هيوليت قائلاً بصوت ضعيف محجوب يشبه أن يكون همساً :

- ذلك ما سأفعله . فما ان أصل الى البيت حتى أرقد في فراشي .
سأمت بعد خمسة عشر يوماً ، أنا أعرف ذلك . ان الدكتور « ب » ، نفسه قد أعلن لي هذا في الاسبوع الماضي . لذلك سأودعكم بكلمتين ، اذا أذنت لي .

صاحت اليزابت بروكوفينا تقول مروعة :

- أحسب أنك فقدت عقلك ! ما هذه الحماقة ؟ عليك أن تعالج نفسك . ليس الوقت وقت أحاديث وخطب . امض امض الى سريرك ! ...
قال هيوليت مبتسماً :

- سأرقد في سريري ... وسأرقد رقاداً لا قيام بعده . أمس أردت أن أرقد منتظراً الموت ، ثم أمهلت نفسي يومين ما دامت ساقاي تستطيعان أن تحملاني ... بغية أن أجيء معهم اليوم الى هنا ... ولكنني تعبت حقاً ...

قالت له اليزابت بروكوفينا وهي تقدم اليه بنفسها كرسياً :

- فاجلس اذن ! اجلس ! لماذا تبقى واقفاً ؟

قال هيوليت بصوت منطفيء :

- شكراً • اجلسي أمامي ولتحدثي يجب أن نتحدث حتماً
يا اليزابت براكوفينا انني أصرُّ على هذا الآن (أضاف ذلك
مبتسماً من جديد) • لاحظي أن هذا اليوم هو آخر يوم أقضيه في الهواء
الطلق بين الناس • وبعد خمسة عشر يوماً سأكون تحت التراب حتماً •
فهذا اذن وداع للبشر وللطبيعة بمعنى من المعاني • انه ليسرني جداً ، رغم
انني لست عاطفياً كثيراً - هل تصدقين ؟ - أن يتم هذا في بافلوفسك ؟
فهنا أرى الخضرة والاشجار على الأقل

قالت اليزابت بروكوفينا وكان ارتباعها يزداد دقيقة بعد دقيقة :

- أهذا أوان الاكثار من الكلام ؟ انك تعاني حمى شديدة • منذ
قليل كنت تصيح صياحاً قوياً ، كنت تعمل اعوالات شديداً • وهأت ذا
الآن لا تكاد تستطيع أن تتنفس •

- لن أتأخر عن الخلود الى الراحة • لماذا لا تريدني أن تستجيب
لرغبتى القصوى ؟ هل تعلمين أنني أحلم منذ مدة طويلة بأن ألك
يا اليزابت بروكوفينا ؟ لقد سمعت عنك كثيراً من كوبا الذى
هو الشخص الوحيد الذى لم يهجرني الشخص الوحيد تقريباً
أنت امرأة أميل الى الطرافة والغرابة والتفرد أدركت هذا الآن
هل تعلمين أنني أحبتك بعض الحب ؟

- رباه ! ما كان أغباني حين أوشكت أن أضربه !

- ان آجلانيا ابقانوفنا ، اذا لم يخطئ ظني ، هي التى نهتك عن

ذلك ! أليست هي ابتك آجلايا ايقانوفنا ؟ انها تبلغ من الجمال اننى ما ان
أبصرتها هنا حتى عرفتها ، رغم اننى لم أكن قد رأيتها قبل اليوم قط .

وأردف هيوليت يقول وهو يتسم ابتسامة خرقاء مرتبكة :

- دعى لى على الأقل أن أتأمل الجمال لآخر مرة فى حياتى ! أنت هنا
مع الأمير ، ومع زوجك ، ومع حفل بكامله . فلماذا ترفضين أن تلبى آخر
رغبة لى ؟

صاحت اليزابت بروكوفينا تقول :

- اعطونى كرسياً !

ولكنها لم تنتظر أن يعطيها أحد كرسياً ، بل تناولت بنفسها مقعداً
من المقاعد وجلست قبالة هيوليت . ثم قالت تأمر كوليا :

- كوليا ، اصحبه الى البيت فى الحال ؟ وغداً لن يفوتنى أنا نفسى
أن ...

- اذا أذنت لى ، طلبتُ من الأمير فنجان شاي . اننى أشعر بتعب
شديد . ألم تكونى تريدین ، يا اليزابت بروكوفينا ، أن تصطحبى الأمير
الى بيتك لاحتساء الشاي ؟ فابقوا اذن هنا ، ولتقض لحظة معاً . لا شك
أن الأمير سيأمر لنا جميعاً بشاي . اغفرى لى تصرفى هذا ... ولكننى
أعلم أنك طيبة القلب نبيلة النفس . وكذلك الأمير ... نحن جميعاً
طيبون الى درجة تبعث على الضحك ...

تحرك الأمير . وخرج ليديف من الشرفة راكضاً ، وأسرعت
فيرا تتبعه .

قالت الجرالة فجأة :

- أنت على حق . تكلم ، ولكن فى رفق وهدوء ، ولا تدع للمهيجان
سيلاً الى نفسك . لقد أثرت حنانى ... يا أمير ، ما كنتَ لتستحق أن

أشرب الشاي في بيتك ، ولكننى أبقى مع ذلك ، دون أن اعتذر لأحد .
نعم ، دون أن أعتذر لأحد ! والا كان ذلك منى سخفاً ! على كل حال ،
إذا كنت قد أسأت معاملتك يا أمير ، فائنى اعتذر اليك وأطلب مغفرتك ،
إذا أنت أردت طبعاً !

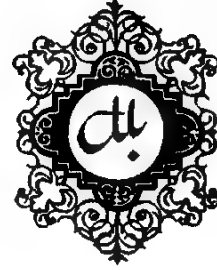
ثم أضافت تقول لزوجها وبناتها بلهجة حائقة كل الحق كأنها حاقدة
عليهم من اساءة كبيرة ألحقوها بها :
- ولست أجبر أحداً أن يبقى معى ، فائنى أستطيع أن أرجع الى
البيت وحدى ...

ولكنهم لم يدعوها تم كلامها ، بل اسرعوا يقتربون منها ، ويحيطون
بها ، ويسعون حولها . وما لبث الأمير أن رجا الجميع أن يبقوا لاحتساء
الشاي ، واعتذر عن أنه لم يبادر الى هذا من قبل . حتى الجنرال ايباتشين
هشّ وهشّ فقال بضع كلمات تطيّب الحواطر وتهدىء النفوس ، وسأل
اليزابت بروكوفينا أليست تشعر فى الشرفة بشيء من البرد ، حتى لقد همّ
أن يسأل هيبوليت منذ متى التحق بالجامعة ، ولكنك أمسك . وامتلاً أوجين
بافلوفتش والأمير « شتش » ... ، مرحاً وفرحاً على حين فجأة . وعبر
وجهها آديلايد وألكسندرا عن السرور والرضى رغم احتفاظهما بمعنى
الدهشة والتعجب . الخلاصة أن الجميع قد أسعدهم اسعاداً واضحاً أن
نوبة الغضب التى اعترت اليزابت بروكوفينا قد انقضت بسلام ، الا أجابا
وحدها ، فقد ظلت عابسة الوجه صامته متعجبة . وبقي سائر أفراد
الجمع ، لم يشأ أحد منهم أن ينصرف ، حتى الجنرال ايفولجين . ولكن
ليديف همس يقول له شيئاً لا بد أنه لم يرضه ، ففاب فى ركن من
الأركان .

واقرب الأمير من بوردوفسكى وصحبه يدعوهم الى احتساء
الشاي دون أن يستنى أحداً . فجمعوا يقولون بصوت أجش انهم

سوف ينتظرون هيبوليت ، ثم أسرعوا ينسحبون الى زاوية من الشرفة
حيث جلسوا جنباً الى جنب •
لا بد أن ليديف كان قد أمر باعداد الشاي لأصحابه منذ مدة طويلة،
لأن الشاي قد قُدِّمَ فوراً •
ودقت الساعة الحادية عشرة •

الفصل العاشر



هيوليت شفته بفتحجان الشاي الذي قدمته اليه
فيرا ليديفا ، ثم وضع الفتحجان على منضدة صغيرة،
ثم ألقى على ما حوله نظرة محرجة مرتبكة تكاد
تكون زائغة .

وقال متدفقاً :

- انظري الى هذه الفناجين يا اليزابت بروكوفينا . انها من خزف،
بل هي من أجمل الخزف فيما أظن . ان ليديف يحتفظ بها دائماً في خزانة
صغيرة وراء زجاج . . . ولا يستعملها قط . . . لا شك في أنها كانت
جزءاً من مهر زوجته . . . وقد أخرجها اليوم تكريماً لك من غير شك . .
فالي هذا الحد وصل سروره واغباطه . . .

أراد هيوليت أن يضيف شيئاً آخر ، لكن الكلمات لم توافه .

فهمس أوجين بافلوفتش يقول في اذن الأمير :

- ها هو ذا يضطرب ويرتبك . . . لقد كنت أتوقع ذلك . هذا
خطر ، أليس صحيحاً ؟ تلك علامة ثابتة على أن خبث نفسه وسوء سريره
سيوحيان اليه تصرفاً يبلغ من الشذوذ أن اليزابت بروكوفينا نفسها لن
تطبق احتماله .

ألقى عليه الأمير نظرة سائلة مستفهمة . فتابع أوجين بافلوفتش
كلامه فقال :

- ألا تخشى التصرفات الشاذة ؟ أما أيضاً لا أخشاها ... حتى انى
أتمناها ، على الأقل عقاباً لصاحبتنا الطيبة الزابت بروكوفينا • يجب أن
تعال هذا العقاب فى هذا اليوم نفسه • لا أريد أن أنصرف قبل ذلك •
أترك مصاباً بحمى ؟

أجاب الأمير ذاهل الهيئة متمللاً :

- سأجيبك فيما بعد • لا تمننى من الاصفاء •

كان الأمير قد سمع اسمه يُذكر • ان هيبوليت يتحدث عنه • فهو
يقول ضاحكاً ضحكاً عصبياً :

- ألا تصدِّقَين هذا ؟ كنت أتوقع أن لا تصدِّقيه • أما الأمير فسوف
يصدقنى دفعةً واحدة ، ولن يدهش البتة •

قالت الزابت بروكوفينا وهى تلتفت اليه :

- أسمع يا أمير ؟ أسمع ؟

وكان الجمع يضحكون من حولهم • وكان ليديف يصطنع هيئة
القلق ويدور أمام الجنرالة •

- هو يدعى أن هذا المهرج مؤجَّرٌك قد راجع مقالة هذا السيد ،
أعنى المقالة التى قرئت لك هذا المساء والتى تناولت •
نظر الأمير الى ليديف مدهوشاً •

واستأنفت الزابت بروكوفينا كلامها وهى تضرب الأرض بقدمها
قائلة :

- ما بالك تهمت ؟

فندم الأمير يقول وهو ما يزال يحدق الى ليديف :

- انى لأرى أنه قد راجع المقالة حقاً •

فالتفتت اليزابت بروكوفينا نحو ليديف بقوة وسألته :

- أهذا صحيح ؟

فقال ليديف بثقة تامة وهو يضع يده على قلبه :

- هذه هي الحقيقة بعينها يا صاحب السمو •

فصاحت الجنرالة تقول وقد وثبت عن كرسيتها :

- لكأنه يتباهى بهذا !

فتتم ليديف قائلاً وقد أخذ يلطم صدره ويخني رأسه شيئاً بعد شيء :

- أنا رجل منحط ! أنا رجل منحط !

- لا يعني أن تقول أنك منحط ! هو يظن أنه يكفيه أن يقول « انه منحط » حتى يخرج من المأزق وحتى يبرىء ذمته • يا أمير ، مرة أخرى أسألك : ألا تستحي أن تعاشر أمثال هؤلاء الناس ؟ انني لن أغفر لك هذا أبداً •

قال ليديف بلهجة فيها اقتناع وعاطفة :

- سيسامخني الأمير !

وأمرع كيلر يقترب من اليزابت بروكوفينا ، فيقف أمامها ، ويقول بصوت منفجر :

- من باب الكرم وحده يا سيدتي ، ومن أجل أن لا أفضح صديقاً معرضاً للأذى ، انما سكت منذ قليل عن مراجعته لمقالاتي فلم أجيء على ذكرها ولا أشرت إليها ، رغم أنه اقترح رمينا الى أسفل السلم كما سمعت ذلك بأذنيك • ففي سبيل أن أقرر الحقيقة أعترف الآن بأنني أستعنت به في ذلك فعلاً ونقده ستة روبلات أجراً • لم أطلب اليه أن ينقح

الأسلوب ، وإنما طلبت إليه أن يكشف لي ، بصفته مصدراً مطلعاً ، على وقائع كنت أجهل أكثرها . فكل ماورد ذكره في المقالة عن لبادتي الحذاءين اللذين كان يتعلهما الأمير ، وعن اشباع الأمير نهمه على نفقة البروفسور السويسرى ، وعن الخمسين روبلاً التى ذكرت بدلاً عن المائتين وخمسين المدفوعة فعلاً ، كل هذه المعلومات كان هو مصدرها . وقد نقدته ستة روبلات أجراً على هذا لا على تصحيح اللغة وتنقيح الأسلوب .

قاطع ليديف كلام كيللر فقال نافذ الصبر بصوت يزحف من ذله زحفاً ان صح التعبير ، بينما كانت الضحكات تتضاعف من حوله :

- يجب أن ألقت النظر الى أنتى لم أراجع من المقالة الا الجزء الأول . فأتنا حين وصلنا الى الجزء الثانى اختلفت آراؤنا حتى لقد تشاجرنا بصدد فكرة جئت بها ، فعدلت عن تصحيح الجزء الثانى من المقالة . فلا يمكن اذن أن أعدّ مسؤولاً عما تضمنه من أخطاء كثيرة وأقاويل كاذبة .

- ذلك ما يشغل باله !

كذلك هتفت اليزابت بروكوفيتنا .

قال أوجين بافلوفتش يسأل كيللر :

- هل تسمح لى أن أسألك متى تمت مراجعة المقالة ؟

فأجابه كيللر طائفاً :

- صباح أمس . اجتمعنا اجتماعاً تعاهدنا على أن يبقى بيتنا سرّاً

مكتوماً لا نطلع عليه أحداً .

قالت اليزابت بروكوفيتنا :

- ذلك بينما كان يزحف أمامك معلناً لك ولاءه وإخلاصه . يا لهؤلاء

البشر ! فى سمك أن تحتفظ بوشكين ، ولا تظهرنْ بنتك عندي قط !

وأرادت اليزابت بروكوفينا أن تنهض ، لكنها وقد رأَت هيوليت
يضحك ، حوَّلت غضبها إليه قائلة :

— ماذا يا عزيزى ؟ هل آليت على نفسك أن تتخذنى هنا هزواً ؟
فأجاب هيوليت وهو يتسم ابتسامة خرقاء :

— معاذ الله ! لكنك يا اليزابت بروكوفينا قد خطفت انتباهى بما
تصفين به خاصةً من غرابة لا يصدقها العقل ! أعترف لك بأننى تعمدت
أن أثير موضوع ليديف • كنت أتوقع الأثر القوى الذى لا بد أن يحدثه
فيك هذا الموضوع ، أن يحدثه فيك أنت وحدك ، لأن الأمير سيفغر له
حتماً ، بل لا شك فى أنه قد غفر له منذ الآن ؛ ولعله قد وجد لفعلته
عذراً • أليس هذا صحيحاً يا أمير ؟

كان هيوليت يلهث ، وكان انفعاله الغريب يقوى عند كل كلمة
يقولها •

قالت اليزابت بروكوفينا غاضبةً وقد فجأتها لهجة صوته :
— هيه ، وماذا ؟

فتابع هيوليت كلامه قائلاً :

— سبق أن سمعت عنك أشياء كثيرة من هذا النوع ••• بفرح شديد
••• لقد تعلمت أن أحترمك أعظم الاحترام •

كان يتكلم وفى هيئته ما يدل على أنه يريد أن يعبر عن شيء آخر
يختلف كل اختلاف عما كان يقوله • وكان حديثه المتدفق يكشف فى
الوقت نفسه عن رغبة فى السخرية وعن اضطراب مشوش • انه يلقي
حواليه نظرات شك وريب ، ويرتبك ويتيه عند كل كلمة جديدة • وكانت
هيئته التى هى هيئة مريض بالسل ، وعيناه الملتمعتان ، ونظرتة المتحمسة ،

كان ذلك كله أكثر مما يحتاج اليه الحاضرون جميعاً لينصرفوا باتسباهم
اليه انصرفاً تاماً .

وتابع كلامه يقول :

- رغم اننى لا أعرف من آداب المجتمع شيئاً (وذلك ما أعترف به) ،
كان يمكن أن يدهشنى أن أراك تمكثين فى جمع كجمننا هذا الذى تعدينه
غير لائق ، وكان سيدهشنى أن أراك تتركين . . . لهاته القتيات أن يسمعن
قضية شائكة فاضحة ، رغم أن قراءة الروايات قد سبق أن علمتهن كل
شئ . . ومهما يكن من أمر ، فمن الجائز اننى لا أعلم . . . لأن أفكارى
تضطرب وخواطرى تختلط . ولكن مما لا شك فيه على كل حال أن أحداً
غيرك ما كان ليرضى أن يبقى . . . تلبيةً لطلب صبرى (نعم ، صبرى ، اننى
أعترف بهذا أيضاً) فيقضى السهرة معه ، ويشارك فى كل شئ ، وان
احمر خجلًا من ذلك فى القد . . . (على أننى أقرُّ باننى أخبط فى التعبير
خبط عشواء) . ذلك كله يبدو لى خليقاً بأن يُحمد ، ويبدو لى جديراً
بأن يُحترم كل الاحترام ، رغم أن وجه زوجك يعبّر تعبيراً واضحاً عن
مدى انزعاج سيادته مما يجرى هنا . . . هـ هـ هـ ! . . .

أخذ هيبوليت يقهقه ، واضطرب وارتبك فجأة ، ثم هزته نوبة سعال
شديدة حالت بينه وبين الاستمرار فى الكلام مدة دقيقتين .

قالت الزابت بروكوفينا بلهجة باردة جافة ، وهى تلقى عليه نظرة
استطلاع خال من التعاطف :

- ها هو ذا يختنق ! كفى يا صغيرى ! كفى ! حبسك هذا !

وتدخل ايفان فيدوروفتش غاضباً فقال وقد نفذ صبره :

- دعنى أنبهك الى شئ أيها السيد الصغير . ان زوجتى هى هنا
عند الأمير ليون نيقولايفتش ، جارنا وصديقنا المشترك . فلست أنت ، أيها

الفتى ، فى أية حال من الأحوال ، من يحق له أن يحكم على أفعال اليزابت بروكوفينا ، ولا أن يعبرَ جهازاً ، بحضورى ، عما تظن أنك تقرأه فى وجهى • مفهوم ؟

ثم تابع كلامه وهو يزداد اندفاعاً وحماسة :

- وثئن بقيت هنا ، فانما بقيت ، أيها السيد ، مدفوعةً بعامل المناجاة وحب الاطلاع ، وذلك حين رأيت هؤلاء الشباب الذين يشيرون حب الاطلاع بفرابتهم فعلاً • ولقد بقيت أنا أيضاً كما أبقي أحياناً فى الشارع حين أرى شيئاً يمكن أن يُعدَّ ••• أن يُعدَّ •••

قال أوجين بافلوفتش محاولاً اسعاف صاحبه :

- أن يُعدَّ شيئاً غريباً نادراً •

فأسرع الجنرال يقول وقد تورط فى البحث عن تشييه :

- نعم ، هذه هى الكلمة • مهما يكن من أمر فإن ما يبدو لى باعناً على الدهشة ومثيراً للحزن ان صح التعبير هو أنك أيها الفتى لم تستطع حتى أن تدرك أن اليزابت بروكوفينا لم تمكث الآن معك الا لأنك مريض ولأنها أيقنت أنك مشارف على الموت ، فكانت الشفقة هى التى ألهمتها سلوكها اذ سمعت أقوالك التى تثير الرحمة والرافة • فما من لطخة أيها السيد يمكن أن تنال اسمها أو مزايها أو منزلتها الاجتماعية ••

ثم ختم كلامه بقوله وقد احمر وجهه غضباً :

- اليزابت براكوفينا ، اذا كنت تريد ان الانصراف فلنودّع صاحبنا الأمير الطبيب و ل •••

فقاطعه هيبوليت بلهجة فيها رصانة غير متوقعة ، وكان يتحدث الى ايفان فيدوروفتش بنظرة حاملة :

- أشكر لك هذا الدرس يا جنرال *

قالت أجلايا وهي تنهض ، قالت بلهجة تدل على الغضب ونفاد الصبر :

- هلمنى تصرف يا ماما ، فإن هذا الأمر يمكن أن يطول كثيراً *

قالت اليزابت بروكوفينا بوقار وهي تلتفت نحو زوجها :

- دقيقتين آخرين من فضلك يا عزيزى ايفان فيدوروفتش • أظن أنه مصاب بنوبة حمى ، وأنه يهذى لا أكثر • أرى هذا فى عينيه • لا يمكن أن تتركه وهو على هذه الحال • يا ليون نيقولايفتش ، أليس فى وسعه أن يبيت عندك ، حتى لا يكون ثمة اضطراب الى نقله الى بطرسبرج •

ثم أضافت تقول مخاطبةً الأمير « تشتبب ••• » :

- هل سئمت أو ضجرت أيها الأمير العزيز ؟ *

ثم قالت مخاطبةً ألكسندرا :

- تعالى يا ألكسندرا ، رتبى شمرى قليلاً يا عزيزتى •

ورتبى اليزابت بروكوفينا ترتيب شعر ابتها ، مع أنه لم يكن يعوزه أى ترتيب ، ثم قبلتها ، والواقع أن هذه القبلة كانت هى الغرض من مناداة الفتاة إليها •

عاد هيبوليت يقول وقد خرج من أحلامه :

- كنت أظنك قادراً على شيء من التطور الفكرى ••• نعم ، ذلك ما كنت أريد أن أقوله لك (أضاف ذلك مرتاحاً ارتياح انسان تذكر شيئاً منسياً) • انظر الى بوردوفسكى : هو يريد صادقاً أن يدافع عن أمه ، أليس كذلك ؟ ولكنه فى نهاية الأمر لطّخ شرفها بالعار • انظر الى الأمير : انه يرغب فى أن يساعد بوردوفسكى ، وهو اذ يحضه أرق العاطفة

وينفحه المال انما يصدر عن أحسن نية وأكرم شعور ، ولعله بيننا الانسان' الوحيد الذى لا يكرهه ولا ينفر منه . وها هما مع ذلك يقفان أحدهما من الآخر موقف العدو ! ها ها ها !!! انتم جميعاً تكرهون بوردوفسكى لأنه يتصرف مع أمه تصرفاً ليس فيه لباقة وأناقة فيما ترون، أليس كذلك ؟ هو كذلك ؟ هو كذلك ، هه ؟ انكم جميعاً متعلقون تعلقاً مسموراً بجمال الأشكال ولطف الآداب فى السلوك (كنت أقدر منذ زمن طويل أنكم لا تحفلون الا بهذا) ، فاعلموا أن أحداً منكم لعله لم يحبب أمه كما أحب بوردوفسكى أمه . أنا أعلم أنك أرسلت الى هذه المرأة مالا بواسطة جانيا دون أن يعلم بذلك أحد . ألا انتى لمستعد أن أراهن على أن بوردوفسكى سيتهك الآن بقلة اللباقة وعدم المداراة تجاه أمه . نعم ، حقاً ، ها ها ها !!!

وهذه نوبة جديدة من الاختناق والسعال تقطع تلك الضحكة التشنجية الذى صاحبت كلماته الأخيرة .
قالت اليزابت بروكوفينا نافذة الصبر وكانت لا تحوّل عنه نظرتها القلقة :

- أهذا كل شىء ؟ هل قلت كل ما كنت تريد أن تقوله ؟ فاذهب الآن اذن الى سريرك . ان بك حمى . آه . . . رباه !!! ها هو ذا يستأنف . . .
اتجه هيوليت بالكلام الى أوجين بافلوفتش فجأة ، وقال له بلهجة حاتئة :

- أتضحك ؟ لماذا تضحك دائماً منى ؟ لقد لاحظت ذلك واضحاً !
وكان أوجين بافلوفتش يضحك فعلاً .
- انما أردت أن أسألك يا سيد . . . هيوليت . . . معذرة . . .
نسيت اسم أسرتك . . .

قال الأمير :

- السيد تيرتيف •

- آ ... نعم ... شكراً يا أمير • لقد ذُكر لي اسمه منذ قليل ،
لكن هذا الاسم بارح ذاكرتي ... أردت أن أسألك يا سيد تيرتيف هل
ما قيل لي عنك صحيح : لقد قيل لي انك تعتقد أنه يكفيك أن تخطب
في الشعب ، من نافذة بيتك ، خلال ربع ساعة ، حتى يقتنع الجمهور بأرائك
فوراً ، فينبك • هل هذا صحيح ؟

أجاب هيوليت محاولاً أن يستجمع ذكرياته :

- يجوز جداً أن أكون قد قلت هذا الكلام •

ثم أضاف فجأة وقد اندفع من جديد وحده أوجين بافلوفتش
بنظرة ثابتة :

- نعم ، قلت ذلك الكلام حتماً ، فماذا تستنتج من ذلك ؟

- لا شيء البتة • فانما ألقيت هذا السؤال من باب حب الاطلاع •

وصمت أوجين بافلوفتش • وظل هيوليت يحدّق اليه وكأنه ينتظر
التمّة فلقاً •

قالت اليزابت بروكوفينا تسأل أوجين بافلوفتش :

- هيه ؟ هل أنهيت كلامك ؟ أنهه بسرعة يا صديقي ، فقد آن له
أن يمضي الى النوم • أم تُراك لا تدري كيف تنهيه ؟

كانت اليزابت بروكوفينا منزعجة انزعاجاً شديداً •

فاستأنف أوجين بافلوفتش كلامه فقال مبتسماً :

- لعلمي أميل الى أن أضيف ما يلي : ان كل ما سمعته من رفاقك
يا سيد تيرتيف ، وكل ما قلته أنت نفسك بموهبة لا مجال لنكرانها يرتد

فى رأبى الى النظرية التى تطمع فى جعل الحق منتصراً على كل شىء ،
قائماً فوق كل شىء ، بل مُبْعِداً كل شىء ، ربما دون سعى فى أول الأمر
الى معرفة هذا الحق • لعلنى كنت مخطئاً •

- أنت مخطئ • حتماً • حتى اننى لا أفهم عنك ... ثم ماذا ؟

وصعدت من زاوية بالشرقة دمدمة • كان ابن اخت ليديف يهمهم
متكلماً بصوت خافت •

واستأنف أوجين بافلوفتش كلامه فقال :

- لم يبق عندى ما أقوله تقريباً • وانما أردت أن ألفت النظر الى
أن هذه النظرية ليس بينها وبين النظرية القائلة بأن الحق للأقوى ، أى بأن
الحق لقبضة اليد وتحكم الفرد ، وتلك هى الطريقة التى سُوِّيت بها
الأُمُور فى أكثر الأحيان ، أقول ليس بين هاتين النظريتين الا خطوة
واحدة • لقد تلبث برودون على نظرية القوة هذه التى تخلق الحق •
وفى أثناء حرب الانفصال رأينا كثيراً من الليبراليين ، بل كثيراً من
الليبراليين المتطرفين ، يحازون الى صف المزارعين بحجة أن الزوج ،
من حيث هم زوج ، يجب أن يُعَدُّوا أدنى منزلةً من البيض ، وان
للبيض حق الأقوى ...

- ثم ... ؟

- أرى أنك لا تجد حق الأقوى •

- ثم ؟

- أنت لا تتناقص على الأقل • لقد أردت أن ألفت النظر الى أن
المسافة ليست بعيدة بين حق الأقوى وحق النُمر والتماسيح ، وحتى حق
أمثال دانييلوف وجورسكى •
- لا أدري ... ثم ؟

كان هبوليت لا يضحى الى أوجين بافلوفتش الا بأذن واحدة • كان لا يقول : • ثم ؟ ، الا انسياقاً مع الحديث ، دون أن يولى هذه الكلمة أى اهتمام ، أو أن يودعها أى معنى •

- لم يبق عندي ما أضيفه ... ذلك كل ما أردت أن أقوله •

قال هبوليت يختم الكلام على نحو لم يكن متوقفاً :

- الواقع اننى لا أغضب منك ولا أحقد عليك •

وعلى غير شعور تقريباً ، ابتسم ومدَّ يده الى أوجين بافلوفتش •

دُهنس أوجين بافلوفتش ، ثم اصطنع هيئةً فيها كثير من الجدل ليلمس اليد التى مدّها اليه هبوليت ، كأنما هو يقبل صفحه وعفوه • وأضاف يقول بلهجة فيها ذلك الاحترام نفسه ، ولكن فيها التباساً كذلك :

- لا أملك الا أن أشكر لك تلافك معى اذ تركت لى أن أتكلم ، فقد لاحظت فى أحيان كثيرة أن أصحابنا الليبراليين لا يدعون للآخرين أن يكون لهم رأى شخصى ، وأنهم يردون على معارضتهم فوراً باهانات أو بحجج أدعى الى الأسف من الاهانات نفسها ...

قال الجنرال ايفان فيدوروفتش :

- هذا صحيح كل الصحة •

ثم انسحب الى أقصى الشرفة من جهة المخرج جاعلاً يديه وراء ظهره ، وأخذ يتأهب برماً متململاً •

قالت اليزابت بروكوفينا فجأة تخاطب أوجين بافلوفتش :

- هياً ... كفاك يا صديقى .. لقد أضجرتنى !

وقال هبوليت وهو ينهض مسرعاً ويرسم بيده حركة تعبر عن الحيرة والارتباك ، ويلقى حواليه نظرة زائغة خائفة :

- آن الأوان ... لقد احتجزتكم .. أردت أن أقول لكم كل شيء .
... كنت أقدّر أنكم جميعاً ... هذه آخر مرة ... كان ذلك منى
نزوة خيال ...

واضح انه كان يتعش ويتحمس نوبات نوبات ، ويخرج في الفينة
بعد الفينة من حالة تشبه الهذيان ، حتى اذا عاد اليه وعيه كاملاً ، كان
يستجمع ذكرياته ويعرض في أكثر الاحيان شذرات أفكار لعله كان منذ
زمن طويل قد أنضحها وحفظها على ظهر القلب اتساء الساعات الطويلة
الفارغة التي كان يقضيها في السرير منزلاً مؤرقاً !

وأضاف يقول بلهجة جافة :

- طيب ... وداعا ! هل تظنون أن من السهل علىّ أن أقول لكم :
« وداعا » ؟ ها ها ها ! ...

ضحك ضحكة ساخرة متحسرة لأنه فكّر في خرافة سؤاله . واذ
آله أنه لم يستطع التعبير عن كل ما كان يريد أن يقوله صرخ يقول بلهجة
غاضبة :

- يا صاحب السعادة ، يشرفني أن أدعوك الى حضور جنازتي ،
هذا اذا رضيت أن تتنازل فتلبى الدعوة ، وانى ... أدعوكم جميعاً أيها
السادة ، أدعوكم أن تنضموا الى الجئرال ! ...

وأخذ يضحك ، لكن ضحكه كان ضحك انسان فقد عقله . صُعقت
اليزابت بروكوفينا ، فتقدمت نحوه خطوة ، وأمسكت ذراعه . فحدثني
اليها بنظرة ثابتة ، وهو ما يزال يضحك ذلك الضحك نفسه الذي تعجمد
على وجهه ان صح التعبير .

- هل تعلمون أنني جئت الى هنا لأرى الأشجار ؟ هذه هي الأشجار
... (أشار الى أشجار الحديقة بحركة من يده) . ليس في هذا ما يبعث
على الضحك والاستهزاء ، أليس كذلك ؟

ثم أضاف يقول بلهجة رصينة ، مخاطباً اليزابت بروكوفينا :

- يخيل الىَّ أن هذا ليس فيه ما يبعث على الضحك والاستهزاء .

وعاد حالماً على حين فجأة من جديد ، ثم رفع رأسه بعد لحظة وأخذ يتفحص الحضور باحثاً عن واحد منهم . كان يبحث عن أوجين بافلوفتش الذى كان قريباً منه كل القرب ، على يمينه ، والذى لم يتحرك من مكانه . ولكن هيوليت كان قد نسى ذلك فهو يستكشف ما حوله باحثاً عن الرجل . فلما أبصره أخيراً هتف يقول متعجباً :

- ها ... لم تنصرف ! لقد ضحكت ضحكاً طويلاً منذ قليل ، حين تصورت اننى أريد أن ألقى من نافذة بيتى خطاباً يدوم ربع ساعة ! ألا فليكن مائلاً فى ذهنك اننى لم أبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، واننى لبست راقداً على فراشى واضعاً رأسى على وسادتى زمناً طويلاً أنظر من تلك النافذة وأفكر ... فى جميع الأشياء ... التى ... انك تعلم أن الموتى لا أعمار لهم . لقد عاودتني هذه الفكرة فى الأسبوع الماضى أثناء ليلة أرق ... هل تريد أن أقول لك ما الذى تخشونه أكثر مما تخشون أى شىء آخر ؟ انكم تخشون صدقنا رغم ما تحملونه لنا من احتقار ! هذه أيضاً فكرة وافتنى فى الليل بينما كان رأسى على الوسادة ... أتظنين أننى أردت أن أتهمك عليك منذ قليل يا أليزابت بروكوفينا ؟ لا لم تكن هذه نيتى . أنا لم أكن أبغى الا أن أمدحك ... لقد قال كوليأ ان الأمير عاملك معاملة طفلة ... هذا صحيح ... ولكن ماذا ؟ لقد كنت أريد أن أضيف شيئاً آخر ...

قال ذلك وخبأ وجهه فى يديه وفكر لحظة .

- ها ... نعم ... تذكرت : حين تهيأت منذ قليل للانصراف خطر

بألى فجأة ما بلى : هؤلاء أناس لن أراهم مرة أخرى بعد اليوم أبداً ،
أبداً • لا ولن أرى الأشجار مرة أخرى • ولن يقع بصرى بعد الآن الا
على جدار الآجر الأحمر من منزل ماير • أمام نافذتى • • • فقلت لنفسى :
اشرح لهم هذا كله • • • حاول أن تفهمهم • هذه حسناء رائعة الجمال • •
وأنت رجل ميت • • • فقدّم نفسك بهذه الصفة • • • قل لهم « ان فى وسع
ميت أن يتكلم بغير تحفظ » • • • وان الأميرة ماريا ألكسييفنا لن تقول عن
هذا شيئاً * • • • ها ها ها • • • ألا تضحكون ؟ (ألقى هذا السؤال وهو
يجيل بصره حواله مراتباً) • سأقول لكم اننى اثناء رقاد رأسى على الوسادة
كانت توافينى خواطر كثيرة • فاقنمت ، فيما اقنمت به ، بأن الطبيعة ساخرة
جداً • • • لقد قلت منذ قليل اننى ملحد ، ولكن هل تعلمون أن الطبيعة • •
لماذا عدتم تضحكون ؟ ألا انكم لقساء عتاة !

قال ذلك فجأة وهو يثبت على مستمعيه نظرة حزن واستياء • ثم ختم
كلامه قائلاً بلهجة مختلفة كل الاختلاف ، لهجة فيها رصانة واقتناع ،
كان ذكرى أخرى قد ومضت فى ذهنه :
- أنا لم أفسد كوليا •

قالت له اليزابت بروكوفينا معذبة :
- لا أحد يسخر منك ، لا أحد • • • لسوف نستدعى لك فى الغد

طبيباً آخر • ان الطبيب الأول قد أخطأ • ولكن اجلس ! انك لا تقوى
على الوقوف ! وأنت تهذى • • •

ثم صرخت اليزابت بروكوفينا تقول مضطربة أشد الاضطراب وهى
تجلسه على مقعد :

- آه • • • ماذا نفعل له الآن ؟

والتمعت على خدّها دمعة صغيرة •

قلبت هيبوليت مذهولاً خلال لحظة من الزمن، ثم رفع يده ، ومدّها
خجلاً وجلاً فلمس تلك الدمعة الصغيرة ، وطافت بوجهه ابتسامة طفل .
قال فرحاً :

- انك لا تعلمين مدى ما أشعر به نحوك من ... ان كوليا يحدثني
عنك دائماً بحماسة عظيمة ... اتنى أحب حماسته . أنا لم أفسده ! هو
الوحيد الذى أودعه خواطرى وأفكارى . لكم تمنيت أن يشارك الجميع
فى هذا الميراث ، ولكن لم يكن نمة أحد ، لم يكن نمة أحد ... ولقد
تمنيت كذلك أن أكون رجلاً فعلاً . ذلك من حقى ... وما أكثر
الأشياء التى كان يمكن أن أتمناها أيضاً ! أما الآن فقد أصبحت لا أرغب
فى شيء ، وأصبحت لا أريد أن أرغب فى شيء . لقد آليت على نفسى أن
لا أتمنى بعد اليوم شيئاً ، فليبحث الآخرون بعدى عن الحقيقة ! نعم ، ان
الطبيعة ساحرة !

وأضاف يقول بحرارة :

- لماذا تخلق الطبيعة أفضل الناس لتسخر منهم بعد ذلك ؟ هذا
ما تعتمد اليه الطبيعة : حين أظهرت البشر على الانسان الوحيد الذى عدّ
الانسان الكامل فى هذا العالم ، عهدت اليه برسالة أن ينطق بأقوال كانت
سبباً فى سفح دماء بلغت من الغزارة أنها لو سُفحت مرة واحدة لحُقت
الانسانية ! انها لسعادة أن أموت ! ذلك أننى اذا لم أمت فقد يطلق لسانى
كذبة رهبة بدافع من الطبيعة ! ... أنا لم أفسد أحداً ... لقد أردت أن
أحيا لسعادة الناس جميعاً ... أردت أن أحيا لاكتشاف الحقيقة ونشرها
... كنت أنظر من نافذتى الى جدار منزل ماير فأتصور أنه يكفينى أن
أتكلم خلال ربع ساعة حتى أفتح جميع البشر ، نعم ، جميع البشر ! وهأنذا
يُتاح لى ، مرة واحدة طوال حياتى ، أن أجد نفسى على صلة لا بجميع
البشر ، بل بكم وحدكم ، فماذا كانت النتيجة ؟ لا شيء ! كانت النتيجة

أنكم تحقروننى • هذا دليل على اننى غبى أحمق ، على اننى امرؤ لا خير فيه ولا فائدة منه ، وعلى اننى قد آن لى أن أزل ! وحين أزل ، فلن أخلف ورائى أية ذكرى : لن أترك أى صدى ، لن أترك أى أثر ، لن أترك أى عمل ! لم أنشر أى رأى ، لم أذع أية فناة ! لا تضحكوا من غبى أحمق ! انسوه ! انسوا كل شىء ! أرجوكم أن تنسوا ! لا تكونوا قساة ! هل تعلمون اننى لو لم يصبنى مرض السل لانتحرت ؟!...

كان يبدو عليه أنه يريد أن يفيض فى الكلام مزيداً من الافاضة ، وأن يتحدث مدة طويلة أيضاً ، ولكنه لم يستطع أن يستمر ، فتهاوى فى مقعده ، وغطى وجهه يديه ، وأخذ يبكى كطفل صغير •

عادت اليزابت بروكوفينا تكرر سؤالها :

- ماذا تفعل له الآن ؟ هلاً فلتم ؟

وهرعت اليه فتناولت رأسه وشدته الى صدرها شداً قوياً • كان هيبوليت ينشج نشيجاً عنيماً • قالت مخاطبة :

- كفى كفى ! كفى ! لا تبك ، كفى بكاءً ! انك لطفل طيب ! سيففر الله لك بسبب جهلك • هياً ! كفى ! كن رجلاً !... والا شعرت بعد ذلك بخزى وعار ...

قال هيبوليت وهو يحاول أن يرفع رأسه :

- لى هناك أخ وأخوات ، صغار مساكين أبرياء ... ستفسد هى أخلاقهم ! انك أنت قديسة ... أنت نفسك طفلة ، فانقذهم ! اتزعيهم منها ... انها ... هى ... عار ... آه ... ساعديهم ، أنجديهم ! لسوف يرد الله اليك الحسنة أضعافاً مضاعفة ! أنجديهم حباً بالله ، حباً يسوع !

صاحت تقول فى غضب :

- هلاً قلت لنا ما الذى يجب علينا أن نفعله الآن يا ايفان
فيدوروفتش ! هلاً تفضلت فخرجت عن صمتك الوقور المهيب ! اذا لم
تتخذ قراراً فلا قضين الليلة كلها هنا ! لقد سئمت النزول على مشيتك ،
والخضوع لاستبدادك !

كانت تتكلم بحماسة شديدة واندفاع قوى ، وتطالب بجواب على
الفور . وفى مثل هذه الظروف يلتزم الحضور الصمت ولو كانوا كُثراً ،
ولا يزيدون على الاهتمام السلبي والاستطلاع النائي . انهم يتحاشون
الافصاح عن شعورهم وعلان رأيهم ، وان كانوا يريدون ذلك كله بعد مدة
طويلة . ولقد كان بين الحضور حينذاك أناس قد يقفون الى مطلع الصبح
دون أن ينطقوا بكلمة واحدة . فهذه كانت حالة باربارا آرداليونوفا التى
ظلت متتحية طوال السهرة ، دون أن تفتح فاهها بكلمة واحدة ، ولكنها
كانت فى الوقت نفسه منتبهة أشد الانتباه الى كل ما كان يقال - ولعل
هناك أسباباً كانت تدعوها الى ذلك وتحضها عليه .

قال الجنرال :

- يا صديقتى العزيزة ، رأى أن ممرضة تسهر عليه خير له من
كل هذا الاضطراب الذى تضطرينه ؟ ومن المفيد أن يقضى الليل هنا
رجل هادئ المزاج أهل للثقة . على كل حال ، يجب أن نطلب الى الأمير
أن يصدر أوامره . . . ثم ترك المريض فوراً ليرتاح . ويمكن أن نعود
الى الاهتمام به فى الغد .

قال دوكتورنكو يسأل الأمير بلهجة حائرة لاذعة :

- أونسك الليل أن ينتصف . ونحن منصرفون . فهل يأتى معنا أم
يبقى عندك ؟

قال الأمير :

- تستطيعون أن تقوا معه اذا شئتم .

فانبرى السيد كيلر ينادى الجنرال بحماسة :

- يا صاحب السعادة ، اذا كان ينبغي أن يقضى الليل هنا رجلٌ
أهل للثقة ، فأننى سيسرنى أن أضحي فى سبيل صديقى هذا انسان
ذو نفس كبيرة ! لظلالا عدته رجلاً عظيماً يا صاحب السعادة ! صحيح
أننى أنا بغير ثقافة ، ولكنه هو ، حين يتكلم ، تتساقط من فمه لآلىء ، لآلىء
يا صاحب السعادة !

أشاح الجنرال وجهه متمللاً برماً .

وقال الأمير يجيب عن الأسئلة الحائرة التى ألقته عليه الزابت
بروكوفينا :

- سوف يسرنى أن يبقى . ان من الصعب عليه طبعاً أن ينصرف .
- أظن أنك تام ؟ اذا كنت لا تريد أن تتولى أمره فسأقله الى بيتى .
آه يا رب !... أرى أن الأمير نفسه لا يكاد يستطيع الوقوف على
قدميه . أتراك مريضاً يا أمير ؟

ان الزابت بروكوفينا كانت قد توقعت بعد الظهر أن ترى الأمير
راقداً على فراش الموت . فلما رآته قائماً بالغت فى تقدير ابلاله من
مرضه . ان نوبته الأخيرة ، والذكريات الكاوية التى ترتبط بها ، والمتاعب
والانفعالات التى عاناها فى هذه السهرة بسبب موضوع « ابن بافلششيف »
أولاً ، وبسبب حالة هيوليت بعد ذلك ، ان هذا كله قد أهاج ما يتصف
به من حساسية مريضة وانفعالية شديدة فاذا هو يصير الى حالة تقارب
الحمى . ثم ان هماً جديداً ، بل قل خشية جديدة أخذت تُقرأ الآن فى

عينه : لقد كان ينظر الى هيبوليت فى قلق كأنما هو يتوقع منه انفجاراً
جديداً •

ونهض هيبوليت على حين فجأة صاحب الوجه شحوباً رهيباً • ان
سحته المنقلبة تعبر عن شعور فظيع بالعار ، شعور مرهق يتجلى خاصة
فى النظرة المبهضة الكارهة المدعورة التى كان يجليها على الحضور ، ويتجلى
فى الابتسامة الزائفة الماكرة الساخرة التى كانت تقلص شفاه
المرتعتين • ثم خفض عينيه ، وجراً نفسه بخطى مترنحة نحو بوردوفسكى
ودكتورنكو اللذين كانا ينتظرانه عند مخرج الشرفة ، وهو ما يزال
يتسم تلك الابتسامة نفسها • كان يريد أن ينصرف معهم •

هتف الأمير يقول :

— ذلك بعينه ما كنت أخشاه ! كان لا بد أن يحدث هذا !
فالتفت هيبوليت نحوه فجأة وقد اعترته نوبة حلق مسعور ترعش
جميع قسماط وجهه ، وقال يخاطبه :

— آآآ ذلك ما كنت تخشاه ؟ كان لا بد أن يحدث هذا ؟ ألا
فاعلم اذن أنه اذا كان هنا شخص أكرهه (زأر يقول هذا الكلام بصوت
حاد صافر يصاحبه رشاش لعاب) — وأنا أكرههم جميعاً جميعاً — فان ذلك
الشخص هو أنت ، أنت ! أنت أيها اليسوعى المنافق المرائى ، المعنوه
الأبله ، المليونير المحسن • انتى أكرهك أكثر مما أكره أى انسان
وأى شىء فى هذا العالم • لقد أدركت حقيقتك منذ زمن طويل فأخذت
أكرهك • انتى منذ اليوم الذى سمعت فيه عنك نفرت منك وأبغضتك من
أعماق قلبى ••• أنت الذى استدريجتنى الى هذا الفخ ! أنت الذى اطلقت
فى نفسى نوبة الهذيان هذه ، لقد دفعت رجلاً محتضراً الى أن يجلل نفسه
بالخزى والعار • أنت أنت المسئول عن حطتى وصغارى ودنائتى ! لو علمت

أنتى سأعيش، لقتلتك ! ما أنا فى حاجة الى احسانك . لا أريد أن يحسن أحد الى . هل تسمعى ؟ لا أريد احسان أحد ! لقد أصابتى نوبة هذيان . فليس من حقت أن تستمد من هذا انتصاراً !... أنتى ألعنكم جميعاً ، ألعنكم جميعاً الى الأبد ...

دمدم ليديف يقول لأليزابت بروكوفينا :

- لقد أخجله وأخزاه أنه بكى . « كان لا بد أن يحدث هذا » .

ما أعجب الأمير ! لقد قرأ قرارة نفسه وأعماق ضميره !

لكن اليزابت براكوفينا لم تتنازل أن تنظر اليه . كانت منتصبه بشموخ وكبرياء ، مرفوعة الرأس ، تتصفح وجوه هؤلاء « الناس التافهين » ، بفصول يسوده احتقار . وحين أنهى هيوليت كلامه ، هزّ الجنرال منكبيه ، فرمقته عندئذ بنظرة غاضبة ، شملته من قمة الرأس الى أخمص القدم ، كأنها تحاسبه على هذه الحركة وتطلب منه تفسيراً لها ، ثم لم تلبث أن أسرعت تلتفت الى الأمير فتقول له :

- شكراً يا أمير ، يا صديق أسرتنا الغريب الأطوار ، شكراً على هذه السهرة الممتعة التى ندين بها لك . أحسب أنك الآن فرح بأنك استطعت أن تشاركنا نحن أيضاً فى أعمالك الجسونية ! كفى هذا ! يا صديقى ، لا أقل من أن تشكر لك أنك أتحت لنا أن نعرفك حق معرفتك !...

وبحركات حائقة غاضبة أخذت ترتب خمارها بانتظار أن ينصرف « هؤلاء الناس » . وفى هذه الأثناء وصلت عربية تقلّهم ، أتى بها ابن ليديف ، الطالب فى الكلية ، الذى كان دكتورىكو قد أوفده منذ ربع ساعة ليحجى بمركبة . وسرعان ما اعتقد الجنرال أن من واجبه أن يضيف كلمة صغيرة الى الأقوال التى نطقت بها امرأته ، فقال :

- الحق يا أمير أثنى ... أنا نفسي ... لم أكن أتوقع أن ... بعد كل شيء ، بعد كل علاقات الصداقة التي تجمعنا ! ... وأخيراً يا أليزابت بروكوفينا ...

صاحت آديلايد تقول وهي تسرع نحو الأمير وتمد اليه يدها :
- ما هذا الذى تقولون ؟ كيف يمكنكم أن تعاملوه هذه المعاملة ؟
فابتسم لها الأمير ابتسامة ناثية • الا ان وشوشة متعجلة لم تلبث أن
لسمت أذنه لسم النار • ان آجلها هي التي دمدت تقول له هامة :
- اذا لم تطرد هؤلاء الناس الأذنياء فوراً ، فلأكرهك طوال حياتي ،
طوال حياتي ، ولأكرهك وحدك !

كانت تبدو خارجة عن طورها ، ولكنها أشاحت عن الأمير من قبل
أن يتسع وقته لأن ينظر إليها •

على أن الشرفة كانت قد خلت من كل من يمكن طرده : كانوا قد
استطاعوا أن يضعوا المريض فى العربة كيفما اتفق ، وكانت العربة قد
تحركت منصرفة •

- هل تعتقد أن هذا سيدوم مدة طويلة يا ايفان فيدوروفتش ؟
ما رأيك ؟ هل تظن أن سيكون على أن أحتمل هؤلاء الصبية الأشرار
المسيئين زمناً طويلاً ؟

- ولكن يا صديقتى ... أنا من جهتى مستعد طبعاً ... والأمير ..
ومدّ ايفان فيدوروفتش يده الى الأمير مع ذلك ، ولكنه قبل أن
يتسع وقت الأمير لمصافحته ، أسرع يجرى وراء اليزابت بروكوفينا التي
كانت تهبط درجات الشرفة مظهرة غضبها فى صخب • أما آديلايد
وخطيها وألكسندرا فقد ودّعا الأمير بمودة صادقة • وكان أوجين

بافلوفتش معهم ، وهو الشخص الوحيد الذى كان مشرق المزاج منشرح النفس • وقد دمدم يقول باتسامة فيها أكبر التلطف :

- حدث ما كنت أتوقعه ! ولكن من المؤسف يا صديقى المسكين أنك قد أصابك من ذلك ألم وعذاب •

وخرجت آجلايا دون أن تودّع الأمير •

على أن هذه السهرة كانت تهيء مفاجأة جديدة • لقد كان على اليزابت بروكوفيتسا أن تقع لها مقابلة ما كان يمكن أن تدور فى خلد أحد •

فقبل أن تصل الى أسفل السلم المفضى الى الطريق (الذى يدور حول الحديقة) كانت تجرى أمام فيلا الأمير مركبة باهرة هى عربية فضمة يجرها حصانان أبلجان ، وفيها سيدتان ترتديان أجمل حلة ، فما ان صارت العربية على مسافة عشرة أمتار من الفيلا حتى وقفت فجأة ، والتفتت احدى السيدتين بحركة سريعة كأنها لمحت شخصاً تعرفه هى فى حاجة ملحة الى أن تراه بسرعة •

وصاحت السيدة تقول بصوت واضح متناغم :

- أوجين بافلوفتش ! أهذا أنت ؟

فارتعش الأمير لهذه الصرخة ، ولعل أحداً آخر قد ارتعش أيضاً • وتابعت السيدة كلامها تقول :

- ما أسعدنى بالعثور عليك أخيراً ! لقد أوفدت الى المدينة رسولين

ظلا يبحثان عنك طوال النهار فلم يظفرا بطائل •

تسمّر أوجين بافلوفتش فى وسط السلم كأن صاعقة قد نزلت عليه • وتوقفت اليزابت بروكوفيتسا فى مكانها أيضاً ، ولكن دون أن يظهر عليها ما ظهر عليه هو من علائم الدهول • ورمقت السيدة الوقحة بنظرة فيها

ذلك النعالي الشديد نفسه وذلك الازدراء الكبير نفسه الذى اشتملت عليه
نظرتها الى أولئك « التافهين » منذ قليل ، ثم سرعان ما حوَّلت بصرها الى
أوجين بافلوفتش متفحصةً مستفهمة !

تابع ذلك الصوت نفسه يقول :

- لدىَّ نأَ يجب أن أرفه اليك . لا تقلقك سندات كوبفر * . لقد
لبى روجويين طلبى فاشتراها بفائدة ثلاثين فى المائة . فستطيع أن تطمئن
خلال ثلاثة أشهر على الأقل . أما بيسكوب وسائر أولئك الأوباش فستفق
معهن آخر الأمر على حل بغير خصام . معنى ذلك أن الأمور كلها تجري
على ما يرام . فابتهج وافرح ! الى اللقاء غداً !

واستأنفت العربية جريها ولم تلبث أن غابت .

هتف أوجين بافلوفتش يقول وقد احمر وجهه استياءً وأخذ يلقي
على ما حوله نظرات دهشة وذهول :

- هذه مجنونة ! انى لأجهل كل الجهل ماذا أرادت أن تقول . ماتلك
السندات التى تكلمت عنها ؟ من هى هذه المرأة ؟

حدَّثت اليزابت بروكوفينا اليه اثنتين أخيرين ، ثم استدارت
واتجهت نحو منزلها يتبعها ذووها . وعاد أوجين بافلوفتش الى الأمير فى
الشفرة بعد دقيقة . وكان الأمير فى حالة انفعال شديد واضطراب قوى .

- ألا تدري حقاً ماذا كان معنى ذلك يا أمير ؟

فأجابه الأمير متأثراً هو نفسه متأثراً مؤلماً :

- لا أدرى !

– لا ؟

– لا !

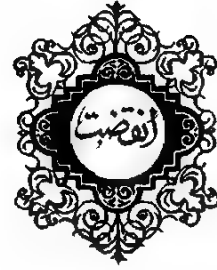
قال أوجين بافلوفتش وهو ينفجر ضاحكاً :

– أنا أيضاً لا أدري ! ان قصة السندات هذه لا تخصني ولا شأن

لي بها ، أقسم لك على ذلك • ولكن ماذا بك ؟ كأنني بك تنهاوى ...

– لا ... لا ... أؤكد لك أن لا ...

الفصل الحادي عشر



ثلاثة أيام قبل أن يهدأ خلق آل ايباتشين هدوءاً كاملاً . وكان الأمير ، على عادته ، ينسب الى نفسه كثيراً من الأخطاء ويتنظر صادقاً أن يعاقب . ومع ذلك كان قد اقتنع في هذه المرة ، منذ البداية ، أن الزبات بروكوفينا لا يمكن أن تكون قد غضبت منه هو ، وأنها إنما غضبت من نفسها . لذلك احتار أشد الحيرة وحزن أكبر الحزن حين رأى أنهم ظلوا حاقدين عليه ثلاثة أيام . وهناك أحداث أخرى عديدة غدت قلقه في أثناء ذلك . وكان أحد تلك الأحداث خاصة هو الذي أهاج مزاجه الشكاك وطبعه الريباب شيئاً بعد شيء . خلال هذه الأيام الثلاثة (كان الأمير يؤاخذ نفسه في الآونة الأخيرة على أنه يترجح بين حدين أقصيين ، فهو تارة « واثق ثقة » سخيفة في غير محلها ، وهو تارة « شديد الشك والحذر والريب الى درجة مظلمة دنيئة ») . المهم أنه في نهاية اليوم الثالث كانت حادثة السيدة الغريبة الأطوار التي أطلت من عربتها الفخمة ونادت أوجين بافلوفتش ، كانت هذه الحادثة قد تضخمّت في نفسه واتخذت أبعاداً مخيفة محيّرة ملفزة . وكان اللغز يترجم عن نفسه في ذهنه (ناهيك عن وجوهه الأخرى) بالسؤال التالي : أتقع تبعاً لهذا « العمل الشاذ » الجديد على عاتقه هو أم تقع تبعته على عاتق ... ؟ لكنه كان لا يرضى الى حد النطق باسم . أما الأحرف الأولى من الاسم ، وهي : ن ، ف ، ب ، فلم تكن في اعتقاده الى مزاحاة بريئة من مزاحات الأطفال

لا يستطيع المرء أن يتلبث فكره عندها اذا هو لم يشأ أن يقع في الحزى
والعار •

على أن الأمير قد سعد ، فى غداة تلك السهرة الفاضحة التى كان
يعد نفسه «سبيها» الرئيسى ، قد سعد بزيارة الأمير « شتت • • » وأديلايد
اللذين كانا عائدتين من نزعة فى الصباح ، فمرا به قائلين « انهما يريدان
« خاصة » أن يستطلعا أخبار صحته • • » وقد لاحظت آديلايد أثناء
دخولها فى الحديقة شجرة قديمة رائعة كثيفة مجوفة الجذع كثيرة التشقق
تحمل أغصانها الطويلة ذات العقد أوراقاً فتية نضيرة ، فأصرت اصراراً
شديداً على أن ترسمها ، ولم تكد تتكلم أثناء الزيارة التى دامت نصف
ساعة الا عن هذه الشجرة • وأبدى الأمير « شتت • • • » كثيراً من
التحجب والتودد وكان كيساً لبقاً على عادته • سأل الأمير عن الماضى وأيقظ
ذكرى الأحداث التى يرجع عهدا الى أولى العلاقات التى قامت بينهما ،
حتى انه لم يكد يتكلم عما جرى فى الليلة البارحة •

ونفذ صبر آديلايد أخيراً فاعترفت مبسمةً بأنهما جاءا اليه خفية ،
ولم ترد على ذلك شيئاً ، غير أن هذا الاعتراف كان كافياً لفهام الأمير أن
أبويها ، ولا سيما الزابت بروكوفينا ليسا راضيين عنه • ومع ذلك لم
ينبس الأمير « شتت • • • » ، ولا نبست آديلايد ، أثناء زيارتهما ، بكلمة
واحدة عن الجنرالة ، ولا عن آجلايا ، حتى ولا عن ايفان فيدوروفتش •
وحين انصرفا لاتمام نزتهما لم يدعوا الأمير الى اصطحابهما • أما
أن يدعوا الى زيارتهما فذلك أمر لم يكن محل بحث أصلاً • وقد أفلتت
من آديلايد بهذه المناسبة عبارة ذات دلالة ، فانها اذ تكلمت عن لوحة من
لوحاتها المرسومة بالألوان المائية وأظهرت رغبتها فجأة فى أن يراها الأمير ،
قالت : « ما السبيل الى أن أستطيع أن أريك الصورة فى وقت أقرب ؟
اسمع ! • • • سأرسلها اليك هذا اليوم نفسه مع كوليا اذا جاء الى دارنا ،

أو أجيتك بها أنا نفسى غداً أثناء نزهتى مع الأمير . ، وقد أسعدهما ، حين أوحى بهذه الفكرة ، أن تكون قد وقفت الى حل المسألة حلاً حاسماً يرضى الجميع .

وفي لحظة التوديع تقريباً بدا على الأمير « شئت .. » أنه تذكر شيئاً ما على حين فجأة . قال يسأل الأمير :

— بالنسبة ، ألا تعرف يا عزيزى ليون نيقولايفتش ، مَنْ تلك السيدة التى نادت أوجين بافلوفتش أمس من عربتها ؟
قال الأمير :

— هى ناستاسيا فيليوفا ؟ ألم تعرفها ؟ لكننى لا أدرى مع من كانت!
قال الأمير « شئت ... » بحرارة :

— أعرفها لأننى سمعت عنها ؟ ولكن بماذا صاحت ؟ أعترف لك بأن ما قاله كان فى نظرى لغزاً ... فى نظرى أنا وفى نظر الآخرين .
أجابه الأمير بكثير من البساطة :

— تكلمت عن سندات على أوجين بافلوفتش لا أدرى ما هى ؟ وقالت ان هذه السندات قد انتقلت تليّة لطلبها من يدى مراب الى يدى روجوين الذى سيمهل أوجين بافلوفتش فترة من الوقت .

— ذلك ما سمعته يا عزيزى الأمير ، لكنه ليس معقولاً ! ان أوجين بافلوفتش لا يمكن أن يكون قد وقع أى سند ! انه غنى جداً ... صحيح أن هذا حدث له فى الماضى بسبب خفته وطيشه ... أما أن يكون رجل له ثروة طائلة كثروته ، قد وقع سندات لمراب من المرابين وأصبح قلقاً لاقتراب موعد دفعها ، فذلك شيء مستحيل . ثم انه لشيء مستحيل أيضاً أن تكون العلاقة بينه وبين ناستاسيا فيليوفا حميمة الى هذا الحد ، وأن تُرفع بينهما الكلفة فاذا هى تخاطبه بصيغة المفرد دون تخرج .

ذلك هو اللنز الرئيسى • انه يحلف بأغلظ الأيمان أنه لا يفهم من ذلك شيئاً البتة ، وانى لأصدقك كل التصديق • لذلك رغب أن أسألك ياعزيزى الأمير هل تعرف عن هذا الأمر شيئاً • أقصد : هل وصلت الى مسامعك شائعة من الشائعات مثلاً ؟

— لا ، لا أعرف عن هذه القضية شيئاً ، وأؤكد لك أننى لا شأن لى بها •

— ما أغربك اليوم يا أمير ! حقاً اننى أنكرك ولا أعرفك ! هل يمكن أن يكون قد خطر ببالى أن لك مشاركة ما فى قضية كهذه القضية ؟ دعك ... أنت اليوم فى غير حالتك الطبيعية •
قال له ذلك ثم عافقه وقبله •

قال ليون نيقولايفتش :

— مشاركة ما فى « قضية كهذه القضية » ؟ ولكننى لا أرى هنا أية قضية •

أجاب الأمير « شئت • • • » بلهجة جافة :

— ليس هناك أى شك فى أن هذه المرأة قد أرادت الاساءة الى أوجين بافلوفتش ، بطريقة من الطرق ، مسندةً اليه ، أمام شهود ، أعمالاً ليست أعماله ولا يمكن أن تكون أعماله •

بدا الاضطراب على الأمير ليون نيقولايفتش ، لكنه ظل يحدق الى محدته بنظرة مستفهمة • وظل محدته صامتاً لا يتكلم •

فقدم الأمير يقول أخيراً بلهجة فيها شيء من نفاذ الصبر :

— ولكن أليست المسألة مسألة سندات فحسب ؟ ألم يكن مدار الكلام أمس على سندات لا أكثر ؟

- غريب • انتى أقول لك الأمر وما عليك الا أن تحكم بنفسك :
ما عسى أن يكون هنالك من شىء مشترك بين أوجين بافلوفتش وبين تلك
... أو بينه وبين روجويين أيضاً ؟ أعود فأقول لك انه يملك ثروة
طائلة • أنا أعرف هذا من مصدر مطلع موثوق به • وهو عدا ذلك متأكد
أنه سيرث من عمه • كل ما فى الأمر أن ناستاسيا فيليوفنا ...

قطع الأمير • شئت ... • كلامه من جديد : كان واضحاً أنه
لا يريد أن يقول عن المرأة الشابة أكثر مما قال •

فسأله ليون نيقولايفتش فجأة بعد لحظة صمت :

- ألا يبرهن هذا على أنه يعرفها ، على كل حال ؟

- جائز جداً • هو رجل متنقل الهوى مولع بالمباهج ! مهما يكن من
أمر ، فهما اذا كانا قد تمارفا فانما تمارفا فى الماضى • لا بد أن تعارفهما
يرجع عهده الى سنتين أو ثلاث سنين • كان فى ذلك الأوان ما يزال على
صلة بتوتسكى • أما الآن فلا يمكن أن يجتمعا شىء • وكيف كان
الأمر فان الصلة بينهما لم تكن فى يوم من الأيام حبيمة الى الحد الذى
يسمح لهما بأن يتخاطبا بصيغة المفرد • أنت نفسك تعلم أنها كانت غائبة
الى هذه الآونة الأخيرة ، وأنها ظلت مخفية لا يشر عليها أحد • وما يزال
كثير من الناس يجهلون أنها عادت • لم ألاحظ عربتها الا منذ ثلاثة أيام •

قالت آديلايد :

- عربة فخمة !

- نعم فخمة !

واصرف الزائران وهما يظهران للأمير أرق العواطف ، حتى لكأنه
أخوهما •

خرجت للأمير من هذه الزيارة إشارة هامة • صحيح أنه اشتبه في الأمر اشتباهاً قوياً منذ الليلة البارحة (وربما قبل ذلك) ، لكنه لم يكن قد جرؤ حتى الآن أن يرى أن مخاوفه في محلها • أما الآن فقد اتضحت له الأمور : ان الأمير « شتنب » ، ، ، على تأويله الحادث تأويلاً خطأ ، يقارب الحقيقة مع ذلك ، ويحذر على كل حال أن ثمة « مكيدة » • (قال الأمير يحدث نفسه : ولعله يدرك الأمر ادراكاً صحيحاً بينه وبين نفسه ، ولكنه لا يريد اعلان ادراكه ويتعمد تأويل الحادث تأويلاً خطأ) • هناك شيء يخطف الانتباه خاصة : هو أنهما جاءا (ولاسيما الأمير « شتنب ») آملين أن يحصلوا على ايضاح ما ؟ وهذا يعنى انهما يعدّان الأمير ضالماً في « المكيدة » • ثم اذا كانت القضية هي هذه ، وكان لها هذا الخطر كله ، فذلك دليل على أن تلك « المرأة » تسمى الى هدف رهيب • ولكن ما هو ذلك الهدف ؟ سؤال فظيع ! « وكيف يمكن صرفها عنه ؟ ان من المستحيل ايقافها عن بلوغ غاياتها وتحقيق أهدافها » • ذلك أمر يعرفه الأمير بالتجربة • « هي مجنونة ! مجنونة » •

ولكن ما أكثر هذه الأسرار التي تتراحم في تلك الصبيحة من اليوم ! انها تقتضى أن توضّح كلها على الفور ، وذلك ما أغرق الأمير في ذهول عميق •

وجاءت فيرا ليديفا حاملةً ليوبوتشكا بين ذراعيها ، فسرى عنه ذلك قليلاً • وظلت تثرثر بعض الوقت مرحةً ، ثم جاءت أختها الصغرى فلبثت فاغرة الفم من الدهشة ، ووصل أخيراً ابن ليديف ، الطالب في المدرسة الثانوية ، فأكد له أن « كوكب الأفتستين » الذي تذكر رؤيا يوحنا أنه سقط من السماء على الأرض عند ينبوع المياه انما هو في رأى أبيه تنبؤ بشبكة خطوط السكة الحديدية التي تمتد اليوم على أرض

أوروبا • لم يشأ الأمير أن يؤيد هذا الزعم ، واتفق على أن يسأل ليديف نفسه في هذا الأمر لدى أول مناسبة •

روت فيرا ليديفا للأمير أن كيلبر قد أقام عندهم منذ أمس ، وأضافت أن جميع الظواهر تدل على أنه لن يفادهم قريباً ، لأنه وجد ههنا مجتمعاً يناسبه ، واتفقت صداقة بينه وبين الجنرال ايفولجين • وقد أعلن أنه لا يمكن عندهم الا ليكمل تعليمه ويحسن ثقافته •

أخذ الأمير ، على وجه العموم ، يزداد سروراً بصحبة أولاد ليديف يوماً بعد يوم •

ولم يظهر كولييا في ذلك النهار : فانه قد ذهب الى بطرسبرج في ساعة مبكرة من الصباح • (وكان ليديف قد سافر منذ الفجر هو أيضاً لأعمال شخصية) •

غير أن الزيارة التي كان الأمير ينتظرها نافذة الصبر انما هي زيارة جبريل آرداليونوفتش الذي كان لا بد أن يجيء في أثناء النهار • وقد وصل بين الساعة السادسة والساعة السابعة ، بعد العشاء فوراً • فلما رآه أخيراً اعتقد أنه أمام شخص لا بد أن يعرف جميع خفايا الأمر حق معرفتها • وكيف يمكن أن لا يعرف جانبا جميع خفايا الأمر وهو الذي يملك مساعدين مثل باربارا آرداليونوفنا وزوجها ؟ غير أن العلاقات بينه وبين الأمير كانت تتسم بطابع خاص بمض الشيء • صحيح أن الأمير قد كلفه بقضية بوردوفسكى ورجاه ملحاً أن يهتم بها • ولكن رغم علامة الثقة هذه ، ورغم ما جرى بينهما قبل ذلك ، تبقى هنالك موضوعات يتحاشيان التحدث فيها ويتجنبان الكلام عنها ، وذلك بنوع من اتفاق صامت • كان الأمير يحس في بعض الأحيان أن جبريل آرداليونوفتش يتمنى من جهته لو تعتقد بينهما صداقة وتقوم بينهما صراحة بغير حدود •

وفى هذا الصباح مثلاً ، حين رآه داخلاً ، شعر بأن جانبا يعتقد أنه قد أن الأوان لتحطيم الجليد وتحقيق التفاهم فى جميع الأمور (كان الزائر مع ذلك متمجلاً ، فلقد كانت أخته تنتظره عند ليديف لشأن ملحق يجب أن يسوياه بينهما) .

ولكن لئن توقع جانبا حقاً أن يلقي عليه الأمير وابلاً من أسئلة متمجلة ، وأن يكشف له عن أمور كثيرة على غير ارادة منه ، وأن يفضى اليه بما يعتلج فى قرارة نفسه ، فقد أخطأ خطأ كبيراً . لقد ظل الأمير طوال مدة الزيارة التى دامت عشرين دقيقة ، ظل غارقاً فى خواطره ، حتى ليكاد يكون ذاهلاً . ولم يلق الأسئلة المتوقعة ، أو قل لم يلق السؤال الهام الذى كان ينتظره جانبا . لذلك ارتأى جانبا أن من المناسب أن يتحفظ هو أيضاً فلا يسترسل . صحيح أنه ظل طلق اللسان كبير الكلام ، ولكنه فى ثمرته الحفيفة المتوددة اللطيفة ، تحاشى أن يلامس النقطة الأساسية .

روى فيما روى أن ناستاسيا فيليوفا لم تصل الى بافلوفسك الا منذ أربعة أيام ، وأنها قد جذبت أنظار الناس وأثارت انتباههم . وذكر أنها تقيم عند داريا ألكسيقنا ، فى منزل صغير مريح بشارع « البحارة » ، ولكن مركبتها تكاد تكون أفخم مركبة فى بافلوفسك . وقد احتشد حولها منذ الآن جمهور من المولاهين ، فيهم الشباب وفيهم الشيوخ ؛ وثمة فرسان يواكبون مركبتها فى بعض الأحيان . وهى على عادتها شديدة التدقيق فى اختيار معارفها ، فلا ترضى أن يكون يقربها الا صفوة منتقاة . غير أن هذا لا ينفى أنها محاطة بما يشبه أن يكون فصيلة من الحرس مستعدة للدفاع عنها أتم الاستعداد متى مسّت الحاجة الى ذلك . وبسببها فسح خطوبته رجل من المزارعين فى بافلوفسك ، وكاد جنرال عجوز أن يلعن ابنه . وهى تصطحب أثناء زياراتها بالمركبة ، وفى كثير من

الأحيان ، فتاة بارعة الجمال فى السادسة عشرة من عمرها تمت بقربى بعيدة الى داريا ألكسيفنا • والفتاة موهوبة فى الغناء ، فصوتها يجذب انتباه أهل الحى الى منزلهم فى المساء • هذا وان ناستاسيا فيليوفنا تعنى بهندامها أشد العناية • فملاسها بسيطة ، لكنها فى غاية الذوق والأناقة ، فاذا أضفنا الى ذلك جمالها ومركبتها أدركنا لماذا تثير غيرة جميع السيدات •

وأقلت لسان جانبا فقال : أما حادث الأمس السخيف فلا شك فى أنه مدبّر ، ولا يمكن أن تكون هى المسؤلة عنه ، فيجب أن يُعرف الجانى ، والا تجنّى الناس عليها وقالوا فيها سوءاً ، وذلك ما سيحدث قريباً على كل حال •

كان يتوقع أن يسأله الأمير لماذا يرى أن حادث الأمس أمر مدبّر ، ولماذا يعتقد أن الناس لن يلبثوا أن يقولوا فى ناستاسيا سوءاً • ولكن الأمير لم يلقى أى سؤال عن هاتين النقطتين •

وذكر جانبا بعد ذلك معلومات مفصّلة عن أوجين بافلوفتش ، دون أن يكون الأمير قد سأله عن شىء من ذلك أيضاً • وان كلام جانبا عن أوجين بافلوفتش لأمر غريب ، لا سيما وأنه كان يُقحم فى الحديث اقحاماً • قال جانبا فيما قال : انه يعتقد أن أوجين بافلوفتش لم تكن بينه وبين ناستاسيا فيليوفنا علاقات فى يوم من الأيام ؛ وانه حتى فى الوقت الحاضر لا يكاد يعرفها فقد قدّمت اليه مرة واحدة منذ ثلاثة أيام أو أربعة أثناء النزهة • ومن المشكوك فيه أن يكون قد زارها فى بيتها مرة واحدة ولو بصحبة أشخاص آخرين •

أما مسألة السندات فمن الجائز أن تكون صحيحة (حتى ان جانبا يمدّها أكيدة) • صحيح أن أوجين بافلوفتش يملك ثروة كبيرة ، غير أن « شيئاً من القوضى يسيطر على ادارة أملاكه » ...

وانقطع جانبا عن الكلام فى هذا الموضوع الغريب ، ثم لم يزد شيئاً
عن فعلة ناستاسيا فيليوفنا بالأمس ، عدا الإشارة التى ساقها من قبل .
وأخيراً جاءت باربارا آرداليونوفنا تبحث عن جانبا ، لكنها لم تمكث
عند الأمير الا دقيقة واحدة استطاعت خلالها أن تبلغه (دون أن يسألها عن
شيء أيضاً) أن أوجين بافلوفتش يقضى هذا اليوم ببطرسبرج وقد يقضى
بها الغد أيضاً ، وان زوجها (ايفان بتروفتش بتسين) هو الآن ببطرسبرج
فأغلب الظن أنه ذهب الى هناك للاهتمام بشئون أوجين بافلوفتش . واضح
أن فى الأمر شيئاً . وأضافت الى هذا عند انصرافها أن اليزابت بروكوفينا
معتكرة المزاج فى هذا اليوم فهى ترمق من حولها أشد الارهاق وأن
آجلابا - وذلك شيء أغرب - قد انتجرت مع الأسرة كلها ، لا مع أبيها
وأُمها فحسب ، بل مع أختيها أيضاً . « ليس ذلك بالأمر الحسن بتاتاً » .
حتى اذا فرغت من ذكر هذا النبأ ذكراً يشبه أن يكون عارضاً (وهو نبأ
له فى نظر الأمير شأن خطير كل الخطورة) انصرفت هى وأخوها . ولم
يقل جانبا كلمة واحدة عن قضية « ابن بافلشتشيف » ، سواء من باب
اظهار التواضع ، أو بغية « مداراة عواطف الأمير » . غير أن ذلك لم يمنع
الأمير من أن يشكر له ، مرة أخرى ، ما تحمله من مشقة وما تكلفه من
عناء لانهاء تلك القضية .

سُرَّ الأمير أعظم السرور حين صار وحيداً ، فهبط من على الشرفة،
واجتاز الطريق الى الحديقة . كان يريد أن يفكر ، وكان هناك قرار يجب
عليه أن يتخذه ، وهو قرار من تلك القرارات التى لا يفكر المرء فيها ،
وانما يعزم أمره عليها دفعة واحدة . وها هو ذا تستولى عليه رغبة مفاجئة
رهيبية فى أن يدع كل شيء فى مكانه ، فينصرف مسرعاً حتى دون أن
يودّع أحداً ، ويرجع الى حيث كان فى البعد والعزلة . كان يوجس أنه
اذا بقى فى بافلوفسك ولو بضعة أيام أخرى ، فسيغوص فى هذه اليشة

غوصاً لا مخرج له منه بعد ذلك قط . غير أنه لم يهب لنفسه عشر دقائق من التفكير ، ولم يلبث أن أيقن أن الهروب «مستحيل» ، وأنه يكاد يكون جناً وحقارة . ان من طبيعة المشكلات المطروحة عليه أنه لا يحق له أن لا يحلها أو على الأقل أن لا يقف جميع جهوده على إيجاد حل لها .

وعلى هذه الحال النفسية انما عاد الأمير الى بيته دون أن يتنزه أكثر من ربع ساعة . وشعر في تلك اللحظة أنه شقى أكبر الشقاء .

وكان ليديف غائباً فاستطاع كيللر أن يدخل على الأمير أثناء السهرة . لم يكن كيللر سكران ، لكنه كان في حالة نفسية تحضه على البوح والمسارة والنجوى . فسرعان ما أعلن للأمير أنه جاء اليه ليقص عليه قصة حياته كاملة ، فملى هذه النية انما بقى في بافلوفسك . ولو أراد الأمير أن يطرده لما استطاع الى ذلك سبيلاً ، ولرفض الرجل أن ينصرف كل الرفض . ولقد أراد أن يندفع في حديث طويل مفكك ، ولكنه ما ان قال بضع كلمات حتى انتقل الى الحاشية فاعترف بأنه « امرؤ لم يبق له ذرة من خلق » (وما ذلك الا بسبب زوال اعتقاده بالله) حتى أنه بلغ من هذا حد الاقدام على السرقة . قال :

— هل تستطيع أن تتصور أمراً كهذا ؟

قال الأمير :

— اسمع يا كيللر ، لو كنت في مكانك لما اعترفت بهذا ، الا في حالة الضرورة المطلقة . ثم ان من الجائز جداً أن تكون الآن متجنباً على نفسك عن عمد ...

— أنا لا أقول هذا الا لك أنت ، لك أنت وحدك ، وليس لي من ذلك الا هدف واحد هو أن أحاول الارتقاء بأخلاقي . لن أحدث عن هذا لأحد ، وسأحمل سرّي الى قبري . ولكن ليتك تعلم يا أمير مدى صعوبة

الحصول على مال في عصرنا هذا ! أين لي بالمال ؟ اسمح لي أن ألقى عليك ذلك السؤال . ان المرء لا يسمع الا جواباً واحداً : « هات لنا ذهباً وماساً فقرضك على رهن » . والذهب والماس هما ما يعوزني . هل تستطيع أن تصور هذا ؟ ولقد غضبت آخر الأمر فقلت بعد لحظة : « وهل تقرضونني مالا برهن أحجار زمرد ؟ » ، فقالوا : « نعم » ، فقرض مالا برهن أحجار زمرد ، ، فقلت وأنا أتساول قبعتي لأخرج : « هذا حسن . شيطان يأخذكم ، يا لكم من أوغاد ! » . أقسم لك !

- هل كنت تملك اذن أحجار زمرد ؟

- أحجار زمرد ؟ آه يا أمير ! انك ما تزال تنظر الى الحياة نظرة فيها هدوء وبراءة وسذاجة يمكن أن توصف بأنها ريفية !

كان شعور الأمير بالحجل من سماع مسارات كيلر أكبر من شعوره بالشفقة عليه . وومضت في ذهنه فكرة . تساءل : « ألا يمكن أن يُصنع من هذا الانسان شيء باحداث تأثير حسن فيه ؟ » . لكنه استبعد لأسباب شتى أن يكون هذا التأثير الحسن تأثيره هو ، لا من باب التواضع بل بسبب طريقته الخاصة في مواجهة الأمور . وشيئاً فشيئاً استغرقا في الكلام وبلغا من الاهتمام بالتحادث ممّا أنهما لم يخطر ببالهما أن يفترقا . وأسرع كيلر يعترف بأفعال يتراءى للمرء أن من المستحيل على أحد أن يعترف بها . وكان يؤكد عند كل اعتراف بأنه نادم نداماً صادقاً وبأن « عينيه تفيضان دموعاً » ، غير أن ذلك لم يمنعه من أن يعرض أخطائه بلهجة اعتزاز ، وأن يعرضها في بعض الأحيان عرضاً فيه من قوة الهزل وشدة الاضحاك أنه والأمير قد انتهيا الى الاغراق في ضحك كضحك المجانين .

قال الأمير أخيراً :

- المهم أن فيك ثقة كثقة الأطفال وأن لك صراحة يندر مثلها. هل تعلم أن هذا كافٍ ليحمل المرء على أن ينفّر لك أموراً كثيرة ؟
فقال كيلر مؤيداً كلام الأمير وقد رقّ قلبه من التأثير :

- نفسى نبيلة ، نبيلة وذات شهامة ! ولكن المسألة يا أمير أن هذا النبيل لا يوجد إلا وجوداً مثالياً ، فوجوده وجود بالقوة لا بالفعل ان صحّ التعبير ! انه لا يتحقق في الواقع أبداً . ولم هذا ؟ ذلك ما لا أفهمه .

- لا تياس . يمكن أن نقول الآن على وجه اليقين انك قد كشفت لى عن قرارة نفسك . يخيل الىّ على الأقل أنه يستحيل أن يُضاف أى شيء الى ما كشفت لى عنه . أليس هذا صحيحاً ؟

فصاح كيلر يقول بلهجة اشفاق ورحمة :

- يستحيل ؟ آه يا أمير ! انك ما تزال تحكم على الناس بأفكار هى أفكار رجل سويسرى ...

قال الأمير متحيراً مدهوشاً :

- هل يمكن أن يكون ثمة أشياء تُضاف الى ما ذكرته ؟ ولكن هلاًّ قلت لى يا كيلر ما الذى كنت تنتظره منى حين بحث لى بهذه الأمور ، ولماذا جئت الىّ ؟

- ما الذى كنت أنتظره منك ؟ أولاً : ان لبساطة نفسك سحرها وفتنتها ، وان المرء ليجد متعة فى الحديث معك برهة من الزمن . اننى أعرف على الأقل أن أمامى رجلاً يمتاز بفضيلة لا سبيل الى الشك فيها ؛
وثانياً ... وثانياً ...

لم يكمل كيلر كلامه .

قال الأمير بلهجة فيها كثير من الجلد وفيها صراحة يمازجها شيء من حياء :

- أملكك كنت تريد أن تقترض منى مالا ؟

فارتش كيلر • وحدق الى عيني الأمير مشدوها ، وضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية وقال :

- هذه بعينها طريقتك فى افحام الناس ! آه يا أمير ! ان لك براءة وسذاجة لم يعرف العصر الذهبى مثلهما ، ثم اذا بنفذك السيكلوجى العميق يخترق المرء اختراق السهم • ولكن اسمح لى يا أمير • هذا أمر يحتاج الى تفسير ... ذلك أننى مذهول حقاً ! صحيح أن نيتى كانت هى أن أقترض منك مالا ، ولكنك ألقيت على السؤال وكأنك لا تجد فى هذا ما يستحق المؤاخذه فكأن الأمر طبعى تماماً ...

- نعم ، هو منك طبعى تماماً •

- وهذا لا يترك ؟

- ولماذا يجب أن يثرنى ؟

- اصغ الى يا أمير : لقد بقيت فى بافلوفسك منذ مساء أمس ، أولاً سبب اعتبارى العظيم للأسقف الفرنسى بوردالو * (لقد فتحت زجاجات عند ليديف حتى الساعة الثالثة من الصباح) ، وثانياً وخاصة (أقسم لك بجميع الصلبان أنتى أقول الحقيقة) لأننى أردت أن أبوح لك بحقيقة أمرى كاملة صادقة بغية الارتقاء بأخلاقى • وعلى هذه الفكرة انما نمت ممثلى العنين بالدموع فى نحو الساعة الرابعة من الصباح • هل تصدق الآن انساناً زاحر النفس بالمشاعر السامية والعواطف النيلة ؟ اننى حين غفوت غارقاً بالدموع فى الداخل والخارج على السواء (ذلك اننى بكيت ناشجاً ، فأنا أتذكر هذا) قد هاجمتنى فكرة جهنمية ، فسألت : « ماذا لو اقترضت منه مالا بعد أن أعترف له ؟ » • وعلى هذا النحو انما أعددت

اعترافى طبقاً صغيراً من طعام أضع فيه حشائش مشهية وأرشه بدموع سخية ، وأهيمه لاثارة عاطفتك وأقراض مائة وخمسين روبلاً • ألا تجد فى هذا حطةً وصغاراً ؟

– لا شك عندى فى أن الأمور قد جرت على هذا النحو ، ولا تعدو المسألة أن تكون تصادفاً • فكرتان التقيا فى ذهنك عرضاً • هذه حادثة شائعة جداً قد ألفتها وتعودتها أنا نفسى • واعتقد أن هذا غير حسن • هل تعلم يا كيللر أن ذلك هو الشيء آخذه على نفسى ؟ ان ما قلته الآن عن نفسك ، يمكن أن أقوله أنا عن نفسى •

وتابع الأمير كلامه يقول بلهجة انسان تهمة هذه المسألة كبيراً ، فهو يفكر فيها تفكيراً عميقاً :

– حتى لقد اتفق لى أن قدّرت أن جميع الناس هم على هذه الشاكلة ، وعددت ذلك دليلاً على براءتى مما اتهم به نفسى ، اذ لا شيء أصعب على المرء من مناهضة هذه الأفكار « المزدوجة » • اتنى أقول هذا عن خبرة وتجربة • لا يدرى الا الله من أين تجيء هذه الأفكار المزدوجة ولا من أن تنجس ! ولكن هأنت ذا تصف ذلك بأنه حطة وصغار ! سيكون علىّ اذن أن أعود الى التخوف من مثل هذه الظاهرة ! على كل حال ، لست أهلاً لأن أحكم عليك ، مع ذلك لا أحسب ان كلمة الحطة أو الصغار هي هنا فى محلها • ما رأيك ؟ لقد عمدت الى المكر والحيلة محاولاً أن تبتز منى بدموعك مالاً ، ولكنك تحلف أنت نفسك أن اعترافك كان له هدف آخر ، هدف نبيل منزّه عن الغرض مبرراً من النفعة • أما المال فقد كنت تريد لتقصص وتلهو ، أليس كذلك ؟ وهذا ، بعد اعتراف كلالاعتراف الذى أقدمت عليه ، هو سقوط أخلاقى طبعاً ، ولكن أتى للمرء أن يتخلص من مجون أصبح فيه عادة راسخة ؟ ذلك

مستحيل • وماذا اذن ؟ ان من الأفضل أن يعتمد المرء فى مثل هذا الأمر
الى حكم ضميره • ما رأيك ؟

كان الأمير يحدث الى كيللر بنظرة متحيرة الى أقصى حدود التحير •
كان واضحاً أن مسألة ازدواج الفكر تشغل باله منذ زمن طويل •
صاح كيللر يقول :

- بعد أقوال كهذه الأقوال التى أسمعها منك ، أصبحت عاجزاً عن
أن أفهم كيف أمكن أن يصفوك بأنك أبله •
فاصطبغ وجه الأمير بحمرة خفيفة •

- ان الواعظ بوردالو لم يراع صاحبه ، أما أنت فقد راعيتى
وحكمت على حكماً انسانياً • فمن أجل أن أعاقب نفسى ، ومن أجل أن
أبرهن لك على مدى تأثرى ، فانتى أعدل عن المائة وخمسين روبلاً ،
وأكتفى بخمسة وعشرين ، فهذا هو المبلغ الذى أحتاج اليه ، مدة أسبوعين
على الأقل • لن أعود لأسألك مالاً قبل انقضاء خمسة عشر يوماً • لقد
أردت أن أسراً آجاشكا ، ولكنها لا تستحق ذلك كثيراً • آه يا أميرى
العزير ! ألا فليبارك الله فيك !

هنا دخل ليديف عائداً من بطرسبرج • فلما رأى ورقة بخمسة
وعشرين روبلاً فى يدي كيللر قطب حاجيه • غير أن كيللر ، وقد ملك
المال ، لم يلبث أن انصرف • فسرعان ما أخذ ليديف يكيل له الذم •
فقال له الأمير أخيراً :

- انك تظلمه • لقد ندمت ندماً صادقا •
- ولكن ما قيمة ندمه ؟ هو كندمى بالأمس : « أنا منحط ! » •
هذه كلمات !•••

- ماذا ؟ أكنت هذه كلمات لا أكرر ؟ لقد ظننت أنا •••

— اسمع • لك ، لك وحدك سأقول الحقيقة ، لأنك تنفذ الى قرارة قلب الانسان : ان الأقوال والأفعال ، ان الأكاذيب والحقائق ، تختلط عندي بصدق كامل • ففي الحقائق والأفعال انما يتجلى ندمى وتجلى توبتى ، صدقنى أو لا تصدقنى ... يميناً ان الأمر كذلك • أما الأقوال والأكاذيب فانها تأتىنى من فكرة جهنمية (لا تبرح ذهنى) بها أحس اننى مدفوع الى خداع الناس والاستفادة حتى من دموع الندامة والتوبة ! أحلف لك بشرفى أن الأمر كذلك ! ما كان لى أن أقول هذا الكلام لشخص آخر غيرك ، والا لضحك أو لبصق استمزازاً ! أما أنت يا أمير فسوف تحكم علىّ حكماً انسانياً •

هتف الأمير يقول :

— هذا الكلام نفسه قد قاله لى الآخر ؛ ويبدو عليكما كليكما أنكما تعتران وتباهيان ! لست أفهم • ولكن الآخر أصدق منك ، أنت الذى تجعل الكذب حرفة لك • هيّا ! كفى رياءً وتصنعاً يا ليديف ! لا تضع يدك على قلبك • أليس لديك ما تحب أن تقوله لى ؟ انك لم تأت الىّ بغير هدف ...

أخذ ليديف يجعد وجهه ويلوى جسمه •
قال الأمير :

— لقد انتظرتك طوال النهار لألقى عليك سؤالاً • قل لى الحقيقة من أول كلمة ، ولو مرة واحدة فى حياتك : ألم تشارك مشاركة ما فى حادثة المركبة أمس ؟

أخذ ليديف يتلوى من جديد ، ثم طفق يضحك ، ثم فرك يديه ، ثم عطس • لكنه لم يعزم أمره على أن ينطق بكلمة •
— أرى أنك شاركت فى الأمر •

- لم أشارك الا مشاركة غير مباشرة فحسب ! أقول لك الحقيقة
خالصة • كان دورى كله فى القضية هو أن أبلغ شخصاً ما فى الوقت
المناسب أن فى دارى ناساً ، وأن بين هؤلاء الناس فلاناً وفلاناً ...

صاح الأمير يقول بلهجة تدل على نفاد الصبر :

- أعرف أنك أرسلت الى هناك ابنك • هو نفسه قال لى ذلك منذ
قليل •

قال ليديف وهو يقوم بحركات انكار :

- أنا لا شأن لى فى الأمر • ان هذه المكيدة من تدبير أشخاص
آخرين ؟ بل انها لنزوة أكثر مما هى مكيدة •

- ولكن ما المسألة ؟ اشرح ما بنفسك ، ناشدتك الله ! هل يمكن أن
لا تدرك أن هذه القضية تمسنى مباشرة ؟ ألا ترى أنهم يحاولون تلطيخ
سمعة أوجين بافلوفتش ؟

هتف ليديف يقول وقد عاد ينقبض :

- أيها الأمير ، أيها الأمير العظيم ، انك لا تتيح لى أن أقول لك
الحقيقة كلها • لقد حاولت غير مرة أن أبسطها لك ، ولكنك لم تدع لى أن
أكمل كلامى فى لحظة من اللحظات ...

صمت الأمير وفكّر ، ثم قال فى مشقة وعناء ، بلهجة تكشف عن
أنه يعانى صراعاً نفسياً عنيفاً :

- طيب ... قل لى الحقيقة •

فسرعان ما بدأ ليديف يقول :

- ان آجلايا ايفانوفنا ...

ولكن الأمير صرخ يقول له مندفعاً :

- امسكت ***

كان الأمير محمّر الوجه من الغضب ومن الاستياء وربما من الحجل
والحياء • وتابع كلامه فقال :

- مستحيل • هذا كله سخف • هذا كله تلفيق منك أو من أناس
مجانيين مثلك • انتى أمنعك من أن تكلمنى فى هذا الأمر يوماً !

فى وقت متأخر من الليل ، فى نحو الساعة الحادية عشرة ، وصل
كوليا مع حصاد أنباء بعضها من بطرسبرج وبعضها من بافلوفسك • فأوجز
رواية الأنباء الآتية من بطرسبرج (وهى تتعلق بيهيوليت وحادثة الأمس)
مؤجلاً الحديث المفصل عنها الى وقت آخر ، متعجلاً الانتقال الى الكلام
عن أنباء بافلوفسك • كان قد رجع من بطرسبرج منذ ثلاث ساعات ،
وذهب الى دار آل ايباتشين رأساً ، دون أن يعرّج على الأمير • « رهيبٌ
ما يحدث هناك » • والسبب الأول للفضيحة هو حادثة المركبة طبعاً •
ولكن لا شك أن حادثاً آخر قد وقع ، حادثاً لا يعرفه لا هو ولا الأمير •
« وقد تعجبت طبعاً أن أتجسس أو أن أسأل أحداً • ثم انهم قد احسنوا
استقبالى حتى لقد أحسنوا استقبالى أكثر مما كنت أتوقع • ولكنهم لم يقولوا
كلمة واحدة عنك يا أمير » • وهاهو ذا النبأ المثير : لقد تشاجرت آجلايا مع
ذويها بشأن جانياء لا يعرف أحد تفاصيل المشاجرة ، ولكن من المعروف أن
جانيا هو سيبها ، ولا شك فى أن الباعث على المشاجرة كان هاماً خطيراً ،
لأن المشاجرة كانت قوية عنيفة • كان الجنرال قد رجع الى البيت متأخراً ،
متجهماً الهيئة عابس الأسارير ، يصحبه أوجين بافلوفتش الذى استقبل
بكثير من الترحيب وكان باشاً مشرق المزاج كثير اللطف والتودد • وهذا
نبأ ثان أهم شأنًا : ان اليزابت بروكوفينا قد استدعت باربارا آرداليونوفنا
التي كانت مع بناتها ، وحظرت عليها ، دون ضجيج ، أن تدوس قدميها

أرض بيتها بعد الآن في يوم من الأيام ؟ وقد أبلغتها هذا الخطر بكثير من الكياسة والتهذيب على كل حال . » عرفت هذا من فاريا بنفسها . » هذا ما أضافه كولا . وحين خرجت فاريا من عند الجنرالة وودعت الآمسات كانت الآمسات لا يعرفن أن باب هذا المنزل قد أُغلق دونها الى الأبد وأنها تركهن الى غير رجعة .

قال الأمير متحيراً :

- مع ذلك جاءت الى باربارا آرداليونوفنا في الساعة السابعة .

- وفي الساعة الثامنة انما أُمّرت بأن لا تعود . اننى متألم لفاريا وجانيا . . . صحيح أنهما لا ينفكان عن تدبير المكائد ، فتلك عادة لا يملكان التخلص منها . أنا لم أستطع أن أعرف ماذا يدبران ، ولست أحرص على أن أعرف ذلك . ولكننى أؤكد لك يا عزيزى الأمير الطبيب أن جانيا له قلب نبيل . هذا رجل ضائع من نواح كبيرة ، لكن له مزايا تستحق أن تُعرف ولن أغفر لنفسى يوماً أننى لم أفهمه قبل هذه المدة . لا أدرى ألا يزال على أن أتردد على آل ايباتشين بعد الذى حدث لفاريا . صحيح أننى منذ اليوم الأول قد احتفظت باستقلالى كاملاً ، وجعلت بينى وبينهم مسافة . ولكن الأمر يحتاج الى تفكير مع ذلك .

قال الأمير :

- انك لتخطئ . اذا أخذتك بأخيك شفقة . لئن وصلت الأمور الى ما وصلت اليه فلأن جبريل آرداليونوفتش أصبح خطراً فى نظر الزابت بروكوفينا . معنى ذلك أن بعض آماله قد تأكدت .

هتف كولا يسأل مذهولاً :

- أية آمال ؟ ماذا تعنى ؟ أترك تتصور أن آجلايا ... ذلك
لا يمكن ...

لزم الأمير الصمت .

وتابع كولا كلامه بعد دقيقة أو دقيقتين من سكوت :

- أنت ريّاب شكّك الى درجة رهية يا أمير . لقد لاحظت منذ
بعض الوقت أنك تهوى الى ريبة فيها غلو ، حتى أخذت لا تصدّق شيئاً ،
وحتى صرت تقترض كل شيء ... ولكن هل ترائى استعملت كلمة
« الريبة » فى محلها ؟

- أظن ، رغم اننى لست واثقاً أنا نفسى كل الثقة .
صاح كولا يقول فجأة :

- مع ذلك أسترده هذه الكلمة . لقد اهديت الى كلمة تفصح عن
فكرتى افصاحاً أصدق . أنت لست ريّاباً ، وانما أنت غيور . ان جانيا
يوقظ فى نفسك غيرة جهنمية بسبب امرأة متكبرة .

قال كولا ذلك ونهض عن مكانه واثباً ، وأخذ يضحك ضحكاً لعله
لم يضحك ضحكاً مثله فى حياته . وازداد ضحكه حين رأى الأمير
يتخضب وجهه بالحمرة . لقد فتنه أن يتصور أن الأمير غيور بسبب آجلايا .
ولكنه سكت منذ لاحظ أن ألم الأمير صادق . وأخذا يتكلمان منذئذ بكثير
من الرصانة والجد ، فدام حديثهما ساعة أخرى ، أو ساعة ونصفاً .

فى الغداة سافر الأمير الى بطرسبرج ، واضطر أن يمكث هنالك الى
ما بعد الظهر لأمر ملحق مستعجل . فلما عاد الى بافلوفسك فى نحو الساعة
الحامسة صادف ايفان فيدوروفتش بالمحطة . فأمسكه هذا من ذراعه بقوة ،
وبعد أن ألقى نظرات خائفة ذات اليمين وذات الشمال ، أصدده الى مركبة

فى الدرجة الأولى من القطار • لقد كان يحترق رغبةً فى أن يكلمه فى
مسألة هامة •

قال ايفان فيدوروفتش للأمير :

— أرجوك أولاً ، ياأميرى العزيز ، أن لا تؤاخذنى ولا تحقد على •
إذا كان ثمة ما تلومنى عليه فائنى آمل أن تنساه • لقد أوشكت أن أجبى
الك بالأس ، لكننى لا أدرى ما الذى كان يمكن أن تصوره الزابت
بروكوفينا لو أئنى فعلت ••• ذلك لى جسيم حقاً • لكن مخلوقاً ملفزاً
كأبى الهول قد سكن منزلنا • أنا لا أفهم من الأمر شيئاً • أما أنت فأنت
فى رأيى أفلنا ذنباً ، رغم أنك سبب كثير من التعقيدات التى حدثت • حب
الحير للبشر شئ ممتع يا أمير • ولكن ماينبغى للمرء أن يسرف قطه لملك
عائت هذه الحقيقة أنت نفسك بالتجربة • صحيح اننى أحب طيب القلب
ونبل النفس وأقدر الزابت بروكوفينا ، لكن •••

وظل الجنرال يتكلم على هذا المتوال مدة طويلة ، ولكن كلامه كان
مفككاً تفككاً شديداً • كان واضحاً أنه خائف مضطرب الى أبعد حدود
الخوف والاضطراب ، من حادث لا سبيل الى فهمه البتة •

قال أخيراً وهو يدخل فى حديثه شيئاً من وضوح :

— لا شك عندى فى أنك غريب عن الأمر ، فلا شأن لك فيه • لكننى
أرجوك رجاء الصديق أن تنقطع عن زيارتنا زمناً ، الى أن تدور الريح •

ثم هتف يقول بحرارة :

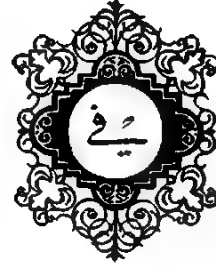
— ما أوجين بافلتش فان كل ما يشاع عنه انما هو أراجيف دينية
ووشايات كاذبة ! نحن ازاء محاولة تشهير وخطه تأمره ثمة مكيدة يهدف
منها الى قلب كل شئ رأساً على عقب ، والى احداث الشقاق والخلاف
بيننا • اسمع يا أمير ، اننى أقول لك الحقيقة بصراحة : ما من كلمة نطقت

حتى الآن بيننا ، نحن وأوجين بافلتش ، هل تفهم ؟ لا شيء يربطنا في الوقت الحاضر . غير أن تلك الكلمة يمكن أن تُنطق . وقد تنطق في القريب ، بل قد تنطق من لحظة الى أخرى . وذلك ما يُراد منه . لماذا ؟ ما الغرض من ذلك ؟ ما هي النية المخفية وراءه ؟ هذا ما لا أستطيع أن أدركه . ان هذه المرأة محببة شاذة . اننى خائف منها أشد الخوف ؟ ان خوفى منها يؤرقنى ويحرمنى من النوم . وانظر الى تلك المركبة الفخمة ، وتلك الحيل الصهاء ... ذلك ما يسميه الفرنسيون أفاقه ! من ذا الذى يهيم بها هذا المستوى من العيش ؟ يميناً لقد راودتنى في يوم من الأيام هذه الفكرة الآثمة ، وهى أن أوجين بافلتش هو الذى يهيم بها ذلك . ولكن من الواضح أن هذا الرأى لا يمكن أن يصمد للدحض . لماذا تحاول اذن احداث الشقاق بيننا ؟ ذلك هو اللغز ! أمن أجل أن تحتفظ الى جانبها بأوجين بافلووتش ؟ لكننى أكرر لك وأحلف لك أنه لا يعرفها وأن الصوت اختراع وتلفيق . وما أشد تلك الوقاحة فى أن تخاطبه بصيغة المفرد على ذلك النحو عبر الشارع ! تلك مكيدة مدبرة لا أكثر ! واضح أن علينا أن نبذل هذه المكيدة باحتقار وأن نضاعف احترامنا لأوجين بافلووتش . ذلك ما أعلنته لاليزابت بروكوفينا . والآن أفضى اليك بالرأى الذى أمكنه فى قرارة نفسى : اننى مقتنع اقتناعاً عميقاً بأنها تحاول أن تتقم بهذا منى أنا ، بسبب ما جرى من قبل ، هل تذكر ؟ ومع ذلك فأننى لم أخطئ فى حقها يوماً ولا أسأت اليها . ان وجهى ليحمر خجلاً كلما فكرت فى ذلك الأمر . ها هى ذى تعود الآن الى الظهور بعد أن ظننت أنها غابت الى الأبد . أين ذهب روجوين ؟ لقد كنت أحسب أنها أصبحت منذ مدة طويلة زوجة روجوين .

الخلاصة أن الجنرال كان حائراً أشد الحيرة . ولقد ظل طوال ما يقرب من ساعة ، وهى المدة التى استغرقتها مسافة الطريق بالقطار ،

يجرى الحديث مع نفسه ، فهو الذى يلقى الأسئلة وهو الذى يجيب عنها ، ضاعطاً يدي الأمير ، مفلحاً فى اقناعه على الأقل بأنه لا يساوره ظلم من شك فيه . وتلك هى النقطة الجوهرية بالنسبة الى الأمير . وتكلم فى آخر الأمر عن عم أوجين بافلتش الذى يشغل منصب رئيس لحدى الادارات ببطرسبرج . فقال انه « رجل فى نحو السبعين من عمره ، ذو مركز مرموق ، يحب مباهج الحياة ويقبل على ملذات المائدة ، أى انه - باختصار - شيخ ما يزال نضر الرغبات ... ها ها ! وأنا أعلم أنه سمع عن ناستاسيا فيليوفنا ، حتى انه التمس الخطوة بنعمها . وقد زرتة منذ قليل . انه لا يستقبل الآن بسبب سوء صحته ، ولكنه غنى ، غنى . وان له نفوذاً وتأثيراً و ... أطال الله عمره ! غير أن أوجين بافلتش سيرث ثروته كلها ... نعم ... لكننى مع ذلك خائف .. ان فى الهواء نذير شر يحلّنى تحليق خفافش ، فأنا خائف ، خائف ، ... » .

الفصل الثاني عشر



الساعة السابعة من المساء ، كان الأمير يتهاً للقيام
بنزحته في الحديقة ، فاذا باليزابت بروكوفينا
تظهر في الشرفة وحيدة ، وتوجه نحوه .
قالت :

- أولاً ، لا يذهبن بك الظن الى انى جئت أطلب منك الصفح .
فتلك حماقة ! أنت وحدك مرتكب جميع الأخطاء ومقترف جميع الذنوب !
لزم الأمير الصمت .
- أنت مذنب أم لا ؟

- لا أكثر منك ولا أقل . على أننا لم نذنب عن عمد وقصد ، لا أنا
ولا أنت . منذ ثلاثة أيام اعتقدت أنني مذنب آثم . أما الآن فقد اقتنعت
بعد التفكير بأن لا شيء من ذلك !

- آه ... هكذا أنت ! طيب ، اجلس واسمع ، لأننى لا أتوى أن
أبقى واقفة .

جلس الاثنان .

قالت :

- ثانياً ، لا داعى الى كلمة واحدة عن أولئك الأشقياء ! سأمكنك
عشر دقائق للتحدث معك . لقد جئت أسألك عن أمر من الأمور (لا يعلم

الا لله الى أى شىء ذهب ظنك) ، فان نطقت بكلمة واحدة عن أولئك
الوقحين ، فلا تهضنَّ منصرفةً على الفور ، وليكوننَّ ذلك فراقاً بينى
وبينك .

قال الأمير :

- طيب .

- اسمح لى أن ألقى عليك سؤالاً : هل بعثت برسالة الى آجلايا منذ
شهرين أو شهرين ونصف شهر ، حوالى أعياد الفصح ؟

- ن . نعم

- بأية مناسبة ؟ فى أى موضوع ؟ ماذا تضمنته تلك الرسالة ؟ أرنى
الرسالة !

كانت عينا اليزابت بروكوفينا تقدح شرراً ، وكانت ترتعش من
فرط نفاد الصبر .

أجاب الأمير مدهوشاً مرتاعاً :

- ليست تلك الرسالة معى ، واذا كانت ما تزال موجودة فهى مع
آجلايا ايغانوفنا

- لا تراوغ ! ماذا كتبت لها فى تلك الرسالة ؟

- لست أراوغ ، وليس ثمة ما أخشاه . اننى لا أرى السبب الذى
كان يمكن أن يمنعنى من الكتابة اليها

- اسكت . سنتكلم من بعد . ماذا تضمنت تلك الرسالة ؟ لماذا احمر
وجهك ؟

فكَّر الأمير لحظة .

- لا أعرف ماذا يدور فى رأسك من خواطر يا اليزابت بروكوفينا .

ولكننى أرى أن تلك الرسالة قد أورتك كثيراً من الاستياء • لاحظنى أن فى وسعى أن لا أجيب عن سؤال كهذا السؤال الذى تلقين • لكننى من أجل أن أبرهن لك على أنه ليس نمة ما أخشاه بصدد تلك الرسالة ، وعلى أننى لست نادماً ولا خجلان من كتابتها (حين قال الأمير هذا الكلام تضاعفت حمرة وجهه) ، فسأتلوها عليك ، لأننى أحفظ مضمونها على ظهر القلب فيما أظن •

وأخذ الأمير يتلو نص الرسالة كلمة كلمة تقريباً •
قالت اليزابت بروكوفيتنا بعد أن أصغت باتباه شديد ، قالت بلهجة فظة شرسة :

— يا له من خلط ! ما المعنى الذى تقصده من هذه السخافات ؟
أجابها الأمير :

— أنا نفسى لا أعرف حق المعرفة • ان ما أعلمه هو أن عاطفتى كانت صادقة • كانت تتأبى هنالك لحظات حياة عنيفة وآمال كبيرة •
— أية آمال ؟

— يصعب على أن أشرح هذا ، ولكن تلك الآمال ليست تلك التى يغلب على ظنى أن تفكيرك ينصرف إليها الآن • ان تلك الآمال ... تتصل بالمستقبل ، وترتبط بفرحة التفكير فى أننى لعلى لم أكن « هنالك » ، أجنبياً • وقد غمرتني سعادة بالعودة الى الوطن ، فتناولت القلم فى ذات صباح مشمس ، وكتبت لها تلك الرسالة • لماذا كتبت الرسالة إليها ؟ لا أدرى • هناك لحظات يريد فيها المرء أن يكون بقربه صديق •

وأضاف الأمير يقول بعد صمت :

— فلفل ذلك الشعور هو الذى قادنى ووجهنى •
— أترأك محباً ؟

- لا والله • لقد كبت اليها كما يكتب أخ الى أخيه • حتى لقد
ذيلت رسالتى بهذا التوقيع : « أخوك » •
- هه ! خيال بارع ! فهمت !
- يشق على نفسى جداً أن أجيب عن أسئلة كهذه يا الزابت
بروكوفينا •
- أعلم • غير أن هذا لا يعينى البتة • اسمع ، قل لى الحقيقة كما لو
كنت تتكلم أمام الله : أكاذب أنت فيما تقول أم لا ؟
- لست كاذباً •
- أأنت تقول الحقيقة حين تؤكد أنك لست محباً ؟
- يخيّل الى أن هذا صادق صدقاً مطلقاً •
- آ ••• « يخيّل اليك » ! هل الصبى هو الذى حمل اليها
الرسالة ؟
- رجوت نيقولا آرداليونوفتش أن •••
قاطعت الزابت بروكوفينا فى غضب :
- الصبى ، الصبى ! أنا لا أعرف نيقولا آرداليونوفتش • قل
الصبى !
- نيقولا آرداليونوفتش •••
- بل الصبى ، قلت لك •••
ردَّ الأمير يقول بلهجة ثابتة ، ولكن دون أن يرفع صوته :
- لا ، ما هو بالصبى • انه نيقولا آرداليونوفتش •
- طيب ••• طيب ••• سأجازيك على هذا بمثله •••
كظمت الزابت بروكوفينا انفعالها دقيقة لتسترد أنفاسها ثم سألته :

- وما معنى « الفارس الفقير » ؟
- لا أدري • حدث هذا فى غيابى • لا شك فى أنه مزاحه من
المزاحات •
- ما أحلى أن يعلم المرء هذا كله دفعة واحدة ! ولكن هل يمكن أن
تكون قد اهتمت بك ؟ لقد وصفتك هى نفسها بأنك « طريح » وبأنك
« أبله » •

قال الأمير بلهجة العتب ، وبصوت يكاد يكون همساً :
- كان فى وسعك أن تعفينى من نقل هذا الكلام الى •
- لا تزعل • هذه فتاة مستبدة متسلطة ، طائشة اللب ؛ انها طفلة
أفسدها الدلال !... قد تفتن بشخص من الأشخاص فإذا هى تهينه على
رعوس الأشهداء ، وتضحك عليه أمام أنفه • أنا نفسى كنت هكذا • ولكننى
أرجوك أن لا تتغنى بالانتصار ، وأن لا تسكر بنشوة الظفر • هى ليست
لك يا صغيرى • انتى أرفض أن أصدق • لن يكون هذا فى يوم من
الأيام ! أقول ذلك لتعزم أمرك منذ الآن • اسمع : احلف لى أنك لم
تزوج « الأخرى » •

قال الأمير وهو ينتفض دهشة :
- ما هذا الذى تقولينه يا الزابت بروكوفينا ؟
- ولكن ألم توشك أن تتزوجها ؟
دمدم الأمير يقول خافضاً رأسه :
- أوشكت أن أتزوجها •
- فأنت اذن تحبها « هى » ؟ وأنت انما جئت الى هنا من أجلها
« هى » ، من أجل « تلك المرأة » ؟
أجاب الأمير :

- ما من أجل أن أتزوجها جئت •
- هل فى العالم شىء مقدس عندك •
- نعم •
- احلف انك لم تجىء لتزوج « تلك المرأة » •
- أحلف على ذلك بما تشائين •
- صدقتك • قبلنى • هاأناذا أتنفس أخيراً بحرية • ولكن اعلم أن آجلايا لا تحبك ، وترتب أمورك على هذا الأساس • لن تصبح آجلايا زوجتك ما بقيت أنا على قيد الحياة • هل سمعت ؟
- سمعت •
- بلغ الأمير من شدة الاحمرار أنه أصبح لا يستطيع أن ينظر الى اليزابت بروكوفينا وجهاً لوجه •
- ضع هذا فى رأسك • لقد انتظرتك انتظار العناية الالهية (وكنت لا تستحق ذلك) ، وبللت وسادتنى فى الليل بالدموع - أوه ! لا بسبك أنت يا صديقى ، اطمئن ! فان لى حزناً آخر ، حزناً لا يتغير مدى الدهر • ولكن اليك السبب الذى جعلنى انتظرك نافذة الصبر : اننى ما زلت أعتقد بأن الله هو الذى أرسلك الى صديقاً وأخاً • ليس لى أحد أشد به أزدى ، الا المعجوز بيلوكونسكايا ، التى سافرت هى نفسها ، ناهيك عن أنها كانت قد أصبحت من الشيخوخة غيبة كشاة من الشياه ! والآن ليس عليك الا أن تجيبنى بكلمة نعم أو بكلمة لا على هذا السؤال : هل تعلم لماذا قذفت « تلك المرأة » بتلك الصيحة من داخل مركبتها فى ذلك اليوم؟
- أحلف لك أن لا شأن لى بالأمر ، ولست أعرف شيئاً !
- يكفينى هذا ! صدقتك • ان لى الآن رأياً جديداً فى هذا الموضوع ، ولكننى فى صباح أمس كنت ما أزال أعد أوجين بافلتش

مُسئولاً عن كل ما حدث • لقد لازمتني هذه الفكرة طوال أمس الأول وطوال صباح أمس • أما الآن فقد انتهيت الى الموافقة على رأيهم : واضح أنه قد سُخر منه واستُهزئ به كمنعوه • كيف ؟ لماذا ؟ ما الغاية من ذلك ؟ ان الحركة في ذاتها مشبوهة غير شريفة • على كل حال ، لن يتزوج آجلایا • أنا أقول لك هذا ! مهما يكن رجلاً ممتازاً ، فلن أرضى أن يتزوجها • حتى قبل ذلك الحادث كنت مترددة • أما الآن فقد اتخذت قرارى وعزمت أمرى : « ضعى أولاً فى تابوتى وادفنى فى قبرى ، ثم زوج ابنتك » ، ذلك ما قلته اليوم لايفان فيدوروفتش مقطعةً كلمائى • هانت ذا ترى مدى ثقتى بك • هل ترى ذلك ؟

- أراه وأفهمه •

حدثت اليزابت بروكوفيتسا الى الأمير بنظرة نافذة • لعلها كانت تحترق شوقاً الى معرفة الأثر الذى أحدثه فى نفسه كلامها عن أوجين بافلتش •

- أنت لا تعرف شيئاً عن جبريل آرداليونوفتش ايفولجين ؟

- أ • • • أعرف أشياء كثيرة •

- هل تعرف أنه على صلات بآجلایا ؟

قال الأمير مدهوشاً :

- أجهل هذا كل الجهل • ماذا ؟ تقولين ان جبريل آرداليونوفتش

على صلات بآجلایا ايفانوفنا ؟ مستحيل !

- الأمر حديث العهد • ان أخته هى التى شقت له الطريق طوال

فصل الشتاء •

عاد الأمير يكرر باقتناع بعد أن ظل شارذ الذهن مضطرب النفس

برهةً من الوقت :

- لا أصدّق شيئاً من هذا الكلام • لو صحّ ذلك لعرفته حتماً •
- أنظن أن جبريل آرداليونوفش كان سيأتى معترفاً لك بسرّه باكياً
فوق صدرك ؟ يا لك من ساذج غر ! ••• ان جميع الناس يخدعونك
ويضللونك مثل ••• مثل ••• أفلا تستحى أن تمحضه ثقتك ؟ ألسنت
ترى أنه يضحك عليك ويفرّر بك ؟

قال الأمير بصوت خافت ولهجة لا تخلو من اشمزاز :
- أعرف أنه يفشنى أحياناً • وهو لا يجهل أننى أعرف ذلك •••
ولم يكمل الأمير فكرته •

- هكذا اذن ؟ تعلم أنه يفشك ثم تظل توليه ثقتك • لم يكن ينقص
الا هذا • على أن ذلك هو ما يمكن أن يُنتظر منك • فعلام الاستغراب ؟
رباه ! لا يوجد فى العالم كله رجالان من نوعك • وهل تعلم أن جانبا هذا
أو فاريا هذه قد جملاها على صلات بناستاسيا فيليوفنا ؟

صاح الأمير يسأل :

- من ؟

- آجلايا •

- لا أصدّق • هذا مستحيل • ما الغاية من ذلك ؟

وكان قد نهض عن مكانه وائياً •

قالت اليزابت بروكوفينا :

- أنا أيضاً لا أصدّق ذلك ، رغم أن هناك أدلة وبراهين • انها
فتاة ذات نزوات ، فتاة جامحة الخيال طائشة العقل ! فتاة شريرة ، شريرة ،
شريرة ! انتى مستعدة لأن أكرر لك ألف سنة أنها شريرة ! وبناتى كلهن
أصبحن الآن على هذه الشاكلة ، حتى تلك الدجاجة المبتلة ، الكسندرا !

ولكن أجلايا قد أفلتت من بين يديّ وانتهى الأمر • ومع ذلك لست
أصدق هذا أنا أيضاً •

ثم أضافت تقول لنفسها :

– ربما لأننى لا أريد أن أصدق •

ثم نادى الأمير فجأة تسأله :

– لماذا لم تجيء ؟ لماذا لبثت ثلاثة أيام لا تجيء ؟

كررت سؤالها نافذة الصبر •

فأخذ الأمير يعدد الأسباب التى حالت بينه وبين المجيء • لكنها
قاطعت مرة أخرى وقالت له :

– جميع الناس يعدونك غيباً ويفشونك ! لقد كنت أمس بالمدينة ،
وانى لأراهن أنك مضيت تجئو أمام ذلك الوغد ضارعاً إليه أن يقبل منك
العشرة آلاف روبل •

– لا • لم يخطر ببالي أن أفعل • ولم أره • ثم انه ليس وغداً •
لقد تلقيت منه رسالة •
– أرنىها •

سحب الأمير من محفظة أوراقه رسالة مدّها الى الزبانت بروكوفينا •
وهذه هى الرسالة :

« سيدى ، ليس لى حتما ، فى نظر الناس ، أى حق فى أن أظهر
شيئاً من الشعور بالكرامة • فالناس يعدوننى أهون شأنًا وأحقّر قيمةً من
أن أفعل ذلك • ولكن نظرة الناس الى الأمور ليست نظرتك أنت • اننى
مقتنع أشد الاقتناع يا سيدى بأنك ربما كنت أفضل من سائر الناس • لست
أشاطر دكتورنكو رأيه ، بل أخالفه فى هذه النقطة • لن أقبل منك كوبكاً
واحداً فى يوم من الأيام • ولكنك أنجدت أُمى ، فأنا محمول على أن

أشكر لك صنيعك رغم أن هذا ضعف • على كل حال ، لقد رجعت عن رأيي فيك ، واعتقدت أن من واجبي أن أبلغك ذلك • واني لأتنبأ بأننا لن نقوم بيتنا أية علاقة بعد الآن •

آنتيب بوردوفسكى

« حاشية : ان المال الناقص لاكمال مبلغ المائتى روبل الذى أدين لك به * سُرِدُ اليك مع الزمن حتماً » •

قالت اليزابت بروكوفينا وهى تنهى قراءة الرسالة ثم ترميها :
- يا للسخف والحماقة ! ما كان هذا الكلام ليستحق أن يُقرأ • ممّ
تضحك ؟

- اعترفى مع ذلك بأن قراءة هذه الرسالة قد سرّتك •
- كيف ؟ تسرّنى قراءة هذا الهذر الدعىّ السخيف ؟ ألسنت ترى
اذن أن جميع هؤلاء الناس قد أضلّهم الزهو والعجب والغرور ؟
- صحيح ، ولكنه اعترف بأخطائه ، وقطع صلته بدكتورنكو • وعلى
قدر غروره وزهوه كلفه عمله هذا ثمناً باهظاً • آ • • • يا لك من طفلة
صغيرة يا اليزابت بروكوفينا !

- أتراك تود أن أصفعك على وجهك ؟
- لا ، لا أحرص على ذلك البتة ! كل ما هنالك أننى ألاحظ أن
قراءة هذه الرسالة قد ملأت نفسك ارتياحاً ، وأنتك تخفين ذلك • فيم
تخجلين من عواطفك ؟ انك هكذا فى كل أمر •
صاحت اليزابت بروكوفينا تقول واثبة عن مكانها ، شاحبة اللون من
فرط الغضب :

- حذار أن تضع قدميك فى بيتى بعد اليوم ! اياك أن يظهر أنفك
فى عتبة بابى بعد الآن !

– وبعد ثلاثة أيام تسعين أنت الى ! ما هذا ؟ ما بالك تحمسين
خجلاً من أنبل عواطفك ؟ لم هذا ؟ انك لا تزيدين بذلك على أن تعذبي
نفسك •

– لن استديك ولو رقدت على فراش الموت • سأسى اسمك • بل
لقد نسيته •

قالت ذلك وأسرعت تبعد عن الأمير •

صرخ الأمير يقول لها :

– على كل حال ، لقد حُظر على أن أزورك •

– ماذا ؟ من حظر عليك ذلك ؟

– آجلايا ايفانوفنا هي التي تحظر على أن •••

– متى حدث هذا ؟ تكلم ، مالك لا تتكلم ؟ •••

– في هذا الصباح ، أرسلت تليفنى أن على أن لا أدوس أرض
داركم بعد اليوم قط •••

شدت اليزابت بروكوفينا • ومع ذلك أخذت تفكر •

ثم هتفت تقول فجأة :

– كيف ؟ من أرسلت لابلانك ذلك ؟ الصبي ؟ بكلام ؟

– بل برسالة •

– أين الرسالة ؟ اعطينها ! فوراً !

فكّر الأمير لحظة ، ثم سلّ من جيب صدرته مزقة ورق كان
مكتوباً عليها ما يلى :

« الأمير ليون يقول لا يفتش ، اذا كنت تنوى ، بعد كل الذى حدث ،

أن تدهشنى فتجىء تزورنا بدارنا ، فتق أننى لن أكون من أولئك اللواتى
ستسهرن زيارتك » •

« أجلايا إيبانتشينا »

لبثت اليزابت بروكوفينا شاردة الفكر لحظة ، ثم أسرع الى
الأمير ، فأمسكت يده ، واقادته صائحة وقد استولى عليها احتياج شديد
واضطراب كبير :

- حالا ! تعال ! فى هذه اللحظة نفسها !

- لكنك ستعرضينى لـ ...

- أعرضك لأى شئ ؟ ساذج ! غبى ! حتى لكأنك لست برجل !
هيا ! سأرى كل شئ بنفسى ، بعينى رأسى ...

- اسمح لى أن آخذ قبعتى على الأقل ...

- هى ذى ، قبعتك القذرة • هيا ! انك عاجز حتى عن اختيار قبعة
فيها ذوق ! ...

ثم تمت اليزابت بروكوفينا تقول وهى تجرُ الأمير فى اثرها دون
أن ترخيه لحظة واحدة :

- كُتبتُ ذلك ... كُتبتُ ذلك بعد المشهد الذى جرى منذ قليل
... كُتبه فى غمرة الاندفاع ...

ثم أضافت مخاطبة الأمير :

- لقد تحيزتُ لك منذ قليل • قلت صراحةً انك غبى لأنك
لا تجىء ... ولولا ذلك لما كُتبتُ اليك رسالة تبلغ هذا المبلغ من الحماسة،
وتبلغ هذا المبلغ من قلة الاحتشام ! ان هذا لهو قلة احتشام من جانب فتاة
نييلة المحند ، حسنة التربية ، ذكية ، نعم ذكية !
وتابعت تقول :

- همّ ... ولعلها مفاظة أيضاً من تقييك • ذلك جائز • ولكنها لا تدرك أنه لا يكتب مثل هذا الكلام لرجل أبله يفهم الأمور فهماً حرفياً كما حدث ذلك فعلاً •

ولاحظت أنها أسرفت في القول ، فصاحت تسأله :

- مالى أراك تمد أذنيك ؟ انها فى حاجة الى مهرّج من نوعك • لقد حرّمت من مثلك منذ مدة طويلة • ذلك هو السبب فى أنها تسعى اليك ! أنا مفتتة أعظم الافتان ، لأنها ستجملك أضحوكة ! ... انك لم تسرقها ! انها فى هذه اللعبة بارعة ! نعم بارعة ... حاذقة ! ...

شخصيات الرواية

آنانازى ايفانوفتش :

هو آنانازى ايفانوفتش توتسكى • راجع اسم توتسكى

آجلابا :

هى آجلابا ايفانوفنا ايبانتشين : بنت الجنرال ايفان فيدوروفتش
ايبانتشين واليزابت بروكوفينا • ويرد اسمها مصفرا : جلاشا •

آديلايد :

هى آديلايد ايفانوفنا ايبانتشين : بنت الجنرال ايفان فيدوروفتش
ايبانتشين واليزابت بروكوفينا •

آرداليون الكسندروفتش :

هو آرداليون الكسندروفتش ايفولجين • راجع اسم ايفولجين •

الكسندرا :

هى الكسندرا ايفانوفنا ايبانتشين : بنت الجنرال ايفان فيدوروفتش
ايبانتشين واليزابت بروكوفينا •

اليزابت بروكوفينا :

زوجة الجنرال ايبانتشين • تمت بقرابة بعيدة الى الامير ليون
نيقولايفتش ميشكين («الابله») • ويرد ذكرها فى الرواية بلقب
الجنرالة ، جريا على عادة القوم فى خلط رتبة الزوج على الزوجة أيضا،

اوجين بافلوفتش :

هو اوجين بافلوفتش - او بافلتش - رادومسكى . ضابط شاب
يود خطبة آجلايا .

ايبانتشين :

هو الجنرال ايفان فيدوروفتش (او فيدورتش) ايبانتشين . موظف
كبير ورجل أعمال . صديق آتاناڤى ايفانوفتش توتسكى وشريكه .
والجنرالة ايبانتشين ، زوجته ، تمت الى الأمير ميشكين (« الأبله »)
بقرابة بعيدة .

ايفان فيدوروفتش :

هو ايفان فيدوروفتش ايبانتشين . راجع اسم ايبانتشين .

ايفولجين :

هو آرداليون الكسندروفتش (أو الكسندرتش) ايفولجين . جنرال محال
على التقاعد ، سكير . زوج نينا الكسندروفنا وأبو الشاب جبريل
آرداليونوفتش وأخته باربارا آرداليونوفتش وأخيه الصبى كوكيا .

باراشكوف :

هى ناستاسيا فيليبوفنا باراشكوف . راجع اسم ناستاسيا فيليبوفنا .

باربارا آرداليونوفنا :

ابنة الجنرال السكير ايفولجين وزوجة ايفان بتروفتش بتتسين . ويرد
اسمها مصغرا : فاريا ، فاركا ، فارتشكا .

بارفيون سيميونوفتش :

هو بارفيون سيميونوفتش - أو سيميونتش - روجوين . راجع
اسم روجوين .

بافلتشيف :

هو نيقولا آندريفتش بافلتشييف ، المحسن الى الأمير ميشكين ، فقد أرسله الى سويسرا على نفقته لمعالجته من «البلاهة» .

بتسين :

هو ايفان بتروفتش بتسين . يعمل مرابيا . كان مستأجرا غرفة عند أسرة الجنرال ايفولجين ، وقد تزوج ابنته باربارا أرداليونوفنا .

بيلوكونسكايا :

الأميرة بيلوكونسكايا ، صديقة اليزابث بروكوفييفنا ومستشارتها وناصحتها .

توتسكى :

هو آتانايزى ايفانوفتش توتسكى . مالك أطيان ثرى . كان وصيا على ناستاسيا ايفانوفنا فأغواها واتخذها خليفة .

تيرنتيف :

هو هيبوليت تيرنتيف ، ابن مارتا بوريسوفنا خليفة الجنرال السكير ايفولجين . فتى مصدور . صديق كوليا .

جانيا :

راجع اسم جبريل أرداليونوفتش ، فان جانيا هو مصغر جبريل

جبريل أرداليونوفتش :

هو جبريل أرداليونوفتش - أو أرداليونتش - ايفولجين . ابن الجنرال السكير أرداليون الكسندروفتش ايفولجين . سكرتير الجنرال ايبانتشين . يسمى الى خطبة ناستاسيا فيليبوفنا . يهوى آجلايا ايفانوفنا ايبانتشين . يرد اسمه مصفرا: جانيا ، جانكا ، جانتشكا .

رادومسكى :

هو أوجين بافلوفتش رادومسكى • ضابط شاب • يود خطبة أجلايا •
راجع اسم أوجين بافلوفتش •

روجوين :

هو بارفيون سيميونوفتش - أو سيميونتش - روجوين : ابن
تاجر غنى ، ورث عن أبيه ثروة طائلة • أحب ناستاسيا فيليبوفنا
باراشكوف ، وأراد أن يتزوجها •

فاريا :

راجع اسم باربارا أرداليونوفنا فان اسم فاريا هو تصغير باربارا •

فردشتينكو :

شاب يسكن غرفة مستأجرة فى بيت أسرة ايفولجين ، ويتردد على
ناستاسيا فيليبوفنا •

فيرا لوكيانوفنا :

بنت لوكيان تيموفتش ليبديف ، ابنته الكبرى التى تتولى أمور
البيت •

كوليا :

هو نيقولا أرداليونوفتش ايفولجين • فتى فى المدرسة الثانوية •
الابن الأصغر للجنرال السكر ايفولجين • يرد اسمه مصغرا : كوليا •

كيلر :

ملاك • ليوتنان محال على التقاعد • أحد أفراد بيئة بارفيون
سيميونوفتش روجوين وناستاسيا فيليبوفنا • تعلق بعد ذلك
بالأمير ليون نيقولايفتش ميشكين •

ليبيديف :

هو لوكيان تيموفتشتش - أو تيموفشتش - ليبيديف • موظف يرتبط
بعصبة بارفيون سيميونوفتش زوجوين ، ثم يحوم حول الأمير ليون
نيقولايفتش ميشكين بالخدمة والمكر •

لوكيان تيموفتشتش :

هو لوكيان تيموفتشتش - أو تيموفشتش - ليبيديف • راجع اسم
ليبيديف •

ليون نيقولايفتش :

هو الأمير ليون نيقولايفتش - أو نيقولايشتش - ميشكين • انه بطل
الرواية الرئيسى : « الأبله » •

مارتا بوريسوفنا :

أرملة الكاتب تيرنتيف • خلية الجنرال السكر ايفولجين • أم الفتى
المسلول هيبوليت •

ميشكين :

هو الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين ، البطل الرئيسى فى الرواية ،
« الأبله » •

ناستاسيا فيليوفنا باراشكوف :

امراة كان آتانا زى ايفانوفتش وصيا عليها فى طفولتها ، ثم أغواها
وأصبح يعولها • رضيت الهرب مع بارفيون سيميونوفتش زوجوين
ولكنها لم تقبل أن تتزوجه •

نيقولا آندريفتش :

هو نيقولا آندريفتش بافلتشيف ، المحسن الى الأمير ميشكين . راجع
اسم بافلتشيف .

نينا الكسندروفنا :

زوجة الجنرال السكير آرداليون الكسندروفتش ايفولجين . أم
جبريل وباربارا وكوليا . تاجر غرنا في بيتها لتستطيع أن تعمل
الأسرة .

حواش

- الصفحة
- ٧ ★ « قطار وارسو » : بقطار وارسو انما كان يصل المسافرين الى بطرسبرج آتين من الخارج ، من فينا وبرلين (عن طريق آيدكونن) .
- ٨ ★ « آيدكونن » : آخر محطة بروسية على حدود روسيا .
- ١٤ ★ « فهو اسم تاريخي » : ورد ذكر هذا الاسم مرة واحدة في « تاريخ كارامازين » ، في القرن التاسع عشر ؛ غير ان هذه الأسرة مالميت ان انطفأت . ولعل دوستويفسكي قد اختار هذا الاسم - المشتق من كلمة « ميشكا » ومعناها فأر صغير - اشارة الى ما يتصف به طبع هذه الشخصية من تواضع وامحاء .
- ١٤ ★ « كارامازين » (نيقولا ميخائيلوفتش كارامازين) : مؤرخ روسي شهير (١٧٦٦ - ١٨٢٦) ، هو مؤلف كتاب « تاريخ الدولة الروسية » الذي يقع في اثني عشر جزءا . وقد ترجم الكتاب الى الفرنسية بين ١٨١٩ و ١٨٢٦ .
- ١٨ ★ راجع حاشية الصفحة ٣٧٨ .
- ٢١ ★ « يستحق النفي الى سيبيريا » : ان كل جرم فيه خرق للمقدسات كانت القوانين تعاقب مرتكبه عقابا صارما ، وكانت سرقة الأشياء الخاصة بالعبادة تدخل في حكم هذا الجرم .
- ٢٤ ★ « آرمانس ، كورالي » : لا بد انهما من النساء اللواتي كانت مرموقات في المجتمع ، وأنهما من أصل فرنسي .
- ٢٦ ★ « انها أميرة » : ليست ناستاسيا فيليبوفنا أميرة ، فهذه مبالغة من زاليجيف .

- ٣٣ * « خادم أمين ، نعم ، ولكن لا متملق دنىء » (وفى بغير تملق) :
مبدأ كان الجنرال أراكتشيف الذى خلع عليه بطرس الأول
لقب بارون ، سنة ١٧٨٩ ، قد اختاره شعارا له .
- ٣٤ * « صاحب السمو » ان هذا الكونت الذى لا يسميه المؤلف والذى
سيرد ذكره فيما بعد قد يكون رئيس الجنرال ايبانتشين .
- ٣٩ * « فى دير أجنبى . . » من الامثال الروسية السائدة : « فى دير
أجنبى لا تحاول أن تفرض قاعدتك » .
- ٤١ * « أرداليونتش » : النطق الشعبى لاسم النسبة الى الاب :
آرد اليونوفتش . وسوف يلاحظ القارى أن اسم هذا الشخص
من شـخصـ الرـوايـة يـرد تـارة أرداليونتش ، وتارة
آرداليونوفتش .
- ٤٣ * منذ اعلان اصلاح ٢٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٦١ ، أصبحت
جلسات المحاكم الروسية علنية ، ودخل نظام المحلفين فى جميع
القضايا الجنائية . وكان دوستوفسكى يهتم كثيرا بهذه المحاكم
الجديدة .
- ٤٣ * « من ذلك أن عقوبة الاعدام قد ألغيت » : الواقع ان عقوبة
الاعدام فى جميع قضايا الحق الصام قد ألغتها الامبراطورة
اليزابت ضمنا سنة ١٧٤١ ، وصراحة ، بقانون ، سنة ١٧٥٤ ،
لكن عقوبة الاعدام لم يتم الغاؤها فى الجرائم السياسية . وفى
السادس من ايلول سبتمبر ١٨٦٦ مثلا تم تنفيذ عقوبة الاعدام
شنقا فى كاراكوزوف الذى قام بمحاولة مخففة لاختيالى الكسندر
الثانى أثناء نزهة فى « حديقة الصيف » . وقد شنع على رأى
من المشاهدين فى ميدان سمولنسكى بمدينة بطرسبرج .
وهكذا نرى أن دوستوفسكى يسوق هنا نصف الحقيقة .
- ٤٤ * « نعم ، رأيت اعداما فى فرنسا بمدينة ليون » : كانت اعدامات
المجرمين فى فرنسا كثيرة وعلنية . وبقي هذا النظام حتى نهاية
القرن التاسع عشر . وقد وصف تورجينف تنفيذ اعدام من هذه
الاعدامات فى مقالة له بعنوان «تعذيب ترويمان» .

- ٤٦ * «ربما كان يوجد في هذا العالم انسان حكم عليه بالموت ٠٠٠ :
ان دوستويفسكى يتذكر هنا الدقائق الرهيبة الفظيعة التي
قضاها هو نفسه مهياً للاعدام قبل وصول قرار العفو عنه .
- ٤٩ * « جانيا » : تصغير اسم جبريل .
- ٦٦ * « ان المطران الذليل بافتوس قد وقع هذا بخط يده » : هذا
المطران هو مؤسس منسك في مقاطعة كوستروما ، في القرن
الرابع عشر . وقد نشر توقيعه المؤرخ وعالم الآثار ميشيل
بوجودين في البوم من جزاين بعنوان « نماذج من الخطوط
السلافية الروسية » (موسكو ، ١٨٤٠ - ١٨٤١) .
- ٧٠ * « فردشتينكو » ان الاسماء التي تنتهى بـ « ينكو » اكرانية الاصل .
- ٨٠ * « اوترادانويى » : كلمة مشتقة من اوترادا ، ومعناها
وسط بين معنى كلمة « راحتي » ومعنى كلمة « لذتي » .
- ١١١ * « وصف الجنوب والمشرق منذ زمن طويل ٠٠٠ » : استشهاد
غير دقيق كل الدقة بقصيدة للشاعر ليرمونتوف : « الصحفي
والقارىء والكاتب » .
- ١١٤ * « هو رجل اقتيد مع رجال آخرين محكوم عليهم بالاعدام ، وقرىء
عليهم قرار المحكمة باعدامهم رمياً بالرصاص لجريمة سياسية ٠٠٠ :
ان آنا ، أرملة دوستويفسكى ، قد كتبت تقول : « ان ذكريات
كل ماشعر به فيدور ميخائيلوفتش دوستويفسكى اثناء الشروع
في تنفيذ حكم الاعدام في جماعة بتراشفكى كانت تؤله كثيراً ،
فلا يتحدث عنها الا في النادر . لكننى سمعته يرويها ثلاث مرات
بهذه التعابير نفسها التي ترد في رواية « الأبله » .
- ١١٥ * « كان سيموت وهو في السابعة والعشرين من عمره ٠٠٠ » :
لقد ولد دوستويفسكى في ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٢١ ،
وكان عمره ثمانية وعشرين عاماً حين صدر الحكم عليه بالاعدام .
- ١٢٢ * « لقد رأيت في مدينة بال ، منذ مدة غير طويلة ، لوحة
مماثلة ٠٠ » : ان دوستويفسكى قد زار متحف مدينة بال في

شهر آب (أغسطس) من سنة ١٨٦٧، فأثرت فيه بعض اللوحات تأثيرا كبيرا . وهو هنا يشير الى لوحة هانس فريس «قطع رأس القديس يوحنا المعمدان» (١٥١٤) التي تمثل النبی وهو ما يزال حيا تحت السيف الذي أشهره الجلاذ .

١٤٤ ★ «مادونا هولباين» : كان دوستويفسكى سنة ١٨٦٧ قد أعجب فى معرض درسدن باللوحة التي رسمها هولباين الشاب والتي سماها «مادونا مع أسرة جان ماير» (١٥٢٥) . ولقد كانت اللوحة الاصلية موجودة فى متحف دارمشتات . ولكن كان المظنون فى ذلك العهد أن لوحة درسدن هي اللوحة الاصلية التي رسمها هولباين .

١٧٠ ★ «كوليا» : تصغير اسم نيقولا .

١٨٠ ★ كان كل لواء من ألوية الجيش بروسيا يسمى باسم المدينة أو المقاطعة التي أنشئ فيها أول ما أنشئ ، وذلك بالإضافة الى اسمه الرسمي . فكذلك يقال لواء فاسيلكوفسكى أو لواء بيلوميرسكى .

١٨٢ ★ «مدينة تغير» : مدينة بشمال روسيا ، على خط موسكو - بطرسبرج . و «اليزابتجراد» مدينة بالجنوب فى السهوب أنشئت فى عهد الامبراطورة اليزابت .

١٨٤ ★ «فوج مدفعية نوفو زمليانسكى» : الواقع أن هذا الفوج لا وجود له . وقد اخترعه الكاتب المسرحى جريبويديف فى حوار الكولونيل سكالوزوب مع نفسه ، فى مسرحية «كثير من الذكاء ضرر» . فهذا الاسم الوهمى يشير الى ما يتصف به كلام الجنرال ايفولجين من أنه أخيلة كاذبة .

٢٠٥ ★ «حصار كارس» : ان حصار قلعة كارس التركية بالقوقاز قد وقع سنة ١٨٥٥ ، وانتهى باستسلام القلعة للجنرال مورافيف فى السادس من شهر تشرين الثانى نوفمبر ١٨٥٥ بعد أن نفدت مؤن المحاصرين نفاذا تاما .

- ٢٠٥ * « جريدة الاستقلال » : هي جريدة «الاستقلال البلجيكي» التي كانت تصدر في بروكسل منذ سنة ١٨٣٠ . وكان دوستوفسكي يقرأ كثيرا هذه الجريدة الحسنة الاطلاع ، ولا سيما في السياسة .
- ٢٢٦ * « الحفلة المقنعة » : مسرحية كتبها ليرمونتوف في مطلع صباه .
- ٢٤٢ * « أرسل بيروجوف برقية الى باريس » : كان نيقولا بيروجوف (١٨١٠ - ١٨٨١) ، وهو أشهر الجراحين الروس في ذلك الاوان ، رئيسا للخدمة الطبية أثناء حصار سيبياستوبول (١٨٥٤ - ١٨٥٥) . وكان أوجوست فيلاتون (١٨٠٧-١٨٧٣) ، وهو جراح جاريبالدي ونابوليون الثالث ، يتمتع بشهرة عالمية .
- ٢٤٩ * « لينوتشكا » : تصغير اسم هيلينا .
- ٢٥١ * « تقضى بعض الوقت » : بالفرنسية في الاصل .
- ٢٥٢ * « أب بمدينة موسكو يوصي ابنه بأن لا يصده شيء في سبيل الحصول على مال » : في شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٨٦٦ ارتكب طالب اسمه دانييلوف جريمة قتل المراهب بوبوف وخادمته بموسكو ليستولى على المال . وقد أشارت الصحف حينذاك الى الشبه بين راسكولينكوف بطل رواية « الجريمة والعقاب » التي كتبها دوستوفسكي وسبق نشرها وبين فاعل هذه الجريمة . وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٧ ، شهد شخص اسمه جلاسكوف ، وكان مع القاتل في السجن ، شهد بأن دانييلوف قد روى له ان أباه هو الذي حرضه على ارتكاب الجريمة . وكان الاب قد قال لابنه في الحقيقة ان عليه ان لا تصده أية عقبة ، وان عليه لتحقيق سعادته (وهي زواج مرتقب) أن يحصل على المال ولو ارتكب في سبيل ذلك جريمة . وقد اهتم دوستوفسكي كثيرا بهذه المحاكمة فتحدث عنها في روايته الجديدة هذه « الأبله » .
- ٢٦١ * هويغان كيرلوف ، الكاتب الروسى الشهير الذى كتب قصصا أبطالها حيوانات ، على طريقة لافونتين . والقصة المشار اليها هنا هي قصة الحمار الذى لبط أسداً دب فيه الهرم .

- ٢٧١ ★ « من يخشى الذئب لا يذهب الى الغابة » : من الامثال الروسية السائرة .
- ٢٨٥ ★ « اورىكا » : كلمة من اليونانية القديمة معناها « وجدتتها » . وينسب الى ارخميدس انه حين اكتشف أحد القوانين الفيزيائية وهو بالحمام ، خرج يركض صارخا من فرحته « اورىكا ، اورىكا » اى وجدتتها ، وجدتتها .
- ٢٨٨ ★ « طلب نقله الى القوقاز » : كانت بلاد القوقاز فى ذلك العهد مناطق غير آمنة ، بسبب حروب مستمرة ناشبة مع الثوار فى الجبال . فكانت لذلك تعد منفى رسميا للعسكريين والمدنيين ، ومكانا يختاره ويصطفيه اليانسون والشعراء (كذا) .
- ٢٩٤ ★ « كاتيا » : تصغير اسم كاترين .
- ٢٩٧ ★ «مارلنسكى» : الاسم الادبى المستعار للكاتب الديسمبرى ١٩٠٧ . يستوحى (١٨٠٧ - ١٨٣٧) الذى نفى الى القوقاز جنديا بسيطا ، فكتب هناك سلسلة من الروايات التاريخية بأسلوب متقعر غامض .
- ٣٠١ ★ « جريدة أنباء البورصة » : هى جريدة يومية كانت تصدر حينذاك بمدينة بطرسبرج .
- ٣٠١ ★ « باشا » : تصغير اسم بيلاجيا أوباراسيفا .
- ٣٠٤ ★ « فاسيليفسكى » : (او فاسيلي اوستروف) ، حى من أحياء العاصمة يقع فى جزيرة .
- ٣٠٥ ★ « أو هم يأخذون سكينا فيلفونها بحريير ١٠٠٠ » : فى سنة ١٨٦٦ دعا تاجر شاب من موسكو اسمه مازورين ، دعا الى بيته رفيقا له هو بائع الجواهر كالميكوف وقتله . ان هذا التاجر الشاب المنحرف الذى كان قد ورث مليونين ثم أتلّفهما ، قد اتخذ دوستوفسكى نموذجا نقل عنه بعض سمات شخصية روجوين .
- ٣١٧ ★ « شكرا » بالفرنسية فى الاصل .

- ٣١٨ * « ايكاتيرنهوف » : قرية تقع فى ضواحي بطرسبرج ، مع قصر صيفى للامبراطورة كاترين الثانية . وكان الناس يذهبون الى هناك فى الليل ينشدون اللهو والتسلية .
- ٣٤٠ * «من ذلك مثلا أن الذين ادعوا أن لهم على التاجر المتوفى ديونا قد أبرزوا للمطالبة بحقوقهم مستندات يمكن انكارها أو اهمالها» : تروى زوجة دوستويفسكى أن دوستويفسكى نفسه قد دفع أموالا لدائنين جاءوا يطالبونه بعد وفاة أخيه بسداد ما كان على أخيه من ديون ، وكانوا لا يملكون الا مستندات « يمكن اهمالها » ، أو كانوا لا يحملون مستندات البتة .
- ٣٤٣ * « أن أميرا اسمه « شتش » : هذه هى الشخصية الوحيدة التى لا يذكر المؤلف اسمها كاملا بل يقتصر على الحرف الاول من الاسم (ان فى الكتابة الروسية حرفا واحدا ينطق «شتش»).
- ٣٤٣ * ان القوانين الاصلاحية التى صدرت فى أول كانون الثانى (يناير) ١٨٦٤ ، قد أدخلت الى الاقاليم نظاما للحكم المحلى . فكان النبلاء والفلاحون ينتخبون نوابا يتشكل منهم « زمثوف » له ميزانيته الخاصة ، ويعنى بالتعليم والخدمات العامة وغيرها من شئون الاقليم .
- ٣٤٤ * « أوجين بافلوفتش » : سيرد اسم هذا الرجل فيما بعد ، أوجين بافلوفتش رادومسكى .
- ٣٤٤ * «من ضباط الامبراطور» : لقب فخرى يمنح لصفوة من الضباط يعرفهم الامبراطور شخصا .
- ٣٤٥ * « حى اسماعيلوفسكى » : حى فى وسط بطرسبرج سعى باسم التكنات التابعة للواء الحرس اسماعيلوفسكى .
- ٣٤٩ * «دون كيشوت دولامانش» : كان دوستويفسكى يقدر كتاب هذا الكاتب الاسباني العظيم ، سرفانتس ، قدرا كبيرا . وقد كتب يقول فى «يوميات كاتب» (أذار ١٨٧٦) : «ليس فى العالم كتاب أعظم ولا أقوى من هذا الكتاب . انه حتى الآن آخر وأكبر كلام

قاله الفكر الانساني ، وهو الذع سخريه مرة استطاع انسان
أن يعبر عنها • « حتى لقد رأى بعضهم أن ثمة شبهة بين شخصية
الفارس الحزين دون كيشوت وبين شخصية الامير ميشكين •

★ ٣٥١ « بافلوفسك » : قرية في جنوب بطرسبرج ، وهي مصيف
للمجتمع الراقي ، فيها عدد كبير من الفيلات و « فوكسهول »
تعزف فيه موسيقى سمفونية كان الناس يقدرونها قدرا كبيرا •

★ ٣٥٢ « حى الرمال » : حى فى ضاحية متواضعة شرق العاصمة ،
تخترقه شوارع عديدة •

★ ٣٥٤ « صاحب السمو » : الواقع أن لقب صاحب السمو باللغة
الروسية لا يخاطب به الا أمراء الاسرة المالكة • وكان الاول أن
ترجم الكلمة هنا بقولنا « الامير المعظم » أو « الامير الميجل » •

★ ٣٥٦ « تانيا » : تصغير تاتيانا •

★ ٣٥٦ « ليوبوتشكا » : تصغير الاسم النسوى ليوبوف ، ومعناه
« الاحسان » بالمعنى المسيحى ، وهو اسم رائع جدا كالاسمين
الآخرين اللذين يعبران عن فضيلتين مستمدتين من اللاهوت
وهما « فيرا » (الايمان) و « نادجدا » (الامل) • والنساء الروسيات
اللواتي يحملن هذا الاسم (مثل بنت دوستوفسكى نفسه)
يحولنه الى اسم ايميه Aimée الفرنسى حين يذكرنه
بالفرنسية •

★ ٣٥٦ « قاتل اسرة جيرامين » : فى اول آذار (مارس) سنة ١٨٦٨ قام
طالب مدرسة ثانوية بمدينة تامبوف ، واسمه فيتولد جورسكى ،
وهو بولندى الاصل ، قام بقتل ستة أشخاص فى آن واحد هم :
التاجر جيرامين وأمه وابنه واحدى قريباته وخادمين • وقد اهتم
دوستوفسكى اهتماما شديدا بهذه الجريمة وأرجعها الى تأثير
النظريات العدمية •

★ ٣٥٧ ان القضايا الصغيرة ، مدنية كانت أو جزائية ، انما تنظر فيها
محكمة الصلح فى كل حى من أحياء المدينة ، (القانون ١٨٦٤) ،
حتى اذا استؤنفت نقلت الى مجمع قضاة الصلح الاقليمى •

- ٣٥٨ ★ ان هذه العبارة الشهيرة قد وردت في القرار الامبراطوري الصادر في ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) مقدمة للتشريعات القضائية . وقد نقشت بأحرف من ذهب على لوح من الرمر في إحدى قاعات قصر العدل بمدينة سان بطرسبرج .
- ٣٦٠ ★ المعنى الحرفي للكلمة بالكى هو « العصى » ، وانلعبه لعبة قديمة من ألعاب الورق .
- ٣٦٠ ★ « الكفاس » : شراب مسكر بخس الثمن مستخرج من الخبز الاسود أو من الفاكهة .
- ٣٦٢ ★ « كونتيسة بارى » : هي الكونتيسة جان ماري دى بارى (١٧٤٣- ١٧٩٣) ، أثيرة لويس الخامس عشر ، وقد أعدمت بالمقصلة في عهد الارهاب . و « المذكرات » المزورة التي نسبت اليها ونشرت سنة ١٨٢٩ - ١٨٣٠ يستفيد منها دوستوفسكى هنا لعرض بعض وقائع حياتها .
- ٣٦٣ ★ « ابنة عمى » : بالفرنسية في النص الاصلى .
- ٣٦٤ ★ « لحظة واحدة أخرى يا سيدى الجلال ، لحظة واحدة أخرى » : بالفرنسية في النص الاصلى . وان هذه الكلمات التي نطقت بها الكونتيسة دى بارى على المقصلة قد وردت فى المجلد الثالث عشر من «القاموس الموسوعى» الروسى الذى أصدره بلوشار سنة ١٨٤٤ فى بطرسبرج وكان دوستوفسكى يقرؤه .
- ٣٦٤ ★ « عذاب » : أستعمل المؤلف كلمة misère الفرنسية التي درجت على ألسن عامة الروس بمعنى العذاب .
- ٣٧٠ ★ « نيقولا آردا ليونوفتش » : ان ليبيديف يقصد هنا كوليا ، وليس مالوفا أن يسمى طفل أو مراهق بهذه الطريقة المفخمة . أى أن يذكر اسمه واسم نسبته الى أبيه .
- ٣٧٢ ★ « ثمنية قمح بدينار ، وثلاث ثمنيات شعير بدينار » : رؤيا القديس يوحنا (الاصحاح السادس ، ٦) رؤيا القديس يوحنا (الاصحاح السادس ، ٨) .

٣٧٤ * ان الحفلات الموسيقية التي كانت تقام في حدائق محطة بافلوفسك كانت تتمتع بشهرة كبيرة ، وكانت ملتقى أبناء الطبقة الراقية .

٣٧٨ * « الخصيان » : Scopets ، أى مخصى ، وهو عضو من أعضاء تلك الملة الدينية التي يخصى أفرادها أنفسهم تعصبا ، وهم يمارسون مهنة الصرافين في أكثر الاحيان .

٣٧٨ * « ... » بورجوازي فخرى وراثي : ان الاكثرية الكبرى من التجار ، في أواسط القرن التاسع عشر ، انمسا كانوا فلاحين اغتنوا من التجارة . فاذا انقطع هؤلاء عن دفع رسوم الانتساب الى طبقة التجار ، عادوا يهبطون الى طبقة القرويين . وقد أسرع المشرع الى ملاقة هذا الشعور الطبقي الذي أخذ ينشأ في ميدان التجارة ، فأنشأ فئتين مستقلتين عن دفع الرسوم ، هما : « فئة البورجوازيين العاملين » و « فئة البورجوازيين الفخريين الوراثيين » .

٣٨٣ * هوسر جي ميخائيلوفتش سولوفييف (١٨١٠ - ١٨٧٩) ، المؤرخ الروسى الكبير ، أعظم مؤلفاته كتاب «تاريخ روسيا» الذى ظهر في ٢٩ مجلدا من ١٨٥١ الى ١٨٧٩ ، مجلدا كل عام ، وأعيد طبعه في سبعة مجلدات سنة ١٨٩٧ . وكان دوستوفسكى شديد الإعجاب بهذا الكتاب ، وقد حمل عددا من مجلداته حين سافر الى الخارج سنة ١٨٦٧ .

٣٨٤ * راجع حاشية الصفحة ٤٨١

٣٩١ * « انه لا يناسبك أكثر مما يناسب البقرة أن يوضع على ظهرها سرج » : من التعابير الروسية السائرة .

٣٩٢ * « قصة بابا غضب من امبراطور » : اشارة الى امبراطور ألمانيا هنرى الرابع الذى جاء للكفارة أمام البابا جريجوار السابع سنة ١٠٧٧ .

٣٩٦ * « ترسم اشارة الصليب باصبعين » : هذه طريقة ملة « قدماء المؤمنين » في رسم اشارة الصليب .

٤٠٤ ★ « منسوخة عن لوحة هانس هولباين » : كان دوستويفسكى قد رأى سنة ١٨٦٧ بمدينة بال ، لوحة هولباين «المسيح في اللحد» (١٥٢١) ، فأنثرت فيه واقعيتها تأثيرا أليما رهيبا ، ومما يروى عنه أنه قال لامراته : « ان لوحة كهذه اللوحة خليفة بأن تفقد المرء إيمانه » .

٤٠٦ ★ ٠٠٠ رجل اسمه س ٠٠٠ : من الجائز أن يكون دوستويفسكى حين وصف هذه الشخصية الواسعة الثقافة التي لا تؤمن بالله بل تذهب مذهب الألحاد ، قد أراد الإشارة الى نيقولا سبيشنييف ، عضو حلقة بتراشفسكى ، الذى سيأخذ دوستويفسكى فيما بعد نموذجا لتصوير ستافروجين بطل روايته « الشياطين » .

٤٠٩ ★ « تريد أن نتبادل صليبينا ؟ » : كان كل روسى أرثوذكسى يحمل في عنقه صليبا منذ ولادته ، صليبا من معدن أو خشب . وتبادل الصليبين بين شخصين طقس من الطقوس الدينية يعنى خلق « أخوة » روحية .

٤١٨ ★ «لن يكون يومئذ زمان» : رؤيا يوحنا ، الاصحاح العاشر ، ٦ .

٤٢١ ★ « سلاح يطلب صنعه وفقا لرسم معين ، وستة أشخاص يذبحون دفعة واحدة ٠٠ » : هنا يتذكر المتكلم قضية قاتل أسرة جيرامين (حاشية الصفحة ٣٧٢) . ان الطالب الثانوى فيتولد جورسكى قد تسلم بسدس هياه سلفا ، وكان قد أوصى حدادا بأن يصنع له سلاحا خاصا زاعما له انه فى حاجة اليه لألعاب رياضية .

٤٢٦ ★ «محطة نيقولا» : ان السكة الحديدية التى تصل بين بطرسبرج وموسكو والتى أنشئت فى عهد نيقولا الاول ، كانت تحمل اسم نيقولاييفسكى ، وهو أيضا اسم محطتى نهايتى هذا الخط فى بطرسبرج وفى موسكو .

٤٢٦ ★ « محطة خط تسارسكوى » : ان خط تسارسكوى - سيلو هو أول خط من خطوط السكة الحديدية فى روسيا ، وقد دشمن سنة ١٨٣٥ وكان يمر بضاحية بافلوفسك .

- ٤٣٧ ★ « الذكرى الالفية لروسيا » : ان ذلك اليوم من صيف ١٨٦٢ ،
الذى شهد احتفالات فخبة هو يوم انقضاء ألف عام على وصول
الامير الاول روريك الى نوفوجورود سنة ١٠٦٢ ، وقد أقيم نصب
تذكاري بتلك المدينة في ذلك الحين ، ولا يزال قائما فيها الى
الآن .
- ٤٤١ ★ « لا تنزل الماء ما لم تضمن المخرج » : من الامثال الروسية
السائرة .
- ٤٥٠ ★ « الفارس الفقير » : قصيدة للشاعر بوشكين نظمها سنة ١٨٣٠
وفيها يتحدث عن فارس من القرون الوسطى اختار مريم العذراء
« سيدة » له .
- ٤٥٥ ★ ان « الفارس الفقير » قد اختار هذه الاحرف الثلاثة شعارا له
« آ.م.د » ، وهى الاحرف الاولى من ثلاث كلمات لاتينية معناها
«سلاما أم الرب» . ولكن آجلايا تبدل حرف «د» بحرف «ب» ،
وهو الحرف الاول من اسم عائلة ناستاسيا فيليوفنا باراشكوف.
وبعد قليل ستحل محل «آ.م.ب» الاحرف «ن.ف.ب» صراحة .
- ٤٥٨ ★ كان لا يجوز للعسكريين العاملين أن يرتدوا الثياب المدنية الا
ليسافروا الى الخارج .
- ٤٦٣ ★ « على المرء أن لا يحطم الكراسى » : تعبير مستمد من مسرحية
جوجول : «المفتش العام» ، وفيها يظهر (الفصل الاول ، المشهد
الاول) أستاذ للتاريخ يؤخذ عليه انه يتحمس الى حد « تحطيم
الكراسى» حين يتكلم عن الاسكندر الكبير . لذلك فان تعبير «تحطيم
الكراسى» جرى على اللسان اشارة الى بذل طاقة فى غير محلها .
- ٤٦٦ ★ « طبعة آننكوف » : هى واحدة من تلك الطبعات النقدية الاولى
لأعمال الشاعر الكبير ، وقد أصدرها آ. آنكوف بين سنة
١٨٥٥ و ١٨٥٧ .

- ٤٧٠ ★ « عديميون » : ان هذه الكلمة التي يقال ان تورجنيف هو أول من وضعها في الاستعمال كانت ما تزال شيئاً جديداً .
- ٤٧٠ ★ «أن يبرهنوا على أن بوشكين لا نفع فيه» : اشارة الى مساجلات مدوية قامت سنة ١٨٦٥ ، وفيها سفه الناقد العدمي بيسارييف تمجيد الشعر ، وشن على ذكرى بوشكين هجوماً عنيفاً .
- ٤٧٠ ★ « جورسكي ودانييلوف » : القاتلان اللذان ورد الحديث عنهما في حاشية الصفحة ٣٥٦ وحاشية الصفحة ٢٥٢ .
- ٤٧٧ ★ « جريدة اسبوعية ساخرة . . . » : ان المقالة الممتدة عن الصفحة ٤٧٨ الى الصفحة ٤٨٦ من هذه الطبعة العربية لرواية «الأبله» تحاكي ما كان ينشره صحفي مغمور اسمه ستوبانوفسكي في المجلة الاسبوعية الهجائية «الشرارة» ، التي صدرت ببطرسبرج من سنة ١٨٥٩ الى سنة ١٨٧٩ .
- ٤٧٩ ★ « لاحظ الا لفئة من الناس » : ان أصل المثل هو « لاحظ الا للأغبياء » وهذا يحدد الفئة المقصودة هنا .
- ٤٧٩ ★ « فالمرء لا يكاد يصدق هذا الامر رغم انه قريب العهد » : بيت من الشعر مستمد من مسرحية جريبويديف الهزلية الشهيرة « كثير من الذكاء ضرر » . والاشارة الى همجية العهد الذي لم ينقض عليه زمن طويل .
- ٤٨١ ★ « السحابة » (١٨١٥) : واحدة من أجمل الحكايات الخرافية التي كتبها الكاتب الروسي الكبير كريلوف .
- ٤٨١ ★ ملة «الراسكولنيك» : هي ملة «قدامى المؤمنين» ، ويرجع عهدها الى الانشقاق الديني الذي نشأ في أعقاب اصلاح الشعائر الدينية على يد البطريرك نيكون .
- ٤٨٥ ★ « ليوبا » : تصغير كلمة « الطرح » . ان دوستويفسكي يحور هنا فقرة من مقالة كتبها عنه هو في إحدى المجلات ناقد تافه بعنوان «فيديا المفرور» وفيها يصور دوستويفسكي بأنه يعبت بقصة جوجول « المعطف » ويضيع وقته في سفاسف وترهات .

- فهذا الناقد هو الذى يصفه دوستوفسكى هنا بأنه أحد مشاهير شعرائنا الساخرين المشهورين .
- ٤٨٥ ★ « شنايدر » : اسم البروفسور السويسرى الذى كان يعالج « الأبله » بسويسرا .
- ٥٣٤ ★ « أيها الأمير العزيز » : بالفرنسية فى الاصل .
- ٥٤١ ★ « الاميرة ماريا الكسييفنا لن تقول عن هذا شيئا » : اشارة الى حوار فاموسوف مع نفسه فى مسرحية جريبويدوف الشهيرة : « كثير من الذكاء ضرر » فى المشهد الاخير من المسرحية نرى الشخص يصيح قائلا : « آه ٠٠٠ رباه ٠٠ عسى تقول الاميرة ماريا الكسييفنا ؟ »
- ٥٥٠ ★ « كوبر » ، « بيسكوب » : لا بد أنهما مرابيان .
- ٥٦٥ ★ « للاسقف الفرنسى بوردالو » : ان بوردالو واعظ فرنسى يسوعى (١٦٣٢ - ١٧٠٤) له خطب مشهورة أعجبت الناس ببلاغتها وقوة حجتها . فاما ان نفترض هنا أن ليبيديف ، الذى كان يحب الحديث فى موضوعات غير متوقعة ، قد تكلم فعلا عن بوردالو ، واما أن نفترض أن كيللر يتلاعب هنا بالالفاظ مشيرا الى الخمرة الفرنسية المشهورة ، خمرة « بوردو » ، أو الى الكلمة الروسية بوردو وهى اسم مزيج من الشراب المسكر . أما اطلاق لقب الاسقف على الواعظ الفرنسى المشهور فهو محض خيال .
- ٥٨٥ ★ ان بوردوفسكى مدين لا بمائتى روبل ، بل بمائتين وخمسين ، لانه لم يرد الا مائة (راجع الصفحة ٢٣٩) .

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذلين المهانين" فاذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقا أخذ بعضهم يشتر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسير أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وأدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."
ألكسندر في سربوفيف